

منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية
سلسلة السير والتراجم (9)

# ذكريات وخواطر

## مصطفى فوزي السراج

الحاج مصطفى يتحدث ...

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
2005

مسيرة خمسين عاما لمواطن ووطن خطوة خطوة على درب الزمن

# ذكريات وخواطر

مسيرة خمسين عاماً لمواطن ووطن

خطوة خطوة على درب الزمن

**2005 ميلادية**

مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية

**طرابلس - ليبيا**

رقم الإيداع : **2005/6735** دار الكتب الوطنية/ بنغازي

ردمك : **ISBN 9959-23-091-0**

**الوكالة الليبية للترقيم الدولي الموحد للكتاب**

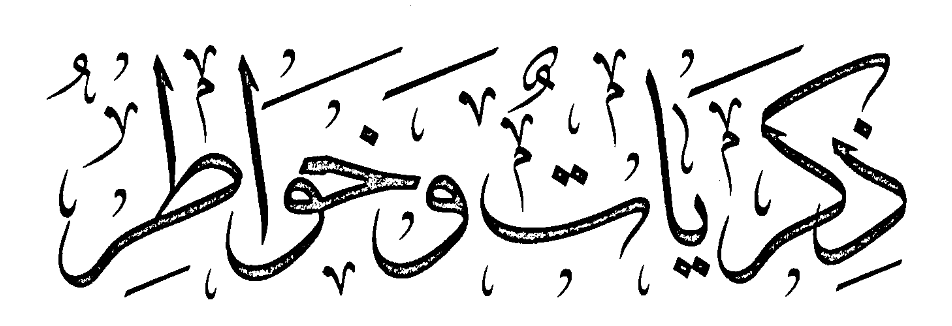
**بنغازي - ليبيا**

هاتف : **9090509 - 9096379 - 9097074**

بريد مصور : **9097073**

البريد الالكتروني : **nat- lib- libia @ hotmil.com**

منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية




مصطفى فوزي السراج



الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

2005

# بسم الله الرحمن الرحيم [1]

## المقدمة

منذ فترة غير قصيرة، كانت تخامرني فكرة تسجيل ما يمكنني تسجيله من ذكريات مررت بها عبر سنوات عمري الذي تجاوز الآن ثمانين عاما. وكثيرا ما ترددت في ذلك !!!

ماذا أكتب ؟ولمن أكتب ؟

هل أكتب لنفسي؟ هل أكتب لأفراد عائلتي ؟

هل أكتب للناس عامة؟ وما شأن الناس بذكرياتي، وما شأنهم بحياتي الخاصة؟

أنا لست بالزعيم أو السياسي الكبير الذي ينشر ذكرياته ليوضح حقائق تاريخية هامة كانت خافية، ويهمه إعلانها على الناس.

وأنا لست بالعالم أو المفكر الكبير الذي أضاف شيئا جديدا للعلم، أو زاد في إثراء فرع من فروع الثقافة أو الفن.

أنا لست بشيء من كل ذلك!

إذا فلماذا أكتب ذكرياتي؟ ما قيمتها ؟ ما أهميتها ؟

تمر فترة من الزمن، وتطفو الفكرة على السطح من جديد. ماذا أكتب؟ هل أدون خصوصياتي؟ ولدت في سنة كذا ودرست في المدرسة الفلانية، وشغلت الوظيفة العلانية، وتزوجت، وأنجبت في سنة كذا.

ما أهمية ذلك ؟

لكل إنسان ذكريات، فهل كل إنسان مطالب بكتابة ذكرياته ؟ يا مصطفى استرح و أرح مالك والذكريات.

فكل الناس يولد ويدرس ويعمل ويتزوج وينجب ويموت، ما الغرابة في ذلك؟ وكبر الأبناء، وتفرعت العائلة، والنشء الجديد يجهل كثيرا حتى الأمور الأساسية الخاصة بالعائلة، ولا يعرفون شيئاً عن الأمور العامة التي عشتها طولاً وعرضاً، وكانت بالنسبة لي بديهية، فكيف لا يعرفها الآخرون ومن بينهم أقرب المقربين لي، أبنائي ؟ وضع غريب!.

وكان عدد الراغبين في معرفة شؤون العائلة بالمعنى الضيق والواسع، يزداد عبر السنين، وعدد الذين يريدون الاطّلاع على ما كان من حوادث وأحداث على الساحة المحلية الضيقة، والساحة الوطنية الأرحب، يتكاثر، والإلحاح على مصطفى لكتابة مذكراته يزيد، والضغط يشتد يوما بعد يوم، من الأقارب أولاً، ثم اتسعت الدائرة، فصار كثير من الأصدقاء، يتساءلون في البداية، ثم يلحون.

وصادف أن كنت في صيف سنة 1994 في زيارة لابني عبد الحكيم الذي يقيم مع عائلته في بلدة (كولمبي) التابعة لمدينة (نيوشاتيل) بسويسرا الفرنسية، حيث يعمل دكتورا أخصائيا للتشخيص بالأشعة في المستشفى الرئيسي بالمدينة، وكان معنا أيضا في زيارة لسويسرا ولزيارة أخيه ابني نجيب، القادم من أمريكا مع عائلته حيث كان يقيم ويعمل في مجال الإدارة والتجارة والاقتصاد، أما ابني نوري فكان مقيما في طرابلس، وكذلك ابني فائز.

وأثناء إحدى الأمسيات الصيفية، وفي ظل أشجار الحديقة الكبيرة وسط الريف السويسري الجميل المنعش الخلاب، كان الحديث يدور حول كتابة مصطفى لذكرياته. والسؤال المتكرر، لم لا تكتب يا أبي ذكرياتك؟ وتشعب الحديث وتفرع، ولاحظت أن أحاسيس البشر وعواطفهم تتأثر مباشرة بالمكان والزمان، تتأجج العواطف نحو مكان ما تربطه بهم علاقة اجتماعية، مهما صغر، كلما ازداد بعدهم عنه، وكذلك أحاسيسهم تتفاعل وتقوى وتشتد كلما ابتعد عنهم حدث ما في أغوار الزمان، مهما كان الحدث بسيطا عاديا في حينه.

أبنائي الذين غابوا عن مهبط رأسهم، وعن مكان نشأتهم وطفولتهم، وخصوصاً أبناءهم الذين ولدوا بالخارج، كانوا يريدون معرفة تفاصيل الأحداث التي تمت في غيابهم أو قبل وجودهم.

عللت امتناعي بأمور كثيرة قيلت مرارا، تهربت، تذرعت بأني أكره الكتابة، ولا استعداد لي لذلك. عادوا إلى الموضوع مرة أخرى، واتهمت بأني كسول، مهمل، بخيل بمعلومات كثيرة عندي، يهمهم معرفتها ولا أريد أن أبوح لهم بها. وأخيرا أذعنت، وقبلت وقبلوا بأن أسجل كل ما يخطر ببالي من أحداث هامة أو غير هامة، تافهة أو غير تافهة.

في رأيهم أن تقييم الأحداث نسبي، يختلف من شخص لآخر ومن فترة زمنية إلى أخرى. ويتأثر بالحالة النفسية للمطلع على الذكريات، مكانا وزمانا وسنا وصحة ومرضا، وعليه فالمطلوب مني أن أسجل أي شيء، دون التقيد بنظام معين، ولا ترتيب معين، ولا حتى أي ترابط معين. وفي أسوإ الأحوال فإن الذكريات ستكون مصدراً لمعلومات كثيرة نفيسة، لمن يريد أن يطلع على زمن زال وزال من عاشه. ليس هناك أمر تافه، فالتافه كقطعة فسيفساء صغيرة، ولكن قطعة جنب قطعة مع مئات أخرى تكون لوحة فنية رائعة لها عشاقها والمعجبون بها.

وفي نظرهم حتى طريقة رص أو توزيع قطع الفسيفساء الصغيرة التافهة لا يهم؛ فإن طريقة "رفائيل" في الرسم تختلف عن طريقة "بيكاسو"، وكل منهما يستعمل الفرشاة ونفس الألوان، ولكل منهما جمهوره الكبير المعجب به عبر السنين.

والخلاصة، دع عنك يا مصطفى، يا حبيبي، يا أبي، يا عمي، يا خالي، يا جدي. دع عنك الكسل والتردد، وسجل فقط. وأما المراجعة وما يتبعها فاتركها للظروف.

وغاب نجيب وعاد بمسجل صغير، جميل، خفيف، يحمل في الجيب، مع مجموعة من الأشرطة. وبدأ مصطفى يسجل باسم الله.

كانت الفكرة، ثم الإرادة، ثم التسجيل، تارة بالعامية وتـــارة بالفـــصحى، ثـــم التفريغ على الورق، وكانت الأخطاء اللغوية والنحويـــة والإملائيـــة، والأســـلوب المتكرر المفكك.

وأخيراً أستغفر الله إن سببت هذه الذكريات حرجاً لفرد مـــن أفـــراد خلقـــه، وأرجو أن يصفح خلقه علي إن أساءت هذه الذكريات دون قصد لأحدهم.

فلم أقصد إلا خيراً. والله المستعان.

مصطفى السراج ✍

## 1 من أنا ؟

أنا مصطفى السراج الابن البكر لفوزي بن مصطفى بن محمد أغا. ووالدتي منى سويدان. ولدت بطرابلس في يوم 1916/11/16، وقصة حياتي موزعة على بعض فقرات هذه الذكريات.

كان طولي في بداية الاربعينات من القرن الماضي 190 سنتميتراً، ووزني 90 كيلوجراماً وكنت أتفاخر بذلك، وفي بداية الستينات صرت استعمل النظارات للقراءة. في بداية القرن الواحد والعشرين وأنا أصارع الشيخوخة احدودب ظهري، صار وزني 110 كيلوجرام.

احترمني وابتعد عني – حتى الآن والحمد لله- مرضا ضغط الدم والسكري الشائعين بين العباد.

ارتديت اللباس المحلي "العربي" واللباس الأوربي، وغطيت رأسي بالطربوش التركي، والطاقية التونسية، ولسنوات عديدة كنت عاري الرأس. في بداية شيخوختي صرت ارتدي فوق اللباس المحلي جبة تونسية قليلة الزخرفة وأطول بخمسة عشر سنتمتراً تقريباً عن المعتاد عند إخواننا التونسيين، وفي المناسبات أرتدي جبة اسكندرانية مزخرفة، ثقيلة شتاءً وخفيفة صيفاً.

بشرتي بيضاء، مع بداية الشباب ظهر لي شارب شنب، كنت أحلق ذقني يومياً بانتظام، وفي أوائل القرن الحالي أهملت ذلك لفترة طويلة نمت أثناءها لحية بيضاء حافظت عليها.

تزوجت سنة 1940 ورزقت أربعة أولاد واربع بنات وتوفيت زوجتي سنة 1999 . حسب معلوماتي أن جدنا الأول المعروف في ليبيا هو محمد أغا، من مدينة (مغنيسا) شمال مدينة إزمير بتركيا الأسيوية، كان ضابطا في سلاح السواري (الفرسان)، وقد نقل حوالي سنة 1840 من تركيا إلى ولاية طرابلس الغرب، وكان هذا الاسم في ذلك العهد يطلق على كل ليبيا، ونقل إلى مدينة نالوت بالذات وألحق بحاميتها، حيث نشبت فتن بين الحكومة التركية والقبائل. وأثناء وجوده بنالوت تزوج من جدّتي سعيدة بنت يحيى، وهي من قبيلة (بن عسكر) إحدى القبائل الكبيرة المشهورة حتى الآن في نالوت، ورزق منها ولدين هما مصطفى جدي، وأخوه قدري.

انتقل جدي الأول محمد أغا إلى طرابلس ومعه جدتي سعيدة، وأقاما في منزل بمحلة شارع الزاوية حيث ولد والدي وولدت أنا أيضا.ثم استدعيت فرقته إلى البلقان، حيث كانت ممتلكات الإمبراطورية العثمانية، كبلغاريا ورومانيا والمجر والبوسنة وألبانيا، للمساهمة في إخماد الفتن التي نشبت هناك أيضا، وبقيت جدتي سعيدة في طرابلس مع أولاده حتى عودته، وبعد وفاته رحمه الله تزوجت من صديقه الضابط علي أغا، الذي كفل أبناء صديقه المرحوم محمد أغا وواصل تربيتهم. ليس لجدنا محمد أغا سوى ولدين هما قدري ومصطفى.

قدري تزوج بسيدة جزائرية اسمها زهرة، عرفتها، وكانت من عائلة هاجرت إلى ليبيا بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ورزق منها ابنه محموداً، وبنات إحداهنّ اسمها عائشة، سافروا إلى تركيا بعد الاحتلال الإيطالي، وانقطعت أخبارهم إلى ما بعد إعلان الاستقلال. وسأعود إلى ذلك مستقبلا.

مصطفى تزوج من جدتي حسنى بنت إدريس أغا، ورزق منها أبناءه نوري، فوزي، خيري، شكري، جميلة وأمينة.

لم أتعرف إلى جدي مصطفى لأنه توفي 1911، خمس سنوات قبل ولادتي، ولم أتعرف إلى جدتي حسنى أيضا، حيث توفيت سنة 1917 وعمري سنة. كان جدي في سلاح الفرسان مثل أبيه، وكان في فرقته مسؤولا على السروج، وربما لقب السراج جاء مشتقا من عمله في تلك الفترة. عند تقاعده عمل بتجارة المواد الغذائية بالقطاعي في دكاكين كان يملكها ملاصقة لجامع الصومعة الحمراء القديم في شارع السيدي محلة شارع الزاوية.

2 **والدي**: هو فوزي السراج. ولد في محلة شارع الزاوية سنة 1890 وتوفي رحمه الله في 1941/8/31، درس بالمدارس التركية دون أن يكمل المرحلة الثانوية بسبب غزو الطليان لليبيا، وُظِّفَ ببلدية سوق الجمعة دائرة النفوس، وعيّن كاتبا لمديرية الساحل، وكان مديرها جدي لوالدتي الصويعي سويدان، تزوج من والدتي الحاجة منى سويدان سنة 1915 ورزق أوّل أبنائه أنا في 1916/11/16، بعدها اشتغل بالتجارة في شارع الزاوية لمدة قصيرة، ثم عين مدرسا ابتدائيا في

تاجوراء،ثم في الظهرة ثم في شارع الزاوية، واستمر معلما حتى وفاته. كان طويل القامة بدينا، ارتدى البدلة الأوروبية والطربوش، كما ارتدى اللباس العربي المحلي.

رزق أبناءه: مصطفى – علي– كمال – سعدات – سعيد – نجاتي – راشد.

3 **أعمامي:** عمي نوري أكبر إخوته ولد سنة 1870 وتوفي 1945، درس في المدارس التركية، عاصر العهد التركي، ووُظِّفَ في البنك الزراعي وتعرف بحكم عمله إلى كثير من شخصيات الريف والبادية. بعد الاحتلال الإيطالي عيّن على وظيفة في إدارة الشؤون الاقتصادية بالولاية، وكان من زملائه الإيطاليّين الكمندتور بوتسى. وإدارة الشؤون الاقتصادية كانت مكلفة بإعداد بحث مفصل عن كل فرع من الاقتصاد الليبي، وكان عمّي نوري يرى أنّ المساهمة في هذا العمل الاقتصادي فضلاً عن أنه قيام بواجبه كموظف، هو نوع من العمل الوطني، حيث إن البحث المذكور سيكون قاعدة لخطة تنموية شاملة، وقد كان المسؤولون الإيطاليون يصرحون ويؤكدون أنّه من ضمن أهداف الاستيلاء على ليبيا النهوض بمستوى السكان فى مختف المجالات والخروج بالليبيين من حالة التخلف التي كانت جاثمة عليهم وعلى البلاد في العهود السابقة. وقد اطلعت على المجلد الأول من البحث المذكور، وكان ضخماً، وذكر اسم عمّي نوري من ضمن الذين ساهموا في إعداده بعدها وُظِّفَ في إدارة الأوقاف بمدينة طرابلس كأمين الصندوق حتى تقاعد وتوفي رحمه الله.

كان مقر إدارة الأوقاف محلة الفنيدقة "بالمدينة القديمة" قرب جامع الناقة. وسأشرح نظام الوقف وتفصيلات عن إدارة الوقف في فقرة لاحقة إن شاء الله.

تزوج بابنة عمه قدري "فاطمة" حتى توفيت ولم يرزق منها أبناءً، ثم تزوج بابنة خاله الشيخ علي إدريس أغا "أنيسة"، ورزق منها محموداً وأميرة وليلى. كان طويل القامة، بشرته تميل إلى السمرة، يرتدي البدلة الأوروبية مع الطربوش، وكان مهاباً، محدثا لبقا، كان كبير العائلة موضع احترام جميع أفرادها، أحبنا كثيرا وأحببناه أكثر.

# بعض الجذور والفروع



جدي الصويعي سويدان 1930



جدّتي فاطمة بنت حسين رجوبة 1932



الوالدة بلباس الإحرام للحج 1951
الحاجة منى سويدان



والدي فوزي السراج 1940



زوجتي الحاجة زهرة بن محمود 1945



مصطفى السراج 1940

عمّي خيري ولد هو أيضا في محلة شارع الزاوية سنة 1895 وتوفي سنة1971، درس بالمدرسة العسكرية التركية، وكان مرشحا لأن يكون ضابطا، ولكن احتلال الطليان لليبيا حال دون ذلك. واصل دراسة علوم اللغة العربية والشريعة في كلية أحمد باشا الدينية بمدينة طرابلس، ووُظِّفَ معلما في عدة مدارس بمدينة طرابلس، ثم مديرا لإحدى المدارس حتى تقاعد وتوفي رحمه الله. تزوج من الحاجة قدسية ابنة المرحوم رجب أفندي حمدي المعروف برجوبه من سكان شارع ميزران، ورزق منها أبناءً وبنات بقي منهم رامي، طارق، منيرة. لم يكن ضخم البنية، ارتدى الملابس العربية، وارتدى البدلة الأوروبية مع الطربوش. كان مغرما بلعب الطاولة والشطرنج، كلف بوظيفة إمام لمحلة شارع الزاوية طول حياته، وسيأتي ذكر تفاصيل أكثر عن هذه الوظيفة لاحقا.

عمي شكري هو أصغر إخوته. ولد سنة 1900 وتوفي في سنة 1989، درس في أولى المدارس الإيطالية بعد الاحتلال في مدرسة روما بشارع ميزران، وعمل طول حياته موظفا كبيرا في إدارة البريد. تزوج من السيدة ياسمينة ولم يرزق منها أبناءً، كان رحمه الله يرتدي البدلة الأوروبية دون طربوش، ثقافته إيطالية، نحيف الجسم، وسيم، يحب الحياة، عاشرنا وعاشرناه وكان محل كل احترامنا وحبنا.

عائلتنا كانت محافظة، ذات مركز اجتماعي محترم في المحلة، ثقافة معظم أفرادها كانت متوسطة، وكان لظروف النصف الأول من القرن العشرين يعتبر جيدا. جميع أفرادها موظفون، وكان العمل في الوظيفة عندئذ عنوانا للوجاهة، والمركز الاجتماعي المتميز، ولكن ماليا واقتصاديا كان محصورا في نطاق الراتب، وأذكر أن عمي نوري كان يحثنا دائما على امتهان الأعمال الحرة، ويظهر أن طموحاته المالية كانت أكبر من أن يحققها له راتب الوظيفة.

4 **والدتي:** هي الحاجة منى بنت الصويعي سويدان وفاطمة بن رجوبة، ولدت حوالي سنة 1900، في قبيلة أولاد الحاج بسوق الجمعة في منزل فخم بسانية

كبيرة. لها ثلاثة إخوة أشقاء هم حميدة، عمر وأحمد، وثلاث أخوات هن فطومة، حواء ومريومة، كما لها أخ غير شقيق هو إبراهيم، وأخت غير شقيقة هي زهرة.

تعرفت إلى والدي وتعرف إليها عندما كان كاتباً لجدي مدير الساحل، وتم الزواج سنة 1915.

كانت ذات شخصية متميزة، اشتهرت بأنها عنصر تجميع وتقريب بين أخواتها الأشقاء وغير الأشقاء، وكانت محبوبة جداً من الجميع، رحمها ورحمهم الله.

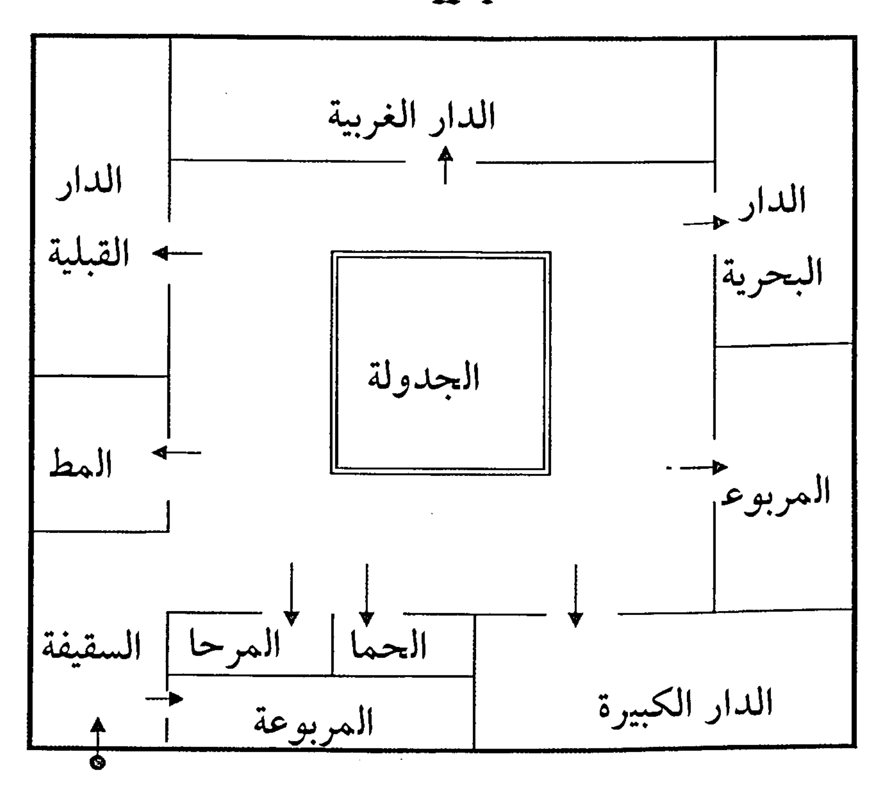
جدي الذي ولد سنة 1852 وتوفي سنة 1932، عرفته يرتدي الملابس العربية، ذو لحية بيضاء كثة، ذو شخصية قوية ذات نفوذ كبير في الساحل، وقد شغل وظيفة مدير، وكانت في ذلك العهد وظيفة مرموقة، ولمدة طويلة أثناء الحكم التركي والإيطالي. تزوج جدي من جدتي فاطمة رجوبة وأنجب منها ثلاثة أولاد وبنات منهم أمي. وتزوج بسيدة ثانية هي خدوجة سويسي وأنجب منها بنتا وولدا.

كان يركب الخيل، فارسا في شبابه وكهولته، ولكن في شيخوخته كان يركب حمارة عليها بردعة بركاب أصغر من ركاب السرج. كانت حمارة أنيقة عرفناها عندما كانت تنقله من سوق الجمعة إلى بيتنا للزيارة.

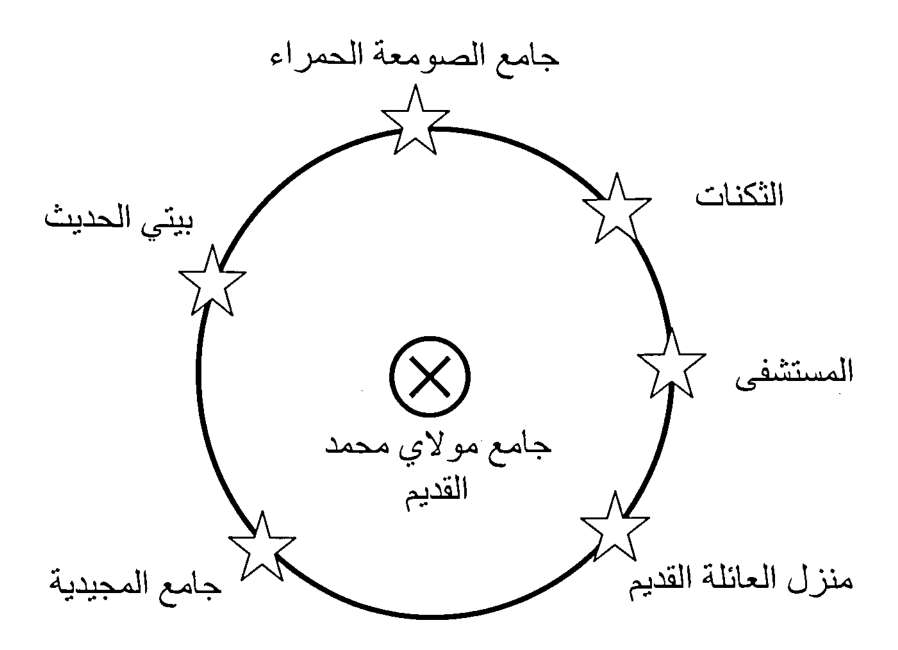
## 5 أين ولدت ؟

ولدت بمنزل العائلة، في الزنقة الوسطية، بمحلة شارع الزاوية. منزل العائلة هو ملك لوالدي وإخوته، ورثوه عن والدهم جدي مصطفى، وهو عبارة عن بيت عربي كبير، يتوسطه فناء يسمى وسط الحوش. بوسط الحوش هذا جدولة (حوض زهور) كبيرة تحتوي على بعض نباتات الزينة ونخلة من النوع الطابوني طالما استندت إليها وجلست في ظلها وأكلت من رطبها وحول وسط الحوش مجموعة من الحجرات وكنا نسميها الديار ونصفها باتجاهها: الدار الغربية وكان يسكنها والدي ووالدتي وبعض الإخوة الصغار، والدار الشرقية وكانت تعرف بالدار الكبيرة وكانت تقع في الضلع الغربي ويسكنها عمي نوري وزوجته نانا فاطمة. ولقب (نانا) كنا نضفيه على السيدات احتراما لهن.

# بيتنا



الدار الغربية
الدار
القبلية
الدار
البحرية
الجدولة
المط
المربوع
السقيفة
المرحا
الحما
المربوعة
الدار الكبيرة

جامع الصومعة الحمراء
الثكنات
بيتي الحديث
المستشفى
جامع مولاي محمد
القديم
جامع المجيدية
منزل العائلة القديم

وعلى الضلع الجنوبي الدار البحرية المخصصة لأبناء فوزي (أنا وإخوتي الكبار) وبجانبها المربوعة التي يسكنها عمي شكري الذي كان عَزَباً. أما على الضلع الشمالي فهناك الدار القبلية وكانت تسكنها في فترة طفولتي، عمتي أمينة الأرملة.

بجانب هذه الدار المطبخ، أما المرحاض والحمام فكانا بجنب الدار الكبيرة؛ المرحاض كنا نسميه (بيت الراحة)، والحمام نسميه (المطهرة)، ومساحة كل منهما لا تزيد على مترين في متر وربع. والبيت دور أرضي فقط. نسيت السقيفة وهي مساحة مسقوفة تربط مدخل البيت الرئيسي مع وسط الحوش. مدخل البيت عبارة عن قوس جميل على الطراز الأندلسي، بابه من الخشب مثبت عليه حلقة من الحديد متحركة تستعمل كمقبض وللدق والنقر على الباب عندما يكون مقفلا ونريد استدعاء من يفتحه من الداخل.

الحجرات سقفها من الخشب يعرف (بالقناطر والمرتك واللوح)، عليه طبقة عازلة من تبن البحر ومونة مكونة من رمل وجير. الحجرات عادة طويلة وغير عريضة، يقيد عرضها طول القناطر ومتانتها، للحجرات نافذة أو اثنتان على وسط الحوش وللنافذة شباك من حديد. بالمقارنة كان بيتا فخما في نظرنا، بمساحته وتصميمه وبساكنيه.

هكذا كان بيتنا سكناً جماعياً، حيزاً محدداً من الأرض تسكنه على الأقل أربع عائلات، نوري – فوزي – شكري – أمينة.

وكنا سعداء فخورين به، بيت العائلة، بيت العز يا بيتنا! وكان حالنا لا يختلف، وربما كان أحسن من غيرنا. هذا هو الموجود، وهذا هو المتعارف عليه، والسائد في ذاك العهد، ويندر من كان يسكن في بيت منفرد، وربما كان من المخجل والعيب أن ينفصل فرد عن العائلة، عن المجموعة، إلا لضيق شديد في بيت الأسرة أو لضرورة قصوى.

6 **مياه الشرب:** كان لكل بيت من بيوت المدينة القديمة والقرى المتناثرة في المنشية، بئر، هي مصدر المياه. وحيث إن ماء البئر في الغالب به نسبة زائدة من الأملاح على المألوف؛ لذا يوجد في بعض البيوت المتطورة صهريج لمياه المطر تحت سطح وسط الحوش يعرف بالماجن.

بيت العائلة بيتنا، كغيره كان له بئر عميقة، عشرون مترا أو أقل. وكان ماؤها غير صالح للشرب؛ ولذا كان يستعمل في غير الشرب والطبخ. الماء يرفع من بئرنا بواسطة البكرة (الكريوه) والحبل والسطل. وكانت الجدولة حوض نباتات الزينة تحتاج إلى سقاية، وخصوصا في الصيف. وكان رفع الماء من البئر، يعتبر عندنا، ونحن صغار، من الأعمال الشاقة؛ لذلك نتهرب منه.

من الطريف أن والدي كان يجعل رفع الماء من البئر، عقوبة لمن (يتشيطن) منا، وكانت العقوبة تتراوح بين عشرة وعشرين سطلا وتتناسب مع خطورة المخالفة وسن المعاقب (بفتح القاف) وبنيته وحالته الصحية. وهي إن شئت، ونفسيتك رائقة، رياضة تقوم بها، وأنت سعيد تترنم ببعض الأناشيد، وإن كنت في حالة نفسية أخرى فهي أعمال شاقة وظلم صارخ.

7 **الماجن وما أدراك ما الماجن:** الماجن كما قلت هو صهريج مبني تحت سطح وسط الحوش، تجمع فيه مياه أمطار الخريف والشتاء والربيع ولا أعرف حجمه بالضبط، ولكن أعتقد أنه لا يزيد على أربعة أو خمسة أمتار مكعبة أي حوالي 4-5 آلاف لتر. معظم البيوت ذات دور أرضي ولها سقف ولها سطوح والماء الذي يسقط في الفصول الممطرة هو الذي يخزن في الماجن، بواسطة مواسير مدفونة في الجدار تبدأ من السطح وتنتهي في الماجن، ولها فتحة صغيرة في الجدار لها وظيفتها. الماء عنصر أساسي للحياة، والماجن جزء مهم في المنزل، ومن واجبات رب البيت وجميع أفراد العائلة العمل على أن تكون مياه الماجن أكبر كمية ممكنة، نظيفة، سائغاً شربها للساكنين.

الماجن يفرغ عادة آخر فصل الصيف، وإعداد الماجن لاستقبال أمطار الموسم المقبل عملية تكاد تكون مقدسة، ولها طقوسها، يساهم فيها جميع أفراد العائلة ولها احتفالها ولها قصة سأرويها.

في آخر فصل الصيف وقبل أن ينضب ماء الماجن نهائيا، يتغير لونه وطعمه وتتكون فيه بسبب ارتفاع الحرارة في الجو ديدان رفيعة تعرف عندنا باسم (الزغلان)، وكنا نصفي ذلك الماء قبل استعماله بشاش من نسيج القطن نحصل عليه. وكان ذلك إنذاراً بأن ماء الماجن انتهى أو كاد. وعندئذ، نتزود بالماء من سانية عمي نوري، بطريقة سيرد ذكرها في مناسبة لاحقة، وتحدد الوالدة بالتشاور مع الوالد يوما لغسل الماجن، ونستعد نحن الأطفال لذلك فإنه يوم مشهود. لكل ماجن باب مساو لسطح وسط الحوش يسمح لدخول وخروج شخص عادي غير بدين. يفتح باب الماجن الذي يبقى كل السنة مغلقا بإحكام، حتى لا تتسرب أية أوساخ أو حشرات داخل الماجن، وينزل سلم صغير يستعين به الشخص السعيد المكلف بالتنظيف، ويتولى العملية بدقة، يستعمل الفرشاة الخشنة والنشافة وتغسل الأرضية والحوائط والسقف، ونسيت أن أقول: إنه قبل ذلك يكلف شخص آخر بترميم بعض الشقوق الصغيرة التي ربما تكونت خلال السنة. ثم يبخر الماجن (بعود القماري والوشق والمستكة) ويغلق، وهذا لتحسين الرائحة ونوع من التعقيم المتوفر في ذلك الوقت بالإمكانية والمعلومات المحدودة.

خارج الماجن يتولى أفراد منا ترميم السطوح ودهنها بالجير المحلول في الماء، استعدادا لاستقبال الأمطار المنتظرة. وكذلك تسلك المواسير الموصلة بين الأسطح والماجن وتنظف ويبدو كل شيء جاهزاً. ويشعر كل فرد منا أنه ساهم بما يستطيع في مستلزمات حياة العائلة.

وتنزل أولى أمطار الخريف ولكنها لا تندفع مباشرة عبر المواسير في الماجن، وإنما تخرج عبر الفتحة الموجودة في الماسورة المدفونة في الجدار، كل ذلك لغسل الأسطح قبل أن يسمح لمياه الأمطار اللاحقة بالتدفق داخل الماجن. الماء يسحب من الماجن ببكرة صغيرة وحبل مناسب وسطل صغير، وفي كل مرة نبدأ

السحب نسمي باسم الله. كل ذلك قبل أن تمد شبكات المياه للحنفيات العامة أولا ثم الخاصة. ولذلك قصة أخرى.

8 **الحنفية العمومية:** أعرف أن هناك (شيشمة) عمومية في شارع الزاوية. (وشيشمة) كلمة تركية، تعني، حنفية، ولا أعرف بالضبط متى أنشئت. الحنفية في ساحة كبيرة بالمحلة تعرف بجنان الفزاني، وبالجنان أيضا الكوشة، (الفرن العمومي)، قريبا من الحنفية، صنبور الحنفية يعمل بالضغط. وكان الازدحام عليها شديدا، الكل يريد أن يملأ وعاءه وينصرف. وكنت مع بعض الإخوة من ضمن الكل.

وحيث إنّ المسافة بين بيتنا والحنفية حوالي 200 متر، كنا نعتبرها بعيدة، وحيث إنّ الأوعية المستعملة في نقل الماء لم تكن مريحة، البلاستك لم يخترع بعد، لهذه الأسباب صنعت مع الإخوة عربة بسيطة بها ثلاث عجلات صغيرة مكونة من كرات فولاذية تدور بسهولة في مجرى دائري، هذه العجلات التي تعتبر قطع غيار لكثير من الآلات، كنا نحصل عليها وهي قديمة، وتسمى بالإيطالية (كوتشينتى) وبالإنجليزي (رومان بللي)، العربة بسيطة جدا نصنعها بقدراتنا الذاتية وبالعدد المتوفرة لدينا في البيت، منشار خشبي، مطرقة، مسامير وكُلاّب.

كان جزء كبير من الطريق ترابياً، والتراب يعوق حركة العجلات ويعطلها، وكانت المكابدة مع الإخوة، فهذا يسحب وذاك يدفع، والعربة ترفض التحرك والماء يتناثر من الصفيحتين اللّتين عليها. كان هناك بعض الأفراد في المحلة يمتهنون حرفة نقل الماء بصفيحتين سعة الواحدة عشرون لترا، معلّقتين بسلسلة في خشبة تحمل على الكتف، وتفرغان في (خابية) زير كبير في ركن من سقيفة البيت. لم نكن نستفيد من هؤلاء، استعراضا لقدراتنا، وتوفيرا للأجرة.

الحالة تحسنت، والمشكلة فرجت، عندما تمكن والدي من الحصول على أول حنفية خاصة في الزنقة، وكانت حنفية واحدة، وضعت في ركن من الجدولة قريب من الحمام والمرحاض. وثبت والدي على السلك المعدني، المعد لنشر الغسيل عليه، انبوباً رفيعا من المطاط، يشبك بصنبور الحنفية عند اللزوم، لتزويد المطهرة بالماء،

وكان يحلو لبعض الإخوة مداعبة أو معاكسة أخ لهم يغتسل في المطهـرة، ويقفـل عليه الماء، فيصيح المتضرر ويحتج ويعربد، وخصوصا إذا كان في حالة استعمال الصابون على رأسه ووجهه. فتتدخل الوالدة متوعدة المشاكس، وتعود الميـاه إلـى الأنبوب، إلى مجراها.

وجود الحنفية في الحوش، أراحنا نحن الأطفال من مشاكل كثيرة ولكن سبب لوالدتي متاعب من نوع آخر. الحنفية الخاصة، صارت تحت تصرف سكان الزنقة، والكل جيران، وللجيران حقوق أدبية واجتماعية، والماء أمان لا يرفض، ووقعـت أمي في حرج، باب المنزل الرئيسي مفتوح، والسقيفة صارت ممرا عامـا لوسـط الحوش حيث الحنفية، كان وضعا سبب لها كثيراً من الارتباك، ولكنها لم تـرفض طلب الماء. حقوق الجيران لها الأولوية. رحمها ورحمهم الله.

9 **الفرن العمومي (الكوشة):** ما دمنا بجانب الحنفية (الشيشمة) فـي جنان الفزاني، دعنا نلق نظرة على مبنى منخفض، قريب منها. إنه (الكوشـة) أي الفرن العمومي، وهو عبارة عن مبنى بسيط، مكون مـن أربعـة أدوار، ارتفـاع جميعها لا يزيد على ثلاثة أمتار. المحروقات المستعملة لتسخين الفرن، هي بقايـا أي شيء قابل للحرق، متناثر على ساحة المحلة طولا وعرضا، من قمامة وغيرها، يقوم بجمعها وتخزينها طول الوقت الريس موسى، رجل طيب جدا، وافد من فزان (براك) طويل القامة نحيف أسمر البشرة، على وجهه بصمات مـرض الجـدري، وعيناه تعملان بكفاءة تقل كثيرا عن المعتاد.

المحروقات تخزن في الدور الأسفل، المدفون أكثره تحت سطح الطريق، يليه الدور الثاني، ويسمى ( بيت النار) حيث يتم الحرق، وله فتحـات تـصل الـدور الثالث، وبه يتم طهي الخبز بأنواعه، يدخل ويخرج بخشبه طويلة اسمها (الكوريك). الدور الرابع الأخير تخزن فوقه المحروقات صيفا لكثرتها. وشتاء يخلو ركن منـه لمبيت الرايس موسى والرايس علي بقر، مبيت دافئ، والنوم محبـب فيـه شـتاء، وللعلم فالرايس علي بقر هو المسؤول عن العملية الرئيسية والأساسية في الكوشة، وهي طهي الخبز بأنواعه وغيره من بعض المأكولات.

ذكرياتنا، نحن أطفال المحلة، مع الفرن العمومي متنوعة وغزيـرة. أمهاتنـا يعجن الخبز في البيت، وكنا نساعدهن في بعض المرات، ودورنا هو نقل أقـراص الخبز على ألواح طويلة، أو مستديرة، تسمى (سفرة) من البيت إلى الفرن والعكس، وذلك في الأوقات المناسبة المحددة من الرايس علي بقر، والمواعيـد تأخـذ فـي الاعتبار. درجة حرارة الفرن صباحاً أو مساءً وازدحام الفرن وانشغاله في طهـي الخبز المعد للسوق، للجمهور، والخباز اسمه مصطفى برناز.

العائلات كانت تستفيد من الفرن في طهي أغذية أخرى؛ منهـا بقـول أكلـة الرشتة، والبقول تشكيلة من الفول المدشش، والعـدس، والفاصـوليا، والحمّـص، توضع مع الماء في طاجن من فخار. أذكر أنه في إحدى المـرات كنـت عائـدا بالسفرة الطويلة على رأسي وفوقها 6 أقراص من الخبز الناضـج جميـل الـشكل والرائحة، ومررت أمام دار الإيطالي "تشيتشو" وزوجته العجوز، فأعجبت بـالخبز الساخن، أخذت تقول وتردد ما أجمله من خبز، أخبرت والدتي بذلك فطلبت منـي إعطاءها رغيفا في الغد حفظا لي وللخبز من العين، كانت أمي تؤمن كغيرها مـن الناس بالتطير.

ولحلويات عيد الفطر مع الفرن العمومي ذكريات لذيذة لا تقل عن الحلويات نفسها، عيد الفطر في أول شوال من التقويم الهجري القمري، يتغير موعـده مـن فصل لآخر، وذكرياتي التي سأرويها، كانت في فصل الشتاء. تلاوة القرآن وزيادة التعبد من الأمور المطلوبة والمستحبة في أواخر ليالي رمضان، ووالدتي بالإضافة إلى ما ذكرته وخصوصا في أواخر العشر الأواخر من رمضان تنشغل في إعـداد حلويات العيد، المقروض والغريبة.

لجو ليالي رمضان سحره في نفوس الكبـار والـصغار، كانـت الـسهرات والتزاور بين الأقارب والجيران والأصدقاء، وفي آخـر رمـضان يـزداد الجـو الاجتماعي العام بهاء لقرب العيد وشراء ملابس العيد. ولمناسبة إعـداد حلويـات العيد، كانت سيدات العائلة تجتمع صباحاً ومساءً قبل المغرب، وتتعاون في إعـداد الحلويات وتعود بعد المغرب للمسات الأخيرة، وما يحدث في بيتنا يحدث في غيره.

نقل الحلويات إلى الفرن يتم ليلا بعد صلاة المغرب والإفطار. وذلك لأن درجة حرارة الفرن مناسبة للحلويات، ولأن الفرن مشغول نهارا في طهي الخبز الخاص والعام. وتحل اللحظة الحاسمة بالنسبة لنا نحن الأطفال، والتي ننتظرها في شغف. فنأخذ (سفرات) المقروض وهي عبارة عن مسطحات مستديرة كبيرة قطرها أقل من 90 سنتيمترا يسهل تمريرها من أبواب الحجرات، وفي طفولتي بدأ استعمال معدن الألومنيوم الأبيض الخفيف نسبيا، وننطلق بها إلى الفرن العمومي (الكوشة)

البداية بنقل المقروض ثم دور "الغريبة". والفرن يزدحم بحاملي وحاملات السفرات وتصفف السفرات أمام الريس علي في انتظار دورها لإدخالها الفرن، كلما أخرجت واحدة أدخلت أخرى بدلها. وللسفرات علامات مميزة لها، يعرفها أصحابها والرايس علي، والرايس علي ماهر جدا يعرف متى يخرج كل سفرة بعد أن تنضج، ولكن رغم ذلك، ونظراً للضغط الشديد عليه، وزحمة الأطفال، وما تحدثه كثرتهم من مشاكل، والكل يريد أن يحتمي من المطر، ويختار المكان الأدفأ. لهذه الأسباب وبسبب الإرهاق، الرايس علي يخطئ فيخرج (سفرة) غير ناضجة تماما، ويخرج أخرى شبه محروقة. إصلاح الخطأ الأول ميسور بإعادة السفرة ثانية إلى الفرن، أما الخطأ الثاني فيسبب تذمراً واحتجاجاً واعتذارا ينتهي بالتصالح.

وكل عام وأنتم بخير.

لحلويات الشيخ فوزي وأسرته، معاملة خاصة من طرف الرايس علي، أحسن مكان في ساحة الفرن لنا وسفراتنا لها الأسبقية، غيرنا يستاء من هذا التميز ونحن نفرح، إنها النفس البشرية.

بجانب الفرن مقهى عام متواضع أمامه مظلة من أغصان الأشجار الجافة وبعض نباتات الزينة المتسلقة، بها بعض الكراسي بسيطة.صاحبها ومديرها الأوحد، عمي حسن القهوجي،كبير السن، مهذب نظيف الملبس، يظهر أنه عمل مع الأتراك، يتكلم التركية مع من يعرفها من الجيل السابق. قهوته والسحلب من إنتاجه المتقن، له هواته.

**10 الإضاءة:** وأنا صغير، طفل، لم تكن الكهرباء مستعملة في محلتنا، العامة تطلق كلمة (كرهبا) على السيارة وكلمة (لتريك) على التيار الكهربي. الإضاءة في البيوت كانت تعتمد على ( القازة ) والوقود بداخلها من مشتقات النفط ويعرف عندنا بالقاز. يصعب علي وصف القازة وصفا دقيقا ولكني سأحاول، فهي عبارة عن قارورة من زجاج في الغالب، تحتوي على كمية من القاز، ينغمس فيه فتيل، يكون متشبعا به ويحترق طرفه بشيء ملتهب كالكبريت( الوقيد) طرف الفتيل الملتهب يكون محميا بغلاف زجاجي متكور يحمي اللهب، ويساعد على انتشار الضوء المنبعث من القازة. الغلاف الزجاجي، يتسخ في بعض المرات بالدخان فينظف في كل مرة للمحافظة على شفافيته. في كل دار (حجرة) قازة أو أكثر حسب حجمها. وسط الحوش يضاء بجهاز آخر يعرف بالفنار(فانوس) يتحمل الريح والمطر حيث إن الفتيل محمي بإحكام.

أما إضاءة طرقات المحلة فإنها تتم بجهاز يعمل بمادة تعرف بالكربون. مصنعة داخل عبوات معدنية، ويظهر أنه عند إحراقه يتولد عنه غاز وعند اشتعاله يكون لهيباً هو مصدر الضوء. هذه العبوة وما ينبعث عنها من ضوء تكون محاطة بشبه صندوق زجاجي يحميها من الريح والمطر، وهذا الجهاز مثبت بالجدران أو على عمود.

في المساء قبل المغرب، يلف شخص مكلف من البلدية، ومعه سلم على عدد من الفنارات (الفوانيس) ويتولى تنظيف الصندوق الزجاجي، وإبدال العبوة الصالحة بأخرى مستهلكة، والمستهلكة ترمى على الأرض. ثم يشعل الجهاز ليبقى يضيء حتى تستهلك العبوة وقودها وينطفئ الضوء مع طلوع ضوء الصباح. العبوة المستهلكة والمرمية على الأرض يجمعها بعض الأطفال، ويخرجون منها بقايا مادة صلبة بيضاء يسمونها كربون، يضعون قطعة صغيرة منها في حفرة صغيرة بالأرض، يرش عليها الماء وتغطى بسرعة بعلبة من صفيح، يتفاعل الماء مع الكربون ويسبب انفجارا مدويا يدفع بالعلبة بقوة إلى بعيد.

شقاوة ؟ أو تعامل مع خصائص المواد ؟

الكهرباء في الأماكن العامة عرفت فيما بعد، وقد احتفلنا نحن أطفال الزنقة عندما أضاء أول فانوس كهربائي، اللمبة كانت ضعيفة 25 وات تقريباً، ولكن الاحتفال كان تاريخيا، بقينا نهتف تحته طويلا، ونسهر حصصا إضافية على غير العادة. دخول الكهرباء للمنازل كان فيما بعد ولكن لم ننبهر به كثيرا لأننا تعودنا عليه وألفناه في الطرقات.

11 **مواقد إعداد الطعام:** طهي الطعام يتم في البيوت، على جهاز اسمه (بابور القاز)، وهو وعاء من صفيح، يملأ بالوقود (القاز) أحد مشتقات النفط ويغلق بإحكام، بابور القاز مزود بضاغط للهواء وبفتحة دقيقة يخرج منها القاز المضغوط ويشتعل. الفتحة كثيراً ما تسد، فتسلك بإبرة دقيقة أيضا، ويعود الجهاز يعمل بكفاءة.

فوق بابور الجاز توضع الحلة أو الطنجرة بما فيها من لحم أو خضار أو بقول أو ما عليها من كسكاس الكسكسي أو الرز أو الرشتة. وربة البيت المنشغلة في غسيل الملابس تتفقد مراحل طهي الطعام على فترات.

قلت إن الوقود المستعمل في القازة والفنار للإضاءة، وفي جهاز بابور القاز للطبخ هو القاز، وكان يستورد مكررا من مصفاة في (جينوا) بشمال ايطاليا في صفائح من صفيح مقصدر، مربعة القاعدة سعة الواحدة عشرون لترا، وكل صفيحتين في صندوق متين من الخشب، وكان بقالو الوقود يشترون الصفائح ويبيعون القاز بالتجزئة، والصفيحة الفارغة، يبيعونها، إذ لها استعمالات أخرى عديدة، منها نقل الماء من الحنفية العمومية. من مشاغل ربة البيت الرئيسية، غسيل الملابس. الأجهزة الكهزبائية المستعملة الآن من معظم العائلات، منها الغسالة، لم تكن معروفة، الغسيل يتم باليد وفي (الليان) والصابون السوسى المستورد من مدينة سوسة في تونس أو صابون ماركة لوفارو مستورد من مصنع في مدينة (جينوا).

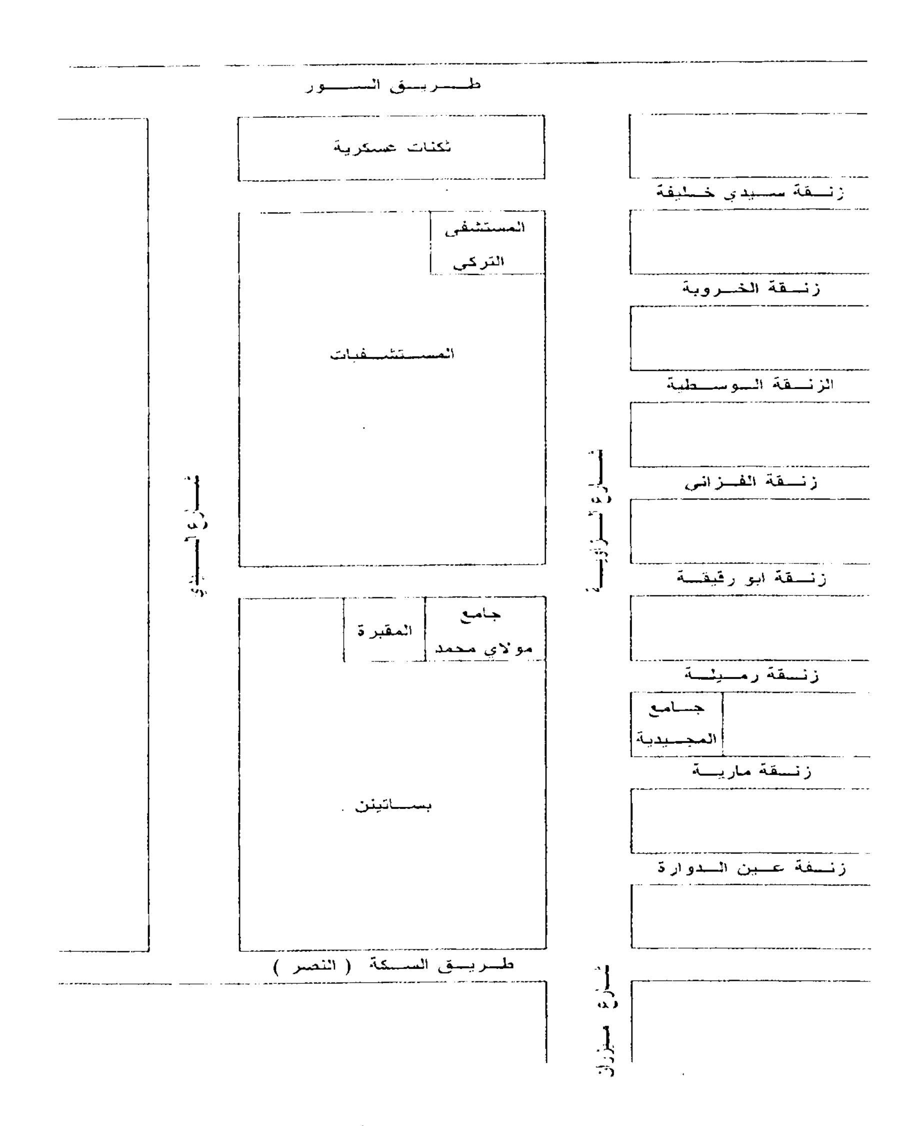
مختلف الأعمال المنزلية تقوم بها ربة العائلة وبناتها، ووالدتي لها بنت واحدة، وكانت تقيم مع الزوجة الأولى لعمي نوري، الذي لم يرزق منها أبناءً، في بيت آخر بالمحلة. ولذا فوالدتي كانت تستفيد من مساعدة بعض نسوة أو بنات المحلة وبمقابل نقدي.

كنا نستعمل في كي الملابس الأوروبية مكوى يسخن بالفحم من داخله أما الملابس العربية وخصوصا الصوفية والأردية الحريرية، فإنها تجعد. والتجعيد يتم باستعمال لوح خشب عرضه حوالي 30 سنتيمترا وطوله 2.5متر، يمسكه شخصان من طرفيه وتلف حوله بإحكام الأردية، والجرود بعد غسيلها بعناية، وتبخيرها بعود القماري والمستكة التي تضفي بياضا جميلا على الأنسجة الصوفية. التبخير يتم باستعمال المبخرة وهي شبه قفص من جريد النخيل تصنع محليا، توضع فوق الكانون الذي به البخور، وفوقها الملابس التي تحتاج للتبخير أو للتجفيف شتاء. كل هذه الأمور توارت بعيدا بين تجاعيد الزمن، والآن سادت المكواة الكهربائية وشاعت الاستفادة من المغاسل العامة التي تعمل على الناشف بطرق كيماوية حديثة ومعقدة.

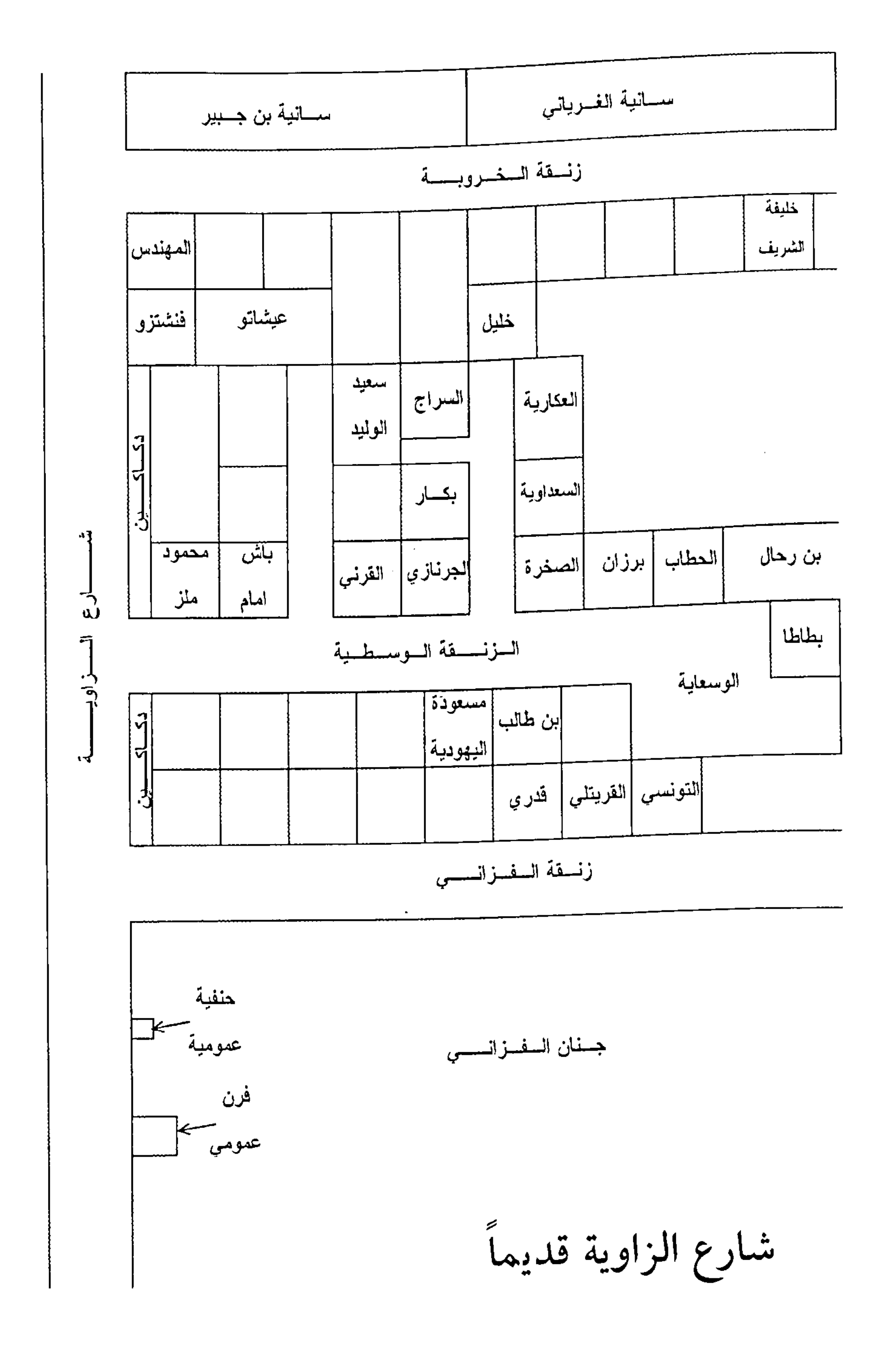
12 **معالم شارع الزاوية القديم:** الشارع يبدأ شمالا من نهاية شارع ميزران، وكان يفصل بينهما خط سكة الحديد.

إذاً يبدأ شارع الزاوية من السكة الحديدية حيث شارع النصر الآن ويتجه جنوبا، هناك بساتين بنت السيد، والحدادية، وباشا أغا، والغندرية، وزنقة عين الدوارة و سانية بن يزيد، بعدها زنقة مارية، وكلها زالت، ثم نجد معلما مازال قائما هو جامع المجيدية أو الجامع الجديد تمييزاً له عن جامع مولاي محمد القديم. وسمي بجامع المجيدية من طرف منشئه، أحد ضباط الأتراك المقيمين بالمحلة تيمناً بعهد السلطان عبد المجيد.

كان الجامع بسيطا جميلا كما عرفناه في طفولتنا في العشرينيات من القرن العشرين، ثم أدخلت عليه تعديلات يقصد بها الخير شوهته، ويا ليتها لم تكن. بعد الجامع، مصنع الإيطالي أوغوسطو بوليزي، للخبز و المكرونة، وكان مشهورا في المحلة، وصاحبه وأفراد عائلته يتكلمون العربية بلهجة تونسية، وكنا ننطق اسمه غوسطو. وكانت كلمة غوسطو على الشفاه وكانت خبزة غوسطو ومكرونة غوسطو على الأفواه وفي البطون.




شارع الزاوية قديماً




شارع الزاوية قديماً

بعد ذلك نجد زنقة الرميلة، ثم الطريق الذي يقاطع الطريق الرئيسي حيث الآن شارع الجمهورية يتجه يمينا نحو شارع البي، شمالا نحو شارع السيدي، في المقابل مباشرة بعض المباني البسيطة التي بها مقر مديرية المنشية، وجامع مولاي محمد، والمقبرة الملاصقة له، وتعرف بمقبرة سيدي أبو غرارة أحد الزهاد الصالحين. مبنى الجامع القديم أزيل، وأزيلت المقبرة ومحلهما الآن جامع فخم، من أشهر معالم مدينة طرابلس كلها، لا محلة شارع الزاوية وحدها، ولا من يتحسر على المبنى القديم.

ما أصل تسمية شارع الزاوية؟ كان الاعتقاد أن التسمية لها علاقة بمدينة الزاوية، وبعد البحث تبين أن التسمية لا تمت لمدينة الزاوية بأية صلة بل علاقتها بالزاوية التي أنشئت مع مسجد مولاي محمد لتكون مأوى وسكنا للحجاج الوافدين من المغرب قاصدين أداء فريضة الحج عن طريق طرابلس وكذلك عند عودتهم. ومما يؤكد هذه المعلومات ما ورد في الجزء الأول من اليوميات الليبية لحسن الفقيه حسن من منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية على الصفحة رقم 47، الوثيقة رقم 2 ما يلي: " ... إلى كافة من يقف على أمرنا هذا من جماعة مسجد المرحوم مصطفى بن الكاتب الذي بشارع زاوية مولاي محمد ...".

يلاحظ أن شارع الزاوية كان يمتد حتى يصل المدينة القديمة، ثم بعد بناء جامع ميزران والزاوية التابعة له من طرف الحاج رمضان ميزران الكبير سنة 1880 ، فصل عنه الجزء المعروف حتى الآن بشارع ميزران.

**13 جامع مولاي محمد:** لهذا الجامع قصة وكذلك المقبرة سأرويها بتفاصيلها قبل التجول في بقية الشارع.

علمت عن عمي نوري، والعهدة على الراوي وهو صادق أمين، أنه قبيل مائتي سنة أو أكثر كانت قوافل الحجاج المغاربة، وهي متجهة إلى مكة المكرمة والعودة منها محط اهتمام وانتظار سكان طرابلس وضواحيها، لما يحدثه مرورها من رواج بالأسواق. وحلت قافلة الحجاج المغاربة الكبيرة على غير عادتها، وكان

يرأسها في تلك السنة أمير مغربي اسمه مولاي محمد. حلت القافلة في مكان فضاء فسيح يبعد عن المدينة القديمة طرابلس حوالي كيلومترين، مسافة قصيرة تفصل أفراد القافلة الأشداء عن مدينة طرابلس العامرة بجوامعها وأسواقها المليئة بكل ما لذ وطاب. المسافة تقطع في أقل من نصف ساعة، لا شيء بالنسبة للذي قطع ويقطع وسوف يقطع آلاف الكيلومترات في أيام كثيرة من الزمن. حطت القافلة رحالها ونصبت خيامها وقريبا منها بساتين المنشية بنخيلها الباسق ومائها الوافر وخضرواتها وفواكهها اللذيذة ليس في الإمكان أبدع مما كان، أنسب مكان لراحة القافلة أفرادا وجمالا لمدة أسبوعين على الأقل.

واستقبل مولاي محمد من طرف حاكم طرابلس بكل حفاوة، و تبودلت الهدايا الثمينة، وتمت صفقات تجارية للاستيراد والتصدير بين تجار القافلة الحجاج وبين تجار طرابلس وكلاهما ماهر. الحياة لذيذة في تلك الأيام وغيرها لأنها متنوعة، تعب وراحة، مرض وصحة، خسارة وربح، ويا سعدك أيها المتفائل، الذي يكرر باستمرار: إن مع العسر يسرا... إن مع العسر يسرا...

استراحت القافلة كما أرادت، وحان وقت الرحيل فدق الطبل الكبير إيذانا بذلك، واستأنفت السفر باسم الله في الحل والترحال. كانت أموال الأمير رئيس القافلة وحاشيته وهي من النقود الذهبية، تحمل في صناديق خاصة، وفي كل صندوق أكياس من جلد بحيث يسهل جرد محتوى الصندوق عند اللزوم بسرعة وسهولة.

سارت القافلة في سلامة الله، تارة صامتة وتارة بين دق الدفوف البنادير والطبول، والأبواق والأهازيج والأناشيد الدينية بين مرحلة وأخرى. وكانت دائما موضع ترحاب واستضافة سكان القرى والخيام. وصلت القافلة مصراته فافتقد المسؤولون عن المال صندوقا من النقود الذهبية. وحاروا وبلغ الأمر الأمير الذي عقد ديوانه، واستقر الرأي على أن السطو غير وارد والسرقة كذلك لشدة الحراسة واليقظة، ولأن السكان كانوا بصفة عامة طيبين ودودين لا أحد يشك في نزاهتهم. لكن الصندوق فقد والأمر محير فالحذر والسهر وزيادة اليقظة واجبة وربنا يعوض.

بلادي بلادي بلادي... لك حبي وفؤادي...



مئذنة جامع مولاي محمد القديم طرابلس / شارع الزاوية



جامع أبو سيف سوق الجمعة/أولاد الحاج     جامع المجيدية طرابلس/شارع الزاوية

واصلت القافلة رحلتها الطويلة بين صحار وقفار، وواحات وارفة الظلال ومدن عامرة مشهورة في التاريخ والجغرافيا. وحجت وعادت ونزلت في نفس المكان في شارع الزاوية. وعند نصب خيمة الأمير الكبيرة المتميزة عثر على الصندوق المفقود كما هو، مردوم برمل ناعم تراكم عليه أثناء غياب القافلة عدة أشهر ذهابا وإيابا.

استغرب الجميع لذلك وتأكدت نزاهة وطيبة السكان وانعقد الديوان وتقرر بإلحاح من الأمير، أن يبنى جامع في المكان الذي وجد به الصندوق وتلحق به زاوية وأن تشترى له بساتين تكون وقفا عليه، يصرف ريعها على شؤون الجامع وترميمه وسمي الجامع باسم جامع مولاي محمد رئيس القافلة وصاحب الأموال. أليست قصة جميلة؟ سمعتها منذ ثلاثة أرباع القرن، من عمي نوري، وبقيت منقوشة في لفائف ذاكرتي كالنقش في حجر الجرانيت أو أشد رغم أن رأسي ليس من حجر، واكتشفت الآن معكم أن لعمي نوري صفات حميدة كثيرة نحبه ونحترمه من أجلها، تضاف إليها أخرى منها أنه راوية أمين وقصاص ماهر. رحم الله عمي نوري ورحم ذلك العهد بما كان فيه. الجامع كما كان قديما بسيطا، مئذنته مربعة القاعدة، ذو طراز مغربي أصيل دون بهرجة ولا زخرفة.

أذكر كذلك بمناسبة الحديث عن الجامع أنه بعد سماعي لقصة تأسيس الجامع من عمي نوري بسنوات، زارني في منزلي بشارع الزاوية قرب الجامع سفير المملكة المغربية في ليبيا الأستاذ المؤرخ والدكتور والكاتب الأديب عبد الهادي التازي وقد تكونت بيني وبينه علاقة مودة متبادلة علمت خلالها أن حرمه من عائلة السراج المغربية وزودني بكتاب يتحدث عن تاريخ عائلة السراج. في إحدى الأمسيات وآذان المغرب يرفع من جامع المجيدية وكان جامع مولاي محمد متهدماً ولم يظهر بعد بشكله الحالي، عرضت على سعادة السفير ما كنت أعرف عن تأسيس جامع مولاي محمد فاهتم كثيرا بالموضوع وقال إنه سيقترح على الحكومة المغربية إعادة بنائه على طراز مغربي فخم بكل ما تعرفه العمارة المغربية من زخرفة وجمال، انتقل الدكتور التازي إلى مهام أخرى واقتراحه لم ير النور، ولكن علمت واطلعت بعد سنوات على قصة من تأليفه موضوعها رحلة أمير مغربي مع

جدته للحج ومروره بطرابلس، تضمنت معلومات سمعها مني، وأخرى تاريخية جمعها كمؤرخ وأخرى اجتماعية في قالب أدبي روائي رائع.

على بعد أمتار من جامع مولاي محمد الجديد منزلي الحديث حيث اقيم وسجلت معظم هذه الذكريات.

وعلى مرمى حجر من جامع مولاي محمد القديم وزاويته التي سميت باسمها محلة شارع الزاوية ولدت في منزل العائلة القديم الذي زال هو ايضاً مع الجامع من الوجود.

ومن هنا من دائرة مركزها المأذنة العريقة لجامع مولاي محمد بدأت باسم الله مسيرة الخمسين عاماً خطوة خطوة على درب الزمن ...

14 **مقبرة سيدي أبو غرارة:** كما قلت توجد بجانب جامع مولاي محمد ملاصقة له، مقبرة سيدي أبو غرارة، على مساحة لا تزيد على خمسة آلاف متر (نصف هكتار) أربع (جوابي)، مقبرة قديمة ربما يرجع عهد إنشائها إلى فترة بناء الجامع. عند طفولتي في العشرينيات، كان الدفن قد توقف بها، وربما توقف منذ الاحتلال الإيطالي. بالمقبرة مبنى متواضع عليه قبة هي ضريح سيدي أبو غرارة وكل ما نعرف عنه أنه في حياته كان زاهداً صالحاً مصلحاً.

حول الضريح، قبور كثيرة، المقبرة امتلأت؛ ولذا أُوقِف الدفن فيها، بعض القبور متهدمة وبعضها اندثرت وأخرى تنتظر دورها. كنا نزور المقبرة يوم عاشوراء وكانت زيارة المقابر في هذا اليوم عادة شائعة وكنا نقرأ ما تيسر من قصار السور على من دفن في المقبرة عامة وعلى قبور أقاربنا على الأخص، أذكر منهم جدتي سعيدة وزوجها الثاني علي أغا وجدي الأول محمد أغا وجدي مصطفى والهدار أفندي ز. - عمتي أمينة وخيري مصطفى السراج الذي توفي صغيرا وسمي عليه عمي خيري الذي عمر، وفاطمة مصطفى السراج (توفيت صغيرة سنة 1886) وأنيسة مصطفى السراج التي توفيت صغيرة هي أيضا سنة 1908، رحمهم الله، كانوا قبلنا في هذه الدنيا، وعاشوا ما قدر الله أن يعيشوا ورحلوا ومثلنا

كانوا يقرأون القرآن ترحما على من سبقهم عاش ومات، ماتوا ونموت وسوف يفنى الخلق، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

المقبرة بقيت مهجورة حتى أوائل الستينات عندما تقرر هدم مبنى الجامع القديم، وإقامة مبنى جديد جميل كبير على أرض الجامع السابق والمقبرة التي أزيلت وأضيفت إليه، كما شيدت حوله عمارات أوقافا عليه.

عظام من كان بالمقبرة جمعت بعناية، ونقلت في موكب جنائزي مؤثر، اشترك فيه سكان المحلة وغيرهم، إلى قبور جماعية، في مقبرة سيدي منيذر، وقد أشرف على ذلك المرحوم أخي علي عندما كان نائبا لرئيس بلدية طرابلس.

15 **المستشفى العسكري التركي:** نتجه جنوبا وهناك يمينا بيوت المحلة الموزعة على زنقة الفزاني والزنقة الوسطية وزنقة الخروبة وشمال الطريق، سانية الفقهي وسانية شحاتة وسانية الهسك، ثم تجد مبنى ضخما به أقواس وحوله أشجار كبيرة هو المستشفى العسكري التركي، ولا أعرف عنه شيئاً يذكر ربما لأنه لم يكن بين أفراد العائلة في ذلك العهد من له علاقة بالمستشفى. وكل ما أعرف أنه أضيفت له مبان خشبية لإيواء المرضى والجرحى من الجنود الإريتريين والصوماليين التابعين للجيش الإيطالي. وقد شب حريق هائل فيها في إحدى ليالي الصيف. كان مشهداً رهيباً مخيفاً، خرج سكان المحلة مع أطفالهم ليشاهدوه إلى ما بعد صلاة العشاء بساعات.

المبنى القديم لم يكن كافيا لاحتياجات طرابلس المتنامية فأضيفت سانية الهسك وسانية شحاتة وسانية الفقهي للمستشفى، وأقيمت عليها أقسام جديدة موجودة حتى الآن مع جزء من المستشفى التركي القديم.

16 **الثكنات العسكرية:** نواصل التجول في شارع الزاوية القديم. أمام المستشفى التركي زنقة سيدي خليفة الموصلة لشارع البي وفي آخرها المتحف الإسلامي حاليا، وكان من قبل سكنا للوالي العسكري البريطاني (بلاكلي) وقبله الكونت (فولبي) الوالي الإيطالي وقبلهم جميعا كانت سانية ملكا لعائلة ابوذلغوسة

الليبية الثرية. بعد زنقة سيدي خليفة نجد سانية القلالي بعدها حديقة صغيرة أنيقة بها سكن طابعه شرقي تركي سكنه شخصيات تركية وإيطالية وبريطانية ثم عربية، وأزيلت الحديقة والمنزل فيما بعد وحل محلهما مدرسة.

كل ذلك على يمين الشارع وأنت متجه جنوبا، أما يساراً فكانت ثكنة المدفعية (الطوبجية) التي حل محلها مدرسة الشرطة العسكرية المدنية(الزابطية) في العشرينيات، والآن به مستشفى الحروق والتجميل، بعدها ثكنة الفرسان (السواري).

أذكر أنه أثناء زيارة عابرة لي لثكنة الفرسان، لاحظت شطر بيت شعر هو:- (دار الغزاة دار العز والشرف) محفورا على لوحة رخامية مثبتة على قوس كبير أبقاها الإيطاليون على أنها زخرفة معمارية. كنت مسرعا فلم تكن لي فرصة جمع معلومات أكثر عن باقي بيت الشعر ولا القصيدة ولا من قالها وظروفها. ولكن هذه الكلمات الخمس التي كانت محفورة على الرخام نقشت في ذاكرتي ولم أنسها، وكلما جاء ذكرها أهاجت في أعماق نفسي مشاعر جياشة عارمة.

كنت أحدث نفسي وأقول: كم مرة مر أجدادي محمد أغا وعلي أغا ومصطفى أمام هذه اللوحة، وقريب منها سارية معقود عليها علم أحمر به هلال ونجمة هو علم السلطان الأعظم عبد الحميد: الخليفة، وكانت الثكنات تموج بمئات من جنود الدولة العثمانية بملابسهم المزركشة وطرابيشهم الحمراء وسيوفهم اللامعة تحت أشعة الشمس الساطعة وهم على الخيول العربية الأصيلة يتدربون على أنواع القتال استعدادا للدفاع عن تراب الوطن الغالي أو لنشر العقيدة الإسلامية عقيدة الحق والعدل.

كل هذه المشاعر غمرتني في تلك المرة ومازالت تغمرني في كل مرة أذكر البيت "دار الغزاة دار العز والشرف". كان عالما آخر قبل أن أولد بسنوات قليلة، وكنا نسمع عنه كل خير من كبار العائلة، كنا نسمع مبهورين كل ما هو جميل مشرق عن ذلك العهد من الذين عاشوه في شبابهم وكانوا من رجالاته.

خلال القرن الماضي، بقيت الثكنات ثكنات، وأدخلت تعديلات كثيرة عليها، ورفع عليها بالتناوب أربعة أعلام، التركي الأحمر، الإيطالي مثلث الألوان،

البريطاني ذو الشرائط المتقاطعة، ثم الليبي ذو الألوان الأربعة، والأخضر حاليا الذي سيبقى خفاقا ما دام هناك عرب ليبيون يحبون بلادهم ومستعدون للتضحية في سبيلها.

كما تلاحظون، المنطقة كانت عسكرية الطابع، سكانها من الجنود والضباط في كل العهود، وفي طفولتي كان الشارع مزدحماً بالعربات الكبيرة التي تجرها خيول ضخمة، وهي محملة بالإمدادات العسكرية المتنوعة يحرسها جنود من المستعمرتين الإيطاليتين إرتريا والصومال بطرابيشهم الحمراء الطويلة وهم على بغالهم الصغيرة سريعة الحركة والعدو والقفز. المحلة سكنها كثير من الجنود الليبيين المتطوعين في مختلف الأسلحة مع عائلاتهم.

معالم شارع الزاوية القديم زال معظمها، ولم تبق إلا في الذاكرة، وأذكر أنه في السنوات الأخيرة رأت البلدية أن تزيل البيوت والأزقة التي ورد ذكرها في هذه الذكريات بإسهاب مدة فترة طفولتي في العشرينيات. وفي خلال أسبوع مسحت من عالم الجغرافيا زنقة الفزاني والزنقة الوسطية وجزء من زنقة الخروبة وصارت فضاء، ولا أعرف ماذا سيكون مكانها، لم تكن للبيوت قيمة مادية كبيرة، ولكن قيمتها كانت عاطفية، تناقصت مع تطور المنطقة العمراني، والاختفاء التدريجي لأولئك الذين ولدوا بها وعاشوا فترة طويلة من عمرهم السعيد أو غير السعيد عليها.

## 17 نماذج من حياة ذلك العهد:

في عهد طفولتي في العشرينيات كانت الحياة بسيطة، احتياجات الناس محدودة، قيدتها إمكانياتهم المالية، وقلة الموارد المالية حدت من تطلعات الناس وطموحاتهم، وكانت حلقة مفرغة عشناها. مجال العمل كالعادة، الوظيفة الحكومية للمتعلمين أو شبه المتعلمين، والزراعة البدائية بشقيها الريفي والبدوي وتجارة البقالة لمعظم الناس العرب. أما النشاط الصناعي

المحدود أصلا فقد كان حكرا على اليهود والنصارى أي الإيطاليين، ومعظم تجار الاستيراد والجملة يهود.

النظام الإداري للبلد لم يفسح المجال رحبا أمام العنصر العربي الليبي، بل على العكس، ضيقه عليهم كثيرا لأسباب سياسية، عملا بالمثل الشعبي (جوع كلبك يتبعك) وخوفا من تمردهم. لذا فالوظائف المتاحة في المجال الإداري هي (قائم مقام) أي نائب للمتصرف وهو إيطالي، يليها مدير ثم نائب مدير ثم شيخ قبيلة في البادية ومختار في المدن مع وظيفة (إمام محلة) المنوط إليه الشؤون الاجتماعية.

في مجال القضاء كان القاضي ونائب القاضي الشرعي، ومجاله محصور في الأحوال الشخصية، وخلاف ذلك من اختصاص القضاة الإيطاليين. وبقي للعرب التطوع في الخدمة العسكرية مع الإيطاليين ضد حركة المقاومة التي دامت لفترة طويلة كما هو معروف في كتب التاريخ، التطوع لم يكن أمراً مشرفا وكانت تنفر منه النفوس بطبعها ولكن ضيق العيش المحكم، كان يرغمهم عليه (ما يجيبك إلى المر إلا الأمرّ منه).

في مجال التعليم كانت وظيفة معلم ابتدائي، التعليم للعرب لا يزيد على الابتدائي، ولم يسمح بفتح أول مدرسة ثانوية في طرابلس إلا في سنة 1938 قبل سنوات قليلة من زوال الحكم الإيطالي البغيض. يضاف إلى كل ما ذكر وظيفة بواب أو مباشر. وظائف محدودة ورواتب مضغوطة.

الزراعة كانت بدائية أصلا تعتمد على ماء المطر في البادية وعلى المياه الجوفية طول الساحل وفي الواحات. السواني محدودة المساحة، والمياه ترفع من البئر ذات الجناحين بالبقرة. والبئر لها جرارة وكريوة والرشي والسميت، ومجر ومَمقس وميدة وجابية وعين الجابية والسواقي، مصطلحات سادت ثم بادت واندثرت، وبقيت مجرد ذكريات.

الحكومة الإيطالية لا يهمها تطور زراعة السكان المحليين العرب بأي شكل من الأشكال، يهمها بالدرجة الأولى أن تتدفق أعداد كبيرة من شباب الريف والبادية

وكهولها تبحث عن العمل في مزارع الإيطاليين التي أنشئت على الأراضي المغصوبة من العرب، هذا هو الهدف وهذا هو المطلوب.

تجارة العرب كانت في دكاكين البقالة وفي المواد الغذائية بالذات، تجارة المنسوجات والملابس والقرطاسية والمركوب وغيرها كانت في أيدي اليهود استيرادا جملة وتفصيلا، مجال الصناعة ضيق. الحدادون في القرى يهود، وأصحاب الورش نصارى، كلمة نصارى اصطلاح شعبي ويعني إيطاليين.

الحكومة الإيطالية قامت في العشرينيات في عهد الوالي الكونت فولبي ببعض الأعمال المدنية، عبدت الطرق، ومدت السكة الحديدية، وبنت بعض المدارس والمستشفيات، والمباني الإدارية العامة، كل هذا أحدث نوعا من الرواج الاقتصادي لم يكن معروفا من قبل.

هذا هو الوضع السائد في العشرينيات. ورغم سياسة خنق العنصر العربي بمختلف الوسائل فالحياة مستمرة، وعامل الحرص على البقاء كان يدفع الناس إلى الكد، والتكيف مع ظروف شظف العيش القاسية. نحن الأطفال كنا نمرح، ندرس ونتشاجر ونكبر ونكبر. وسأعرض نماذج أخرى للحياة في تلك الفترة.

**18** **العطلة الصيفية وسانية جدي:** العطلة المدرسية الصيفية كانت محببة للتلاميذ والمعلمين. أنا وإخوتي علي وكمال كنا تلاميذ، ووالدي كان معلما، والعطلة كانت محببة حتى لوالدتي حيث كانت تذهب بالمناسبة لزيارة والدها جدي وإخوتها وأخواتها (خوالي وخالاتي) وكنا نرافقها.

العائلة كلها كانت تترقب العطلة الصيفية المدرسية، نحن الأطفال نتلهف لزيارة سانية جدي، أما والدتي فتستعد للزيارة بإعداد كمية من الخبز المنزلي الذي كانت تتقنه وتتفنن في صنعه. كان دورنا محصوراً في نقل الخبز إلى الفرن العمومي والعودة به ناضجا شهيا.

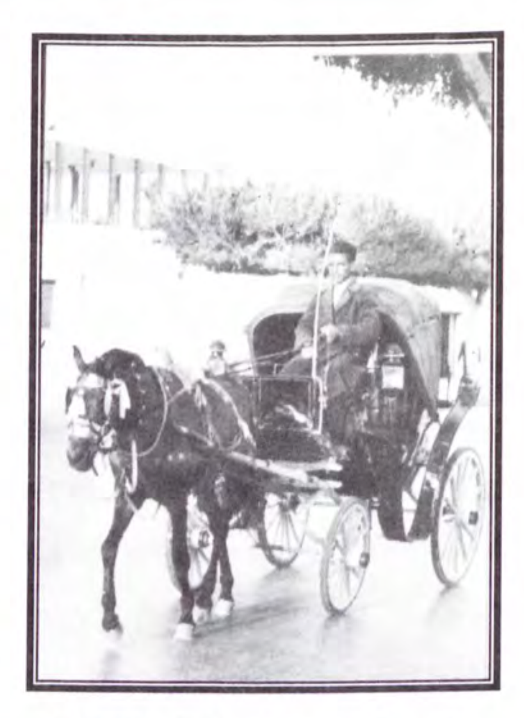
كنا نأخذ الخبز معنا هدية لجدي وأهل جدي، جدّتي فاطمة الزوجة الأولى وأولادها وبناتها الكبار وبعضهن متزوجات، وزوجة جدي الثانية مع أولاده. الخبز

كان يهدى كما تهدى الشكولاته الآن. خبز المدينة كان يتميز عن خبز الريف، خبز المدينة كان ينضج في الفرن العمومي، أما خبز الريف ففي أفران خاصة صغيرة كانت في ركن من السانية خارج البيت.. وكانت تسمى طابونة وتنور.

**19 كروسة عمي علي فونجة:** عمي علي فونجة هو أحد جيراننا، شخصية ظريفة جدا مهذب وكنا نحبه ونحترمه ونضيف إلى اسمه المجرد لقب عمي. لقب عائلته (الغدامسي) ولكن اشتهر بفونجة، كان قصير القامة نحيفا أسمر البشرة دائم الابتسامة. كان لعمي علي كروسة وهي كلمة إيطالية، والكروسة عبارة عن عربة لها أربع عجلات مهيأة لنقل راكبين كبار وراكبين صغار يجرها حصان.

عمي علي فونجة كان صاحب العربة فهو الكرارسي أو (العربجي) وكانت كروسته متينة فسيحة نظيفة يعتني بها كثيرا فذلك طبعه، وهي مصدر رزقه ورزق عائلته. تنقلنا نحن سكان شارع الزاوية كغيرنا يتم مشيا على الأقدام والسيارة كما قيل لم تعرف أو كان استعمالها محصورا في بعض الأوساط الرسمية الحكومية، والكروسة يستعملها العجزة الميسورون أو سيدات بعض العائلات مع أطفالهم الرضع أو الصغار وللمشاوير الطويلة مثل سوق الجمعة. والدتي كانت تنتقل إلى بيت عائلة بن محمود أقاربها في شارع بالخير تارة مشيا على الأقدام وتارة في كروسة عمي علي فونجة حسب الفصول والظروف، مشوار الساحل، سوق الجمعة، سانية جدي كان لا يتم إلا بكروسة فونجة.

كنا نخبر عمي علي قبل موعد الرحلة بيومين على الأقل، حتى يستعد ويتفرغ لنا، ركاب الكروسة كنا خمسة: والدتي وأنا مصطفى والأخوة علي وكمال وأختي سعدات، وربما كانت رضيعا أو شبه ذلك، يضاف إلينا الخبز وصرار (جمع صرة) ملابسنا، فتكون الحمولة غير اعتيادية حجما ووزنا. ولكن عمي علي تعود على ذلك وكذلك الحصان والكروسة. المحظوظ منا من يجلس جنب الكرارسي وراء الحصان مباشرة وخلفه الكروسة بمن فيها، وللكروسة سقف متحرك يقيها حرارة الشمس صيفا والمطر شتاء.



كروسة عمي علي فونجة 1925



بئر سانية جدي 1927



بابور الغاز والفنار

يودعنا والدي الذي يشرف مع عمي علي على شحن العربة أفرادا ومـواد، وتتحرك الكروسة باسم الله مجراها ومرساها نحو الساحل فنسلك أحد الطريقين: إما الظهرة باب ترهونة، أو طريق السور باب ترهونة، باب ترهونة أحد أبواب سـور طرابلس الجديد الشهير بمنطقة الهاني يربط مدينة طرابلس والمنشية مـع الـساحل العامر بالبساتين المشجرة نخيلا وزيتونا ورمانا وتينا وليمونا.

الرحلة فسحة ممتعة حتى نخرج من السور بمسافة نصف كيلومتر ونـصل إلى موقع على الطريق الترابي يعرف بقصر الهاني أو سيدي عامر، مرتفع قلـيلا على مستوى الطريق كان كثيبا، أو بقايا كثيب متواضع. في هذا المكـان تغـوص عجلات الكروسة في الرمل والعجلات ليست من المطاط المنفوخ بالهواء بل هـي من خشب محاط بدائرة من حديد، ليست عريضة، وتتأزم الأمور وتخفف حمولـة العربة بنزولنا، وتبقى الوالدة مع الطفل الرضيع أو الصغير. وكلنا خلف الكروسـة ندفعها إلى الأمام وعمي علي يحرض الحصان بضربه بالـسوط علـى أن يبـذل مجهوداً أكبر، والحصان يتصبب عرقا ويبدو أنه متعاون غير مقصر ولكنه غيـر قادر.

ويتدخل بعض المارة وبعضهم يعرف جدي، وبعد التشاور مع عمـي علـي يخلِّصون العجلات المردومة ويزيلون التراب من أمامها ويدفعونها معنا بأشد عزم فتنفرج الأمور، وتندفع الكروسة على أرض صلبة نسبيا منحدرة، ويتوهم كل منـا أنه صاحب الفضل الأوحد في حل المشكلة، والحقيقة أن تعاوننا الصادق بعد مشيئة الله وعونه هو أساس النجاح، هذه سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا. وصلنا بعد دقائق إلى سانية جدي، بابها كبير مفتوح، دخلناها بحمد الله آمنين فرحين.

20 **سانية جدي:** سانية جدي كغيرها من السواني المجاورة، مـساحتها لا تزيد على الهكتار، عمق ماء البئر يحدد مساحة السانية، كلما كانت البئـر عميقـة كانت مساحة السانية أصغر. تبدو لنا أحسن من غيرها، بها جابيـة تظللهـا داليـة عنب، بها بيت فخم يتناسب مع مركز جـدي الاجتمـاعي والإداري، بـه غرفـة للضيوف، إضافة للمربوعة.

فلاح السانية اسمه الفرجاني من غريان: قبيلة قحاصات، أعور، صبور حليم، مطيع لجدي، يظهر أنه غير مصاب بمرض ضغط الدم أو السكري. كان يقوم بكل الأعمال الزراعية والشاقة منها بالتأكيد، يساعده بعض أفراد العائلة في الأعمال السهلة البسيطة. جدي في تلك الفترة في العشرينيات، كان مستدير الوجه لحيته بيضاء، بدين، وكان مصابا بمرض المفاصل في الركبتين، يمشي بصعوبة، ويستعين بعصا قوية يستند عليها.

ينضم إلينا مع خالي إبراهيم ابن جدي من الزوجة الثانية، سالم الزقطاط ابن خالتي فطومة، يتكامل الفريق أو العصابة مصطفى وعلى وإبراهيم وسالم، كنا نجري على طول السانية وعرضها دون قيود، نتصرف، نعبث بالمسموح والممنوع. السانية سانية جدي ونحن في إجازة.

جدي كان شديد القلق علينا، يخشى علينا من أي سوء، تراه جالسا على كليم طال استعماله، متكئاً على وسادة، بجنبه عصاه وهو يصيح: يا فرجاني رد بالك من الصغار، أبعدهم عن البئر المكشوفة والجابية المليئة بالماء. أبعدهم عن حفرة الأرانب ونبات الصبار الشائك الهندي، ردّ بالك منهم ! الفرجاني كان يستمع لجدي ويرد بأدب حاضر يا بي. ولكن من كان منا يستمع للفرجاني، الفرجاني ينصح، يحذر بلطف ويعرف أنه غير مطاع ويترك الأمور تأخذ مجراها المقدر لها والله خير حافظ للجميع. كان أخوالي يرحبون بنا كثيرا حبا في أختهم، وتقديرا لأبي فوزي الذي عرفوه وأحبوه حتى قبل المصاهرة. وتستمر الإجازة حوالي أسبوعين يزورنا والدي خلالها على فترات، وكان يسيطر علينا. ويرحب جدي بوجوده حيث يخليه من المسؤولية، وكان والدي يلهينا ويساعدنا في اصطياد العصافير وإعداد الفخاخ ويشاركنا في بعض الألعاب، الفرجاني المسكين لم يكن له وقت ولا استعداد لذلك. كانت السانية ملعباً لنا طول النهار كما قلت، ندوس على المزروعات الصغيرة دون أي اعتبار، غير مبالين بأنها مصدر رزق لفريق من خلق الله.

## 21 الشعب والاحتفالات الدينية والاجتماعية:

من المناسبات الدينية والاجتماعية التي يحتفل بها الشعب الليبي في العشرينيات، المولد النبوي الشريف

وعاشوراء. ولكل من المناسبتين احتفالات خاصة متميزة بها، عشناها وذكراها لا تزال عالقة بالذهن مع تفاصيلها. الآن الصورة تغيرت، واهتمام الأطفال و الكبار منصرف نحو مجالات أخرى، كالرياضة والفرق الرياضية، والمسلسلات التلفزيونية، والفيديو والإنترنت. إنه التطور.

الفقهاء يقولون إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتفل بعيد ميلاده ولا الخلفاء الراشدون، والاحتفال بدعة ولكنها بدعة حسنة.

الشعب في طرابلس يحتفل بالمولد ولا ينتظر رأي الفقهاء، ويكاد يعتبر الاحتفال أمرا مقدساً وواجباً. لماذا؟

الشعب يحس أنه مقهور اقتصادياً وسياسياً ونفسياً، والسبب في ذلك هو الحاكم الإيطالي الجديد وما يمثله من استعمار.

الشعب يعاني فقراً مدقعاً، وهو محروم من كل شئ منذ زمن بعيد، منذ حكم الأتراك أو قبلهم، وسلاحه الوحيد المتاح، الصبر والتحمل.

البعض يرى في الصبر ميزة وفضيلة ويرى آخرون أنه مساو للخضوع والركون والإذعان للظلم.

الظلم والقهر السياسي يغشي الأبصار لا يحتاج إلى دليل. العلم المرفوع على مكاتب الحكومة هو العلم الإيطالي ذو الألوان الثلاثة الأخضر والأبيض والأحمر، في وسطه في الجزء الأبيض منه شعار العائلة المالكة الإيطالية، وفى وسطه الصليب. والصليب في العشرينيات مساو للكفر، والعياذ بالله.

22 **الشعب يحن للخليفة السلطان:** الشعب يذكر أنه كان قبل سنوات قليلة يحكمه الخليفة السلطان، ويذكر أيضا أنه كان يضرب بالسوط لإجباره على دفع ضريبة العشر على الشعير الذي لم ينبت أصلا في البادية لعدم نزول المطر، كان يضرب من جنود الوالي التركي الممثل للسلطان، وقد ثار الفلاح البدوي الليبي عليهم مراراً.

ولكن الظلم الجديد والقهر الجديد أنساه الظلم السابق، وعلى الأقل أن الحاكم السابق كان مسلماً، وكان يجمع الضرائب بقسوة، لينفقها في سبيل الدفاع عن أرض الإسلام في البلقان وغيره، وأما الحاكم الجديد الرومي فإنه قهرهُ، ونزع وينزع منه أرضه مصدر رزقه ليعطيها لشخص آخر غريب ليقيم عليها مزرعة خاصة به. الشعب تناسى الماضي الكريه، وصار يحن للخليفة السلطان، يحن للعلم الأحمر ذي الهلال والنجمة، وللضابط التركي والطربوش الأحمر.

الشعور الديني قوي جداً في النفوس، الفقهاء يريدونه أنقى وأصفى، العامة لا تميز بين الدين والسياسة. الرابطة التي تجمعها رابطة دينية، الشعور الوطني القوي لم يظهر بعد. وقاتل من قاتل من الناس واستشهد من استشهد من أجل العقيدة الدينية والباقون هم الآن عجزة، ينتظرون الخليفة السلطان ومن يمثله من قوة روحية ومادية ليخلصهم مما هم فيه من تعاسة وهوان. ويقاومون شعور اليأس بشعور مضاد يتمثل في مقاومة سلبية تتمسك بأي شعار، بأي رمز لخليفة رسول الله. ولم يبق لهم متاح إلا الاحتفال بمولد رسول الله.

23 **الشعب يقاوم اليأس:** المستعمر حطم المقاومة المسلحة المتمثلة في جنود الخليفة السلطان، وفيمن قاوم من الشعب الليبي، وحطم وأزال بالقوة كل المظاهر السياسية التي تمثل الخليفة السلطان، وكان يدرك أنه هناك قوة أخرى كامنة في نفوس الأفراد، وهى العقيدة الدينية، وهى خطر كبير على الاستعمار،ويجب القضاء عليها هي أيضاً، ولكن السلاح المادي لا يفيد في ذلك، ويجب ابتكار أسلحة أخرى، سياسية، وثقافية ونفسية، وأن القضاء على هذه القوة الكامنة في النفوس يحتاج إلى وقت طويل. وسيبذل المستعمر المجهود اللازم في سبيل ذلك. الشعب بدوره، المتمثل في جميع أفراده بدون استثناء ذكوراً وإناثاً كان يدرك ذلك بطريقة عفوية ويتمسك بالعقيدة ومظاهرها، مدفوعاً بإحساس عميق، أساسه حب البقاء، وا لملذات البشرية بشقيها المادي والروحي.

كان يتصرف ويعمل دون قيادة، ودون توجيه ليحافظ على نفسه كذات, ولتوفير ما تحتاجه من ضروريات الغذاء والكساء بمختلف الوسائل حتى البغيضة

منها وفى الوقت نفسه يعمل بنفس الطريقة اللا شعورية على المحافظة، وعلى تقوية الجانب الروحي من ذاته بكل الوسائل المتاحة.

ومن الوسائل المتاحة في هذا الجانب الاحتفال بالمولد النبوي الشريف.

24 **الشعب يتجاهل الزعيم مصطفى كمال:** الشعب الليبي أو النخبة منه سمعت بظهور الزعيم التركي مصطفى كمال في أوائل العشرينيات وما قام به من أعمال بطولية لتحرير الأراضي التركية، كما سمعت بما قام به فيما بعد من إطاحة بالخليفة السلطان وما يرمز له، وأنه فصل الدين عن الدولة، وأن تركيا صارت دولة علمانية لا دين لها رسمياً.

الشعب يمجد أعمال مصطفى كمال العسكرية، ويستنكر ما سمعه في الجانب الثاني، ولا يريد تصديقه، تجاهله، ولا يريد أن يصدق ما تسربه الدعاية الإيطالية من أن الأتراك تركوا الطربوش الأحمر وصاروا يلبسون البرنيطة، بأمر من الزعيم الجديد مصطفى كمال.

الراسخ في ذهن أفراد الشعب والواضح أمامهم وأن العلم الذي يرونه صباحاً ومساء هو علم ملك إيطاليا، وملك إيطاليا هو حامي المسيحية، والمسيحية هي ضد الإسلام، وما هو ضد الإسلام فهو كفر.

وقد قاوم الشعب الكفر قديماً مع الأتراك وبدونهم، وإن تغلب الكفر مؤقتا فالصراع أزلي لم ينته، والصراع باق ما بقيت الرغبة في المقاومة حية بكل أشكالها حتى السلبية والمخففة حسب مقتضيات الأحوال.

وإذا كان الطليان يريد إغراقنا، علينا أن نتشبث بأي شي حتى لا نغرق، ومن حسن الحظ أن الطليان تركوا بعض المظاهر الإسلامية تطفو على السطح متناثرة كالطرق الصوفية والغرض من إبقائها هو نوع من استمالة الشعور الشعبي وتضليله وتخديره وإيهامه بأن المستعمر لا يحارب الدين.

وحاول تنصيب مشايخ لتلك الطرق من الذين يسيرون في ركابه وبتوجيهاته. يوافقونه على أن الكلام عن الجهاد والاستشهاد في سبيل الله جريمة لا

تغتفر، أما الرقص في حلقات الذكر فهو مسموح به لمن أراد، فليله الشعب ويرقص في حلقات الذكر كما يشاء. الشعب بدوره يلهو ويشترك بحماس في حلقات ذكر الله حاملاً الطبلة، لأن هذا هو المتاح الآن، وينتظر يوماً سيأتي لا محالة، يعلن فيه الجهاد في سبيل الله، ويحمل بيده القنبلة اليدوية بدلاً من الطبلة.

**25 الصراع المتواصل:** صراع خفي بين مستعمر ظالم منظم بأجهزته وخبرائه وخططه، وأمواله وزبائنه وزبانيته، وبين شعب مقهور غريق دون قيادة، فالقادة استشهدوا، والغرقى لا يحتاجون إلى قيادة تفكر لهم وتخطط، وتصدر الأوامر والتوجيهات. تكفيهم غريزة حب البقاء والتمسك بالحياة مهما كانت بشعة، ويكفيهم الإيمان الراسخ بأن الله حي لا يموت، وأن الله الواحد القهار نصير المظلومين فهو معهم في كفاحهم في سبيل الحق.

الإيمان الراسخ يزود الجسم البشري الضعيف بسبب المرض، والهزيل بسبب الجوع، يزوده بطاقة أقوى من الطاقة الذرية التي عرفت بعد حين، بطاقة لها مفعولها وتأثيرها الرهيب على نفوس الغرقى.

ويغرق من يغرق، وينجو من ينجو من الذين كتب الله لهم النجاة، والصراع مستمر.

**26 محلتنا تستعد للاحتفال بالمولد:** الشعب المسكين يريد أن ينسى همومه، الكثيرة فالوسائل المتوفرة الآن من مباريات رياضية، وتلفزيون، وسينما وراديو، لم تكن معروفة في العشرينيات، وتناول المسكرات في الحانات حرام ومكلف. والمخدرات غير معروفة والحمد لله.

أما حلقات الذكر والمألوف كلما أمكن ذلك فإنها محببة للنفس البشرية وهي نوع من أنواع الطرب البريء له صبغة دينية مقبولة ومحببة. لا يكلف شيئا وربما يتيح الفرصة لاحتساء بعض كؤوس الشاي أو أكلة شهية ولو على فترات متباعدة، الاحتفال بالمولد النبوي فرصة هائلة للتفريج عن النفس.

الجميع يترقب المولد والجميع يستعد له، كل فرد حسب مزاجه وقدراته. محلتنا هي أيضا تستعد قبل أسبوع على الأقل للاحتفال به، والمظهر الشعبي المشترك الخاص هو أكل العصيدة صباح يوم المولد 12 ربيع الأول، أما المظهر العام فهو الحضرة.

والحضرة كما هو معروف نشاط فني عملي، ذو طابع ديني لطائفة أو طريقة صوفية (نسبة إلى التصوف والزهد) وكل طريقة تنتسب لولي معروف له كرامات وأتباع.

حضرة شارع الزاوية تنتمي للطريقة العيساوية نسبة لسيدي محمد بن عيسى المكناسي المغربي، وهناك الطريقة الأسمرية نسبة إلى سيدي عبد السلام الأسمر الزليطني، والطريقة أو الزاوية القادرية نسبة إلى سيدي عبد القادر الجيلاني العراقي، وغيرها من الطرق والزوايا الأخرى الأصيلة أو المزيفة وجدت في ظروف سياسية معينة بقصد الخير أو التضليل والبلبلة، ولكل زاوية أنصار يكثر عددهم ويقل حسب الظروف كما هو الحال الآن مع النوادي والفرق الرياضية.

27 **جمع التبرعات:** شباب المحلة فتيانها هم شواش الزاوية وأركانها، أذكر منهم إبراهيم توفيق، ومصطفى العاشي، ومحمد الحداد، و أبوبكر تومية وعلي ناجي وأبوبكر زهو وعمار الفقهي ومختار فريسن، كانوا بطبيعة تكوينهم المحرك للحضرة، كانوا يتصلون بكل سكان المحلة يجمعون التبرعات.

الأفراد رغم ضيق اليد كانت تجود بما في إمكانها، مدفوعة بمشاعر شتى، المطلوب ليس كثيراً، المهم المساهمة، فرنك مع فرنكات أخرى تكون مئات تكفي لتجديد الرايات المتعددة الألوان والمطرزة بشهادة أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله وآيات قرآنية أخرى وإصلاح الآلات الموسيقية من غيط ودفوف ونقرات، وإنفاق على شراء الشاي والسكر الذي يقدم بسخاء على الجميع والضيوف وعلى أجرة بسيطة لشيخ الحضرة، أما الشواش الذين ذكرتهم فهم متطوعون غير متفرغين والشعور السائد في المحلة رغم ما في العلاقات بين الأفراد من توتر وشوايب هو أن الزاوية يجب أن تجتمع لأطول مدة، وفي أحسن شكل تتباهى به

المحلة وتفتخر بين المحلات الأخرى، ولكل منها زاويتها وحضرتها. وتتحمس بعض الشخصيات في المحلة ومنها عمي نوري فيقول نفقات ليلة الختم بما تحتاجه من حلويات تسمى بالاسم التركي (شكار) هي على حسابي ويصرح آخر إن تجديد الرايات على حسابي ويفرح الشواش الفتيان.

28 **تلاوة البغدادي:** فاتني أن أقول إن من مظاهر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف تلاوة ما يعرف بالبغدادي، وهو مجموعة من الابتهالات والمواعظ في قالب شعري جميل، مرتب حسب حروف الهجاء تتخلل تلاوته كثير من الصلاة على النبي ومن أبياته مثلا:

" **صلاتك ربي والسلام على الذي** **به حرمت شرعا علينا الخبايث** "

ويلاحظ أن آخر حرف في آخر كلمة هو.ث.، تختم تلاوة البغدادي قبيل الاحتفال بالمولد وتوزع أثناء الختم الذي يحضره عدد كبير من أفراد المحلة وشخصياتها والضيوف الحلوى (الشكار) وتتلى الأدعية المؤثرة التي تركز على أن يجمع الله شمل الأمة وأن ينصر من ينصر الدين ويصلح حال المسلمين. قنوات عديدة صغيرة تصب في روافد ثم في النهر الكبير هدفها المعلن والخفي هو تعبئة الشعور العربي والإسلامي العام بالطرق والوسائل المتاحة استعدادا ليوم النصر.

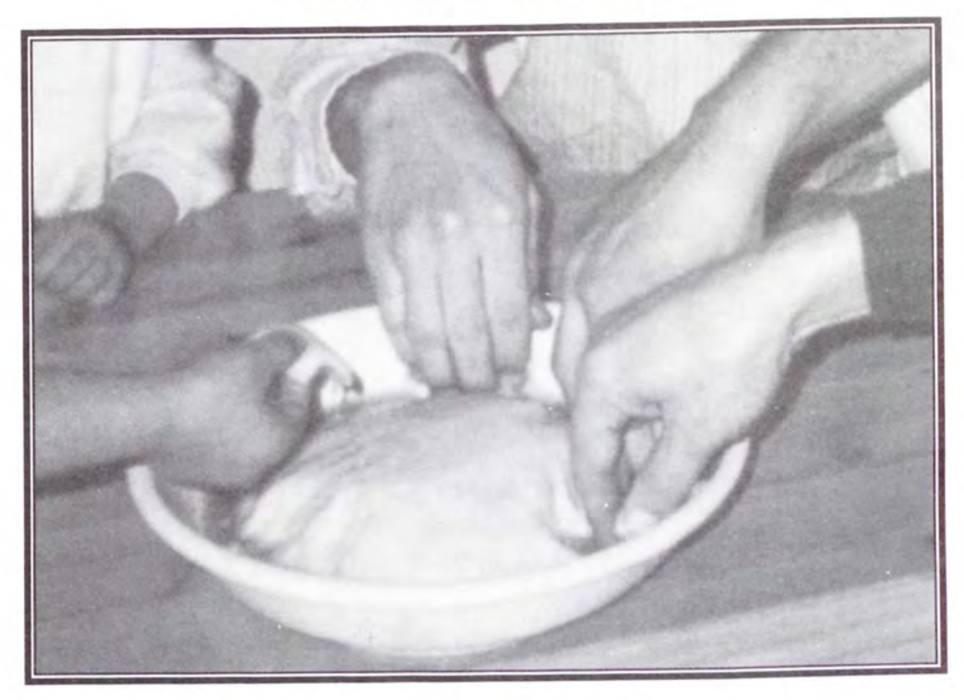
29 **الخميسة والقنديل:** والدي رحمه الله كان يهتم قبل أيام بتزيين خميسة أختي سعدات، الخميسة هي قنديل معروف حتى الآن مكون أساسا من خشبة على شكل كف مفتوحة مركب على كل إصبع فيها خوصة من صفيح تحمل شمعة، هذه الكف بها خمسة أصابع وخمس شمعات ولذا سميت خميسة،الكف مثبتة على هيكل من خشب أيضا مزين بسلاسل وشرائط وزهور كلها من ورق ملون، تمازج الألوان والأشكال يعطي الخميسة شكلا جميلا جذابا. والدي يستفيد من الهيكل الخشبي القديم ويتفنن في تزيينه، وكنا نشترك معه في ذلك. أما الوالدة فإنها تعد قناديل الأولاد التي هي بعكس خميسة البنات لا فن فيها ولا زينة ولاشي من ذلك.

فهي عبارة عن قطع من حبال مغمورة جيدا في مادتين من مشتقات النفط "القاز" الذي يستعمل وقودا في الشؤون المنزلية ومادة القطران وتربط قطع الحبال في جريدة نخل منزوع السعف والقنديل جاهز للاستعمال.

احتفال القناديل والخميسات يكون يوم 11 ربيع الأول بعد المغرب في الزنقة حيث يخرج جميع الأطفال بالقناديل والخميسات والكبار بالشموع المضيئة والكل يترنم بكلمات بسيطة جميلة تعبر عن السرور بالمولد وصاحبه عليه أفضل الصلوات وأزكى السلام، منها: ".. هذا قنديلك يا حواء، يشعل من المغرب لتوا، هذا قنديل وقنديل هذا قنديل الخليل.." يتخلل ذلك التصفيق والصراخ من الكبار على الصغار الذين يتحركون بتلقائية مع قناديلهم في الزنقة الضيقة وتحذيرهم من وقوع حرائق لا سمح الله، يستمر الاحتفال إلى ما بعد صلاة العشاء ثم يدخل الجميع إلى بيوتهم فرحين بجو الاحتفال بعد التأكد من إطفاء بقايا القناديل الملقاة على تراب الزنقة.

30 **العصيدة:** يوم 12 ربيع الأول هو يوم المولد، وهاهو المولد قد حل. نستيقظ نحن الأطفال مبكرين ولكن أمي كانت تستيقظ قبلنا وتعد "العصيدة"، وهي أكلة شعبية معروفة حتى الآن تتكون من خليط من دقيق قمح وماء مطبوخ جيدا يأخذ شكل قبة وسط صحن كبير يسكب على القبة زيت زيتون ورب التمر أو سمن مع عسل وكلاهما لذيذ. نأكل العصيدة ساخنة بعد لتّها بالأصابع مع الزيت والرب، تؤكل العصيدة في اليوم الأول من المولد أو بعده، في بعض العائلات تعد العصيدة وتقدم عادة للنفساء بعد الولادة كأكلة مركزة تحتوي على عناصر غذائية تحتاجها المرأة في تلك الظروف، كما تقدم إلى الجيران المهنئين بالمولود الجديد وسط زغاريد النسوة.

31 **الحضرة:** ومع الضحى نكون جاهزين بملابسنا الجديدة، وبعد زيارة الأقارب نتوجه إلى الجامع حيث يفد جميع سكان المحلة للتهنئة بالمولد، والاشتراك في الحضرة. واحتفال الحضرة كما نعرف يتكون من ثلاث مراحل الأول تسمى



الأيدي تمتد نحو العصيدة



واجهة مدرسة الفنون والصنائع 1925

قراءة الحزب صباحا، وبعد العصر يكون "الذكر"، يليه حفلة "المالوف ويسمى الفن"، وتفصيل ذلك كآلاتي:

يجتمع ضُحى كهول وشيوخ المحلة جلوسا أرضا في حلقة كبيرة يقرؤون ويرددون بشكل جماعي عبارات توحيدية مصاغة في سجع جميل، القراءة تستمر حوالي ساعتين، مع نوع من التلحين البسيط الذي يتغير على فترات منعا للرتابة أذكر منها بعض العبارات :

**سبحان الباقي لا يزول، سبحان الباقي لا يفنى.**

**كان الله وحده ولا شي معه، فأوجد الكائنات ليعبد جل الله.**

**لا اله إلا الله، لا اله إلا الله، يفنى الخلق يبقى الله.**

يتولى الإشراف على حسن الأداء أفراد من بين الموجودين سبق لهم خبرة في المجال في سنوات أو مناسبات سابقة، ويرأسهم شيخ الحضرة الشيخ علي إدريس. يرفع أذان الظهر من على المئذنة وبعد الصلاة ينصرف الجميع مع الأطفال إلى بيوتهم لتناول الغداء الذي هو عادة كسكسي بلحم الخروف، وبعد فترة راحة القيلولة يعود الجميع من جديد قبيل العصر مع الأطفال إلى الحضرة لمواصلة الاحتفالات.

32 **<u>الذكر والمألوف:</u>** المرحلة الأولى من احتفالات المساء ما يعرف بالذكر، وأفراده من الشباب، يصطفون في شكل دائرة كبيرة، وقوفا ووسطها يجلس شيخ الحضرة مع بعض المنشدين يرددون بعض الأناشيد الدينية في ألحان جميلة متناسقة ومتناغمة مع إيقاعات الذاكرين وقوفا، والذين يتمايلون يمينا وشمالا، وتصدر عنهم بعض الأذكار مع استعمال ما يسمى "البازة" وهي عبارة عن طبلة صغيرة تحمل باليد وتساعد على ضبط التنسيق الإيقاعي بين المنشدين الجالسين والذاكرين لله سبحانه وتعالى وقوفا.

نحن الأطفال نتفرج على كل ذلك وتسجل ذاكرتنا بطريقة عفوية ما نرى وما نسمع ثم نلعب ونمرح داخل صحن الجامع وخارجه مستمتعين بجو المولد كل

الاستمتاع، ينتهي الذكر وبعد فترة استراحة قصيرة يبدأ ما يعرف بالمألوف وهو لون آخر من الاحتفالات يختلف عن سابقيه له رجالاته المغرمون به حيث يجلس مجموعة من المنشدين وحولهم مجموعة أخرى من حملة الدفوف " البنادير " وبجانبهم العازف على المزمار" الغيطة" مع أدوات أخرى اسمها "الزل" والنقرة والنوبة وتكون جميعها جوقة تصدر عنها ألحان تمتزج مع الأناشيد في شكل بديع يقال إنه أندلسي الأصل توارثناه عبر الأجيال.

المألوف محبب للنفوس كثيرا للكبار والصغار، وفي أثناء ذلك ينصرع بعض الأفراد الذين تأخذهم حالة حادة من الجذب بعد التمايل الشديد ويقومون ببلع المسامير أو وخز أحنكهم بسيخ من الحديد أو تعريض أجسامهم للنار دون أن يحترقوا، أمور غير اعتيادية خارقة للطبيعة البشرية. البعض ينبهر بها ومنهم نحن الأطفال والبعض يستنكرها ويراها أموراً لا علاقة لها بقدسية الدين، وقدسية الاحتفال بمولد رسول الله. ويستمر الاحتفال بحضور خالي الشيخ علي إدريس في كل المراحل في نشوة وضجيج إلى ما بعد صلاة المغرب حيث يعود الجميع إلى بيوتهم راضين بأدوارهم في الحضرة ومستمتعين بما شاهدوا من حركات وسمعوا من ألوان الطرب الشعبي الأصيل. الاحتفال يستمر في الأيام التالية ليلا لمدة أسبوع أو أكثر. التزاماتنا الدراسية تحول دون السهر المتواصل كل ليالي الاحتفال بالمولد ويوافق أولياؤنا على مرافقتهم في بعض الليالي وكان لتلك الليالي القليلة طابعها المميز وطعمها اللذيذ ووقعها الجميل الذي بقي مسجلا في الذاكرة عبر السنين.

33

**عاشوراء:** من الاحتفالات الشعبية التي أذكرها من عهد الطفولة "عاشوراء" وهي كما هو معروف مناسبة دينية موعدها العاشر من المحرم، الفقهاء غير مجمعين على رأى واحد حولها البعض يقول إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتفل بيوم عاشوراء، ولا الخلفاء الراشدون والبعض الآخر يرى أنها ذكرى لأحداث تاريخية إسلامية أو بشرية تستحق أو لا بأس من الاحتفال بها والبعض يرى أنها بدعة سيئة ظهرت عندما كان الصراع بين المذاهب والفرق محتدا يفرق بين المسلمين وتأصل في السلوك الشعبي عندما كانت دولة الفاطميين

الشيعية مسيطرة على شمال أفريقيا تخاصم العباسيين في العـراق، الـشعب فـي العشرينيات كان يحتفل بها على أنها مناسبة شعبية غيـر مـدقق فـي الأسـباب والتفاصيل ورأي الفقهاء. والثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم صام يوم عاشوراء وقال بعدها لئن سلمت إلى قابل لأصومن اليوم التاسع.

مظاهر الاحتفال بعاشوراء شعبيا هي أكل الفول و" الشيـشباني" و"اللهلبيـة" وزيارة المقابر، في الفترة التي بين رأس السنة الهجرية وعاشوراء يتهيـأ بعـض شباب المحلة المتحمسين لإحياء المناسبات الدينية الشعبية للاحتفال بعاشوراء وذلك بجمع التبرعات أولا، ويكون ذلك بأن تتكون جماعات من الشباب تطـوف علـى الدكاكين مصفقة راقصة، مرددة عبارة: "..ما زال نبو حق القاز..ما زال نبو حـق القاز.. ما زال نبو حق القاز.."، سعياً للحصول على نقود ولو قليلة لـشراء القـاز الوقود المستعمل في إشعال النار في الزريبة.

أسلوبهم الممزوج بالإلحاح والدعابة والتهريج يؤدي مفعوله وتجمع بعـض النقود وكمية من الوقود "القاز" من عمي "علـي بكـار "المتخـصص فـي بيـع المحروقات والذي كان في شبابه من ضمن المتعصبين للاحتفال بعاشوراء.

## 34 العلاقات مع شارع البي متوترة:

مجموعة أخرى من الـشباب تتفرغ للف على السواني الكثيرة في المحلة لجمع مخلفات النخيل وأي شيء قابـل للاحتراق اللازم لإقامة الزريبة التي يجب أن تكون كبيرة تثير إعجاب سكان المحلة وغيرهم من سكان المحلات المجاورة وخصوصا شارع البي.

العلاقة بين شباب شارع الزاوية وشباب شارع البي لم تكن دائماً صافية بـل كانت متوترة لأسباب لا أعرفها وكثيرا ما تنفجر لأول شرارة وتأخذ شكل التقاذف بالحجارة.

بعض الكبار يتعصبون للصغار والخصومة تأخذ شكل مبارزة بين المحلتـين من هي الأهم ومن هي الأقوى، البعض يرى أنها نوع من تدريب الـشباب علـى استعمال السلاح، اليوم الحجارة المتوفرة وغدا القنابل اليدوية الحارقـة والخارقـة

حتى للمصفحات. أما شيخ محلتنا الشيخ خليفة الشريف وإمامها الشيخ خيري السراج ومعهم الشيخ الفقيه "محمد قديح " من شارع البي فلهم رأي مخالف، إنهم دعاة تعايش ودي بين سكان المحلتين المجاورتين وأن استتباب الأمن ضروري ويجب إطفاء الحريق وهو صغير من البداية، ويتم التصالح بين الفريقين على أن لا يتكرر ما حدث مستقبلا، ويعلم الجميع أنه سيتكرر كما حدث في السابق مرارا .

## 35 الشيشباني وجمع الفول:

ابتعدنا عن جمع الحطب للهليبة والقاز كوقود لها. الشباب المكلفون بذلك جمعوا كمية كبيرة من "السنور" (وهو خشب جذوع النخيل المنشور) والجريد وغيره وخصوصا الليف الذي سيستعمل في لف الشخص الذي يعرف بعد لفه بالليف " بالشيشباني" وربما كانت كلمة إيطالية أو أسبانية أو تركية محرفة والله اعلم.

وبعد إعداد الشيشباني يلتف حوله مجموعة من الأولاد يهتفون ويرددون عبارات طلب الفول من السكان عند الطواف على المنازل..منزلاً منزلاً مرددين عبارة الفول يا فلفول الفول يا فلفول وفي انتظار ربة البيت التي ظهرت لهم ثم غابت يضيفون عليها..مشت تجيب أعطيها الصحة، وإن غابت ولم تعد يقولون.. مشت تجيب كلاها الذيب. ويجمعون كمية من الفول المنقوع في الماء أو المطبوخ ليؤكل. عادة أكل الفول في عاشوراء منتشرة في جميع عائلات تلك الفترة، الفول الناشف ينقع لمدة يومين أو ثلاثة ثم يطبخ بالماء ويرش عليه الكمون المطحون والملح ويؤكل ساخنا يوم عاشوراء، وقبلها وبعدها ويهدى بين الجيران. ويقال إن هذه العادة قديمة جدا يرجع عهدها إلى سيدنا نوح عليه السلام عندما أرست سفينته على جبل "الجودى" وأراد أن يحتفل بهذا اليوم التاريخي وأن يقدم للبشر الذين كانوا معه وجبة غير اعتيادية تليق بالمناسبة فلم يجد في مخازن التموين بالسفينة إلا كيسا من الفول فأمر بطبخة وقدمه وليمة فاخرة للجائعين فشكرا لسيدنا نوح ونعم ما فعل.

## 36 الهليبة ليلاً وزيارة المقابر صباحاً:

وصلنا إلى يوم 9 المحرم، يوم "تاسوعاء " ليلا الاحتفال بإشعال الزريبة فتصير " لهليبه".ونجتمع بعد المغرب

في ساحة جنان الفزاني رجال وشباب وأطفال وبعض نسوة المحلة ووسط هتافات الجميع تشتعل الزريبة ويتبارى الشباب في القفز عليها مع إلقاء القاز عليها لتزيد اشتعالا، يرى البعض في ذلك تدريب الشباب على اقتحام المخاطر كما يفعل جنود فرق الصاعقة في الحروب وكما يفعل رجال الإطفاء إنقاذاً لبعض البشر من الحريق أثناء فترة السلم، الاحتفال يستمر حتى صلاة العشاء وسط الهتافات والصراخ وعبارات التشجيع والزغاريد.

نتوجه صباح يوم عاشوراء بعد الفطور مع والدي إلى مقبرة سيدي أبوغرارة ومعنا جزء عم من المصحف الشريف ونتوزع على قبور أقاربنا الذين ذكرت أسماءهم في فقرة 14 من الذكريات والوالد يشرح صفة كل واحد من المرحومين في إيجاز. وبعد أن يلف كل واحد منا على قبور الأقارب قبرا قبراً ونقرأ ما تيسر من قصار السور نقرأ سورة الفاتحة على جميع المدفونين في المقبرة وعلى جميع المسلمين ونعود إلى بيتنا في حالة نفسية غير اعتيادية مزيج من الرهبة والخشوع والتأثر.

37 **شراء طماطم التقديد:** الفلاح الليبي ينتج في السواني الطماطم ويسقيه من مياه الآبار، وفلاحو تاجوراء وجنزور مشهورون بذلك، والطماطم كما هو معروف خضرة مفيدة للجسم تستعمل في مكونات السلاطة وفي إعداد مختلف أصناف الأكل طازجا أو محفوظا، موسم إنتاجه الصيف أما الطماطم المعصور والمركز والمحفوظ في العلب فيستورد من منطقة نابولي في إيطاليا وغير منتشر بين عائلات محلة شارع الزاوية في العشرينيات فترة طفولتي كما هو معروف.

والدتي وغيرها من سيدات المحلة غير مقتنعة بالطماطم المحفوظ والمستورد وترى أنه مغشوش وغير صحي، وإن أحسن طماطم ما يصنع في البيت وبالطريقة التي تعلمتها من جدتي. والوالد لا اعتراض له على ذلك. في شدة الصيف عندما يكون إنتاج الطماطم غزيرا ورخيصا يتوجه والدي وأنا معه إلى سوق الثلاثاء وهو سوق لبيع الخضروات بالجملة من طرف صغار الفلاحين والمنتجين مباشرة. فلاحو الساحل وتاجوراء وجنزور يتوجهون منذ الفجر نحو طرابلس إلى سوق

الثلاثاء محملين على حميرهم الصغيرة إنتاجهم من الخضروات حسب فصول السنة. ويقف الفلاحون صفوفا والحمير وراءهم والخضروات في محامل من ظفيرة الحلفاء أمامهم، ويقبل المشترون الطرابلسيون ومنهم والدي وأنا معه ونمر بين صفوف الفلاحين نستعرض إنتاجهم، وإذا حاز القبول وراق لنا يدخل والدي في مساومة طويلة حول الثمن، الفلاح متمسك بسعر يراه مجزيا له ومعقولا ووالدي يريد التخفيض، يتحدد السعر وتتحدد الكمية التي نريد شراءها ونخرج من السوق ومعنا الفلاحون وحميرهم عليها حمولة الطماطم وتتجه القافلة إلى شارع الزاوية، حيث تفرغ الحمولة في السقيفة ويدفع الوالد الثمن وهو ليس على الوزن وإنما على حمولة الحمار، وينصرف الفلاحون.

38 **عملية تقديد الطماطم:** تتسلم الوالدة الطماطم ونحن معها نساعد، وتبدأ عملية تقديد الطماطم، أولا يغسل في سطول (وليانات) بماء البئر ثم يشقق ويرفع إلى سطوح الديار التي كنا قبلها بأيام نظفناها وبيضناها بالجير المحلول في الماء. الطماطم المشقق يبقى على السطح مباشرة تحت أشعة الشمس الساخنة طوال ساعات النهار ليومين أو ثلاثة حتى يتبخر ما به من ماء، عندها ينزل بنفس الطريقة التي رفع بها، الحبل والسطل، وتتولى والدتي عصره بيديها القويتين أو بآلة اشتراها والدي أخيراً تصلح لرحي وفرم الطماطم واللحم وغيره.

الطماطم يتحول إلى عجين يضاف إليه الملح كمادة حافظة، وإذا كانت نسبة الماء عالية يعرض مرة أخرى للتجفيف بحرارة الشمس على سطح وسط الحوش في سفرات النحاس المقصدر أو أوانٍ أخرى من الفخار المناسب تعرف بالمعاجن وتستعمل عادة لأكل الكسكسي.

ثم يحفظ في أوانٍ من فخار مناسبة الحجم والنوع ويغطى سطح معجون الطماطم بطبقة بسيطة من زيت الزيتون ويخزن في خزانة التموين، وهي عبارة عن جزء من إحدى الديار الطويلة وفوقه سقف من ألواح الخشب أو جريد النخل منزوع السعف المرصوص والمربوط بالحبال، وهذا السقف يعرف بالسدة فوقها ننام ليلا.



الحرث بالجمل



**تجفيف عصير الطماطم** و المسافة

والمسافة المحدودة بين سطح الدار وسقفها حوالي مترين ونصف ينقسم إلى فراغين الأسفل لحفظ التموين المتنوع من طماطم وكسكسي ومحمّصة وقديد لحم أضحية العيد الكبير. والعلوي وهو السدة حيث ننام جنبا إلى جنب وتحت غطاء مشترك للتدفئة.

تقدمت أمي في السن وضعفت قواها وانخفض حماسها لصنع حاجيات العائلة من بعض أصناف الأكل منزليا، توالت السنون، والأجيال الجديدة لها اهتمامات غير الأولى وتلاشت عادات وحلت محلها أخرى وسبحانه مغير الأحوال يغير ولا يتغير.

39 **الْعابنـــا:** يظهر أن اللعب غريزة في جميع الحيوانات، وهي ظاهرة بارزة في الإنسان وفي الأطفال بالخصوص .

الكبار أيضاً يلعبون بوسائل مختلفة، ولكل فترة من عمر الإنسان متعه وألعابه. والشاعر يقول :

**أتانا زمان لعبنا به وهذا زمان بنا يلعب**

اللعب كالغذاء ضروري للأطفال، وفي العشرينيات كنا أطفالا ولعبنا كما لعب ويلعب غيرنا .

أين نلعب وكيف نلعب ؟. كنا نلعب في وسط الحوش الفسيح حول الجدولة، أنا وإخوتي وبعض الأقارب، لكن إذا زاد العدد نخرج إلى الزنقة ويخرج غيرنا من أبناء الجيران. الزنقة مكان عمومي، ممر للبيوت، طريق يسلكه السكان، والباعة المتجولون، والشحاذون وغيرهم، وفيها نلعب وفيها نتشاجر. وإذا أردنا مكاناً أفسح ننتقل إلى ساحة رحبة تعرف بالوسعاية بها شجرة توت كبيرة، وحيث يقصدها أطفال الزناقي (جمع زنقة) الأخرى .

الألعاب بسيطة و بدائية، منها (البطش) و(الزربوط) و(التيرة) أو(السكرنيلا) و(النقيزة) و(الكرة) وهذه الأخيرة عبارة عن كمية من الخرق محشوة في (شخشير) (جورب) .

كرة المطاط المنفوخ بالهواء ترف لم نحلم به. وصف هذه الألعاب وشرح تفاصيلها يصعب علي وليس في مقدوري، ولمن يريد معلومات أكثر مراجعة كتاب شائق حول ألعاب زمان للكاتب سالم شلابي.

**40 لباسنا:** ما دمنا في محيط البيت والزنقة، والوسعاية والفرن والحنفية العمومية والدكاكين والجامع، نتكلم على ملابسنا وهي عادية جداً متشابهة مع الآخرين، قفطان مع سروال تحته فانلة يكون ثقيلا أو خفيفا حسب الفصول، وعلى الرأس المعرقة، وفي الرجلين القبقاب. وهو من الخشب على شكل القدم سميك ينفع في كل الحالات على الأرض النظيفة وفي الوحل والماء العكر، وفي كثير من الحالات أثناء اللعب نرميه جانبا ونلعب بدونه .

إذا خرجنا عن الدائرة المذكورة وخصوصا إذا كنا نقصد المدرسة أو شارع ميزران أو شارع بالخير أو المدينة القديمة وأسواقها فإننا نرتدي بنطلونا قصيرا مع قميص أو فانلة نصف كم أو سترة شتاء وحذاء ملمع وطربوش تركي أحمر، بذلة أنيقة مكلفة للمناسبات .

**41 غطاء الرأس:** الطربوش غطاء للرأس أحمر اللون شكله بين الأسطواني والمخروط، به زر من خيوط الحرير المبروم الأسود، استعمله الأتراك لمدة طويلة حتى سنة 1922 حين ألغاه الزعيم التركي مصطفى كمال الملقب بأتاتورك أي أبي الترك وحلت محله القبعة. الترك أخذوه عن اليونانيين بعد فتحهم للقسطنطينية وانتشر في البلاد العربية ومنها ليبيا، عندما كانت ضمن الإمبراطورية التركية أو العثمانية، الطربوش كان غطاء رأس الجنود والضباط والحكام وصار في فترة من التاريخ رمزا للسيادة والعزة والوطنية .

في ليبيا، في العشرينيات، معظم الناس كانوا يستعملون " المعرقة" صيفا وفوقها الطاقية التونسية شتاءً، وآخرون ممن تربطهم بالترك رابطة نسب أو مصلحة وطنية أو حنين لعهد مضى وانقضى، كانوا يرتدون الطربوش، أبي وأعمامي نوري وخيري من أولئك وأنا أيضا. الطربوش هو من نسيج صوفي

يعامل معاملة خاصة حتى يصير لبادا، معرض لعوامل الجو ويتأثر بها، ويتسخ بالغبار وبالعرق في حافته الملامسة لمحيط الرأس، وعلى فترات كان ينظف ويكوى .

## 42 اليهودي مكوجي الطربوش:

عملية التنظيف والكي لها فني متخصص واحد، يهودي الأصل والملامح وكان في بداية سوق الترك من جهة برج الساعة، كنت أذهب إلى سوق الترك مشيا على الأقدام كلما دعت الحاجة إلى تنظيف وكي طربوشي، أحيي الفني اليهودي الطويل وأعطيه الطربوش، وأبقى واقفا بجنب الباب، الدكان كان صغيرا جدا يكاد يكون دولابا .

سوق الترك أشهر الأماكن التجارية في المدينة، إيجارات الدكاكين فيه مرتفعة، وكي الطرابيش لا يحتاج إلى دكان كبير، واليهودي حصل من زمان بعيد على هذا الدكان في مكان متميز وبإيجار زهيد، أمامه دكان السيد محمود دقدق متخصص في بيع الألعاب، وكان من التجار العرب القلائل في سوق الترك وكنا معجبين به إذ كان معظم تجار السوق يهوداً.

اليهودي المكوجي يأخذ الطربوش وينزع عنه الزر وينفض الغبار عن الطربوش ويدهكه بالفرشاة ثم ينظف طرفه الأسفل بالبنزين ويرش الطربوش الطري بالماء ويلبسه على قالب من نحاس أجوف ساخن بفعل الفحم المشتعل داخله ثم يغطي القالب الأول وعليه الطربوش بقالب آخر مع الضغط، وبعد دقائق يفك القوالب وينزع الطربوش من القالب الأول وقد أخذ شكلا متماسكا جميلا وهو مازال ساخنا والبخار ينبعث منه، يعيد الزر إلى مكانه ويسلمه لي مبتسما قائلا تفضل يا بي .. أدفع له الأجرة الزهيدة، ونسيت الآن قيمتها وأضع الطربوش مائلا على رأسي وأرجع أدراجي سالكا سوق المشير ثم شارع ميزران حتى شارع الزاوية متباهيا نشوان بطربوشي الذي استعاد نضارته وصار كأنه جديد.

## 43 شراء ملابس العيد:

الطربوش وسوق الترك ذكّراني بمناسبة أخرى من المناسبات الموسمية التي كنا نزور فيها المدينة القديمة وأسواقها، والمناسبة هي

شراء ملابس العيد، كنا نرافق والدي حتى سوق الترك ودكان بائع الأحذية بالذات واسمه " ماتزا"، وهو إيطالي تعودنا شراء أحذية العيد منه إنه تاجر ماهر صبور، اختيار الحذاء لا يتم بسرعة وسهولة، فهناك الحجم وراحة القدم فيه والشكل واللون والثمن، ويجرب كل واحد منا عشرة أحذية قبل اتخاذ القرار الأخير.

نخرج منه ونتجه إلى تاجر يهودي قريب منه اسمه "ماني" متخصص في بيع الملابس الداخلية من فانلات وسراويل وقمصان وجوارب ومناديل، الدكان مزدحم بالمشترين، ووجودنا يزيده ازدحاما، ولكن صاحب الدكان ماني يتفرغ لوالدي ويترك بقية الزبائن لمساعديه الآخرين، والدي زبون قديم يجب المحافظة عليه. والدي يعرف أرقام ومقاسات ملابسنا والاختيار يأخذ وقتا أقل من الأحذية، نعود محملين بما اشترينا تارة مشيا على الأقدام وتارة في كروسة، ونؤجل شراء البدل إلى يوم آخر.

البدل تشترى من التاجر الإيطالي "مورميلي" في شارع الاستقلال وهو متخصص في استيراد البدل الجاهزة من إيطاليا ماركة "مارزوتي" الشهيرة وكانت ملابسنا في العيد أنيقة وشكلنا يسر الناظرين.

44 **وسائل النقل:** تنقلنا نحن سكان المنشية يعتمد بصفة رئيسية على الأقدام، الوسائل العامة في العشرينيات كانت محصورة كما ذكر في العربات التي تجرها الخيول "الكروسة". واستعمال الكروسة محدود لأن الطرق المعبدة محدودة والطرق الترابية معظمها لا يصلح لاستعمال الكروسة يضاف إلى ذلك قيمة الأجرة وليس في مقدور معظم الناس تحمّل ذلك.

سكان الريف سوق الجمعة، تاجوراء، جنزور، كانوا يستعملون الحمير والذين هم أبعد منهم يستعملون الخيول للركوب والجمال لحمل الأثقال، المركوب يعكس الوضع الاجتماعي والمالي والصحي لصاحبه قوة وشكلا وتجهيزا كما يحصل الآن في السيارات، جدي وأخوالي كانوا يستعملون الحمير عند الانتقال من سوق الجمعة إلى شارع الزاوية لزيارتنا، حمارة جدي وبردعتها وصريمتها وخدودها متميزة عن الحمير الأخرى، الحمير عندما تصل براكبيها أمام منزلنا

ينزل عنها جدي بصعوبة مستعينا بكرسي، الآخرون ينزلون بسهولة ورشاقة، الحمير تربط من مقودها في حلقات باب المنزل واقفة في الزنقة .

وفي الوقت الذي يتمتع أصحابها داخل البيت بالراحة وبما لذ وطاب من الأكل والشرب والحديث، أتسلم مع أخي علي الحمير ونحاول أن نتدرب على الفروسية عليها بأي طريقة سليمة أو غير سليمة. مسكينة الحمير تتعرض لأكبر استغلال وهي صامتة لا تعرف بمن تستنجد وتستجير، والله أعلم بشعورها إن كان لها شعور.

45 **التدريب على استعمال الدراجة:** من وسائل التنقل الحديثة خصوصا لدى الشباب الدراجة، وصارت تنتشر وتخصص بعض الأفراد في إصلاحها وتأجيرها بالساعة، منهم خيري توفيق في محلتنا .

وقرر عمي نوري تعلمنا استعمال الدراجة فطلب من خيري توفيق القيام بذلك، وفي يوم محدد أخذنا عمي ومعه خيري ودراجة صغيرة إلى طريق السور المجاور لسانية عمي نوري والمظلل بأشجار الكافور والخالي من الحركة تقريباً، وبدأنا التعامل مع الدراجة، البداية صعبة ولكن خيري علمنا استعمال الدراجة بالطريقة السليمة، وتتمثل في تحريك أرجلنا للسلسلة وبالتالي لعجلات الدراجة مع النظر إلى الأمام بدون الانشغال بالنظر إلى حركة أرجلنا، كان لإصراره مفعوله وكانت أوامره المتوالية "الوي واشبح لقدام" جعلتنا تدريجيا ومع المثابرة نألف الدراجة وصرنا نحافظ على توازننا وننطلق، دامت التدريبات ثلاثة أيام متقطعة وصرنا من ركاب الدراجات ولكن لم نستعمل الدراجة في تنقلاتنا .

كان لعمي شكري الموظف في البريد دراجة، ينتقل بها إلى عمله يوميا وعند الظهر يرجع إلى البيت لتناول وجبة الغداء والاستراحة فترة قيلولة الصيف الطويلة. الدراجة تبقى في السقيفة فأتسلمها مع آخي علي كما نفعل مع حمير أخوالي ونستعملها دون التقيد بأي قواعد اللياقة ونتركها في حالة مربكة. يخرج عمي شكري مسرعا من المربوعة المخصصة له ليركب دراجته ويعود إلى عمله في الموعد المحدد فيجد الدراجة في حالة يرثى لها، يغضب ويزمجر ويتوعد وهو

يعرف من أفسد الدراجة، ولكن مصطفى وعلي يكونان قد اختفيا فلا يسعه إلا إصلاح دراجته والإسراع لعمله ...شقاوة أطفال حقا!!.

**46 الوضع السياسي في البلاد:** كما هو معروف كانت ليبيا حتى شهر 1911/10 ضمن الإمبراطورية التركية العثمانية التي كانت تعاني من أمراض الشيخوخة وفي حالة تصدع .

إيطاليا بدأت الهجوم بالأسطول البحري على المدن الساحلية، ثم عززت قواتها البرية واحتلت كافة البلاد، كانت إيطاليا تحكم بملكية برلمانية وحكومات مؤلفة من أحزاب متعددة تعرف بالديمقراطية. استقرار الإيطاليين في ليبيا لم يدم طويلا إذ نشبت الحرب العالمية الأولى سنة 1914 واشتركت فيها إيطاليا في أوروبا وانتهز الوطنيون الليبيون الفرصة وانقضوا على الحاميات الإيطالية واحدة تلو الأخرى وحصر النفوذ الإيطالي في بعض المدن الساحلية المحمية بالأسطول. أثناء الحرب وحتى سنة 1922 كان الإيطاليون المحاصرون على السواحل يحاولون استرجاع نفوذهم ولو بالسياسة أو الدبلوماسية فكانت اجتماعات ومفاوضات مع الوطنيين تفصيلها في كتب التاريخ .

في سنة 1922 استولى الحزب الفاشي وزعيمه "موسوليني" على الحكم في إيطاليا، وألغى تدريجيا الحكم البرلماني الديمقراطي وقرر استعادة السيطرة على المستعمرة ليبيا بالقوة، وبدأت فترة صعبة حقا بالنسبة للوطنيين وهي فترة العشرينيات التي أعتبرها فترة طفولتي، وانتهت هذه الفترة بمأساة أليمة بالقضاء على المقاومة وشنق البطل المجاهد عمر المختار سنة 1932رحمه الله.

انتهت المقاومة على الأرض وبقيت في النفوس......الحياة الاعتيادية المعاشة مستمرة فالناس مضطرون للتعامل مع السلطة بكل جبروتها، في المجال المادي كان هناك استقرار في المواقع المحتلة ونوع من الرواج التجاري ومظاهر للحياة المدنية، تبع احتلال المدن أو القرى الكبيرة مد الطرق وإقامة حامية أو جزء من حامية عسكرية بجنبها مركز للشرطة ثم مدرسة ومستوصف ومحكمة وتارة جامع وجملة من الدكاكين وغيرها مع شبكة إضاءة وشبكة مياه لخدمة هذه

التجمعات السكنية. في الثلاثينيات أخذ الوضع السياسي لونا آخر سيكون الحديث عنه في حلقات لاحقة من هذه الذكريات إن شاء الله .

47 **كثرة الشحاذين:** كان الليبيون في ضيق ومعاناة شديدة، ومن مظاهر هذه المعاناة كثرة الشحاذين (المتسولين)، وربما كانت الفترة التي أتحدث عنها هي فترة جفاف. والجفاف له تأثيره على الدورة الاقتصادية وعلى حياة السكان، أذكر أن الزنقة كانت تعج بالمتسولين فقد كانوا يقفون على أبواب المنازل الواحد تلو الآخر ولكل منهم أسلوبه في التسول، أحيانا بترتيل كلمات الاستعطاف والتوسل لسكان البيت الذين يقدمون تارة بقايا بعض الأكلات أو أي شيء، وفي كثير من الحالات لكثرتهم ولأن سكان البيت يعيشون هم أيضاً على الكفاف أو قريب منه، لا يقدم لهم شيء ويرد عليهم بكلمة يا رزاق! الشائعة، وعلى العموم كان منظرا مؤلما وحالة يؤسف لها كثيرا .

48 **ابتكار أعمال وخدمات جديدة:** كانت ظروف المعيشة قاسية وصعبة بسبب الاحتلال، وبسبب الحرب العالمية وبسبب الضيق الذي كانت فيه المدينة الناتج عن سيطرة المقاومة الوطنية على الدواخل وكانت الحركة بين المدينة والدواخل شبه مقطوعة ومتعذرة، كل هذه الأمور سببت ربكة للفقراء ولليبيين عامة واضطرتهم ظروفهم هذه لأن يحترفوا أنواعا من الأعمال لم تكن معروفة لديهم. فظهرت حرفة الباعة المتجولين، وصاروا يبيعون أشياء لم تكن معروفة لديهم. وربما كانت مستغربة. كان البعض يتجول في الطرقات والأزقة يشترون ويبيعون البيض، وكان البيض يسمى بالإيطالية "أوفا" فتراهم يصيحون أوفا أوفا يعلنون عن بضاعتهم للإيطاليين الميسورين عن البيض الذي يشترونه من فقراء الليبيين، وكانت العادة أن لكل عائلة قفصاً من الجريد في سقيفة البيت يحتوي حوالي 5 دجاجات، وكانت ربات البيوت يربينها ويطعمنها من فضلات الأكل ومن نخالة ما يرحى في البيوت أو في طاحونة المحلة من شعير وقمح لاستعمال العائلة، وبالتالي

تتجمع لديهن بضع بيضات خلال الأسبوع، البعض يأكلها والكثير منهم يحرمون أنفسهم منها ويبيعونها للباعة المتجولين لحاجتهم لثمنها .

كما كنا نسمع المنادي ينادي أحيانا روبافيكيا ...روبافيكيا، وهذا يعني أنه يطلب شراء أي شيء قديم، كان عملا من الأعمال. كانت بعض البيوت لديها أشياء قديمة،ولا تعرف كيف تتصرف فيها وتريد التخلص منها، ويتجول هؤلاء الأشخاص يشترونها بثمن زهيد ويجمعونها ويبيعونها لبعض التجار. ومن الأشياء القديمة الملابس المستعملة والأواني المستهلكة من نحاس وحديد وغيرها .

من الباعة المتجولين تسمع من يصيح أوليو...أوليو...أوليو، وهي كلمة إيطالية معناها الزيت، أي أنهم يبيعون الزيت للعائلات، والزيت في ذلك الوقت له مكيال خاص يسمى الغراف، ولم يكن اللتر المتعارف عليه الآن مستعملاً ، و الغراف سعة لترين تقريبا وهو مكيال قديم حتى قبل عهد الأتراك، ثم بعد ذلك ألغي واستعملت المكاييل والأوزان المترية الحديثة .

وتارة تسمع من يصيح طيانة...طيانة...طيانة، والطيانة عبارة عن امرأة عجوز بدوية تحمل على ظهرها كيسا به كثير من أنواع الأعشاب الطبيعية المجففة وغيرها من المواد المستعملة في الطب الشعبي البدائي، وكانت تجمعها من البادية والريف عن خبرة وتطوف بها على البيوت وتبيعها للعائلات،البعض يستعملها كتوابل، والبعض يستعملها للعلاج أو غير ذلك من الأمور، إنها صيدلية متجولة تجد من يبيع وتجد من يشتري في مواد تعتبر الآن غريبة جدا .

49 **الحِرف المتجولة:** ذكرت بعض الباعة المتجولين، وهناك حرفيون متجولون، منهم من كان يصيح استنينو... استنينو... استنينو...ومعناها اللحام أي من يلحم المعادن بالقصدير، ويقوم صاحب هذه الحرفة بلحام الأدوات المنزلية المثقوبة أو المكسورة، وكان يتجول ثم يختار مكاناً مناسباً في الزنقة يجلس فيه وتجد ربات البيوت يرسلن له مع الأطفال الأدوات التي تحتاج للإصلاح فيتولاها مقابل أجرة .

وتسمع من يتجول ويصيح طباب قصاع ... طباب قصاع... طباب قصاع.. وهو الشخص الذي يصلح ويرمم القصعة، والقصعة عبارة عن صحن خشبي كبير معروف ومستعمل كثيرا في ذلك العهد ويستعمل في الأكل الجماعي لأكلات البازين والكسكسي والرشتة، وفي بعض الأحيان القصعة تتشقق وتحتاج للإصلاح فيتولى طباب القصاع إصلاحها بمقابل نقدي .

يلاحظ مما تقدم أن الحياة كان طابعها التقشف الشديد وكانت كل الأشياء قبل أن ترمى ويستغنى عنها نهائيا تصلح بمختلف الطرق إلى أن تصبح في النهاية غير صالحة تماماً للاستعمال فترمى، وحتى عندما ترمى تباع إلى مشتري الروبافيكيا لكي يستفيد صاحبها من ثمنها، ولم نكن نشعر بأي غضاضة في كل ذلك لأن هذا هو الموجود عند الجميع ويكاد يكون الكل متساوين في هذه الظاهرة أيضا .

الحذاء يرقع مرة وثانية وثالثة، وكان الإسكافيون ونطلق عليهم اسم السبابطي، لأن الحذاء يسمى السباط، من إسكافي المحلة العرب الحاج سليمان ومن اليهود "واهو".

50 **سانية عمي نوري:** سبق أن ذكرت عند الحديث عن الماجن أن هناك سانية لعمي نوري، وقصة هذه السانية كما أذكرها، أن عمي نوري كان موظفا في البنك الزراعي التركي كما سبق أن قلت. ولسبب ما تأخر دفع مرتبات الموظفين من ضمنهم عمي نوري وزميل آخر تركي له، اسمه صدّيق أفندي وكان صديقا له.

ولما طالت مدة تأخر دفع المرتبات، اقترحت إدارة البنك على عمي نوري وعلى صديقه صديق أفندي، أن يشتريا من الحكومة التركية أرضا فضاء تصلح لإقامة مزرعة عليها مقابل المرتبات المتراكمة. ورضيا بذلك واشتريا أرضا تقدر مساحتها بحوالي 5 هكتارات بمنطقة تعرف بالرملة وتبعد عن منزلنا أو المستشفى بشارع الزاوية حوالي كيلومترين جنوب غربي. وكانت المنطقة فضاء وجرداء ليس بها إلا مزرعة لشخصية تركية اسمها جمال بي. وأقاما على هذه الأرض مزرعة أو سانية مشتركة بينهما وكانت طبعا سانية كبيرة. والسانية تحتاج إلى بئر قبل كل

شيء. فحفرا بئرا مشتركة بينهما، كانت بئرا واسعة وكبيرة تعرف ببئر بومقامين يمكن سحب أو رفع المياه منه بدلوين، وكانت المياه في تلك المنطقة عميقة ولكنها عذبة، ولذا كنا نستفيد منها في تعويض مياه الماجن صيفا في بعض السنوات لاستعمالنا المنزلي.

وبعد حفر البئر غرسا أشجار الزيتون واللوز بصفة رئيسية وبعض أشجار التين والمشمش والتوت، وبقي ركن منها غير مشجر لأن به كثيباً من الرمل . الأرض كانت رملية طينية وفي مجموعها خصبة.

وبعد أن تم تشجيرها قسمت بينهما بحيث صار لكل واحد منهما حوالي هكتارين ونصف وبقيت البئر مشتركة بينهما .

## 51 هجوم الطليان على ليبيا ومصير السانية:

بعد أن قام عمي نوري وشريكه بإنشاء المزرعة بمجهود كبير وتضحيات، نشبت الحرب الإيطالية التركية في أواخر 1911 وبدأ الاحتلال، وأقام الطليان حول المدينة سورا طويلا لحماية المدينة وحماية قواتهم من هجمات الوطنيين، وكان السور قريبا من سانية عمي نوري وهي خارجه، وتبعد عنه بحوالي 50 مترا. ووجودها خارج السور سبب مشكلة كبيرة لعمي نوري حيث كانت الأشجار التي بها تكون حماية للوطنيين، وقام الجيش الإيطالي بقطع الأشجار جميعها وهدم المنزل الذي كان بالمزرعة، حتى يحرم المجاهدين من أي حماية، ولينعم الجنود الإيطاليون بشيء من الطمأنينة .

السور كان عبارة عن مبنى من الحجر ارتفاعه حوالي ثلاثة أمتار به فتحات تسمح لجنود الطليان بمراقبة ما يحدث خلف السور وإطلاق النار من بنادقهم عند اللزوم.

كانت خسارة كبيرة لعمي نوري وضاع ما بذله من مجهود في هذه المناسبة التعيسة، وعندما صرنا ندرك كانت الأشجار قد نمت من جديد وكبرت، وكنت أنا وأخي علي نذهب مع عمي إلى المزرعة كل مساء. عمي لم يكن له أطفال من

زوجته الأولى، وكان موظفا، وفي الغالب لم يكن له عمل في الوظيفة مساء فكان يزور المزرعة ليتابع أعمالها ونحن معه.

عندما نصل إلى السور إلى البوابة الحديدية الكبيرة وكانت تعرف بباب عكارة نجده عادة مقفلا وندق عليه ويخرج لنا الحارس أو أحد الحراس، وكانوا من الجنود الإرتريين أو الصوماليين التابعين للجيش الإيطالي المكلفين بهذه المهمة. وكان عمي يحمل بطاقة تعريف تسمح له بالخروج إلى مزرعته والعودة، ولذا وفي كل مرة يزور فيها المزرعة يضطر إلى إبراز البطاقة والتعريف بنفسه ويخرج من يفتح ويقفل الباب، ثم في العودة يتم بنفس الطريقة. الحراس يتغيرون ولكن يصادف أن يكون من بين الحراس من عرف عمي في مرات سابقة فتكون المعاملة لينة دون رسميات .

52 **الفرح بزيارة السانية:** كنا نفرح كثيرا بزيارة السانية وكان بها فلاح يقوم بكل الأعمال الزراعية ويعاملنا بلطف وكنا نستمتع بأكل التوت في موسمه وكذلك التين والمشمش وعمي يشرف ويوجه ويقوم ببعض الأعمال التي لا يجيدها العامل الزراعي مثل تقليم أو تطعيم بعض الأشجار .

وتارة كان عمي يجتمع بجاره الجديد وشريكه في البئر وهو الأستاذ فائق نعامة الذي اشترى مزرعة صديق أفندي بعد الحرب الإيطالية التركية ومغادرة الأتراك ليبيا. الأستاذ نعامة مسيحي من العراق عربي يتقن العربية طبعا وفد إلى ليبيا بعد الاحتلال كمترجم في الإدارة الإيطالية ثم في المحاكم.

ويحدث في بعض السنوات وكما سبق أن قلت عندما يكون الصيف شديدا وتتأخر أمطار بداية الخريف وماء الماجن في بيتنا ينضب، نضطر أن تعوض مياه الشرب من مصدر آخر، وقبل أن نحصل على حنفية خاصة في بيتنا، ولشدة الضغط على الحنفية الوحيدة في المحلة كنا نستفيد من ماء بئر سانية عمي نوري العذب، وكنا نستعمل في نقله براميل من خشب مستعملة في ذلك العهد، وكان يحمل كل اثنين منها على حمار، ويصحبنا العامل الزراعي أو ابنه إلى البيت، وبعد أن

يفرغها يعود بالحمار والبراميل الفارغة إلى السانية بعد المغرب في الغالب. حمولة البراميل كانت حوالي ثلاثين لترا للواحد.

53 **اصطياد العصافير:** كان اصطياد الزرازير" جمع زرزور أي العصافير" من الأمور المحببة لنا ونحن صغار سواء عند زيارة سانية عمي نوري، أو زيارة سانية جدي في العطلة الصيفية، أو أيام الجمعة العطلة الأسبوعية.

الاصطياد يتم بطريقة الفخاخ بالتعاون مع الكبار. والفخاخ المستعملة كانت ثلاثة أنواع، نوع من سلك معدني يدعى(الطربيقة) يصعب علي الآن وصفها، وربما تكون موجودة في متحف التاريخ الطبيعي. ونوع ثانٍ يصنع من أوراق الصبار(الهندي) بعد أن ينزع شوكه إذا كان من ذي الشوك، والثالث من قسم من عراجين النخل ويسمى(صرفاقة) كان يعوج حتى يصير كالقوس ثم يسد بحبال رقيقة ويشبّك قوسان معا فتصير فخا، وكان يستعمل للفخاخ الثلاثة (الطربيقة) أو (الهندي) أو (العرجون) دود معين يستخرج من الأرض لإغراء العصافير، وكان يربط الدود في جزء من الفخ بسعفة، وعند تحركه من الألم يلفت نظر العصفور الذي يحاول التقاطه وأكله فينطبق الفخ عليه، بينما نحن نراقب من بعيد، وعندما تتم العملية ويقع العصفور أو الزرزور التعيس في الفخ، نسرع بإخراجه ووضعه في قفص معد لذلك .

هل كان تصرف أخلاقي ؟ ربما لا ولكن كنا نمارسه فهو بالتأكيد تسلط القوي على الضعيف، أو الذكي على الغبي، أو استغلال حاجة العصفور للغذاء .

وأنواع العصافير المعروفة لدينا في ذلك العهد كثيرة، تسمى بأسماء محلية منها "الحمراية" و"أم بسيسي"، "أبو شعيرة "، "الخديمة "، و"حميرة الصدر"، "زرزور القصب"، "مير التوت"، "المقرة"، والأخيرة أكبر من الأخرى، ولونها يميل إلى السّواد مع نقط بيضاء، موسمية تحل في البلاد في فصل الخريف عند نضج ثمار الزيتون، وتكون بأسراب كثيرة تقتات على الزيتون، وتسبب ضرراً للفلاحين .

**54 ماذا نأكل ؟** أكلنا كان بسيطاً يعتمد على إنتاجنا في البادية أو الحقل أو البيت، وكان لذيذاً، لأننا كنا نتحرك كثيراً ونجوع، وكانت كميات الأكل وأنواعه قليلة، الآن الأكل أكثر تنوعا وأغنى عناصر.وبعض الأصناف المتداولة الآن لم تكن معروفة في العشرينيات والثلاثينيات من القرن الماضي .

كان أكلنا الاعتيادي يتكون بصفة رئيسية من النشويات، بمعنى آخر كان الخبز بأنواعه الحضري والمنزلي أو الريفي أو الجاهز الذي يباع في الأسواق هو الأساس، والطبيخ بأنواعه المحدودة مسوغ للخبز، وكانت المكرونة والكسكسى والبازين والمحمصة والرشتة من الأكلات الرئيسية .

وكنا نستعمل على فترات البقول الناشفة كالفاصوليا والحمص والفول والبازيليا، وأذكر الفاصوليا بنوع خاص حيث كانت والدتي تتقن طهيها على بساطته وبدون لحم، وكنا مع إخوتي نطلبها بشراهة وإلحاح، والى الآن مازلت أذكر طعمها، كم كان لذيذا !!

استعمال اللحم كان محدودا، كنا نأكل اللحم مرة في الأسبوع إن أمكن، يوم السوق الثلاثاء وهو يوم السوق الأسبوعي لمدينة طرابلس والجمعة لمنطقة سوق الجمعة. أو في المناسبات كالأعراس والولائم النادرة وعند عيد الأضحى. وربما كانت ظاهرة صحية. لم نكن نعرف في الفطور الألبان و الأجبان ولا المربى ولا التن ولا البيض، كانت نوعا من ترف الشيطان فاجتنبناها .كنا نكتفي بقطعة خبز وكوب شاي إن وجد أو قليل من الزيت يضاف إلى قليل من الرب في الشتاء. اللبن كان كالدواء يستعمل كغذاء مركز للمرضى المنهكين ولا تستغرب وأنت عائد إلى منزلك بقارورة لبن أن تسمع من يسألك لا بأس عليك إن شاء الله. هل عندك مريض في العائلة ؟

**55 الضواقة:** كان من العادة في بعض المناسبات وخصوصا الدينية أن ربة البيت عندما تطبخ الأكل توزع منه على الأقارب وبعض الجيران، ويسمى "الضواقة"، وكثيرا ما كلفت أنا شخصيا بالقيام بهذه المهمة عن طيب خاطر.

وفي شهر رمضان، وفي بعض المناسبات الدينية، موسم 27 رجب وموسم نصف شعبان ورأس السنة الهجرية، كنا نعد في البيت نوعا من الحلوى البسيطة مكونة من عجين دقيق القمح يقلى في الزيت على شكل كرويات صغيرة مثل البيضة أو أصغر، ثم تغمر بالعسل وتقدم للأكل ساخنة وتسمى "اللقمة"، وكانت لذيذة الطعم، ونتبارى في صنعها تحت إشراف الوالدة رحمها الله .

كنا نستعمل في عيد الفطر ما هو معروف في مدينة طرابلس بالمقروض وهو عبارة عن حلوى مكونة من عجين السميد محشو بالتمر العجين المطحون أو المهروس مغمور بالعسل. وهناك حلوى أخرى هي "الغريبة" وهي أقراص من عجين الدقيق والسمن والسكر مطهي في الفرن على (صفرات) مسطحة من نحاس مقزدر أو معدن غيره. المقروض والغريبة لا تزال تستعمل في كثير من العائلات، والآن تجهز من طرف متخصصين وتباع في الأسواق. العسل النحلي لم يكن مستعملا كثيرا لأنه مرتفع الثمن إن وجد ولم يكن في مقدور معظم الناس شراؤه، ولم تكن المزارع مثل الآن تنتج العسل النحلي بكميات كبيرة وبطرق حديثة منظمة، وكنا نستعمل عسلا من السكر المعقود نصنعه في المنزل من السكر المذاب في الماء والمركز بالغلي الطويل المتواصل وكان يعوض العسل النحلي عند الكثيرين.

## 56 أنواع الخبز:

كنا نستعمل الخضراوات المعروفة الآن ولكن باقتصاد ونستعمل صيفا السلطة المكونة من بصل وخيار وطماطم وبعض الزيت أحياناً مع خبز الشعير والمبسطة منها تعرف ولا تزال "بالشرمولة" وكانت من الأكلات المحببة للكثيرين خصوصا من فصل الصيف .

كنا نعتمد في الطبخ على زيت الزيتون، وكان من الأصناف الموجودة في الأسواق الزيت المسلاتي والغرياني وهما منطقتان معروفتان تكثر بهما أشجار الزيتون قبل انتشار زيت المزارع الحديثة. ولا ننسى الزيت الحاراتي النقي منزوع الحموضة، وهو نسبة إلى الحارات من ضواحي طرابلس ويسمى زيت ضرب الماء.

من أصناف الخبز الجاهز في مدينة طرابلس الخبز (الخاص) وهو مستدير منفوش إسفنجي، والخبز (المحوّر) وهو أرقى من الأول مستدير أيضا يرش عليه الكمون والسمسم، وخبز الشعير. وكلها تصنع من خبازين متخصصين في هذه الصنعة لهم مخابز قريبة من الأفران العامة معظمها بدائي يعتمد على عضلات البشر، والنظافة والشروط الصحية لم تكن متوفرة بالكامل لا في المخابز ولا في الأفران ولا عند العرض والبيع، ولكن كان خبزا لذيذا خصوصا عند الجوع وله زبائنه الكثيرون وعشاقه.

57 **اللبن الحامض والعسلوز:** كنا في فصل الربيع نشرب اللبن الحامض، الذي يجلب من منطقة خلة الفرجان، وتبعد عشرة كيلومترات جنوب طرابلس على طريق فندق ابن غشير. وكان سكان تلك المنطقة يرعون الغنم والماعز الذي يتغذى على شجرة الرتم وغيرها وكانوا يحلبون الحليب و يمخضونه، وينزعون منه الزبد ويبيعون اللبن الحامض لسكان المدينة . في فصل الربيع كنت ترى مجموعة من الحمير الصغيرة تمر من شارعنا- شارع الزاوية - تحمل شكوتين، والشكوة هي عبارة عن وعاء مصنوع من جلد الماعز مثل القربة والعكة إلا أن القربة تستعمل لنقل الماء و العكة لنقل السمن .

يصادف أن يكون أحد السكان ومنهم والدي موجوداً عند مرورهم، ويرغب في شراء اللبن الحامض فيدخل مع صاحب الحمير في حوار ومساومة على الثمن ويشتري شكوة لبن ويوصلها البائع إلى المنزل ويتسلم أجرته وينصرف بالشكوة فارغة. كان اللبن لذيذا خصوصا حينما يبرد، والتبريد لا يكون في الثلاجة لعدم وجودها ولكن في وعاء من الطين يسمى فرخية(الزير) .وكنا نشرب اللبن فرحين مستمتعين به دون أن نفكر أو ندقق هل هو نظيف أو ملوث، مبستر أو معقم، أو كيف أعد ومن أعده، وتاريخ إعداده وصلاحيته كما نفعل الآن عندما نتناول الألبان ومشتقاتها.

من الأكلات التي لها علاقة بموسم الربيع العسلوز، والعسلوز هو نبات بري ينبت في الريف والبادية على الأمطار،ويجمع من بعض الأشخاص ثم يباع في

شكل ربطات صغيرة ويستعمل في تحضيره مع الكسكسي مع أنواع من التوابل ويعرف بكسكسي العسلوز، وكانت أكلة من الأكلات اللذيذة يستمتع بها مرة أو أكثر في السنة وهي أكلة معروفة عند أغلب العائلات الطرابلسية .

**58** **الأوزان و المكاييل:** في العشرينات من القرن الماضي، المقاييس المترية لم تكن معروفة. وكانت المقاييس المستعملة عند عموم الناس الوقة للأوزان وكانت تساوي حوالي 1200 غرام، وكان القنطار 40 وقه ومشتقاتها النصف والربع والوقية، وكل 20 وقية تساوي وقة. كنا نشتري اللحم والسكر بالوقة ونشتري الشاي بالوقية .

أما بالنسبة للأطوال فكان (الذراع) حوالي 50 سنتيمترا و(الهنداز ة) حوالي 60 سنتيمترا، وتستعمل في المنسوجات، وذلك بدل المتر وأجزائه ومضاعفاته، أما بالنسبة للأراضي فـ(الجابية) وهي حوالي 1200 متر مربع وتقسم إلى 100(جدولة) والهكتار لم يكن معروفا، للسوائل (الغراف) وهو حوالي لترين وله مشتقاته وللحبوب القمح والشعير والفول وما شابهه (المرطة) وهناك مقاييس أخرى محلية لا أستحضر جميعها مثل (القامة) و(الويبة) و(القفيز) و(الحبل) و(الخروبة) و(المثقال) .

وبالنسبة للعملة النقدية، الليرة الإيطالية هي العملة الرسمية، ومضاعفاتها الخمسة والعشرة والخمسون والمائة ليرة، والليرة تقسم إلى مائة صولدو. ولكن كنا نسمي الليرة فرنكا، تأثرا بما كان مستعملا في تونس والجزائر، وربما كان ذلك تميزا لما كان مستعملا في العهد التركي السابق للحكم الإيطالي وكانت العملة التركية تسمى (ليرة) أيضا كما كانت مسميات أخرى راسخة في ذاكرة الشعب منها (القرش) و(البنتو) و(السبيلية) وربما نسيت بعضها.

**59** **عودة إلى مجتمع شارع الزاوية:** قلت إننا كنا نشتري السكر بالوقة والشاي بالأوقية، وكانت التركيبة المعتادة وقة سكر ووقتين شاي، كنا

نستعمل الشاي الأخضر أكثر ويستعمل عادة عند الأغلبية ظهرا بعد الغداء وتارة ليلا وعند استقبال الضيوف. وفي الفطور نستعمل الشاي الأحمر .

السكر المتوفر في الأسواق على شكل قوالب صلبة مخروطية الشكل ملفوفة في ورق أزرق مستوردة من فرنسا. وكان يكسر عند البقالين إلى قطع صغيرة ويباع بالوقة. السكر الناعم لم يكن مستعملا .

وبمناسبة الشاي وبيعه أذكر أنه كان بالمحلة بقال مشهور اسمه الحاج محمد سويسي له صلة قرابة بعائلتنا يبيع المواد الغذائية الأساسية ومن بينها الشاي والسكر، وكان أسلوبه ظريفاً متميزاً في التعامل مع الزبائن وخصوصا عند بيع الشاي، فعندما تطلب منه وقية شاي مثلا، فإنه لا يزن لك الكمية المطلوبة، ولكنه يغرف لك بيده من صندوق الشاي الخشبي الكبير كمية من الشاي ويلفها في الورق المعتاد قائلا خذ اشرب الشاي أنت وجيرانك، ويوهمك بأنه أعطاك أكثر من طلبك وبنفس الثمن، وكان الزبائن مستريحين لهذه الطريقة ويقبلون على شراء الشاي وغيره منه. ولا أدري إذا كانت الكمية تزيد على المطلوب فعلا كما يقول، أو أنه يعرف وزن محتوى يده من الشاي والعملية خداع ومهارة .

ومن البقالين المعروفين والمشهورين وكنا نشتري منهم الصادق أفندي الأزرملي وهو تركي الأصل ينسب إلى منطقة أرض روم في الأناضول، وعمي رمضان الجرنازي وأخوه عياد والحاج سويسي، ومختار فريسن، والجزار حمودة، ومن بائعي الوقود السائل (الكيروسين) (القاز) والفحم، عمي علي بكار.

ومن عائلات شارع السيدي الشريان الثاني بالمحلة عائلة بيزان وجماعة ولطيف والشيخ صالح الغرياني والازمرلي والشاملي وعائلة حنيش التي تربطها بعائلتنا علاقات قديمة متجددة ودية بين الحاج محمود حنيش وجميع أفراد عائلة السراج حاضراً.

60 **الوسعاية وشجرة التوت:** في ناحية أخرى من المحلة تعرف بالوسعاية (ساحة) بها شجرة توت كنا نتسلقها ونلتقط منها التوت ونأكله في موسمه.

وتسكن بالوسعاية عائلة تعرف بعائلة التونسي من قبيلة اجلاص جنوب تونس نزحت إلى ليبيا بعد الغزو الفرنسي ومازال مظهر أفرادها ولهجة كلامهم واحتفاظهم بإبلهم في الساحة يدل على موطنهم الأصلي. كان بالوسعاية دكان المهدي الجعفري، ودكان عبد الله فريسن للمواد الغذائية واليهودي براهم للمنسوجات .

كما كان قرب المستشفى دكان الصادق القطوس وهو قصير، أسمر، وجهه ذو تعابير خاصة، ظريف، سريع الحركة، وملاصق له الصادق ناجي وأخوه علي الذي كان من شواش الحضرة ودكان الشيخ الطاهر لطيف، وقريب منهم بار الإيطالي كوتيكا .

بالشارع أيضا مخبز حديث ومصنع للمكرونة للإيطالي "بوليسي أوغوسطو" وهو يتكلم العربية بطلاقة حيث عاشت عائلته مدة طويلة في تونس ثم انتقلت إلى ليبيا بعد الاحتلال. كان أمام مصنع المكرونة سانية لعائلة فينوكيارو الإيطالية وجميع أفراد العائلة فلاحون ممتازون ويتكلمون العربية ومندمجون مع السكان العرب.

كانت هناك امرأة يهودية عجوز اسمها جوهرة من أصل مصراتي تتكلم اللهجة الليبية بطلاقة هي وبناتها وأصهارها. وجوهرة كانت على صلة بسيدات المحلة تعرفهن وتزورهن. إحدى بناتها متزوجة من (حماني) حرفته تربية المعز المالطي الحلوب، ويلف المنطقة بقطيعه، ويبيع الحليب المحلوب مباشرة من المعزة بحضور الشاري. وكانت حرفة معروفة، يزاولها بعض المالطية، واليهود. كانت يهودية أخرى اسمها ليزا تكوي ملابس الجنود بالأجرة والمكوى الذي تستعمله يسخن بالفحم من الداخل .

## 61 شارع الزاوية إدارياً:

مدينة طرابلس المحاطة بالسور الجديد تقسم إلى قسمين، المدينة القديمة، بسورها القديم، الذي يرجع عهده إلى فترة الحكم الإسباني، وأبوابها وطرقها وأزقتها الضيقة، وجوامعها وأسواقها وطابعها الخاص المتميز، وما هو خارج المدينة حتى السور الجديد ويعرف (بالمنشية) وطابعها

ريفي به كثير من البساتين الغناء. وقرى تعرف بالمحلات منها محلتنا (محلة شارع الزاوية) وتضم شارع الزاوية وشارع السيدي الموازي له. يجاورنا (محلة شارع البي) كما تجاورنا (محلة شارع ميزران) و(محلة الظهرة) .

مدينة طرابلس بشقيها الحضري والريفي أو المدينة القديمة والمنشية تعتبر في النظام الإداري ( بلدية) لها مجلس بلدي معين أو منتخب ورئيس بلدية. وكان أول رئيس بلدية شرفي في بداية الحكم الإيطالي حسونة باشا القرامنلي سليل عائلة القرامنلي الشهيرة التي حكمت ليبيا منذ مائتي سنة. وتوالى على رئاسة البلدية في العهد الإيطالي أفراد إيطاليون، وفي فترة الحكم العسكري البريطاني ضباط بريطانيون، وبعد الاستقلال سنة 1952 عرب ليبيون منهم أخي المرحوم علي الذي كان نائب رئيس بلدية، وفي فترة أخرى أخي كمال رحمه الله، وبعده بعد قيام الثورة، أخي سعيد رحمه الله كرئيس بلدية .

(المنشية) أو المنطقة الريفية لبلدية طرابلس كانت تعتبر في التقسيم الإداري، وأنا صغير، (مديرية) تقسم إلى عدة محلات منها محلة شارع الزاوية حيث ولدت ونشأت .

62

**مدير الساحل ومدير المنشية:** خارج السور الجديد (مديرية الساحل) ومقرها أولا قصر الهاني ثم بلدة سوق الجمعة . وكان مديرها عند نهاية العهد التركي وبداية العهد الإيطالي جدي لوالدتي (الصويعي سويدان). وكان مدير المنشية في فترة طفولتي صبري بي الإزمرلي ضابط تركي كبير متقاعد، قصير القامة أبيض البشرة وسيم، أنيق، أذكره ببدلة أوروبية بيضاء يستعمل نظارات إطارها سلك معدني له طربوش تركي أحمر، من سكان شارع الشط .كان يجلس تارة على كرسي صباحا خارج مبنى المديرية وكنا نحييه بتقبيل يديه ونحن ذاهبون إلى المدرسة. كان شخصية مرموقة على علاقة ودية جدا بعائلتنا وخصوصا عمي نوري .مبنى المديرية ملاصق لجامع مولاي محمد القديم في الدور الأول لمبنى قديم . عبارة عن شقة متواضعة .

الجهاز الإداري للمديرية بسيط جدا هو أيضا، موظف واحد يسمى كاتباً وهو العارف أفندي بن طالب، من سكان شارع الزاوية، يجيد التركية فضلا عن العربية، مهذب جدا حتى مع الأطفال، من عادته أن يحمل مظلة بيضاء للوقاية من أشعة الشمس صيفا .

**63 شيخ المحلة وإمامها:** لكل محلة شيخ هو قمة المحلة وهو يمثل السلطة ولا يشترط أن يكون متعلما . بجانب الشيخ، إمام وهو يمثل الشؤون الدينية والاجتماعية و يشترط أن يكون ذا ثقافة تتناسب مع المهام الموكلة له وهي الأحوال الشخصية من عقد الزواج إلى التوفيق بين الأزواج، وإذا تعذر ذلك يقوم بتحرير وثيقة الطلاق وإيداع صور من عقد النكاح ووثيقة الطلاق في المحكمة الشرعية وإدارة النفوس بالبلدية وفي دائرة الضرائب، كما أنه يقوم بتحرير الشهادات الإدارية التي يحتاجها المواطنون وتوقع وتختم منه ومن شيخ المحلة. من مشائخ المحلة الذين عاصرتهم وأنا طفل، الشيخ خليفة الشريف، وهو فلاح قصير القامة أسمر البشرة قوي البنية ذو لحية بيضاء قصيرة يرتدي اللباس العربي البسيط، مهاب دون تسلط، طيب يسكن في زنقة الخروبة، تعود على أن يصلي العصر في جامع مولاي محمد وأن يجلس حتى بعد المغرب على الركابة الحجرية للمئذنة خارج الجامع، حوله بعض أفراد المحلة، يتحدثون في شتى الأمور وهو موجود لمن يحتاج إليه .

بعد وفاته حل محله الشيخ الطاهر بن لطيّف، من عائلة بن لطيف ذات الوجاهة،متعلم، له دكان ويزاول التجارة في المحلة. عقبه الشيخ عمار الفقهي من عائلة معروفة في المحلة، لا أعرف إذا كان أصلهم الأول من فقهاء أورفلة بني وليد أو من واحة الفقهاء جنوب هون، نحيف الجسم أنيق أسمر البشرة له دكان أيضا بالمحلة من المهتمين بالحضرة ويتقن ويتفنن في ضرب الدف(البندير).

عاصر هؤلاء الثلاثة إماما للمحلة عمي خيري وهو يتقن العربية والتركية وقليلا من الإيطالية، ذو ثقافة دينية درس في كلية أحمد باشا القره مللي، امتهن التدريس طول حياته، كان سمحا يقضي مصالح الناس دون كلل عن طيب خاطر

محترما من الجميع، ولخبرته الطويلة بشؤون المحلة وكفاءته الإدارية يكون مع شيخ المحلة جهازا إداريا بسيطا وكفءاً يعتبر حلقة وصل بين جهاز الدولة البيروقراطي، وبسطاء سكان المنطقة .

لم يكن لشيخ المحلة وإمامها مكتب خاص بهما، الشيخ خليفة الشريف كان يستقبل المراجعين بعد العصر بجنب مئذنة جامع مولاي محمد، والإمام "المأذون" عمي خيري كان يستقبل المتخاصمين وغيرهم، حسب الطقس، إما أمام باب المنزل في الزنقة، وإما في سقيفة المنزل، البعض واقف والبعض جالس القرفصاء. وكانت المجادلات، الحوار هادئاً مرة، وعنيفاً مرات وعمى خيري في صبر يحاول إصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وتارة ينجح.

الوضع تغير بعد أن تولى الشيخ عمار الفقهي المشيخة، حيث استأجر دكاناً قريباً من متجره وصار مقراً لشيخ وإمام المحلة .

64

**حفظ الأمن:** مهمة الأمن العام تقوم بها مراكز الشرطة العسكرية المدنية في عدة أنحاء من المديرية، والشرطة اسمها الإيطالي (كرابنيري) نسبة إلى نوع من البنادق اسمه (كرابينا) أي (حملة الكرابينا) واسمها العربي (الزابطية) من الضبط والربط والأمن العام، كان رؤساء المراكز صف ضباط إيطاليين وأنفار المراكز ليبيون متطوعون في سلاح الزابطية براتب شهري ومتخرجون في مدرسة لهم بجنب المستشفى في شارع الزاوية نفسه .

لم يكن الناس ملائكة، ولكن لا أذكر أنه كانت اعتداءات صارخة رغم أن بيوت القرية معظمها من دور واحد أرضي،ومتلاصقة بحيث يستطيع من يطلع على سطح إحداها أن يتجول على باقي الأسطح بسهولة، ويمكنه أن يسرق لو أراد.

وكان من التقاليد المرعية أن الرجل إذا احتاج إلى الصعود على سطح المنازل لإصلاحها أو لأي غرض وجيه آخر كان يصيح بصوت مسموع بكلمة (طريق) (طريق) عدة مرات، وكأنه يطلب إفساح الطريق وليعطي فرصة لنساء البيوت التي ربما يطل عليها حتى تتستر احتراما لخصوصياتهن. كانت حياة

محدودة الطموح، ربما كانت ضنكا للكثيرين، رتيبة، مستقرة. يولد الناس ويفرحون ويكبرون يتزوجون ويتحابون ويتشاجرون لهم أعراسهم ولهم مآتمهم، والمقابر مفتوحة تستقبل روادها.

65 **خالي علي إدريس:** من هو ؟ ولماذا يذكر في الذكريات؟ . أجيب في البداية عن السؤال الثاني، الأسباب متعددة منها أنه قريب مني عائلياً ولكن هذا ليس سبباً كافياً لتخصيص جزء له من الذكريات، فأقاربي كثيرون لماذا لا أذكرهم جميعاً. والسبب الحقيقي انه شخصية غير عادية، ضرير لا ولد له ولا أخ. عاش في ظروف قاسية جدا عليه، وعلى البلاد عامة. ومات وهو مرح فهو مخلوق رغم بساطته يمكن اعتباره نموذجا لنوع من الحياة في العشرينيات وما بعدها، وسيتفق معي المطلع على هذه الذكريات أن وجود خالي علي إدريس في هذه الذكريات له ما يبررّه.

الآن أعود إلى السؤال الأول: خالي علي هو علي بن إدريس أغا، وإدريس هو ضابط تركي رئيس إحدى الفرق الموسيقية العسكرية، وصل طرابلس كضابط يؤدي واجبه في خدمة السلطان والدولة العثمانية العليا، تزوج من ليبية ورزق منها ابنين وثلاث بنات إحداهن جدتي حسنى أم والدي. رحل أحد الابنين واسمه حسين عن طرابلس وبقي الابن الثاني وهو خالي علي إدريس موضوع حديثنا. وهو في الحقيقة أخ لجدتي، ونحن كالعادة المتبعة نلقبه بخالي رغم أنه خال والدي. توفي إدريس أغا وابنه علي طفل مدرك في سن المراهقة، وأثناء ترميم منزلهم في إحدى أزقة شارع ميزران قريبا من جامع بن ناجي، تعامل مع الجير غير المطفأ بطريقة خاطئة وفقد بصره فصار أعمى. ولطفا به كنا نقول بصير ونقول ضرير وكفيف البصر. كان يتيما وكان أخوه حسين قد افترق عنه مبكرا، وكان عصاميا، لا أعرف كثيرا عن فترة شبابه، وعندما عرفته في العشرينيات كان كهلا، وسأروى كل ما أعرف عنه لعل ذلك يكفي لتسليط الضوء على طريقة معيشة بعض الناس في تلك الفترة .

## 66 خالي علي مؤذن وشيخ حضرة:

أعرف أنه تزوج ثلاث مرات ورزق بنات ولم يرزق ابناً. كان ضريراً ولكنه كثير الحركة، كثير المشي، يستعين بعصا يحاول أن يستغني بها عن من يقوده أو يرشده، وفي كثير من الحالات يخضع للواقع ويحتاج ويستفيد من أقاربه الأطفال لمساعدته على التنقل إلى أماكن بعيدة نسبيا .

كان يحفظ بعض القرآن، ذا حاسة موسيقية فنية، ربما ورثها عن أبيه، يجوّد القرآن بطريقته الخاصة، ويؤذن للصلوات الخمس بصوت واضح حنون. هذه الثقافة الدينية المحدودة، والصفات الموروثة والمكتسبة، أهلته لأن يكون مؤذنا في جامع مولاي محمد وشيخا للحضرة في شارع الزاوية، وقد ذكرناها في فقرة سابقة.

وكان يتقاضى تقاعد أبيه الضابط التركي، يضاف إلى مردود هذه المهام أو الوظائف التي كانت تدر عليه دخلاً بسيطاً ثابتاً أو شبه ثابت.

## 67 خالي علي وجماعة القراء:

كان خالي علي ضمن جماعة من القرّاء (رابطة ؟) يدعون إلى الاشتراك في تلاوة القرآن وختمه ترحما على الأموات في أيام المأتم أو في بعض المناسبات الدينية من طرف أقارب الموتى وذويهم، أو في حفلات المولد في الأعراس. وذلك بمقابل مادي، هذه الجماعة من الأفراد وبعضهم من المدينة القديمة يرأسهم شخص فقيه اسمه عبد الحق هو الذي يتولى نيابة عنهم تلقي الطلبات وتوزيع الأدوار. يحدث أن ينتقل إلى رحمة الله أكثر من شخص في يوم واحد، وأن أقاربهم – وهو عزيز عليهم– يريدون إحياء ذكرى وفاته أو الترحم عليه بشكل يليق بحبهم له وبمركزه الاجتماعي. ومظاهر ذلك أنه يشيَّع إلى مثواه الأخير في موكب جنائزي مناسب تتخلله أناشيد دينية بصوت عال هي نوع من المألوف تعرف (الشيشتري)، ثم يصلى عليه ويتلى عليه دعاء مأثور، بعدها ينزل المرحوم إلى القبر بطريقة شرعية، وتتلى عليه سورة يس ودعاء يليق بالمناسبة الإنسانية الحزينة. ليلاً يقام له مأتم تتلى أثناءه ختِمة القرآن وبعض الأذكار تعرف شعبياً بالتأليف ولها طقوسها وقواعدها ولها خبراء ومتخصصون كأي عمل آخر .

الشيخ عبد الحق يعرفهم جميعا، ويعرف كيف يختار الشخص المناسب في المكان المناسب، ويتولى التعاقد على التفاصيل والأتعاب . ويوزع على كل منهم نصيبه ومن ضمنهم خالي علي إدريس. في ليالي المأتم يقدم عشاء فاخر قوامه الكسكسي ولحم الضأن الممتاز حتى إن بعض الظرفاء من رفاق خالي علي كان يردد سجعاً صيغته (أطعموا شيخكم لحم الدجاج وسمن النعاج تدخلون الجنة أفواجاً أفواج) .

خالي علي يؤمن أن رزق الإنسان مقرر من الخالق، لكنه موزع في أماكن متعددة على أزمنة محددة، وعلى الإنسان أن يسعى ويبحث عنه، وسوف يجده تارة بسهوله وتارة بصعوبة، وفى كلتا الحالتين حكمة إلهية معروفة أو خفية. وخالي علي إدريس رغم ظروفه التي ذكرت يسعى كثيراً في البحث عن رزقه، له علاقاته الشخصية ومعارفه الذين يعطفون عليه، له أسلوبه الفكاهي المرح في التعامل مع الناس والأحداث. عرف قدراته واهتدى إلى طريقة عملية للاستفادة منها، وحدد مستوى معيشياً يتناسب مع دخله، وعاش داخله عفيفا راضيا بما رزقه الله يحمد الله على نعمه التي لا تحصى .

## 68 خالي علي وسوق الحرارة:

خالي علي رغم عاهته كان يقدم خدمات لقريباته من سيدات العائلة حيث يقوم عن خبرة بشراء ما يطلبنه منه من منسوجات أو من مصوغات أو عطور او توابل. وقد رافقته مرارا أثناء القيام بهذه المهام العائلية .

بعد آخر سوق الترك شمالاً عند تقاطع شارعين، هناك أربعة أعمدة رخامية قديمة مثبتة في زوايا أبنية لحمايتها من أي اصطدام عنيف، هذا التقاطع يعرف بأربع عرصات، "عرصات جمع عرصة وهي العمود". حول التقاطع مجموعة من الدكاكين حوالي 50 متخصصة كلها في بيع المنسوجات القطنية والحريرية والمكونة من الألياف الاصطناعية ويعرف بسوق الحرارة. جميع تجار المنسوجات يهود إلا واحداً فإنه عربي مسلم هو الحاج محمد الشلي. خالي علي تكونت له خبرة في هذا المجال ولا أعرف كيف. فيذهب بصحبة عصاه وقفة صغيرة أنيقة و أحد

أطفال العائلة يرشده ويحميه من أخطار الطريق إلى سوق المنسوجات (سوق الحرارة) وإلى دكان أبناء (سرينا) بالذات، ويظهر أنه يثق بهم ويدخل معهم في مناقشات تارة حادة حول النوع والثمن، ويقفل راجعا ومعه ما طلب منه .

69 **خالي علي وسوق المشير:** في طريق عودته يمر خالي علي على سوق المشير حيث صف طويل لعشرة دكاكين تقريبا جميعها ليهود، انضم إليهم أخيرا السيد سالم بن محمود أحد أصهاري، وجميعهم يبيعون التوابل، وكانت تعرف بالعطرية .

وذلك لأن إحدى السيدات طلبت منه أن يشتري لها كمية من الكروية أو أنواعا من الكمون أو بخور الوشق أو المستكه تحتاج إليها في مناسبة عائلية، الطريقة المتبعة من طرفه وقد تعلمتها منه ومارستها أنه يقف أمام الدكان دون أن يدخل ويصيح يا يهودي عندك كروية ؟ فيكون الرد إيجابيا، وعندئذ يدخل وتبدأ مساومة مريرة حول ثمن وقية الكروية على تفاهته.

المساومة كانت عادة متأصلة لا تتم أي صفقة تجارية كبرى أو صغرى إلا بها، ويظهر أن الشاري أو البائع يشعر بمتعة أثناء النقاش. وكثيرا ما يخرج خالي علي من دكان إلى آخر حتى آخر الصف لأنه لم يكن مستريحا للسعر. وأخيرا يشتري بأدنى الأسعار فتكتشف والدتي أو عمتي أن الكروية مسّوسة، فيصدم خالي علي إدريس ويتوعد اليهودي الغشاش وأنه يعرف كيف يتصرف معه في المرة المقبلة .

70 **خالي علي وسوق الصاغة:** بعد سوق المشير يمر خالي علي على سوق الصاغة لأن إحدى السيدات طلبت منه طلاء سوارها الفضي بالذهب، وهي عملية كانت معروفة مألوفة .كان يتجه رأسا إلى دكان اليهودي (برامينو) وكان جميع الصاغة يهوداً، وبرامينو هذا كان أمينا مساعداً لسوق الصاغة معه الختم الرسمي الذي يختم به الذهب بعد أن يتأكد من عياره، حيث إنه من المعروف أن عيار الذهب النقي 24 حتى يصل إلى 12 أو 14، لكن المتداول عادة 18.

برامينو يجلس على الأرض مع غيره من الصناع على رأسه طربوش أحمر يلف عليه منديلاً ملوناً كبيراً. برامينو بدين نسبيا ربما كان ذلك من كثرة الجلوس، يرحب بخالي علي ويدخل معه في مزاح ويسلمه الأساور ليعود إليها بعد يومين . لم أعرف لماذا يثق في سرينا تاجر الأقمشة وفي برامينو الصائغ ولا يثق في تجار العطرية في سوق المشير وكلهم يهود !.

بالمناسبة، التعامل مع اليهود في تلك الفترة: العشرينيات كان عاديا، الصهيونية والقضية الفلسطينية كانت في خطواتها الأولى، الجمهور لا يحس بها خصوصاً، أن وسائل الإعلام كانت معدومة، العربي يشعر بأنه متفوق على اليهودي دينا وأخلاقا، مهما تضخمت ثروة اليهودي، ولا أعرف بالضبط الشعور اليهودي، وربما يعتقدون أنهم أسبق الشعوب للرسالات السماوية وأنهم مضطرون إلى التعايش مع غيرهم على النفاق، وكانت هناك كراهية مبطنة جدا بين الطرفين أُحكم إخفاؤها .

رحلة خالي علي بين الأسواق انتهت. عاد إلى شارع الزاوية بين ترحيب الجميع، وبعد استراحة تطول أو تقصر يعود إلى شارع ميزران حيث منزله.

ورغم أن الرحلة طويلة ومتعبة ولا مردود مادياً لها فإنه تعّود عليها ويستفيد منها جسميا، عضلات قوية ودورة دموية نشطة، ونفسيا هو مستريح جدا لأنه استطاع وهو ضرير أن يقدم خدمة مجانية لأشخاص يحبهم كثيرا ويحبونه .

71 **خالي علي والكاكوية:** الوظيفة الرسمية لخالي علي هي مؤذن في جامع مولاي محمد مقابل راتب شهري من إدارة الأوقاف، وهو حريص على أن يؤدّي واجبه مؤذنا على الأقل لصلاة العصر والمغرب يوميا ولصلاة الجمعة. كان يرافقه يوم الجمعة الطفل محمد خليل القماطي حفيده معاصرنا وصديق حميم طول مراحل العمر. عمي نوري يلح على خاله أن يتناول غداء يوم الجمعة معه في بيت عمي نوري. جميع العائلة ترحب بخالي علي، وأنا وأخي علي نترقب يوم الجمعة بلهفة فهو عطلة مدرسية، ويوم الاجتماع بصديقنا المشترك محمد خليل في منزل عمي نوري في زنقة الفزاني، بعد الصلاة يصل خالي علي إدريس، وبعد تناول

الغداء الشهي وتقديم الشاي الأخضر في الكأس الثالث تقدم الكاكاوية ( الفول السوداني محمصا ) أسنان خالي علي تالفة، وليس في مقدوره أن يستعمل أسناناً اصطناعية مستعارة مثل جدي الصويعي. فكانت زوجة عمي تهرس له في المهراس الكاكاوية مع السكر وتضعها أمامه في صحن صغيرة مع كأس الشاي. الكاكاوية المهروسة والمخلوطة بالسكر كانت لذيذة جدا وكنا نحن الثلاثة مصطفى، محمد، وعلي، نشارك خالي علي في نصيبه من الكاكاوية دون أن يدري. الله يرحمه ويسامحنا .

ألا يستحق خالي علي إدريس أغا بعد كل هذا أو مع كل هذا بعض الأسطر في الذكريات وكامل التقدير ؟.

72 **سوق القزدارة:** خالي علي إدريس أخذنا معه إلى سوق المنسوجات، وإلى سوق العطرية والتوابل، وإلى سوق الصاغة، وسبق أن عرفنا سوق الثلاثاء، عند شراء الطماطم لتقديدها وتجفيفها وعصرها، كما عرفنا سوق الترك، بمناسبة كي الطربوش وشراء الأحذية وشراء ملابس العيد الداخلية. بقيت أسواق أخرى كنا على صلة بها منها سوق القزدارة .

سوق القزدارة زقاق ضيق، قصير، بجانب برج الساعة، القريب من سوق المشير، وسوق الترك، وسوق النجارة، ويعرف بسوق النحايسية، ولكن شهرته أكثر بسوق القزدارة، اشتقاقاً من طلي أو دهن الأواني النحاسية بطبقة من معدن القصدير الأبيض يحميها من الصدأ وتبقى قابلة للاستعمال البشري دون خطر التسمم .

الآن أواني الطبخ والأكل من معادن مختلفة مطلية وغير مطلية بألوان زاهية تزيد في شهية الأكل، لأن الأكل موجود والشهية مفقودة بسبب قلة الحركة زمان كان الوضع عكسيا، الشهية متوفرة والأكل غير موجود، وكانت الحركة و السعي وراء الأكل , الآن الجري بالسيارات وراء أمور كمالية جداً .قلة الحركة ووفرة الآكل زاد من انتشار مرض السمنة والقلب والسكري وما يترتب عليها من مشاكل مستحدثة. القدماء عرفوا كيف يحلَون بعض مشاكل زمانهم واستعصت عليهم أخرى، وعلى المعاصرين لهذا الزمن الذي يتطور بسرعة أن يجدوا حلولا بسرعة لمشاكلهم وهي كثيرة ولكن حتى وسائلهم وإمكانياتهم كثيرة .



متجر بسوق الرباع – طرابلس



بهو أحد البيوت في مدينة طرابلس القديمة

**73 أواني الطبخ:** نعود إلى أواني الطبخ والأكل، في الماضي كان الاختيار محدوداً، فهي إما من فخار مطلي أو غير مطلي، وهو عرضة للكسر بسهولة. كما أن المطلي منها إذا لم تكن مادة الطلي الكيمائية المستعملة، غير ضاره بالصحة، وتمت عملية الطلي بإتقان، فإن الضرر يكون كبيراً. لذا لم يبق أمامنا إلا الأواني النحاسية، ورغم أن سعرها أغلى فإنها معمّرة وكثيرا ما تورث من جيل إلى آخر. مشكلتها أن النحاس يصيبه الصدأ وهو سام ومضر جداً بالصحة، وحيث إنه قابل للطلي أو الدهن بمعدن القصدير الأبيض الذي لا يصدأ فإن الأواني النحاسية تطلى بالقصدير بمعرفة أخصائيين و خبراء مقرهم سوق القزدارة. فلنعد إليه .

سوق القزدارة مواز لسوق الترك، به صفّان من الدكاكين، قبل أن تصله بمسافة تسمع ضرب المطارق على النحاس لتليينه وتشكيله.أواني النحاس الجديدة نظيفة، أما الأواني المستعملة فهي سوداء من الخارج بطبقة من الدخان تراكم عليها من كثرة تعرضها لدخان الحطب المتوفر والأكثر استعمالاً وقوداً للطبخ في ذلك العهد من طفولتي، ولنتفق على وصفه بزمان ... ولذا فإن سوق القزدارة قذر، وكذلك ملابس الصناع التي يرتدونها أثناء العمل، بخلاف سوق الترك القريب جدا منه .

الأواني التي تستعملها والدتي في المطبخ، ونحن جميعا أثناء الأكل، من نحاس تحتاج إلى طلائها بالقزدير كما قلنا مرة واحدة في السنة على الأقل وتكون عادة قبيل شهر الصوم ( رمضان) .

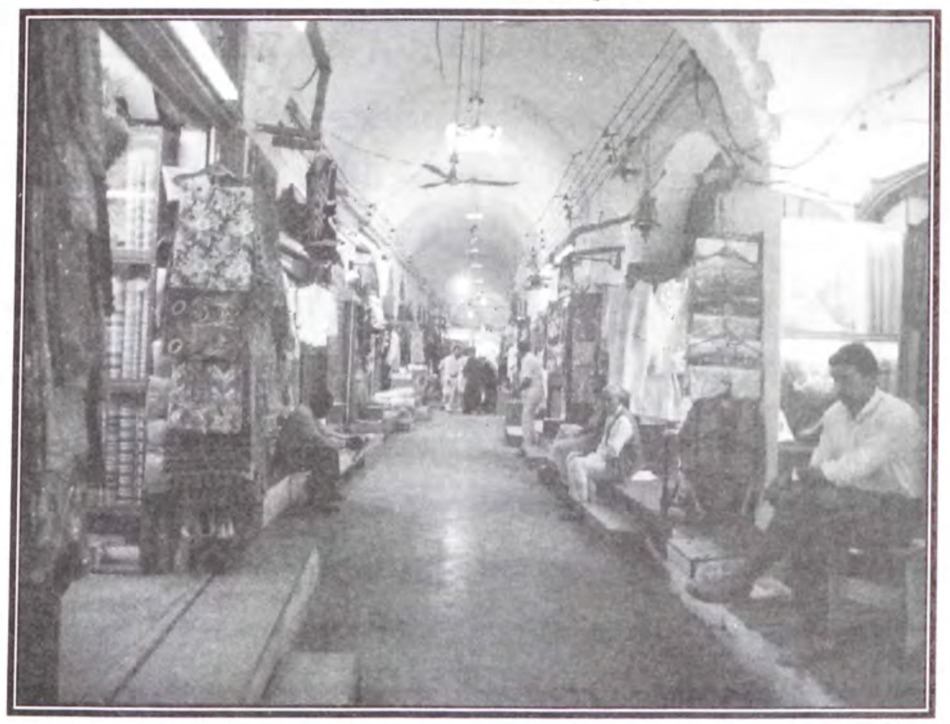
**74 أصوات المطارق:** ومن هنا تبدأ ذكرياتي الشخصية بسوق القزدارة، حيث يتقرر اليوم لنقل الأواني لسوق القزدارة، ويكلف حمال له عربة بعجلتين صغيره، محركها عضلات صاحبها وهو من سكان المحلة أصله من تاورغاء أسمر البشرة، طيب جداً، هادئ جداً، قوي البنية يتحرك ببطء شديد. ولكنه يدفع أو يجر العربة حسب الأحوال بقوة، مهما كانت الأثقال عليها، ومهما كانت طبيعة الأرض

التي تمر عليها صلبه أو رخوة. عمي الحمّال يعرف سوق القزدارة وسبق أن كلف بنفس المهمة السنه الماضية، ونتفق معه على موعد مناسب للطرفين نتلاقى فيه جنب برج الساعة .

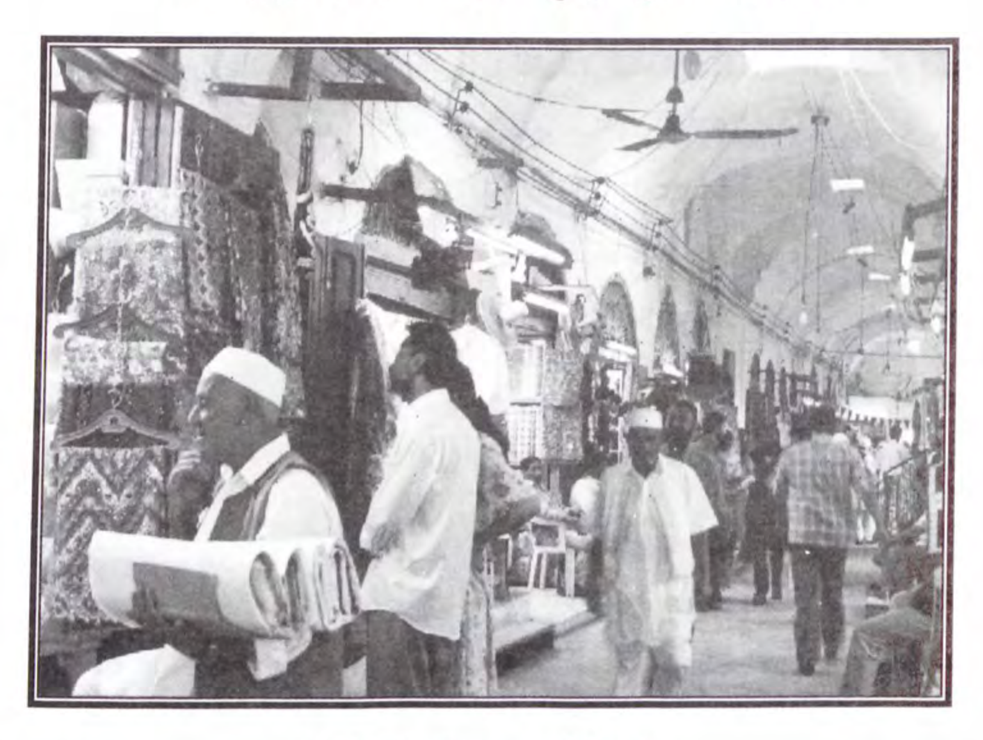
القزدار أو الاسطى النحايسي الذي يعرف والدي ويتعامل معه هو (محمد ابن سعود) طويل القامة، قوي البنية، أشيب ذو ملامح واضحة محددة له أولاد يعملون معه في نفس الدكان، يستقبلنا مرحبا، ويفرز الحمولة من قدور وطناجر وقصاع وصحون ويتحدد المطلوب من إصلاح وطلاء وموعد عودتنا لاستلام الأواني وهي في أحسن حال .

كان لأصوات المطارق وهي تطرق النحاس رغم أنها نشاز لا تتقيد بنوته موسيقية لملحن عظيم أو غير عظيم، إلا أنني مازلت أسمع صداها المحبب إلى نفسي وهي تنساب عبر مصافي الأيام والسنين.

75 **سوق الرباع:** على بعد أمتار من سوق القزدارة سوق الرباع وهو زقاق طويل مسقوف يصل سوق المشير ببداية سوق الصاغة في نقطة قريبة جداً من جامع الناقة .على حافتي الزقاق أو الممر صفان من الدكاكين الصغيرة وكأنها خزانات مرصوصة جنبا إلى جنب وأمامها ركابة طويلة (دكة). الدكاكين ملئيه بكل أنواع الأردية القطنية والحريرية الأصلية والتي صنعت من الحرير الصناعي(الرايون) أو الحرير المخلوط أو الأردية الممزوج فيها الحرير بخيوط الفضة والذهب في انسجام بديع . كلها صناعة محلية، ومن طرف حرفيين مهرة منتشرين بالدرجة الأولى في سوق الحرير المتفرع من سوق الترك، وفي دكاكين في محله الفنيدقة القريبة من سوق الرباع. كما توجد أنوال لأردية القطن أو الصوف في أنحاء أخرى من البلاد داخل بيوت هي سكن أصحابها من الأفراد. قريب من هذا السوق سوق أخر يشبهه من حيث التصميم والبناء مخصص للمنسوجات الصوفية، الحوالي (الجرود) أو ما شابهها من الحمول ومراقيم وكليم تستعمل فرشاً في البيوت ويعرف بسوق اللفة .



طرابلس – سوق الرباع للأردية القطنية والحريرية 1955



الدلالة في سوق الرباع 1955

أمكنة الصناعة منفصلة عن السوق، السوق مخصص لمقايضة السلع بالنقود. من طرف المنتج الصانع للتاجر ومن طرف التاجر للمشتري المستهلك. صانع الأردية بأنواعها القطنية والحريرية والصوفية يسمى محليا (حوكي) مشتقاً من الحياكة مرادفها ( نساج ) إذ يقول أحد الشعراء :

**غزلت لهم غزلا رفيعا فلم أجد لغزلي نساجا فكسرت مغزلي**

76 **البيع بالدلالـــة:** يفد الحوكية من كل الجهات إلـى سـوق الربـاع ضحى، من كل أيام الأسبوع عدا الجمعة والسبت لبيع إنتاجهم إلى التجار، ولكن لا يتم ذلك مباشرة، و إنما بالمزاد، أو ما يعرف بالدلالة، وتفصيل ذلك أن لكل حوكي، أو مجموعة من الحوكيه دلاّلاً، يثقون فيه ويتعاملون معه، فيتسلّم منهم إنتاجهم، وفي اللحظة المحددة يإذن أمين السوق ببدء الدلالة ينطلق الدلالون يحملون في أيديهم الأردية أو عينة منها يعرضونها على التجار الجالسين على الركابة أمام دكاكينهم أو دواليبهم، ويبدأ الدلالون بعرض الأردية بسعر أدنى، ويواصلون الطواف على التجار معلنين بصوت عال السعر المعروض عليهم من تاجر لآخر حتى يستقر السعر على رقم ثابت غير قابل للزيادة. فيتجه الدلال بالأردية إلى التاجر الذي استقر عليه السعر الأخير، ويسلمها إليه قائلا "إن شاء الله تربح"، ويقبض الثمن الذي بدوره يسلمه إلى المنتج الحوكي، بعد استقطاع أجرته في شكل عمولة، وهي نسبة على الثمن متعارف عليها، ويتسلّم مجموعة أخرى من 'الأردية يعرضها ويبيعها بنفس الطريقة وذلك إلى أذان الظهر من جامع الباشا و جامع الناقة القريبين.

السوق مزدحمة بالتجار والدلالين والحوكية والمارة وغيرهم من الذين يتلذذون بهذا كله ويحرصون على حضوره دون دور محدد .

أصوات الدلالين عالية ( صراخ ) هذا يصيح 50 فرنكاً والثاني 70 فرنكاً والثالث 10 في ضجيج متواصل، الكل يتكلم، والكل يسمع، سيمفونية فلكوريه تلقائية لا مخرج لها .

تنتهي فترة الدلالة مع الظهر، ويتفرغ التجار لتنظيم دكاكينهم الصغيرة استعدادا لاستقبال المشترين في الصباح قبل الدلالة أو في المساء قبيل المغرب يقفل التجار دكاكينهم ويخرجون من السوق فيتسلّم الحراس الذين يقفلون أبوابه بأحكام ويتحملون مسؤولية الحراسة بينهم، بعضهم يشربون الشاي وتارة يلعبون الورق وتارة يترنم بعضهم بمقطوعات من المالوف وينام البعض بالتناوب حتى أذان الفجر وطلوع الشمس وبعدها في ساعة محددة تفتح الأبواب و تبدأ الحركة خفيفة ثم تقوى والأرزاق على الله .

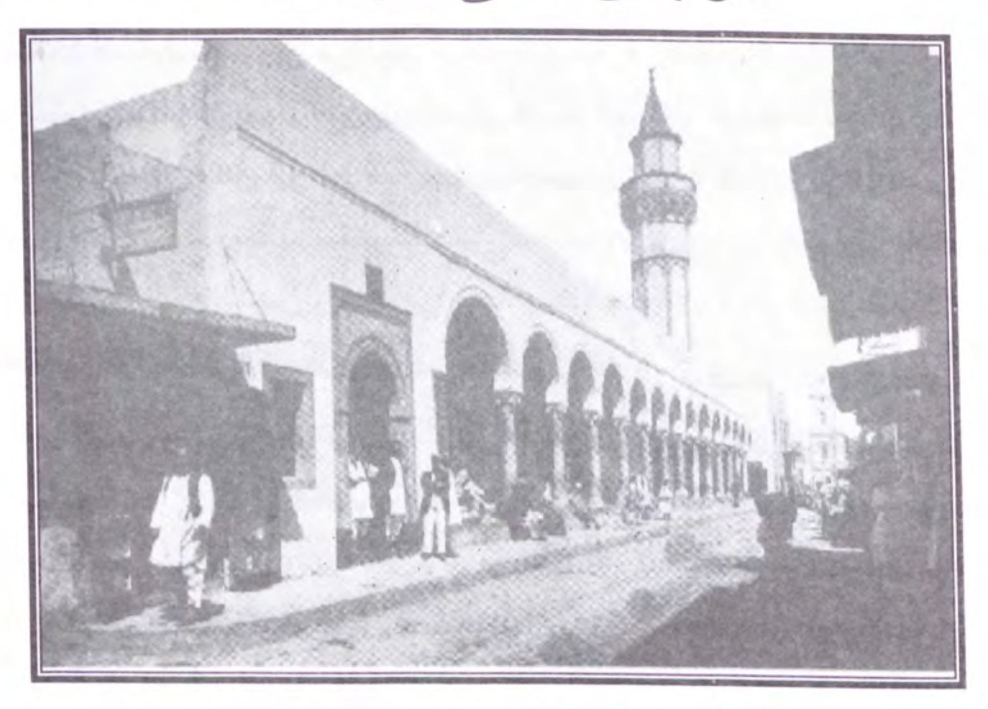
المشترون من التجار صنفان: حضري، وريفي بدوي، ولكل منهما مواسم، أهمها تبدأ بعد أن ينتهي الفلاحون البدو من جمع محصولهم من قمح وشعير، وبيع نتاج قطعانهم من ضأن ومعز وإبل وتتوفر الأموال لديهم ويقبلون على الشراء خلال فصل الصيف حيث يطول النهار ويدفأ ويحل موعد الأعراس والأفراح. دامت أفراحكم وإلى لقاء في فقرة قادمة.

77

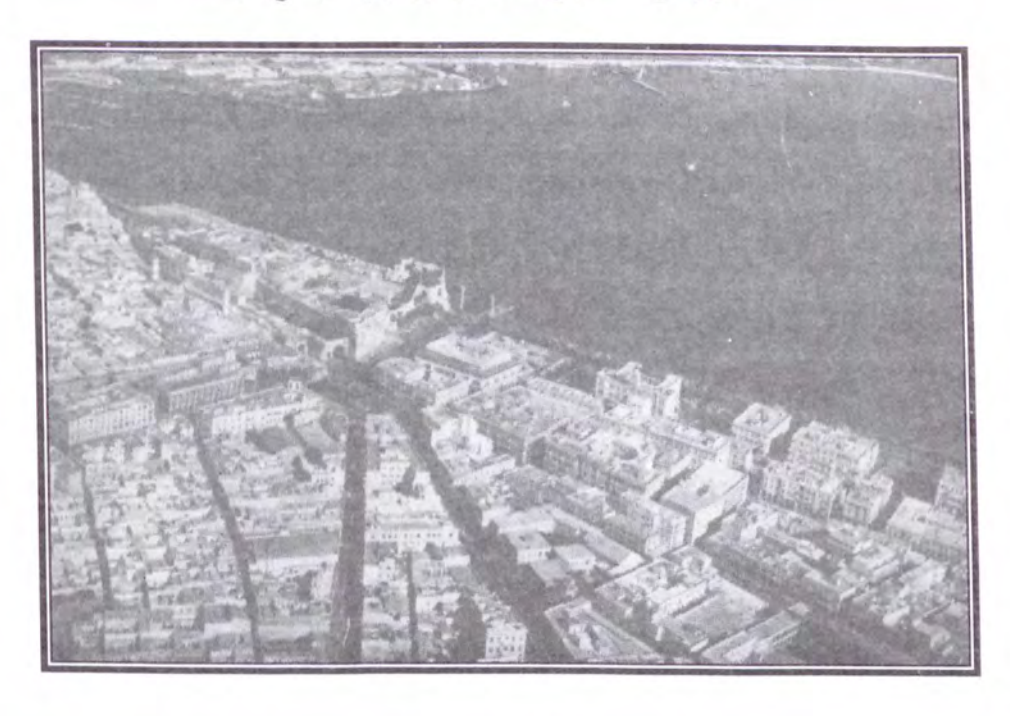
**جامع الباشا وسوق المشير:** الملاصق لسوق الرباع جامع الباشا، وقد بناه أحمد باشا القراملي، أحد شخصيات عائلة القراملية المشهورين منذ قرنين أو أكثر من الزمن .

جامع الباشا من أقدم جوامع مدينة طرابلس وأجملها، بواجهة طويلة على سوق المشير مكونة من عدة أقواس، في جزء منها كانت تعرض وتباع أغطية الرأس وتعرف بالطواقي المصراتية، وهي من قماش ابيض مطرز بخيوط زرقاء في أشكال هندسية دقيقة منتشر استعمالها بين سكان الريف والبادية على الخصوص.

كانت ترص على شكل قباب الواحدة جنب الأخرى تلفت نظر الشاري وتضفي طابعاً مميزاً على جزء من سوق المشير. الجامع طابعه المعماري تركي. وهو مجسم مصغر لبعض جوامع استنبول، وملحق به مدرسة دينية سيأتي ذكرها في فقرات قادمة من الذكريات، وملحق به مجموعة من القبور لشخصيات من عائلة القراملي وغيرها.



طرابلس – سوق المشير وواجهة جامع الباشا



طرابلس من الجو

الطرق المتجهة من الجنوب والغرب نحو ساحة الشهداء والقلعة

تحت بقية أقواس الواجهة تباع (مشاميم) الفل والياسمين مع التفنن في أشكالها، يقبل على شرائها كثير من الحضر بمناسبة الأعراس . كما يوجد دكان حلاق صاحبه الاسطى ( علي الكريتلي ) عجوز مقوس الظهر يحمل نظارات وطربوشاً وهو من سكان شارع الزاوية .بجنبه مقهى الحاج ( نوري ) حيث يجلس بعد العصر بعض شخصيات المدينة القديمة منهم الحاج حسونة قرجي رئيس مجلس إدارة الأوقاف وجيه مسن، بلباس أنيق فاخر، يستمتع مع غيره بالنظر لحركة المارة في سوق المشير المزدحم .

78 **بيع الأثاث القديم:** يوم الجمعة ضحى، ترى أمام الجامع بعض قطع الأثاث القديم التي يريد أصحابها التخلص منها بالبيع بعد أن زالت حاجتهم إليها. وبعد صلاة الجمعة مباشرة وعند خروج المصلين من الجامع تبدأ عملية البيع بالمزاد العلني، والدلال شيخ من عائلة (حواص) بالمدينة القديمة، حيث يعلن بصوت جهور عن السعر المتزايد عليه لكل قطعة حتى ترسو على أحد الراغبين في الشراء وتستمر العملية فترة من الوقت تطول أو تقصر حسب كمية الأثاث القديم المعروض للبيع، وينفض الجمع، كلٌ راض بما باع وبما اشترى، وكذلك الدلال الذي حصل على أجرته في شكل عمولة تساعده على مواجهة تكاليف الحياة.

79 **لقب السراج:** يتساءل بعض أفراد عائلة السراج ومنهم حفيدي الشاب رضا سراج السراج وغيرهم، عن مصدر هذا اللقب ومتى استعمل ولماذا؟

والذي أعرفه أن لا لقب لعمي نوري، وهو كبير العائلة في العشرينيات، كان يدعى نوري بن مصطفى. كان الانتساب في طرابلس وليبيا والعالم العربي يتم على الطريقة الشائعة شعبياً وهي فلان بن فلان وفي بعض الحالات يميز بنسبه إلى بلد معين (المصراتي، الغرياني، التركي، المسلاتي، ...) أو إلى حرفه معينة (النجار، الخضار، الحداد، الزيات، ...) وفي بعض البلاد العربية الشرقية هناك الكنية (أبو خالد، أم محمد، أبو وليد، ...) واسم الشهرة واسم (الدلع) مما يزيد الأمور تنوعا وتارة تعقيداً .

في بداية العشرينيات واجهت السلطات الأمنية الإيطاليـة التـي أرادت أن تسيطر على الوضع سياسياً وأمنيا بطريقة دقيقة ومنظمة، مشكلة أن معظم الليبيين أسماؤهم متشابهة ففي البلدة أو القبيلة الواحدة، ألف محمد، ألف علي، وألف عبدالله. أمام هذا الإشكال، ألزمت العائلات باختيار ألقاب، تميزها عن بعض، كان لـبعض العائلات ألقاب، فالموضوع لا يشملها ولا يهمها، مثل عائلة سويدان مـثلا، وحـل عمي نوري المشكلة باختياره لقب السراج لعائلته وإخوته فاعتمد رسـمياً وعـرف وشاع وانتشر. لماذا اختار عمي نوري لقب السراج الذي لم يكـن معروفـا فـي طرابلس ؟

إني آسف على عدم استفساري من عمي نوري أو غيره من الكبار حول هذا الموضوع، في العشرينيات كنت طفلا وبعدها شغلت باستطلاع واختيار الطـرق، التي يجب علي سلوكها، والسير عليها أثناء مراحل حياتي، وتوفي عمي نوري سنة 1945 ولم أسأله عما يشغل بال البعض، وتارة أستغرب لماذا هذا الاهتمام، وفـي البلاد آلاف الألقاب ؟ ولكن هي الطبيعة البشرية التي تريد أن تعرف المزيـد مـن المعرفة خصوصا في أمور تحس أنها من صميمها، وأنها جزء من هويتها .

## 80 لماذا اختار عمي نوري لقب السراج ؟

اللقب للإنسـان مثـل (الماركة) لأي إنتاج إنساني مادّيّ آخر، هذا إنسان لقبه الـسراج، وهـذه أحذيـة (ماركة) باتا، و إني أعتذر مقدما إذا أساء هذا التشبيه لأحد الطرفين. وأعتقد أنه لم يكن أمام عمي إلا خياران أحدهما رئيسي والآخر ثانوي .

الأول هو أن جدي مصطفى والد عمي نوري كان كما قيل سابقاً ضابطا في الجيش، وأثناء خدمته في سلاح الفرسان أسندت له مهمة الإشـراف علـى قـسم السروج. الفرقة بها ألف فارس مثلا وفيها ألف سرج، وجدي مسؤول عن كفاءتهـا التامة في أي لحظة من لحظات الزمن ربما تكون حاسمة. عمي نوري اشتق لقـب السراج من سرج، وفي مصر يقولون سروجي.

الاحتمال الثاني هو أن عمي نوري مطلع على كتب تاريخ عـرب المغـرب المليء بأخبار آل السراج، في فترة من فترات تاريخ الأندلس المـشرفة أو غيـر

المشرفة وأن لهم جناحاً مشهوراً في قصر الحمراء، فكان لهذه المعلومات تأثيرها على تفكير عمي نوري ورجحت اختيار لقب السراج، ولا أتصور أن أمام عمي نوري اختيارات أخرى .

بعد ذلك بسنوات اكتشفنا أن لقب السراج منتشر في جميع العالم العربي تقريباً. وتعرفنا على من يحملون لقب السراج مثلنا وتكونت معهم صداقة ومودة . وسأروي معلوماتي في هذا المجال بشيء من التفصيل .

81 **السراج في فلسطين:** في سنة 1948 قمت بأول زيارة لمصر، ونزلت بفندق صغير اسمه "نيو أوتيل" في شارع عدلي بالقاهرة. واستدعاني موظف الاستقبال بصوت عالٍ قائلا الأستاذ مصطفى السراج لتلقى مكالمة هاتفية تقدم إلي بعدها شخص يرتدي بدلة أوربية وحياني في لطف وعرف بنفسه بأنه صحفي فلسطيني، وأنه انتبه إلى أن لقبي السراج، فرغب في التعرف علي. جلسنا في الصالون وأخبرني بأن هناك عائلة فلسطينية محترمة كبيرة لقبها السراج شملتها النكبة وهي موجودة الآن في القاهرة، وتحدثنا في أمور أخرى لا أذكرها الآن وافترقنا .

في المساء وأنا في الغرفة رن جرس الهاتف وكان على الطرف الثاني عبد المجيد السراج الفلسطيني الذي علم من صحفي الصباح بوجودي في الفندق ويرغب في مقابلتي، حددنا موعدا وحضر وكان كهلاً أكبر مني سنا، وقوراً، وعرف بنفسه وعائلته وظروفها وحظها السيئ وأسماء أفرادها .

وقد لاحظنا تشابه كبير في أسماء بعض أفراد العائلتين، منها أن أحد أخوتي اسمه كمال وأحد أفراد العائلة الفلسطينية يحمل نفس الاسم وفي عمر متقارب، وقد اشتغل كمال الفلسطيني فيما بعد في مكتب منظمة التحرير الفلسطينية بطرابلس.

وكانت مكاتب المنظمة في شارع عمر المختار في نفس العمارة التي بها مكاتب شركة السراج الليبية وأحدث تشابه الأسماء ارتباكا لموزعي البريد مما جعل

الكمالين يتفقان على إضافة اسم الوالد إلى عنوانهما حتى تسهل مهمة توزيع الرسائل.

أعود إلى السيد عبد المجيد السراج المصر على أن عائلة السراج الفلسطينية أصلها من المغرب ويتمنى التعرف على أصل عائلتي وربما نشترك في الجدود القدامى، وأن تتاح الفرصة لزيارة ليبيا والتعرف إلى أفراد عائلتنا إخوته، شخصياً. كانت عواطف نبيلة من الطرفين خصوصا في الظروف التي كنا فيها، وطنه فلسطين محتل من اليهود والإنجليز، ووطني ليبيا تحت الحكم العسكري البريطاني ومصيره لم يتقرر ومازال في مهب الريح .

82 **السراج في تونس:** بعد اكتشاف النفط في ليبيا بسنوات قليلة في الستينيات، زار طرابلس شاب اسمه أسعد السراج من عائلة السراج بمدينة جمال القريبة من سوسه التونسية. كان محاسباً، وكان يبحث عن عمل، انتبه وهو مار من شارع عمر المختار إلى لافتة طولها لا يقل عن 5 أمتار تحمل اسم السراج بارزا تحته كلمة القرطاسية، تقدم وتعرف إلى أخي نجاتي المسؤول عن مكتبة السراج وباح بما في نفسه ووجد تجاوبا من نجاتي السراج الليبي وانضم أسعد إلى أسرة شركة السراج، وكانت في مرحلة نمو سريع، كما أنه كان من أكفأ موظفيها، شرف لقب السراج، وكان خير سفير لعائلة السراج التونسية، كما كان حلقة وصل بين العائلتين، وقد توطدت العلاقة بينهما، وتكررت الزيارات على مختلف المستويات ودامت المودة حتى الآن عبر السنوات .

كان عميد العائلة التونسية المرحوم الحاج مصطفى السراج , وأنا كنت ومازلت الحاج مصطفى السراج الطرابلسي .

من أبناء الحاج مصطفى التونسي رشيد وعبد الحميد وكمال وآخرون من أقاربه، وحتى في هذه المرة الأسماء متشابهة بين العائلتين كما كان مع السراج الفلسطيني.

عبد الحميد كان مديراً لأحد فروع البنوك، وكذلك كمال وكذلك أسعد الموظف في طرابلس الذي عاد إلى تونس وتزوج والتحق هو أيضا بأحد البنوك التونسية مما جعل خيال الحاج مصطفى السراج التونسي يشطح شطحة كبيرة، ويقول إنه نظرا إلى أن أبناءه كلهم ماليون، وحيث إن مصطفى السراج الليبي كان وزيرا للاقتصاد، وإخوته رجال أعمال مرموقون في طرابلس، وإن أحد جدود سراج طرابلس أتراك، وقد سمع هو أيضا أن أصل عائلتهم من تركيا، فإن جدنا الأول تركي مالي قدير، أرسله الخليفة السلطان إلى تونس وإلى طرابلس، لينظم ماليتهما ويطور اقتصادهما ونحن في تونس وطرابلس أحفاد لذلك الجد العظيم .

83 **السراج في تاجوراء:** زارني وأنا في طرابلس كمال السراج التونسي وكان في تلك الفترة مهتما بتجارة مواد البناء وخصوصا الياجور المفرغ الذي اشتهرت بلدتهم (جمال) بإنتاجه، حتى إن أباه المرحوم الحاج مصطفى كان مسؤولاً ومديرا لأحد المصانع الكبيرة بها .

أخذته يوم خميس من أيام الصيف إلى بلدة تاجوراء القريبة، وكان يوم سوق عمومي، بتاجوراء سوقان أسبوعيا الاثنين والخميس. وبينما نحن في ميدان مراد أغا أمام الجامع الضخم نتفاوض على شراء الشمام (القلعاوي) انضم إلينا شخص ثالث وحياني بحرارة وصار يتحسر على أيام مضت كانت البلاد فيها في مرحلة مخاض، ولدت بعدها ليبيا المستقلة، كانت النفوس أثناءها مشغولة بقضايا وطنية مصيرية كبرى، وإنه عرفني عندما كنت في المؤتمر الوطني العام غارقا مثله في خضم هذه القضايا وذكرني بشخصيات فاضلة ذكر منها بشير بي السعداوي والشيخ محمد أبو الاسعاد العالم والحاج مصطفى ميزران والشيخ عبد الرحمن القلهود. والحقيقة أني لم أكن أذكره وصرحت له بذلك واعتذرت وأسفت وعرف بنفسه وهو الحاج عمر السراج .

فقلت سبحان من جمعنا في هذه اللحظة المباركة صدفة، سراج من جمال، وسراج من تاجوراء، وسراج من طرابلس، واشترك معنا أخونا كمال السراج من تونس في الحديث، وكان الحاج عمر يشرح نسبه ويؤكد أن أصله أندلسي وأن جده

هاجر من الأندلس بعد استيلاء الأسبان عليها واستقر المقام به في تاجوراء وصار من أولياء الله له كرامات وشهرة وضريح كبير مازال قائما يزار للتبرك، وحولـه بساتين آل السراج. ودعاني لزيارته مع صديقنا كمال السراج في سانيته ( بستان ) لمواصلة الحديث والبحث عن جدنا المشترك .

دهشت لما سمعت، وأعربت عن سروري بلقائه وقبلت الدعوة شاكراً على أن تكون الزيارة في أقرب فرصة إن شاء الله. حيانا وانصرف يردد ويلـح علـى أن يكون لنا لقاء آخر عنده. ونظر إلي كمال ونظرت له في استغراب وعدنا إلى بائع القلعاوي.

84 **السراج في المغرب:** كنت في إحدى زياراتي للمغرب ومدينة فاس بالذات التي كنت معجباً بها وخصوصا القسم القديم منها والذي كان يعرف بفـاس البالي، نزلت مع زوجتي بفندق فخم يعرف بالفندق الجامعي بنية الاستمتاع بفتـرة راحة واستجمام متناسين كل ما يشغل الناس عادة في حياتهم من أمور توصف بأنها هامة، وفي هذا الوصف كثير من التعسف .

سبق وأن نزلنا في هذا الفندق وصرنا معروفين عند مديره الفرنسي وموظفيه المغاربة. وفي صباح أحد الأيام وأنا أطالع إحدى الصحف المغربية بعد الإفطـار، تقدم لي أحد موظفي الفندق ليخبرني بأنه في مدينة فاس عائلة كبيرة تحمـل نفـس لقبي السراج، شكرته على تفضله بالمعلومة وطلبت منه في غير إلحاح تعريفي إن أمكن ببعض أفرادها وعدت إلى الجريدة .

بعد ساعتين تقريباً عاد موظف الفندق ليخبرني أن السراج المغربـي قـادم لزيارتي، وبعد فترة وجيزة وصل الزائر الكريم .

وكان لقاء حار، كأننا أقارب تلاقينا بعد فراق طويل، الشخص الذي أمامي في الستينيات من عمره، شاب أكثر شعر رأسه ولحيته به حيويـة يرتـدي الجبـة المغربية الشهيرة والطربوش المصري، اسمه الحاج محمد السراج الأندلسي فـرد

من عائلة السراج الموزعة على مدن الرباط وفاس والدار البيضاء وأصلهم من الأندلس ومازالوا محافظين عليه مع افتخار بهذا اللقب.

يرجع نسبهم للصحابي عقبة بن نافع الشهير ولهم شجرة عائلة محفوظة، وهو يقيم في فاس القديمة مع والده العجوز الذي مازال يمارس التجارة بإحدى أسواق فاس العامرة، الحاج محمد، فلاح وتاجر غلال، له أخ في سلك القضاء اسمه الحاج أحمد في الرباط، وأخ آخر اسمه الغالي تاجر ملابس في الدار البيضاء، أتيحت لي الفرصة مع زوجتي في مناسبات لاحقة التعرف إلى معظم أفراد الأسرة الكريمة رجالاً ونساء .

الحاج محمد دعاني لتناول الغداء في بيته في الغد، اعتذرت لأنـي عزمت على السفر وحجزت سيارة لنقلي، وأخبرت الفندق بذلك، فأصر وحلف باليمين الكبير فأحرجني واضطررت إلى تأجيل السفر، وزرته مع زوجتي في منزله، مغربي التصميم عريق الطراز، وتعرفنا إلى زوجته وبناته ووالده وأحد أقاربه الموظف في وزارة التعليم، وأصرت زوجته على زوجتي حتى تندمج معهم، وأخذتها إلى المطبخ حيث إعداد الكسكسي المغربي الشهير، وصرنا في لحظات عائلة واحدة، عاداتنا، تفكيرنا، أحاسيسنا، تطلعاتنا العامة تكاد تكون متطابقة، فرحت بهذا اللقاء العفوي النقي ولم أندم على تأجيل السفر وتمديد إقامتي في فاس يوماً آخر، توطدت العلاقة بين أفراد العائلتين وكنت حريصاً على زيارتهم كلما زرت المغرب، وكذلك فعل بعض أبنائي .

85 **السراج في السودان وسوريا وتركيا:** زارنا في طرابلس دكتور طبيب سوداني متعاقد مع وزارة الصحة الليبية لقبه السراج، وقد تقلد في مرحلة لاحقة منصب وزير الصحة في السودان، كلنا سمعنا بعبد الحميد السراج السوري ودوره الشهير في الوحدة المصرية السورية في عهد الرئيس جمال عبد الناصر والقوتلي. كما أذكر أنه أثناء زيارة رسمية لتركيا وأنا وزير اقتصاد، قدم لي في إحدى المناسبات شخصية كبيرة على أنه وزير سابق للخارجية، لقبه سراج

أغلو، أي أنه ابن السراج، ولاحظ أحد الإخوة أنه وجد في مكة المكرمة مكتبة تحمل اسم السراج زارها وتعرف إلى صاحبها .

86 **السراج في الجزائر:** كنا في سنة 1997، وكنت في أحد دكاكين الزاوية الغربية بليبيا لبيع الأقمشة، وكنت في تلك الفترة مهتماً بصناعة الملابس الجاهزة، وعند حديثي مع صاحب المحل الحاج بهلول دخل شخص واكتشف أن لقبي السراج فقدم نفسه لي، وهو يعرف صاحب المحل، بأنه الحاج بشير الغرناؤطي من الجزائر، ترك الجزائر مؤقتاً بسبب الفتن التي كانت الجزائر مسرحاً لها، وهو يقيم مع عائلته ببلدة صرمان، وأنه على علاقة مصاهرة مع عائلة السراج الجزائرية، وهكذا عرفنا أن لقب السراج موجود في الجزائر أيضاً توطدت العلاقة مع الحاج بشير وأولاده وبقية أفراد عائلته، وكان يزورنا كل يوم جمعة بمزرعتنا في منطقة جود دائم،وتعرفنا إلى بعض عائلة السراج الجزائرية عند زيارتهم له، عاد الحاج بشير إلى بلده مسروراً بعد أن هدأت العاصفة ."

87 **السراج في سويسرا:** كنت مع ابني عبد الحكيم، الذي يعمل كما قلت دكتوراً في الفحص بالأشعة، في المستشفى الرئيسي لمدينة نيو شاتيل بسويسرا الفرنسية، ومعنا زوجته أميرة وهي أيضاً دكتورة في أمراض الدم، تعمل هي أيضاً في مستشفى آخر بالمنطقة، ومعنا أيضاً أبناؤهم رياض، ومالك، وعمر، كنا متجهين بالسيارة نحو مدينة لوزان التي تبعد حوالي ساعة من السفر بالسيارة، الجو صيفي لطيف، والطريق ممتد أمامنا كالبساط، والطبيعة من حولنا ساحرة .

لفت نظري لافتة كبيرة على يمين الطريق تحمل بحروف لاتينية كبيرة كلمة، LA SARRAZ، وكنت أكتب لقبي منذ الصغر وبعده، متأثراً باللغة الإيطالية كالآتي SERRAG وتداعت بسرعة في ذهني كلمات، سراج – سراز هل المصدر واحد وهو كلمة السراج ؟ إنه لأمر غريب، وما علاقة السراج بهذه المنطقة من سويسرا ؟

كنا مرتبطين بموعد في لوزان، فواصلنا السفر نحوها، وعدنا منهــا مــساءً والموضوع يشغلني، فقررنا العودة في الغد إلى حيث اللافتة، وسلكنا طريقاً يمينــاً وعلى بعد حوالي 10 كيلومترات، وجدنا بلدة صغيرة هي LA SARRAZ بجنب قصر ضخم وقديم، وعند السؤال والاستطلاع عرفنا أن كلمة سراز مشتقة من كلمة SERRA، ومعناها تقريباً القفل، وما أشبه نطقها بكلمة صرة العربية .

بجنب البلدة يمر طريق بين جبلين، والمسافرون من ...والى ... مــضطرون إلى عبوره، وكان أحد الأمراء الإقطاعيين في أجيال سابقة، اســتولى علــى ذلــك الموقع وبنى بجنبه قلعة وقصراً له، ومباني لحاشيته وجنوده، وسيطر على المنفــذ وصار المسافر ملزماً بدفع إتاوة نقدية لصاحب القصر .

وعُرف صاحب القصر ورجاله بالــسرازين أي أصــحاب آلSERRA أي أصحاب القفل، أي المتحكمين في المكان أو أصحاب الحل والعقد .

للقصر إدارة ومؤثث بالأثاث القديم، وبه تحف حولــه إســطبلات الخيــول وسروج قديمة، ويزار كَمعلم تاريخي سياحي بالمنطقة – نطق كلمة السراج وسراز ومخرج حروفها متقارب، ولكن لا علاقة للكلمــة الإفرنجيــة بالــسرج والــسراج والسراجين .

88 **الخلاصــة:** بعد كل ما ذكرت إجمالاً وتفصيلاً فأن رأيي الشخــصي في موضوع لقب السراج هو أن وسائل التنقل في العالم العربي المترامي الأطراف بآسيا وأفريقيا كانت تعتمد على الأقدام أولاً، ثم على الحصان، ولكل حصان ســرج ولكل سرج سراج، فالخيل في كل البلاد والسروج في كل البلاد، ولقب السراج في كل البلاد وعنوان لبعض العباد الصالحين إن شاء الله .

89 **السراج عرب أم ترك:** الجواب عن هذا السؤال لا يخــص عائلــة السراج وحدهم، وإنما هو أشمل وأفسح، تعرض له علماء متخصصون فــي علــم الاجتماع على رأسهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون، ومن المحــدثين يحــضرني

العالم ساطع الحصري، وخصوصاً هذا الأخير عندما كانت القومية العربية الشغل الشاغل للمفكرين والساسة .

وكان السؤال من هو العربي ومن هو الغير العربي، واختلف المفكرون كالعادة حول هذا الموضوع كثيراً، والراجح عند معظمهم إن لم أخطئ أن العروبة انتماء لا مجرد نسب، وخصوصاً أن نظرية تنوع الدماء بتنوع الشعوب فشلت سياسياً وثبت بطلانها علمياً .

وخلاصة الموضوع أنه إذا جاءك شخص وقال لك إنه عربي، وهو يتكلم العربية ويحس بأحاسيس العرب، يفرح لفرحهم، ويحزن لحزنهم، يتطلع مثلهم لغد مشرق ويعمل معهم من أجل ذلك، إذا أحسست بأنه صادق، فإنه عربي .

ولذا أقول لحفيدي رضا السراج الذي سألني هذا السؤال ولغيره، إن جدنا الأول المعروف كما سبق وأن قيل هو محمد أغا، وهو تركي أكيد وإن جدتي هي السيدة سعيدة من نالوت، يقول البعض إنها بربرية الأصل، ويقول آخرون إن ما يسمونهم بالبربر هم في الواقع عرب من اليمن، هاجروا إلى شمال أفريقيا لظروف مناخية أو سياسية منذ آلاف السنين، وعرفوا فيما بعد لأسباب عرقية خاطئة، أو سياسية مصلحية مغرضة بأنهم بربر مختلفون عن العرب .

ولذا فإن رضا السراج، كغيره من سلالة هذين الشخصين محمد وسعيدة رغم ما يحيط بالموضوع من وضوح أو غموض فإنه عربي، لأنك إن سألت رضا هل هو تركي أو عربي سيقول تلقائياً دون تردد أنه عربي، وكذلك أبوه سراج، وكذلك جده الأول علي و الثالث فوزي، وربما جده الرابع مصطفى أيضاً .

وأرجو أني لم أخطئ في تناول الموضوع .

## 90 قبيلة السراج – القبيلة وما أدراك ما القبيلة:

ما أعرفه أن السكان في ليبيا فريقان أو ثلاثة، البدو: وهم سكان البادية أو الصحراء، يعرفون بالتنقل من مكان لآخر بحثاً عن مرعى لحيواناتهم، وأرض سقتها السماء بماء المطر لزرع الشعير أملاً في إنتاج يكون غذاء لهم ولدوابهم .

البدو موزعون على قبائل، وكل قبيلة تنسب إلى جد واحد، وأفراد القبيلة لا يقيمون بالضرورة في بلدة معينة، فإنهم بحكم مصالحهم موزعون على بقاع الأرض، ولو أن لهم أماكن تعرف بهم ويعرفون بها، فمثلاً المحاميد قبيلة واحدة جدهم الأول محمود، موطنهم نالوت وما حولها، أو صرمان وما حولها .

ولا تستغرب أن تجد في إحدى القرى الليبية أو أحد القطبين، أو على خط الاستواء شخصاً يقول لك إنه محمودي قبل أن يضيف من نالوت، أو من صرمان، أو ليبي.

للقبائل أعراف، تنظم العلاقة بين الأفراد، وقمة القبيلة شيخها .

91 **الفريق الثاني والثالث:** الفريق الثاني سكان المدن أو القرى الكبيرة ويعرفون بالحضر، هؤلاء كما هو معروف يسكنون بيوتاً ثابتة، مستقرة، يحترفون الصناعة والتجارة وبعض الخدمات، معظمهم لا ينتسب إلى جد واحد، بل أكثرهم جاء من البادية، أو الريف، ومن وراء الصحراء أو البحار لأسباب معيشية مختلفة، أقام واستقر وعاش سنين في المدينة، وصار برضاه أو بدون أن يستشيره أحد من الحضر مدنياً، الرابط بينهم الجوار والمصالح، قد يتخاصمون، في هذه الحالة يلجأون إلى الشرطة أو المحاكم لتفصل فيما يحدث بينهم من مشاكل موزعون على محلات لا على قبائل، فالشخص من محلة الظهرة ما دام مقيماً في الظهرة،وإذا انتقل إلى محلة النوفليين فهو منها .

الفريق الثالث سكان الريف، وهم في نظري أولئك الذين يقيمون على الأراضي التي تسقى بماء الآبار وتعرف بالسواني، ويشتغلون بالزراعة المستقرة من فواكه وخضراوات، يقيمون في بيوت حجرية ثابتة مجتمعة في قرى صغيرة، أو موزعة على السواني، هم على صلة بالبادية، وعلى صلة بالحضر، والمتفوق من الفريقين الحضر أو البدو يضمهم إليه، وإن كانوا أقرب إلى المدينة، أو أبعد عن البادية الصحراء. علماء الاجتماع يرددون، إن لم أخطئ، أن الإنسان يتطور من البداوة إلى الريف ثم إلى المدنية .

## 92 التنافس بين البدو و الحضر:

بين البدو و الحضر تنافس خفي لا يطفو على السطح إلا نادراً، البدو يرون أنهم مستودع كل القيم البشرية الحميدة، وأن مناخ الصحراء غير ملوث حافظ على صفاء ونقاوة هذه القيم، وأن سكان المدن مساكين، أصبحوا منحرفين وأصابهم الانحلال .سكان المدن الحضر، يرون عكس ذلك، فإن الله أراد بهم خيراً فتطوروا، وتقدموا في سلم الرقي، وتخلصوا من تخلف البادية والبداوة، وصاروا بنعمة الله حضراً .سكان المدن موزعون على محلات، وسكان البادية على قبائل، ولا فضل لفريق على آخر إلا بالتقوى .

وأقول لحفيدي رضا السراج إنه من سكان المدينة، له محلة ولا قبيلة له، وأن صديقه إذا كان من سكان البادية فإن له قبيلة ولا محلة له .

سكان البادية المنتقلون إلى المدينة، المنحرفون في نظر إخوانهم البدو، الذين ما زالوا بدواً، والمتحضرون في نظر سكان المدينة، يعيشون في المرحلة الأولى من انتقالهم إلى المدينة اضطراباً نفسياً يتفاوت حدة وعكسه من فرد لآخر ويدوم شعورهم سنين موزعاً بين البادية والمدينة يفاخر الفرد منهم بأكل الزميطه التي لا يحبها، ويأكل البقلاوة بشراهة لأنها لذيذة، والبعض ينجح في الجمع بين أحسن صفات البدو، وأحسن صفات الحضر، ويكونون أحسن ما في المدن من سكان، ولله في خلقه شؤون .

## 93 الترابط بين الحضر و البدو:

من المعروف أن البدو يسكنون خيام الشعر وأن سكان المدن الحضر يسكنون بيوت الحجر .

حديثي هذا عن ذكرياتي في العشرينيات والثلاثينيات، أخوالي كما هو معروف من سوق الجمعة، وهم من سكان الريف، حرفتهم الرئيسية الزراعة في السواني المروية بمياه الآبار، بعض أقارب والدتي، والذين صاهرتم من بعد، أفراد عائلة بن محمود، كانوا من الريف، سوق الجمعة، هم أيضاً انتقلوا إلى المدينة وصاروا تجاراً في الأردية بأنواعها في سوق الربَاع الذي سبق الحديث عنه، محيطي العائلي الحضري واحتكاكي بهؤلاء وهؤلاء، حتى وإن كنت نسبياً صغيراً

جعلني أدرك أن سكان ليبيا جميعها في تلك الفترة حضرها وريفها وبدوها كانوا مهتمين كثيراً بأحوال الطقس وخصوصاً في فصول الخريف والشتاء والربيع، ورغم أن عصب الحياة الاقتصادية كان الإنفاق الحكومي، فإن محركها الأهم على المستوى الشعبي كان الزراعة بشقيها الريفي والبدوي .

البدو كانوا أكثر السكان، وكانت زراعتهم للحبوب الشعير والقمح ومراعي أغنامهم تعتمد على الأمطار، وتتأثر تأثراً مباشراً بها إن هطلت أو انكمشت .

للبدو وغيرهم من المهتمين بالطقس من سكان الريف والمدن تقويم فلاحي متوارث عن القدماء وهو محصلة لخبرات طويلة متراكمة .

يقسم التقويم السنة الفلاحية إلى أربعة فصول هى الربيع ويبدأ في 2/28 وفصل الصيف و يبدأ في 5/30 والخريف و يبدأ في 8/30 و الشتاء و يبدأ في 11/29.

وفصل الشتاء موضع اهتمام خاص ومتابعة من طرف الفلاحين الذين تعتمد زراعتهم على الأمطار، يفرحون بغزارتها ويستعجلون موعد هطولها .

والشتاء عندهم مقسم إلى فترتين مدة كل واحدة منها عشرون ليلة، الأولى الليالي البيض و تبدأ في 12/23 وتنتهى في 1/13 وتكون عادة دافئة نهاراً باردة ليلاً، والثانية الليالي السود و تبدأ في 1/14 و تنتهى في 2/2 وتكون عادة عكس الأولى باردة نهاراً دافئة ليلاً، لا أعرف لماذا سميت بالبيض (البيضاء) والسود (السوداء) .

التقويم الفلاحي يحدد أيضاً مواعيد القِرر ( جمع قِـرّة ) حيث تهب رياح عاصفة باردة مع أمطار و أشهرها قرة العنز وموعدها عادة في 2/14، وقرة الحسوم وموعدها عادة من 10 إلى 3/17 .

فى الصيف تهب عواصف دون أمطار مع ارتفاع فى درجة الحرارة ورياح جنوبية أو جنوبية غربية محملة بالاتربة وتسمى بالقبلي .

عاصفة الصيف لا تسمى قِـرّة بل نوّه .

أطول يوم في السنة هو 7/24 و أقصر يوم هو 12/22.

البدو إن نزلت الأمطار في مواعيدها ينتجون الشعير و القمح قـوتهم وقـوت نسبة كبيرة من سكان الريف والمدن، وهم منتجو لحم الأغنام والماعز والإبل، أكلا لهم ولجميع سكان البلاد مع شئ من الاقتصاد، وصوفها وشعرها و وبرها مادة خام لصناعة الحوالي والمراتب والمفروشات، وفي السنوات التي يزيد الإنتـاج علـى حاجة السكان يصدر، ولذا كان البدو على فقرهم وشظف عيشهم عنصراً هاماً فـي اقتصاد ذلك الزمن، كما كانوا وقود الحركة الوطنية المقاومة للاحـتلال الإيطـالي سنين طويلة، كما هو معروف.

## 94 الليالي البيضاء و الليالي ....

بمناسبة ذكر الليالي الـسود فـي الفقرة السابقة يُروى أن شاباً ريفياً زُوج حسب التقاليد السائدة قديماً من امرأة لـم يرها أو يعرفها قبل الزواج .

وفي ليلة الدخلة فوجئ المسكين بأن عروسه ذميمة المظهر جداً ممـا عكـر مزاجه إلى درجة أنه لم ينطق بأى كلمة منذ أن رآها. الفصل شتاء والطقس خارج الغرفة عاصف، البرق يلمع والرعد يزمجر، والمطر يهطل وطالت فترة الـصمت الرهيب داخل الحجرة .

وحاولت المسكينة أخذ المبادرة، ومحاولة إذابة الجليـد، وتـشجعت وسـألته مرتبكة متى تبدأ الليالي السود ؟

فانفجر العريس التعيس و أجابها بالنسبة لي بدأت منذ الليلة .

وعقبت الذميمة بكلمات عذبة غير ذميمة، حلت عقداً من لسانه وكان حـواراً بدأ مستحيلاً ثم متقطعاً ثم صعباً، خافتاً تارة وصارخاً أخرى. وتمكنت الذميمة مـن ديمومته متوتراً أو رتيباً .

وكانت لياليهما كليالي كل الناس بعضها سوداء وبعضها بيضاء، وتاره بـين بين بنية اللون شوكولاته لذيذة، وأنجبا البنين والبنات .

**استثمار تجار المدن:** البدو والريفيون الذين انتقلوا إلى المدن وتحضروا، صاروا تجاراً يقدمون خدمة للمجتمع، هم حلقة الوصل بين المنتج البدوي والمستهلك ساكن المدينة، في ذلك العهد لم نسمع من يتحدث عن المساواة بين الناس، أو عدالة التوزيع. الحكومة الإيطالية تنفذ سياستها حسب خطتها المرسومة على من خضع لها قهراً من الحضر والبدو، ويكد الجميع في سبيل لقمة العيش، حياة البدو صعبة لعدم انتظام هطول الأمطار وحياة الحضر صعبة لشدة المنافسة .

التجار الذين يحالفهم الحظ، ويوفرون أموالاً زائدة على تجارتهم كانوا يستثمرون الفائض في شراء عقارات أي بيوت للإيجار، أو كانوا يشاركون أقاربهم الذين بقوا بدواً، أو غيرهم يثقون بهم في تربية الماشية،التاجر يشتري قطيع الغنم، والبدوي عليه الحراسة والرعاية والرعي، والأرباح إذا تحققت توزع مناصفة، كانت طريقة شائعة، لا أدري إن كانت عادلة أو غير عادلة، كانت نوعاً من الاستثمار مقبولاً من الطرفين، مبنياً على الثقة، وهي عنصر مهم في العلاقات بين البشر، متى توفرت تحل كثيراً من العقد .

في فصل الصيف بعد جني المحصول، وجز الغنم، ينتقل البدوي المنتج إلى المدينة لبيع إنتاجه، معتمداً على خبرته أولاً، وعلى علاقات شريكه التاجر الذي يكون له سنداً معنوياً ومادياً .

في تلك الفترة سكان طرابلس يطلقون اسم البادية على سهل الجفارة العزيزية وما جاورها، وبئر الغنم وما حوله، والانتقال من وإلى المدينة لا يتم في دقائق بالسيارات العامة والخاصة، بل يستغرق ساعات وراء الإبل، وهي محملة بغرائر الشعير، ووراء قطعان الغنم متجهة رويداً رويداً نحو سوق الثلاثاء في طرابلس وسوق الجمعة الملاصق للمدينة .

يضطر البدوي للمبيت ليلة أو ليالي في المدينة، تارة ينزل في فنادق، (وهذه الكلمة معناها يختلف الآن عما كان، في الماضي كان الفندق هو مكان لإيواء

الحمير والخيول والإبل بالدرجة الأولى )، وربما آوى أصحابها الذين ليس لهم شركاء من تجار الحضر .

التاجر الحضري شريك البدوي يصر على نزول شريكه عنده في بيته، وهو مستعد لذلك بتخصيص ما يعرف بالمَربوعَة أو غرفة السقيفة للضيوف، يبيتون ويأكلون،،وينعمون فيها أثناء السهر وشرب الشاي الأخضر بالحديث في شتى المواضيع التي تهمهم مع شريكهم وأصدقائه من التجار، العلاقات العامة للتاجر واسعة، تفتح أبواباً كثيرة أمام شريكه البدوي الذي يشعر بالاطمئنان، يأمن الغش، والتلاعب به، يبيع إنتاجه ويشتري ما يحتاجه هو وأفراد عائلته وهو مستريح البال، راحة البال مطلب جليل لكل إنسان في ذلك العهد وكل العهود.

## 96 نخيل الريف وشعير البادية:

شرحت العلاقة بين المدينة والبادية، بين التاجر ومربي الأغنام، هناك علاقة أخرى بين الريف والبادية، بين فلاح السواني وفلاح الصحراء، الريف جنوب طرابلس شريط ضيق وبعده مباشرة من عين زارة أو من خلة الفرجان تبدأ البادية حتى سفح جبل غريان أبو غيلان، القبائل الملاصقة للريف ويعرف بالساحل، هي عكارة والعلاونة والخنتنة والرقيعات وورشفانة. هذا هو الإطار العام، وداخله تفرعات لا أعرفها أو لا أذكرها ولا أرى الآن فائدة من ذلك .

القاسم المشترك بين الطرفين هو الزراعة، زراعة منتظمة مستقرة مروية بمياه الآبار بالساحل، على مساحات محدودة ومحددة تعرف بالسوانيِ، وزراعة الشعير على مساحات واسعة شاسعة، ومراعٍ تعتمد على نزول المطر غير المنتظم، الزراعتان متكاملتان، كيف ؟

إني أعرف أن أخوالي وهم من قبيلة أولاد الحاج لهم أصدقاء في قبيلة الرقيعات، وفي الخريف، عندما ينضج البلح ويصير رطباً، وقبل هطول الأمطار الخريف، تفد عائلات من الرقيعات بخيامهم إلى الساحل، وقبيلة أولاد الحاج من ضمنها، لشراء البلح وهو في عراجينه على قمم النخيل .

أخوالي يملكون سواني بها كثير من النخيل الذي سقوه، وذكروه، واعتنوا به فأثمر، وهو جاهز بعد أيام للجني، وأصدقاؤهم من الرقيعات يحتاجون إلى التمر المجفف، والمرصوص في براسيل محفوظاً لأكله شتاء وربيعاً، غذاء شهي غني بالسكريات والبروتين والفيتامين .

يكلف الطرفان خبراء في تقدير حجم إنتاج النخيل المعروض للبيع وثمنه، ويتولى أخوالي، أو من يكلفون بإنزال الرطب الناضج من أعالي النخيل، وهم مهرة في تسلق النخيل بواسطة ( الوصلة )، يصعدون وينزلون بسرعة واطمئنان ورشاقة يحسدون عليها، وعلى الأرض يتسلم أفراد عائلة المشترين الرطب، الذين يتولون شقه، ونزع النوى منه، وتجفيفه بحرارة الشمس، ويرصونه في أوانٍ من ضفير الحلفاء (برسيل) .

في هذه الأثناء ينزل أول مطر مرتقب، فيسرع الجميع في جمع التمر وحفظه، والعودةِ إلى البادية لحرث الأرض وزرعها شعيراً بالدرجة الأولى، وقليل من القمح، الشعير ينجح في الزراعة البعلية أو شبه البعلية،مرغوب أكثر لأنه قوت الإنسان والحصان، ومقاومة القمح لتقلبات الطقس أقل، واستعماله مقصور على الكسكسي فقط عند البدو.

مع أهالي الرقيعات، يخرج إلى البادية أخوالي، وغيرهم بجمالهم، وخيولهم، و زريعتهم، لحرث الأرض وبذر الشعير والقمح في أراضي أصدقائهم الرقيعات، إنه ترابط، إنه تكامل، إنه تعاون بين جيران وبين إخوان تمليه المصلحة وترعاه حكمة عقلاء وحكماء الطرفين .

**مراحل التعليم الأولي:** [97] موضوع حديثي هو فترة الطفولة، بداية العشرينيات، وكنا صغاراً، نلعب كما قلت في الزنقة أو الوسعاية، على الفطرة .

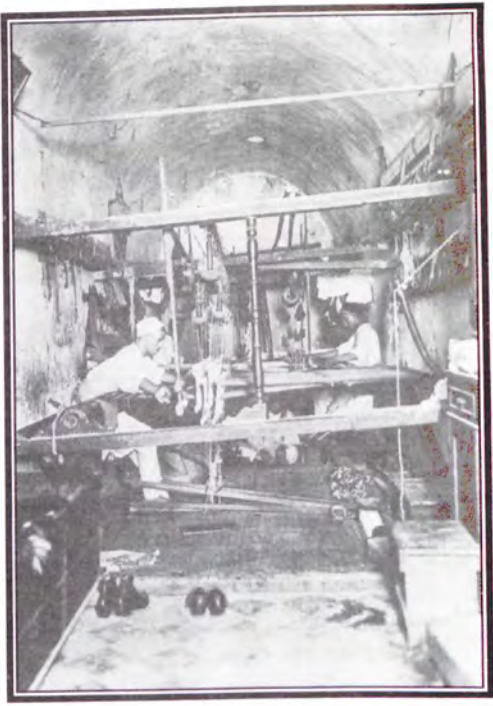
القيود المفروضة علينا محدودة وتنحصر في ثلاثة، عدم الابتعاد عن الوسعاية التي بها شجرة التوت وذكرتها سابقاً إلا بإذن، عدم الضرر بالآخرين، وفي فترة المساء العودة قبل المغرب إلى البيت، قيود قبلناها، ألفناها، صارت عادة

لنا لا نشعر بأنها قيود مفروضة، ولذا لا نحس و نفكر في مخالفتها أو التمرد عليها، مرت هذه الفترة بسرعة، ورأى أولياؤنا أن نهيأ تدريجياً للاندماج أو للسباحة في نهر الحياة، فطلبوا من السلطات الإيطالية أن تفتح لنا مدرسة أو شبه مدرسة، في تلك الفترة كلمة روضة لم تستعمل بعد .لبت السلطات الطلب لأسباب سياسية بالدرجة الأولى، وأجّرت منزل اليهودية جوهرة جارتنا، وقد سبق ذكرها في إحدى فقرات هذه الذكريات .

جوهرة انتقلت إلى منزل إحدى بناتها، المدرسة الجديدة كانت في الزنقة الوسطية، في مدخل زقاقنا غير نافذ، والذي هو فرع من فروع الزنقة الوسطية إحدى بنات جوهرة تقوم بتنظيف المدرسة والمرحاض، وكلف الشيخ محمد قديح، وهو من شارع البي، كان يعلم القرآن في كتاب جامع الشيخة راضية، بأن يرعانا ويهذبنا ويربينا ويعلمنا بعض آيات أو سور القرآن، ومبادئ الكتابة والقراءة إن أمكن، إنه رجل فاضل، كنا نلعب أكثر من أن نتعلم، وكان يوزع علينا قبل العودة إلى بيوتنا، حسب الفصول، برتقالة أو قليلاً من التمر المعروف بتمر فزان، هذه الخطوة الأولى في مسيرة الألف ميل، تلتها خطوات سأتعرض لها في حينها .

98 **خالي الطاهر الجزيري:** من هو ؟ ولماذا ؟ نفس الأسئلة التي وردت عند التعرض لشخصية خالي علي إدريس.والجواب يكاد يكون واحداً مع بعض الفروق. وسيلاحظ عزيزي المطلع على هذه الذكريات ذلك.

الطاهر الجزيري هو أخ لتيزه زهرة (كلمة تيزة تركية تعني خالة) وتيزة زهرة والدة نانا فاطمة (نانا كلمة تركية تعني سيدة) ونانا فاطمة هي الزوجة الأولى لعمي نوري أفندي (أفندي كلمة تركية تعني السيد) فالطاهر الجزيري هو خال زوجة عمي نوري، وكنا نحن أيضا نلقبه بكلمة خالي. خالي الطاهر الجزيري شخصية شعبية جداً، بسيطة جداً، ظريفة جداً يتشابه مع خالي إدريس ولكن ليس نسخة كربون منه إنه نموذج لشريحة أخرى من المجتمع.



حياكة الأردية – طرابلس 1935



صناعة السروج – طرابلس 1930



صناعة الحلي الفضية والذهبية – طرابلس 1925

خالي الطاهر الجزيري جزائري الأصل (جزيري تعني جزائري) نزحت عائلته بعد احتلال الجزائر من طرف فرنسا إلى ليبيا طرابلس واستقرت في طرابلس حيث إن ديار المسلمين لكل المسلمين، والمؤمنون إخوة وكان زواج ومصاهرات.

جواز سفر خالي الطاهر جزائري، والجزائر تابعة لفرنسا، وهو رسميا تابع لفرنسا رضي أو أبى.

طرابلس كانت تابعة للحكومة التركية التي كانت في مرحلة هزال شديد، مما جعل الدول الأوربية الاستعمارية تنهش بعض أجزائها وولاياتها، الواحدة تلو الأخرى، الجزائر، تونس، وطرابلس.كما فرضت الحكومات الأوربية على الحكومة التركية نظاما يعرف بنظام الامتيازات الأجنبية، يعطي للفرنسيين وغيرهم من الأوربيين ويعطي للأفراد التابعين لهم، امتيازات في المعاملة عن الأتراك مواطني الدولة التركية، منها :

أن المستفيدين من الامتيازات لا يخضعون للشرطة التركية، ولا يحاكمون في المحاكم التركية بل في محاكم خاصة في القنصليات الأوروبية. خالي الطاهر هذا الكلام يعرفه أو لا يعرفه لا يعنيه كثيراً، فهو على حاله.

## 99 خالي الطاهر صباغ:

خالي الطاهر عرفناه وهو عامل صباغ، في مصبغة لعائلة اندير بشارع أبى الخير في طرابلس. عائلة اندير من العائلات الثرية في ذلك العهد وبعده، لها نشاطها الصناعي المشهور لصناعة الأردية القطنية، المستعملة كثيراً من نساء الريف والبادية. وقد كان لنساء كل قبيلة طراز من الأردية يختلف في زخرفته وألوانه عن الأخرى.

اندير كان يستورد غزل القطن من إنجلترا، والصبغة من ألمانيا ويتولى عماله المهرة جميع مراحل الصناعة من صباغة وحياكة. الأنوال كانت يدوية وكذلك الصباغة كانت بطريقة بدائية بسيطة تتناسب مع إمكانيات ذلك العهد.

خالي الطاهر كان صباغا يستعمل يديه وذراعيه دون واق لهـا فـي غمـر الخيوط القطنية في دنان (براميل) الصبغة. وكانت يداه وذراعاه زرقاء خشنة مـن كثرة تعاملها مع النيلة وهي نوع من أنواع الصبغة.

كان قوي البنية غير بدين، به حيوية، رغم شيخوخته، يحرك رأسـه حركـة خفيفة لا تخفى، قد يكون ذلك لأسباب عصبية، ربما كان فتوة في شبابه. كان يجيد التحدث، قصاصاً بالفطرة، له حكايات ونوادر، كنا نستمتع بسماعها بتلهف ونحـن حوله.

## 100 خالي الطاهر الجزيري والامتيازات الأجنبية:

يتفرع عـن زنقة الفزاني بمحلة شارع الزاوية زقاق غير نافذ به ثلاثة بيـوت، أولهـا لعمـي قدري، الثاني تسكنه عائلة ضفارة، والثالث يسكنه رمضان أبو رقيقة. كل ذلك فـي أواخر العهد التركي. خالي الطاهر كان يزور بنت أخته، زوجـة عمـي قـدري بمناسبة، وغير مناسبة، كأي فرد من العائلة وكان موضع ترحيب مـن الجميـع، لقرابته ولخفة ظله. وكانت الزيارات في ذلك العهد تدوم أياما ولياليي.

وفي إحدى الزيارات تضايق من أحد أفراد عائلة ضـفارة الرجـال، وكـان سكراناً يتلفظ بكلمات نابئة، فنهره ولكن السكران لم يمتثل، وتمادى في غيه. فمـا كان من خالي الطاهر إلا أن قبض على رقبته بيده اليسرى ولطمه بيده اليمنى على وجهه فأفقده توازنه، ووقع على الأرض، زاد صراخه، و أسرع إلى أقرب نقطـة للشرطة التركية، ووجد خالي الطاهر نفسه في مركز الشرطة يحقق معـه، اتهمـه السكران بأنه ضربه على وجهه (بكرنافة) وهي الجزء الأسفل من جريد النخيل.

الحادثة وقعت ليلاً والإضاءة معدومة في الزقاق والمضروب سـكران ويـد خالي الطاهر خشنة مثل الكرنافة من أثر النيلة. الوقائع والقرائن كلها ضـد خـالي الطاهر فتقرر إيداعه السجن ليقدم إلى المحكمة، خصوصا وأنه عند استجوابه عـن هويته قرر مفتخرا أنه تابع للدولة العلية العثمانية، و أخفى عمدا أنه جزائري وأنـه تابع لفرنسا، وتنازل عما له من حقوق بموجب قانون الامتيازات. ضفارة السكران

هو أيضا تابع لفرنسا، وصرح معترفا بذلك فأطلق سراحه، بقي خالي الطاهر أياما في السجن وأهله و أقاربه مشغولون عنه، حتى بلغ الأمر القنصل الفرنسي الذي تدخل محتجا و أطلق سراحه.

**101 خالي الطاهر وصفحة من المصحف:** حكاية أخرى من حكايات خالي الطاهر، كان ماراً من شارع ميزران قريبا من شارع بن ناجي الذي يربط شارع ميزران بشارع الفاتح من سبتمبر الآن (ريكاردو) سابقاً، فرأى وراءه مجموعة كبيرة من العرب في أسوأ حال يحرسهم جنود من الإرتريين والصوماليين المجندين بالجيش الإيطالي، يدفعونهم في قسوة، نحو شارع بن ناجي و وجد نفسه مع هذه المجموعة دون أن يدري منساقا إلى مصير مجهول. ولا حظ أثناء سيره وهو أمام جامع بن ناجى صفحة من مصحف شريف ملقاة على الأرض، فاستاء من ذلك وانحنى لأخذها. في تلك اللحظات سار الموكب في طريقه، ونهض خالي الطاهر، والورقة في يده، فوجد نفسه وحده، خارج المجموعة، فاختفى مسرعا في زنقة متفرعة من شارع بن ناجي بقى فترة سمع أثناءها إطلاقاً كثيفا لرصاص البنادق....

كنا في الأسابيع الأولى من الاحتلال الإيطالي، والمدينة وما حولها في غليان وكانت المجموعة مكونة من سكان المنشية والساحل والذين جمعوا عشوائيا كانوا متهمين بالانقضاض على جنود إيطاليين وقتلهم، وكان الجنود الإرتريون والصوماليون يدفعونهم إلى مدرسة الفنون والصنائع، كان إطلاق الرصاص غزيراً. هل قتلوا أم نفوا مع غيرهم إلى جزيرة أوستكا جنوب إيطاليا ؟

خالي الطاهر المذعور المختفي لا يعرف وأنا أيضا لا أعرف.

**102 المغني علي الحداد:** المرحوم علي الحداد المغني الشهير لاحقا، كان من سكان محلة شارع الزاوية، من جيراننا، لم يكن من زقاقنا، ولكن من زقاق آخر قريب منه. كان أعمى مثل خالي علي إدريس، لا أعرف متى عمي.

كان صبياً من صبيان المحلة مثلي، لا يستطيع اللعب معنا لأنه أعمى. ولكنه كان من مجموعتنا وفي فترة من الزمن كنت قريبا منه. لقب عائلته الحداد كنت أعرف جميع أفراد عائلته، أبوه الحاج أحمد، أمه خدوجة أخوه محمد لم يكن حدادا كان بناءً ومن شواش الحضرة، أعرف إخوته وأخواته.

كنت قريباً جداً منه عندما فتح دكانا صغيرا في الزنقة الوسطية لبيع الوقود فحم نباتي، كوانيين طين، بعض المراوح الرديئة من سعف النخيل ولا شي آخر.

كنت ألازمه في هذا المكان وأستريح إليه. كان من الذين يترددون على الحضرة في المولد، وكان ممن يشترك في حلقات الذكر، وكان من جماعة المألوف لا دور رئيسي له ولو أنه كان ينقر على النقرة.

كان لعلي الحداد عود بدائي جداً، لا أعرف هل هو من صنعه أو من صنع غيره ؟ مكون من صندوق خشبي استعمل أساسا في تصدير الشاي من الهند إلى طرابلس سعة 5 كيلو، أدخلت عليه بعض الإضافات وله أوتار من خيوط نحاسية رفيعة كانت سابقا ضمن سلك كهربائي مغلف.

صديقي علي الحداد كان طوال الوقت والعود في حضنه يدندن ويحرك الأوتار النحاسية بأصابعه. من هنا كانت بداية المسيرة الفنية لعلي الحداد.هل الخطوة الأولى كانت الحضرة بما فيها من حلقات الذكر والبازة، الطبلة، والمألوف، والنقرة ؟ هل كان دكان الفحم وعود صندوق الشاي والأوتار النحاسية؟ لا يهم، المهم أن الصديق علي الحداد بدأ يتسلق السلم الموسيقي.

كبر علي الحداد وكبرت أنا أيضا، غبت عن المحلة معلما في هون عدة سنوات وغابت عني أخبار علي الحداد، وصراحة نسيته.

في آخر الثلاثينيات وجدت نفسي ضمن أسرة الإذاعة الليبية الإيطالية، كنت مترجماً للأخبار من الإيطالية إلى العربية، وفوجئت بأن من ضمن زملائي في الإذاعة المغني المشهور والفنان القدير علي الحداد، كان سروري عظيماً، اجتمعنا، واجتمعنا، استمعت لمعزوفاته وأغانيه بإعجاب مزهواً أليس هو صديق الصبا ؟

وكنت أردد في نفسي قوله تعالى (( وأن للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يرى)).

103 **التعليم الابتدائي:** في فقرة سابقة تحدثت عن أولى خطوات التعليم عما يشبه الروضة، عن حوش اليهودية جوهرة، وعن الفقيه اقديح، كانت الخطوة الأولى، وقلت إني سأتحدث عن الخطوات الأخرى التي تلتها.

قبل التحدث عن التعليم مجرداً أرى من المفيد إلقاء نظرة على الوضع السياسي منذ سنة 1911، بداية الاحتلال الإيطالي لليبيا، وإلى 1922 بداية الحكم الفاشي لإيطاليا.

104 **نبذة تاريخية:** في سنة 1911 وما قبلها كان الحكم في إيطاليا ديمقراطياً ليبرالياً حراً، تتولى الحكم وزارة مؤلفة من حزب أو مجموعة أحزاب بعد انتخابات لمجلس النواب الخ ....

نظام الحكم هذا كان يوصف بالحر، ولكنه في رأي آخرين بعيد كل البعد عن الحرية الحقيقية. لست هنا بصدد المقارنة والمفاضلة بين مختلف أنظمة الحكم وإنما لكي أقول إن بعض الأحزاب الإيطالية في سنة 1911 ومنها الحزب الاشتراكي الذي كان من شخصياته البارزة موسوليني الشهير، كان يعارض احتلال ليبيا سنة 1911، فصار في سنة 1922 بعد أن قام بالثورة الفاشية من أشد الساسة تعصباً لاستعادة احتلال ليبيا بالقوة وبسط نفوذها على كل ليبيا من أقصاها إلى أقصاها دون أي اعتبار للسكان المحلّيين العرب، بحجة أن ليبيا منذ ألفي عام كانت رومانية تحكمها روما وكانت مزدهرة والإيطاليون هم أحفاد الرومان، الآن ليبيا تحت حكم روما مرة ثانية، وتحت حكم الإيطاليين ستستعيد ازدهارها، وستبقى إيطالية أبد الدهر.

كان هذا الكلام يتردد منذ الاحتلال وقبله، سمعناه وسمعناه ونحن أطفال ونحن شباب منذ صرنا ندرك حتى سنة 1943 عند دخول الإنجليز إلى طرابلس

وفرار الطليان منها، واستمرت الأصوات هنا وهناك تردد بأساليب أخرى نفس المعنى لعلها تسترجع ليبيا تحت النفوذ الإيطالي بشكل من الأشكال.

إن إيطاليا استطاعت كما هو معروف خلال سنتين1912 و 1913 من بسط نفوذها على ليبيا واحتلتها رغم بسالة المقاومة الوطنية واستشهاد الكثيرين كما هو مذكور في كتب التاريخ.

105 **الأحزاب الإيطالية تتخاصم:** وفي الوقت الذي كانت فيه الأحزاب في روما تتخاصم حول طريقة التصرف في هذه المستعمرة الواسعة الأرجاء، البعض يسميها الأرض الموعودة وفيها حل لكل مشاكل إيطاليا الاجتماعية والاقتصادية، يرى فريق آخر أنها صندوق كبير كله رمال لا فائدة منه،وإذا كان لابد من الاحتفاظ بالعَلم الإيطالي عليها، فليكن مع تسليم إداراتها للسكان المحليين العرب والبربر واليهود مع احتفاظ إيطاليا ببعض الحقوق السيادية الأساسية حفاظاً على سمعة إيطاليا بين الدول الكبرى.

في الوقت الذي كانت الأحزاب الإيطالية تتصارع حول هذا الموضوع وغيره نشبت الحرب العالمية الأولى1914 ووجدت إيطاليا نفسها في معسكر الإنجليز والفرنسيين أو ما كان يعرف بالحلفاء ضد النمسا وحلفائها الألمان والأتراك (كانت النمسا في ذلك العهد أول القرن العشرين دولة عظمى) وكان أحد الأهداف الرئيسية من دخول إيطاليا الحرب، استرجاع إقليم فينتو في شمال إيطاليا من الحكم النمساوي وبذلك تستكمل وحدة التراب الإيطالي.

106 **إيطاليا تنسحب من معظم ليبيا:** جمد الوضع في ليبيا وانصرف اهتمام إيطاليا إلى الحرب الأوربية والانتصار فيها. وكان من صالح الألمان والأتراك التشويش على الطليان وبعثره جهودهم الحربية في ميادين فرعية عديدة ويعرفون جيداً كراهية الليبيين للإيطاليين وحقدهم عليهم وأن جراح العرب من جراء حرب احتلال ليبيا لم تندمل، فأمكن بقليل من الإمدادات الألمانية التركية والكثير من التصميم العربي الليبي استعادة ليبيا لأصحابها الأصليين كما أمكن طرد

الطليان من معظم ليبيا، وبقي حكمهم محاصرا في بعض المدن الساحلية محميا بمدافع سفن الأسطول.

انتهت الحرب العالمية سنة 1918 بانتصار إيطاليا وحلفائها وعادت الأحزاب الإيطالية إلى حيث توقفت قبل الحرب واستؤنف الجدال حول الاحتفاظ بليبيا قسراً أو بالتفاهم مع العرب الليبيين المسيطرين على كل ليبيا تقريبا،فريق يرى أن الحرب في أوروبا أنهكت إيطاليا رغم أنها منتصرة،واستعادة المستعمرة بالقوة تحتاج إلى مجهود حربي جديد يستنزف كثيراً من الموارد البشرية والمالية إيطاليا في أشد الحاجة إليها، لإعادة بناء ما دمرته الحرب في إيطاليا نفسها، فلنترك المستعمرة لأصحابها.

الفريق الثاني يرى أن إنزال إيطاليا لعلمها وهى منتصرة في الحرب الأوربية من على ليبيا المستعمرة لا يجوز وهي معرة أمام الدول الأوربية التي تتكالب على استعمار الكرة الأرضية جميعها وإن أمكن الشمس والقمر.

بدأت بالحديث عن التعليم الابتدائي ووجدت نفسي أسبح في بحور أخرى معذرة عزيزي المطلع على هذه الذكريات.

107

## أولى المدارس الإيطالية العربية:

السلطات الإيطالية واجهت مشكلة التعليم بسياسة غير واضحة و اكتفت منذ الأشهر الأولى للاحتلال بفتح مدارس حكومية بجنب مدارس الرهبان الفرنشيسكان التي كانت موجودة منذ العهد التركي، والتي استفاد منها اليهود وبعض المالطية وأفراد قليلون جداً من العرب.

عمي شكري ومحمود المنتصر، ومحمود الزليطني، كانوا من أول العرب الذين انضموا إلى مدرسة روما. في هذه المرحلة والسلطات الإيطالية تتأرجح بين العنف والتفاهم مع العرب، تحمس رجال في مدينة طرابلس مثقفون ووطنيون بدافع وطني قومي بفتح مدرستين أهليتين متواضعتين اسم إحداهما مكتب (مدرسة) العرفان، والثانية مكتب الإصلاح. وانتسب إليهما بعض من كانوا يدرسون في المدارس التركية وممن يأنفون الدراسة في المدارس الإيطالية الصرفة. استمر هذا الوضع المضطرب حتى سنة 1922 حين استولى موسوليني على الحكم وأزاح

الأحزاب ومن تمثل، وقرر استعادة ليبيا بالقوة لأنه لاحق بغير قوة والقوة فوق الحق.

بدأت هذه المرحلة الصعبة ولم يبق أمام الليبيين إلا أحد الطريقين الاستسلام أو المقاومة. واستسلم من استسلم وقاوم من قاوم ومصطفى وعمره 5سنوات يلعب في مدرسة الفقيه قديح.

السلطات الإيطالية أغلقت بقسوة مكتب العرفان ومكتباً لإصلاح وراقبت كل من له صلة بهما، و فتحت أولى المدارس التي عرفت بالمدارس الإيطالية العربية،وسميت هذه المدرسة بلقب وليّ العهد الإيطالي (أمير بيومنتي) والكلمة الأخيرة اسم لإقليم في شمال إيطاليا، وكان مقرها في شارع بن ناجي المتفرع من شارع ميزران، وكانت جزءاً من بناء مكتب الفنون والصنائع.

معظم المدرسين في مكتب العرفان وفي مكتب الإصلاح انضموا تدريجيا إلى المدارس الإيطالية العربية ومنهم عمي خيري.

108

## مصطفى والمدرسة النظامية:

في سنة 1923 وجدت نفسي في مدرسة (أمير بيومنتي ) بشارع بن ناجي، المدرسة كانت تعمل منذ سنة أو سنتين كان قبلي تلاميذ كبار ويظهر أن المدرسة لم تتقيد في سنواتها الأولى بسن السادسة كحد أدنى للانتساب.

أذكر أنه كان من زملائي في المدرسة عبد السلام الطويبي، علي أبو هدرة، أحمد عبد العال، الطاهر القراملي، مراد القراملي، محمود عبد المجيد المنتصر، المهدي ناصوف، يوسف الفيلالي،علي خريبيش،عبدالله ياسين، وسعيد بو عون، وسليمان عريبي، وأكرم بن موسى، ومن الذين سبقوني في الدراسة الصادق البشتي، أما المعلمون فكانوا عمي خيري السراج، الشيخ علي سيالة، الشيخ محمود الويفاتي، الشيخ توفيق حمودة، الشيخ علي المجراب، الشيخ حسين الغنيمي، والمعلمون الإيطاليون أذكر منهم انقراسيا، وجوسبي بروللو، المدير كان اندليكاتو بالداساري يتكلم العربية حيث عاش في تونس وكان حريصا جداً على النظام، وكانت هوايته تربية عصافير الزينة وربما لم تكن مجرد هواية.



مدرسة أمير بيموني 1928



التلميذ مصطفى السراج 1928



حكومة القطر الطرابلسي

١٩٢٤ـ١٩٢٥

صحيفة

صحيفة التليمذ

مصطفى السراج

سنة ثالثة أبتدائي

البواب عمي رمضان الشماخي من يفرن وهو حازم جدا نشط،سريع الحركة رغم سنه يحافظ على النظام أيضا وحريص على دقة مواعيد الدراسة مستعملا صفارته التي يمتثل لتعليماتها الصادرة عن رنينها المتميز الجميع معلمون وتلاميذ، كان يتصرف وكأنه نائب مدير يساعده في عمله بواب آخر اسمه رمضان الأسود.

التعلم كان صباحا ومساء، كان التعليم الإيطالي هو الأساس، حصصه أكثر بحجة أن اللغة العربية لغة الأم والبيت، ولا تحتاج إلى مجهود كبير. التعلم العربي كان مقتصراً على حفظ قصار السور من القرآن الكريم، وسور من جزء عم وجزء تبارك وأحكام العبادات البسيطة، وسيرة النبي صلى الله عليه وسلم مبسطة، والقراءة والكتابة عربيا مع حسن الخط. أما التاريخ والجغرافيا، ومبادئ العلوم، والحساب، مع اللغة الإيطالية قراءة وكتابة فكانت باللغة الإيطالية.

المفتش العام على التعليم العربي هو الشيخ محمد كامل الهمالي من قبيلة عرادة بسوق الجمعة، والمفتش الإيطالي العام هو الكولير كونتيني، وقد لازما الوظيفة سنوات طويلة سمعت عنهما وأنا تلميذ وعرفتهما شخصياً وأنا معلم.

109 **تقبيل يد الباشا:** بعدي بسنة انضم أخي علي أيضا إلى المدرسة، وكان يرافقنا ذهاباً و إيابا صباحاً ومساءً عمي خيري، وكنا نسلك تارة شارع الزاوية ومنها شارع ميزران فشارع بن ناجي وتارة نسلك شارع السيدي. في الزاوية بناء مطل على شارع السيدي وشارع بن ناجي صيدلية، المسؤل عنها صيدلي يوناني اسمه بولدفكي يتكلم العربية. وكان يجلس في بعض الأحيان أمام الصيدلية حسونة باشا القراماللي،الذي يسكن قريباً منها في شارع يحمل اسمه. كان طويل القامة، أسمر البشرة، مهاباً، لحيته سوداء يرتدي البدلة الأوربية ذات السترة الطويلة نسبياً مع طربوش فاخر وعصا سوداء اللون مقبضها من فضة تعرف بالخيزرانة. الباشا من عائلة القراماللي التي حكمت ليبيا سنوات طويلة.

عاصر الباشا العهد التركي وكان في بداية الحكم الإيطالي رئيساً فخرياً لبلدية طرابلس، كان الوحيد في طرابلس الذي يحمل لقب الباشا (باشا لقب شرفي تركي

رفيع)، وكان موضع احترام الكثيرين من سكان المدينة لماضيه وموضع انتقاد آخرين لخضوعه المبكر للطليان.

نَمر مع عمي أمامه وهو جالس فيحيّيه عمي بصباح الخير أو مساء الخير ياباشا، ونقبّل أنا وآخي علي يده وفي أحد أصابعه خاتم نفيس فيداعبنا قائلاً سراج باشي، سراج باشي، ويسأل عمي خيري عن أخبار أخيه عمي نوري ويطلب منه تبليغ سلامه إليه. كنا نتخيل فيه صورة لأجدادنا الذين لم نعرفهم،كان جزءاً من ماض كان يأمر، وهو الآن جزء من حاضر لا يأمر ولا يطاع، فهو تحفة.

110 **مصطفى والنشيد المدرسي:** كنا نترنم بنشيد إيطالي وآخر عربي وكل منهما مرآة لحالة الفريق الذي ينتمي إليه. النشيد الإيطالي الذي عرّب فيما بعد كان مطلعه: يا شبابا يا شبابا يا ربيعا مستطاباً.

لحنه شبه عسكري حماسي يدعو إلى الإقدام والتفاؤل في شباب متجدد جسدياً ومعنوياً مع الربيع، كان النشيد الرسمي للحركة الفاشية.أما النشيد العربي فهو:

| | |
|---|---|
| **وظائف الإنسان في دنياه** | **أن يعبد الله وأن يخشاه** |
| **وأن يكون راضياً بما قضى** | **ولم يكن عن حكمه معترضا** |
| **همك واهتمامك** | **ويحك لايفيد** |
| **القضاء محتم** | **فالزم السكون** |

النشيد إطار لفلسفة دينية معينة، إلا أنه دعوة للاستسلام والاستكانة لقوة كبرى هو الرب وكان المنظرون الإيطاليون يتوقعون أنه من تعود على الخضوع لرب العالمين يسهل عليه الخضوع لصاحب الجلالة ملك الإيطاليين، ملك إيطاليا المعظم.ولكن خاب ظنهم.

كانت مدة الدراسة 5 سنوات، وكان المدرس برواللو الإيطالي يوزع علينا كتباً صغيرة، مصورة وملونة، بها قصص قصيرة تتناسب مع مستوانا التعليمي كنا نأخذها معنا للبيت لمطالعتها، وهي معارة لنا لمدة محدودة من مكتبة صغيرة بالمدرسة، وكنا مطالبين بأن نُطلع مُدرسنا على ملخص القصة شفوياً، نوع من

التعويد على التعامل مع الكتب والمكتبات والحديث باللغة الإيطالية مع المدرس. الواجبات المنزلية كانت وصفاً تحريرياً لأي شئ أو حدث نريد الكتابة عنه.

111 **الـزردة:** الزردة كلمة عربية تعني الأكلة، ومدرسياً هي رحلة تقوم بها المدرسة أو بعض فصولها إلى مكان خارج المدينة، كحديقة أو غابة في فصل الربيع، الرحلة تدوم طول اليوم، وتارة تقوم إدارة المدرسة بإعداد الأكل جماعيا، وتارة يترك موضوع الأكل لتدبير مجموعات التلاميذ الذين يتفننون في توزيع الأدوار بينهم لإنجاح الرحلة. وكانت مناسبة ظريفة سعيدة ينتظرها الطلبة ويستعدون لها.

ومن المظاهر الأخرى في فترة الدراسة كانت الصور الجماعية إذ تؤخذ صورة في أثناء (الزردة) أو في آخر السنة الدراسية لفصل أو أكثر مع الأساتذة ومدير المدرسة وتكون صورة تذكارية لطيفة، وتوزع الصور أو تباع وتكون ذكرى جميلة لفترة من فترات العمر.

112 **كتاب الفقيه عبد الله:** في بداية الصيف تبدأ العطلة المدرسية وتدوم ثلاثة أشهر، جزء منها أقضيه أنا وإخوتي ووالدتي في زيارة لجدي وسانيته كما ورد في فقرة سابقة. في بقية المدة ننتسب إلى كتّاب الفقيه عبد الله في الجامع الجديد أو جامع المجيدية المعروف بالمحلة.

الفقيه عبد الله أصله من الزاوية قبيلة الكريمات يقيم بمحلة شارع ميزران. الفقيه ذو شخصية ظريفة مرحة ومثل فقهاء الكتاتيب الأخرى يعلم القرآن بطريقة الكتابة على ألواح خشبية معدّة لذلك وترديد الطلبة لما هو مكتوب على اللوح بصوت عال، عدد الطلبة في الصيف يصل إلى 30 طالباً تقريباً، ولا أعرف عددهم في بقية أشهر السنة. الطلبة محشورون في حجرة ليست كبيرة يجلسون على حصائر تعبت من طول الاستعمال. بالحجرة ركابة (دكة) يجلس عليها الفقيه وبجنبه بعض الألواح للتصحيح، وبيده جِريدة نخل طويلة بدون سعف تصل إلى جميع الطلبة حتى البعيدين عن الفقيه.

الطلبة وأنا منهم نقرأ ما هو مسطر على ألواحنا بصوت عال، أصواتنا المرتفعة تكون ضجيجاً شديداً، وهذا لا يمنع تعلمنا ولا يمنع الفقيه عبد الله من متابعتنا. وعند إملاء بعض السور على بعض الأطفال، كثيراً ما تسمع طفلاً يصيح: نعم يا سيدي شنو مبداي، - فيرد عليه الفقيه بصوت عالٍ أيضا وسط هذا الضجيج: قل أعوذ بربّ النَاس. ويسأل آخر: نعم يا سيدي شنو مبداي - فيرد عليه بسورة أخرى مثلاً إنّا أعطيناك الكوثر. وهكذا تستمر الدراسة حتى الظهر.

في المساء قبل الانصراف يمحو بعض الطلبة الذين حفظوا ما في ألواحهم ما هو مكتوب على اللوح في (المحاية) بطبقة رفيعة من الطين الناعم ويسند اللوح على الجدار في ركن من الكتّاب فيجف طوال الليل، ويكون جاهزاً للكتابة عليه صباحاً بنفس الطريقة: نعم سيدي شنوا مبداي......

الأقلام من قصب، مبري من الفقيه نفسه. كبار الأدباء والمثقفون في البلاد العربية في القرن الماضي وما قبله تعلموا القرآن بنفس الطريقة: لوح وضجيج. وفي صباح كل خميس يستلم الفقيه أجرته الأسبوعية وتعرف بالخميسيّة، الأجرة غير محددة سلفا، كل طالب يأتي بما تيسر له وكثير منهم يأتون ببعض البيض إنتاج الدجاجات التي تربيها والدتهم في قفص من الجريد داخل سقيفة البيت، أو في وسط الحوش، ومساء الخميس عطلة وكذلك الجمعة.

عندما يختم أحد الطلبة جزءًا من القرآن (ويختم يعني يحفظ)، يزين الطالب لوحه برسم ملون يرمز للكعبة المشرفة، ويحتفل الطلبة بأكل بعض الحلوى التي يقدمها والد الطالب هدية، والفقيه مبتهج باستلام مكافأة مالية، بالإضافة إلى قيمتها المادية تحمل معنى التقدير والشكر.

113

**هوايات الفقيه عبد الله:** للفقيه عبد الله هوايات أو أعمال أخرى يؤديها أثناء وجوده بجامع المجيدية طوال النهار. فهو يسبب، ومعنى ذلك أنه يعالج بالرّقيه، أي بالقرآن المكتوب على الورق أو بشكل أحجبة أو على صحون القيشاني، طريقة من طرق العلاج الشعبي النفسي، يلجأ إليه حتى بعض المتعلمين،

وكانت معروفة ومنتشرة في العشرينيات وما بعدها، اختفت الآن وتلاشت، وكانت بعض النسوة يترددن على الفقيه في الجامع يطلبنْ الكتابة لهنّ في أمور أخرى تختلف عن العلاج كالتخلص من السحر أو بنية الإنجاب أو الاحتفاظ بحب أزواجهنّ عندما يشعرن أن أزواجهنّ ربما يتزوجون امرأة ثانية أو ثالثة وكان تعدد الزوجات شائعاً في بعض الأوساط.

114 **الفقيه عبد الله طبيب أسنان:** يحدث أن يصاب شخص بألم في أسنانه بسبب التسوس أو غيره فبدلاً من أن يسرع إلى طبيب الأسنان كما يحدث الآن يسرع المسكين إلي الفقيه عبد الله الذي اشتهر بأنه يشفي بإذن الله من ألم الأسنان، كانت له تعاويذ يتلوها سراً أثناء دق المسمار في أحد الجدران ويسمى رصد السن بعدها يستريح المريض، وتزداد شُهرة الفقيه عبد الله انتشاراً. العلاج بالرقية وعلاج الأسنان يكون بمقابل نقدي أو عيني، والبيض المنتج في البيوت على قلته يحل بعض المشاكل المالية لبعض السيدات.

115 **الفقيه عبد الله يصنع المراوح:** للفقيه عبد الله حرفة أخرى هي صناعة المراوح المستعملة في أشهر الصيف وفي أواخر الربيع وأوائل الخريف، الطقس في الصيف حار ويشعر به المرء أكثر داخل الحجرات حيث التهوية ضعيفة والرطوبة زائدة، والمراوح الكهربية غير معروفة وتكيف الهواء لم يخترع، وهكذا فإن المراوح اليدوية تكتسب أهمية خاصة. مراوح الفقيه عبد الله مكونة من سعف النخيل الجيد المصبوغ من الفقيه عبد الله نفسه ومن مقبض خشبي أنيق.

أصابع الفقيه عبد الله وهو يملي آيات القرآن تعمل وحدها دون توقف في ضفر المراوح التي تمتاز عن غيرها الموجودة في السوق بجمالها وإتقانها فهي لاستعمال النخبة وبعض العرائس والجميلات من سيدات المجتمع.

الحصول عليها يتم بالحجز وهناك قائمة انتظار، سعر هذه المراوح مرتفع فان الله لا يضيع أجر من أحسن عملا. وهكذا فإن الشيخ عبد الله موارده مكونة من الخميسية نقداً أو بيضاً من حصيلة كتابة الأحجبة وغيرها ومن طب الأسنان ومن

المراوح مع القناعة والرضى تكفي لمواجهة حاجيات عائلته العديدة الأفراد والفقيه عبد الله رغم ذلك أو بفضل كل ذلك شبه سعيد يتقاذف النكتة وكأنها كرة مع غيره في خفة ورشاقة.

116 **التعليم ما بعد الابتدائي:** بعد الانتهاء من المرحلة الابتدائية وجدت نفسي في مأزق، تعليمي خليط من الإيطالي والعربي، الإيطالي أقل من المطلوب للدخول للمدارس الثانوية الإيطالية الصرفة،واستمرار تعليمي العربي مستحيل فلا مدارس ثانوية للعرب. في هذه الأثناء فتحت مدرسة اسمها (التوجيه المهني) ملحقة هي أيضا بمدرسة الفنون والصنائع، تدرس باللغة الإيطالية وحدها ولكنها تقبل حملة شهادة المدارس الإيطالية العربية.

زملائي في الفصل الأول كانوا إيطاليين ويهوداً وعرباً، والعرب هما راسم ابن ضوء، ومراد بك درنة.

التعليم العربي اختفى، لا دين ولا لغة عربية ولا نشيد: وظائف الإنسان في دنياه. مدير المدرسة إيطالي وهو سبي كوارتا _ والمدرب الفني كاسالي، و الأساتذة إيطاليون بعضهم رجال وبعضهم سيدات، و البواب نقل من المدرسة المجاورة الإيطالية العربية.

التعليم نظري وعملي، النظري يشمل رياضيات، وتاريخاً، وجغرافيا، وآداب اللغة الإيطالية، وأضيفت إليها مادة جديدة اسمها التكنولوجيا، هي المدخل النظري لعالم الصناعة. كنت ناجحاً في هذه المادة، والمدير وهو مدرس أيضا لهذه المادة أشاد بي أمام طلبة الفصل؛ لأن بحثي الذي قدمته تحريرياً كبقية زملائي، كان بمستوى جيد جداً لغة وعلماً. موضوع البحث هو استعراض مختلف المراحل التي يمر بها معدن الحديد الخام حتى مرحلة الفولاذ بأنواعه ومختلف الأفران المستعملة، والتركيب الكيماوي لكل مادة من مشتقات الحديد.

بقدر ما كنت ناجحاً في التكنولوجيا النظرية كنت فاشلاً في التطبيق، كنا نتدرب في ورش النجارة والحدادة والبرادة والخراطة، البرادة لم أكن أتقنها، كان

المدرب الفني كاسالي يسلمنا قطعة من الحديد سمك 5 مم وطول 150 مم وعرض 50 مم ومبرداً، ويطلب منا في خلال ساعتين تسوية سطحها تماماً، لم أتمكن ولو مرة من القيام بذلك، وكانت قطعة الحديد تذوب تدريجياً تحت مبردي وأنا قلق مضطرب وسطحها مازال متموجاً وكاسالي يقيس ويقيس ويوبخ.

## 117 أزمة الأستاذ بوزنقا:

خرجت وزملائي العرب كغيرنا من مرحلة الطفولة، ولم ندخل مرحلة الشباب، بين المرحلتين مرحلة تحضيرية يسمونها المراهقة. مرحلة انتقالية نحو الشباب والرجولة، الجسم في حالة تطور والنفس في حالة اضطراب، تطلعاتها فوق المستوى السائد. كنا نشعر بشيء من الإحباط حصيلة ما نسمع وما نرى وما نحس، إننا دون مستوى زملائنا الإيطاليين وذلك غبن.

مدرس مادة التاريخ كهل ناضج من جزيرة صقلية لقبه بوزنقا، كلمة تكاد تصرخ أن جدها عربي من أصل تونسي، وكانت حصة ذات يوم ( تاريخ العرب في صقلية ) ويظهر أن الأستاذ بوزنقا تناول الموضوع بطريقة مشينة للعرب. فانفجر الشعور الدفين بالقهر في نفسي وفي نفس زميلي راسم بن ضوء، وقمنا نعترض على ما قاله الأستاذ دون تهيب أو مجاملة. فوجئ الأستاذ بوزنقا والطلبة غير العرب بهذا الأسلوب الجديد غير المألوف، وبعد فترة ارتباك ظاهر تصرف الأستاذ بحكمة وحاول تهدئتنا وإرضاءنا، خصوصاً بعد أن أعلمناه أن لقبه عربي وجده عربي. موقف مشرف نتاج مرحلة المراهقة التي توصف بالطيش وعدم تقدير المسؤولية. فمرحباً بالمراهقة.

## 118 مصطفى والتعليم الجامعي:

بعد إتمام الدراسة الثانوية أتيحت لي فرصة نادرة للتعليم الجامعي، لأول مرة قررت جامعة كتانيا الإيطالية تخصيص منحتين في كلية الزراعة بها لطلبة عرب ليبيين: واحد من برقة وواحد من طرابلس، والدي كان معلماً وله علاقاته بإدارة التعليم فعرضت عليه إحدى المنحتين لعل ابنه مصطفى يستفيد منها.

ضاعت مني الفرصة لأن قيمة المنحة لا تكفي وحدها لمواجهة نفقات الإقامة والدراسة ولأن ظروف والدي المالية لا تسمح بتوفير المبلغ الإضافي. واستفاد من المنحة الصديق محمد بي درنة وتخرج مهندساً زراعياً وربما كان أول ليبي يحمل هذه الشهادة.

119 **مصطفى والتدخين:** نحن في أواخر العشرينيات، أعمامي يدخنون ككثرة الناس. والدي لا يدخن، وحدث ونحن أطفال أن قلّدنا أعمامنا بأن نلف ورقة ونستعملها كسيجارة، لاحظ والدي في إحدى المرات ذلك، كنا نسكن كما قلت في حجرة هي الدار الغربية وطولها 8 أمتار وعرضها 3 أمتار بها ضمن الأثاث الضروري دولاب صغير به بعض الكتب وأشياء أخرى لوالدي يقفله بالمفتاح. وفي يوم جمعة أراد والدي رحمه الله أن يعطينا درساً عملياً في التدخين وجمعنا بالقرب من الدولاب الصغير وفتحه وأخرج علبة معدنية من التي يستعملها المدخنون. كانت علبة أنيقة بها زخارف وأخرج منها بعض السجائر وبعض التبغ المفروم وورق لفه المعروف بالبافرا مع ورقة صغيرة كان مكتوباً عليها: (اليوم الخميس 16/11/ 1916 رزقت ابني البكر مصطفى واليوم أقلعت عن التدخين). وأضاف قائلاً كنت أدخن كإخوتي (أعمامكم وغيرهم) وأدركت مضار التدخين الكثيرة مبكراً وقررت العدول عن التدخين منذ ولادة مصطفى أخيكم.

وكان يأخذ منديلاً أبيض من القطن، ويحرق سيجارة وينفث الدخان في المنديل المشدود فتظهر بقعة كبيرة على المنديل الأبيض داكنة اللون.

ويضيف: إذا كان تأثير الدخان على المنديل كما رأيتم وهو من القطن، فتأثيره أشد على رئة الإنسان الحساسة جداً، والتي هي تشبه رئة خروف الأضحية التي شاهدناها مع والدي عندما نزعها من جسم خروف العيد الكبيرة الماضي.

كنا نسمع مبهورين، وكانت ذاكرتنا تسجل وعقلنا يخزن المعلومة تلو الأخرى. وكبرت وكبر إخوتي ووقانا الله شر التدخين وويلاته، في تلك الفترة الكل

يدخن والبعض يذكر مضار التدخين أما الآن فالكل يذكر مضار التدخين والـبعض يدخن.

فاتتي أن اسأل والدي عن سبب اقتران الكف عن التدخين بتـاريخ ولادتـي، وربما كان ذلك أنه لم يكن قادراً على مواجهة مشكلتين كبيرتين في آن واحد.

كان والداً مثالياً من جميع الوجوه توفي في سن مبكرة قبل أن يـستمتع بنـا ونستمتع ونستفيد من كل خبراته. رحمه الله.

120 **مصطفى والصحف:** في آخر العشرينيات، التلفزيون لـم يختـرع وجهاز الراديو كان عند بعض الإيطاليين، وصحف البلاد العربية المجاورة ممنوع دخولها خوفاً علينا نحن العرب من عدوى الشعور القومي العربي . تـصدر فـي طرابلس صحيفتان عربيتان أسبوعيتان ( العدل ) ويصدرها الأستاذ عبد الله بانون، و(الرقيب العتيد) وهي أسبوعية أيضا ويصدرها الشيخ محمود بن موسى. وكلتاهما تطبع بمطبعة (تشوبه) اليهودي في المدينة القديمة وكانتـا مـدعومتين مـن إدارة المطبوعات الإيطالية، وعليك أن تتخيل نظرة المثقفين العرب لهما. وكانت تـصدر صحيفة إيطالية يومية اسمها (مستقبل طرابلس ).

كان والدي يوم الجمعة: العطلة يجتمع بأعمامي صباحاً، وسط الحوش حـول النخلة، في دردشة متنوعة المواضيع، وكان يرغب في متابعـة الأحـداث بقـدر الإمكان، فيرسلني إلى شارع ميزران حيث يبيع إيطالي الـصحف وأشـتري منـه الجريدة الإيطالية اليومية ومجلتين أسبوعيتين إحداهما اسمها 420 وهو اسم لنـوع من المدافع الإيطالية له علاقة بحادثة تاريخية مـا، مـصورة كلهـا كاريكـاتور، سياسية تهاجم بعنف أعداء الفاشيزم، أما الثانية فهي مصورة ملونة عامة كلتاهمـا تصدر في مدينة ميلانو الإيطالية. أعود إلى المنزل ووالدي فـي انتظـاري لكـي أترجم له شفوياً أهم الأخبار الداخلية والخارجية.

121 **الأستاذ صقال:** فاتتي أن أقول إن المقال الـسياسي الرئيـسي فـي صحيفة الرقيب العتيد موقع باسم صقال، وهو موظف بإدارة المطبوعات الإيطالية

من ضمن مهامه كتابة هذا المقال. موضوع المقال الأسبوعي يتكـــرر باســتمرار، بأسلوب مختلف، وهو تمجيد للسياسة الفاشية، في المستعمرات ونحو العالم العربي، موضوع ممل وممقوت من طرف القراء العرب الذين يقبلون على الجريدة لمعرفة بعض الأخبار المحلية.

الأستاذ جورج صقّال يقيم في منزل أنيق حوله حديقة جميلة في زنقة ســيدي خليفة بشارع الزاوية قرب سانية عائلة القلالي، الأستاذ صقال كهل مهذب له زوجة وبنتان شابتان وعربة بعجلتين يجرها حصان ( كاليس ) يقودها بنفسه عند الانتقال من وإلى المدينة مقر عمله. هل هو سعيد بكتابة المقال المذكور؟ هل هو مسكين؟ لا أدري ولكن الذي أعرفه أنّه أُوتِيَ به من لبنان من أجل ذلك.

122

**المرض والعلاج في العشرينيات وما بعدها:** كنـــا نعـــيش عيشة لا ترف فيها، نعرف مبادئ حفظ الصحة ولا نتقيد بها كثيـــراً. عمليـــا كنـــا قريبين من تراب الأرض نلعب عليه وبه وبكل ما فيه من ملوثات وميكروب، كنـــا نتحرك كثيراً تحت أشعة الشمس وفي الهواء الطلق، كنا نمرض وبعــضنا يطبـــب بأعشاب صيدلية المنزل( الجدولة ) من طرف الجدة أو الخالة أو العمة أو الجـــارة، بعضنا يطبب عند الفقيه عبد الله. وبعضنا عند الممرض سعيد اليمني الــذي كـــان جندياً متطوعاً في الجيش الإيطالي ثم سُرح وطاب له المقام في محلة شارع الزاوية وتزوج منها وصار جاراً وصديقاً ومعالجاً لنا.

الدواء الحديث للصداع الذي يوصي به عمي اليمني هو حبة (البرامبـــدون) انضم فيما بعد إليه الممرض علي الخمسي.

في الحالات الشديدة نلجأ إلى الدكتور الإيطالي مازولاني في آخـــر شـــارع ميزران قريب من سوق الخبزة أو ميدان إيطاليا أو ساحة الشهداء.

كان طبيباً باطنياً مشهوراً تعامل معه والدي كطبيب للعائلة، وكان الأطباء في تلك الفترة يزورون المرضى في بيوتهم، وأخيرا تعاملنـــا مـــع طبيـــب الأطفـــال اناستازي اشتهر بالحبشي للونه الذي ربما ورثه عن أمه.

في المدارس كنا نعالج من مرض العيون الرمد ( التراكوما ) والدكتور المعالج كان ليبياً اسمه عارف من جنزور تعلم في مدارس تركية، بدين يعرف والدي وأعمامي ويجاملني بقوله سراج باشا، سراج باشا مثلما كان يفعل الباشا حسونة. كان الدكتور يقلب الجفن العلوي للعين ويدهكه بمادة لا أعرفها تسبب لنا ألما شديداً يزول بعد إلقاء قطرات من دواء آخر عليها. كان يوزع علينا في المدارس زيت كبد الحوت كمقوٍّ للجسم وكنا نهرب منه، إنه صعب المذاق كريه وكان والدي يشتري لنا دواء آخر مقوياً اسمه (بروتون)، حلو نرحب به ونقبل على استعماله.

سبق وأن قلت بأن استعمالنا للبيض كغذاء محدود وكذلك اللبن ومشتقاته وكذلك اللحم.

123 **التوليد:** كان التوليد يتم في المنازل، تتولاه القابلات اللاتي تدربن على هذه المهمة عملياً واكتسبن خبرة يُطْمَأنّ لها. القابلة التي استلمتني من أمي و أعادتني إليها مبشّرة إياها بأنه ولد يا للا (للا لقب مستعمل كثيراً في المغرب تبجيلاً للنساء) اسمها حليمة وقد نسيت لقبها وهي من محلة شارع البي المجاورة لمحلتنا بجنب جامع الشيخة راضية، وكانت والدتي ترسلني مع أخي علي إليها لطلبها عند الحاجة ربما يكون ذلك عند قرب ولادة أحد إخوتي الآخرين. كنا نسلك كسباً للوقت طريقاً مختصراً غير الطريق العام نمر بساحة تعرف بجنان الزيتون ولا أثر لشجر الزيتون بها. وبعده نجد أنفسنا أمام منزل القابلة حليمة، التي تدرك أهمية الدعوة وتتستر بفراشيتها ونعود بها إلى أمنا وهي في انتظارها.

كنا ثمانية، مات رضيع منا اسمه الأمين، ولقد ولدنا أقوياء، وعشنا أقوياء والحمد لله، ومات من مات منا عند انتهاء الأجل، والبقاء والدوام لله وحده.

124 **الفرحة بالمولود الجديد:** قدوم مولود جديد من المناسبات التي تفرح لها العائلات والأهل مهما كانوا فقراء، وربما كان الفقراء يفرحون بهذه المناسبة أكثر، فالمولود الجديد زيادة في عدد أفراد الأسرة، وزيادة الأفراد يعتبره

البعض قوة، والفقراء ضعفاء، وهم أكثر احتياجاً للقوة. الكل يفرح بالمولود الجديد، الأمّ تشعر أنها أدت دورها الرئيسي في الحياة وهو الإنجاب. الأب مسرور لأنه يرى في المولود الجديد عوناً له في آخر العمر ولا يفكر في أعباء وتكاليف تربية المولود الجديد فإنه يؤمن بأن الإنسان يولد ورزقه معه. الإخوة يفرحون بالمولود الجديد الذين يلعبون به وهو صغير ويلعبون معه وهو صبي. القابلة فرحة تزغرد لأنها أدت واجبها بنجاح وستتقاضى أتعابها، وهات يانقيع الحلبة للنفساء وهات يا عصيدة بالرب للنفساء ولأفراد العائلة والجيران، والجد يسجل في ركن من صفحة المصحف الذي بيده عند البشارة تاريخ الولادة حامداً وشاكراً لله، ويستعد لتلقين المولود الآذان في أذنه يوم العقيقة في نهاية الأسبوع الأول من عمر المولود، ويتخير الاسم المناسب الذي سيلازمه طول العمر وبعده. والأب يستعد لإقامة وليمة تتناسب مع إمكانياته المادية احتفالاً بالمولود الجديد، والمولود غافل عن كل هذا، تارة يصرخ، وتارة يضحك، وكذلك يفعل غافلاً أو غير غافل طوال عمره.

125 **الختان:** الختان ليس من قواعد الإسلام، ولكن المسلم يُختن لأن الختان سُنة، سنّها سيدنا إبراهيم عليه السلام وعمل بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. ختنت مع أخي علي وعمري يزيد على 5 سنوات، لا أعرف سبب التأخير، بقية إخوتي ختنوا صغاراً في نهاية الأسبوع الأول غالباً كما هي العادة.

الآن الختان يتم في المستوصفات وفى عيادات الأطباء مع مراعاة كل القواعد الصحية حتى التخدير، في العشرينيات كان يقوم بالختان حلاق المحلة الذي من مهامه الحجامة (بالمغايث) أو بدونها أو باستعمال دود العلق. عمله الرئيسي الحلاقة بالموسى يحلق جميع رأس الكثيرين ويبقى للبعض خصلة من شعر طويل في قمة الرأس تبركاً وتعرف خصلة الشعر بالشوشة.

ختنني الأسطى الحاج علي بن محمود، حلاق في شارع ميزران، معروف، له شهرة في إتقان الختان، له مقص مناسب، ويستعمل بعض السوائل للتطهير والتعقيم. بالمناسبة الختان يعرف شعبياً بالطهارة، ومن يقوم بعملية الطهارة فهو الطهّار.

الطهار الحاج علي بن محمود رغم شهرته لم يتحكم في المقص كما يجب وربما لأني كنت كبيراً واعياً خائفاً تحركت حركة خفيفة أثناء العملية رغم وثاقي من طرف أحد أعوان الطهار،أدت هذه الحركة أنّ المقص لحس العضو لحسة خفيفة مما أخر التئام الجرح و الشفاء دون أن يخلف آثارا ضارة والحمد لله.

فالعملية تمت بكل مراسمها من صراخي الشديد إلى زغاريد النسوة إلى تصفيق الحاضرين، وتقديم التهاني لوالدي: مبروك يا شيخ فوزي مبروك، وتقديم بعض الهدايا لي. فترة علاج الجرح متعبة، الحركة مؤلمة وكذلك التبول، وكذلك احتكاك القفطان بالعضو المجروح، والأكثر إيلاما تغير الشاش الذي يلف العضو.

126 **الحلاقة والحاج علي البوزيدي:** يولد الناس في محلتنا في العشرينيات كغيرهم من خلق الله لهم شعر على رأسهم، الشعر ناعم قصير جداً يكاد لا يرى لونه كالماء لا لون له. مع الأيام ينمو الطفل وينمو الشعر ويأخذ أحد اللونين أسود أو أشقر، ثم تظهر تفرعات اللونين، بعدها يظهر نوع الشعر ناعماً أو به تجاعيد (مكركد). وفي الغالب للون بشرة الأب أو الأمّ تأثير على لون أو نوع الشعر.

في سن معينة ربما الخامسة عندما يبدأ الطفل أولى خطواته نحو الكتاب يكون الشعر قد نما بما فيه الكفاية فيقرر الأب حلاقته بالموسى عند أحد حلاقي المحلة، والعائلة لا تحتفل بذلك وتكتفي الأمّ بمسح رأس طفلها بيديها وبقليل من زيت الزيتون وتضمه إلى صدرها مقبلة له في أي مكان، بادياً عليها التأثر، الطفل كبر وصار رجلاً، ما شاء الله. خمسة وخميسة، البنات لا تحلق شعورهن فإنه ينظف جيداً ويمشط كثيراً حتى يطول ويطول فإن الأمّ تفاخر بنات المحلة وما جاورها بطول بنتها وطول شعر رأس بنتها.

في ركن من أركان المحلة، ولا ضرورة في أن يكون على الطريق الرئيسي لارتفاع إيجار الدكاكين بها، دكان أشهر حلاق في المحلة هو عمي علي البوزيدي، مسن، مظهره يدل على أنه بدوي. غطاء رأسه، أكمام قميصه، بلغته، شنبه الأشيب

المتدلي إلى الأسفل، عيناه وبريقهما الذي يصارع تأثير الأيام. هذا هو الحاج علي أراه منكباً على رأس أحد الزبائن يحلق له بالموسى الذي يسنه على مسن صلب عليه أثر الزيت أو على شريط من جلد مزيت أيضا.

الزبون جالس على كرسي ثابت أو مغروس في أرضية الدكان، أمام الزبون مثبتة على الجدار مرايا أو بعض مرآة، وعلى رف المرأة بعض القنينات المكورة الفارغة ( المغايت) بجنبها قوارير بها ماء ودود اسمه العلق بجنبها بعض المقاص منها مقص مخصص للختان.تلفها كلها طبقة من الغبار وحتى تراب الطريق غير المعبد الممتد أمام دكان عمي علي. الأدوات المذكورة لم تكن محمية من أي شئ يقع عليها ولم يفكر أحد في ذلك.

مهام الحلاق في المحلة كثيرة فهو يحلق الرؤوس دون أن يجرحها مع إبقاء خصلة من الشعر تبقى طويلة في قمة الرأس لمن يرغب تبركاً وهذه الخصلة تسمى شوشة، فهو يباشر الحجامة المجردة أو (بالمغائث) أو بالعلق.

## 127 الحاج علي البوزيدي والحجامة:

الرجل الذي يشعر بصداع في الرأس، يقرر بأنه مصاب بالدم، ويذهب إلى عمي علي ليمتص منه كمية من الدم الفاسد يخفف من ألم الصداع. نوع من أنواع التطبيب الشعبي المنتشر في ذلك العهد في البادية المتخلفة والمدينة المتحضرة. عملية الختان ضرورية لكل مسلم ذكر والحاج علي البوزيدي خير من يقوم بها في المحلة.

من مهامه أيضا أنه يحكي للزبون وغيره عن كل ما يعرف وأصابع يده ممسكة بالموسى يمرره باطمئنان على فروة الرأس في كل الاتجاهات كان يحكي على ترهونة وعنب ترهونة، لقد هبت عاصفة ترابية ساخنة على البلاد وربنا يستر ويحفظ عنب ترهونة من آثار العاصفة المحرقة.

الحاج علي البوزيدي من ترهونة ويضيف إلى كلمة البوزيدي كلمة ترهوني مفاخراً،، ترهونة هي بلد الرجال الأشداء الذين دوخوا الطليان وهى بلد العنب اللذيذ.

عمي علي يحلق ويختن ويحجم ويستعمل (المغائث) والعلق ويحكي ويدردش باستمرار في كل الأمور ويفاخر بأنه ترهوني ويساعد أقاربه وأصدقاءه التراهنة في بيع عنبهم الحلو اللذيذ.

128 **الحاج علي البوزيدي والعنب:** كانت ترهونة مشهورة بإنتاج العنب البعلي الذي يسقى بالمطر فقط ونسبة السكر فيه مركزة عالية، مرغوب في صناعة التقطير التي يقوم بها اليهود لإنتاج أنواع من الكحوليات منها ما يعرف بالبوخة شبيه بالعرق المعروف في المشرق.

الديانة اليهودية وكذلك المسيحية تسمح لمن يدين بهما تناول الخمور بأنواعها اليهود والنصارى يستهلكونها وينتجونها ويبيعونها لكل من يريد شربها، أغلب السكان عرب مسلمون، ونسبة منهم منحرفون مع الأسف الشديد، تشرب اللاقبي (خمر النخيل) والخمر (عصير العنب المتخمر) والبوخة التي تقطر من العنب والتمر، يشربونها في خمارات اليهود والنصارى ولها أسماء عدة منها البار، الخمارة، والحانة والطبرنه، هذه المحلات ترخص وتدفع الضرائب. الخمر وما في حكمها محرم شرعاً على المسلمين ويطبق حد شرب الخمر أثناء شهر الصوم رمضان فقط، وأفراد كل فريق بما هم فيه من ضلال فرحون، الحساب مؤجل ليوم الحساب.

قافلة ترهونة وصلت الوسعاية القريبة من زنقتنا كنا نخرج لمشاهدتها، حوالي 50 بعيراً محملا بالعنب في مساحة كبيرة أمام منزل الحاج علي البوزيدي. يحاول الرجال إناخة جمالهم، منظر غير مألوف ننبهر به. الحاج علي البوزيدي يقفل دكان الحلاقة فهو مشغول جداً مع أعوانه في استضافة رجال القافلة وجمالها وتوزيع حمولات الجمال على القطّارات التي تم الاتفاق معها حول الكمية والثمن. الحاج علي خبير في كل شئ حتى في (بزنس) العنب الترهوني اللذيذ.

129 **والدي مرة أخرى:** ذكرت نبذة مختصرة عن والدي في الفقرة 2 هل يكفى ؟ رأى بعض الأبناء والأحفاد أنها لا تكفي ويريدون المزيد وتلبية لرغبتهم

أقول: والدي بالنسبة لنا ونحن أطفال كان مساويا للنظام يريد منا الانتظام فى كل شئ في المأكل في الملبس في اللعب، في التعامل مع بعضنا والجيران، وفي الدراسة وكان مربيا بارعا. لا أذكر أنه دللنا بشكل من الأشكال.

عمي نوري كان يحبنا، لم يرزق أبناءً من بنت عمه الزوجة الأولى فوجد فينا التعويض، عمي خيري كان المدرس والمرافق لنا من وإلى المدرسة يومياً كأنه الأخ الأكبر مع فارق السن هو الذي علمني تنظيف الأسنان بالفرشاة والمعجون وهو الذي علمني مبادئ لعبة الشطرنج وهو الذي علمني جدول الضرب كما حاول تعليمي بري قلم حسن الخط المصنوع من البوص .

لا أذكر لوالدي هوايات إلا أنه كان يقص الصور التي لها علاقة بأحداث أو اختراعات من المجلات الإيطالية المتوفرة في ذلك العهد ويلصقها في كراسة كبيرة مع الشرح باللغة العربية عدا ذلك كان يقضي وقت فراغه في المحلة جالسا على كرسي مع بعض وجهاء أو أفراد المحلة أمام دكان السيد رمضان الجرنازي غالباً يكون ذلك بين العصر والمغرب. من جلسائه في غير انتظام الأستاذ مصطفى القلالي، من عائلة القلالي الشهيرة بشارع الزاوية.

من أصدقاء والدي أيضاً بشير أفندي الشاملي من سكان شارع السيدي قرب باب ابن غشير كان طالباً في المدرسة العسكرية التركية قبيل الاحتلال الإيطالي وانخرط في الجيش الإيطالي ملازماً أوّل ولا أعرف بالضبط ظروف تلك الفترة، والذي أعرفه أن بشير أفندي كان يحب الجندية والإناقة وقد لازمته هذه الصفات حتى بعد أن سرح من الجيش وصار مواطنا عاديا ثم موظفا في إحدى المؤسسات شبه حكومية. ومن جُلساء والدي أيضا الحاج أحمد الحداد من سكان شارع الزاوية القدامى وهو والد المغني علي الحداد، كان رجلا بسيطا ذكيا جدا له خبرة ولو بسيطة في كثير من الحرف، سريع البديهة، عزيز النفس كان الجلوس معه والاستماع إلى طريقته في استعراض الأمور متعة. وكان دكان عمي رمضان الجرنازي الذي يحلو لوالدي ومن معه الجلوس بقربه يبيع جميع المواد الغذائية والفاكهة والخضروات ومواد التنظيف. كان يمون معظم مواطني المحلة مدنيين

وعسكريين، وكان لأغلبهم صفحة في سجل يدون فيه مشترياتهم اليومية وقيمتها ليحاسبهم عليها في نهاية كل شهر.وجهاء المدينة وما حولها كانوا يفضلون الجلوس أمام المحلات التجارية الخاصة على الجلوس في المقاهي حتى أنه وجدت الباشا حسونه شخصياً كان يجلس أمام صيدلية قريبة من بيته، وقد اشتهر دكان علي المبروك في شارع الوادي ودكان الحاج محمد الكريكشي في سوق القويعة المتفرع عن سوق الربع، ودكان الحاج محمد الميت في باب الحرية كملتقى لمجموعة من نخب وأعيان الثلاثينيات.

130

**والدي وسوق الجمعة:** بعد الاحتلال مباشرة وانقطاع الدراسة التركية وظّف والدي في بلدية سوق الجمعة إدارة السجل المدني، وكانت البيانات تكتب بخط اليد وكان والدي يمتاز بخطه الجميل، حسن الخط كان مادة تدرس في العهد التركي وما بعده، كل هذه البيانات تسجل في سجلات كبيرة ضخمة، وبقيت لعدة سنوات في محفوظات البلدية وجميعها بخط يد والدي رحمه الله.

كان والدي اجتماعياً جدا، عُرف عند الجميع الكبير والصغير بفوزي أفندي. الصويعي سويدان مدير الساحل كغيره من وجهاء وزعماء العشائر لا يقرأ ولا يكتب بل كان يأمر، حسونة باشا القراملي على شهرته لا يقرأ ولا يكتب، وكان الصويعي محتاجاً لموظف كفء يتولى الشؤون الإدارية مبسطة وعملية، فوقع الاختيار على والدي وسحبه من البلدية ( كل ذلك قبل المصاهرة وقبل أن يصير جدي ) كانت إقامة والدي بشارع الزاوية وعمله بسوق الجمعة فكان يمتطي فرساً ذهاباً وإيابا كل يوم تقريباً، كان والدي شابا وسيماً طويل القامة سليم البنية، معتدل الوزن، يرتدي الجرد، الحولي الأنيق، أثناء عمله كاتباً للمدير الصويعي زادت علاقاته وزاد محبوه.

والدتي منى بنت المدير الصويعي ريفية النشأة والتربية، جميلة، قوية البنية والشخصية ( بنت مدير ) تعرف عليها وتعرفت عليه والوسائل في الريف لا تعدم وأحبها و أحبته بالطرق المتعارف عليها في ذلك الزمن بداية القرن، وكانت الرغبة

وكانت الخطوبة وكان العرس ( الفرح ) ورحب الجميع بذلك. جدي تقاعد ووالدي انتقل إلى وظيفة معلم بمدرسة سوق الجمعة.

131

**مدرسة سوق الجمعة:** كانت منطقة سوق الجمعة ملاصقة للمدينة طرابلس المستقر بها النظام، وملاصقة لبادية العزيزية وما حولها، والأمور فيها ليست كما يجب من وجهة الرأي الإيطالية، ورأت السلطات الإيطالية أن تتخذ من بلدية سوق الجمعة معرضاً لسياستها المدنية الإصلاحية، واعتبرت جزءاً كبيراً من سكان البادية من فئة ( المؤلفة قلوبهم ).

اتخذت من مدرسة سوق الجمعة نموذجاً لهذه السياسة وصارت تنفق عليها بسخاء، جميع الطلبة يرتدون زياً موحداً من قماش أزرق يعرف بالملف في شكل جبة مطرزة جميلة، وتقدم لهم ظهراً وجبة غداء فاخرة بها صحون من اللحم مع الكسكسي أو الأرز والبقول أو الخضروات يومياً مع الفاكهة، غذاء صحي ولذيذ، يعد في مطبخ ملحق بالمدرسة يشرف عليه بكفاءة الحاج ميلود خلف.

والدي كان مدرساً، وكان المخرج لهذه المسرحية الاجتماعية السياسية، وقد تذوقت ذلك الأكل مع التلاميذ في بعض الزيارات لوالدي والمدرسة.

132

**الرحلة بالقطار لتاجوراء:** عُين والدي معلماً بمدرسة تاجوراء، وتاجوراء كما هو معروف بلدة جميلة وسط غابة النخيل والبساتين تبعد 16 كيلو عن المدينة طرابلس شرقاً وملاصقة لسوق الجمعة، انتقال والدي إليها لا يتأتى يومياً بالفرس، والذهاب والإياب يومياً في المواعيد المطلوبة متعذر فلا مفر من الإقامة بتاجوراء والعودة إلى العائلة بشارع الزاوية مرة في الأسبوع.

وسيلة التنقل حديثة وعصرية هي القطار، إنجازات الوالي الكونت فولبي، وقد عرف عهده سياسياً تارة بالتفاوض مع الزعماء الوطنيين وتارة بالبطش بهم.

خط سكة الحديد الذي يبدأ من المحطة الرئيسية حيث المكان الذي به الآن مبنى الإذاعة، ويتفرع من المحطة الرئيسية خط نحو الميناء، وخط غرباً نحو

زواره، وخط جنوبي حتى جبل غريان أو أبو غيلان، وخط شرقا يفصل شارع الزاوية عن شارع ميزران، ويمر إلى شارع السيدي حيث محطة فرعية، وشارع السيدي جزء من محلة شارع الزاوية، ثم تمتد السكة الحديدية شرقا حتى الملاحة وتاجوراء. خط سكة الحديد محمي على جانبيه وحتى نهايته بأشجار الطلح ذات الأشواك الحادة، وكلما كان هناك تقاطع مع طريق يسلكه المارة تكون سلاسل تشد من شخص مكلف بذلك قبيل مرور القطار.

العربات محددة و نظيفة والكراسي من خشب مريح والدرجة موحدة، لا أتذكر كم تستغرق الرحلة ولكنها لا تزيد على الساعة مع التوقف في الفرناج وربما في الملاحة.

رافقت والدي مع أخي علي في إحدى الرحلات إلى تاجوراء، البداية كانت محطة شارع السيدي، كانت أول رحلة لي بالقطار، كانت رائعة، كنت منبهراً أشد الانبهار.

كنت بجنب الشباك أطل منه لأستمتع أكثر، فخاف علي والدي من العواقب فأغلقه، علق بذاكرتي من تلك الرحلة زيارة قام بها والدي ونحن معه إلى مزرعة الحاج باكير طريش، وجيه، ورجل أعمال، ومقاول ناجح، يملك مزرعة جميلة، وجدنا عنده زكي أفندي بانون، وكان يشغل وظيفة مدير المالية لبلدية تاجوراء (مأمور ضرائب)، وكان صديقاً مشتركاً لوالدي وللحاج باكير. كانوا الثلاثة واقفين يتحدثون، وكنت أنا وأخي علي نجري وراء ديوك كانت تنقر الحب حول كوم كبير من الشعير المعد للدراس.

لاحظ مضيفنا الحاج باكير ما كنا نعمل، فأمر أحد عماله، أن يمسك ديكين فاخرين، وعند الانتهاء من الزيارة قدمهما لنا هدية.

كانت لفتة ذكية من رجل الأعمال الناجح، فرحنا بها، وسببت لنا إرباكا في نقلها معنا إلى المحطة ثم في القطار مع الركاب وهي تحاول الفرار من عقالها ومن محطة شارع السيدي إلى البيت. كانت مناسبة سعيدة، لأول مرة أتعرف على القطار ولأول مرة أتعرف على الحاج باكير طريش وعلى الديكين الجميلين.

**133** **والدي ومدرسة الظهرة وشارع الزاوية:** نقل والــدي مــن تاجوراء إلى التعليم في مدرسة محلة الظهرة بطــرابلس. مبنــى المدرســة قــديم متواضع من زملائه الشيخ إبراهيم التونالل. لا أذكر شــيئاً آخــر عــن الظهــرة ومدرستها. بعدها نقل إلى مدرسة شارع الزاوية، المدرسة في أول عهدها كانت في شقق لعائلة العارف الهنشيري في زنقة ماريا خلف جامع المجيدية وكانت كغيرهــا من المدارس الإيطالية العربية تطبق نفس النظام الذي سبق ذكره في الفقرة107.

ثم نقلت إلى مبنى فخم أقيم على أرض تابعة لإدارة الأوقاف في سانية تعرف بسانية ابن يزيد قريبة جدا من المدرسة الأولى.المدرسة الجديدة سميت باسم بينيتــو موسولينى زعيم الفاشيين المسيطر على إيطاليا ومستعمراتها. المدرسة تعرف الآن بـــ 23 / 7 ذكرى ثورة الرئيس جمال عبد الناصر.

والدي كان يرتدى الملابس العربية المحليــــة منذ أن كان موظفا في ســوق الجمعة ولنــــا صورة له أخذت في سنه 1915 واستمر على ذلك حتــى أواســط الثلاثينيات حين أمــــر الوالي بالبو الموظفين العرب بارتداء اللبــاس الأوروبــي أثناء العمل، فصار يرتديه مع الطربوش وحين العودة إلى البيت يعود إلى اللبــاس العربي الذي تعود عليه ويستريح إليه، بخلاف عمي نوري الذي ارتدى الملابــس الأوروبية منذ صغره، واستمر يرتديها حتى وفاته.

**134** **والدتي وغزل الصوف:** غزل الصوف كــان عــادة، وصــناعة، وحرفة تمارسها جميع نساء المحلة. في بعض الأمــسيات تفــد بعــض الجــارات صديقات والدتي، وهن في الغالب زوجات لأصدقاء والدي للزيارة ولشرب الــشاي معا وللحديث عما يشغلهن من أمور. صالحة الفزانية جارتنا التي كانــت تــساعد والدتي في بعض المرات في تنظيف البيت، تسلمت عالة الشاي وأخذت تعد الشاي للسيدات بكل لوازمه، الكانون، والــصخان، و البراريــد، واللقامــة، والطواســي، والنشافة، والصفرة، قلاية الكاكاويا، والمروحة، وعلبة الشاي الأخــضر، وعلبــة السكر، السيدات وعــددهن ستّ جالسات على المنادير المحشوة بالصوف وعلــى

حصير مفروش عليه حمل من وبر الجمال وشعر الماعز وصوف الغنم. هو جـــزء من خيام البدو وفرش في حجرات بعض الحضر قبل انتشار البسط المصنعة آليا.

السيدات وبعد أن نزعن (فراريشهن)، وبعد السلام والقبلات والتربـــع علـــى المنادير، أخرجن من ثنايا أرديتهن في لحظة واحدة تقريباً على غير اتفاق، مغـــزل الجداد وكمية من الصوف الأبيض الممشوط الملفوف حول عود طوله حـــوالي **40** سنتيمتراً، الأصابع المخضبة بالحناء تتحرك لبرم الصوف وغزله والشفاه تتحـــرك هي أيضا للحديث مع التعـــرض والتعـــريض لتـــصرف بعـــض الـــسيدات غيـــر الحاضرات، لمخالفتهن قواعد المجاملة المتعارف عليهـــا فـــي الماضـــي...غـــزل الصوف عادة و تسلية ومساهمة تطوعية من السيدات في تكاليف المعيشة. الغـــزل المستعمل في نسيج الحوالي (جداد وطعمة)، والدتي تتقن غزل (الجـــداد)، وتـــارة تغزل (الطعمة) أيضاً وتارة تكلف من يغزلها من نسوة المحلة اللاتي يعملن بأجرة، وتارة تكلف من يشتريها، السوق يعرف" بالحلقة " قريب من سور المدينة القديمـــة ومن جامع الباشا .

الحوكي أو النساج هو عمي سعيد الوليد وابنه عاشور أحد جيراننـــا، وبيتـــه ملاصق لبيتنا، كانت العلاقة في بعض الأحيان معـــه مـــشدودة لأن أخـــي علـــي المعروف بحركيته ونشاطه الزائد على المطلوب تشاجر مع ابنه حميدة الوتوات، أو لأن ابنه عاشور النساج، أخطأ في مقاسات الجرد الذي كلف بنسجه من الـــصوف الذي أعدته والدتي بصبر وإتقان في الأسابيع السابقة.

يشترى الصوف الذي تحتاجه والدتي خالها الحاج علي بن رجوبة، الخبير في الصوف وأنواعه وأسعاره من سوق اللفة الأسبوعي ببلده سوق الجمعة بعد موســـم جز الغنم في آخر فصل الربيع أو أوائل فصل الصيف، وتنتهز والـــدتي زيارتهـــا لسانية جدي خلال العطلة المدرسية الصيفية لغسل الصوف في (ميدة) بئر الـــسانية مستعينة بأخواتها وبعض قريباتها اللاتي يفرحن بتقديم خدمة لأختهن أو قـــريبتهن الضيفة الزائرة الحبيبة الفاضلة.

**نحن الأطفال وطريقة الجلوس:** حديثي عن والدي ومعاملته لنا وعن والدتي وغزل الصوف، أعادني إلى جو منزلنا من جديد وكلما حاولت الخروج منه وجدت نفسي داخله. أليس هو مسقط رأسي ؟ وأذكر بهذه المناسبة شعراً ينسب لمجنون ليلى يقول :-

**أمرّ على الديار ديار ليلى** **أقبل ذا الجدار وذا الجدار**
**وما حب الديار شغفن قلبي** **ولكن حب من سكن الديار**

وأعود إلى طريقة الجلوس، الآن معظم الناس كبار وصغار يجلسون على الكراسي ومن يحلو له الجلوس على الأرض يتربع، في الماضي الكراسي كانت قليلة وأكثر الناس تتربع إلا أنا وإخوتي، وبعض الأقارب كنا نجلس على ركبتينا مثل الجلوس للسجود، تعودنا عليه منذ الصغر، وكانت الطريقة المفضلة في الجلوس لدينا ويقال إنها الطريقة المفضلة عند الأتراك. أذكر ونحن في منزل العائلة في العشرينيات موضوعاً آخر لا علاقة له بالجلوس وإنما بالأكل.

كنا نحب أكل البطاطا بمختلف الطرق، البطاطا خضرة غنية بالنشأ اللازم للجسم، غنية ببعض المعادن و الفيتامينات التي لا غنى للجسم عنها، وهي متى عرفت طرق طبخها و أتقنت لذيذة، متوفرة في معظم فصول السنة ومعقولة الثمن. ويرى البعض أنها تزيد في حدة ذكاء الإنسان وقوة شخصيته ويستشهد على تأييد وجهه رأيه بالشعب الألماني.

بالمناسبة، الألمان كانوا محبوبين في تلك الفترة من شريحة كبيرة من المثقفين، فالألمان هم حلفاء الخليفة السلطان في الحرب العالمية الأولى، هم الذين مدوا المساعدة للثوار ضد الطليان، هم مشهورون بالشجاعة والإقدام ومتفوقون في الصناعة والعلوم والفنون، ومشهورون بحبهم للبطاطا والإقبال على أكلها. أليست كل هذه الفضائل التي ذكرت ويعترف بها الكثيرون للألمان يرجع الفضل فيها إلى البطاطا وأكل البطاطا ؟ أنا أيضا من أنصار البطاطا وأكلها، ومعذرة لمن لا يحب البطاطا وللناس فيما يعشقون مذاهب.

من الأشيـــاء التي كنا نقبــل على أكلها الأرز بمختلف طرق طبخه وكيزان (السبول) المشوي في فصل الصيف (الذرة المشوية).

من المظاهر الأخرى في بيتنا القطط فهي حيوانات جميلة أليفــة نظيفــة، تنظف الحجرات ووسط الحوش من الحشرات و الفئران إن وجدت، تحن لنا ونحن لها، أذكر أنها تتداوى بالأعشاب حيث لاحظنا أنها تأكل بعض الأعشاب الطرية في أحواض الزهور، رغم أنها ليست من أكلة الحشائش، وسبحان الملهم لمخلوقاته سبل الوقاية و العلاج.

136 **عيد الأضحية:** حكم الأضحية في الفقه الإسلامي أنها ســنة، ســنها سيدنا إبراهيم عليه السلام وذلك عندما أمره الله سبحانه وتعالى بذبح ابنه إســماعيل اختباراً له. وقرر سيدنا إبراهيم الامتثال والتقيد بالأوامر، وفى اللحظة الحاســمة افتدى ربنا سيدنا إسماعيل بذبح عظيم ونجا الذبيح إسماعيل من المــوت. والقــصة مذكورة بإسهاب في القرآن الكريم ومعروفة عند الجميع.منطقة محلة شارع الزاوية في العشرينيات منطقة ريفية، محافظة، متدينة بطريقتها الخاصة تتباهى بالتمــسك بالسنن المستحبة قبل الفرائض، ومعظم عائلات المحلة تضحي ولو بخروف واحــد وبعضها بأكثر.

تُشترى الأضحية قبل العيد بأسبوعين على الأقل، بحجة أن الأســعار تكــون أرخص ولأن الأطفال يلحون في شرائها.الأطفال يستمتعون بالخروف كثيرا يعتنون به، يقدمون له الأكل والماء، الحصول على البرسيم ميسر إما بالــشراء أومــن أي سانية قريبة. ويحاول الأطفال أن يطوفوا بخروفهم في الزنقة وفى الأزقة القريبــة تباهيا، تارة الخروف ينقاد، وتارة يمكر.

الأم رغم ما يسبب لها وجود الخروف في البيت من إرباك تندمج في جــو العيد والأضحية، فالأم في الأغلب ريفية أو شبه ريفية تعودت على التعــايش مــع الماشية في بيئتها الأولى ويعيدها خروف العيد إلى طفولتها بكل ما فيها من بــراءة وبساطة وعدم مسؤولية. والدي يشتري بركوسين أحدهما أضحية له والثاني للوالدة

(البركوس هو الخروف الذي أكمل السنة الأولى ودخل الثانية) البعض يفضل الكبش المسن فإنه أكثر لحما وأطول قرونا، حيث يعتقد البعض في أسطورة أن خروف الأضحية هو مطية لصاحبها وحتى لأفراد عائلته على الصراط في الطريق إلى الجنة، ولذا كلما كانت الأضحية قوية والقرون طويلة كانت الرحلة مضمونة العواقب.

137 **الخطيب يبكي:** عند العودة إلى بيوتنا من صلاة العيد نؤجل الذبح بعض الوقت حتى لا نذبح قبل إمام وخطيب الجامع الشيخ مصطفى الغدامسي العاطفي جداً الذي يبكي كلما ذكر الذبيح اسماعيل وكان الإمام يسكن في شارع ميزران، في هذه الأثناء كنا نعد الخروف ولذلك طقوس يقال إنها مستمدة مما تعارف عليه أتباع المذهب الحنفي وهو مذهب عائلتنا. والدتي دهنت ليلاً ناصية الخروف بالحِنة، ووالدي يعد سكين الذبح وبقية سكاكين السلخ وساطور تقطيع أوصال الخروف، ويتأكد من أنها مسنونة كما يجب، نحن الأطفال نبحث عن قطعة قماش نلف بها عيني الخروف حتى لا يتأثر بمنظر السكين، يقال إنها إجراءات كانت والدة سيدنا إسماعيل تقوم بها تلطفا به وهى تعده للذبح. والدي يستعين بجزار جار لنا هو محمد الجنزوري، والدي يتولى الذبح ويشرح لنا الطريقة الشرعية وعلمنا إياها ومارسناها وعلمناها لغيرنا، الجزار عمي محمد يتقن عمله ويستطيع القيام به وحده بسرعة وكفاءه تامة ولكن والدي لا يهمه ذلك كثيرا، يهمه أن يدربنا على السلخ بكل ما يترتب على ذلك من خرق لفروة الخروف وترك لجزء من لحم الخروف بالجلد، كان يتخذ من فتح جوف الخروف درساً في التشريح. هذا البلعوم وهذه قصبة الهواء وهده الرئة الخ..الخ.

138 **الجزار والمرارة:** الجزار حريص على أن ينزع المرارة بدقة قبل أن تخرم عند تقطيع الخروف ويسيح ما بها من سائل مر يؤثر على اللحم الذي حولها. ومن المعتقدات الشعبية في الماضي... أنه إذا كانت المرارة كبيرة فإن

صرة من المال كبيرة آتية إلى صاحب الضحية، فذلك نوع من استطلاع الغيب يتندر به.

والدتي كانت أعدت (قلاية) وفطيراً فتقدمها لنا، فهي فطور العيد، نقبل عليه مع الوالد والجزاروناكله بشراهة لأنه لذيذ ولأنه نادر نتذوقه مرة في السنة، ونتصدق بالكتف الأيمن للخروف ونطبخ البقية ونشوي أيام العيد والباقي يقدد. والقديد كما هو معروف، لحم يقطع إلى شرائح ويتبل ويملح وينشر في الشمس حتى يجف ثم يقلى في الزيت، القديد لذيذ يستعمل في الأكلات الشعبية كالشكشوكة صيفاً والرشته والكسكسي والبازين في كل فصول السنة حيث يحتفظ بصلاحيته لسنة أو أكثر. الفروة تغسل جيداً وتملح وتجفف وهي مشدودة ثم تمشط صوفها وتستعمل للجلوس عليها خصوصاً في الشتاء.

تصرف سيدنا إبراهيم عليه السلام المسؤول الحكيم أفادنا كثيراً عبر الأجيال، فإنه أنقد جدنا الأول نحن العرب، سيدنا إسماعيل، من الموت مبكراً، وأكرمنا سنوياً بوليمة أساسها الذِبحُ العظيم الذي افتداه الله به.

139

**العجيلي قيم الجامع:** في المحلة ثلاثة مساجد جوامع، والفرق بين المسجد والجامع أن الأخير تقام فيه صلاة الجمعة، الجوامع هي : جامع المجيدية وقد سبق ذكره في أكثر من فقرة، وجامع الصومعة الحمراء في شارع السيدي وعرف بالصومعة الحمراء لأن القسم الأعلى من المئذنة وهو من خشب مخروط الشكل كان في فترة من التاريخ أحمر اللون، والجامع الثالث هو جامع مولاي محمد، وهو أيضاً ذكر أكثر من مرة في هذه الذكريات، منها عند الحديث عن ظروف تأسيسه، وعند ذكر الشيخ علي إدريس مؤذناً وشيخاً للزاوية والحضرة، وعند ذكر الشيخ مصطفى الغدامسي خطيب صلاة العيد، وهو يبكي على الذبيح إسماعيل، وسأذكره مرة أخرى وأنا أتحدث عن القيم لهذا الجامع، عرفنا مهمة المؤذن وعرفنا مهمة الإمام والخطيب، أما مهمة القيم فإنها العناية بنظافة بيت الصلاة وصحن الجامع وبدورة المياه وبالميضأة، والميضأة هي لمن لا يعرفها أحواض صغيرة من فخار قطرها حوالي 30 سنتيمتراً وعمقها عشرون مبنية على

ارتفاع مناسب، تملأ من ماء البئر المناسب إليها عبر قناة ويكون الماء بها جاهزاً لمن أراد الوضوء استعداداً للصلاة. من واجبات القيم نظافة هذا الركن من الجامع وتزويده بالماء كلما لزم ذلك.

ملحق بالبئر المطهرة، وللعلم أن معظم بيوت المحلة مزدحمة بالعائلات، رب العائلة لا يؤجر بيتاً بل يؤجر حجرة، والمرافق المشتركة تكون مزدحمة وفي أسوإ حال، ولذا كان الرجل الذي يريد الاستحمام للنظافة، أو وجب عليه الغسل الشرعي يلجأ إلى مطهرة الجامع. قيم الجامع واسمه العجيلي مكلّف بالمطهرة وإعدادها للراغبين في استعمالها وذلك بمقابل نقدي متعارف عليه، وليس موضع مفاصلة. العجيلي يزود المطهرة بماء البئر مباشرة حيناً وبالماء الفاتر أو الدافئ حسب فصول السنة، وأحياناً العجيلي يعرف عادات زبائنه الأوفياء وكم مرة يغتسل في الأسبوع كل واحد منهم. العجيلي أحد جيراننا، أصله من غريان رغم أن اسمه العجيلي، رجل هادئ خدوم، مصدر رزقه ورزق عائلته مطهرة الجامع.

140 **القلاع والأعراس:** رغم ما كانت الحياة السياسية في البلاد تعانيه من ضغط وقهر، كانت الحياة اليومية مستمرة، الكل يسعى وراء رزقه، في الغالب يعثر عليه بمشقة، وتارة يعثر عليه في يسر، ومظاهر الحياة الاجتماعية قائمة. هناك أتراح ونواح في ركن في المحلة، وأفراح وزغاريد في الركن الآخر، ولست بصدد تقديم بحث عن الحياة الاجتماعية بما فيها من تراث وعادات وتقاليد، وسيكون ذلك مجالاً لغيري، أنا الآن أذكر وأسجل لا أؤلف، نحن في سنة 1926 والمناسبة زواج عمي خيري في شارع الزاوية، البيوت كما هو معروف لها فناء محاط بالحجرات ويعرف بوسط الحوش، غير مسقوف؛ وحيث إنه سيكون بمناسبة العرس مسرحاً للعديد من الاحتفالات وإقامة المدعوات؛ وحيث إننا في فصل الصيف، فإن من الضروري تظليل جزء كبير منه، وذلك يحصل باستعمال أشرعة المراكب، وتعرف بـ " القلاع "، وأذكر أنه في بداية أسبوع العرس رافقت مع مجموعة من الأقارب والأصدقاء موكب نقل القلاع من محلة باب البحر؛ حيث الميناء ومراكب الصيد إلى شارع الزاوية، كانت مجموعة من الأشرعة ملفوفة على

ساريات ومحملة على "كرطون" (عربة ذات عجلتين يدفعها أو يجرها إنسان هي حرفته) ووراءها (النوبة) (الطبل ذو واجهتين) والغيطة (المزمار). كنا وراء العربة وحولها في جو من الألحان الشعبية المحببة للنفوس تعلن طول الطريق على فترات بألحانها الشجية و بطريقة غير مباشرة لأي مستفسر بأنه سيقام عرس فلان في المكان الفلاني. الأشرعة والقلاع تؤجر، كما يحصل الآن مع الخيام، الفرق هو أنه حالياً النقل يتم بالسيارات في صمت، وفي الماضي كان يتم في احتفال وطبل ومزمار وزغاريد، والصلاة على النبي لإدخال السرور على نفوس في أشد الحاجة للسرور.عند نهاية الرحلة، وعند الشروع في بسط الأشرعة كمظلة يوزع مشروب معروف "بالروزاته" وسط زغاريد النسوة وصياح بعض الرجال بالصلاة على النبي والماء المعطر يرش عليهم.

141 **المستأذنات:** أم العريس وأم العروسة، كل منهما ترغب في دعوة قريباتها وصديقاتها للمشاركة في المناسبة العائلية السارة، الآن الدعوة تتم بتوزيع البطاقات، في الماضي تكلف ثلاث نسوة أو أربع من المحلة، قادرات على المشي، ويعرفن عناوين المدعوات، هذه المجموعة من النسوة يستقبلن في كل بيت يزرنه، ويمنحن مبلغاً من النقود تقديراً لجهودهن، تستقبلن بالترحاب، وترش بماء العطر والزهر، ويقدم لهن أطيب المشروبات ويدعين للأكل.

اللاّفت للنظر أن اسم هذه المجموعة من النسوة، هو "المستأذنات"، الذي يحمل كثيراً من اللطف والكياسة، فأم العريس وأم العروسة لا تدعو فقط، وإنما تستأذن من القريبات والصديقات في إقامة العرس لابنها أو ابنتها، ثم تدعو، غاية في الدبلوماسية الشعبية لشعب ربما كان جاهلاً مغلوباً على أمره، لكنه عريق في تقاليده الحضارية الموغلة في أعماق الزمن.

142 **عمي نوري والسنفاز:** نحن مازلنا في سنة 1926 وفي مناسبة عرس عمي خيري، وإني أذكر الآن فيما أذكر ليس من باب المفاخرة أو الإشادة أو الاستعراض لمناسبات عائلية خاصة، وإنما الغرض الأساسي هو إعطاء صورة

للطريقة التي كنا نفكر ونتصرف بها في بعض المناسبات العامة أو الخاصة في عهد مضى وانقضى وزال رجالاته وكبر وشاخ أطفاله.

عمي نوري، كان وجيه المحلة، أراد أن يحتفل بعرس أخيه خيري بكل المراسم الشعبية المعروفة، وأضاف إليها لوناً من الاحتفالات لم يقم به أحد من قبل. الفطائر المقلية في الزيت، تعرف محلياً بـ ( السفنز ) وربما كانت تحريفاً لكلمة الإسفنج، حيث إن بعض أجزاء الفطائر إسفنجية التركيب، السفنز كان فطور الصباح لكثيرين من أفراد الشعب، في دكان السنفاز نفسه، أو في البيوت حيث يقوم بعض الباعة المتجوّلين ببيعه صائحين: (بوفنجان بوفنجان)، ويقال إن هذه التسمية جاءت من أن الفطيرة قبل أن تأخذ الشكل المستدير كانت على شكل كرة في حجم فنجان الشوربة الصغير، والسفنز كان يؤكل في الأعراس ويهدى.

عمي نوري تعاقد بالمناسبة مع سنفاز في شارع ميزران، فتح فرعاً له خاصاً بعمي في منزل ملاصق لبيته، حيث العرس، وزوده باللازم من الدقيق وزيت من إنتاج سانيته، والوقود من زبيرة أشجار الزيتون، وصار السنفاز يقلي كل صباح مئات من الفطائر التي توزع على كثير من عائلات المحلة مجاناً احتفالاً بهذه المناسبة السعيدة، كنت مع أطفال العائلة وأطفال المحلة نحوم حول السنفاز ونتسابق في توزيع السفنز الساخن.

والحواس كانت تعمل في صمت والذاكرة تسجل كما أراد لها الله.ربما يذكر الأستاذ محمد خليل القماطي أطال الله عمره ومتعه بالصحة والعافية هو أيضاً هذه الحادثة، لقد عاصرها وهو طفل.

## 143 <u>الوقف. وما هو الوقف ؟</u>

عند التحدث عن عمي نوري في الفقرة 3 ذكرت جملة (إدارة الوقف)، وقد يتساءل البعض من الصغار ما هو الوقف ؟

الوقف هو نوع من التملك للعقارات، منصوص عليه في الفقه الإسلامي وفي بعض القوانين الوضعية المطبقة.

يحدث في مجتمع إسلامي أن بعض أصحاب البر والإحسان من الذين يملكون عقارات (أراضي زراعية، ومباني لاستعمالات مختلفة) يقررون بأن عقاراً معينا يعتبر وقفاً، أي لا يباع ولا يشترى، أي توقف عملية انتقال الملكية من شخص إلى آخر. ريع العقار يخصص للصرف على مشروع ديني محلي محدد، مسجد جامع، أو على مستوى أكبر كالحرم المكي، أو الحرم المدني، أو المسجد الأقصى أو على مشروع خيري كمدرسة أو مأوى للأيتام أو الفقراء، أو سبيل أي توفير الماء لعابري السبيل على الطرق الصحراوية حيث لا يوجد ماء أو ما شابهها من مشاريع وطنية كبناء وترميم الحصون والأسوار لحماية البلاد الإسلامية.

رغبة أصحاب العقارات الموقوفة تسجل في وثيقة قانونية تحفظ في المحاكم وغيرها من الجهات الرسمية، الحاكم أو من يمثله، وعادة قاضي المنطقة يهتم باحترام نص الوقفية، وإدارة العقار الوقف بصورة سليمة، وصرف الموارد المالية المتأتية منه في الأوجه المقررة من الموقف، والحاكم أو القاضي يعين الإدارات أو الأشخاص المسؤولين على ذلك.

144 **إدارة الوقف في العشرينيات:** في ليبيا كغيرها من بلاد العالم الإسلامي، أوقاف على المساجد والجوامع وعلى الحرم المكي والمدني والمسجد الأقصى، وعلى سور المدينة طرابلس، والجهة المكلفة والمسؤولة عن شئون الوقف في العشرينيات هي إدارة الأوقاف الخيرية ووقف السور.لهذه الإدارة مجلس إدارة مكون من شخصيات دينية كبيرة، كالمفتي والقاضي أو من يمثلهما، وبعض الأفاضل من السكان ممن لهم خبرة في مجال العقارات، رئيس مجلس الإدارة في تلك الفترة كان الوجيه سليل عائلة قرجي، الحاج حسونة قرجي.

وكان المدير التنفيذي للإدارة، إسماعيل كمال أفندي الأرناؤوطي، ألباني الأصل، ليبي الموطن، عربي وإيطالي الثقافة، وقد عمل مع السلطات الإيطالية، وكان هادئاً مهذباً محبوباً ومحترماً ممن عرفه وله صلة به، وكان كبار موظفي إدارة الأوقاف في ذلك العهد صبحي أفندي بن عبد السلام للشئون الإدارية وللأفراد، محمود شوكت المبروك أفندي لشؤون المساجد ووقف السور، ونوري

أفندي السراج للمالية وأميناً للصندوق، ويتبع الإدارة المالية الجباة أي الأشخاص المكلفون بجمع الإيجار النقدي أو العيني لبعض العقارات المدنية او الزراعية وكانوا يعرفون بالاصطلاح التركي (تحصيل دار)، وهم الشيخ علي فتح الله، الشيخ مصطفى الكعبازي، السيد علي الخضار، السيد مصطفى التوغار، السيد عثمان الويفاتي، وكان كبير السعاة الحاج محمود أبو رقيبة.

عرفتهم جميعاً رحمهم الله، عند زيارتي لعمي في مكتبه بمحلة الفنيدقة أو في سانية عمي في (الزردات) التي يقيمها عمي لهم في بعض المناسبات.

145 **إدارة البريد:** في العشرينيات كان نقل المعلومات الخاصة من شخص لآخر تباعدت بينهما المسافات يتم بالرسائل والبريد.

وكانت إدارة البريد تثبت بجدران المباني صناديق لجمع الرسائل في عدة أنحاء من المدينة، وكانت كأنها فروع لمكاتب البريد تستقبل الرسائل من أصحابها أي يلقونها فيها عبر فتحة ضيقة ثم يطوف أشخاص لجمع ما في الصناديق من رسائل بطريقة منظمة وحديثة تضمن سلامة الرسالة من أي تلف، الرسائل تتجمع في مكاتب البريد من مختلف الصناديق، وبعد التأكد من أنها تحمل طابع البريد من الفئة المقررة للبلد المرسلة إليه ومن العنوان، توزع في أكياس حسب المدن المرسلة إليها وتشحن بوسائل النقل المناسبة من سيارات وقطارات وبواخر وطائرات، الآن الوضع تطور أكثر وبسرعة وفي كل يوم اختراع لآلة جديدة تنقل المعلومات العامة والخاصة، آخرها حسب علمي اليوم هو البريد الإلكتروني الذي أعرف اسمه ولا أعرف حقيقته ولا أدري ما هو اختراع الغد.

والذي أذكره أن إدارة البريد في العشرينيات وما بعدها كانت إدارة كبيرة فيها كثير من الموظفين، معظمهم إيطاليون، وبعضهم يهود، واثنان منهم فقط عرب شكري السراج عمي، ومحمود أفندي الزليطني.



**طرابلس / هيئة إدارة الأوقاف 1934**

**الجالسون من اليمين: صبحي بن عبدالسلام، إسماعيل كمال، نوري السراج**

**الواقفون من اليمين: علي الخضار، عثمان الويفاتي، محمود شوكت المبروك**

**مصطفى التوغار، إحسان عزيز، مصطفى الكعبازي**



**واجهة جامع سيدي حمودة طرابلس 1935**

**146** **رحلة إلى صبراته بالقطار:** إدارة البريد قررت قيام موظفيها برحلة لمدينة صبراته الأثرية التي تبعد حوالي سبعين كيلومتراً غربي طرابلس، وقرر عمي شكري أخذي معه وعرف كيف يبرر ذلك، رغم أني صبي ولم أكن موظفاً في البريد.الرحلة كانت من الصباح الباكر وبالقطار، هذه المرة الثانية التي أسافر فيها بالقطار، الأولى كانت لتاجوراء مع والدي وأخي علي. هذه المرة المسافة أطول، والرحلة أمتع، العربات تختلف عن عربات قطار تاجوراء، العربات هذه المرة من دورين، الدور الأول عربات كالمعتادة، بها نوافذ تغلق وتفتح، أما الدور الثاني فهو على السقف بدون نوافذ مفتوح الجوانب، كشرفة كبيرة متحركة بسرعة، على قضيبين وخلال قرى ومزارع وأراض فضاء وواحات من نخيل، منها قرقارش، جنزور، صياد، الماية، قرقوزة، الزاوية وصرمان.

كنت من ركاب الدور العلوي، وكان مفضلاً من كثير من الركاب، وكان عمي من ضمنهم يرعاني دون تسلط، وصلنا بحمد الله إلى صبراته مبكّراً واتجهنا زرافات على الأقدام إلى مقر إدارة حزب الفاشيو القريبة من محطة القطار، وكان في انتظارنا إفطار شهي، وكان من ضمن المستقبلين الكوالير محمد اليعقوبي، شخصية إدارية عربية بارزة حساً ومعنى في ذلك العهد، في الأربعين من عمره قوي البنية، يصافح بقوة تخشى على أصابعك من قبضة يده، مرحباً بشوشاً، ثم زرنا الآثار، لم أفقه منها الكثير، فهي أعمدة مهشمة وبعض التماثيل الرخامية مقطوعة الرؤوس.

**147** **مصيدة سمك التن:** ثم زرنا مصيدة السمك التن، وكان صاحبها يدعى الأمير باترنو،وله فيلا فخمة أنيقة بالقرب من المصيدة، الزيارة بتنوعها كانت مبهرة، لأول مرة أجد نفسي في مجموعة مهمة من الناس، ولأول مرة أزور الآثار ولأول مرة أرى على الطبيعة مراحل سحب سمك التن الضخم من المراكب إلى الأرض وتقطيعه قطعاً كبيرة ثم صغيرة تمهيداً لطبخه وتعليبه مع الزيت في علب متعددة الأحجام والأوزان، كنت الطفل الوحيد في مجموعة الرجال الكبار،

وكنت ملاصقاً لعمي، فجأة شعرت بدوران وسقطت على الأرض وعندما أفقت وجدت نفسي في فيلا الأمير صاحب المزرعة والمصيدة محاطاً بكثير من الرعاية، وعلمت بأني أصبت بضربة شمس أغمي علي بسببها، فأسرع عمي ومن معه بنقلي بسرعة إلى استراحة الأمير، وهناك أدركوا السبب، وأسعفوني بوضع ضمادات منقوعة في الماء البارد على رأسي. وعندما صرت في وضع يسمح لي بالشرب شربت سوائل حلوة، الإسعافات السريعة كان لها مفعولها فانتعشت واستعدت حيويتي، وجاء عمي وأخذني معه وعدنا مع المجموعة في نفس القطار، أراد عمي شكري إسعادي برحلة غير اعتيادية فسببت له إزعاجاً غير اعتيادي وغير متوقع، عمي شكري كان أصغر أعمامي، تزوج متأخراً وبعد وفاة زوجته التي لم تنجب فضل الحياة عزباً في منزله الخاص رغم إلحاحنا عليه في الانتقال والإقامة مع من يريد منا معززاً مكرماً منعماً، ولكنه كان عنيداً تعود على طريقة خاصة به في الحياة، أراد استمرارها.

كنا نزوره كثيراً ونحاول تخفيف عناء الوحدة عليه، كان يمثل جزءاً نفيساً من جيل سابق عزيز علينا، كان آخر أعمامي، نحاول الحفاظ عليه ما استطعنا إلى ذلك سبيلا، رحمه الله.

148 **جبانة سيدي أبوسيف:** والدتي ريفية، ولدت فيما كان يعرف في العشرينيات بقبيلة أولاد الحاج مديرية الساحل، الآن ونحن في آخر القرن العشرين أو أوائل القرن الجديد، تغيرت كل الأمور، قبيلة أولاد الحاج زالت من الوجود وأدمجت مع غيرها إدارياً، وصارت تعرف بمحلة شهداء الهاني، مديرية الساحل لا وجود لها، صارت ضمن شعبية طرابلس، أمي انتقلت إلى جوار ربها في سنة 1969، المنطقة كانت ريفية بساتين وزراعة سقوية صارت عمارات ومساكن حديثة جميلة المظهر والتصميم وطرق معبدة فسيحة نظيفة، تضاء طول الليل بمصابيح مثبتة على أعمدة عالية وكأنها عراجين النخيل تشع، يسقى ساكنوها من حنفيات يتدفق منها ماء طهور مصدره على بعد آلاف الكيلومترات شرقي وجنوب مدينة طرابلس، عبر شبكة النهر الصناعي.

لم يبق من معالم الماضي إلا بعض أشجار النخيل الشامخات شاهدة على عصر دخل دهاليز التاريخ، وكأنها أبراج بها آلات تصوير فيديو تسجل من علُ في حركة متواصلة على شريط الحياة أحداث الزمن، والمعلم الثاني هو جبانة سيدي أبو سيف، دخلها أحباء لي يمشون على الأقدام مرات ومرات وفي المرة الأخيرة محملين على الأكتاف واستقروا في قبورهم راضين بقضاء الله وقدره، يرجون رحمته يوم الحشر، يوم الحساب يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله.

جدي، جدتي، أخوالي، خالاتي، أزواجهم، زوجاتهم، أبناؤهم، وغيرهم. كلهم هناك قبورهم بعضها تهدم وقد تهدم من بداخله من مدة ... وبعضها ينتظر. يزور الأحفاد الأقارب الأحباء على مختلف درجات نسبهم، يزورون المقبرة كلما رافقوا عزيزاً لديهم إلى مقره الأخير، يلقون نظرة على قبور الراقدين تحت التراب، يتأثرون و يترحمون عليهم، قد يطول وقوفهم بجنب قبر أو يقصر، ثم يخرجون ولا يعرفون متى يجئ دورهم ولا يريدون.

بمجرد خروجهم من المقبرة، يجدون أنفسهم في خضم الحياة بمشاكلها التي لا تحصى ومباهجها التي قد تحصى، قد يتذكرون الحديث الشريف : ( اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لأخرتك كأنك تموت غدا )، هل يعملون به ؟ قد... وقد.....

149

**موطن والدتي:** لقد تحدثت باستفاضة عن شارع الزاوية، مسقط رأسي ورأس والدي، ولم أذكر الكثير عن قبيلة أولاد الحاج ومديرية الساحل موطن والدتي، فهل هذا إنصاف ؟

ولدت أمي سنة 1900، جميلة، في بستان جميل من بساتين قبيلة أولاد الحاج، سوق الجمعة، هذه المنطقة غنية بالمياه الجوفية، قليلة العمق، عذبة، تصلح للعادة والعبادة، على بعد خطوات من المدينة الكبيرة طرابلس العاصمة، وعلى مرمى حجر من بادية العزيزية، منبت لرجال أشداء ومصدر لثروة زراعية هامة لاقتصاد البلاد.أتحدث عن فترة طفولتي، الفقرات من واحد إلى ما بعد المائة

والخمسين، معظمها تشمل تلك الفترة من 1916 إلى 1930 تقريبـــاً، مـــسرحها أو مسارحها كانت مديرية المنشية ومحلة شارع الزاويـــة أساســـاً وبعـــضها كانـــت مسارحها المدينة وأسواقها، وسوق الجمعة موطن والدتي.

سكان سوق الجمعة في الماضي .. فلاحون مهرة خصوصاً في الخضروات والفاكهة، وكانوا يغذون سكان المدينة المتزايد عـــددهم بالإنتـــاج الـــوفير، الأرض خصبة والماء متوفر والطقس مناسب، والخبرة تراكمت عبر الأجيال، والمحـــصلة خير.

المنطقة مقسمة إلى مربعات أو شبه مربعات، سمها بستاناً إن شئت أو سانية كما يسميها أصحابها، مساحتها في المتوسط حوالي هكتار واحد " عشرة آلاف متر مربع " وثماني جوابٍ بالاصطلاح الفلاحي القديم. طرق المنطقة ترابيـــة ضـــيقة، توفيراً للأرض الزراعية، ومتناسبة مع وسائل التنقل والنقل مـــن حميـــر وخيـــول وجمال.

يحد كل سانية حاجز ترابي مدكوك ارتفاعه حوالي متر ونصف، اسمه محلياً (طابية) تغرس أعلاه أوراق الهندي (ضلفة) التين الشوكي أو الصبار، فهي عنـــدما تنمو وتتشابك مع بعضها تكون حاجزاً يصعب اختراقه من الإنسان والحيوان.

150 **<u>أوراق الهندي علف للإبل:</u>** ثمر الهنـــدي فاكهـــة لذيـــذة يحبهـــا الفلاحون ويقبل عليها سكان المدينة مقابل دراهم معدودة. و أوراق الهندي الشائكة يستفيد منها الفلاحون بعد تقطيعها قطعاً صغيرة علفاً للإبل في فـــصل الـــصـــيف، الجمال تقبل على مضغها وأكلها رغم ما فيها من شوك، وبإضافة بعض الأعـــلاف الجافة الأخرى يزيد وزن الرؤوس المغذاة بها أساســـاً فـــي أشـــهر قليلـــة لحمـــاً وشحماً.سكان المدينة والريف يتلذذون بأكل اللحم والشحم متى وجد غنماً أو معـــزاً أو إبلاً، ولم تخترع بعد في تلك السنوات كلمة (الكلسترول)، وما تعني من ضـــيق الشرايين وتصلبها,

لكل سانية بئر، وبجانبها حوض (جابية) تجمع فيه الماء الذي يرفع من جوف الأرض بالدلو والبقرة. بعد تجمع كمية مناسبة من الماء خلال ساعات من العمل الدؤوب للجبّاد والبقرة، يفرج عن الماء فينساب عبر قنوات ترابية يروي بها جداول مختلف المزروعات.

مساكن الفلاحين في سوق الجمعة متناثرة في البساتين بخلاف تاجوراء فإنها متجمعة حول بعضها في قرية أو قرى، وربما كان ذلك بسبب ظروف أمنية اقتضتها أحداث تاريخية. البيوت بسيطة بنفس التصميم المعهود، وسط حوش وحجرات حوله، الجدران من طين معجون بالماء ومدكوك ويعرف ب"ضرب الباب"، والسقف من جذوع النخيل مع طبقة من تبن البحر والطين ومونة الجير.

مزروعات البساتين خضروات للسوق، ونخيل وزيتون وبعض أشجار الفاكهة إنتاجها لاستهلاك الفلاح وعائلته الكبيرة العدد، وتارة بها زوجتان، إحداهما ولادة على الأقل، مازاد على استهلاك الفلاح المحدود نوعاً وكماً يستوعبه سوق المدينة.

151 **المطلوب من السيدات:** المطلوب من سيدات الريف كثير، عليهن الإنجاب والإرضاع والاعتناء بالإنسان والحيوان داخل نطاق السواني، ومساعدة الرجل في بعض الأعمال الزراعية، وأخيراً تسليته بعد ما يبذله من جهد في أعمال زراعية متنوعة وكأنها تمارين رياضية أو علاج طبيعي زادت جسمه قوة وحيوية.

زيادة السكان ومحدودية الريف التقليدي أدت إلى تفتيت الملكية وما يتبعها من مشاكل، منها نزوح الشباب إلى المناطق المستصلحة والمزارع الحديثة بحثاً عن عمل، كان مردوده الرئيسي للإيطاليين، ثم إلى بعض العرب بعد الاستقلال. هذه اللوحة التي حاولت رسمها لريف العشرينيات، موطن والدتي زال تماماً ولم يبّق منه كما قلت في فقرة 148 إلا بعض النخيل ومقبرة قديمة.

المنطقة الآن ضاحية راقية من المدينة، طرق وفيلات وإضاءة حديثة، وماء رقراق، وسيارات، وأجهزة حديثة في خدمة الإنسان، ومدارس، وجامعات، وشباب مثقف واع سليم الجسم والعقل، يرى البعض أنه ثمرة الحرية والتقدم والتطور

والتحضر، ويتحسر آخرون على أرض زراعية خصبة فقدت، وأشخاص أفاضل أعزاء زالوا، وريف يعبق شاعرية، ورائحة طيبة مزيج من زهر النارنج البرتقال والفل والياسمين والحناء والعطر والريحان، يحن له ولها عشاق التراث والفلكلور.

152 **ريف العشرينيات الغائب:** ما سجلته وما كتبته عن الفلاح في الريف لم يرض من اطلع عليه من أقاربي حاضراً، ولا أستطيع القول من سكان المدينة أومن سكان الريف لأن الريف كما كان وكما عرفته وكما وصفته زال وزحفت عليه المدينة فصار الكل مدينة كبيرة مترامية الأطراف، الساحل المنطقة الفاصلة بين المدينة طرابلس وبين تاجوراء تحولت من أرض زراعية إلى أرض سكنية، ولم يبق منها زراعياً إلا بقع صغيرة متناثرة، مصيرها معروف خلال سنوات قليلة مقبلة، كذلك الحال بالنسبة لتاجوراء، فإن المباني القديمة التي كانت مكدّسة على بعضها حل مكانها مبان حديثة وزحفت هي الأخرى على السانية، وواحة تاجوراء تغيرت كثيراً وستتغير أكثر ولولا كتلة القاعدة الجوية الأمريكية سابقاً الفاصلة بين طرابلس وتاجوراء والتي ماتزال عسكرية والمواجهة للبحر، ولامتدّت طرابلس إلى تاجوراء وصارت طرابلس مع تاجوراء، وسوق الجمعة، والهضبة الخضراء، وقرقارش، وجنزور، طرابلس الكبرى، الوضع الصحي للسكان في تحسن مستمر، وعددهم في تزايد مضطرد، والسكن ضروري للإنسان، والريف المحيط بطرابلس في مرحلة تحول سريع رغم كل الإجراءات لحماية الأراضي الزراعية.

يرى غير الراضين عما كتبته متناثراً على بعض الفقرات أنه لا يشفي غليلاً ويريدون المزيد من التفاصيل قبل انقراض ما بقي من أفراد شهداء على عصر يتوارى، وعلى صور من بلدهم يحنون إليها غرقت في أعماق الزمن.

قلت إنه سيكون تكراراً لما سبق وقلته في فقرات أخرى، أو لما كتبه غيري، أو لما هو محفوظ في ملفات أمانات الإسكان والزراعة، فكان الجواب لا مانع فتعدد مصادر التوثيق وتنوعها يزيد الصورة وضوحاً وتكاملاً، ولذا فإني

سأعود إلى منطقة سوق الجمعة وإلى من سكن منطقة سوق الجمعة من أقارب أحباء.

153

**شتاء الفلاح:** نفترض أن العائلة تتكون من رجل وزوجة أو زوجتين ومن أم وأخت شابة أو عانس ومن أولاد وبنات.الأولاد والبنات يلعبون تارة ويدرسون تارة في كتاب القرية أو المدرسة وتارة يساعدون الكبار، أفراد العائلة العاملين أربعة أو خمسة.

العائلة ريفية عملها الأساسي الزراعة المروية، في الشتاء ينزل المطر ويروي الأرض والزرع والفلاح في شبه إجازة، يتفقد أموره في استرخاء، يتردد على دكان القبيلة، يحتسي الشاي، يتبادل الأخبار في ركن دافئ كأنه في سبات.

العمل الجاد يبدأ مع الربيع، الأرض التي استراحت في مواسم سابقة، يجب عزقها وتنظيفها من الأعشاب الطفيلية الضارة، خصوصاً ما يعرف بالنجم (النجيل) أو السعد، أعشاب تمتد جذورها إلى أعماق الطبقة المنبتة من التربة، يلاحقها الفلاح بالفأس (المسحة) وهي هاربة منه، عمل عزيق الأرض شاق لا يليق بالنساء ولا يتقن عمله فهو من اختصاص الرجل، وإذا كان صاحب الأرض وحده لا يكفي فعليه الاستعانة بأجير.

الأرض المعزوقة النظيفة من الأعشاب تسمد بالسماد العضوي، فضلات الدواب الموجودة في المزرعة، بقرة، حمار، وبعض رؤوس الأغنام للتسمين، وربما يضاف لها جمل، بعد ذلك يزرع الفلاح ما يراه من خضروات يحتاجها السوق ويتمشى مع دورة زراعية توارثها عن الآباء والأجداد.

هذا النوع من الزراعة يوصف بأنها زراعة رأسية مكثفة، وذلك يعني الاستفادة من مساحة محدودة في زمن محدود للحصول على أعلى إنتاج بأقل التكاليف، هذا الكلام موجود الآن في الكتب ويدرس في الجامعات الزراعية المتخصصة في تفاصيل التفاصيل، وأما بالنسبة لفلاح الزمن الماضي فإنها خبرة

متوارثة عما قبله، ربما يكون بعضها تكراراً لبعض الأخطاء، ولكن في مجملها وعلى بساطتها سليمة ثبتت فائدتها.

154 **الفلاح والربيع والصيف:** مع تقدم فصل الربيع يطول النهار ويدفأ الجو، وترتفع الحرارة في بعض الأيام، عدة رفع الماء من البئر يجب أن تكون جاهزة، الحبال بأنواعها يجب أن تكون سليمة، الدلو حمولته حوالي خمسين لتر يجب أن يكون صالحاً بعد دبغه بقشور الرمان، وترقيعه إن احتاج إلى ترقيع، والبقرة يجب أن تكون بعد راحة الشتاء والولادة إن ولدت والرضاعة إن أرضعت، سليمة، قوية، جاهزة لمواجهة موسم زراعي طويل شاق، الماء عنصر أساسي للزراعة بأنواعها والمروية على الأخص، ولذا يجب الاستعداد لرفعه من جوف الأرض بجدية.

تبدأ عملية الجبادة ( الجبادة هي عملية رفع الماء من قاع البئر إلى السطح، والعامل الذي يقوم بذلك مستعيناً بالبقرة يسمى جباداً ) مبكراً بعد الفجر بقليل، والجو مازال رطباً ندياً، الماء يرفع من قاع البئر بالدلو الذي يفرغ في حوض صغير طوله نحو متر ونصف وعرضه كذلك وعمقه ربع متر واسمه ميدة، منه ينساب الماء عبر قناة صغيرة مبطنة طولها لا يزيد على مترين يسمى (ساروط) ليصب في حوض أكبر طوله حوالي 6 أمتار وعرضه كذلك وعمقه أقل من متر ويعرف بالجابية، الممشى الذي يسلكه الجبّاد والبقرة طوله يتناسب مع عمق البئر لا يزيد على عشرين متراً مائل السطح لأن ذلك يساعد البقرة على رفع الدلو الثقيل المليء بالماء، هذا الممشى يسمى (مجرّا) ويكون مظللاً بشجر التوت، كما أن الجابية تكون مظللة بتعريشة دالية العنب.الماء في جوف الأرض عمقه قريب من عشرة أمتار، وهذا المستوى من الماء يعرف بالوادي الأول قريب من سطح الأرض، ولكنه ليس غزيراً، تحته طبقات أخرى من الماء (أودية) مفصولة عن بعضها، أعمق وأغزر، استغلت فيما بعد عند استعمال المضخات الآلية.

الجباد طالع نازل في المجر صامتاً، وكذلك البقرة، تارة تسمع شدو عصفور ينقر ثمرة التوت الناضجة ويغازل أنثاه، وصوت محور البكرة الحديدي وهو يلف

كأنه أنين، أشعة الشمس انبسطت على الأرض مولدة حرارة تفيد بعض الزرع والبعض يفضل البقاء ولو مؤقتاً في ظل شجرة من أشجار السانية.

سحب مئات الدلاء في وقت واحد من منطقة واحدة من الوادي الأول الذي وصفناه يؤدي إلى أن الماء يقل تدريجياً، يكاد ينضب ويحتاج إلى فترة من الوقت حوالي ساعة حتى يتجمع من جديد ويعود إلى مستواه السابق.

155 **البقرة تعبت:** في هذه الأثناء البقرة تعبت وكذلك الجباد، وحان وقت الراحة والفطور، وهاهي أم الفلاح مقبلة من المنزل، لقد قامت هي أيضاً مبكّرة طحنت شعيراً يكفي لوجبة الظهر ( بازين ) وقمحا يكفي للخبز وكسكسي العشاء، وغربلت الطحين وفصلت عنه النخالة و(القطاعة)، وحصدت جدولة من البرسيم، وأخذت معها رغيفاً من خبز (الطابونة) و(براد) الشاي وكوبين، ويستقبلها ابنها الجباد مبتسماً وعيناه تعبران عن الرضا والود والتقدير، ويبدأ مع أمه يقرض ويمضغ الخبز ويشرب الشاي، والبقرة تأكل البرسيم مع نخالة الشعير(ملاحظة: نخالة القمح وتسمى قطاعة، وتخصص للدجاجات البياضة).

فترة الراحة الصباحية انتهت، والعمل استؤنف، الجباد والبقرة عادا إلى عملهما الرئيسي، أم الفلاح الجباد فتحت عين الجابية فاندفع الماء في قنوات ترابية وأخذت مسحاة صغيرة وصارت تتابع سير الماء، توزعه بعناية وعدل على المزروعات في جداول مربعة أو (شاقولية) الشكل محاطة بحاجز ترابي بسيط مستوية السطح تماماً، حتى ينساب الماء فيها في يسر وبالسرعة المطلوبة، دون انجراف التربة مع اقتصاد في كمية الماء. بعد ساعات، أشعة الشمس تكاد تكون عمودية، مؤذن الجامع القريب يؤذن للظهر، ماء الجابية نفد، ماء الوادي الأول انخفض كثيراً، البقرة تعبت مرة أخرى، وكذلك الجباد وأمه.

حان وقت العبادة والغداء والقيلولة، تربط البقرة في ظل التوتة وأمامها كمية من البرسيم، وعادت الأم وولدها الرجل إلى المنزل، إحدى الزوجات كانت مشغولة في إرضاع ابنها الرضيع وكنس البيت وتنظيفه وإعداد خبز الطابونة، الزوجة

الثانية أو الأخت أعدت ما يكفي العائلة من بازين ووزعته على أكثر من قصعة، البازين بدون لحم، اللحم مخصص ليوم الجمعة فقط يوم السوق كانت شهية الآكلين فائقة وكان البازين لذيذاً.

156 **عمل بقية اليوم أو الأيام:** الفلاح الرجل، أو الجباد، يصلي الظهر قبل الغداء أو بعده وبعد حمد الله وشكره يستريح نائماً في ظل شجرة التوت الظليل، تحاول بعض الذبابات اللاتي تجمعن لتذوق سكريات ثمر التوت المتناثرة على الأرض تحاول مداعبته أو التشويش عليه، فلا يعبأ بهن، لقد بدأ عمله اليومي مبكراً فاستغرق في النوم، استيقظ بعد ساعتين تقريباً، تثاءب، تمطط، ونهض متجهاً نحو البئر والدلو والبقرة، إنها حصة بعد الظهر التي تستمر حتى تستعد الشمس للغروب، عمل المساء شبيه بعمل الصباح والضحى. بعد صلاة العصر وراحة قصيرة دون أكل، مكتفياً بكوب شاي وتستأنف الأخت سقي الزرع، وإحدى الزوجات تحضر وجبة العشاء وهي كسكسي من قمح صلب يعرف ( بالحميرة ) إنتاج الفلاح نفسه السنة الماضية من البادية، والمطحون والمنخول صباحاً من طرف الأم.

من بقي من نسوة العائلة وبعض الأطفال يجمعون الخضروات التي نضجت ويعدونها للسوق، والأطفال الآخرون يطوفون بالنخيل ويجمعون ما تساقط من بلح غير ناضج ويعرف بـ (الغمق) يقدمونه غذاء للخراف المربوطة في وتد للتسمين.

إحدى نسوة العائلة ستجد الوقت المناسب لتقطيع (ضلف) الهندي وتقديمها أكلاً شهياً للجمل، ولحصاد جدولة أو أكثر من البرسيم عشاء للبقرة المنهكة، وللحمار المهيأ نفسياً وبدنياً لنقل الخضروات في الغد الباكر للسوق.

الإضاءة في السانية والمنزل غير متوفرة بالقدر الكافي، ولذا يستحسن تناول العشاء قبل غياب الشمس والغروب، يؤذن للمغرب ويؤذن للعشاء والجميع يؤدي الصلاة في أوقاتها، معظم أفراد العائلة ينامون بعد صلاة العشاء، البعض يأخذ حصة سهر إضافية، الوحيد الذي لا ينام طول الليل لأنه نام طول النهار هو الكلب

الذي أطلق سراحه، فهو يلف حول المنزل وحول حظيرة الدواب والماشية تارة ينبح وتارة يستمع لنباح الآخرين، وفوق الجميع قمر طبيعي غير اصطناعي، تارة هلال كالعرجون القديم وتارة بدر ينير السبل لمن يريد الاهتداء ويراقب المنحرفين، يبتسم للعاشقين، ويسبح بحمد الله رب العالمين.

157 **ذكار التين المزيف:** الأعمال الزراعية متلاحقة متنوعة، يصعب علي حصرها ووصفها كما يريد البعض، سيعوض النقص غيري وسأحاول ذكر ما نسيت في السابق.

في أواخر الربيع عراجين النخيل طلعت ونمت وتطلب اللقاح والفلاح قام بذلك مرة أو أكثر. في الصيف، الشعير والقمح المزروع في البادية استوى وهو جاهز للحصاد والدراس ولا يجوز التأخير، فإذا لم يكن من أفراد العائلة من يصلح لذلك يكلف أُجراء يعرفون بالخماسة يتقاضون أجرهم عينا وربما كان خمس المحصول .

ذكار النخيل ذكرني بذكار التين، وهو عبارة عن تين من نوع معين ينبت في جبل غريان يوزع بأعداد بسيطة على شجرة التين المراد تذكيرها، وتخرج من التين الذكار حشرة صغيرة طائرة تلف على التين (الفاكهة) وتوزع عليه اللقاح.

في بعض السنين يكون إنتاج ذكار التين قليلا وسعره مرتفعا يتعذر شراؤه من طرف الفلاح الفقير، وانتهز أحد الأقارب الظرفاء المحسوبين على فقهاء الدين الفرصة و أشاع أنه يعرف طريقة ناجحة غير مكلفة تعوض ذكار التين المرتفع الثمن وذلك أنه كتب على ورقة بعض الكلمات السحرية التي لها تأثيرها العجيب والتي لا يعرفها غيره، ثم يلفها وتربط بخيط على أغصان شجرة التين المراد تذكير ثمارها. وذلك طبعا بمقابل مالي بسيط، صدق الفلاحون السذج قوله وهم محتاجون إلى ذكار، والوقت يضغط فباع من وريقاته الكثير، وعندما أراد أحد خصومه فضح السر، فتح الورقة فكان مكتوباً عليها باسم الله الواحد القهار، أسماؤه تغني عن الذكار.أعرف أن هذا الماهر جمع مبلغا مناسباً من ثمن الوريقات ولست متأكداً إذا ذكرت التين.

قلت إن طرق القبيلة بين البساتين ضيقة وهذا صحيح ولكن كانت هناك أيضا طريقا فسيحة تمتد إلى بعيد خارج المنطقة تعرف بالحاجية.هل اسمها مشتق من قوافل الحج وهي تسلكها نحو الأراضي المقدسة أو هناك تفسير آخر ؟

فصل الصيف، يوصف عند البعض بالضيف لأنه يمر سريعاً، ويصفه آخرون بأنه ضيف ثقيل، بعده يحل فصل الخريف، البلح صار رطباً ويجب جمعه وتجفيفه وحفظه، ونزل المطر في البادية وحل موسم بذر الشعير والقمح فالانتباه توجه إلى هناك، ومن حسن الحظ أن الحاجة إلى سقي السانية بما فيها خف، وأن البقرة (عشرت) أي حملت وتنتظر مولودها الجديد بعد أشهر قليلة والشتاء قادم وسندخل في شبه سبات. الحياة في الريف لا تتوقف تواصل سيرها مسرعة وفي بطء في منحدرات هابطة طالعة. زال الريف القديم وزال معاصروه والحياة مستمرة في أشكالها الجديدة إلى ما يشاء الله.

158 **صورة أخرى من الريف القديم:** ما ذكرته عن العمل اليومي للعائلة الريفية ينطبق على أخوالي كغيرهم من سكان الريف مع تعديل بسيط. كانت لي خالة عانس اسمها مريومة تقيم مع والدتها جدتي وإخوتها المتزوجين، أخوالي في بيت واحد.

كانت رغم أثر السنين عليها نشيطة لا تريد أن تكون عالة على أحد، تدبر شؤونها بنفسها، تريد أن تكون مكتفية ماليا، وتشارك غيرها من أفراد العائلة في الأعمال الزراعية وغيرها، الاكتفاء المالي يتأتى لها من امتلاك خمسة خراف تشتريها ضعيفة وتعلفها بما تجمعه من حشائش ومخلفات الخضروات والتمر وبكثير من الصبر والرعاية والعناية تنمو الخراف ويزداد وزنها وسعرها وتستفيد خالتي التي رغم ظروفها لا تحب أن تكون محل شفقة الآخرين. فهي أيضا بنت المدير الصويعي ولو كانت عانساً، أذكر أنها كانت تهدي لوالدتي في بعض المناسبات، مادة زيتية من إنتاجها تنفع في ترطيب شعر الرأس ولمعانه، اسمها زيت الخجلة وربما كانت الخجلة خصلات من الشعر على جبين المرأة وتصفف بطريقة تجعل منها إطاراً جميلا لوجه جميل. مكونات هذه المادة التجميلية بسيطة

عبارة عن كمية من شمع النحل النقي يسيح على سطح صحن من فخار غير عميق، وتضع فوقه كمية من زهر الفل أو الياسمين إنتاج شجيرات موجودة عادة في السانية ويغطى الصحن ليلا، وفي الصباح التالي يكون جاهزاً للاستعمال، بعد أن امتص الشمع طول الليل ما في الزهور من رائحة، تفرح أمي بهدية أختها العانس وتعطف عليها وتحرص أن يكون ذلك بطريقة لا تؤذي مشاعرها المرهفة كانت خالتي رحمها الله نموذجا لنساء الريف العفيفات المكافحات.

159 **الريف يضيق بساكنيه:** مساحة الريف القديم ضيقة نسبياً، يحدها شمالا البحر وجنوبا أرض مرتفعة تعرف بالقِرود، عمق الماء في هذه الأرض المرتفعة (القرود) على عمق غير مناسب يجعل رفعه بالبقرة والدلو غير عملي ومكلف.

النساء ولادات ومع الرجال يتفاخرن بعدد الأبناء قبل البنات، والمحصلة أن الريف ضاق بأهله والملكية الزراعية تفتتت، وصار البعض لا أرض لهم، يبحثون عن عمل خارج الريف، والبعض الآخر يمتلك قطعا من الأراضي متناثرة بين السواني فبعضها ملك خالص له والبعض مشاركة مع الآخرين .هذا الوضع زاد العمل الزراعي في الريف القديم تعقيداً.

الرجل الجباد والبقرة مضطران إلى التنقل من بئر إلى أخرى في أيام معروفة لسقي الزرع المتناثر على البساتين، ويحصل أن يرتبك النظام المتفق عليه مع الشركاء بسبب ظروف صحية أو اجتماعية أو جوية فتتحول صلة القرابة والجوار إلى شجار يبقى محصوراً في نطاق العائلة وإن تطور يصل إلى شيخ القبيلة وحكمائها، وبعد التوتر يعود الوئام.

هل المجتمع الريفي مثالي ؟ هل هو سعيد ؟

المثالية حالة نادرة جداً والسعادة هي نادرة أيضاً، فبماذا نصف إذا ذلك المجتمع ؟ لا أدري.

إن كل المجتمعات البشرية مزيج بين الفرح والحزن بين التعب والراحة بين الخير والشر أوجدته بيئة معينة وظروف معينة ظهرت على مسارح الحياة العديدة، وقد قال شاعر حكيم متفلسف :

**ذو العقل يشقى في النعيم بعقله وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم**

160

**نموذج آخــر:** أحد أقاربي يمثل نموذجاً آخر من نماذج سكان الريف المتعددة ولنسمه أبوبكر. أبوبكر تعلم القرآن في كتاب القبيلة كغيــره، أبــوه كــان زعيما للمنطقة يشغل وظيفة كبيرة تضفي على الزعامة الشعبية قوة ونفوذا، أبوه لا يقرأ ولا يكتب، فهوً يأمر والقراءة والكتابة حرفة الآخرين.

الأب أدرك أن الزعامة موهبة تقوى وتضعف حسب الظروف وتزول بزوال صاحبها وإن بقيت موجات سمعته تملأ جو المنطقة بين قادح ومادح.

ابنه أبوبكر ليست لديه من مقومات الزعامة لا الكثير ولا القليل.فلا أقل مــن أن يتعلم العلم الشريف أي الشريعة الإسلامية في كلية أحمد باشا في المدينة، مثــل آخرين في البلد من عائلات اشتهرت بثقافة أبنائها وعلمهم، مما أهلّهم بعد الدراســة العليا في الأزهر بمصر، لتقلد وظائف مرموقة في سلك القضاء أو الإدارة. مــن هذه العائلات عائلة "العالم" بسوق الجمعة، وعائلة "البشتي" في الزاويــة، وعائلــة بورخيص في غريان، وربما كانت عائلات أخرى لا أعرفها.

التحق أبوبكر بكلية أحمد باشا و أتم الدراسة بدون تفوق وظروف والده الذي طعن في السن وتقاعد من الوظيفة لم تسمح له بمواصلة دراسته العليا في مــصر، وعاد إلى القبيلة إلى العائلة التي يكد أفرادها ويعملون في مجال الزراعة وتعــودوا على مشاقها منذ الصغر.

أبوبكر فترة الدراسة في المدينة أفسدته، من وجهة نظر من يقدسون العمــل اليدوي، عودته الدعة، لا يتحمل حرارة الشمس، كفاه ناعمتان نسبياً، درس كتبا في اللغة منها للشيخ الكفراوي وللشيخ العشماوي وكتبا في الفقه المالكي وفي المنطــق

صار مثقفا، ثقافته لم تمكنه من الحصول على وظيفة نادرة ومرغوبة ومحتكرة من حملة الشهادات العليا من عائلات ذكرت.

يعرف أن الزراعة عمل مرهق فاكتفى بالمساهمة في بعض الأعمال الزراعية السهلة في نطاق العائلة وفضل مزاولة التجارة. تحصل من أخيه إمام الجامع على دكان صغير تابع للوقف، بأجر رمزي، بسيط، ودبر أبوبكر مبلغا محدوداً من المال وتوكل على الله.

كان دكاناً فقيرا لأناس فقراء في منطقة ريفية فقيرة، بعض الشاي والسكر وقليل من المكرونة، بعض الملح، وتبغ مفروم وملفوف والوقود السائل الغاز المستعمل في مصابيح الإضاءة، وخبز من صنع خبازين محترفين أخذ ينتشر يغذي بطون من ليس لهم من يعد خبز الطابونة.

161

**ليلة العقارب:** دكاكين الريف كانت تبيع المواد الغذائية وتعد الشاي الأخضر لأي مجموعة من الزبائن تطلب ذلك، يحدث أن يجتمع أربعة أو خمسة من الفلاحين يرغبون في الراحة وتبادل المعلومات، فالمكان المناسب هو الدكان المستعد لذلك، آلة الشاي جاهزة، الحصر و(التوازير) مفروشة على الأرض، والشاي والسكر معروضان للبيع، إعداد الشاي ليس مشكلة صاحب الدكان يرحب بذلك وكذلك الزبائن.

موعد شرب الشاي في الدكاكين عادة يكون ليلاً، بعد صلاة العشاء وبعد انتهاء الفلاح من أعماله المتعددة والاطمئنان إلى أن البقرة تناولت عشاءها وهي تجتره في أمان.

من الذين يسهرون مع أبوبكر في دكانه بانتظام كل ليلة صديق قديم له أو زميل من عهد الدراسة في الكلية، كفيف البصر احترف المحاماة بنجاح في المحاكم الشرعية، ذكي، حاضر البديهة، عيناه مطفأتان ودماغه يشع. هو الشيخ بشير ابن الحاج.

صيفا تكون الجلسة محببة أمام الدكان، على حافة الطريق الرئيسية الحاجية، التي تفصل المقبرة عن الدكان بحوالي عشرين متراً. الأرض رملية ناعمة نظيفة مرشوشة بالماء تخفيضا لحرارة النهار، كان أول القادمين الشيخ الضرير بقامته الطويلة وعكازه الذي يرشده أقصر المسالك وأيسرها ليلا ونهاراً، حيّى وتمدد على الأرض مستندا على جدار الدكان، واكتمل العدد بعده بقليل، وطاسة الشاي الأولى المُرّة شبه جاهزة ستعدل مزاج الكثيرين وتعين على السهر، الليلة لم تكن مقمرة وتحتم الاستعانة بنور مصباح صغير فنار، بعيد عن المسترخين فوق التراب، قريب من كانون الشاي، كنت من ضمن الحاضرين كنت صبياً في إجازة مدرسية في زيارة لسانية جدي مع والدتي وإخوتي.

الليل ساكن والشفاه ترشف الشاي المر والحلو ومنها يدخل إلى جوف البشر ومن بين الشفاه، تخرج كلمات وكلمات تدور وتلف حول موضوع مازال شْغل الناس من القدم شغل الحقير والجليل حول النفس البشرية، وتصرفاتها فجورها وتقواها.

قطع هذا الهدوء صوت الشخص المكلف بتحضير الشاي صائحاً.. اقتل العقرب..اقتل العقرب فأسرع آخر وقتلها ببلغته وخيم الهدوء من جديد على المجموعة ولكن لم يدم طويلا، المقبرة مسكونة بالعقارب التي انتبهت إلى النور المنبعث من المصباح الصغير في الظلمة الحالكة فأخذت تتجه نحوه الواحدة تلو الأخرى واستمر الزحف، واستمر القتل من طرف من تصدى من المجموعة لذلك قتل حوالي عشرة، انتهى شرب الشاي و بإطفاء المصباح وتوقف زحف العقارب، وتواصل حديث الحاضرين.

كنت أشمئز كثيراً من منظر العقرب وكنت أخافها ولكن بعد تلك الليلة لا أقول إني أحببتها ولكن لم أعد أخشاها.

162 **<u>أنا وسوق الجمعة:</u>** تربطني بسوق الجمعة علاقات متنوعة عاطفية وحسية، سانية جدي في قبيلة أولاد الحاج، وسانية جدي تبعد من مركز سوق

الجمعة كيلو متر تقريبا، سميت البلدة بهذا الاسم لأن السوق الأسبوعي بهـا يـوم الجمعة، والدي كان موظفا في بلدية البلدة وسجلات إدارة النفوس في السابق تشهد بذلك، مدرسة سوق الجمعة تعرف والدي وتذكره، ملاصق للبلدة منـزل وسـانية الشيخ عبد الله العالم زوج إحدى خالاتي، على بعد خطوات جامع سيدي العريفـي، وبجنبه بيت أو بيوت آل العالم الشهيرة في المنطقة، وعميدها منذ فتـرة طفـولتي وبعدها الشيخ محمد أبو الأسعاد العالم مفتي البلاد، وابنه مختار صـديق الطفولـة والعمر، وشهرة فول سوق الجمعة اللذيذ بالملح والكمون الساخن شـتاء وصـيفاً، تنافس شهرة سيدي العريفي الولي الصالح.

يضاف إلى هذا كله أسواق بلدة سوق الجمعة. البلدة التي تـلازم ويلازمهـا الهدوء طيلة الأسبوع، يوم الجمعة تعج بالناس. كل الأرجل تتحـرك نحـو سـوق الجمعة، أرجل البشر و أرجل الدواب بعضها مركوب وبعضها للبيـع، وقطعـان الأغنام والماعز بدأت رحلتها منذ الليل من بادية العزيزية صوب سـوق الجمعـة. كثير من سكان طرابلس يولون وجوههم منذ الصباح الباكر نحـو سـوق الجمعـة البعض بنية التسوق والبعض بنية الفسحة، لحركة السوق وضجيجه جاذبية وإغراء لا تقاوم عند البعض، كنت من أولئك في العشرينيات، أرافق تارة والـدي وتـارة أخوالي، وتارة وحدي.

لكل سلعة أو مجموعة منها مساحة خاصة بها، تتـسع أو تـنكمش حـسب أهميتها، محاطة بسور ولها بوابات، ولكل بوابة حارس.

من موارد البلدة المالية الضرائب المختصة ببيـع البـضائع فـي الأسـواق المخصصة لها، المجلس البلدي يحدد قيمة الضريبة على كل بضاعة، مثلا على كل جمل يباع عشر ليرات وعلى كل بقرة 7 وعلـى كـل نعجـة 5 وهـذه الأرقـام افتراضية، هذه الضريبة تسمى تارة رسوما وشعبيا مكسا.

163

**البلدية تبيع مكس الأسواق:** البلدية تعلن في بداية كل سنة مزاداً لبيع مكس كل سوق من الأسواق، ويتقدم أفراد لهم خبره في المجـال يتنافـسون،

ويشتري أحدهم مكس سوق الحيوانات بمائة ألف ليرة سنوياً مثلا، يـدفعها علـى أقساط مقدما، تم يتولى هو وأعوانه حراس بوابات السوق جباية المكس المقرر.

المكاس أو ملتزم المكس تارة يربح وتارة يخسر، يتوقف ذلك على دراسـته للموضوع، وكفاءة أعوانه، ونزاهة حراس البوابات الذين لا يرحمون عادة أحداً من الفلاحين، والذين هم أيضاً يبغضون المكس و المكاس ويحاولون الإفلات منهم بكل الطرق. حركة السوق تهدأ وقت صلاة الجمعة ويفرغ السوق من رواده بعد ذلـك بساعة تقريباً، وينصرف حراس البوابات بما جمعوا من أموال وبعدها يخرج بعض الفلاحين العنيدين بدوابهم من السوق دون دفع المكس المقرر.

كنت منجذبا منبهراً مسحوراً بسوق الحيوانات أزوره كلما استطعت، جميـع الحيوانات الأليفة موجودة بالسوق، يحاول الحرس البلدي توزيعهـا مجموعـات، الإبل، البقر، الخيول والحمير، الغنم والماعز، الطيور بأنواعها والكلاب، ولكن هذا لا يمنع من تداخلها، إن أمكن فصل الأجسام عن بعضها، لا يمكن منـع اخـتلاط الأصوات، أصوات البشر مع الأصوات الأخرى تمتزج تارة وتتنافر أخرى.

صوت الإنسان، صهيل الخيل، خوار البقر، رغاء الإبل، نهيق الحمير، غثاء الغنم، صياح الديوك هديل الحمام، زقزقة العـصافير، فـي أذن عـشاق الطبيعـة سيمفونية إلهية وفي سمع الصوفية تسبيح لرب العالمين.

164 **بقداش هذه المباركة:** سبق وأن قلت إنه في العشرينيات لا بيع ولا شراء إلا بالمساومة، أو المماكسة وخصوصا في سوق البقر بسوق الجمعة، وكثيرا ما تسمع مثل هذا الحوار :

س – بقداش هذه المباركة ؟ مشيراً إلى بقرة معينة.

ج –100 ليرة. مثلا.

س – شنو سنها ؟

ج – رباع... أهي قدامك فرها ( أي اكشف عن أسنانها لتتأكد من عمرها )

س – هذا السعر كثير مش معقول.

ج – هذا اللي عطو مانحرموش.

وترجمة ذلك أن الشاري يريد أن يعرف السعر والثمن ويستكثر السعر ويراه غير مناسب، ويرد البائع أن الثمن المعروض عليه 100 ليرة، وأن عمر البقرة رباع وعلى المشتري التأكد بنفسه من ذلك، وأن السعر المعروض حقيقي غير مزيف. ويتدخل أحد السماسرة المتربصين، ويتطفل بعض الحاضرين ويحتد النقاش ويهدأ، والبقرة تنظر لهذا الفريق وذاك، لا تعرف عمّ يتحدثون وفيم هم فيه مختلفون، وأخيراً يصرح البائع بقوله إن شاء الله تربح معلنا إتمام الصفقه، ويستلم المبلغ نقداً ويحاول المشتري خصم مبلغ بسيط قيمة المكس دون فائدة.

ينفض الجميع ويتجه المشتري في الغالب نحو البوابة ليدفع المكس ويخرج، وتارة يبقى في ظل نخلة يراقب البوابة منتظرا غياب الحارس ليخرج بأمان موفرا ذلك المبلغ البسيط المفروض عليه.

## 165 محمود ينضم إلى قائمة أبناء الشهداء:

الحاج محمود رجوبة

فلاح من قبيلة أولاد الحاج، حفظ سورا قصيرة من القرآن في الكتاب، تعلم العمل اليدوي على الأرض مباشرة، خبير في أنواع الزبل السماد الحيواني، يعرف مصدر كل نوع منه والزراعة التي ينفع لها، كان مختبراً متنقلاً يعرف من النظرة الأولى ومن شم الزبل درجة جودته، عيناه تميلان إلى الزرقة، حركي، بشوش كريم، وأهم من كل هذا أنه تيتم صغيراً مباشرة بعد استشهاد أبيه سالم يوم الاثنين في معركة الهاني سنة1911، كان أبوه الشهيد يصرف بعض أمور في سانية أبيه فسمع صوت إطلاق النار، أدرك أن معركة نشبت بين الوطنيين والعدو الغاصب، أخذ بندقيته واتجه جريا صوب مصدر انطلاق الرصاص، نحو ربوه سيدي علي الهاني التي لا تبعد أكثر من كيلو متر من أولاد الحاج، انضم إلي صفوف المجاهدين اندمج في القتال، انتهت المعركة بعد العصر، الشهيد سالم لم يعد إلى أهله ومحمود انضم إلى قائمة أبناء الشهداء.

أمه خدوجة أخت جدتي فاطمة أم والدتي منى، كانت تُحدثنا ونحن صغار في العشرينيات، عن أبي محمود الذي خرج ولم يعد لأنه استشهد، مرت حوالي خمس عشرة سنة عن معركة الهاني، أمور كثيرة حدثت، نشبت وانتهت الحرب العالميـــة الأولى، ولد مصطفى منذ عشر سنوات، كبر مصطفى وكبر محمــود، مــصطفى صار صبياً محمود صار رجلا وتزوج.

التقيا صدفة في سوق الغنم بسوق الجمعة، مصطفى يمارس هوايته بزيـــارة السوق ومحمود الذي حج فيما بعد وصار يعرف بالحاج محمود كان اشترى عنـــزاً ويستعد للخروج من السوق، من الحديث معه علمت أنه جاء السوق خصيصا لشراء العنز التي سيذبحها مساء ويقسم لحمها على مجموعة من الأقارب والجيران وقــد تعود أن يقوم بهذه المهمة كل جمعة.

166 **البازين بالدجاج:** من ضمن أسواق ســوق الجمعــة ســوق اللحــم ويعرف بالمجزرة، عبارة عن حوالي عشرين دكاناً تعرض مختلف أنــواع اللحــم أكثرها غنم ثم لحم إبل ثم ماعز وقليل من البقر، لحم الدجاج المربى فــي حظــائر بالطريقة الحديثة لم يعرف بعد، الدجاج تربيه عائلة الفلاح بأعداد محــددة يتغــذى على ما يجده في المزرعة من حبوب وغيرها، يقال إنه ألذ من الدجاج المربى فــي الحظائر وفي عمارات من الأقفاص.

كان البازين بالدجاج من الأكلات التي تقدم في ولائم المناسبات ولعلية القــوم الحاج محمود جاء للسوق لغرض محدد، شراء العنز، لا مصلحة أخرى له فيــه، جاء مبكراً والجو رطب، ويريد العودة إلى سانيته قبل أن تشتد الحرارة، يريد صلاة الجمعة في جامع القبيلة، أنا أيضا اكتفيت بما شاهدته في السوق ورافقته في رحلــة العودة،وسأتناول طعام الغداء عند أخوالي في نفس القبيلــة. الطريــق ترابيــة، لا سيارات فيها، معظم الدواب المحملة بالبشر أو بغيرهم عائدة إلى مقارها.

الحاج محمود كان يجر العنزة، تارة يدفعها فتجري أمامه مــسرعة، وتـــارة تتسمر في مكانها، كنت أحاول مساعدته في إقناع العنــز بالــسير فــي الاتجـــاه

المطلوب، وبالسرعة المطلوبة ولكن دون فائدة، لغة التفاهم بيننا معدومة لا هي تعرف اللغة العربية، ولا أنا أعرف لغة الماعز، كنت حائراً في أمرها لماذا تسرع جريا ونحن وراءها شاكرون سعيها، ولماذا تتوقف، ظننت أن الحاج محمود الذي يرافق الماعز كل جمعة يعرف، ولكن اتضح أنه مثلي لا يعرف والعنز كذلك.

167 **اللحامية:** صلى الحاج محمود الجمعة في جامع المحلة، الخطيب أحد أقاربه، فلاح متفقه، الخطبة رتيبة كالعادة، وتناول الحاج محمود ما تيسر من الغداء واستراح، وبعد العصر مباشرة، اتجه ومثله حوالي عشرة من أقاربه وجيرانه إلى ظل شجرة التوت الكبيرة حيث العنز مربوطة وبدأت عملية اللحامية وهي باختصار، حيث إن اللحم لا يباع في القبيلة ولا يؤكل إلا مرة في الأسبوع يوم السوق، وتوفيراً في النفقات، يتطوع الحاج محمود بالقيام بالدور الرئيسي في اللحامية فيتجه إلى السوق، يشتري العنز المناسبة لحما وسعراً و يذبحها في حضور المستفيدين، وبراد الشاي على النار، والكل يحكي ما عنده، العنز بعد ذبحها وسلخها تقسم إلى أربعة أقسام: طوابق، والطابق قابل للقسمة على اثنين أو أربعة، ويوزع حسب الرغبة على الحاضرين: الرأس والبطن والجلد تباع بالمزاد على الحاضرين، وبعد طرح قيمتها من ثمن العنز يقسم الباقي على أربعة أو ثمانية فيعرف الجميع أن هذه المرة سعر الطابق أو نصف الطابق كذا ليرة أو فرنك، يدفع كل واحد ثمن نصيبه إلى الحاج محمود الذي يشعر بالرضى لأنه قدم خدمة لأقاربه وجيرانه، ولأنه مارس هواية من هواياته المحببة بارك الله في الحاج محمود وفي أمثاله.

اللحامية منتشرة في جميع الريف بنفس الطريقة، هناك من يتطوع وهناك السيدات اللاتي تستعد للطبخ، وهناك أطفال وكبار ينتظرون عشاء مساء الجمعة، كسكسي مع الخضروات واللحم في قصعة خشبية، إنها أكلة لذيذة حقا.

وإلى الملتقى في لحامية قادمة، وطاب الأكل وطابت أوقاتكم.

168 **العمروص:** بلدة سوق الجمعة ضمن قبيلة العمروص، من أين جاء هذا الاسم ؟ البعض يقول من عمرو بن العاص، والله أعلم.

وضمن قبيلة العمروص قرية العمروص أيضا ومن ضمنها حارة اليهود، وهي مجموعة من البيوت المتهالكة، أزقة قذرة صيفاً وشتاء ودكاكين تمارس فيها حرفة الحدادة منذ أجيال وأجيال. الحدادون كلهم يهود، جميع الذكور حتى الأطفال يعملون في دكاكين الحدادة، المعدات بدائية جداً، وإنتاجهم كذلك، سكاكين، فؤوس، محاش، أقفال، سلاسل، وبعض شبابيك النوافذ.

الفلاحون يستعملون المحاش وهي سكاكين على شكل هلال من حديد، لها مقبض من خشب بها أسنان صغيرة تحصد سيقان الأعشاب والزرع، تذوب أسنان المحشة من كثرة الاستعمال، وبدلا من رميها وإبدال أخرى بها جديدة، تؤخذ للحداد الذي يعيد تسنينها وتعود صالحة للاستعمال كأنها جديدة.

ما ذكر حول الريف هو وصف للحياة في العشرينيات، الصورة تغيرت تدرجيا بالكامل ولم يبق من المباني القديمة إلا الاسم، سوق الجمعة.

يهود العمروص نقلوا إلى فلسطين، السوق الشعبي نقل إلى مكان آخر ولا يزال محافظا على تقاليده وفوله وصخبه، يقاوم متحديا عوامل الزمن.

169 **الرغاطة:** كلمة كانت مستعملة كثيراً في الريف والبادية، غريبة لا أعرف مصدرها أو اشتقاقها، ربما الدكتور علي خشيم يعرف.

الرغاطة تعني العمل الجماعي التطوعي، الأعمال في الريف كثيرة ومتنوعة، بعضها سهل يقوم به الأطفال وبعضها يليق بالنساء، والأعمال التي تحتاج جهداً بدنياً من نصيب الرجال. بعض الأعمال يمكن توزيعها على ساعات النهار، وبعضها يجب القيام به في مدة زمنية محددة من مجموعة من الرجال، هذا العمل بهذه الطريقة يسمى رغاطة.

من أعمال الرغاطة نضح البئر، جز الغنم، دراس الشعير، دراس البشنة وهى نوع من الدخن، تطحن حبوبه السمراء وتستعمل مع دقيق الشعير في إعداد البازين.

يعلن المحتاج إلى الرغّاطة على أقاربه وجيرانه ظروفه، ويتحدد اليوم، يتفرغ المتطوعون لمساعدة القريب أو الجار، وعلى الداعي للرغاطة توفير الفطور والشاي والغداء. إنه نوع من العمل التعاوني يتم في جو مرح مع ترديد أهازيج بالمناسبة، الرغاطة زالت بزوال الريف القديم.

170 **نهاية فترة .. بداية أخرى:** بانتهاء سنة 1931 انتهت دراستي الابتدائية والثانوية، صار لي شهادتان، كان والدي مدرسا محترفاً ومحترما، أعمامي موظفون ووجهاء محترمون جداً، جدي الصويعي مدير الساحل تقاعد من مدة، كان يأمر فيطيعه مئات من سكان مُديريته، الآن يشكو من آلام في الساقين ويأمر ولا يكاد يطيعه العامل بالسانية، الفرجاني الذي مازال أعور وسمعه صار ثقيلا. زاد عدد إخوتي، أمور كثيرة تغيرت تدرجياً وفي بطء، الذي لم يتغير هو مسيرة الشمس، ماتزال تشرق الشمس يوميا بانتظام من الشرق وتغرب في الغرب، وكذلك الليل والنهار يتلاحقان منذ ملايين السنين في نظام بديع، سبحان من خلق فسوى.

مصطفى أيضا تغير، صار عمره خمس عشرة سنة زاد طولا، اخشوشن صوته ظهر شعر خفيف فوق شفته العليا أسفل أنفه الذي مازال في مكانه، صار مصطفى مكلفاً شرعاً، نظرة مصطفى للكثير من الأمور تغيرت دون أن يدري. صار يسأل نفسه الآن ماذا ؟ لقد انتهت الدراسة، وما العمل ؟

فتجيبه نفسه حائرة مرددة نفس السؤال، أدرك مصطفى أنه صار مكلفا شرعاً ولم يكلفه أحد بشيء، وصار يبحث عن جواب للسؤال الأول، صار يفكر، صار يبحث عن عمل.

أمام مصطفى، الوظيفة عمل، الزراعة عمل، التجارة عمل، وكذلك الصناعة.

لكن واقعيا لم يكن أي باب مفتوحاً أمام مصطفى، و أدرك مصطفى أن الأبواب لا تفتح تلقائياً بمجرد الوقوف أمامها ويجب الطرق عليها ويجب الاستئذان وتارة الاقتحام.

لاحظ مصطفى أن الفلاحين وربات البيوت ينتجون البيض، ولا يستهلكونه ويبيعونه للباعة المتجولين، أو في سوق الثلاثاء تارة، وسوق الجمعة عادة، وكان يصل إلى المستهلكين الميسورين من سكان المدينة بطريقة غير نظيفة وغير منظمة، لماذا لا يشتري مصطفى البيض الطازج الكبير وينظفه ويضعه في علب أو أطباق ويوزعه على العائلات، في بيوتهم مباشرة، عمل من الأعمال، خدمة شريفة لا تحتاج إلى رأسمال كبير، وربما يكون لها مردود، راقت لي الفكرة تحمست لها، توكلت على الله وبدأت.

والدتي كانت مشغولة بشؤون البيت ومسؤولياتها زادت بزيادة عدد الإخوة، الإخوة يلعبون ويدرسون، أخي علي كان قريبا مني ولكن لم يتم دراسته بعد، والدي كان يراقبني دون أن أشعر بذلك، كان يعلم أن سنوات المراهقة مهمة في تكوين شخصية رجل المستقبل، الإنسان في هذه المرحلة يريد نوعا من الاستقلالية، يريد أن يثبت لنفسه ولمن حوله أنه صار رجلا ولذا من الحكمة أن تتاح له الفرصة، يترك وشأنه دون إهمال.

واجهت مشاكل لم أكن أتوقعها. البيض مادة حساسة عرضة للكسر، وفي موسم الحر يتلف بسرعة، العائلات التي وصفتها بأنها ميسورة تساوم في سعر البيض، لا يهمها كثيرا النظافة وطريقة العرض بقدر ما يهمها انخفاض الثمن.

الباعة المتجولون منافسون خطرون، نقل البيض من سوق الجمعة إلى شارع الزاوية مشكلة، المسافة طويلة، لا دراجة لي، ولا عربة ولا حمار، توزيع البيض النظيف ونقله بكميات مشكلة، أنواع العلب والأطباق ومصدرها وسعرها مشكلة،

مشاكل كثيرة صغيرة وكبيرة. نسبة الربح بسيطة ويكفي أن كمية من البيض المشترى تكون فاسدة، أو يكسر بعض البيض أثناء النقل والانتقال حتى تكون الصفقة خاسرة.

و أخيرا صادف أن عرضت وبعت بيضا إلى عائلات إيطالية تسكن في عمارة بالمحلة، وعلمت في الغد من والدي أنهم كانوا زملاءه مدرسين في المدرسة، وقد أخبروه بذلك، وأظهر والدي نوعاً من عدم الارتياح ملاحظاً " ضاقت عليك الدنيا مالقيتش إلا المعلمين الطليان ؟ "، لم أعرف أنهم زملاء أبي، وحتى إن كنت أعرف ما العيب في ذلك ؟. نظرة والدي في تلك الفترة لتجارة البيض فيها شي من الإجحاف.عوامل متنوعة تجمعت جعلتني أوقف هذه التجربة الأولى.

172

**الخطوة الثانية:** سكان المحلة يأكلون (الدلاع) صيفاً، وأمام كل بيت كوم قشور (دلاع) تنتظر من ينقلها من عمال نظافة الطرق أو غيرهم، وقال مصطفى لماذا لا استفيد من هذه القشور كعلف مجانا لتسمين بقرة مثلا، أحد الأقارب له منزل خرب به حجرة يمكن الاستفادة منها دون مقابل، واشترى مصطفى بقرة من سوق الجمعة وربطها، وصارت موضع اهتمامه، يقوم مبكراً يجمع قشور (الدلاع)، قبل أن يجمعه غيره، وقبل أن يشعر به الجيران، ويصبح موضوعاً لتندرهم، مصطفى حامل الشهادتين ابن الشيخ فوزي يجمع قشور (الدلاع).

مصطفى كان يقاوم هذا الشعور، وفي حذر يجمع أقصى ما يستطيع من قشور، ينظفها بالماء ويقطعها قطعا صغيرة وينقلها مع سطل من الماء إلى حيث البقرة، البقرة تشرب وتأكل وتحرك ذيلها لطرد الذباب، وتنظف أنفها بلسانها الكبير، تنظر إلى مصطفى وتعيد، لا تفهم اهتمامه المتواصل بها، وكأنها تريد أن تقول: إن قشور (الدلاع) وحدها لا تكفي غذاء لبقرة مثلها، حتى ولو لا تحمل أي شهادة وليست بنت وجيه، مصطفى رغم اهتمامه بها لم يستوعب مغزى نظراتها. واستمرت هذه الرعاية والعناية يومياً، بدون كلل، بعض السكان المبكرين لاحظوا

أن بن الشيخ فوزي يجمع القشور، ولكل منهم مشاغلهم واحتفظوا بما علموا لأنفسهم.

باقتراب فصل الخريف أخذ الصيف يستعد للرحيل، وكمية قشور (الدلاع) في الزنقة صارت تتناقص، والعلف المجاني بالكميات المطلوبة ينفد، العلف غير المجاني مكلف، وباع مصطفى البقرة وكان هناك ربح بسيط، لا يهم، هناك أرباح غير منظورة، منها اكتساب لخبرة جديدة، وصقل للنفس بالمثابرة، الخطوة الثالثة متى تكون وفي أي اتجاه ؟.

173 **الخطوة الثالثة:** كما هو معروف لعمي نوري سانية في أطراف المحلة بها كثير من أشجار الزيتون المحملة بالثمار، التي لاتزال خضراء، ولكن ستسود وتنضج مع قدوم الخريف.

أسراب الطيور (المقر) المهاجرة ولا أدري من الجنوب أو من الشمال صارت تحوم حول أشجار الزيتون وتحط فوقها. الإنسان يأكل ثمار الزيتون خضراء وسوداء بعد تخليلها، لماذا لا تقلده الطيور وتتغذى بها مثله وفعلت دون تخليل، فطاب لها ذلك وستواصل.

عمي نوري مالك المزرعة صار يفكر كيف يجمع هذا المحصول الوفير. هناك طريقتان متعارف عليها، الأولى بعمال يتقاضون أجراً يوميا وهي طريقة غير مرغوب فيها من أصحاب المزارع لأن أجرة العامل محددة ولا حافز له على العمل، والإنتاجية قليلة، الطريقة الثانية الاتفاق مع شخص أو أشخاص يقومون بجمع المحصول في مقابل حصة من الإنتاج حباً أو زيتاً بعد العصر، هذه الطريقة مفضلة أكثر من المالك والأجير.

مصطفى أيضاً كان يفكر لماذا لا يتولى هو هذا العمل، وتكون الخطوة الثالثة هي الاتفاق مع عمه نوري على جمع الزيتون بالحصة.

باح لأخيه علي بما في نفسه، ولكن أخاه كان في بداية السنة الأخيرة من الدراسة الابتدائية ولم يفده برأي، تحدث مع والده في الموضوع الذي استمع باهتمام

وبقي صامتاً برهة قلب فيها الموضوع بسرعة تفوق سرعة الكمبيوتر الآن، وتبين له أن المسؤولية كبيرة، وخبرة مصطفى في هذا المجال معدومة، والعلاقة مع أخيه نوري جيده جداً ولا يريد أن تخدش بسبب مغامرات مصطفى.

لاحظ مصطفى أن أباه تباطأ في التعليق فأعاد شرح فكرته من جديد وكان رأي والده أنه يستحسن مفاتحة عمك نوري في الموضوع مباشرة.

عمي نوري سألني هل لدي خطة للعمل؟ فشرحت له الخطة جملة وتركت التفاصيل إلى حينها، طلب مني التفكير من جديد ومراجعته بعد يومين، وأدركت أنه يريد تشجيعي والوقوف بجانبي في هذه الخطوة الثالثة.

174

**مبروك توكل على الله:** عمي نوري تحادث مع والدي في الخصوص وقرر تكليفي بالعمل، وإتاحة فرصة جديدة أمامي للعمل واكتساب خبرة ومال، وإذا حدث ما لم يكن في الحسبان وارتبك مصطفى فإن عمي موجود لإنقاذي من الغرق.

عدت لعمي في الموعد فصافحني قائلا مبروك توكل على الله، وكان مبتسماً كان يصافح باكورة الجيل الجديد من عائلة السراج، سررت بذلك كثيرا وتحمست وباشرت العمل، والدي اطمأن كثيرا لما حدث، ابنه مصطفى صار يتصرف تصرف الكبار، وصار محل ثقة عمه. الفلاح المقيم في السانية له أقارب لهم خبرة في جمع الزيتون مستعدون للعمل بالحصة معي، كل مرطة يجمعونها يتقاضون عليها عدداً من الفرنكات ( المرطة = 20 كيلو، والفرنك هو الليرة الإيطالية ).

أخي علي استهوته الفكرة التي صارت خطة وعملاً رغم انشغاله بالدراسة التي طالت ويريد التخلص منها، والدتي لها اختصاصاتها داخل البيت ولا تريد إقحام نفسها في اختصاصات الرجال وابنها مصطفى والحمد لله صار منهم.

تقدم الخريف ونزل أول المطر ونضجت ثمار الزيتون ومصطفى ومعه فرقة العمل تنتقل من شجرة إلى أخرى تجمع ما بها من زيتون في لطف دون الإضرار بالشجرة و أغصانها التي ستحمل ثمار السنة المقبلة إن شاء الله.

إخوتي تحت إشراف والدي كانوا يشاركون يوم الجمعة يوم العطلة المدرسية في هذا المهرجان ويتبارون في جمع أكبر كمية ممكنة.كلما تجمعت كمية مناسبة من الزيتون نقلت إلى معصرة عائلة اسبينللي الإيطالية في شارع سيدي خليفة سانية الخوجة.العمل يتقدم، المشاكل بسيطة يتم التغلب عليها بسرعة والموسم يبشر بخير.

175 **ليلة المعصرة:** عائلة اسبينللي تتكون من إيطاليين أخوين متزوجين من أختين، صهرهما بيترو خياط له دكان في المدينة القديمة، شارع سيدي درغوث أمام كلية عثمان باشا، يقيم في طرابلس منذ عهد الأتراك ويتكلم العربية والتركية فضلا عن الإيطالية يعرف عمي نوري وهو خياط لبدله، وقد عرفته شخصيا لطيف هادئ، الأخوان فلاحان ماهران في زراعة الخضروات والمشاتل، أجرا سانية عائلة الخوجه وأقاما بها معصرة حديثة لعصر الزيتون، عمل موسمي يزيد دخل العائلة.

كان عمي سابقا يستفيد من معصرة عائلة القلالي القديمة لكن أمورها ساءت، أهملها أصحابها، فأهملها المستفيدون منها وعوضت بمعصرة اسبينيللي.

نقلنا إلى المعصرة على فترات كل الزيتون الذي جمع، وقد عصر بعد وصوله دون إبطاء؛ لأن التأخر في عصر الزيتون بعد جمعه يزيد في نسبة الحموضة في الزيت وهذا أمر غير مرغوب، الزيت المجمع على فترات يخزن في المعصرة حتى نستلمه دفعة واحدة، وهذا يساعد على تنقية الزيت مما بقي به من شوائب، والثقة متوفرة في المعصرة و أصحابها.كان يوم الخميس وقد تم شحن آخر كمية للمعصرة، وتقرر عصرها ليلا، وقررت مع أخي علي أن نسهر في المعصرة، أن نتابع عملية العصر ونستلم زيتنا المخزن في الغد.

الزيت بكميات كبيرة كان يحفظ في أوانٍ زجاجية كبيرة حمولة 30 لترا تقريبا، اسمها "ميزانا". كانت كلها تصل طرابلس بحراً مليئة بالخمر الصقلي، ثم تستعمل في حفظ الزيت وكان لعمي نوري أعداد منها استعملها في سنوات سابقة.

**مراحل عصر الزيتون:** جو العمل في المعصرة كان محبباً لي ولأخي علي، رائحة الزيتون والزيت تملأ الجو، العمل متواصل ليلا ونهاراً، يتغير الدواب والعمال والعمل مستمر، جميع العمال عرب من سكان المحلة نعرفهم بالاسم. الزيتون يمر في المعصرة على أربع مراحل يغسل بالماء يطحن باسطوانات حجرية يديرها بغل قوي مغمض العينين يلف في دائرة مفرغة، ثم ينزع الزيت بالضغط الشديد في مكبس آلي، ثم يفرز الزيت بفراز آلي عن غيره من السوائل، ويحفظ في انتظار تسليمه لصاحبه.

صاحب المعصرة يتقاضى العشر مقابل عملية العصر، سهرنا حتى ساعة متأخرة في المعصرة، قدمت لنا عائلة اسبنيللي عشاء بسيطا قوامه مشتقات الألبان والزيتون المخلل، الشاي كان يقدم للجميع عمالا وضيوفا بسخاء.جزء من سقف المعصرة صاج والليلة كانت ممطرة، قطرات المطر كانت تنقر على فترات على السقف المعدني في إيقاع لطيف مما يزيد الجو العام للمعصرة رونقاً، كنت أنعم به كثيرا مع أخي علي.

عدنا صباح الغد الجمعة إلى المعصرة لنقل نصيبنا من الزيت إلى بيتنا في الزنقة الوسطية، على عربة للمعصرة يجرها بغل كنت مع أخي علي وراءها فخورين مزهوين، المسافة تقل عن كيلو متر ولكن الطريق في قسم منه غدير تجمعت به مياه الأمطار، وبه بعض الأحجار المغمورة، أثناء المرور بالغدير اهتزت العربة بعنف واصطدمت "الميزانات" الزجاجية المغلفة بضفير الحلفاء مع بعضها، وتكسرت إحداها وساح ما بها من زيت واختلط بماء الغدير.

كانت صدمة قاسية لي ولأخي علي لم نكن نتوقعها، تأثرنا كثيراً وتأثر معنا سائق العربة وشعر بالحرج الشديد.توقف وسط الغدير ينتظر تعليمات مني ومن أخي علي فطلبنا منه مسيطرين على اضطرابنا، مواصلة السير في حذر وخرجنا بحمد الله من الغدير دون خسارة أخرى.علم عمي نوري ووالدي وعلم أفراد العائلة بما حدث فأسفوا لذلك واجتهدوا في تخفيف أثر ما حدث على مصطفى وعلي.

موسم جمع الزيتون وعصره كان ناجحا وكانت الخطوة الأولى بالنسبة لمصطفى على طريق الخير.

177 **دولة الظلم ساعة:** انتهت فترة العشرينيات وانتهت طفولة مصطفى، وانتهت دراسة مصطفى النظامية، وفي بداية الثلاثينيات أخذ مصطفى يتلمس الطريق لعله يهتدي إلى الطريق الموصل إلى رزقه المقرر له من الكريم الرزاق.

على الجبهة الوطنية الأمور ساءت كثيرا، فقد قرر موسوليني حاكم إيطاليا منذ عشر سنوات احتلال المستعمرة ليبيا بالقوة المتوفرة لديه وأمكنه ذلك، وقاوم الوطنيون بشراسة، وبطش بهم غراسياني قائد الحملات العسكرية، وهاجر من هاجر ومات من مات، وقتل من قتل من الزعامات المحلية، وآخرهم البطل الشهيد الشهير عمر المختار الذي أعدم شنقا في شهر9/ 1932 بعد مقاومة مريرة دوخ خلالها القائد الإيطالي ومن معه من كبار الضباط وجنود مدججين بكل الأسلحة الحديثة. إعدام الشهيد عمر المختار كان صدمة شديدة العنف على نفسية الشعب.

إيطاليا كانت تريد قتل رموز المقاومة وبالأخص قتل روح المقاومة في نفوس الشعب الذي وإن أصيب بالإحباط، كانت غريزة حب البقاء تمده بإحساس يقاوم الهزيمة والانهيار، وتولد داخله الإيمان، وبأن دولة الظلم ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة. وإن أعدم زعيم فالأمة العربية التي أنجبت هذا الزعيم قادرة على إنجاب العشرات من الزعماء وإن الله نصير المظلومين.

إيطاليا كانت تطلق كلمة ليبيا كاصطلاح جغرافي لهذا الجزء من أفريقيا الشمالية بحدوده المعروفة، أما سياسياً فهناك إقليمان: طرابلس ولها والٍ، وبرقة ولها والٍ، وكلاهما تابع لوزير المستعمرات. في آخر العشرينيات، عُين المارشال "بادوليو" وهو أحد القادة الكبار العسكريين في إيطاليا والياً على طرابلس، وقائدا عاما للقوات المسلحة في طرابلس وبرقة، وذلك بهدف محاصرة المقاومة الوطنية

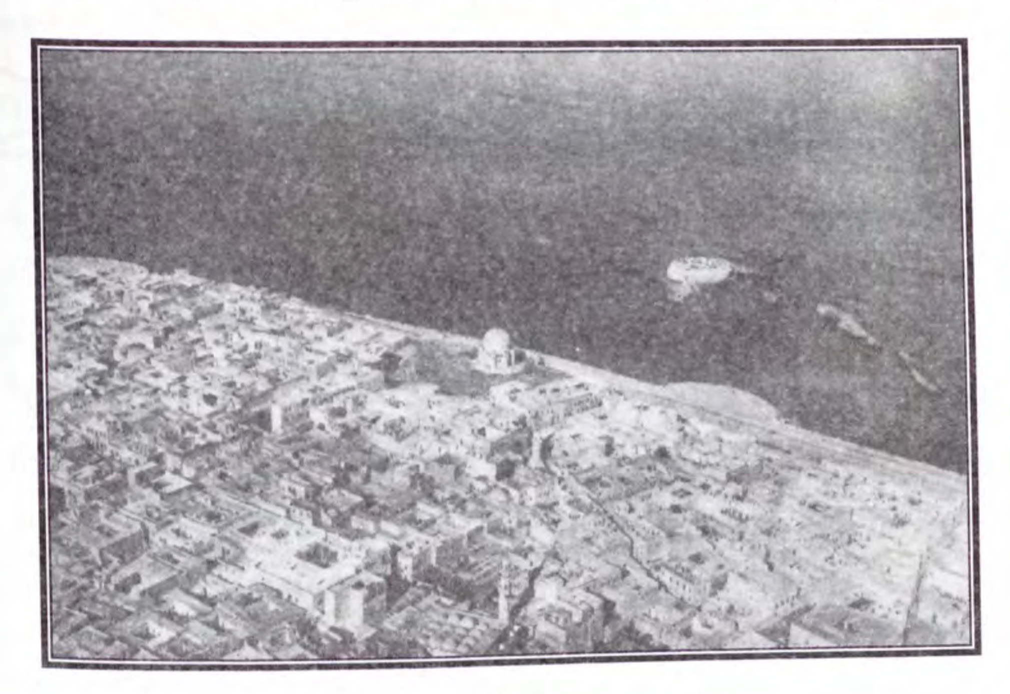
والضغط عليها بكل الوسائل وإنهائها. بانتهاء المقاومة في أوائل الثلاثينيات انتهت مهمة المارشال بادوليو وغادر ليبيا وحل محله مارشال الجو "بالبو".

178

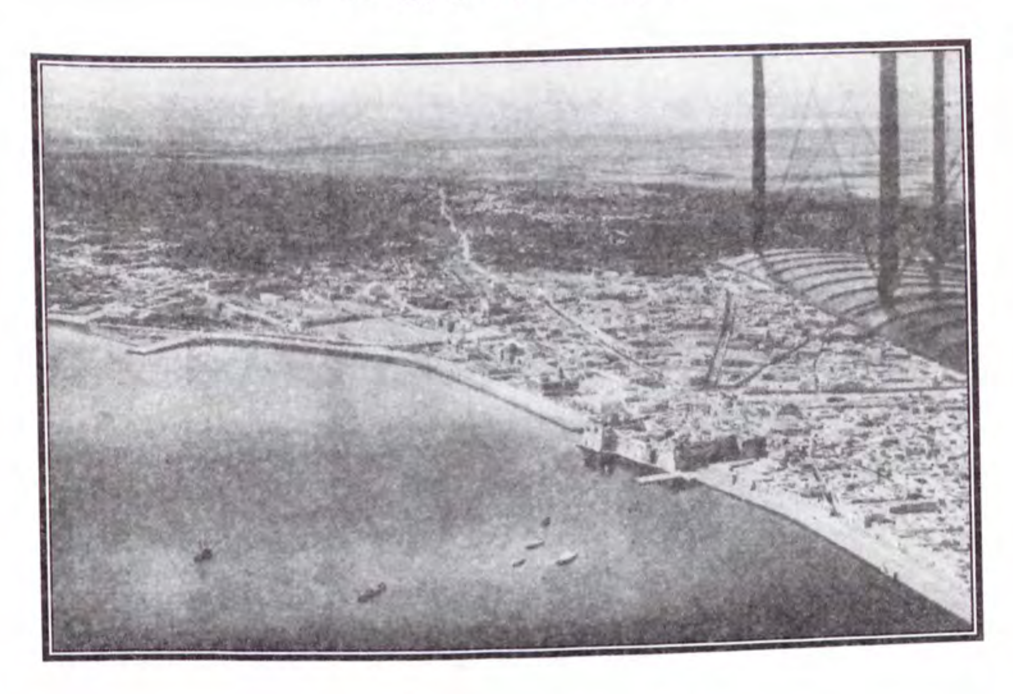
**موسوليني وإيطاليا والعالم:** موسوليني قائد الثورة الفاشية كان يريد أن تشمل الثورة جميع مظاهر الحياة الإيطالية، كان للفاشية تقويمها، ونشيدها وتحيتها ولغتها في التخاطب، ولباسها ومؤسساتها، وأهم من كل ذلك تفجير ثورة في كل إيطالي حتى يرسخ داخله إيمان بأنه ابن روما، وروما هي امتداد للعهد الروماني الذي خضع له كل العالم المعروف قبل ألفي سنة، وأن لروما الحديثة في العهد الفاشي الحالي رسالة كما كان لها في الماضي وهي قيادة العالم والبشرية نحو الحضارة والازدهار، وأن على إنجلترا وفرنسا اللتين سيطرتا وحدهما على أوروبا والعالم بدون مبرر،عليهما إفساح المجال لإيطاليا سلما وإلا..........

خطب موسوليني الملتهبة من شرفة مكتبه في ميدان البندقية في روما، كانت تملأ الجو، كان يقصد منها في الأساس صقل الإيطالي من الداخل، وإعداده للدور الجديد الذي ينتظره، كما كان يقصد منها الضغط على الدول الكبرى المتحكمة في العالم حتى تكف عن اعتبار إيطاليا دولة من الدرجة الثانية، والتعامل معها في المحافل الدولية كدولة كبرى.

موسوليني كان يهدد ويتوعد، وساسة العالم كانوا مشغولين به، وبخطبه في تلك الفترة من التاريخ. منطق موسوليني هو أن الدول العظمى عظيمة بصناعاتها، وبجيشها وبمستعمراتها، وإيطاليا لها صناعة متطورة، ولها جيش قوي، ومستعمراتها قليلة ليست مثل مستعمرات بريطانيا وفرنسا، فلماذا لا تتنازل لها فرنسا عن تونس، وإنجلترا عن عدن، ولماذا لا تستولي إيطاليا على الدولة الوحيدة المستقلة في أفريقيا، الحبشة؟ الحبشة دولة متخلفة لها ملك يلقب بالإمبراطور أرضها خصبة ممطرة وبها أنهار "أفضل من ليبيا بكثير"، جبالها مليئة بالمعادن اللازمة للصناعات الحديثة محاطة بمستعمرتين إيطاليتين، إرتيريا والصومال، شعبها مقهور من ملكه وحكامه الإقطاعيين، ومن واجب إيطاليا وحقها تحرير الشعب الحبشي المسكين مما هو فيه من بؤس وجهل وفقر.



غربي مدينة طرابلس جواً 1933



شرقي مدينة طرابلس جواً 1933

وبهذا الأسلوب، أخذ موسوليني يهيئ الرأي العام في الداخل والخارج لغزو الحبشة. وكان يفتعل المناوشات على حدود الحبشة، مدعيا أن الحبشة معتدية، الخير بالخير والبادئ أكرم والشر بالشر والبادئ أظلم.

179 **بالبو:** بالبو هو الوالي الجديد منذ أول شهر 1/ 1934 لليبيا الموحدة. ليبيا كانت وحدة جغرافية، صارت الآن وحدة سياسية، صارت ولاية واحدة كبيرة عاصمتها طرابلس، لها حاكم هو مارشال الجو بالبو.

بالبو أحد أقطاب الثورة الفاشية الأربعة، طور السلاح الجوي الإيطالي وقاد سربا من 27 طائرة من إيطاليا إلى البرازيل، في رحلة متواصلة دون توقف. وفي ظروف بداية الثلاثينيات كانت أعجوبة، ومفخرة لإيطاليا، كان حركياً، يحب الحياة ومباهجها، هناك من يقول إن موسوليني وجد فيه رفيقا مزعجا، ولذا عينه أو أبعده إلى ليبيا. أعطاه صلاحيات واسعة، وميزانية بدون حدود، المهم أن ينشغل في ليبيا ويبتعد عن روما، وآخرون ينفون كل ذلك، ويؤكدون أنه يعمل في انسجام مع رفيقه ورئيسه ضمن خطة مدروسة متفق عليها.

أبرز ما في الخطة، وأذكره بدون ترتيب، هو أن بالبو أراد أن يشعر الجميع بوجوده، فاختار القلعة "السرايا الحمراء" مقرا لمكتبه كحاكم عام لكل ليبيا، ألم يتخذ أقطاب الحكم القرامنللي عندما كانت ليبيا مستقلة أو شبه مستقلة عن إسطمبول القلعة مقرا لهم ورمزا لحكمهم ؟، وبنى قصرا فخما في نهاية أهم شوارع طرابلس، مقرا له ولعائلته أقام فيه ولائم وحفلات رقص وغيرها لافتة للنظر. ربط روما وطرابلس بخط جوي مائي، وفي كل مساء تهبط طائرة على مياه الميناء أمام الفندق الكبير ويجتمع جمهور من الناس، يستمتع بمنظرها تهبط وتقلع.

العلم الإيطالي مثلث الألوان، رمز للوطن والسيادة، يجب أن يكون محل احترام الجميع وبطريقة عمليه فقرر أن العلم الذي يرفع صباحا في صمت على سارية منتصبة على السرايا الحمراء، يجب أن ينزل مساءً في احتفال يشترك فيه جميع السكان، وذلك بأن تنطلق كوكبة من الجنود الليبيين بسلاحهم الخفيف وأبواقهم

تجري تارة، وتمشي أخرى، و تعزف في الأبواق، حتى تصل ساحة السرايا، وفي اللحظة المقررة ينطلق دوي مدفع شديد، يسمع في المدينة وضواحيها والمطلوب ممن يسمعه أن يقف برهة أينما كان إجلالا للعلم الذي كان ينزل في رفق من على السارية.

180 **خطب موسوليني:** عندما يقرر موسوليني إلقاء خطاب هام، وكل خطب موسوليني هامة، من شرفة مكتبه في روما،كان الفاشي وكل الإيطاليين فاشيون، يجتمعون في أهم ميادين المدن، يستمعون لخطب الزعيم. ليبيا تابعة لإيطاليا، وبعد سنوات مقبلة ستكون جزءا منها، ولذا يجب على سكان المدن، والقرى في ليبيا أيضا، الاحتشاد في الميادين الرئيسية لاستماع خطب موسوليني، كانت المؤسسات الفاشستية تتجمع بأعلامها وطبولها في ميدان السرايا الحمراء، وكان جمهور كثير من الإيطاليين والعرب يتجمع امتثالا أو فضولا، وكنت من ضمنه أريد أن أعرف ما يقوله ويقرره الزعيم وانعكاسه على أموري الخاصة، كنت أفهم اللغة الإيطالية، لقد درستها، وكنت أقف الساعات الطوال أستمع مثل غيري أنفعل وأهتف. لم تكن لنا أجهزة راديو خاصة في بيوتنا.

موكب الوالي بالبو من قصره إلى السرايا الحمراء والعكس يتم في فخفخة وفي عربة فخمة تجرها أربعة خيول، ويحيط بها حرس شرفي بملابس زاهية على خيول، كانت أمور مظهرية ربما كانت بسيطة، لكنها تشعر الجميع أن عهدا جديدا بدأ في المستعمرة وصف بأنه عهد التعمير.

يجب أن تكون لليبيا الموحدة جغرافيا وسياسيا شبكة طرق مناسبة، وبالخصوص طريق ساحلية تربط طرابلس ببنغازي، وتربط أقصى نقطة على الحدود الغربية بأقصى نقطة على الحدود الشرقية، وكانت طريقا طويلة حديثة، افتتحها موسوليني شخصيا في احتفالات ضخمة، اشترك فيها معظم صحفيي العالم.

181 **سياسة خداع العرب:** كان على الولاة السابقين القضاء على المقاومة، وانتزاع الأراضي القابلة للزراعة من القبائل العربية والأفراد، وتوزيعها

على الشركات والمستثمرين الإيطاليين الكبار، على شكل حيازات بقصد الاستصلاح والاستزراع. بالبو أحدث مؤسستين متخصصتين في تقسيم الأراضي إلى مزارع صغيرة، مساحتها حوالي عشرين هكتاراً، بعضها مروي وزودها بكل المرافق من بئر وكهرباء وشبكة ري ومنزل مناسب مريح، تمهيدا لنقل آلاف العائلات من الفلاحين الإيطاليين لتعمير ليبيا الإيطالية طبقا لأحدث الطرق الزراعية.

كما يجب الاهتمام بالسكان العرب المحليين حتى لا يكونوا مصدر إزعاج للخطة ويكونوا عنصرا مساعدا كبقية الدواب من إبل وخيول وغيرها، وأن يجند منهم ويدرب أقصى ما يمكن تجنيده من شباب استعدادا لغزو الحبشة المقرر وإن لم يحدد موعده، كل ذلك في جو سياسة دعائية إعلامية مضللة لخداع الرأي العام الليبي والعربي وإيهامه بأنه وقد تم استتباب الأمن في كل أرجاء ليبيا فإن خطة تنموية شاملة ستطبق يستفيد منها جميع السكان الّذين يؤمنون بالمبادئ الفاشية وينعمون بالعيش الهنيء الذي لم يعرفوه من قبل في حماية الدولة الإيطالية الكبرى وفي ظل علمها الخفاق...الخ الخ، كلام وكلام للتخدير وذر الرماد في العيون.

182 **تجنيد الليبيين:** إيطاليا منذ السنوات الأولى للاحتلال لم تفرض التجنيد الإجباري على الليبيين، كان تجنيدا تطوعيا بعقود في سلاح المشاة والفرسان والمدفعية والهجانة.كان العقد لمدة سنتين قابلا للتجديد، مقابل راتب شهري. الشعور العام وخصوصا لدى الطبقة المستنيرة وليس بالضرورة المثقفة، كان يرفض التعاون مع المحتل إلا مكرها، وكان التطوع في الجيش الإيطالي تعاونا فاضحا، كان يأنف منه الجميع ويستنكرونه والبعض يراه كفرا، حتى إنهم في التعبير الدارج يقولون للمجند: إنه نزل في الجندية، ولاحظ كلمة نزل وما تحمله من معنى الهبوط والانحطاط، ربما كان تعبيرا عفويا غير مقصود ولكنه وفي نظري يحمل معنى عميقا، مع كل ذلك كان هناك مجندون متطوعون كثيرون حاربوا وماتوا في سبيل الطليان ولو سألتهم عن السبب لكان جوابهم الاضطرار.

تمكن الإيطاليون من تجنيد نوع من المليشيات من بين رجال القبائل تحت قيادات محلية موثوق بها، لا يرتدي أفرادها اللباس العسكري المعروف، ويجندون لفترة غير محددة ربما تكون للقيام بحملة معينة، واستغلوا وأججوا الحقد والنزاعات بين القبائل، والخلافات المذهبية، والفوارق العرقية. كان عدد أفراد الفرق المسلحة حوالي 300 شخص وتعرف بالاسم الإيطالي "باندا" واشتهر منها "باندة خريبيش".

الجندي المتطوع العادي إذا أظهر تفوقا يرقى إلى رتبة "ممتاز" ثم إلى رتبة "بلوك باشى"، وهي رتبة تركية، ثم "شومباشي" رتبة تركية محرفة، و كان كل الضباط إيطاليين، هذا ما كان الوضع عليه حتى قرر الوالي بالبو فرض التجنيد الإجباري على الليبيين، واعتبره شرفا يمنح لهم، وكون لجانا من وجهاء كل محلة وقبيلة مع الشيخ والإمام لإعداد قوائم اللائقين للتجنيد بوجه السرعة، كان شيخ محلة شارع الزاوية الشيخ الطاهر بن لطيف وإمامها عمي الشيخ خيري السراج، وكان والدي الشيخ فوزي السراج الوجيه أحد أعضاء اللجنة.وكنت أنا مصطفى وأخي علي من اللائقين للتجنيد في نظر السلطات الإيطالية ووقع مصطفى وأخوه علي ووالدهما في مأزق كبير.

183

**ما العمل يا شيخ فوزي:** وجد الشيخ فوزي نفسه وعائلته في مشكلة كبيرة، عائلة السراج معروفة على مستوى المحلة وما حولها وولداه مصطفى وعلي لائقان للتجنيد سنا وبنية ومظهرا، هو وأخوه خيري عضوان في لجنة التجنيد، ولا سبيل للإخفاء أو التستر. فلكل رجال المحلة أبناء، ولا أحد يرغب في تجنيد أبنائه، والسلطات بالمرصاد.

التجنيد الإجباري مشكلة كبيرة بكل المعايير، عائلة السراج كغيرها تأنف من مجرد فكرة التجنيد، ويحلم مصطفى وعلي ككل الشباب بمستقبل زاهر بعيد كل البعد عن واقع البلاد، ولم يخطر ببالهما أنهما سيكونان في خلال أسابيع أرقاما في جيش من النكرات. مصير المجندين معروف مسبقا، الضياع معنويا وجسديا، سيشحنون إلى الحبشة حيث يقاسون ويلات الحرب، ويموتون في صحارى وجبال

الحبشة ولا من يدري بهم،يعود من يعود منهم مشوها وهذا ما حدث فعلا بعد سنوات.

تشاور الشيخ فوزي مع أبنائه ومع إخوته ومع شيخ المحلة أو مع أصدقائه خصوصا، مصطفى أفندي القلالي عاشق الحساب والرياضيات، وبشير أفندي الشاملي عاشق الجندية، وقد اتفق الجميع على أنها ورطة كبيرة، وأخيرا ظهرَت فكرة، لا أعرف صاحبها تقول لماذا لا يتطوع مصطفى وعلي في سلك الضابطية "الشرطة العسكرية" بعقد لمدة عامين، فتطوعهما يعفيهما من التجنيد الإجباري، ومدرسة الضابطية في المحلة على بعد خطوات من منزلنا، والدراسة ستكون فيها ستة أشهر، ومجال العمل بعد التخرج سيكون طرابلس وفي أسوإ الفروض في بلدة داخل ليبيا، والأهم هو الابتعاد والتخلص من شبح الحبشة.

184 **طوق الحياة:** فكرة على بشاعتها في ظروف سابقة، صارت طوق النجاة الوحيد من الخطر المحدق، وتروض وتطوع مصطفى وعلي.وتمكن الوالي بالبو من تجنيد وتدريب فرقة ليبية قوامها 35 ألف شاب، أبحرت في صيف سنة 1935 على بواخر إلى الحبشة في مهرجان رسمي كبير، عاد منهم القليل ممن كتب له النجاة مشوها بائسا.

غراسياني أباد قبل سنوات آلاف الليبيين في معتقلات، حشد فيها قبائل بكاملها بحجة محاصرة المقاومة في الجبل الأخضر. و أباد بالبو آلافا من الشباب الليبي بعد أن منحهم شرف التجنيد الإجباري، وشحنهم إلى الموت في الحبشة دفاعا على إيطاليا وهيبتها، وحتى يضاف لقب جديد لملك إيطاليا، هو إمبراطور الحبشة.

**ومن لم يمت بالسيف مات بغيره تعددت الأسباب والموت واحد**

185 **الجنسية الإيطالية الخاصة:** في عهد الوالي بالبو، وبعد احتلال الحبشة وإعلان الإمبراطورية الإيطالية، وتمادياً في سياسة تضليل العرب، والضحك على الذقون ظناً منهم أن العرب سذج أغبياء، تفتقت ذهنية كبار الساسة

الايطاليين على منح الجنسية الإيطالية الخاصة بالليبيين المسلمين. وقسمت ليبيا إلي شمال، وبه أربع محافظات هي طرابلس و مصراتة، بنغازي ودرنة، ألحقت بوزارة الداخلية على أنها أرض إيطالية، وإلى جنوب ليبيا الذي أبُقي تحت حاكم عسكري، وألحق بوزارة إيطاليا التي وراء البحار.

وكلف المارشال بالبو حاكم ليبيا العام بإخراج المسرحية في جو من التطبيل والتزمير سنة 1938.

وقدمت الجنسية الجديدة، وكأنها حدث تاريخي هام في حياة الليبيين الذين وصفوا بالمسلمين تحاشياً لكلمة العرب التي تقرر تجاهلها، والقضاء عليها لأنها تجر إلى الجامعة العربية والقومية العربية وما ينتج عنها من مضاعفات.

الجنسية الجديدة لا تشمل جميع السكان جملة، ولكن تمنح لمن يتقدم بطلب تحريري راجياً الحصول عليها إمعاناً في التضليل، وأعطيت قيمة وهمية لا وجود لها، وألزم الأعيان بطلبها، و قام الأعيان بالدور المطلوب منهم في المسرحية دون اقتناع، ولم يحصل المتمتع بها على أية مزايا، وقيل كلام كثير مبهم حولها، ولكن لم يتحقق شئ من ذلك لأن إيطاليا من حسن الحظ دخلت الحرب العالمية الثانية التي نشبت في أوروبا بين ألمانيا وإنجلترا وفرنسا. وانهزمت إيطاليا فيها ونسفت كل أحلام إيطاليا التي انسحبت من ليبيا، واحتلها الإنجليز تمهيداً لتحررها.

186 **مصطفى وعلي أرقام:** مصطفى و علي منذ دخولهما إلى ثكنة الضابطية صارا أرقاماً، مصطفى 4494، وعلي 4495، التغيير شامل، فجائي وسريع، الجو العائلي والحنان والرتابة وأحلام اليقظة، كل ذلك تلاشى. وحل محله الضبط والربط، النظام والطاعة، ومحو الشخصية والخشونة والعنف، كنا في بيتنا ننام على فراشات (جمع فراش) من الصوف أو من القطن أو القش، غير مهم، ولكن المهم أنها فراشات على سدة، أما الآن فالنوم على حصير فردي والمعروف بالتازير على الأرض مباشرة، في عنبر كبير وواسع، عرضه حوالي 10 أمتار وطوله حوالي 30، وبه حوالي 50 طالباً من الزابطية، لكل واحد حيز محدد بجنب

الحائط، وفوقه رف مثبت في الجدار تحت الشبابيك الواسعة العالية، وفوق الـرف صندوق بداخله توضع جميع الملابس وما يحتاجه الجنـدي مـن أشـياء بـسيطة وضرورية. وتحت الصندوق وعلى ارتفاع متر ونصف تقريبـاً تعلـق الأسـلحة، البندقية والمسدس والسيف. الغطاء عبارة عن بطانيتين من النوع الرديء المستعمل في القوات المسلحة، ومحدودتي المساحة، وخصوصاً بالنسبة لي ولعلي، لأننا كنـا فوق الطول الاعتيادي، المخدة لا وجود لها، أتوسد أي حاجة، أتصرف. التازير في النهار يلف بطريقة معينة ويبقى على الأرض بجانب الحائط.

كل شيء بنظام، ومحدد، وتحت إشراف متواصل، والتذنيب مستمر، نستيقظ فجراً على صوت البوق، وننام باكراً على صوت البوق.

رؤساؤنا من العرب، الممتاز الطاهر، وبول كباشي علي، والشمباشي فـرج، جميعهم لهم عائلات، يسكنون خارج الثكنة في المحلة، والشمباشي فـرج بالـذات، وهو ورفلي، ويسكن في زنقتنا أمام بيتنا، في حجرة عند الحاجة سليمة العكاريـة، كنا نعرفه جيداً ويحترم العائلة ويقدرها، لكنه في الثكنة كان وحشاً، يصل إلى الثكنة باكراً وإلى عنبرنا بالذات بعد صوت البوق بقليل والويل لمن لم يكن مستيقظاً.

187

**النظام ثم النظام:** التدريب في اليوم السابق كان عنيفاً والنوم علـى الرغم من المكان والطريقة كان محبباً، ولكن صوت الشمباشي فرج القـوي وهـو يصيح ويتوعد كان كفيلاً بأن يطير النوم مهما كان ثقيلاً، بسرعة ننهض، وبسرعة ندخل المراحيض المزدحمة، ونغسل وجوهنا ونحلق ونصطف في الطابور.

البدلة الاعتيادية التي كنا نخرج بها عند السماح لنا، هي سـتره بهـا أزرار معدنية بيضاء لامعة. البنطلون واسع فوق الركبة وضيق ولاصـق عنـد الـساق، الحذاء عسكري ثقيل، غلاف للساق من الجلد السميك منفصل عن الحذاء. حزام من الصوف أحمر اللون يلف به وسط الشخص ويغطي أسفل السترة وأعلى البنطلون، غطاء الرأس معرقة فوقها طاقية حمراء بزر من الحرير الأزرق. وعلـى رقبـة السترة شريط فضي مزخرف، ومثبت على الطاقية فوق الجبين شعار الكـابنييري

وهو اسم الضابطية باللغة الإيطالية. الشعار هو عبارة عن قنبلة كروية من معدن أبيض خارج منها لهيب، ويجب أن تكون دائماً لامعة.

الضابط عند الخروج من الثكنة يجب أن يحمل السيف الطويل المثبت في حزام البنطلون بشريط جلدي، الحذاء يجب أن يكون لامعاً، هيئة الضابطية خارج الثكنة يجب أن تكون متميزة تمثل هيبة الدولة، مع التزام الشخص المرتدي لها بكامل النظام، يسمح لنا و نحن طلبة بالخروج كل يوم، إلا عندما نكون مكلفين بعمل داخلي، نخرج بعد العصر و نرجع بعد المغرب بقليل، ساعات محدودة ننتظرها بعد مجهود مضنٍ كل يوم، نزور أثناءها العائلة ونتعشى مع أهلنا.

188 **تدريب الصباح:** فترة الصباح بالنسبة للمستجدين مخصصة للتدريب على المشي المنظم في الطوابير، وإخراج الخيول من الإسطبل، وتنظيف مربط الخيل من الروث، وفرشها بقش نظيف، ثم تنظيف الخيول وحكها بمختلف أنواع الفرش. وتتم العملية في الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس المحرقة صيفاً، ولكل طالب عدد معين من الخيول، والمشرف المتابع لعملية التنظيف يحدد فتراتها والانتقال من نوع إلى آخر. يرى الطالب أن الحصان نظف، ولكن المشرف يُلح على الاستمرار ويكشف بعض الهفوات الحقيقية أو الوهمية.

الكلمة السائدة هي داوم، إلى متى؟ ليس مهم، المهم أن الطالب يتعود على الطاعة ويتقن عمله بكل تفاصيله، ويتعود على الصبر، وفي بعض الأيام يكون التدريب على ركوب الخيل، والانتقال من سرعة إلى أخرى، وتنتهي فترة الصباح ويصفر المشرف، فينطلق الجميع إلى حجرة مخصصة لإعداد الطعام والأكل، فترة الراحة ساعتان، ليس هناك مطعم جماعي، كل مجموعة تنسجم مع بعضها تطبخ أكلها بطريقة فوضوية تحطم الأعصاب والأعصاب هي أصلاً محطمة.

الكل يتسارعون، إلا مصطفى وعلي أو ال 4494 و4495 فإنهما يتجهان إلى حجرة حراسة الثكنة، فيجدان أكلهما موجوداً عند الحارس، وقد أتيا به من منزل العائلة حيث يكلف أحد الإخوة أو الخدم بذلك، العملية صارت روتينية ومألوفة،

ويأخذ مصطفى وعلي الأكل ويتجهان إلى عنبر النوم، وفي ركـن منـه طـاولات وكراسٍ خشبية متينة مصففة لجلوس الطلبة حولها أثناء إلقاء الدروس النظرية حول اختصاصات الشرطة الجنائية.

وحولها نجلس ونبدأ الأكل في هدوء وبسرعة، ثم نضع الأواني الفارغة فـي القفة ونعود بها إلى الحارس ليسلمها إلى من يعود بها، فيأخذ منه الممتلئ ويعطيـه الفارغ. الأكل في عنبر النوم مخالفة للنظام تماماً، ولو كشفت تعتبر مـن الكبـائر، هذه الطريقة كانت تسمح لنا بتناول أكلنا بعيداً عن زحمة ودوشة بقية الطلبـة فـي المكان المخصص للطبخ والأكل، إن أخذنا أكلنا وجلسنا في ركن منـه إن وجـد، فأمامنا أمران أن ندعو الحاضرين وهم أكثر من خمسين، تفضل يا فلان ... تفضل يا فلان ... وإذا كان كل واحد منهم يتفضل ويكتفي بملعقة واحدة لأنتهـى الأكـل ونحن ننظر. وإذا لم نفعل فالويل لنا من السخرية بنا، وبجميع سكان المدن الذين لا يعرفون معنى الشهامة والكرم مثل العرب الأقحاح سكان البادية، عالجنا المـشكلة الصغيرة بالدخول في مشكلة أكبر، مخالفة النظام، وإلى متى؟ إلى مـا شـاء الله، وحانت ساعة الحسم.

189 <u>مدير المدرسة والكسكسي:</u> رؤساؤنا من الإيطاليين هـم مـدير المدرسة ملازم ثان ترليزي كابيتسي وهو من نابولي، ومـساعده الأول والمكلـف بالإدارة والنظام هو المارشال مارتوشي، وهو طويل القامة، مهاب، جـدي جـداً، وصارم ولكنه طيب، والبريقادير فرانشا ومساعده فرنكافيلا مكلفان بالتدريب علـى ركوب الخيل وبرامج الفروسية. والبريقادير اتيليو مكلـف بالـدروس النظريـة، والرؤساء العرب الذين سبق ذكرهم مكلفون في مختلف المجالات، الممتاز الطاهر وهو من جنزور مكلف بالصيانة البسيطة في الثكنة وقد اتخذ منـي مـساعداً لـه، فكانت فرصة للإفلات من بعض التدريبات العنيفة أو المملة.

مدير المدرسة الملازم الثاني ترليزي كابيتسي يسكن مع زوجته قريبـاً مـن عنبر نومنا، وفي أحد الأيام، يظهر أنه عندما عاد إلى منزله لم يكن غداؤه حاضراً، فخرج من منزله، ودخل عنبر نومنا، والوقت كان ظهراً وأنا وعلي في آخر العنبر

نتناول غداءنا وكان كسكسي، رأيناه ورآنا، حاولنا إخفاء أثر الجريمة ووضعنا الصحون تحت الطاولة ولففنا الجرائد التي كانت تحت الصحون كفوطة وتقدمت أنا وعلي نحوه، وحييته كما يجب، وأنا أقدم من علي حيث أنا 4494 وعلي 4495.

نظر إلينا ولم يتكلم، توجه نحو الطاولات حيث كنا نأكل، اكتشف الأمر بسهولة، سأل وأجبنا بصراحة، شرحنا الأسباب التي تجعلنا لا نأكل مع الآخرين، قال لقد أخطأتم وأنتم مذنبون، وتركنا وتوجه إلى حجرة المطبخ ومطعم الطلبة، فوجدها كما سبق أن وصفتها، في منتهى السوء، عاد إلى منزله لتناول غدائه وفي طريقه وجدنا واقفين فنظر إلينا، وقال هذه آخر مرة تأكلون في هذا المكان، وأشار إلى العنبر، لقد سامحتكم، ثم أعطى أوامره فأقيم مطعم جماعي على نفقة الإدارة، ويدفع الطلبة مبلغاً محدداً معقولاً مقابل الأكل. ولكن رغم ذلك فالساخطون أكثر من الراضين، الأكل ليس جيداً، تارة الفلفل كثير وتارة الفلفل قليل، الأكل لا يتمشى مع التقاليد والأصناف المعهودة، وقعت الحادثة التي أدت إلى خروج مصطفى من المدرسة لأسباب سأشرحها. ولا أدري كيف تطور الأكل للطلبة فيما بعد.

كان هناك تدريب على استعمال السلاح بمختلف أنواعه، وكان ميدان الرماية في "أبو ستة" على البحر قبل فتح طريق الملاحة، وكان ميدان آخر في الغيران حيث الآن الحظيرة الجمركية.

دخولنا أو نزولنا في الضابطية، كان موضوع تعليق الأقارب ومعارف العائلة، من كان يعرف الحقيقة، ولم يكن من الممكن شرحها للجميع، أعذر والدي، ومن لم يعرف صار يتهمه بأنه دفع ولديه الصغيرين إلى عمل قاس وغير وطني في مقابل زيادة دخل العائلة، عمي نوري كان يعرف الحقيقة ولم يكن راضياً لا عن الحادثة ولا عن غيرها من الأمور العامة مثل أمثاله من معا صيريه، لكنه أمام منكر ولا قدرة لنا على تغيره، عندما سمع عمي نوري بتدريبنا على الفروسية وعلى استعمال السلاح، وعلى الرماية، ظهر عليه الارتياح، وستشهد بالحديث الشريف "علموا أبناءكم السباحة والرماية وركوب الخيل" المهم التعلم، وسيكون التطبيق في مكان وزمان مناسب.

من الأمور التي بقيت عالقة بالذاكرة فترة الدراسة أنه في يوم عيد الأضحى والمسلمون يحتفلون بالعيد وعائلتي على بعد 200 متر وهي معيدة أيضاً، كنت أنا وعلي مكلفين بعمل داخلي، فلا خروج ولا عيد، العمل الروتيني كما هو، ومما زاد اليوم نكداً وألماً وغيظاً أن مزارعاً إيطالياً اتفق مع بعض المسؤولين الإيطاليين في المدرسة، وأتى بعربة كبيرة لتحميلها بزبل الخيل ونقله إلى مزرعته، فصدرت الأوامر إلى مصطفى وعلي وغيرهما من الطلبة للقيام بذلك العمل فما كان منا إلا السمع والطاعة.

وفي مناسبة أخرى، أُمرت مجموعة من الطلبة حوالي 20،منهم مصطفى وعلي، أن تتجه نحو حوض الماء، وأمرنا أن نخلع ملابسنا كلها بسرعة، وفجأة وجدنا أنفسنا عراة تماماً وكل منا ينظر إلى الثاني بمن فيهم أنا وعلي، منظر غير متوقع، سخيف، أزال فجأة ستار الحياء الذي كان بيننا، وبعدها أمرنا بالغوص في حوض الماء البارد، في الجندية الأوامر تنفذ ولا تناقش.

190 **معرض نابولي:** مناسبة أخرى. قررت وزارة المستعمرات ولا أدري في أي مناسبة، إقامة معرض لفنون المستعمرات الإيطالية في مدينة نابولي وتقرر أن تساهم مجموعة طلاب مدرسة الضابطية، ومن ضمنها مصطفى وعلي في المعرض، وسافرنا وكانت فرصة لنا ولأول مرة نسافر بالباخرة، ونشاهد نابولي ونتعرف على الدنيا بما فيها من أمور طيبة وحلوة ومن السخافات، كنا موزعين على بوابة القلعة التي أقيم بها المعرض وفي مختلف قاعاتها من ضمن التحف الفنية، وكنا لافتين للنظر ومحل إعجاب الزائرين، الكثير منهم يأخذ الصور معنا، كان ضمن الذين ساهموا في المعرض بعض صناع الحرف التقليدية مثل التطريز على الجلد والنقش على النحاس وحياكة الأردية الحريرية وغيرها، وبعض التجار في نفس المجال من الطرابلسيين وكانوا كغيرهم من المستعمرات الأخرى موزعين على دكاكين استحدثت مؤقتاً في حديقة القلعة لتكون سوقاً شرقية، وكان من ضمن الأبنية جامع أو ما يرمز إلى جامع، مئذنة صغيرة وقبتان، وكان المطلوب من بعض المكلفين الأذان على المئذنة بمناسبة وبغير مناسبة وكلما كان

هناك زوار. وقد كان هذا السوق بدكاكينه الصغيرة وجامعه المزور ومقهاه ومطمعه دائماً مزدحماً بالزوار المنبهرين.

191

**علف الخيل:** مدرسة الضابطية بها حوالي 200 حصان، وكان يزورها إيطالي اسمه جورج يتكلم العربية بطلاقة، وظهر أنه كان مقيماً في تونس، وكان تاجر خيول يتجول في أسواق تونس والجزائر والمغرب، ويشتري الخيول ليبيعها للجيش الإيطالي في طرابلس، وقد توجهنا مرة إلى إسطبلاته في قرقارش مع لجنة مكلفة بفحص الخيول واختيارها، ونقل التي تحوز القبول إلى ثكنة مدرسة الضابطية.

الخيول تحتاج إلى علف، بعضه خليط من الحبوب، وبعضه أعشاب جافة تعرف بالخرطان مضغوطة على شكل (بالات) زنة الواحدة حوالي 30 كيلو، المخزن العام للجيش لهذا النوع من العلف كان في آخر شارع عمر المختار الآن. وكان يعرف هذا الشارع في أوائل الثلاثينيات بأسم جادة سيشيليا ثم سمى باسم الوالي إيطالي بالبو، كانت هذه البالات مرصوصة على شكل أهرامات صغيرة، وكانت مدرسة الضابطية تتزود منها كل أسبوعين، ويكلف بعض الطلبة تحميل هذه (البالات) على عربات كبيرة يجرها حصانان ضخمان، في إحدى المرات كنت من ضمن المكلفين بذلك، وأثناء دحرجة (البالات) من أعلى الهرم اصطدمت إحدى (البالات) بساقي اليسرى بعنف، فوقعت على الأرض وكانت الآلام حادة، فما كان على المشرف علينا إلا أن استدعى المكلف بالإسعاف فنقلني بسرعة إلى الإسعاف المستعجل قسم جراحة العظام بمستشفى شارع الزاوية.

192

**رب ضارة نافعة:** التشخيص لإصابتي بالإيطالية كان، سينوفيتي ويظهر أنه نوع من التمزق في أربطة الركبة، استوجب الإيواء في المستشفى، والتجبيس والراحة الكاملة التي استمرت لمدة 20 يوماً. بعدها أُزيل الجبس وبقيت أياماً تحت المراقبة لمعرفة ما إذا كان هناك تحسن، وحيث إنه لم يحدث تحسن، جبست مرة أخرى وأُحدثت فتحة مربعة على الركبة كانت تغرز فيها إبر لشفط

سائل من مفصل الركبة. كانت عملية مؤلمة، وكنت أنقل إلى سطح مبنى قسم الجراحة لعرض ركبتي لأشعة الشمس، ثم أزيل الجبس، ولكن مفصل الركبة تصلب، وكانت محاولات عديدة لتحريكه وكانت مؤلمة جداً أيضاً، وآخر تشخيص كان سنوفيتي كرونيكا أي سينوفيتي مستديمة، سببت عاهة مستديمة لمصطفى. ولذا صار مصطفى غير صالح للجندية وسرح، و" رب ضارة نافعة والحمد لله ".

أما أخي علي فبعد أن أتم فترة التدريب في المدرسة أُلحق لقوامه ولياقته البدنية ولحسن سيرته، اُلحق بحرس الشرف للوالي العام بالبو، وكان مكان العمل ثكنة صغيرة خاصة بالحرس، ملحقة بقصر أقامه الوالي. العمل هو عبارة عن ارتداء بذلة جميلة، أنيقة، عليها برنص أحمر، وركوب حصان جميل ومصاحبة الوالي وهو في عربته الفخمة ذهاباً وإياباً من قصر الإقامة إلى المكاتب في القلعة والعكس، أو عندما يكون هناك زوار كبار ومراسم تشريفية، عمل مظهري، فلكلوري، دام 10 سنوات من سنة 1933 م إلى سنة 1943 م، غطت فترة حرب الحبشة وما بعدها، ثم الحرب العالمية الثانية وويلاتها، حيث إنه وعلى الرغم من أن العقد الأول كان لمدة سنتين، لكن الأحداث العالمية الكبيرة أوقفت كل عمليات التسريح، واستمر علي في الخدمة حتى هزم الطليان وطردهم الإنجليز إلى تونس.

فك قيد مصطفى وتخلص من العسكرية التي اضطرّ إليها وصار حراً يبحث عن عمل.

193

**مؤسسات المجتمع المدني:** بالقضاء على المقاومة وبداية عهد بالبو، بدا ما كان يعرف أو ما يسميه الإيطاليون بعهد التعمير، الحياة المدنية يجب أن تستقر بكل مظاهرها، وفي كل بلدة يجب أن يكون مركز للشرطة الضابطية يرأسه صف ضابط إيطالي، مسؤوليته حفظ الأمن بالدرجة الأولى وتجسيم فكرة الدولة، بجانبه مكتب المدير، وهو موظف عربي وله كاتب، مسؤوليته بالدرجة الأولى جباية الضرائب من عشر وغيرها من الأهالي العرب، وفض النزاع ما بين القبائل والعائلات والأفراد، وتجسيم فكرة الدولة أيضاً بما يتبعه من خضوع، بجانب مكتب المدير، المحكمة الشرعية لفض النزاع حول الأحوال الشخصية حسب

الشريعة الإسلامية، وفي ذلك نوع من إرضاء الشعور الديني للعرب المسلمين، ثم المستوصف، والممرض، والطبيب على فترات لحفظ الصحة العامة، ثم المدرسة لتعليم الأطفال الليبيين اللغة الإيطالية واللغة العربية. والعلم الإيطالي مرفوع على سارية منصوبة فوق كل مكتب من هذه المكاتب، أجهزة إدارية بسيطة لمجتمع متخلف يراد له المحافظة على مستوى معين من التخلف، يسمح للمجتمع الثاني، المجتمع الإيطالي الجديد والنامي والمغروس بجنبه، وعلى أرضه، يسمح له بالنمو السريع والازدهار.

المدرسة تحتاج إلى مدير ومعلمين إيطاليين يجلبون من إيطاليا، وإلى بوابين عرب يوجدون محلياً، وإلى معلمين عرب، وحيث إنه ليس هناك جامعات ولا مدارس عليا لتخريج المعلمين، فلذا يدعى من أنس في نفسه اللياقة للتدريس التقدم والاشتراك في امتحان يعلن سنوياً. كانت فرصة أمام مصطفى بعد تخلصه من الخدمة العسكرية، ويجب الاستعداد لها، ثقافة مصطفى يغلب عليها الطابع الإيطالي، مدرسة ابتدائية إيطالية عربية لمدة 5 سنوات ثم مدرسة متوسطة للتوجيه المهني لمدة 5 سنوات أخرى التدريس فيها باللغة الإيطالية، على مصطفى تعويض ذلك بدورات مركزة في اللغة العربية والعلوم الدينية، مجالها مدرسة زاوية ميزران وكلية أحمد باشا، المسرح تغير والتمثيل مستمر والفصول تتابع.

194 **الكتب الصفراء:** وصف بعض الكتب بالصفراء احتقارا أو بمعنى أنها ذابلة مثل أوراق الشجر في الخريف، هو في الواقع معنى مستحدث عندما قسمنا العلم إلى ماض وحاضر، الماضي عدم، والحاضر مستقبل واستمرار للحياة، وعندما استحدث تعبير جديد آخر رجعي وتقدمي، الرجعي يدافع عن نفسه بنصوص في كتب مؤلفة حديثاً، ولكنها تحمل آراء أشخاص عباقرة عاشوا في زمان بعيد بعيد، فقد الصلة بالحاضر، والتقدمي يهاجمها بأنها آراء قديمة جداً، تشد الإنسان إلى الماضي، والماضي عدم، والبشرية تحتاج إلى التقدم وإلى السعي نحو المستقبل بكل حيويته ومباهجه. والحقيقة أن أمور الحياة صراع والصراع مرغوب، ولكن صراع بقواعد متفق عليها، محترمة من المتصارعين دون القضاء

على الخصم، لأنه عندئذ وبزوال أحد المتصارعين توقف المصارعة وتنتهي المباراة بمأساة.

وصف الكتب بالصفراء مرجعه أيضاً أنه بعد اختراع المطبعة، والتوسع في صناعة الورق، وجد ورق أبيض وورق أصفر، والأصفر رخيص، فصار يستعمل في صناعة الكتب المدرسية التي يستعملها الطلاب المحدودو الدخل عادة، وكان يقال إن القراءة من الكتب الصفراء أكثر راحة للعين، ولا أدري رأي أطباء العيون في ذلك.

المكتبي الوحيد الذي يبيع كل هذه الكتب بأنواعها هو الحاج محمد شرف الدين من زاوية الدهماني، ولكن متجره في الفنيدقة قرب جامع الناقة في مدينة طرابلس القديمة، والغريب أن مجال تجارته الرئيسية هي خيوط غزل القطن المستعملة في حياكة الأردية النسائية، مع شباك صيد السمك، وزاد عليها الكتب الدينية واللغوية بطريقة جد فوضوية، فالناس أمزجة.

195 **دراسة عربية مكثفة:** غيرت ملابسي وخلعت الزي العسكري، وارتديت السورية والسروال والفرملة والحولي، واستعنت بالله.

قريبنا وصديقنا محمد خليل القماطي، وكان من سكان شارع ميزران، لم ينتسب للمدارس الإيطالية العربية، واكتفى بالكتّاب ومدرسة ميزران وبعدها أحمد باشا، وهو أيضاً يرغب في التقدم لامتحان المعلمين، رفقة جيدة ومناسبة جداً.

صارت لي محفظة تقليدية لكتب العلوم الدينية وكتب اللغة العربية، وجميعها لمؤلفين مصريين، تُدرس في الأزهر في مصر. منها متن الأجرومية في النحو وكتاب الكفراوي وكتاب العشماوي في النحو أيضاً. وكانت طريقة الدراسة تعتمد على البحث، الأصل هو المتن ويفسر المتن بالشرح، يفسر الشرح بالحاشية، وكل ذلك في كتاب واحد، كلمة أو جملة في المتن تُفسر بعدة أسطر من الشرح داخل إطار في صفحة الكتاب، وترد بتوسع في عدة أسطر أخرى مائلة خارج الإطار تعرف بالحاشية، الكلمة تصير كلمات والسطر يصير أسطراً تتضمن المعنى اللغوي

والإعراب واختلاف النحاة من كوفيين وبصريين واستشهاد بأشعار الجاهلية وما بعدها وبآيات من القرآن الكريم .

يبدو أن هذه الطريقة مضيعة للوقت، وأنه يمكن الاستغناء عنها واستعمال طريقة أخرى أسهل وأبسط، وهي أن تحدد قاعدة نحوية ما، مثلاً الفاعل مرفوع والمفعول به منصوب، والمثل السائد ضرب زيد عمرا، مع شرح مختصر وينتقل إلى كان وأخواتها ثم إلى إن وأخواتها، ربما كان ذلك مناسباً لمن كان مستعجلاً، ولكن هذه الطريقة الأزهرية هي أقرب إلى التدريس الجامعي، ولو في مراحله الأولى، فكرة ونظرية ما، يشرحها الأستاذ المحاضر، ثم يُحيلك على المراجع المكدسة في المكتبات، وهناك يغوص الطالب وحده أو مع مساعده للبحث والتفتيش،والجمع والطرح والضرب والقسمة، وأخيراً يكون الموضوع واضحاً من جميع جوانبه أمامه، وتتسع مدارك الطالب بتخزين رصيد كبير من المعلومات المتنوعة، ويكون قادراً للمشاركة في نقاش مثمر، ويستنبط حلولاً لمشاكل، ولاحقاً يستطيع اكتشاف نظريات جديدة، وهكذا العلم يتطور بالمناقشة والبحث.

196 **زاوية ميزران:** كانت البداية في زاوية ميزران وهي مبنى بجنب الجامع، وقف ميزران بالشارع الذي يحمل نفس الاسم حتى الآن، هذا المبنى مكون من عدة حجرات صغيرة تكون القسم الداخلي للكلية، مخصصة للمتفرغين للدراسة الدينية واللغوية، والذين يتقاضون جراية أي راتباً من إدارة الوقف التي توفر المدرس أيضاً، أما الدروس فتكون في صحن الجامع في غير أوقات الصلاة بالطريقة المعهودة، أستاذ وحوله حلقة من الطلاب في أيديهم ملازم، أو أجزاء من كتب يستمعون إلى الشيخ وهو يشرح نصاً من متن والبداية كالآتي :

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين أما بعد، يقول المؤلف رحمه الله ... ويتناول الشيخ جملة من متن، من كتاب من علم ما ويشرحه ويصول ويجول، وتتخلل المحاضرة عبارات قال ... قال ....وقال رحمه الله ... أو مفهوم يا مشايخ ...؟ وتكون أسئلة واستفسارات من بعض الطلبة

الجريئين ويدوم الدرس حوالي الساعة ويختم بالعبارة الآتية مع الترنيم. اللهم صلِّ أفضل صلاة على أشرف مخلوقاتك سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

الطلبة نوعان، رسميون مثل محمد خليل، ويلزمون الحضور وهم خاضعون لتفتيش عليهم للتأكد من حضورهم، وغير رسميين مثل مصطفى والذي يمكنه الحضور ويستمع ويناقش إن أراد ولكن بدون راتب وليس له خلوة في القسم الداخلي، البداية كانت مع الشيخ إسماعيل بيزان، مدرس في النحو للمبتدئين مثلي، وهو شيخ غير معمم، ويضع على رأسه الطاقية الحمراء بدون عمة، طريقته هادئة وواضحة استرحت لها، ولكني لا أذكر زملائي الآن .

197

**خلوة الشيخ عبد الرحمن:** محمد خليل أكبر مني بسنتين وهو ابن الشيخ خليل القماطي المفتش في كلية أحمد باشا ويتبع مدير الكلية الشيخ أبو الأسعاد العالم مفتي الديار الليبية.

وللشيخ أبو الأسعاد ابن اسمه مختار وهو من سني، صديق لي ولمحمد خليل منذ الطفولة، ومرشح لامتحان المعلمين، ويحتاج إلى تقوية ثقافية أيضاً.

مختار العالم له خلوة في كلية أحمد باشا، ومحمد خليل منتسب بزاوية ميزران، والتزاور بينهما تارة هنا وتارة هناك، ومصطفى معهم، وأندمج في الوسط. محمد خليل تقدم في الدراسة، تقدم خطوة وطلع درجة، وانتسب إلى كلية أحمد باشا وصارت المقر للثالوث (محمد ومختار ومصطفى)، وانتسب مصطفى إلى حلقة جديدة بها، هي حلقة الشيخ غومة موسى، من قبيلة عراده بسوق الجمعة، درس في الأزهر، قصير القامة وبدين الجسم، معمم، وكفء. وفي أوقات فراغ مصطفى ينتقل كمستمع إلى حلقات أخرى، أذكر منها حلقة الشيخ طاهر باكير، وكان يدرس كتاب شذور الذهب في اللغة، كتاب مستواه أعلى من مستوى كتاب الكفراوي.

أثناء وجودي بالكلية تعرفت إلى محمد النعمي وعلى عبد الله اليازجي ومحمد بن زينون وأحمد الزقوزي والشيخ عبد الرحمن القلهود الذي كان له خلوة

فسيحة صارت منتدى لمجموعة من المثقفين، منهم غير ما ذكرت، السيد أحمد الحصائري والسيد أحمد قنابة، وأحمد الفقيه حسن والشيخ بشير بالحاج، وعبد الله بن ناجي وعبد الحفيظ بن ضوء وكامل الهوني، وتوثقت العلاقة مع البعض ودامت.

كان محور الحديث في خلوة الشيخ عبد الرحمن في السياسة العالمية، ومصادر المعلومات بعض الجرائد المصرية التي تتسرب بطريقة أو أخرى، الشعور الإسلامي والقومي كان مكبوتاً ولكنه موجود حي، ويتململ، ويبحث عن متنفس له، أما السياسة المحلية فمجالها المياه الضحلة في مستنقع الإدارة الاستعمارية بكل روائحها الكريهة التي تعودنا عليها.

يضاف إلى السياسة، مناقشات أدبية مع إعجاب شديد بكتّاب مجلة الرسالة المصرية للأستاذ أحمد الزيات، وكانت تباع من طرف مكتبة أبناء المشيرقي في شارع النخلي بالمدينة القديمة.

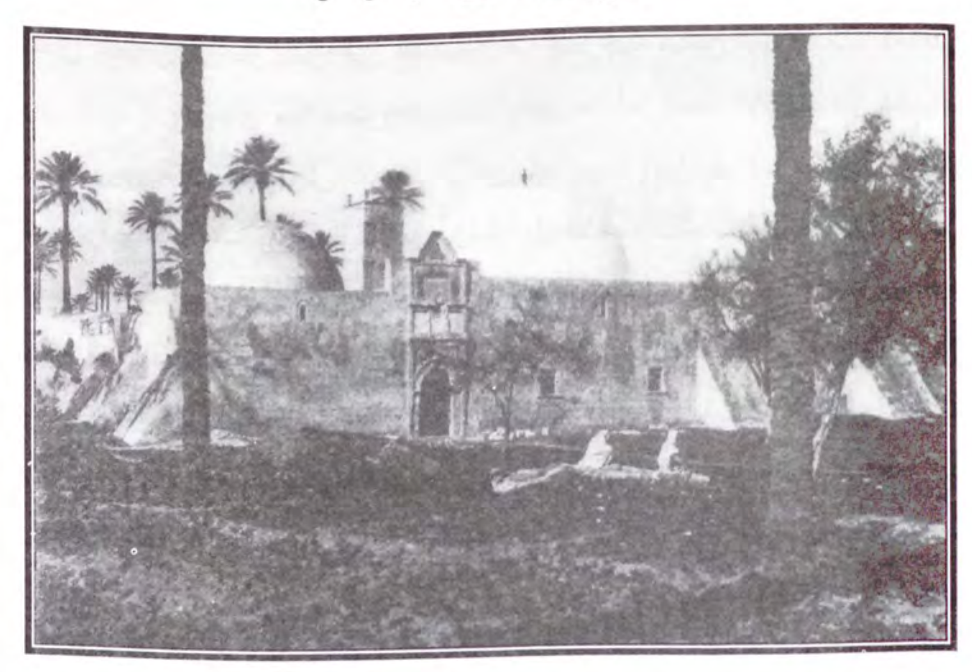
198 **نظيمان والامتحان التحريري:** كان هناك صنف آخر من الطلبة في كلية أحمد باشا، ليسوا من المدينة ولكنهم من الدواخل،يقيمون ليلاً ونهاراً بالخلاوي، ومنهم من يستعد لدخول امتحان المعلمين أيضاً، لكنه قوي في اللغة العربية والعلوم الدينية وضعيف في العلوم الحديثة كالجغرافيا والحساب والتاريخ، وكثيراً ما تجد بعضاً منهم يطوف حول عمود في أروقة الكلية، وهو يردد عاصمة أسبانيا مدريد...عاصمة أسبانيا مدريد...عاصمة فرنسا باريس...عاصمة إنجلترا لندن...عاصمة النمسا فيينا...أو يردد جدول الضرب لحفظه. مصطفى كان يردد قواعد علم النحو، كان وأخواتها ترفع الاسم وتنصب الخبر...وإن وأخواتها تنصب الاسم وترفع الخبر...ولا يجوز الابتداء بالنكرة، والزكاة ونصابها...والحج وأركانه...ونقاط الإحرام...والشيخ الزروق الجعراني وهو من مسلاته يردد بصعوبة أسماء الدول الأوروبية وعواصمها بلهجة إفرنجية مستعصية على لسانه لأنه لم يتعود عليها، ... كل فريق يبحث عما ينقصه.

كان الامتحان التحريري لدفعتنا هو " اذكر معنى الثقافة وفوائدها " وكانت اللجنة المشرفة تتكون من الشيخ محمود أبو رخيص القاضي، رئيس المحكمة الشرعية بطرابلس، والأستاذ نظيمان، أرمني، مترجم يتقن اللغة العربية ونصف مستشرق، وكان من الممتحنين بفتح الحاء، أفراد من عائلة أبو رخيص وربما لاحظ الشيخ محمود أبو رخيص أن موضوع الامتحان التحريري صعب على بعض المتقدمين، فطلب من نظيمان شرح الموضوع، ولكن حتى نظيمان يحتاج لمن يشرح له ... ففسر الماء بالماء ... واجتزنا الامتحان ونجحنا ... زي الباب ... زي الدار ... زي ساكنها ... والغريب، أنه بعد مضي سنوات صارت تلك المجموعات من المدرسين، والمثقفين، والمشايخ، مجموعات الثلاثينات، صارت توصف بأنها استطاعت الحفاظ على الروح الإسلامية والعربية وتقويتها لدى الأجيال التي تتلمذت عليها وذلك عن طريق اللغة العربية وآدابها والعلوم الدينية وأخلاقياتها، وفوتت الفرصة على السياسة الاستعمارية التي لم تنجح في مسعاها، حيث كانت تعمل جاهدة على محاصرة اللغة العربية وعلى جعل التعليم الديني سطحياً مهلهلاً، وحدث بعد سنين، وفي اللحظة التاريخية المناسبة، أن هب نسيم من الشرق، فشب الحريق فجاءة من تحت الرماد، فارتبك الاستعمار وفشل في إخماد الحريق، ونجحنا بتوفيق من الله في امتحان المعلمين ونجحنا بتوفيقه أيضاً في مجالات وطنية أخرى.

كان من كبار الشيوخ المدرسين في الثلاثينيات الذين أذكرهم هم الشيخ إبراهيم باكير، الشيخ مختار الشكشوكي، الشيخ علي النجار، الشيخ أحمد البكباك، الشيخ محمود المسلاتي، والشيخ محمد المصراتي.

199 **زاوية عمورة والزردة:** من ضمن ذكريات تلك الفترة (زردة) كلية أحمد باشا السنوية، في زاوية عمورة بجنزور. كانت مناسبة ينتظرها الطلبة والمشايخ، لما فيها من ترفيه وتغيير، وتدوم أربعة أيام، ينتقل حوالي 100 طالب و15 شيخاً وحوالي10 من كبار موظفي الأوقاف، ينتقلون إلى زاوية عمورة. قبل ذلك بفترة يتم تجيير جميع الخلوات ومرافقها، وتعد الزاوية لاستقبال الضيوف.

بمناسبة زردة كلية أحمد باشا بزاوية عمورة – جنزور 1932



زاوية عمورة – جنزور 1930



الكليم صناعة ليبية شعبية 1930

وتنفق إدارة الأوقاف بسخاء على الأكل وما يتبعه، الذي يعد من طرف طباخين ينتقلون من طرابلس إلى هناك، وكنت اشتركت سنتين فيها تابعاً لعمي نوري الذي كان يرتدي جبة مطرزة وطاقية حمراء، أما لباسه الاعتيادي فدائماً البدلة الأوروبية مع الطربوش التركي، وكان يأخذ معه الفونوغراف من الطراز القديم ببوقه الكبير المميز، ومجموعة من أحدث الاسطوانات تجويد القرآن الكريم، واسطوانات المغنين المشهورين، أم كلثوم، وعبد الوهاب، وصالح عبد الحي، ومنيرة المهدية، وخميس ترنان التونسي، ومعها تقاسيم للعود والقانون والكمنجة، كان موظفو إدارة الأوقاف يشغلون الغرفة الوحيدة التي على السطح.

كانت أصوات المغنين المنبعثة من فونوغراف عمي نوري أفندي تملأ الجو، فكثير من الموجودين حتى المسنين منهم ينسجمون معها، وآخرون متزمتون يرون فيها بدعة، وخصوصاً أنها تنبعث من الزاوية، والزاوية جامع، ولا حول ولا قوة إلا بالله، البعض يرى فيها لوناً من الترويح البريء، ويستشهد بالمأثور عن السلف الصالح، والرأي الآخر يرى فيها منكراً وكفراً، الراديو لم يعرف ولا التلفزيون، فلو عاش أفاضل تلك الفترة إلى آخر القرن ماذا يقولون يا ترى ؟

كانت آلة التصوير ماركة اقفا الألمانية، وهي على شكل صندوق صغير هي آخر صيحة في مجال التصوير، وكان السيد أحمد الحصائري وهو يشع حيوية ونشاطاً، يتجول بها ويلتقط بها صوراً للمحظوظين، الذين يرضى عنهم. أما الصورة الجماعية التقليدية التذكارية فيأخذها المصور المحترف براقوني الإيطالي.

أيام الزردة تتخللها ألعاب رياضية شعبية بسيطة مثل كرة اليد أو سباق العدو، يشترك في كل مرة منه اثنان من المشتركين، بعضهم من المشايخ الوقورين وبعضهم من الطلبة، وبعضهم شيخ وطالب، جو الزردة يزيل المسافات بين الموجودين. أذكر أنه تسابق الشيخ أبو الأسعاد العالم المفتي، والشيخ أحمد البكباك المدرس، وكان الاثنان من المشايخ الأجلاء، والبدينة، وكان المتوقع نجاح الشيخ أبو الأسعاد لأنه أقل ترهلاً من الشيخ البكباك، ولكن كادت تكون النتيجة العكس لو لا أن

الشيخ أبو الأسعاد تلافى الأمر، فعكف غريمه برجله، فتدحرج على الأرض وفاز الشيخ أبو الأسعاد، وصار جمهور المتفرجين بين متحمس ومستنكر للمخالفة البينة، طُعن في النتيجة أمام لجنة التحكيم ومازلنا في انتظار الحكم ...

200 **مصطفى من الكفرة إلى هون:** قلت إني اشتركت في امتحان المعلمين ونجحت ضمن الناجحين، وكذلك زملائي محمد ومختار، ونشرت صحيفة الرقيب العتيد أسماء الناجين بتاريخ 12/3/ 1936، وكانت فرحة عارمة وعلينا انتظار قرار التعين، وبعد شهر تقريباً صدر قرار بتعيني معلماً في الكفرة، ومحمد خليل معلماً في الزنتان، ومختار لا أذكر أين، وكنت مبتهجاً دون التفكير في المكان، جميعها ليبيا، وبالنسبة لي جميعها مجهولة فهي إذا متساوية، ولكن الحقيقة أنها لم تكن متساوية.

كنت بالصدفة ماراً أمام جامع ميزران فاستوقفني الأستاذ عبد الحميد أبو رخيص، وكان يدرّس مع والدي في مدرسة شارع الزاوية، فهنأني بالنجاح الذي علم به، واستفسر عن المكان الذي عينت به فقلت الكفرة وأنا مستبشر، فاستغرب وهز رأسه، فسألته فيم يفكر، فقال دون مجاملة" أمر من اثنين: إما أنه رغم نجاحك، فإن معلوماتك الجغرافية ضعيفة ولا تعرف أين تقع الكفرة، وإما أنك تعرف وقلبك ميت ... "، فضحكنا وانصرف كل منا إلى حاله، بمرور الأيام صرت أفكر، الكفرة بعيدة فعلاً، في أقصى الجنوب الشرقي من ليبيا، الوصول إليها يستغرق أياماً ومشقة، ولم تكن هناك طائرات لنقل المدنيين إلى الكفرة، ولا حتى الحافلات، ليس هناك طريق ساحلية معبدة تصل بنغازي وما بعدها، الطريق المعبدة تقف عند مصراته، بعدها طرق ترابية أقسام منها غير صالحة للسيارات، ولذا يجب ركوب الباخرة إلى بنغازي ومنها على أبعد من ألف كيلومتر في صحراء موحشة تقع الكفرة.

مع هذا فحماسي لم يفتر، وكنا نتردد على إدارة المعارف لمعرفة التعليمات المتعلقة بموعد السفر، وفي إحدى المرات علمت أن قرار تعيني تغير إن شاء الله خير. القرار عدل، مصطفى يتوجه إلى هون بدل الكفرة، ويوسف الفيلالي عليه أن

يتوجه إلى الكفرة بدل هون. لماذا ؟! لا أدري. كانت مفاجأة سارة بالنسبة لي ولم أسع إليها.

هون على بعد 600 كيلومتر فقط، منها 200 كيلومتر طريق معبدة إلى مصراته ولا حاجة إلى الباخرة وبنغازي ومئات الكيلومترات الأخرى. هون تعتبر عاصمة للجنوب العسكري، وبدأ الاستعداد للسفر قبل افتتاح المدارس في فصل الخريف.

علمت فيما بعد أن سبب تعديل قرار تعييني من الكفرة إلى هون هو أن يوسف الفيلالي، وهو من عائلة الفيلالي المعروفة بشارع ميزران، وقد عُيّن معلما قبل تعييني بسنة في إحدى القرى النائية في براك في الجنوب، كانت له مشاكل مع السلطات العسكرية التي اعترضت على تعيينه في هون. ولذا أرسل إلى الكفرة وقد مرض بها وتوفي فيما بعد، رحمه الله.

201 **السفر إلى هون:** الوسيلة المتاحة في الثلاثينيات للسفر إلى هون هي سيارات نقل البضائع التي تتردد على وكالة الصقر بطرابلس، واتصلت بالوكالة، وطلبت حجز مكان للسفر، ورجوت أن يكون مريحاً بقدر الإمكان، فطلب مني مراجعة الوكالة لمعرفة الموعد، ونوع السيارة التي ستنقلنا، كانت سيارة شحن البضائع لبعض تجار بلدة ودان وهون من عائلة أبو رقيبة الذين يسكنون في زنقة الخروبة بشارع الزاوية، فكان الاتفاق أن تمر السيارة عند منتصف الليل في زنقة الخروبة لتأخذني مع بعض الركاب إلى هون وودان.

كانت أول سفرة لمصطفى، ومصطفى طليعة الجيل الجديد لعائلة السراج، والرحلة طويلة، وعمي نوري تخيلها كما كان يعرفها في سنوات مضت طويلة وعلى ظهور الإبل أو الخيل، ولذا كان يجب إعداد (العوين) أو الزاد أو تموين الرحلة كماً ونوعاً، فأرسلني إلى المدينة لشراء كمية من الخبز المعروف بالمحور، المرشوش بالجنجلان "السمسم"، الرغيف على شكل قبة، فشق في أعلى القبة دائرة وحفر داخل الرغيف، وملأه (بالقلايه)، كبدة ولحم، وأغلقت الفتحة بقشرة الخبز،





ولف كل رغيف بورق مناسب.وضع حوالي 30 رغيفاً في القفة. هذا كان زاد السفر ثم حقيبة الملابس، وخرج كل أفراد العائلة لتوديعي، بعضهم يبكي ... وبعضهم يتظاهر بالتجلد ... وبعضهم يعرض خدماته بشحن الحقيبة والقفة على السيارة ... وبعضهم زودني بأغلى النصائح.

المكان المخصص لي فوق البضاعة المغطاة بقماش الخيم المشمع. المكان مريح يمكن التمدد فيه. الجو ليل وصيف، وباسم الله توكلنا على الله. وفي الصباح كنا في مصراته وفي الضحى كنا في القداحية.

202 **السيارة والماء المعطر:** سبق أن قلت إنه عند الضحى كنا في القداحية، وكنا في أواخر الصيف في شهر أغسطس، الحرارة صارت ترتفع، وفتنا القداحية بمسافة، وفي حوالي الساعة 11 طار مغلاق مبرد السيارة، (الرادياتوري)، فتوقفت السيارة، وصار البخار يخرج بقوة من فتحة المبرد، نزل الركاب والسائق الذي بدأ يبحث عن مغلاق (الرادياتوري ) حول السيارة بمسافة فعثر عليه، الحمد لله، الركاب الذين تعودوا على مثل هذه الأمور لم يظهر عليهم القلق، وتمددوا تحت السيارة في الظل الوحيد الموجود في المكان. أما مصطفى فوجد نفسه فجأة في وضع جديد غير معهود، فما كان منه إلا أن قلد الحاضرين فحصل على رقعة من الظل وصار يرقب تطور الأمور، يجب أن تستريح السيارة وأن يبرد المحرك وبعدها سيكون أمر.

المنطقة صحراوية وكل شيء ساكن، ودامت الراحة الإجبارية حوالي الساعة ثم نهض السائق ليملأ المبرد بما عنده من ماء، ولكن الماء غير كافٍ، فتشاور مع بعض الركاب، وتبرع أحدهم للخروج من المأزق ببعض ماء الزهر المقطر الذي اشتراه من طرابلس، لاستعماله في مناسباته الخاصة في ودان حلت المشكلة، ودخلت السيارة التاريخ باعتبارها أول سيارة يبرد محركها بالماء المعطر. ما شاء الله.

203 **المحطة القادمة أبونجيم:** واصلنا الرحلة، المحطة القادمة أبونجيم، الطريق ترابي حجري، وعلى الرغم من أنه يبدو منبسطاً، إلا أنه مسنن، والسيارة وما عليها تسير عليه وتهتز باستمرار مما جعل الرحلة مع طول المسافة، ورتابة الصحراء والحر، غير مريحة حقاً، وصلنا أبونجيم، وما أدراك ما أبونجيم ...فهواسم للمنطقة، وعلى مقربة من طريقها ثكنة عسكرية إيطالية على ربوة غير ضخمة، وتتناسب مع الأسلحة الخفيفة نسبيا والتي استعملت في المعارك ضد الوطنيين، سنتي 1912 و 1913م، وأثناء إعادة الاحتلال لليبيا في العشرينيات. أما المباني المدنية فهي عبارة عن دكان على حافة الطريق يمثل كل شيء، المتجر والفندق. يجب أن تحط الرحال لتستريح السيارة والركاب، وأبلغنا أن الرحلة سوف تُستأنف بعد المغرب في خفة الحر نسبياً، ماء أبونجيم رديء، فتوضأ البعض وصلى، وتعشى البعض زميطة، البعض الآخر حليباً معلباً ومستورداً من إيطاليا اشتروه من الدكان الوحيد، وشاهي أعده صاحب الدكان والكل يتحرك ويدردش في أي كلام.

وتنوع العشاء يمثل صراعاً بين ماض يقاوم، يتمثل في الزميطه، ومستقبل زاحف يتمثل في الحليب المعلب، كنت مع الحليب المعلب والخبز المحور المحشو بالقلاية الذي أعده عمي نوري زاداً للرحلة.

وأخذ كل راكب مكانه. واستأنفت السيارة الرحلة على مهل، الهدف هو الوصول إلى هون عند الصباح، المسافة من طرابلس إلى مصراته حوالي 200 كيلومتر ومن مصراته إلى القداحية حوالي 100 كيلومتر، ومن القداحية إلى أبونجيم حوالي 100 كيلومتر، ومن أبونجيم إلى هون حوالي 200 كيلومتر. والإجمالي حوالي 600كيلومتر، وكل هذه الأرقام تقريبية، فالمسافات في الصحراء شاسعة تزيد أو تنقص بنسبة 10 % أو أكثر ليس مهماً.



عدد ٨١٣ N. 813 C. C. CON LA POSTA (طرابلس الغرب - الرقعا) حساب جار مع البريد السنة ٢٧ Anno XXVII

**الاشتراكات:**

في طرابلس ٣٠ فرنكا في السنة - وفي الملحقات وبنغازي ٣٥ - وفي سائر الاقطار ٤٠ فرنكا إيطاليا

(صاحب الجريدة والمدير المسؤول)

السيد محمد نديم موسى

Proprietario Responsabile

**الرقيب العتيد**

جريدة سياسية ادبية علمية جامعة تبحث في كل شيء

AR-RAKIB AL ATID (L'Osservatore presente)

**المراسلات:**

(رئيس التحرير)

علي نديم موسى

Direttore & Redattore

(من قبل عدداً عد مشتركا - والدفع من أول يوم)

يوم الخميس ١٩ رمضان المعظم سنة ١٣٥٥

(صندوق البريد رقم ٢٨٩) C. P. N. 209

Tripoli d'Africa 3 - 12 - 1936 - XV

صحيقة عربية تصدر بطرابلس 1936

**المعلمون الجـدد**

ننشر فيما يلي أسماء حضرات المعلمين الجدد الذين عينوا من جديد، وقد نشرنا في أحد أعداد جريدتنا الماضية نبأ تعيينهم ولم نتمكن من نشر أسمائهم والآن نذكرهم والمحال التي عينوا فيها:

| | | |
|---|---|---|
| ١ | مصطفى افندي بن فوزي السراج | لمدرسة هون |
| ٢ | سليمان » بن عبد الله ثامنه الباروني | » تالوت |
| ٣ | مراد » بن الطاهر بك دوتـه | » المزرة |
| ٤ | المبروك » بن عمار بن دعاس | » ككله |
| ٥ | المبروك » بن منصور الساحج | » صبراته |
| ٦ | محمد » بن محمد بن زيتون | » النوفلية |
| ٧ | محمد » بن الشيباني بن جبده | » المايه |
| ٨ | عبد الحفيظ » بن عثمان الفاجيجي | » مزده |
| ٩ | صالح » بن سالم بن شعبان | » سباون |
| ١٠ | فاضل » بن احمد فوزي | » سيدي بلال |
| ١١ | محمد » عبد القادر غـوله | » الزاويـة |
| ١٢ | علي » بن الصادق البخبخي | » يفرن |
| ١٣ | البشير » بن عبد الله البـدوي | » قصر بنيو |
| ١٤ | محمد توفيق » بن حمودة | » الجـوش |
| ١٥ | أحمد » المصري بن نبيـه | » البقيقيـة |
| ١٦ | مصطفى » بن محمد الاسماني | » الرحيبات |
| ١٧ | أبوبكر » بن سالم سبيط | » برقن (فزان) |
| ١٨ | محمد » بن محمد القرجاني | » الجشان |
| ١٩ | العارف » بن أحمد النماس | » هواوارى (فزان) |
| ٢٠ | عبد الخالق » بن خليفة الطيب | » أبو عرقوب |
| ٢١ | ابراهيم » بن أحمد السني المنتصر | » زاوية المحجوب |
| ٢٢ | محمد الحاجي » بن الشيخ علي بقوش | » محطة الطيران بقصر بنيتو |
| ٢٣ | محمد » بن خليل الرقيعي | » الزنتان |
| ٢٤ | محمود » بن محمد ككاقله | » الزوبينة (برقة) |
| ٢٥ | عبد الله » المضار | » مراوه (برقة) |
| ٢٦ | عمر فخري » الحمداني | » مجيله (برقه) |

منهم:

1. مصطفى السراج
6. محمد بن زيتون
23. محمد خليل الرقيعي (القماطي)
15. أحمد نبيه

المعلمون الناجحون سنة 1936

مكونات الرحلة الليلية تختلف عن الرحلة النهارية، الطريق طويلة والاهتزاز متواصل، نور الشمس الساطعة حل محله نور مصابيح السيارة، وظلام غير دامس حيث كان في السماء قطعة من القمر تضئ ولا تضئ. عزمنا وتوكلنا على الله.

204 **الدخول إلى هون:** مع شروق الشمس دخلنا هون، كان في انتظاري الشيخ محمود ادريزة، المدرس بالمدرسة الذي وُظف بها منذ سنتين وقد سبقني بحوالي أسبوعين إلى هون، رحب بي كثيراً، رغم أنني لم أكن أعرفه شخصياً، وهنأني بسلامة الوصول. كان ودوداً جداً. ودعت معارفي رفاق الرحلة، البعض منهم سيبقى في هون وآخرون سيواصلون الرحلة إلى ودان التي تبعد 25 كيلومتراً شرقي هون، وتوجهت مع الشيخ محمود وشخص آخر مصاحب له حاملاً الحقيبة والقفة إلى حيث يقيم الشيخ محمود في منزل غير بعيد.

وصلنا منزل محمود ادريزة، وهو كغيره من بيوت هون، مكون من دور أرضي واحد، بناء بدائي به وسط حوش غير مبلط، وحوله مجموعة من الحجرات، ومطبخ ومرحاض. السقف من صنور النخيل النظيف، والأبواب أيضاً من صنور النخيل منظف من (الكرناف) على شكل ألواح متراصة ومتماسكة مع بعضها البعض بمسامير طويلة مناسبة. الباب مطلي باللون الأبيض والأسود على أشكال هندسية مستوحاة من جنوب الصحراء الكبرى. الشبابيك إن وجدت داخلية.

وعرفت بعد أن هناك آفة مسلطة على الأشياء الخشبية وحتى الحوائط، وهي حشرة الأرضة تقرضها من الداخل. الأخشاب تبدو من الخارج سليمة ولكنها فارغة داخلياً. وهذه الحشرة التي ذكرت في القرآن الكريم في قصة سيدنا سليمان والجان. ولذا يجب الاحتياط منها خوفاً على الملابس التي يمكنها العبث بها .

205 **هون ومياه الشرب:** ماء هون مصدره الآبار، جيري، وبه معدن الماغنيسيوم، طعمه رديء، ويسبب الإسهال للذين لم يتعودوا عليه، لهذا السبب فإن البلدية توزع على الموظفين يومياً كمية من الماء، والمنقول بالسيارات من عين

الحمام بمدينة سوكنه التي تبعد حوالي 25 كيلومتراً غربي هون للشرب، أما ماء هون فيستعمل للأغراض الأخرى.

مدينة هون مقامة على أرض منبسطة ورملية وصخرية على مساحة كيلومتر مربع تقريباً، شوارعها متقاطعة كرقعة الشطرنج وغير مرصوفة، في بعضها أقواس تساعد على تماسك البنيان وتكون بعض الظل، بعض الطرق يمكن مرور السيارات بها، ومعظمها للمشاة فقط، البلدية تحاول التنظيف العام وإلزام أصحاب البيوت بطلاء واجهات البيوت بالجير الأبيض، كما أن بعض الطرقات مضاءة كهربياً. في شمال المدينة ساحة فسيحة تفصل المدينة حيث يسكن الأهالي العرب عن المدينة الحديثة، حيث مبنى مقر الحكومة، ومساكن الضباط والموظفين الإيطاليين وناديهم. مبنى مقر الحكومة يتكون من دورين، يتميز عن المباني الأخرى، ولكنه بالقياس الحديث غير ضخم، على الساحة تفتح المرافق التجارية وغيرها، دكاكين ومقاهٍ، اثنان منها أصحابها إيطاليون هم سارافينو وزوجته، والعجوز باربا، وكما يوجد مصور ليبي من طرابلس، والمدرسة والبلدية والمحكمة الشرعية وإدارة الشئون المدنية والسياسية، وغير بعيد عن المدينة وفي الجهة الشرقية منها يوجد المطار العسكري.

206 **هون عاصمة:** هي عاصمة المنطقة الجنوبية العسكرية، حيث إن ليبيا في عهد بادوليو توحدت، وكانت في السابق طرابلس ومعها فزان وبرقة ومعها الواحات والكفرة. وكان في السابق لكل من ولاية طرابلس وبرقة إدارتها التابعة رأساً لوزارة المستعمرات، ثم صارت تتبع الوالي المقيم في طرابلس، ثم توحدت كما قلت وصارت تعرف بليبيا، وقسمت المناطق الساحلية إلى أربع محافظات، طرابلس ومصراته وبنغازي ودرنة، ويصرف شؤون كل واحدة منها محافظ، والجنوب العسكري يرأسه قائد برتبة عقيد كولونيل وكان الكولونيل، موتشا هو القائد للمنطقة الصحراوية عندما وصلت إلى هون، وعلى قمة السلطة في ليبيا كان الحاكم العام بالبو كما ذكرت. وكانت المحافظات تعتبر من ضمن المحافظات الإيطالية، لا المستعمرة.

هون باعتبارها عاصمة كانت تتميز عما حولها من المدن، بها حركة تجارية نشطة، ورواج يغذيه الإنفاق الحكومي من مرتبات الموظفين والجنود الليبيين، والضباط الإيطاليين، كذلك بها بعض الأشغال العامة، من مبانٍ مدنية، ومدارس ومستوصفات ومستشفى وبريد، ومبانٍ للأغراض العسكرية، وسكن الضباط، والطرق التي كانت كلها ترابية. بالقياس لما عليه الآن. كانت هون صفراً، لا شيء، أما في ذلك العهد فقد كانت مزدهرة، في هون الدكاكين عامرة بمختلف أصناف البضاعة التي يحتاجها السكان، معظم أصحاب الدكاكين تجار من مصراته ومنهم أفراد من عائلة الأشهب. الحركة بالميدان تنشط في المساء عندما يكون الطقس مناسباً، وعلى الطريقة الإيطالية تجد الموظفين ومن في حكمهم يعبرونه ذهاباً وإياباً وهم يدردشون والمقاهي عامرة بالرواد.

207 **انتظار سيارة البريد:** طقس هون قاري، حار صيفاً وبارد شتاءً إلى حد تجمد الماء، في هون مكتب البريد به موظف إيطالي وموظف ليبي هو الشاب أبوبكر الحلو، وكان نقل البريد يتم مرتين في الأسبوع في سيارة عسكرية، ولم يكن هناك اتصال هاتفي. كان الاتصال بالتلغراف، البرق فقط، ولذا كانت الرسائل. والبطاقات البريدية هي وسيلة اتصال الأفراد. كان الاتصال منتظماً مع العائلة، وشبه منتظم مع الأصدقاء الذين توزعوا معلمين في مختلف المدارس في البلاد. وصول سيارة البريد كان حدثاً مهما لنا. كنا نحضر أمام مكتب البريد انتظاراً لوصولها، وحالما تصل يتولى الموظفان الإيطالي وأبوبكر الحلو إجراءات استلام شوالات البريد والتوقيع وفتحها، وكان أبوبكر الحلو يجاملنا ويحترمنا، أنا والشيخ الهنقاري، القاضي الشرعي. فكان يسرع في البحث عن بريدنا ويعطيه لنا بطريقة استثنائية.

تارة يكون البريد خصباً وافراً، رسائل وجرائد ومجلات وخصوصاً مجلة الرسالة يجمعها والدي أو أخي علي ويرسلها وتارة يكون ضحلاً فلا حول ولا قوة إلا بالله.

**الموظفون العرب:** الموظفون الليبيون في هون عددهم حوالي 10، سالم الصادق وهو من يفرن قبيلة البخابخة، مترجم ومستشار القيادة للشؤون الليبية، ويعتبر على قمة الموظفين الليبيين في هون. يحمل وساماً مدنياً إيطالياً يعرف بالكوالير أي الفارس. لذلك كان سالم الصادق يعرف دائماً بالكوالير سالم. والشيخ محمد الهنقاري قاضٍ شرعي من الزاوية الغربية اشتغل قاضياً في غات، قبلها كان مشرفاً على مدرسة زاوية عمورة الدينية بجنزور، وقد كان عالماً دينياً ولغوياً وأديباً. المهدي موسى قائم مقام الجفرة، أي هون وسوكنه وودان، وهو من سوكنه، وظيفته لا يبدو لها دور عملي.تكاد تكون وظيفة سياسية مظهرية، له موظف تابع له هو أحمد عبد الله من سوكنه أيضاً. علي الحسومي كاتب بالمحكمة الشرعية وهو من يفرن، والشيخ محمود ادريزة المدرس عاشرته لعدة سنوات وكنا نسكن في بيت واحد، الشمباشي عبد السلام من الملاحة قرب تاجورا يعمل في المطار، وأحمد الزقوزي مدرس في ودان وهو من طرابلس، الهنشير في سوق الجمعة، شخصية فكهة ظريفة، وبشير خليفة مدرس بسوكنة هو أيضاً من سوق الجمعة، وخلف بشير خليفة، رجب رحومة من غريان، وقد اشتهر أنه كان يشغل وقت فراغه في غرس حوالي100 نخلة في أرض حكومية تحصل عليها خارج سوكنه، وتطلب منه ذلك مجهوداً حيث إن الأرض تعلوها طبقة صخرية يجب تكسيرها في محيط الحفرة التي تغرس فيها الفسيلة. وبعد عناية بالسقي في الأشهر الأولى تكون الفسيلة قد مدت جذورها في التربة تحت الطبقة الصخرية التي كانت تحميها من أشعة الشمس صيفاً وقد كان عمله هذا الذي اعتبره بعض السطحيين عبثاً، كان استثماراً جيداً حيث باع الأرض وما عليها من نخيل مثمر بمبلغ محترم عندما غادر سوكنه ونقل للعمل في طرابلس في مدرسة شارع الزاوية.

هؤلاء الذين ذكرتهم تكونت بينهم رابطة شخصية ودية دامت لسنوات وتوطدت وكان اجتماعهم نهاراً في وقت فراغهم في بعض المكاتب أو المقاهي وليلاً في مربوعة ذوي العائلات بالتوالي، الكاولير سالم والشيخ الهنقاري والقائم مقام المهدي موسى أو في منزل الموظفين العزاب، الشيخ ادريزة ومصطفى. وقد

خلف الشيخ ادريز للعمل كمدرس في هون رجب أبورخيص وفاضل الأمير. كان الاجتماع في المرابيع حيث السهرات الممتعة مع شرب الشاهي والسمر.

حياة بسيطة، عمل، واجتماعات تبدو رتيبة ولكنها ليست مملة، حيث نكون مشغولين بما يستجد من أحداث محلية، أو أخبار العاصمة طرابلس، وبزيارات بشير خليفة من سوكنه وخصوصاً أحمد الزقوزي من ودان لظرفه واجتماعياته، وبالزيارات الطارئة من العابرين لهون ذهاباً وإياباً مع ما يحملونه من أخبار وأحاديث.

من الشخصيات المحلية التي أذكرها في هون الشيخ مختار مازن والشيخ علي العربي، والاثنان من المتعلمين والأعيان، والأول كان مهذباً جداً، مجاملاً، لا يرى مانعاً في التعامل مع الأمر الواقع، الثاني كان نفوراً نوعاً ما، يرى في مجموعة الموظفين العرب العاملين مع الإيطاليين منحرفين عن الطريق السوي خصوصاً وأن سنوات المقاومة ليست بعيدة، ومعركة قارة عافية الشهيرة والقريبة من هون لا تزال حية في النفوس بما كان فيها من بطولات واستشهاد ودماء أريقت. وربما كان بعضها دماء أقاربه، من الشخصيات الهونية الأستاذ كامل الهوني، وهو ابن الوطني الشيخ مصطفى الهوني، وقد سجن الاثنان لأمور سياسية لعدة سنوات، وقد عمل الأستاذ كامل مدرساً وقاضياً في طرابلس بعد إطلاق سراحه. كان أديباً محباً للكتب والمطالعة. وكنت على صلة به عن طريق كلية أحمد باشا وخلوة الشيخ عبد الرحمن القلهود، وكان يزور هون تارة لمتابعة شؤونه العائلية.

209

**الزقوزي وفاضل:** يوم الخميس من الأيام المحببة لنفوس المثقفين العرب في ليبيا في الثلث الأول من القرن العشرين على الأقل، الفقيه عبد الله الزاوي كان ينتظر يوم الخميس،لأنه يجمع فيه الخمِيسية، أي ما يأتي به الأطفال من دراهم أو بيض، أجرة له على ما بذله من مجهود في تعليمهم الكتابة على الألواح أو تحفيظهم بعض سور القرآن الكريم. وكان ينتظره لأنه بقدومه يستريح من صخب الطلبة وما يسببونه له من إرهاق. نحن الطلبة كنا نفرح أيضا يوم

الخميس لأنه سيريحنا من الفقيه عبد لله وعصاه الطويلة وتقطيبته المنفرة، يوم الخميس مقدمة ليوم الجمعة العطلة عند المسلمين، وقد نظم أحد الأدباء المحلين هذين البيتين، إشارة ليوم الخميس حيث قال :

**اليوم يوم الأربعاء *** وبعده يوم الخميس**

**حضر له ما تشتهي *** واختر له نعم الجليس**

الخميس ليلاً تحلو السهرات في المرابيع وتطول، فيوم الجمعة عطلة ولا مانع من أخذ حصة إضافية من النوم.

انتظار يوم الخميس والفرحة به لازمتنا، ونحن معلمون في هون، ولازمت زملاءنا من الموظفين أيضاً. ومما يزيد اشتياقنا ليوم الخميس انتظارنا للصديق أحمد الزقوزي، معلم ودان. الزقوزي من مواليد قبيلة الهنشير سوق الجمعة، أقام في طرابلس المدينة، تعلم المتاح في تلك الفترة مثلنا وصار معلماً، المهم لمن عرف الزقوزي ليس علمه، فالعلم مسطر في الكتب وأوفر عند غيره، المهم ظرف الزقوزي، فهو عطر فواح ينتشر من الزقوزي وحوله يجعله مرغوباً ومحبباً لجميع النفوس.

الزقوزي معلم في ودان، وودان بالمقارنة بهون بلدة صغيرة ومجتمعها من الموظفين محدود جداً، ولذا كان الزقوزي هو أيضا يعد الأيام عداً، ويترقب مساء الخميس بلهفة لينتقل إلى هون بما فيها من حياة اجتماعية نشطة، وبمن فيها من أصدقائه معلمين وموظفين.

إقامة الزقوزي منتظمة في بيتنا نحن المعلمين فاضل الأمير ومصطفى السراج، وانتشار خبر قدومه المرتقب كان يؤكد أن السهرة في بيت المعلمين.

بعد المغرب يتجمع عندنا في تلك الليلة من شهر 1937/11 الأفاضل الشيخ محمد الهنقاري، وعلى الحسومي، وأحمد عبد الله، والمهدي موسى، والشمباشي عبد السلام، حضر جميعهم، الغائب الوحيد لعذر هو الكولير سالم.

السهرة تبدأ عادة في حجرة مبيتنا واستقبالنا الوحيدة بحديث متنوع، محوره الزقوزي ونكته، وآخر الأخبار من مختلف المصادر، ثم ينهمك الجميع في لعب الورق "الكارته" شكوبة أو اسكمبيل، حسب المزاج، وإذا كانت اللعبة المفضلة اسكمبيل كان الرؤساء دائماً المهدي موسى وعلى الحسومي والبقية أتباع.

نحن في أواخر الخريف، الجو في الخارج برد، ولكن الحجرة دافئة، مضاءة بقازة معلقة بالحائط، وبفنار إضافي قريب من اللاعبين.

السادة الأفاضل ملتفون في جرودهم و(متربعون) على (المنادير) البسيطة، وجو الحجرة مشحون بدخان سجائرهم وكؤوس الشاي الأخضر الصغيرة، توزع كالعادة على ثلاث فترات الثالثة الأخيرة أحلى من الثانية، والثانية أحلى من الأولى. كان حماس اللاعبين للورق طاغياً وكثيراً ما نسمع جمل: أرمِ أرمِ (التريس)، أرمِ (اللاص)، شنكة، موجيرة، كاوال، الري، الحية، مطلوع، كبوط، اصطلاحات يعرفها لاعبو الورق وما أكثرهم.

بين لعبة وأخرى، كان التعليق الحاد أو الساخر على تصرف بعض اللاعبين والإستماع إلى صوت مغنٍ مصري منبعث من اسطوانة قديمة مستهلكة مثبتة على آلة فونوغراف "الحاكي"، يردد ويعيد، ردو على جفني النوم الذي سلب، وخبروني بقلبي أين ذهب.

انسجم الحاضرون مع المغني، واختلفوا حول كلمة "سلب" البعض يقول إنها " طلب "والبعض يصر أنها "سلب"، وحاولوا التأكد من ذلك عبثاً، رغم تكرار لف الأسطوانة مرات ومرات.

تزعم فريق "سلب" علي الحسومي، وتزعم فريق "طلب" فاضل الأمير، واحتدت المناقشة وتعصب كل فريق لرأيه، كنت في فريق "سلب" دون مغالاة أو إفراط.

وكان للزقوزي دور مختلف، كان يحرض الفريقين على القتال عن غير خبث، ويسخر مع دعابة من الفريقين المتشنجين.

انتهت السهرة حوالي منتصف الليل، وغادرنا الزوار مودعين في جو مشحون، الزقوزي قرر مواصلة السهرة على حساب أخينا فاضل، وقرر التنكيد عليه، فاستمر في عتاب فاضل لأنه تصلب رأيه رغم خطئه، ولأنه لم يراع قواعد مجاملة الضيوف، أهانهم وهم ضيوف في بيته، وتفنن في الضغط على فاضل الذي رغم ما كان يعرف عنه من اعتزاز برأيه، تحمل حملة الزقوزي الطويلة القاسية أحياناً، ومتأسفاً لما صدر عنه عن غير قصد، وأفرغ كل رصيده من عبارات الندم والتوبة، ولكن الزقوزي لم يرحم وواصل الضغط فانفجر فاضل صارخاً بأعلى صوته مستنكراً تصرف الزقوزي.

منزلنا كان على طريق رئيسي، والليل ساكن وخاف الزقوزي عواقب صدى صراخ فاضل عند بعض المارة أو دوريات الحرس الليلي، فأسرع إلى إطفاء النور، واختبأ تحت لحاف سميك فوق السرير، وسكت عن الكلام المباح وغير المباح، وهدأت العاصفة في الحجرة، ولو أنها استمرت مكتومة تتفاعل داخل فاضل بفضل الزقوزى الذي بالغ في المزاح. رحمهم الله جميعاً.

210

**الموظفون الإيطاليون:** الموظفون الإيطاليون الذين أذكرهم، هم العقيد مونتشا الحاكم لمنطقة الجنوب العسكرية وعاصمتها هون، ومدير الشؤون المدنية والسياسية الكابتن كاردانو وهو من نابولي وعمره حوالي 50عاماً، كان يحترف المحاماة قبل أن يتجند، هادئ الطبع، مهذب، وهناك كاتب معه برتبة سيرجنت، عريف، نسيت اسمه، ويدير شؤون البلدية، محاسب إيطالي مدني وكان مهتماً كثيراً بحديقة البلدية التي أنشئت حول بئر ارتوازية عميقة، ماؤها حار وبه معدن الحديد، وكانت حديقة جميلة وبها مختلف أنواع النباتات، تلفت النظر بخضرتها وسط الصحراء الجرداء المحيطة بهون حيث إن بساتين النخيل بهون تبعد عنها حوالي 5 كيلومترات في حطية القصير حيث تكثر المياه، نخيل هون كما هو في ودان وسوكنه غير منظم، نبت بطريقة عشوائية، أصنافها خليط بين الجيد والرديء، ينضج ويجف في الخريف وهو في عراجينه على النخلة من شدة الحرارة. من أصنافه المشهورة الخضراي والبستيان والبرني ونوع آخر ممتاز جداً

ونادر اسمه حليمة يوجد في ودان. سواني هون تنتج الصفصفة "البرسيم" وتسمى قضباً ونوعاً من الذرة يعرف بالقافولي والبامية وتعرف بالدبلكو وغيرها من الخضروات المعروفة.

المدرسة مبنى بسيط من دور واحد بها ثلاثة فصول ابتدائية مع مكتب المدير وتوابعه والمرافق. مدير المدرسة إيطالي والمدرس الأول اسمه ماسفرا والثاني اسمه فينشقورا وكلاهما من صقلية. وبالمدرسة بوابان، امحمد طبابة من هون، وسنوسي الغزالي من سوكنه، ومعلمان عربيان كما سبق أن قلت هما الشيخ محمود ادريز ومصطفى السراج. وأبدل محمود إدريز برجب بورخيص ثم الفاضل الأمير.

211 **معلم ودان والأرواح:** من أعيان ودان الشيخ بدر زيدان، وهو شاب من عائلة زيدان الشهيرة التي كغيرها من عائلات ودان تعتز بأن نسلها يتصل بالرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، ويعتبرون أشرافاً، الشيخ بدر، وبعدها المدير بدر، كان يزور هون كثيراً لأسباب إدارية.

المدرس العربي بودان هو أحمد الزقوزي، والمدرس الإيطالي اسمه طريقروسا، وكانت تقيم والدته العجوز معه، وهي المرأة الإيطالية الوحيدة في ودان.

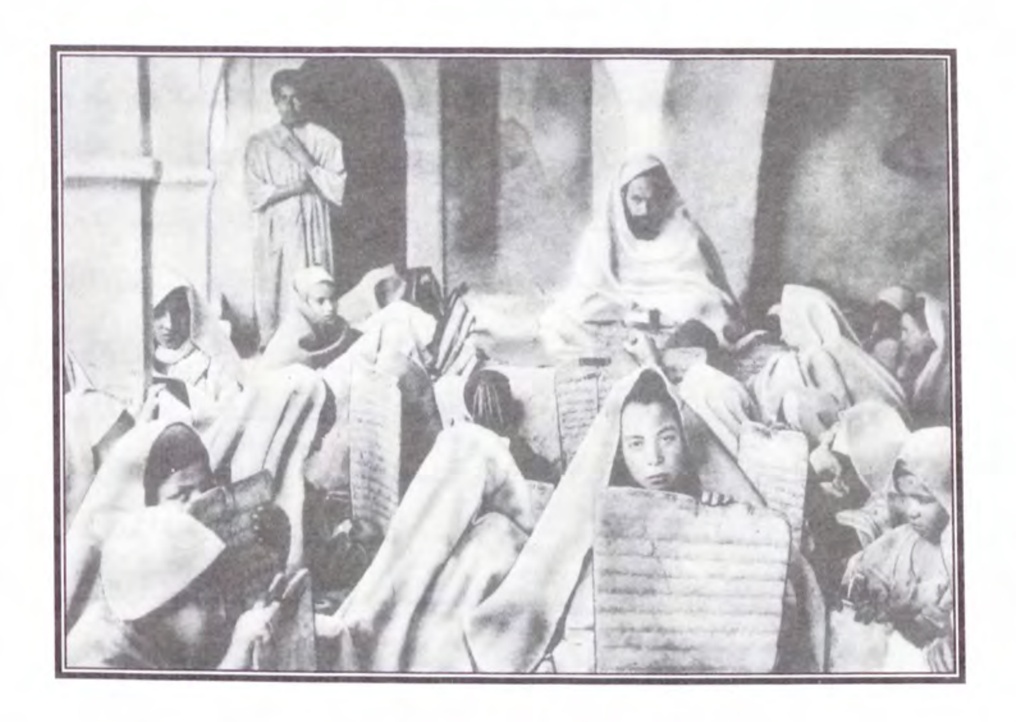
وكانت طيبة، حسنة الأخلاق، وعندما كنا نزور صديقنا أحمد الزقوزي في ودان بمناسبة الأعياد كنا نجتمع بهم كثيراً. وهذا المدرس الإيطالي على علم بتحضير الأرواح، وقد عقدنا عدة جلسات في منزله، وفي منزل الزقوزي لتحضير الأرواح. وقد كان مجالا جديداً فتح أمامي، أغرمت به، وصرت أمارسه بالكثير من السهولة. والطريقة المتبعة هي أن يجلس ثلاثة أو أربعة أشخاص حول طاولة مستديرة بها ثلاثة أرجل من خشب ويفردون أصابعهم عليها بحيث تكون حلقة تماس ويدير الجلسة أحد الجالسين ويسمى وسيطاً، وبعد شيء من التركيز يشعر بأن طاقة ما حلت بالطاولة الخشبية وأنها على استعداد للتحرك، ويقال إنها حلت بها روح ما، ويبدأ الحوار بين الوسيط الذي يدير الجلسة والروح. والتفاهم يتم بطريقة

التنقير، حيث تميل الطاولة مرتكزة على رجلين وتدق بالثالثة، ويتم الاتفاق على أن تعتبر كل دقة رقماً أو حرفاً. من مجموع هذه الأرقام أو الأحرف يتكون الحوار.

طريقة معقدة نوعاً ما، ولكنها شائقة ومثيرة، استهوتني. علمت فيما بعد أن الموضوع واسع واهتم به الكثير من الأشخاص والشخصيات المشهورة والهيئات المدنية والدينية. والخلاف حوله كبير بين مؤيد ومنكر، والطريقة التي تعلمتها من المعلم الإيطالي هي الدرس الأول.

212 **الأرواح والسيارة:** عقدت عدة جلسات للأرواح في منزلي بهون وفي منزل الشيخ الهنقاري، وقد تعلمها ومارسها غيري، ولكني لم أخرج منها برأي يؤكد صحة المعلومات التي تجمع منها، فهي متضاربة. تارة الطاولة تقول الحقيقة وفي الغالب تبعد عنها كثيراً. وعقدنا جلسات كثيرة متنوعة حتى في أمور تافهة، أذكر أننا كنا بودان بمناسبة عيد الفطر وننتظر سيارة تعود بنا إلى هون لنستأنف العمل في اليوم التالي ولكن السيارة تأخرت والاتصال مع هون متعذر. فأقترح عقد جلسة أرواح شاركني فيها المدرس الإيطالي والشيخ الهنقاري، أما الزقوزي فلم يهتم بالموضوع لأنه كان يهزأ بطبعه من كل شيء تقريباً. وربما كان يفكر في إعداد العشاء إذا تأخرت السيارة كما حصل فعلاً. عقدت الجلسة وكنت أنا الوسيط ولم نطلب روحاً معينة، اكتفينا بأول محاور، وكان من سكان المنطقة توفي منذ 450 سنة وأخبرنا أن هناك سيارة على طريق هون _ ودان على بعد 10 كيلومتر من هون. صدقنا وانتظرنا مدة ولم تصل أي سيارة وما كان علينا إلا أن نبيت ليلة أخرى عند الزقوزي.

وكان (التنكيت) حول الجلسة والوسيط وحول الأخبار التي جمعت، والمدرس الإيطالي يشرح مختلف النظريات في الموضوع، والزقوزي يسخر منا ومن الأرواح التي اتصلت بنا إن وجدت حقاً، ويقول إن المرحوم المتوفى منذ 450 سنة لا يعرف ما هي السيارة ولربما رأى ناقة على طريق هون _ ودان فاعتبرها سيارة، في اليوم التالي حضرت السيارة الحقيقية وعدنا بها وأقفل موضوع العودة، ولكن موضوع تحضير الأرواح لم يقفل.



كتاب لتعليم القرآن الكريم بالألواح 1925



تلاميذ مدرسة هون مع المعلمين مصطفى ، مسافرا ، فيشقورا، فاضل 1937

213 **الكولونيل موتشا ضاع:** قلت إن أمر موضوع تحضير الأرواح لم يقفل، الموضوع يظهر ويختفي، تارة تضغط عليه الأحداث وينزل إلى آخر قائمة الأولويات، وتارة أخرى يطفو على السطح، وقد برز صيف سنة 1937 قبيل إقفال المدارس والعطلة الصيفية. كان مجتمع هون أو على الأقل الموظفون ومن في حكمهم مشغولين بأخبار الكولونيل موتشا الذي سافر منذ يومين من هون إلى الكفرة جواً بطائرة عسكرية برفقة بعض مساعديه، وفجأة انقطعت أخباره ولم يصل إلى الكفرة.

الجنوب العسكري والسلاح الجوي في كل ليبيا في حالة استنفار، الحاكم العام مرشال الجو بالبو يتابع شخصياً حملة البحث.

كنت عائداً من المدرسة ظهراً إلى منزلي، الحر كان شديداً، كان يسكن معي الزميل رجب أبورخيص وكان يخدمنا الشاب أحمد الوداني، جو الحجرات التي كانت مقفلة وشبه مظلمة كان رطباً وأحسن من حر الشارع، رجب أبورخيص كان في حجرته نائماً، أحمد الوداني كان يحضر الأكل، وقد كان كالعادة أرزاً (مبكبكا)، وأنا في انتظار الأكل، سيطرت علي فكرة عقد جلسة لتحضير الأرواح للاستفسار عن مصير الكولونيل موتشا، وأغلقت على نفسي الحجرة وكانت بها طاولة متعددة الأغراض، ومنها تحضير الأرواح.

214 **روح ماركوني:** جلست وحدي، وبعد إجراء الطقوس المتعارف عليها، طلبت روح ماركوني العالم الشهير وعلمت منه أن الكولونيل موتشا مات في حادث سقوط الطائرة، وأردت أن أؤكد الخبر فطلبت روح الشاعر الإيطالي الشهير غابرييلي دانونتسيو، الذي اشتهر بوطنيته المتطرفة وشطحاته وطيرانه على مدينة تربيستي التي كانت تطالب بها إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى، فأكد لي هو أيضاً ما قاله ماركوني. عندئذ فكرت وقلت..إذا كان موتشا مات فعلاً، كما يقولون لماذا لا أستدعي روح موتشا نفسه، وأستعلم منه مباشرة وقد كان ذلك ... وكان بيني وبينه حوار مثير، سؤال وجواب، وأكد لي أنه مات في حادث سقوط الطائرة،

على بعد حوالي 300 كيلومتر من هون، في منطقة تسمى بير غزي، وطلبت منه أن يملي علي رسالة يوجهها إلى نائبه في القيادة في هون، فبدأ الحديث بالكلمتين الإيطاليتين أنا المسكين، ثم الحديث تشوش، وقد تأثرت كثيراً في الجلسة واضطربت الجلسة وخفت فأوقفتها بصعوبة بعد أن مالت الطاولة بطريقة غير مألوفة تكاد تقع على الأرض.

بعد أن استرحت من شدة الإجهاد جاء أحمد الوداني بالأرز (المبكبك) فتناولت منه قليلاً وكنت مشوش التفكير لما كان لدي من الأخبار تجمعت من عدة مصادر لها شأنها، ولا غبار عليها، وحتى بالبو لا يعرفها، وحدثتني نفسي أن أذهب إلى نائب القائد وأخبره بما حدث، كنت متردداً لماذا التحمس لإبلاغ خبر مكروه ربما يؤول تأويلات أنا في غنى عنها، وكنت في صراع داخلي تغلب فيه الشعور بالتريث.

وفي الغد كانت المفاجأة !!! انتشر خبر عن القيادة مفاده أن الكولونيل مونتشا وصل الكفرة، وأفاد بأن الطائرة قد تعطلت بسبب زوبعة رملية، وسقطت وكانت محاولات لاستئناف الطيران دون جدوى، والماء كان على وشك النفاد والموت شبه محقق، وعند المحاولة الأخيرة، أقلعت الطائرة، ووصلت إلى الكفرة، والكولونيل ورفاقه، يشكرون كل من تابع أخبارهم، وسعى في البحث عنهم.

كان للخبر أصداء عديدة في المجتمع، وفي نفسي كان صداه أعمق وهزني كثيراً، بالأمس كان الحديث مع الأموات ماركوني، دانونتسيو ومونتشا واليوم مونتشا نفسه يعلن سلامته ويشكر من اهتم بالبحث عنه، ماذا يعني هذا ؟ التفاسير كثيرة وجميعها رجم بالغيب.

215 **محاولة الاتصال بروح الوالد:** مازلنا في موضوع تحضير الأرواح، مرت سنوات وتوفي بعدها والدي في سنة 1940م، إبان سنوات الحرب العالمية الثانية، وكنت مع إخوتي ضيفاً على إخوالي في سوق الجمعة قبيلة أولاد الحاج، هروباَ من الغارات الجوية التي كانت متوالية على مدينة طرابلس، وشعرت

بالحاجة للاتصال بروح والدي بعد أسابيع من وفاته، وعدت إلى تحضير الأرواح، وأردت تطوير وسيلة الاتصال من الطاولة إلى قطعة من الخشب مساحتها40 في 40سم مرسوم عليها دائرة، حولها أرقام وحروف، ومثبت على محورها عقرب من خشب، مثل عقرب الساعة، وكنت أتوقع أنه بعد وضع أصابعي حول الدائرة، تتحرك العقرب وتشير إلى الرقم أو الحرف المطلوب ويتم تجمع الكلمات أو الجمل، وهذه الطريقة مذكورة في بعض الكتب التي تبحث في موضوع تحضير الأرواح، وكنت قد اطلعت عليها فيما سبق. وكنت أحتاج متلهفاً إلى من يشاركني في هذه الجلسة ولو شخصاً واحداً حتى أختبر الطريقة الجديدة وأتصل بالوالد.

لم ارغب في إشراك إخوتي في العملية، وفكرت في مختار العالم الصديق القديم، وهو يقيم في سوق الجمعة منطقة آمنة، على بعد خطوات من أولاد الحاج، وصار منذ أكثر من سنة عديلاً لي، أي تزوجت أخت زوجته، كنت أذهب إليه ليلاً ونحاول عقد جلسة الأرواح ولكن بدون فائدة، فالعقرب لم تتحرك، ومختار العالم كلما تدخل العملية مرحلة حاسمة، يضحك. ووالده الشيخ محمد أبوالأسعاد العالم شعر بتوالي الزيارات وبمحاولاتي مع الأرواح، وأذكر أنه دعاني للاجتماع به، ونهاني بأسلوب مهذب جداً عن ممارسة مثل هذه الأمور، شارحاً لي أن تحضير الأرواح لم يثبت علمياً وأن الدين غير راض عنه، والمحاولة لا فائدة منها.

إذا كنت أحب والدي فعلاً يجب تركه أينما هو، وأن ندعو له بالرحمة الطرق المعروفة وأن نتفرغ لمجابهة ظروف الحياة الصعبة التي تواجه عائلتي كما تواجه جميع العائلات بمناسبة الحرب وويلاتها، وما يتبعها من فقدان الأشياء الضرورية، وارتفاع أسعارها، كنت أحترمه فأثر في، ولم أعد إلى تحضير الأرواح..

216 **تحضير الأرواح في بنغازي:** مرت سنوات، وتغيرت أمور كثيرة، ونحن في بداية الخمسينيات، وكانت البلاد مشغولة بموضوع سياسي كبير العمل على استقلال ليبيا الموحدة، وكانت التيارات تتعاون وتتعاكس، كنت ضمن وفد كونه الأمير محمد إدريس السنوسي من شخصيات المؤتمر الوطني العام، ورئيسه بشير بي السعداوي، ونائبه الشيخ محمد أبوالأسعاد العالم في زيارة

لبنغازي للاجتماع بوفد يمثل الشخصيات من برقة بمختلف تياراتها، للتفاهم وتنسيق المواقف، ولتكوين رأي موحد تتقدم به ليبيا في المحافل الدولية، وصلنا بنغازي وعقدنا عدة اجتماعات تمهيدية وكنا ننتظر رئيس المؤتمر بشير بي السعداوى الذي تأخر عن الموعد في القاهرة حيث كان يتابع نفس الموضوع مع الجامعة العربية والحكومة المصرية.

ليلاً كنا نجتمع في قاعة فسيحة، في فندق يقع بميدان البلدية، وكانت لقاءات وزيارات مع بعض الشخصيات، ومجاملات، وسهر، وسمر لملء الفراغ في انتظار بشير السعداوي الذي صار يعرف بزعيم الأمة، وفى إحدى الليالي دخلت الصالة، فاتجهت إلي الأنظار، وسمعت أصواتا من بعض الحاضرين تقول أهو مصطفى وصل فاستغربت ماذا حدث ؟ علمت فيما بعد أن موضوع حديث الحاضرين ومن ضمنهم الشيخ أبوالأسعاد العالم والشيخ عبد الحميد الديباني، قاضي بنغازي الشرعي، والشيخ عبد الرحمن القلهود، وغيرهم من الموجودين من الشخصيات، كان تحضير الأرواح، وتشعب الحديث بينهم كما هو متوقع، ويبدو أن بعض الحاضرين ذكر أن مصطفى السراج على دراية بتحضير الأرواح ومارسها، ولذا عندما دخلت الصالة كان الإلحاح بعقد جلسة أرواح. اعتذرت، وتمنعت، ولكن الضغط كان شديداً وانضم إلي الملحين الشيخ الديبانى، والشيخ أبوالأسعاد العالم الذي سبق أن نهاني عن فعل ذلك قبل سنوات. فوافقت وأخذنا نستعد ونبحث عن الطاولة وعن الراغبين في الاشتراك في الجلسة وكان أحدهم أحمد زارم ومن شباب المؤتمر علي المسلاتي ومحمد ميلاد مبارك وعلي مصطفى المصراتى وغيرهم، عقدنا الجلسة بحضور الجميع، ولا أذكر من هي الروح التي استدعيت، بالنسبة لي كانت جلسة مثل الجلسات الكثيرة السابقة، ولكن وقعها على الحاضرين كان شديداً.

لأول مرة يشاهدون جلسة أرواح، سمعوا بها، وقرأوا عنها ولكنهم لم يشاهدوها فعلاً، وكان التعليق، وانقسمت الآراء بين مصدق ومعارض، البعض يتهم الوسيط وربما كنت أنا المقصود في هذه المرة الذي يضلل ويتلاعب ويخادع.... الموضوع أخذ شكلاً جدياً، شخصياً يكاد يكون اتهاما صريحاً، فأردت تحدى من كان يهاجمني، فاقترحت لكوني أنا المتهم بتحريك الطاولة، بأساليب

خفية، فإنني سأشترك معهم في بداية الجلسة، وبعد حضور الروح أنسحب، أتركهم وحدهم يحركون أو لا يحركون الطاولة، قبل البعض بذلك، والبعض كان خائفاً، وقد عقدنا الجلسة وأنسحبت، وأدرت الجلسة من بعيد، كنت لأول مرة أجرب هذه الطريقة، فدهشت أنا أيضا بنجاحها بشكل غير متوقع، صارت الطاولة تتحرك بسرعة وبصورة واضحة، لافتة للنظر، خاف الجميع من نتائجها، فرفعت الجلسة وأسدل الستار ولم أعقد جلسة لتحضير الأرواح منذ ذلك الوقت ونحن الآن في سنة1998.

موضوع الروح محير، شغل ومازال يشغل وسوف يشغل الناس، ولكن المتوفر إلى الآن من المعلومات، يؤكد ما جاء في الآية الكريمة سورة الإسراء، "ويسألونك عن الروح،قل الروح من أمر ربي، وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " صدق الله العظيم. وسوف تتضح الأمور أكثر مستقبلاً عندما يأذن الله عز وجل، وينعم الإنسان بفضل من الله بعلم أكثر يساعده على اكتشاف أمور غامضة عنه حتى الآن، والله ورسوله أعلم.

217 **الراديو والموسوعة الإيطالية:** سرحت بنا الأرواح بعيداً عن هون وعن سنة 1937 وقد حاولت تلخيص ما بقي في الذاكرة حول هذا الموضوع الشائق والآن أعود إلى هون وإلى سنوات إقامتي بها في النصف الأخير من الثلاثينيات، الإضاءة في بيوت هون أو بعضها أو في أكثرها سنة 1937 كانت بالقازة والفنار والكيروسين، والإقامة صيفاً في حجراتها غير مريحة، ولذا استأذنت من مدير المدرسة الإيطالي، أن أسهر في مكتبه بالمدرسة حيث الإضاءة بالكهرباء، وبه جهاز الراديو صنع ما ريلي، ومكتبة إيطالية صغيرة من ضمنها مجلدات من موسوعة موندادوري للصغار، اطلعت عليها فأعجبتني، أذن لي مع شيء من التقدير، لأنه رأى في ذلك رغبة في زيادة ثقافتي. ولقد صرت أتردد على المدرسة ليلاً عندما لا تكون سهرات عند الأصدقاء من الموظفين،وأبقى بجانب الراديو محاولاً الاستماع إلى إذاعة القاهرة، التي كانت تسمع ضعيفة وتارة مشوشة، وعندما يتعذر علي ذلك، أطالع موسوعة الصغار،وقد كانت مواضيعها

متنوعة،وأسلوبها جذاب، ينفع الصغار والكبار، شدتني إليهـا، وبمناسـبة الإذاعـة والراديو أذكر أن الإذاعات العربية لم تكن معروفة، وإن وجدت فضعيفة، فـضلاً عن أن أجهزة الراديو لم تنتشر، وإن وجدت كانت عند بعض الذوات مثل الكوالير سالم في هون، حيث في إمكانه الاستماع إلى الإذاعات الإيطالية باللغـة الإيطاليـة وباللغة العربية من محطة باري الموجهة إلى العالم العربي في ساعات محدودة.

كنا بمربوعته الفسيحة في إحدى سهراته عندما افتتحت لأول مرة إذاعة مـن محطة طرابلس باللغة العربية، في ليلة من ليالي الصيف سنة 1937 على ما أذكر، وقد كنا حول المذياع لنتابع الحدث.

أذكر أن الشيخ أبوالربيع البارونى ألقى فيها كلمة، حيى فيها الشيخ ماركوني مخترع الراديو، وقد لقبه بالشيخ لأن ماركونى كان عضواً في مجلس الشيوخ، وقد كانت كلمة الشيخ الباروني موضوع تعليق وتندر من الموجودين. بعد افتتاح إذاعة محطة طرابلس باللغة العربية انتشرت أجهزة الراديو، وقد اشترى والدي وأعمامي أجهزة ماركة ماريلي المشهورة،من شركة دي مايو الإيطالي وبالتقسيط.

218 **هون والتيفود:** في آخر سنة 1936 المدرسـية حـدثت إصـابات بمرض التيفود القملي بين بعض السكان،وكان من بين المصابين زميلـي الـشيخ محمود ادريز، اهتمت السلطات العسكرية الصحية بالأمر، وفرضت الحجر الصحي على هون، ومنعت الخروج من منطقة ما حول هون إلا بإذن، وفرضـت حجـراً صحياً على منزل المعلمين، محمود ادريز المصاب وزميلـه مـصطفى الـسراج والشاب أحمد الوداني الذي كان يعولهما، ومنعت الدخول والخروج من المنـزل إلا على الضابط الطبيب، والممرض الليبي الهوني، ومساعد له من الجيران اسـمه أو لقبه الجنزان، كانت مشكلة كبيرة، الشيخ محمود كانت درجة حرارته مرتفعة وفـي هذيان، وتصدر عنه حركات وأقوال كأنه مجنون، ومصطفى سليم، ولكنه معـرض للإصابة وعلى اتصال بالمريض حيث كنت أعوله بالتعاون مع أحمد وكنت مهـدداً بالإصابة، والإصابة تكاد تكون محققة، ولكني لم أكن خائفاً، لا أدرى لماذا ؟ إنـه شبه استسلام للواقع، كنت متضائقاً من العزلة والإقامة الجبرية، أكثر من المرض.

أذكر في ليلة شديدة الحرارة كنت ممتداً بجنب المريض الذي كان نائماً أو ربما في غيبوبة، وفي ساعة متأخرة بعد منتصف الليل، استيقظ المريض فجأة، في حالة هيجان، فحاولت السيطرة عليه مع أحمد وربطه خوفاً عليه وخوفاً منه، ولكنه تغلب علينا وكأنه عفريت، كان يريد الخروج عارياً من الحجرة بعد أن خلع ملابسه، فأسرعنا بإقفال الحجرة عليه وبقينا خارجها، وأرسلنا أحد الجيران ليستنجد بالطبيب الذي جاء متأخرا مع الممرض، لأنهما كانا يتابعان حالات أخرى، أخبرته بما حدث فغضب كثيراً ونهرني وكاد يضربني، لماذا أخرج من الحجرة وأترك المريض وحده في تلك الحالة، المريض عرضة لأن يؤذي نفسه، بأن يشعل حريقاً في الحجرة أو المنزل لوجود الفنار الذي به الكيروسين، هربت من هياج المريض، فوقعت في هياج الطبيب، وأخيراً تقرر اقتحام الحجرة، استعد الطبيب والممرض ومصطفى وأحمد، وكان المريض واقفاً وراء الباب المقفل من الخارج، وكان الممرض يحاول التفاهم مع الشيخ محمود الذي كان غير واعٍ تارة يضحك وتارة يسب ويشتم بصوت عالٍ، ونحن نستعد لاقتحام الحجرة، أذن الفجر،فهدأت العاصفة داخل الحجرة فجأة، فتحنا الباب ودخلنا، وجدناه ممدداً وسط الحجرة عارياً، مجهداً، ولكنه حي، فاسترحت وتركت الأمر للطبيب والممرض وأحمد الوداني الذي بعد سنوات صار ممرضاً هو أيضا. ولم أدرك السر لما حصل في الدقائق الأخيرة هل هناك علاقة بين أذان الفجر وحالة المريض؟ أو مجرد الصدفة ؟ بلغ الإجهاد لحظة أذان الفجر ذروته فانهار المريض مغشياً عليه؟ معلوماتي التمريضية وحالتي النفسية المتوترة جداً لم تترك لي مجالاً للتفكير في السبب.

بعد أسبوعين بدأت حالة المريض تتحسن، وأنا لم أصب بالمرض، وأمر الطبيب بغلي الملابس وكل المنسوجات التي كنا نستعملها، فأُحضر قدر كبير وكمية من الحطب وكلف الجنزان جارنا مساعد الممرض بالقيام بذلك، فكان حريصاً على تنفيذ التعليمات بدقة بدون أي مراعاة لنوع أو لون الملابس، فكانت خليطاً أحمر على أخضر على أصفر جميع ألوان قوس قزح ومشتقاتها اختلطت في القدر الكبير.

219 **ممنوع مغادرة هون:** رفع الحصار عن المنزل، ولكن لم يرفع عن أشخاصنا، ممنوع علينا الخروج من هون، انتهت الدراسة، وحلت العطلة الصيفية، واشتدت الرغبة والحنين إلى طرابلس والأهل والأصدقاء مع اشتداد الحر، فصرت ملازماً للشيخ محمد الهنقاري، إما في مكتبه أو في مربوعته ليلاً..المنع من السفر مازال مستمراً، وكل ممنوع مرغوب، تجرأت وطلبت مقابلة القائد العام في المنطقة الكولونيل مونتشا، رجوته رفع الحصار، وتلطف معي كثيراً رغم المسافة الرسمية التي تفصل بيننا، فأخذ يشرح لي أن المنع من السفر هو لصالحي، ولصالح عائلتي وأعزائي في طرابلس، خوفاً من انتقال العدوى لهم، واتصل بالضابط الصحي، واستفسر عن مدة الحجر الصحي، فأخبرني أن المدة لن تزيد على عشرة أيام فخرجت منه مطمئناً مجبور الخاطر، وصرت أهتم بالعد التناقصي للعشرة أيام.

عدت إلى طرابلس على بعض السيارات الناقلة للبضائع، وكنت محظوظاً حيث تحصلت على مكان جنب السائق، وعندما نجتاز القداحية ونقترب من ساحل البحر، تهب علينا نسمة البحر المنعشة تنعش نفوسنا معها، ونشعر كأننا وصلنا إلى الأهل.

الإقامة في طرابلس أثناء العطلة الصيفية تتخللها زيارات الأقارب والأصدقاء، وسهرات، (وزردات)، واجتماعات في خلوة الشيخ عبد الرحمن القلهود التي لم يفارقها، والتردد على مصيف في حي الأندلس حالياً كل مساء. أيام العطلة تمر بسرعة ككل الأيام الحلوة، ونقترب من الخريف ويتجدد فينا حنين العودة إلى هون ومجتمع هون، استمر عملي في هون مدرسا لمدة أربع سنوات، حدثت أثناءها أمور مازالت عالقة بالذاكرة وسأذكرها.

220 **سفر الفرقة الليبية إلى الحبشة:** في سنة 1935 وقعت الحرب الإيطالية الحبشية، ويعذرني القارئ من عدم تحديد التواريخ بدقة فهذا عيب في، وأعتقد أنه لا سبيل إلى إصلاحه الآن بعد هذه السن 82 أو 83 سنة، كانت إيطاليا قد قررت احتلال الحبشة، وكانت تتحرش بها، وتخلق الأسباب، وتهيئ الجو

العالمي لذلك، وتدعي دائماً أن الحبشة هي المعتدية. لقد جندت إيطالياً فرقة من حوالي 35 ألف شاب ليبي، وأرسلتهم يحاربون الحبشة، ومازلت أذكر موعد سفرهم من ميناء طرابلس بالبواخر، وكانت الحشود من الجنود الليبيين وأهاليهم في منطقه باب الجديد، بالقرب من مصنع التبغ حيث يوجد الآن جامع بورقيبة، إنهم خليط من البشر منهم من يودع ومن يبكي ومن (يهاجي) وكأنه مسافر للجهاد في سبيل الله أو الوطن، وقد اجتهدت الدعاية الإيطالية في تركيز معنى محدد في نفوس السذج وهو أن حرب اَلليبيين في الحبشة هي حرب مقدسة، ضد أناس همج وثنيين، يأكلون لحم البشر، ولليبيين ثأر مع الأحباش حيث حاربوا الليبيين في سنوات مضت أثناء احتلال إيطاليا لليبيا وكان يقال في تلك الفترة أيضا: إن الجنود الأحباش والاريتيريين والصوماليين كانوا يأكلون الأطفال لإحداث نوع من الرعب والفزع في نفوس الأهالي العرب العزل، وإذكاء روح الكراهية بينهم وبين الأحباش، وقد استغل هذا الشعور الدفين الآن ببراعة.. كان للفرقة علم كبير أسود اللون، وشعار الفاشيين كان اللون الأسود، ومكتوب عليه بخطوط الفضة المطرزة " فرقة ليبيا اللهم احفظ إيطاليا " كأن إيطاليا هي المعتدى عليها.

وكان أحد مخرجي مهرجان سفر الفرقة، القبطان خليفة الجحيشي من ككلة، وقد كان شاباً قبل الاحتلال، درس في المدارس العسكرية التركية، تخرج برتبة ضابط، عرفته شخصياً كان وقوراً مثقفاً وطنياً في صميمه قوي الشخصية، اضطرته ظروف تلك الفترة للقيام كغيره بما كلفته به السلطات الإيطالية من مهام.

التنافس بين الدول الاستعمارية كان شديدا، إنجلترا وفرنسا من جهة، وإيطاليا ومن معها من جهة أخرى، وفرضت عصبة الأمم ومقرها جنيف، قبل الحرب العالمية الثانية، فرضت بتحريض من إنجلترا وفرنسا الحصار الاقتصادي على إيطاليا لغزوها الحبشة، وقد طبق فعلا دون تأثير كبير علينا. كانت حركه التهريب بين تونس وطرابلس نشطة جدا، وربما كان ذلك بمعرفة فرنسا المسيطرة على تونس لتفسح المجال للبضاعة الفرنسية والاستفادة من السوق الليبية ( تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى).

**221** **حتى روما باهية:** انتصرت إيطاليا علي الحبشة كما كان متوقعا، ولجأ الإمبراطور هيلاسيلاسي إمبراطور الحبشة إلى فلسطين تحت حماية الإنجليز، وقد كانت فلسطين في ذلك الوقت تحت الانتداب الإنجليزي، وأعلن موسيليني زعيم الفاشية، رئيس حكومة إيطاليا، أعلن أن فكتور عمانؤيل الثالث ملك إيطاليا، صار ملكاً لإيطاليا وإمبراطوراً على الحبشة، أعلن ذلك في حفل كبير في روما، ضم شخصيات من شتى أنحاء إيطاليا والبلدان الصديقة لإيطاليا والمستعمرات، ومن ضمنهم شخصيات من الصحراء الليبية، من زعماء طوارق غدامس وغات بملابسهم التقليدية المميزة. وعند العودة من الزيارة أراد الضابط الإيطالي حاكم غات مجاملة زعيم الطوارق بها بعد عودته من زيارة روما، فدعاه إلى حفله شاي وسأله عما شاهده أثناء الرحلة وانطباعاته، ثم سأله سؤالا محدداً أيهما أحسن روما أو غات ؟ فأجابه بعفوية حتى روما باهيه!! .

كما تروى قصة أخرى وهي تدل على طريقة تفكير سكان الصحراء، يقال انه وقعت مشاجرة بين قبائل التبو وغيرهم استعمل فيها بعض السلاح الخفيف، وعقدت محكمه عسكرية لمحاكمة الجناة يرأسها ضابط شاب إيطالي متحمس لتطبيق نص القانون، وكان من بين الشهود أحد شخصيات التبو المعروفة برتبة مدير، فمثل أمام رئيس المحكمة كأنه شخص عادي واقف، وطلب منه أداء اليمين، ثم صار يستجوبه عن اسمه، وعن أبيه ولقبه واسم أمه وسنه وغيرها من الأسئلة التقليدية التي أقلقته. وزاد الأمور تعقيداً عندما سأله القاضي العسكري بعد اسم أبيه وأمه وعن حرفته، فتضايق جدا واعتبرها إهانة، يعامل كأنه نكرة، فأجاب باعتزاز "غزاي بل " أي قاطع طريق، فاستغرب القاضي من الجواب وقال: كيف تقول هذا وأنا أعرف أنك مدير؟ فأجابه بحدة مادمت تعرف أني مدير لماذا تسألني عن حرفتي، وعلى كلٍ، فإن وظيفة مدير التي عينتموني بها مؤقتة، وسأعود إلى حرفتي الأصلية "غزاي بل" عندما تعودون إلى إيطاليا! اغتاظ الضابط الفاشي والقاضي من الجواب الذي أراد زعيم التبو أن يثأر به لنفسه، وكان يتضمن معنى

سياسياً عميقاً، ورفع أمره إلى رؤسائه الذين طلبوا منه تجاهل تصرف مدير التبو وأقفل الموضوع.

222 **مصطفى والملك الإمبراطور في غدامس:** أراد بالبو الذي كان يحب الحفلات والمظاهر أن يدعو ملك إيطاليا والإمبراطور الجديد لزيارة ليبيا التي نظمت تنظيماً إداريا جديداً،صارت المناطق الساحلية محافظات إيطالية وصار سكانها من العرب إيطاليين مسلمين، يمنحون ما يعرف بالجنسية الإيطالية الخاصة، ووصل الملك الإمبراطور إلي طرابلس، وكانت احتفالات صاخبة، وكان مقرراً زيارة الإمبراطور لغدامس لؤلؤة الصحراء كما كانت تلقب في ذلك الوقت.

أعدّ وفد كبير من شخصيات الصحراء الليبية ليكون في غدامس لاستقبال الإمبراطور، وسعيت للانضمام للوفد، كانت فرصة تاريخية، وكانت تتضمن زيارة طرابلس في العودة، وكنت تواقاً لمعرفة المزيد من مدن الوطن، وكانت علاقتي مع الكوالير سالم ودية وأفادت في ذلك، وكانت الرحلة.

وفي انتظار قدوم الزائر الكريم العظيم استمتعت كثيرا بالتجول في غدامس ذات الطابع المعماري المتميز، كما زرت عين الفرس الشهيرة التي كانت بساتين غدامس بنخيلها الجميل تروى بمائها الغزير واطلعت مباشرة على الطريقة المتبعة في توزيع الماء بنظام دقيق.

كانت طريقة الري وتنظيمها فريدة في نوعها من ابتكار سكان غدامس الأقدمين، الطريقة عبارة عن ساعة مائية، أي علبة من النحاس، بأسفلها ثقب تملأ بالماء وتفرغ في مدة معينة، وهذه هي وحدة القياس، وتسمى القادوس، أصحاب البساتين مسجلون، ولكل واحد حصته في الماء حسب مساحة بستانه، ومدة الحصة تقاس بالقادوس، لهذا ثلاثة قوادس، ولهذا أربعة قوادس، وللآخر سبعة، والموظف المكلف بالإشراف على العملية يتولى ذلك بيقظة ودقة وبمقابل، وعند انتهاء مدة فلان يرسل مع الماء الجاري أمامه قطعة من الخشب بشكل معين تطفو على الماء، وعندما ما تصل إلى الشخص الذي يسقي بستانه، يعرف أن مدته قد انتهت، فيغلق

الماء على بستانه، ويفتحه على البستان الذي يليه،وهذه الطريقة مع بساطتها عملية، وخصوصاً أن الجميع يلتزمون بقواعدها.

الملك وحاشيته أقاموا بفندق عين الفرس الملاصق للعين.كانت نخبة من وفد الصحراء مدعوة للحضور مساء في ساحة الفندق للتشرف بمقابله الملك الإمبراطور، وكنت من ضمنها مع سالم الصادق والشيخ محمد الهنقاري وعلي الحسومي وبدر زيدان، كنا صفا وقوفا مادي الأذرع بالسلام الفاشي، وهو عبارة عن رفع الذراع الأيمن بدرجة 25 إلى أعلى واليد مفتوحة والأصابع متلاصقة وكان مع الملك الحاكم العام بالبو، وكان المطلوب من كل واحد أن ينزل يده عندما يكون الملك أمامه ويسلم عليه بالمصافحة ويذكر اسمه وصفته. وأذكر أن الملك سألني عن سني فأجبت 20 سنة ثم سألني إن كنت أحب أكل المكرونة فأجبت بنعم. إنه سؤال ملكي غريب؟! وعلى المطلع على هذه الذكريات أن يستنتج منه ما يريد..

223 **مؤتمر هون والشوشة في الإسلام:** في مجال النفاق السياسي

أذكر أن الحاكم العام بالبو قرر إقامة مؤتمر كبير للعلوم الدينية والاجتماعية في هون حضره هو، ومجموعة من كبار أعوانه والكولونيل موتشا وحضره من العلماء الليبيين قاضي القضاة وقاضي طرابلس الشيخ محمود أبورخيص، وابنه الشيخ توفيق أبورخيص قاضي مصراته، والشيخ عبد الحميد الديباني قاضي بنغازي، والشيخ عبد الكريم عزوز قاضي درنة، والشيخ محمد الهنقاري قاضي هون، ومجموعة من الموظفين والأعيان، عقد المؤتمر في عنبر كبير في المطار، الوالي وحاشيته والعلماء كانوا جلوسا على كراسٍ، أما البقية فكانوا جلوسا على الحصير على الأرض، المواضيع تافهة جداً، أذكر منها موضوع الشوشة، ورأي الدين فيها، "الشوشة هي خصلات طويلة من شعر رأس الرجل تبقى على قمة الرأس ولا تحلق بينما بقية شعر الرأس يحلق بالكامل بالموسى "، وكانت عادة شائعة بين الناس في ذلك العهد، وكان العوام يضفون عليها صفات القداسة أو ما شابه ذلك،وكان يعشش فيها القمل وكانت مصدر إزعاج بالنسبة للمسؤولين عن المجندين

الليبيين، والسلطات تريد إزالة الشوشة من باب النظافة والصحة العامة، وإزالة وكر من أوكار القمل ومنع عدوى بعض الأمراض مثل التيفود، أو غيرها، والجنود يصرون على الاحتفاظ بها بحجة أن الدين الإسلامي يحث عليها ويحترمها وكأنها ركن من أركان الإسلام.

عرضت المسألة للبحث، فتولى ضابط مسؤول عن الإدارة الصحية شرح الموضوع بإفاضة، ثم طلب رأي العلماء في الشوشة، وأدلى كل واحد بكامل وقاره برأيه، وهم يؤكدون أن لا دخل للدين في هذا الموضوع وأنه برئ من الشوشة ومشاكلها، وقد عرض الشيخ عبد الكريم عزوز قاضي درنة وهو في غاية الظرف، من باب التهكم المستتر، عرض بإسهاب، وبأسلوب مسرحي ملخصه، أن الشيطان عدو الإنسان، وهناك رأي يقول إن الشيطان يستظل تحت الشوشة، ولذا فإن الرأي السديد هو إزالة الشوشة، حتى يحرم الشيطان من مظلته، قوبل رأيه بالتصفيق من الجميع.

224 **قصيدة تزعج السلطات الإيطالية:** كل هذا والحصار السياسي مضروب على الليبيين لا يسمح لهم بدخول الجرائد أو المجلات السياسية باستثناء المجلات الأدبية مثل مجلة الرسالة وبعد عرضها على الرقابة. وقد حدث أن نشرت مجلة الرسالة قصيدة لشاعر مصري حول حرب إيطاليا للحبشة ويشيد فيها ببطولة الأحباش وعدالة قضيتهم مطلعها على ما أذكر :

**أمة الأحباش يا أسد الحمى علمي الطليان درس من بغى**

وقد مرت على الرقابة دون الآنتباه إليها. إنها مجرد قصيدة في مجلة أدبية، وبعد أن وزع العدد، وكانت شركة أبناء المشيرقي التي تبيع المجلات والاسطوانات تحتفظ بطلب من سلطات الأمن، بسجل يحمل أسماء الذين يشترون المجلات، كلف الضابط الليبي بالمباحث أحمد الصغير مطالبة كل الذين اشتروا المجلة باسترجاعها، ولكن القصيدة تم الاطلاع عليها، وقد كان لها صدى واسع في نفوس المثقفين، ونسخت قبل أن يرجع العدد إلى السلطات البوليسية.



إذاعة ليبيا **1939** مصطفى السراج، أحمد الحصائري، بشير الغويل، أحمد قنابة



E. I. A. R. ENTE ITALIANO AUDIZIONI RADIOFONICHE
DIREZIONE GENERALE: TORINO - VIA ARSENALE 21

TESSERA PERSONALE

N° 143 rilasciata a
Mustafa Fauzi Serrag
di
in qualità di:
Traduttore
presso la Sede E. I. A. R.
di Tripoli
Torino, li 18 NOV 1940
E. I. A. R.
LA DIREZIONE GENERALE

FIRMA DEL TITOLARE

La presente tessera è rigorosamente personale.

بطاقة تعريف لمصطفى السراج المترجم بالإذاعة – طرابلس **1940**

**رز المعلمين بجنن:** قصة أخرى من نوع آخر، كان في بلدة زلة البعيدة عن هون، مدير من غريان اسمه إبراهيم عنان، وكان زميلي في المدرسة رجب أبورخيص هو أيضا من غريان، والغربة تجمع الأشخاص، وتؤلف بين قلوبهم، فكان إبراهيم عنان ينزل عندنا في بيت المعلمين كلما حل بهون، ولم يكن في هون أي نوع من الفنادق، وصادف أن زارنا قبل إقفال المدارس، وأقام عندنا عدة أيام، وكان يراجع بعض الأمور الإدارية تهم بلدة زلة كنا في أواخر السنة الدراسية، وكنا نستعد للسفر إلى طرابلس، فأردنا أن نتخلص مما معنا من تموين، وبالمناسبة كنا نأخذ شهرياً تموينا من الإدارة العسكرية بسعر مخفض، كما كنا نأخذ علاوة تضاف إلى المرتب، تسمى علاوة الإقامة في مناطق غير مريحة، أي دون المستوى المطلوب في المرافق، أي متخلفة. التموين المتراكم عندنا كان أرزا، أنا كنت أحب أكل الأرز بأنواعه، والزميل رجب أبورخيص كان يحب الاقتصاد، فلا مانع عندنا من تناول الأرز صباحا ومساء حتى نسافر من هون وعلى ضيفنا إبراهيم أن يتأقلم معنا.

المدير إبراهيم كان يطالب بالانتقال من زلة النائية والمعزولة والمتخلفة جداً ولكن دون جدوى. لا أحد يهتم به، ويظهر أنه في إحدى الليالي دبر أمرا أبقاه سرا، وفي صباح يوم من الأيام في فصل الصيف جلس (متربعا) وهو ملتف ببرده في مدخل قصر الحاكم لا يتكلم ولا يتحرك، وبدأت الحركة اليومية، ضباط يدخلون ويخرجون،وجاء الكولونيل مونتشا فلفت نظره هذا الرجل الجالس الذي يكاد يسد مدخل القصر كأنه تمثال لبوذا، اتصل بالكابتين كردانو مدير الشؤون المدنية والسياسية الذي استدعى بدوره الكوالير سالم، واتجهوا ومعهم بعض الموظفين إلى حيث المدير إبراهيم، ومن حسن حظه أنهم بدلاً من الاستنجاد بالشرطة، استنجدوا بالإسعاف، بالمستشفى، وهناك بدأ التحقيق الإداري، والفحص الطبي، إبراهيم مثل دوره بإتقان، ولزم الصمت واحتار سالم الصادق في الموضوع.

واستنجد برجب أبورخيص وأخذه إلى المستشفى، لعله يفك عقدة لسان إبراهيم، وبعد جهد ومحاولات نطق بحضور الحاضرين بما يفيد أنه مشرف على

الجنون، والسبب هو أرز المعلمين، حيث إن الأكل أثناء إقامته عندهم ولأكثر من أسبوع، كان أرزا في الصباح وفى المساء باستمرار. حاجة تجنن حقاً، فضحك الجميع إلا إبراهيم، وانتشر خبر أرز المعلمين في أوساط هون وصار يضرب به المثل. أما الطبيب، فرأى نفسه أمام حالة معقدة غريبة فلم يستطع إلا أن يصفها بأنها انهيار عصبي حاد،وكان سخياً فقرر منح إبراهيم إجازة لمدة ثلاثة أشهر بمرتب ويسمح للمريض بمغادرة زلة إلى عائلته في غريان، وبعد ذلك ينظر في أمره إما بالإبقاء في الوظيفة أو الفصل.وهذا ما كان يسعى إليه أخونا إبراهيم، وقد أفاد أرز المعلمين.

226

**خطوبة مصطفى:** قلت سابقاً إن البريد كان يصل إلى هون بسيارة عسكرية مرتين في الأسبوع، وكانت الرسائل منتظمة من الوالد أو من أخي علي كما كانت تصل بعض الكروت البريدية المصورة من بعض الإخوة الذين يتدربون على المكاتبة، وفي إحدى المرات كانت الرسالة من عمي خيري يقول فيها باقتضاب إن العائلة قررت خطوبة بنت الحاج محمد بن محمود لي وأختها لأخي علي ويبارك، ويظهر أنه على الرغم من اعتبارنا من المتطورين، والدي لم يجرؤ على مفاتحتي في الموضوع، وطلب من أخيه خيري القيام بالمهمة.

خبر سار فجأة، مخطط للزواج، الأمور غير واضحة، والوضع المالي للعائلة ضعيف، يجب دراسة الأمر، ووضع أساس اقتصادي متين نوعا، بحيث نستطيع مجابهة المصاريف والتكاليف التي تتطلبها المناسبة، ثم بعد ذلك نفكر في الزواج وغيره..الرسالة حيرتني، فضلاً عن أن خطيبتي لم أرها ولا أعرفها، صحيح أن العائلة محترمة وعلى صلة قرابة بعائلة سويدان عائلة والدتي، ولكن ولكن ولكن...كتبت رسالة مطولة إلى عمي خيري، حملتها بجميع هذه الأفكار التي كانت تشغلني، وخلاصتها لماذا الاستعجال ؟ الأفضل أن نؤجل الموضوع. بعد أسبوع جاء الرد من عمي خيري بصفة تكاد تكون برقية إدارية. الرسالة السابقة لم نقصد منها الاستشارة، إنما كنا نقصد الإخبار !مبروك. أعلنت الخطوبة، وتم الزواج، زواج ناجح من جميع الوجوه نتج عنه 4 أولاد و4 بنات من خيرة الذرية الصالحة،

وفى آخر الثمانينيات تخرج ابني عبد الحكيم طبيباً وابني فائز مهندساً معمارياً، وبعد ذلك فاتحاني في جلسة عائلية بحضور والدتهم وإخوتهم، بأنهما يرغبان في الزواج من زميلتين لهما في الدراسة طبيبة ومهندسة وأنهما يطلبان مباركة ذلك. ضحكت، وسرحت نفسي إلى خمسين سنة مضت، وتذكرت هون ورسالة عمي خيري، وقصصت عليهم القصة، خلال السنوات الطويلة تغيرت أمور كثيرة إلى الأحسن، عندما كنت في هون لم يكن في ليبيا طبيب أو مهندس عربي. طريقة الحديث حول الزواج بين الأب والابن كانت معقدة تحتاج إلى وسيط، حتى في العائلات التي كانت تعتبر متطورة، الوضع السياسي تغير، ليبيا استقلت منذ سنوات، الوضع الاقتصادي في ليبيا تحسن كثيراً، ونحن من ضمن العائلات التي تخرج منها الأطباء والمهندسون الذين يعدون بالعشرات أو أكثر، ما أكرمك يا رب... شاركتنا زوجتي في الحديث وقد علمت لأول مرة بظروف خطوبتها، وسرحت بها أفكارها بعيداً هي أيضاً، وسألتني وهي تضحك ألم تندم عما حدث؟ أجبت ضاحكاً بصدق لا والحمد لله. وناقشنا موضوع خطوبة الأبناء باستفاضة، وتحرينا أخبار عائلات، المخطوبتين وتمت الخطبة وتم الزواج، وكانت من أسعد الأيام ومن أنجح الزواج.

227 **الشيخ الهنقاري وكتاب الأغاني:** عند الحديث عن مجتمع هون ذكرت الشيخ محمد الهنقاري عدة مرات، الشيخ محمد الهنقارى كما قلت من الزاوية من قبيلة أبوحميرة، من عائلة متواضعة، عصامي، درس القرآن في كتاتيب القرية، والتحق بزاوية الأبشات لدراسة علوم الدين واللغة، ولا أذكر أن التحق بكلية أحمد باشا بطرابلس، وكان من المحسوبين على الشيخ أبوالأسعاد العالم، الهنقاري من الزاوية، والزاوية تحت النفوذ الديني والاجتماعي لعائلة الأبشات، ويظهر أنه لم يكن له حظوة عندهم، فاتجه إلى قطب آخر، منافس لهم، يبعد عنهم جغرافياً محمد أبوالأسعاد العالم الذي ساعده على أن يعين من طرف إدارة الأوقاف مشرفا على زاوية عمورة. في تلك الفترة بسطت السلطات الإيطالية نفوذها على كل ليبيا من

أدناها إلى أقصاها وصارت تنظم الحياة المدنية من مدارس ومحاكم وشرطة ومستوصفات ومستشفيات إلى آخره في شتى البلاد.

عُين الهنقاري قاضياً شرعياً في غات، وكلمة "شرعي" تعني أنه قاض في محاكم تطبيق الشريعة الإسلامية، وفي بعض المجالات فقط كالأحوال الشخصية من زواج وطلاق وما يتبعه من فرائض قواعد توزيع الميراث وتطبيق ما يعرف في الفقه الإسلامي بحق الشفعة.

أثناء إقامته بغات تزوج من بنت إحدى العائلات المعروفة المحترمة في غات وأنجب منها ابنه إبراهيم الذي كان له فيما بعد شأنه في مجال النفط والسياسة كان قبلها متزوجاً بإحدى بنات الزاوية وهي قريبة له بقيت في الزاوية أثناء عمله في غات. في ذلك الوقت كان الشيخ عبد الرزاق البشتي وهو زاوي أيضا قاضياً في سبها التي كانت عاصمة الصحراء الليبية.

228

**الهنقاري وأمجاد العرب:** انتقلت عاصمة الجنوب من سبها إلى هون، وانتقل الشيخ عبد الرزاق البشتي إلى طرابلس، وانتقل الشيخ الهنقاري إلى هون مع زوجته الزاوية، وفى نفس السنة التي عُينت فيها مدرساً في هون. لم نكن يعرف بعضنا بعضاً من قبل، ولكنا كنا ننتمي إلى نفس البيئة الثقافية والفكرية والاجتماعية مع بعض الفروق، ثقافته عربية إسلامية، وثقافتي إيطالية عربية إسلامية،هو عصامي وأنا عصامي، هو احترف الوظيفة كمصدر رزق ليبني مستقبله وأنا مثله وهو محسوب على الشيخ أبوالأسعاد العالم وأنا تربطني بالشيخ أبوالأسعاد العالم علاقات أسرية. الشيخ الهنقاري يتغنى بأمجاد العرب والمسلمين الغابرة ويحلم بمستقبل قريب أو بعيد زاهر وأنا كذلك، لم نكن متنافسين وظيفياً هو قاضٍ وأنا معلم، زد على ذلك فإنه كان مصدر إشعاع لي بثقافته العربية الإسلامية الراسخة وكنت أسعى إلى زيادة رصيدي من هذه الثقافة منذ التحاقي بزاوية ميزران وفى كلية أحمد باشا وأحتاج إلى المزيد منها وأرغب في التوسع فيها وكان الشيخ الهنقاري خير سند لي حثني على حفظ الشعر وعلى مطالعة بعض الكتب الأدبية المتوفرة لديه منها كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني وكان موسوعة في

مجاله، كنت من بين موسوعتين، موسوعة مونددوري الإيطالية للصغار ليلاً في مكتب مدير المدرسة الإيطالي وبين موسوعة كتاب الأغاني الذي استعرته من صاحبه ولازمني في البيت. كما حثني الشيخ الهنقاري على أن أكتب أو أن أترجم بعض القصص من بعض المجلات الإيطالية، منها مجلة دومينيكا ديل كوربييري الأسبوعية المصورة التي كانت تصل طرابلس ويرسلها إلي والدي مع مجلة الرسالة وغيرها من الجرائد المحلية والمجلات، وقد كان الشيخ الهنقاري يرسل ما أترجمه إلى السيد عمر فخري المحيشي في بنغازي الذي كان يصدر مجلة ليبيا المصورة، وقد عرفني به كتابياً دون أن نتعرف شخصياً.

كما ترى، الإقامة في هون لم تكن عبثاً، ساعدتني على أن أعيش بعيداً عن الأسرة، وأندمج في محيط جديد، وساعدتني على أن أوفر من راتبي وأن يكون لي رصيد أحتفظ به في كتيب توفير البريد الذي كان شائعاً في ذلك الوقت والاهم زادت ثقافتي العربية والغربية.

229 **سياسة نفاق العرب:** سني أكثر من 20 سنة بقليل، وأستطيع أن انتصب على ساقي متوازناً، وعلى استعداد لاقتحام أبواب جديدة،في الوقت الذي كان مصطفى يتحفز ويبني نفسه، ويتطلع إلى المستقبل، صارت الحكومة الإيطالية وعلى رأسها موسوليني ويمثله بالبو في ليبيا صارت إمبراطورية، تبحث عن مكان لها تحت الشمس، والدول الأخرى الكبرى مثل فرنسا وإنجلترا التي سبقتها بمسافة في مجال الاستعمار تصدها وتنكر عليها ذلك، بوادر الاصطدام بين المتنافسين الكبار كانت في الأفق، إيطاليا وكان لها إمبراطورية في الحبشة، ومستعمرة الصومال ومستعمرة إريتريا، وكان يعرف جميعها بأفريقيا الشرقية الإيطالية، وكانت ليبيا الإيطالية في البحر الأبيض المتوسط، كتلتان تحتلان حيزاً جغرافياً كبيراً في أفريقيا يجب الاستفادة منه واستغلاله والعمل علي دمجه، لكن مصر والسودان تفصلان الكتلتين الإيطاليتين عن بعضهما، وإنجلترا تسيطر على مصر والسودان بأساليبها العسكرية والسياسية المتطورة، إيطاليا زاد عدد رعاياها الأفارقة

عرباً وأحباشا، يجب التفكير في طريقة التعامل معهم مع المحافظة على السيطرة الإيطالية وتفوق العنصر الإيطالي.

بالمناسبة تحالفت إيطاليا مع ألمانيا الهتلرية في هذه الأثناء، وصارت تطبق نفس السياسة العنصرية الألمانية، العنصر الآري ومنه الألمان والطليان وغيرهم من الشعوب الأوربية، هو الأنقى، والأعلى، والأعرق، والأذكى، ويجب أن يسود غيره من الأعراق التي يجب أن تفسح له المجال طوعاً أو أن تزول كرهاً. الإنجليز في مصر، وسياستهم في الحكم غير المباشر بواسطة الملك، والأحزاب والبرلمان، وهي أمور شكلية، ولكن كان لها بريقها، والفرنسيون في تونس واحتفاظهم بمسرحية البي ووزرائه، موسوليني طبق سياسة مغايرة، روما الحالية هي الوارثة الحالية لروما قبل ألفي سنة حيث سادت العالم وحضرته وازدهر في عهدها بفرض قوتها العسكرية المتفوقة وقوانينها الصارمة، روما الحالية يحق لها أن تقوم بنفس الدور عن جدارة، ولكن إنجلترا وفرنسا عقبة، وفي انتظار إزالتهما من الطريق، فلا أقل من منافستهما ولو تدريجياً في مجال التعامل مع الرعايا في المستعمرات. إذاً في الوقت الذي تنفذ فيه خطة الاستيطان الزراعي السكاني بقوة في ليبيا، لا مانع من إنشاء قرى زراعية بسيطة لإسكان الجنود المسرحين الذين حاربوا مع إيطاليا في ليبيا والحبشة، فأنشأت المعمورة في طرابلس ونعيمة في مصراته، والفجر في سفح الجبل الأخضر، وغيرها لا أذكر أسماءها، فكانت نوعا من التخدير، داخلياً وخارجياً . وكلف عمر فخري المحيشي أحد وجهاء بنغازي وأوعز له بإنشاء مطبعة عربية لإصدار صحيفة برقة الجديدة ومجلة ليبيا المصورة للتطبيل والتزمير لسياسة التضليل.

230 **المدرسة الإسلامية العليا:** الآن وقد قُضيَ على رموز المقاومة السياسية والفكرية والمسلحة، وآخرهم الشهيد عمر المختار، يجب إيجاد بدائل مزيفة تخدم السياسة الجديدة في التعامل مع عرب ليبيا الذين كان يطلق عليهم المدجنين، ثم المسلمون الإيطاليون، مع تجاهل كلمة عربي كلما أمكن ذلك، كلمة عربي تتوارث ولكنها لم تمت، وكان لا مفر من إنشاء المدارس الإيطالية العربية

منذ سنوات وقد درست فيها، وسبق الحديث عنها، وكلمة عربي كانت تذكر كلما نشرت الصحف الإيطالية خبراً مشينا، عن سرقة أو عمل غير أخلاقي، فبدلاً من نسبته إلى مجهولين، خصوصاً أن الموضوع مازال رهن التحقيق، كان ينسب بشاعته إلى العرب، في هذا الإطار قررت الحكومة الإيطالية فتح نافذة صغيرة أمام الليبيين في السلك الإداري، كانت لهم وظيفة مدير ونائب مدير ناحية فزادت وظيفة كاتب أشغال عربية ووظيفة المستشار للشؤون العربية. يلاحظ أن كلمة عربي فرضت نفسها في المجال الإداري ولكنها لم تفرض نفسها في المجال العلمي الثقافي بعد.

الإنجليز في مصر سمحوا باستمرار التعليم الديني العالي على مستوى جامع الأزهر، وُفتحت الجامعة المصرية وغيرها من النشاط العلمي النامي المتطور. الفرنسيون في تونس أبقوا على جامع الزيتونة وكلياته، وبالمقارنة فإن إيطاليا التي تدعي أنها حامية الإسلام، وناصرة الحق والعدالة، اكتفت فقط بفتح مدارس ابتدائية إيطالية عربية، فلا أقل من إنشاء مدرسة ثانوية سميت المدرسة الإسلامية العليا.

مقر هذه المدرسة طرابلس، وألحقت بجامع دورار في الظهرة، قريباً من فندق الودان. وكون لها مجلس إدارة يضم بعض العلماء والشخصيات الليبية، يرأسها مفتى ليبيا الأكبر محمد أبوالأسعاد، ويدير المدرسة محمود المنتصر من عائلة المنتصر الشهيرة، وعُين في المدرسة مجموعة من أحسن الشخصيات في المجال، الشيخ محمود المسلاتي، الأستاذ الطاهر باكير، الأستاذ مصطفى القلالي، الشيخ محمد المصراتي، والأستاذ محمد بن مسعود فشيكه، وقد التحق بها أخي كمال وأخي سعيد السراج للدراسة.

وهذه المدرسة التي أريد بها منافسة جامع الزيتونة والجامع الأزهر لم تعمر طويلاً بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية وأقفلت المدارس على كل المستويات.

231 **مصطفى كاتب أشغال عربية:** بدأت بالحديث عن الشيخ محمد الهنقاري، وتشعب بنا الحديث إلى مجالات أخرى وأحداث سبقت الإعلان عن قيام

امتحان لمن يرغب في الالتحاق بوظيفة كاتب أشغال عربية،وحدد الميعاد، فاشتركت، ونجحت وكان ذلك في سنة 1938. كان من بين المشتركين من طرابلس نجم الدين فرحات بن محمد فرحات الزاوي الذي كان له دور في مقاومة الاحتلال الإيطالي، عقب وأثناء الحرب العالمية الأولى وفى بداية العشرينيات، والصادق البشتي من عائلة الأبشات بالزاوية، وأبوبكر الزليطني، ومن برقة حسين مازق الذي شغل منصب والي برقة لعدة سنوات بعد الاستقلال، وعبد الرزاق شقلوف الذي شغل منصب وكيل دائم لوزارة المالية ورئيس مجلس الأعمار بعد الاستقلال، وعبد السلام بسيكري الذي صار نائباً وسفيراً لليبيا في مصر ووزيراً، ووهبي البوري الذي صار رئيس الديوان الملكي وسفيراً، ويوسف بن كاطو وقد شغل منصباً هاماً في بداية الاستقلال، وعبد الله سكتة الذي تقلد فيما بعد عدة وظائف رفيعة.

وقد عُين في وظيفة مستشار في الشؤون العربية دون امتحان، الدكتور على العنيزي شخصية مثقفة طموحة وهو من قبيلة العواقير في برقة، وكلف بشؤون البدو الذين عانوا كثيراً في برقة فترة المقاومة وأثناء الحرب وجمعوا في معتقلات كبيرة وصودرت أراضيهم في الجبل الأخضر، ووزعت على المزارعين الإيطاليين الجدد، فرأت السلطات الإيطالية الاهتمام بهم أو الاهتمام بمن بقي منهم على قيد الحياة حتى لا يكونوا مشكلة جديدة. وعُين السيد علي أسعد الجربي وهو من درنة في منصب مستشار الشؤون العربية أيضا، وكلف بمتابعة مشروع القرى الزراعية للعرب، الشخصيتان: العنيزي والجربي، شغلا فيما بعد الاستقلال عدة مناصب سياسية رفيعة.

232 **اللجنة الممتحنة:** اللجنة الممتحنة لوظيفة كاتب أشغال عربية، كانت مكونة من الكومندتور كامبانى المدير العام للشؤون المدنيِة والسياسية في ليبيا، كان يتكلم العربية. مستشرق مخضرم عاصر في شبابه عهد الحكومات الديمقراطية قبل الفاشية، وعاصر ما بعد الفاشية، اشتغل في العهد السابق في برقة وعلى معرفة بطبائع الأهالي." كلمة كومندتور تعني أنه حامل وسام مدني برتبة كومندتور وهي

أرقى من رتبة كواليز" وكان مع الكومندتور كمباني الأستاذ الطاهر باكير ابن العالم الجليل إبراهيم باكير وأستاذ في المدرسة الإسلامية العليا والأستاذ مصطفى القلالي أستاذ الرياضيات في المدرسة العليا، كان الامتحان التحريري ترجمة رسالتين إداريتين، من الإيطالي إلى العربي ومن العربي إلى الإيطالي، وكتابة تقرير إداري شهري باللغة الإيطالية يتناول ما استجد من أمور وقضايا في منطقة ما في ليبيا واقتراح حلول لها وطرق لمعالجتها. أما الامتحان الشفوي فقد كان دردشة مع الكومندتور كمبانى بالإيطالي وكان نصيبي من الامتحان الشفوي أن طلب مني الأستاذ الطاهر باكير شرح الحديث الشريف " آية المنافق ثلاث، إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان ".

نجحت بتفوق، لغتي العربية قوية، وكذلك الإيطالية، وخبرتي الإدارية جيدة، وشخصيتي ناضجة، ولذا ألحقت بعد نجاحي بمحطة الإذاعة العربية بطرابلس التي كان يشرف عليها الكومندتور كمباني نفسه. نحن في أواخر الثلاثينيات، ومصطفى أمام منعطف جديد، سلام على هون وسلام على أصدقاء هون الذين أحبونا وأحببناهم، وسلام على فترة من العمر حملت ما حملت من أحداث.

233 **مصطفى وإذاعة طرابلس:** اخترع الراديو واستعمل في أغراض عسكرية أولا، ثم وجدت فيه الدول أداة في المجال الإعلامي، فلا حاجة للورق، ولا إلى المطبعة، ولا إلى الرقابة، جهاز هنا، وجهاز هناك على بعد آلاف الكيلومترات، ويتم التخاطب. إيطاليا أرادت أن تدلي بدلوها في هذا الميدان، أنشأت إذاعة باري باللغة العربية ثم إذاعة طرابلس باللغة العربية أيضا.

عندما ألحقت بإذاعة محطة طرابلس سنة 1939، كان يرأسها الدكتور موري، ومعه مجموعة من الإداريين الإيطاليين والفنيين، وكان معه السيد الكواليز بشير الغويل، أصل عائلته من مصراته، استوطنت لمدة طويلة مدينة بنغازي، التي ولد بها ونشأ وتعلم وعين في عدة وظائف إدارية، يتقن اللغة العربية واللغة الإيطالية، أكبر مني سناً بحوالي 10 سنوات، لبق، معروف في الأوساط الاجتماعية الليبية، والأوساط السياسية الإدارية الإيطالية، وقد كان يقوم بترجمة الأخبار من

الإيطالي إلى العربي وإعدادها للبث، وكان بالإذاعة السيد أحمد الحصائري من عائلة الحصائري الطرابلسية، شاب يتفنن في اللباس العربي والإفرنجي، له دراجة أنيقة، قوي في اللغة العربية، أديب، شعلة من الظرف والأدب وخفة الروح وحيوية الشباب المتفجرة، نطقه سليم محبب إلى النفس واختير مذيعاً.

السيد أحمد قنابة، من عائلة قنابة الشهيرة، أصلها من أشراف ودان، مارست العائلة فترة التجارة مع السودان وكونت ثروة ومصاهرات بين الجنسين الأبيض والأسود، وقد كان السيد أحمد قنابة بني اللون، كنا نلقبه دائماً بالسيد كما كنا نلقب السيد أحمد الحصائري بالسيد أيضا، لأنهما أشراف نسبهما يتصل بفاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام. السيد قنابة قوي في اللغة العربية أديب وشاعر دمث الأخلاق وعلى نقيض السيد أحمد الحصائري هادئ الطبع إلا إذا استفز وغضب، وعُين مذيعاً أيضا.

234 **المغنون والمجتمع:** كان بالإذاعة فنان مصري يرأس جوقة موسيقية مكونة من عناصر ليبية، وكان يتردد على الإذاعة محاضرون فضلاء، ومجموعة من المطربين القدامى و الناشئين، من القدامى مختار شاكر المرابط المعروف بالفاقون، بدين جداً يقلد المغنين المصريين في أدوارهم ومواويلهم، ومن الجدد على الحداد. احتراف الغناء سابقا لم يعتبر في المجتمع الليبي المحافظ المنغلق عملا شريفا، ولذا كان متروكا لليهود، والعرب المسلمون مكتفون بالمدائح الدينية في حفلات المولد، وفي الحضرة في الزوايا الصوفية، وقد كان نفس الشيء في مصر وتونس، ولكن الأمور في مصر صارت تتطور بسرعة بوجود الأقباط بها، وبوجود المسيحيين في لبنان القريبة منها، أخذت الدول الأوربية تغزو بثقافتها ومفاهيمها الحديثة العالم العربي والعالم الإسلامي، وانتشرت العدوى ببطء في ليبيا أيضا وصار المجون فنا، والفنون أخت العلوم، والعلوم من سمات المجتمع المتحضر، والتحضر مرغوب للمسلم والمسلمة، وفتح الباب أولا للذكور، ثم لمن هب ودب، والغناء صار حرفة مثل بقية الحرف، تارة يتفرغ لها وتارة تكون إضافية.

كنت أتحدث عن تعييني في الإذاعة وأصف مجتمعها، تحدثت عن بشير الغويل وعن السيد أحمد الحصائري والسيد أحمد قنابة وعن شيخ المطربين القدامى مختار شاكر المرابط وعن المطرب الناشئ على الحداد و أواصل الحديث.

تعينت في الإذاعة في أواخر سنة 1939م وبقيت فيها أشهراً معدودة حتى نهاية يناير سنة 1940م تقريباً، وفي هذه المدة ثبت فيها فشلي، لماذا ؟ و كيف؟ واليك الجواب لماذا؟ وكيف؟

235

**بشير الغويل والمسبقار إسماعيل:** عُينت مترجما بالإذاعة، وقد كان بها قبلي الكولير بشير الغويل، كان أكبر مني سنا وأكثر خبرة، مكلف بالترجمة بالإضافة إلى الإشراف على القسم العربي بما فيه من محاضرين، وفنيين، ومذيعين، وبرامج تخدم أهداف السلطات الإيطالية الحاكمة والمالكة للإذاعة، وتسعى لاستمالة الجمهور الليبي داخل البلاد والعربي خارجها. عناصر النجاح لإذاعة ناشئة تكاد تكون معدومة، كان بشير الغويل حلقة الوصل بين الدكتور موري المدير الإيطالي بالإذاعة الذي رغم سنه ومنصبه لم يكن قد نضج كما يجب، وبين كل العاملين من العرب في الإذاعة، ووجد الدكتور موري في الكولير بشير من يوفر عليه التعامل مع عناصر لا يفهمها كثيراً بكل ما فيها من تنافر وانسجام و مزايا و نواقص. ولذا كان بشير الغويل يشرف على الفنان إسماعيل الذي يقوم بتدريب الفنانين الليبيين صباحاً في شبه دورة فنية لاختيار أصلح العناصر. كما كان عليه متابعة عمل المذيعين بما يتطلبه من دقة وإتقان ومسؤولية سياسية، وعندما صرت أقوم بالترجمة خف عليه الحمل. العلاقة بيننا كان يسودها الاحترام ظاهرياً، ولكن كانت مشاعر أخرى غامضة تتفاعل في النفوس، هل هي الغيرة ؟ هل هو صراع الأجيال ؟ جيل صاعد، يشق طريقه غير مبالٍ بما يسببه من ضيق لمن سبقه، وجيل سابق نظم حياته بصعوبة على صورة ما استراح لها، يريد لها الاستمرار، والهدوء والمحافظة عليها. الفنان المصري إسماعيل جابر ولا أعرف شيئاً عنه من أين هو ؟ كفاءته ؟ ومن وظفه أو رشحه ؟ لكن الذي أعرفه أنه يقوم صباحاً بتدريب الهواة لاختيار الأصلح منهم يشرف على البروفات وعلى قيادة فرقة

الإذاعة عند البث المباشر، الآنطباع الذي أخذته عنه أنه متعال كثيراً، كأنه أحد كبار العازفين العالميين، والفنانون الناشئون يتوددون له لعله يرضى ويقبلهم كهواة في دورة التدريب، تمهيداً للالتحاق بفرقة الإذاعة، وبشير الغويل يعامله كأنه تحفة نادرة يجب المحافظة عليها، الأستاذ إسماعيل ! الأستاذ إسماعيل !

236 **أزمة غير متوقعة:** عملي كمترجم غير متواصل، في الصباح شبه ركود،وعند الساعة الواحدة بعد الزوال، تذاع نشرة إخبارية رئيسية من روما تحمل أهم الأخبار، ويوجد مختزل إيطالي يستمع لها، ويسجلها بسرعة بطريقة الاختزال، ويطبعها على الآلة الكاتبة الإيطالية، المسجلات المنتشرة الآن في كل مكان لم تكن معروفة، وتحال النشرة على بشير الغويل الذي يطلع عليها ويحذف منها الخبر الذي لا يهم السامع العربي، ويحيلها على الترجمة، أقوم أنا بذلك. في المساء وقبل موعد الإذاعة يستلمها مني أحد المذيعين، أحمد الحصائري أو أحمد قنابة للإطلاع عليها ومراجعتها، وتعرض على بشير الغويل ليعتمدها، وتكون جاهزة للبث. عمل جديد في البداية، إنما صار روتينيا وفيه شيء من الرتابة، فراغ في فترة الصباح يجعلني أتجول في مبنى الإذاعة الذي كان في مبنى من ضمن مباني معرض طرابلس، طابعه شرقي جميل، وكثيراً ما كنت أتجه إلى قسم الموسيقى لأستمع، وهنا سيطرت علي فكرة، فكرة إلحاق خالي علي إدريس، منشد المدائح الدينية، وشيخ حضرة سيدي بن عيسى بزاوية شارع الزاوية، إلحاقه بفرقة الإذاعة، في نظري أنه منشد قدير، كفء، رشحت اسمه، واستدعي للامتحان من طرف الأستاذ إسماعيل الذي أسقطه، في نظره دون مراعاة لأي اعتبار آخر هو شخص عجوز أعمى، أسنانه تساقطت، لا يصلح لفرقة الإذاعة. ربما كان قبل سنوات كثيرة فنانا، أما الآن فهو حطام. لم يعجبني قرار الأستاذ إسماعيل، وكانت الشرارة التي سبقت الانفجار في جو مشحون بعناصر قابلة للالتهاب، دوي الانفجار وصل إلى الدكتور موري مدير الإذاعة، ووصل إلى الكومندتور كمباني مدير الشؤون المدنية والسياسية المشرف الأعلى على الإذاعة وصدر قرار بنقلي من الإذاعة إلى محافظة بنغازي من باب التأديب. والصورة التي تكونت عندهم، أنني وإن كنت مترجما

قديراً، فإنني لحداثة سني لا أعرف كيف أتعامل مع الآخرين، مهر حديث السن يحتاج إلى ترويض.

القرار ساءني، اتهمت بشير الغويل بأنه كبّر الموضوع ليتخلص من عنصر مزعج في الإذاعة، كنت في محيط العائلة أستعد للزفاف مع أخي علي، الانتقال أربك أمورا كثيرة، طلبت مقابلة الكومندتور كمباني لأشرح وجهة نظري ولكنه رفض، جوابه كان :على السراج أن ينفذ قرار الانتقال ثم نرى. كانت فتره وجودي بالإذاعة رغم قصرها فاشلة وللإنصاف سببها أنا، لا بشير الغويل ولا إسماعيل ولا موري ولا كمباني، ولكن خبرتي المحدودة، وأسلوبي المتعجرف، واستعجالي في إدخالي الكرة إلى مرمى الآخرين دون التقيد بقواعد اللعب.

237

**السفر إلى بنغازي بحراً:** لا مفر من الانتقال إلى بنغازي التي لا أعرف فيها أحداً، والدي تذكر أن الحاج مختار الفقهي، من عائلات شارع الزاوية العريقة، و أخو الشيخ عمار الفقهي، يقيم بعائلته تاجراً في بنغازي في سوق الظلام، و خالي علي إدريس تذكر أيضا أن له أخا كان نسياً منسيا اسمه الحاج حسني إدريس، انتقل منذ سنوات طويلة إلي بنغازي، ويشتغل بالتجارة في سوق الظلام أيضا، بحثنا عن عناوينهما وأخذتها معي، نصحوني بأن أسافر بحرا من طرابلس إلى بنغازي، لأنه في نظرهم أكثر راحة، ولأنه كان معي بعض الأثاث وراديو كبير، وجميع هذه الأشياء يصعب حملها بسيارات غير معدة لذلك. علمت أثناء الحديث مع شلة الأصدقاء و هم أحمد الحصائري أحمد قنابه، ومحمد خليل، وعبد الله اليازجي، ومختار العالم، وعبد الرحمن القلهود، ومحمد بن زيتون، حول الرحلة و ملابساتها، أنها ستكون على الباخرة التي تربط باليرمو ببنغازي، مع توقف في تونس، وطرابلس، والخمس، ومصراته، وسرت، وتعرف بالباخرة الساحلية لأنها تمر بالقرب من ساحل شمال أفريقيا، وأن اللحم في مطاعمها مذبوح حسب الشريعة الإسلامية، وقد أكد المرحوم عبد الله اليازجي بأنه يعرف أن وكيل شركة الملاحة يشتري اللحم من الجزار أبوزودة المشهور في باب الحرية في طرابلس. ركبت الباخرة صباحاً، و أبحرت، وفى المساء كنا أمام مدينة سرت، ولعدم وجود موانئ

في هذه المدن كانت البواخر ترسو بعيدة عن الشاطئ، ويتم ركوب المسافرين وشحن البضائع عن طريق القوارب الصغيرة والسلالم والرافعات، كنت جالسا في المطعم أتعشى، ولا أذكر أحدا من المسافرين، إذ دخل مُرداخاي فضلون، يهودي مشهور في طرابلس، تاجر طويل القامة، قوي البنية، شائب، أصله من مصراته، له عدة أولاد، ونشاط تجارى واسع، وحياني بكثير من الاحترام وسأل عن الصحة، والعائلة، ثم تطوع بالسؤال عن مصدر شريحة اللحم التي كنت آكلها، وكنت واثقاً أنها من "أبو زودة" من طرابلس بناء على المعلومات التي أكدها الصديق المرحوم عبد الله اليازجي، فأجاب فضلون بأنه يشك في ذلك، وسأل النادل أو الجرسون وكان يعرف بالإيطالي بالكامرييري عن مصدر اللحم، فأجاب الإيطالي بكثير من الافتخار بأنه لحم ممتاز من مدينة باليرمو، فما كان علي إلا أن توقفت عن أكل اللحم وطلبت بعض الجبن والبيض واستراح الضمير.

عند الدردشة أثناء السهرة مع فضلون، علمت أنه يشتري الخراف عن طريق بعض التجار المصراتيين من البدو ومربي الأغنام في منطقة سرت المشهورة بمراعيها في سنوات الخصب، ويبيعها إلى تجار الإسكندرية واليونان حيث لحم الخراف الليبية مرغوب، وقد كان في سرت لتصريف بعض الأمور وهو مسافر معي إلى بنغازي، كان فضلون محدثاً لبقاً يتكلم كأنه ليبي عربي يرتدي اللباس الليبي سورية وسروال وفرملة وجرد "الحولي"، ويفاخر بأنه مصراتي.

238 **العمل في محافظة بنغازي:** وصلنا بنغازي صباحاً، ونزلت مع أمتعتي إلا الراديو، كانت حوله مشكلة، بقي في الجمرك ولا أدري إلى الآن السبب، وقد أفرج عنه بعد، كان الحاج مختار الفقهي على علم بموعد وصولي. وكان مع بعض أصدقائه، وكان الحاج حسني إدريس وأخوه بشير أيضاً، كانت لمسة كريمة منهم أثرت في نفسي، وكان الحاج مختار يصر على أن أقيم عنده، وكذلك الحاج حسني، أما أنا فقد كانت خطتي هي الإقامة في أي فندق مناسب حتى أؤجر مسكناً، ولكن حسم الأمر بين الحاجين، الثلاثة الأيام الأولى عند الحاج مختار، وبعدها عند الحاج حسني، وقد أصر الحاج حسني على أن أقيم عنده باستمرار، وعندما تمسكت

بالانتقال، أجر لي منزلاً متواضعاً في حي شعبي قديم، أثثه بما تيسر وأسكنني فيه، وكلف من يقوم بتنظيفه، وكان يحضر إلي الطعام من منزله، كانوا كرماء تتمثل فيهم الشهامة الأصيلة.

كان على قمة محافظة بنغازي الكومندتور فيلاني، وكان يرأس إدارة الشؤون المدنية والسياسية الكومندتور فورناري، وهو إيطالي قصير القامة ممتلئ يتقن العربية باللهجة البرقاوية، كان له دور في تمكين الحكم الإيطالي والقضاء على المقاومة الليبية، وقد أسر من طرف الوطنيين، وبقي في الكفرة مدة الأسر. وكان مساعده الكوالير الكسندر، وهو إيطالي أيضا يتكلم العربية بأسلوب شوارعي، لم أعرف شيئاً عن ماضيه، أما الموظفون العرب فهم الكوالير الكيلاني ضريريط، في الأربعين من عمره أو يزيد، عاشر بدوره فترة القضاء على المقاومة والمعتقلات كالعقيلة وغيرها، وعبد السلام البسيكري من عائلة البسيكري الشهيرة في بنغازي، كان والده من الوطنيين الذين اعتقلوا سنوات في سجن بنينة، وكان عبد السلام زميلاً لي في امتحان كتبة الأشغال، بقيت فترة بدون عمل محدد، وبعد أسابيع كُلفت أن أقوم بالترجمة الشفوية بين المحافظ وبين من يريد مقابلته من العرب من الساعة 11إلى الساعة 12يومياً. كان أكثر المراجعين أناساً عاديين، فقراء يطلبون المساعدة، فيأمر المحافظ لهم فوراً بمساعدة نقدية قيمتها 50 ليرة طبقاً للبند كذا من قانون كذا فصرت أحفظ الصيغة، وأبلغ قرار المحافظ إلى الشؤون الاجتماعية التي تتولى الصرف.

المراجعات محدودة 4 أو 5 أشخاص يومياً، كنت أقوم بالترجمة للشيخ عبد الحميد الديباني القاضي الشرعي لمدينة بنغازي كلما طلب المقابلة أو استدعاه المحافظ، في الغالب كان الموضوع اجتماعياً لتخفيف الضائقة التي يعيش فيها الأهالي أو البحث في أمور المحاكم الشرعية ونظامها.

239 **إيطاليا تدخل الحرب:** أثناء وجودي في بنغازي دخلت إيطاليا الحرب بجنب ألمانيا حليفتها، ضد فرنسا وإنجلترا يوم 6/10 /1940. وقد بدأت الحرب قبل دخول إيطاليا في شهر "9 / 1939"، فتأزمت الأمور أكثر بدخول

إيطاليا الحرب، وكان يتوقع هجوم فرنسي من تونس على طرابلس، لكن فرنسا انهارت بسرعة أمام الألمان في أوربا، وبالتالي زال الخطر عن طرابلس من الغرب، واستراح الإيطاليون نوعا ما، لأنهم بدلاً من المحاربة على جبهتين تونس ومصر صارت الحرب على جبهة واحدة وهي مصر فقط، وصارت القوات ترحل إلى الجبهة الشرقية.

في يوم إعلان الحرب، قامت مظاهرة كبيرة لطليان بنغازي بقمصانهم السوداء الفاشية وموسيقاهم، واحتشدوا أمام المحافظة، فألقى فيهم نائب المحافظ الكونتي ديلا بورتا خطاباً حماسياَ، أنهاه بأنه انتهى زمن الكلام والكلمة اليوم للمدفع.

الجو العام تغير، لكن الحياة اليومية استمرت في بنغازي كما هي، واستمرت مقابلات المحافظ، وفى إحدى المرات خرج المحافظ من مكتب متفرع من مكتبه، ووجه إلي الكلام بلهجة خطابية مسرحية، وبدون مناسبة، قائلاً " ليعلم الجميع أن تعليمات الزعيم الدوتشي موسوليني القائد العام للقوات المسلحة، والحرب قد بدأت، التعليمات هي المحافظة على النظام لأنه واجب مقدس، والتقيد بالأوامر التي سوف تصدر تباعا، وبالمناسبة فإن الزعيم أوصى بتخفيف ويلات الحرب على السكان وخصوصاً المسلمين منهم، مع احترام الشعائر الدينية كما كان في السابق، وأكثر استغربت منه ذلك، ولكن استغرابي زال عندما رأيت داخل المكتب الذي خرج منه والمتفرع من مكتبه مجموعة من كبار رجال الدولة مدنيين وجنرالات، ومن بينهم مندوب الحزب الفاشي، وقد أبقى المحافظ الباب مفتوحاً ليسمعهم ما كان يحدثني به وكأني كنت أمثل المسلمين في ليبيا والعالم، مسرحية تقررت في ذلك الاجتماع، الغرض منها استمالة السكان المسلمين الذين كانوا حاقدين على السلطات الإيطالية وبطشها القريب والبعيد، وكانوا في انتظار الانفراج على يد الإنجليز من مصر، وقد كانت السلطات الإيطالية تخشى تسلل عناصر عربية من مصر تحرض السكان الليبيين على العصيان والتخريب والانتقام من المزارعين الإيطاليين أينما كانوا، وقد وزعت الأدوار في ذلك الاجتماع على الشخصيات الإيطالية الكبيرة، وأنيط إلى

المحافظ بجزء مهم منها، فأراد القيام به حالاً، وأراد أن يشهد الشخصيات التي كانت في المكتب على أنه بدأ فوراً في تنفيذ التعليمات.

وقد علمت فيما بعد من رئيسي الكومندتوري فرناري، أنه كان يخشى هجوماً مباغتاً علي الطريق الصحراوي الذي يربط طبرق بجدابيا، ويفصل كتلة الجبل الأخضر بما فيها من مزارعين وقوات، وتبقى معزولة معطلة، لذا كان يحث الموظفين العرب والإيطاليين الموجودين في قرى هذه المنطقة، يحثهم على منتهى اليقظة لمعرفة ما يدور على السطح وفى الخفاء.

240 **موسوليني يستعد لدخول مصر:** بدأت الحرب وكان الإنجليز والفرنسيون وروسيا ومن معهم يسمون الحلفاء، وإيطاليا، وألمانيا، اليابان، ومن معهم يسمون المحور، حدث إن زحفت قوات الحلفاء إلى أن احتلت بنغازي وبعدها غرباً، وحدث أن زحف المحور حتى استولى على العلمين على أبواب الإسكندرية، وكان موسوليني في سنة 1942، عندما كان القائد الألماني رومل الشهير يدق أبواب القاهرة، كان موسليني موجوداً في مدينة البيضاء في الجبل الأخضر ومعه حاشيته والحصان الأبيض استعداداً للدخول إلى القاهرة، كما سبق أن دخلها نابليون قبل قرنين تقريباً، وقد تم اختيار السيد أحمد الحصائري كمذيع، وجهز ببدلة شبه عسكرية، وظل عدة أيام على أهبة السفر، ولكن مجرى الأمور تغير بهجوم القائد الإنجليزي الشهير أيضا مونتغمري على رأس الجيش الثامن مكتسحاً قوات المحور التي لم تقم لها قائمة بعد ذلك.

أثناء وجودي في بنغازي قتل الحاكم بالبو يوم 29 /7/ 1940 وهو في الجو فوق طبرق التي كانت في قبضة الطليان ويقال إن طائرته أصيبت بالخطإ ويقال إن موسوليني أراد التخلص منه لأنه لم يكن على وفاق معه ومع الألمان حول خطة الحرب.

جثمان بالبو نقل براً من طبرق حتى طرابلس، ماراً بجميع المدن والقرى التي على الطريق الساحلي للتحية الأخيرة، ودفن في قبر الجندي المجهول القومي

بباب البحر بطرابلس. وعُين المارشال غرسياني السفاح بدل بالبو، وقد انهزم هزيمة منكرة عندما زحف على مصر ووصل إلى سيدي البراني، انهزم أمام جيش الإنجليز الذي يقوده الجنرال ويفل، واستمرت الحرب عدة سنوات بين كروفر وخلفت أمواتا كثيرة ودماراً كبيراً وانتهت بزوال الحكم الإيطالي عن ليبيا عندما دخلت القوات الإنجليزية مدينة طرابلس في 23/ 1 / 1943 أخبار الحرب ليس مجال موضوعها في هذه الذكريات، ويرجع إليها في كتب التاريخ المفصلة.

241 **شخصيات من بنغازي:** من كبار الشخصيات الليبية في بنغازي في ذلك العهد، الكومندتور عمر فخري المحيشي الذي سبق أن قلت إنه يصدر جريدة برقة الجديدة، ومجلة ليبيا المصورة. وكان على اتصال مباشر بالمحافظ وعلى اتصال بمكتب الشؤون المدنية والسياسية. كنت أعرف المحيشي عن طريق الشيخ الهنقاري وعن كتاباتي في ليبيا المصورة عندما كنت معلماً في هون وتوثقت الصلة أثناء وجودي في بنغازي.

السهرة كانت بانتظام في منزل المحيشي، مع العنيزي والجربي وغيرهما، وقد كان يسبقها عشاء أحيانا، وكانت فرصة لنا للاطلاع على بعض الجرائد والمجلات الممنوعة التي كانت تنشر أخبارا عن ليبيا أو مقالات عن إيطاليا، ويطلب من المحيشي نفيها أو التعليق عليها بما يروق للسلطات الإيطالية. من شخصيات بنغازي غير الحكومية خليل القلال، وكان كاتباً عمومياً في سوق الظلام، ومحمد بن عامر وكان محامياً وعبد الجواد فريطيس وكان مدرساً، والشيخ السنوسي مرتضى وكان مدرساً أيضا وكان صديقاً للحاج مختار الفقهي. كنا في وقت فراغنا نجلس في مقهى العرودي بميدان البلدية.

242 **العودة إلى طرابلس:** في يوم من الأيام، قررت العودة إلى طرابلس، واتصلت بأخي علي وطلبت منه إرسال برقية إلي مزيفة، يخبرني بمرض والدتي، ويطلب مني العودة بسرعة إلى طرابلس، وصلت البرقية، فانتهزت فرصة الترجمة للمحافظ اليومية، وقدمت له نفسي على أني صاحب حاجة، وأطلعته

على البرقية فتأسف لحالة والدتي الصحية، وأذن لي بالإجازة فأسرعت إلى رئيسي المباشر وأطلعته على ما حدث فتأسف أيضا. وبعد أن ودعت الحاج مختار والحاج حسني ركبت أول سيارة متجهة إلى طرابلس، الطريق على طولها كانت مزدحمة بسيارات الجيش المتجهة نحو الحدود الشرقية. وفى طرابلس زرت الكومندتور كمباني الذي استقبلني في هذه المرة بالكثير من الترحاب والإطراء، وباح لي أن التقارير من المحافظ في محافظة بنغازي كانت تثنى عليّ كثيراً، وسألني هل من طلب، فقلت العودة إلى طرابلس، فقال إلى الإذاعة ؟ فأجبت بالرضا والترحاب. وعادت المياه إلى مجاريها، ورحب بي الأصدقاء في الإذاعة، ومنهم بشير الغويل كثيراً، وعمت الفرحة أفراد العائلة وبالأخص الوالدة كانت فرحتها لا توصف، وبدأنا حالاً نستعد للزواج.

عدت من محافظة بنغازي للعمل في الإذاعة بطرابلس، وبدأنا الاستعداد للزواج، لا أذكر كثيراً عن فترة الاستعداد للزواج، لأن البلاد في حالة حرب، والغارات تكاد تكون كل ليلة على طرابلس ومينائها بطائرات إنجليزية تقلع من قواعد مالطا، والحالة العامة كانت متأزمة، الأسعار في ارتفاع والكثير من البضائع شحت في السوق والتموين صار يوزع بالبطاقات، لأن الأسطول الإنجليزي كان يترصد للسفن الإيطالية التي تدخل أي شيء من إيطاليا أو غيرها إلى ليبيا.

243 **زفاف مصطفى وعلي:** حفلة الزفاف والدخول كانت في منزل العائلة القديم في شارع الزاوية، وكان قد اختص به والدي بعد أن انتقل عمي نوري إلى منزل في شارع ميزران في شارع الإسكندرية وعمي خيري انتقل إلى منزل آخر في شارع الزاوية زنقة باش إمام وعمتي أمينة توفيت منذ سنوات، خصصت لي الدار الكبيرة التي كان يسكنها عمي نوري وخصصت لأخي الدار الشرقية التي كان يسكنها والدي، ووالدي انتقل إلى الدار القبلية التي كانت لعمتي أمينة. أما العراسة فكانت في منزل جديد للصادق بن محمود زوج أختي سعدات في زنقة الخروبة، ليس بعيداً عن الزنقة الوسطية وكانت العراسة مشتركة لي ولأخي علي، حضرها الأقارب والأصدقاء للطرفين، وساهم فيها بعض المطربين من الإذاعة،

وأخذت عدة صور تذكارية للمناسبة، يبرز فيها العريسان مصطفى وعلي في ريعان الشباب، ببدلة من الحرير يعرف بالسكروته، وربما كان تحريفاً لكلمة ايطالية سيتا كرودا أي الحرير الخام والطربوش، ولم أتعرف على زوجتي إلا ليلة الدخول أي الزفة 8/31 /1940. الجو كان حاراً في أشد الصيف، والبيوت بها مراوح يدوية مصنوعة من السعف، أما المراوح الكهربائية وأجهزة التكييف لم تكن معروفة على الأقل عندنا في طرابلس.

244 **الغارات الجوية متوالية:** الحرب العالمية الثانية كانت قد بدأت في أواخر سنة 1939 واستمرت إلى سنة 1943 بالنسبة لنا في ليبيا، وكانت الغارات متوالية على طرابلس، كما سبق أن قلت، إما من طرف الحلفاء، أو المحور حسب الظروف، والكل يريد أن يعطل ميناء طرابلس، المصدر الرئيسي لجميع التموين والعتاد القادم من وراء البحر. وفى البداية كنا في رعب منها، ثم تعودنا عليها، لم تكن هناك مخابئ لا عامة ولا خاصة، والدي فكر في مخبأ خاص في جنان عمار هو عبارة عن بستان صغير أقيم على أنقاض محجر أو مقطع حجر، كان يؤخذ منه قوالب الحجر للبناء، ولذا كان منخفضاً حوالي 5 أمتار عن سطح الأرض التي حوله، به بئر يرفع الماء منها بالدلو والبقرة، والشيخ عمار الفقهي شيخ المحلة كان استأجره، وكان يزرع فيه بعض الخضروات والبرسيم الذي يعلف به لتسمين بعض الماشية، الآن أقيم على مكان البستان مبنى ضخم لشركة الأسواق العامة على ناصية شارع الجماهيرية وشارع الزاوية وأمامه جامع مولاي محمد. والدي كلف من يحفر مغارة صغيرة 3 أمتار في 3 أمتار وارتفاع مترين، وعندما تبدأ الغارة ننتقل إليها من منزلنا في الزنقة الوسطية ولكن هذه المغارة أو هذا المخبأ أهمل بسرعة؛ لإنه لم يكن آمناً، فطبيعة الحجر الهش التي كانت عليه والتراب يمكن أن تجعله ينهار بسرعة بسبب أول هزة عنيفة يسببها انفجار قنبلة قريباً من المكان، ولأنها ضيقة وجدرانها رطبة، ولأن مواعيد الغارات لم تكن معروفة مسبقاً، فتارة نهاراً وفى الغالب ليلاً والانتقال من وإلى المخبأ صعب على النساء والأطفال وحتى

على الرجال في حلكة الظلام، تركنا جنان عمار وانتقلنا إلى سوق الجمعة عند أخوالي في أولاد الحاج. عمي نوري وعمي خيري انتقلا إلى المعمورة.

245 **الشرابيل والدراجات:** كما هو معروف أعلنت إيطاليا الحرب على انجلترا وفرنسا في 10/ 6 /1940، والأولى كانت شرقي ليبيا في مصر، والثانية كانت غرباً في تونس، وأغارت الطائرات الفرنسية لأول مرة على طرابلس.

فرنسا انهارت بسرعة، وتونس صارت تحت نفوذ حكومة فرنسية خاضعة لألمانيا حليفة إيطاليا. ولذا صارت حدود ليبيا الغربية آمنة.

انجلترا حليفة فرنسا لم تنهزم، مازالت قوية، وقواعدها البحرية في مالطا فعالة، وطائراتها الحربية تنطلق يومياً تقريباً في المساء منها للإغارة على مدينة طرابلس وميناءها.

وكما سبق أن قلت إن السلطات الإيطالية لم تكن مهيأة لمواجهة آثار الغارات الجوية على المدنيين، لم تكن هناك مخابئ عامة من أي نوع، ونصحت السلطات السكان بأن يقيموا مخابئ في سقائف بيوتهم، مخابئ بسيطة جداً، عبارة عن قوائم من الخشب تسند سقف المباني القديمة، وقد قام كثير من القادرين بذلك دون فائدة تذكر.

وعلمنا فيما بعد أن المخبأ الوحيد المحكم، كان في حديقة بنك إيطاليا الشرقي الطراز، المطل على الكورنيش القريب من الفندق الكبير.

وكان يستفيد من المخبأ المثالي مدير البنك وعائلته وبعض المحظوظين من الشخصيات.

وشاءت الأقدار أن يتهدم هذا المخبأ على من فيه في ليلة ليلاء أثناء غارة من الغارات التي صارت معتادة لدينا ولا نعبأ بها، وهلك من فيه، ونجا آخرون من بسطاء الناس، كانوا على بعد عشرات الأمتار في المدينة القديمة نائمين في مخابئ بسيطة جداً أو في غير مخابئ.

وكان بعض الذين علموا بما حدث لمخبأ بنك إيطاليا، يتندرون شامتين في الطليان، مرددين عبارة "أينما تكونوا تدركم قنابل الإنجليز".

الإقامة في المدينة المحيطة بالميناء غير آمنة، فلا مفر من الرحيل إلى الضواحي، كالهضبة الخضراء، أو سوق الجمعة، أوعين زارة، وحتى تاجوراء وجنزور والمعمورة.

الحياة في المدينة نهاراً شبه عادية، المتاجر تعمل، والشوارع تموج بالمارة والدراجات.

السيارات غير متوفرة، فهي قليلة أصلاً، والعرب ذوو السيارات معروفون بسياراتهم الفيات المتواضعة، يعدون على الأصابع وهم: محمود المنتصر، الوجيه باكير طريش المقاول، وإبراهيم بن شعبان، والحاج رمضان ميزران، الذين كانوا من ملاك العقارات.

ومما زاد في قلة السيارات ندرة الوقود المستورد، لأن السلطات تريد أن توفره ما استطاعت للقوات المسلحة.

عوضت (الشرابيل) السيارات لحاجة السكان إليها، وصارت إحدى الوسائل الأساسية في مغادرة المدينة بعد العصر، وقبل موعد الغارات التي كانت تبدأ عادة بعد المغرب .

(الشرابيل) هي عربات لها 4 عجلات، مثل عجلات السيارات يجرها حصان، ولها سطح طوله حوالي 4 أمتار، وعرضه متران من خشب، وتستعمل عادة في نقل المواد.

وتكونت محطات عديدة تلقائياً في أنحاء من المدينة تتجمع فيها الشرابيل "جمع شريول"، واشتهرت منها محطة الباب الجديد وباب الحرية والظهرة الشرابيل لا تحمل كراسي، الجلوس على سطحها مباشرة، وسيقان الزبائن متدلية.

وصار التفنن في اختيار المكان المناسب على (الشريول)، البعض يفضله خلف الحصان مباشرة رغم ما يدفعه الحصان أثناء جريه من روث وغازات،

والبعض يفضله على الأضلاع المحاذية للعجلات، أو على الضلع الخلفي، إذ لكل منهم قناعته واختياراته.

(الشرابيل) لا موعد لها مسبقاً، ولكنها تتحرك بعد أن تأخذ حمولتها، وكان من زبائنها تجار معروفون، وخصوصاً الكهول والكبار في السن: الشيخ المفتي محمد أبو الأسعاد العالم، وقد كان من كبار أعيان الساحل وطرابلس وليبيا. ومن كبار العلماء، ورغم كبر سنه أيضاً لم تكن لدية سيارة، كان يستعمل عربة ذات عجلتين، ويجرها حصان وتسمى " كاليس "، وكان بهذا الكاليس متميزاً عن الآخرين وينتقل به بين سوق الجمعة وطرابلس.

أما الشباب فلكل منهم دراجة ينطلق بها متى شاء، وحينما شاء، خصوصاً على الطريق المعبدة أو ما شابهها .

السلطات الإيطالية الفاشية كانت تشجع وتحث على استعمال الدراجة التي كانت تباع من طرف التجار بالتقسيط، وكانت وسائل الإعلام تصف الدراجة بأنها " ملكة الطريق" وأن استعمالها يقوي الجسم ويصقله، ويزيده رشاقة وجمالاً وهو نوع من العمل الوطني لإنه يوفر الوقود الضروري للسيارات العسكرية، والدبابات، والسفن، والغواصات والطائرات، ويعتبر مساهمة ثمينة في المجهود الحربي وتحقيق النصر.

وصف علماء الاجتماع سابقاً الإنسان بأنه حيوان ناطق، أو حيوان اجتماعي بالطبع، أو حيوان عاقل، أو حيوان مفكر، ويمكن الآن إضافة أوصاف أخرى منها حيوان متأقلم، أو حيوان متكيف، يستطيع بسهولة أو بصعوبة أن يتلاءم مع ما يحيط به من ظروف.

أنا وإخوتي كنا من الشباب، ولنا دراجاتنا الأنيقة التي نحرص عليها، ونتفاخر بها، وضاعت فترة من عمر هذا الإنسان الناطق والاجتماعي والعاقل والمفكر، والمتأقلم والمتكيف، والمستمع للإذاعات، والهارب من الغارات، ضاعت بين (الشرابيل) والدراجات. والكرة الأرضية تدور وتدور، غير دارية أو عابئة بمن

عليها، بمن ضل أو اهتدى، والشمس هي أيضا تجري منذ ملايين السنيين لمستقر لها ذلك تقدير العزيز الحكيم.

246 **الأميرال فينزي وأحلامه:** الحديث عن الغارات الجوية، وقلة السيارات في الأربعينيات، ذكرني بسيارة كانت لافتة للنظر، كانت سيارة نصف نقل، قديمة الطراز والعمر، ماركة فورد، وكلمة فورد بارزة على بابها الخلفي بأحرف كبيرة، هي ملك لإيطالي عجوز نحيف، كان أميرالاً " قائداً بحرياً كبيراً " في غابر الأزمان، والآن متقاعد، يعمل مزارعاً، ويقيم في مزرعته الصغيرة في منطقة الفرناج شرقي طرابلس مع أخته العانس العجوز، وكان عزباً. لقب هذا الإيطالي فينزي تسبقه أو تضاف إليه دائماً كلمة أميرال.

كنت أختلف في أمور كثيرة مع الأميرال فينزي، هو إيطالي، وأنا عربي ليبي، هو مسيحي كاثوليكي، وأنا مسلم حنيفي، هو عجوز، وأنا في الأربعينيات كنت شاباً، هو نحيف، وأنا متوسط الوزن، هو قصير وأنا طويل، هو أصلع الرأس، وأنا على رأسي شعر أسود فوقه طربوش أحياناً، هو عزب وأنا متزوج هو يتناول الخمر وخبير في أنواعها وأنا أكرهها، هو أميرال متقاعد، وأنا موظف مازلت في أول السلم بعيد عن التقاعد، والقائمة طالت.

ولكن رغم كل هذه الاختلافات كنت أتفق معه في صفة واحدة، كلانا يحلم، يحلم نهاراً، والشمس ساطعة، كلانا معرض لما يعُرف بحلم اليقظة.

كنت أحلم باستقلال ليبيا وبعودة مجد العرب الذي طال غيابه، وكان فينزي يحلم بعودة ليبيا تحت نفوذ إيطاليا بشكل من الأشكال، وكان يعمل لذلك حيث ترأس حركة سياسية لمجموعة من الإيطاليين يحلمون مثله.

وكنت أنا أيضاً أعمل، كنت ضمن المناضلين في صفوف المؤتمر الوطني العام، بقيادة بشير بي السعداوي، وكان النصر لنا !وكنا نحن الغالبين.

247 **انتقال العائلة إلى سوق الجمعة:** أخوالي كـانوا كالعـادة فـي منتهى النبل والشهامة، كانوا يسكنون في منزل جديد قرب المنزل القـديم، فانتقـل بعضهم إلى المنزل القديم، و أخلوا لنا المنزل الجديد، فتوزعنا في حجراته، والدي كان مدرساً، ولو أن المدارس عطلت، وكان مصطفى موظفاً بالإذاعة، وعلي فـي حرس الوالي الشرفي، كمال بالتعاون مع سعيد ونجـاتي بـدأوا نـشاطاً تجاريـاً، وتحصل كمال بمساعٍ من عمي نوري على دكان من مجموعة الدكاكين التي كانت حول جامع السنوسية الذي أقيم على أنقاض الجامع القديم عندما شق الشارع الغربي الحديث، وصارت تقام على حافتيه عمارات حديثة، وسمي شارع بالبو نسبة إلـى والي ذلك العهد..بداية رأس مال التجارة كان من صهرنا الصادق بن محمود.

عمي نوري وعمي خيري انتقلا إلى المعمورة، وهي قرية زراعية حديثـة، تبعد عن طرابلس حوالي 40 كيلو متراً، في الجنوب الغربي، وكثير من العـائلات الطرابلسية انتقلت إليها رغم بعدها، وكان البحري رجوبة صهر عمي خيري، لـه سيارة كبيرة، أعدها لنقل الركاب من وإلى المعمورة يومياً، وربما كان هـو الـذي سوغ لعمي خيري وبعدها لعمي نوري فكرة الانتقال إلى المعمورة أسوة بالكثير من العائلات المعروفة مثل عائلة باكير وعائلة الفقيه حسن وعائلة ميزران وغيرهـا. كانت المعمورة آمنة ولكن الذهاب إليها يومياً والعودة منها كان أمرا صعباً متعبـاً وخصوصاً أن جزءا كبيراً من الطريق إليها بعد الكيلومتر 27 كان ترابياً، ولذلك لم تطل إقامة عمي نوري بها، ونقلناه معنا إلى الساحل سوق الجمعة، كنـا تحـصلنا على بطاقات تموين إضافية بالواسطة، وخففت عنا معاناة البحث عن التمـوين فـي السوق السوداء، و أثناء وجودنا في الساحل أجرنا سانية كشوخ الملاصقة لجامع أبو سيف، وصرنا نمارس الزراعة على طريق تأجير بعض الفلاحين وتوفر لنا إنتـاج زراعي مرغوب دائماً وخصوصاً في زمن الحرب.

248 **الشيخ الشارف والإذاعة:** العمل في الإذاعة كان ترجمة الأخبار من الإيطالي إلى العربي بصفة رئيسية كالعادة، و أضيف إليها الاستماع إلى بعض

الإذاعات العربية ونقل النشرات الإخبارية العربيـــة، وترجمتهـــا إلـــى الإيطاليـــة، ووزعت الإذاعات على المترجمين وهم بشير الغويل ومصطفى السراج، ومحمد بن زيتون. أذكر من بين المحاضرين الأستاذ الطاهر باكير والشيخ أبو الربيع الباروني والشيخ أحمد الشارف الشاعر المعروف وكان لهذا الأخير قصائد اشتهر منها فـي بداية الاحتلال الإيطالي قصيدة مطلعها رضينا بحتف النفوس رضينا ولم نرض أن يعرف الضيم فينا، وكان له في مجال الاجتماعيات قصيدة خاطب فيها ابنه، أذكـر منها البيتين التاليين :

**بُني أريد وأنــت تريـــــد        وبيني وبينك شأو بعيد**

**تريد الملاعق فوق الصحون        وإني أريد وأهوى الثريد**

الشيخ الشارف كان شاعرا معروفاً، رغم أنه قاض بالمحكمة العليا، وأذكـر أنه جاء إلى الإذاعة ليذيع قصيدة من شـعره، والإجـراءات المتبعـة أن يكتـب المحاضر ما يرغب في إلقائه، ويعتمده بشير الغويل. الشيخ الشارف جاء متـأخرا دون أن يكتب أي شيء، فاضطر أن يكتب على عجل في أي ورقة وجدها في أحد المكاتب، وبالصدفة كانت الورقة التي كانت على وجه منها البلاغ الحربـي لـذلك اليوم، كان جاهزاً للإذاعة في بداية النشرة الأولى والنشرة الثانية، ولم ينتبـه أحـد لذلك، و أذاع الشيخ الشارف قصيدته، وحفظت الورقة في ملف المحاضرات وهي تحمل في وجه منها البلاغ الحربي، وعندما جاء موعد البلاغ كانت ربكـة، الكـل يبحث عن البلاغ دون فائدة، و أخيرا أعددت بسرعة ترجمة جديدة، ومـن حـسن الحظ أن البلاغ كان قصيراً،وبالصدفة اكتشف سر ضياع البلاغ الذي كـان سـببه الشيخ الشارف.

249 **خطاب هتلـــر:** كنا في سنة 1941 م، والفصل صيف، واليوم يـوم الأحد، وكانت العطلة الأسبوعية، ولكن نحن موظفي الإذاعة كنـا نتنـاوب علـى العمل، لأن الإذاعة لا تعطل، كان دوري وكنت في المساء على مكتبي وكان هتلر زعيم ألمانيا الشهير يلقي خطاباً كعادته، وكان المختـزل الإيطـالي يحيـل علـيّ الأوراق تباعا وكنت أترجم على عجل، وغباوة مني دون ترقيم الأوراق، معتمـداً

على أن السيد أحمد الحصائري المذيع، سيأتي في الوقت المناسب، ويراجـع مـا ترجمته ويذيعه. السيد أحمد الحصائري تأخر وتأخر كثيراً والسبب كان (زردة) في أحد بساتين المنشية، ولا يمكنه أن يغيب عن هذه المناسبات المحببة لنفسه، وسـرح ونسي أنه مذيع في الإذاعة، ولم ينتبه لذلك، وحان موعد فتح الإذاعة، وبعد إذاعـة الشعار المعهود كان المفروض أن المذيع يتكلم، ولكن لا مذيع ولا كـلام والفنـي الإيطالي يبحث عن الحصائري، ويطلب مني بإلحاح التصرف، وأنـا فـي أشـد الارتباك، المختزل مستمر في تحويل الأوراق وما ترجمتـه يحتـاج إلـى تـرقيم ومراجعة، وأنا شخصياً لم يسبق لي أن أذعت شيئاً. فما العمـل يـا مـصطفى ؟ المطلوب منك أن تترجم والمطلوب منك أن تراجع والمطلوب منك أن تذيع، ذلـك كله في وقت واحد، حاولت كسب الوقت وكنت أماطل الفني الإيطالي عبثاً، فما كان علي إلا أن دخلت حجرة البث، وأنا أتصبب عرقا حساً ومعنى، وبدأت أذيع الورقة الأولى والورقة الثانية من خطاب هتلر، ثم كانت الأوراق غير مرقمـة، وكانـت ربكة، كلام غير مترابط، مجرد كلام، ومما زاد في ارتباكي إني شعرت بخطـورة المسؤولية، الزمن زمن حرب، الخطاب لزعيم عالمي له شأنه وأي شأن والظـرف دقيق جداً، والكلام الصادر من مصطفى أشد إرباكاً، لا أستطيع أن أتوقف، وفجـأة فتح الحصائري برفق باب حجرة البث، وجلس أمام مكبر الصوت وصـار يـذيع بصوته المألوف المحبب للنفس. وبتّ في تلك الليلة في سوق الجمعة حيث كنا نقيم عند أخوالي فراراً من الغارات الجوية، وأنا في قلق شديد، والهواجس تتوالى علي، كلامي في الإذاعة لم يكن سراً، لاشك أنه سمعه آلاف الأشخاص، وأن المئات منهم لاحظوا الارتباك في الخطاب، ولا يمنع أن يكون بينهم مـن يلاحـظ ذلـك لـدى السياسيين والمسؤولين الإيطاليين، ولذا سوف تلصق بمـصطفى تهمـة التـشويش المتعمد لخطاب عظيم، لزعيم عظيم زمن الحرب، والنتيجة معروفة، ولا حول ولا قوة إلا بالله. وفي اليوم التالي ذهبت إلى العمل مجهداً وأعصابي مشدودة، أترقـب سوءاً في كل لحظة، ولكن مرت الثواني، والدقائق، والساعات، ولا تعقيب مـن أي جهة.

الحمد لله والسبب هو أننا كنا في زمن الحرب والمسؤولون الإيطاليون لا يعرفون العربية، والقليل منهم الذين يعرفونها، لم يكن يهمهم الاستماع لإذاعة طرابلس باللغة العربية، والمستمعون العرب الطيبون منهم، وغير الطيبين، كانوا في ذلك الوقت ساعة إذاعة الخطاب مشغولين بالرحيل من المدينة، إلى القرى التي حولها بأي وسيلة وقبل أن تبدأ الغارات. وعندما استقروا في بيوتهم أينما كانت، كانوا حريصين على الاستماع لإذاعة لندن، عدوة روما، آملين في الانفراج، لا الاستماع إلى إذاعة طرابلس و الحصائري،و أُهمل مصطفى وخطاب هتلر مرتبا أو مشوشا و مرت هذه الأزمة الصغيرة أو الكبيرة بسلام وإذا العناية رافقتك عيونها نم هانئاً فالكائنات عيون أمان.

250 **فندق الحصائري:** فندق الحصائري مبنى كبير من دورين، يطل على شارع الوادي (شارع عمر بن العاص الآن) وكان أمام مبنى سينما لوكس الذي أقيم على أنقاض فندق البازجي. وكان خلفه فندق الجعفري وواجهته على شارع ميزران ومدرسة روما هذه الفنادق وغيرها في المدينة و الدواخل هي عبارة عن استراحات للمسافر، تتلاءم في بنائها وموقعها، مع طبيعة المسافر، ففنادق باب البحر في الميناء، تستقبل الوافدين من البحر مع ما معهم من أمتعة وبضائع، ولذا تجد أن بعض حجراتها تستعمل كمبيت للمسافر، وبعضها كمخازن للبضائع أو لما يحتاجه البحارة وصيادو السمك من مواد وعدد وشباك و أشرعة وطلاء للمراكب وغيرها. فنادق الدواخل تتناسب مع زوارها من القوافل و ما يتبعها من بشر ومركوب،هي الخيول، والحمير، ومع ما تحمله من بضاعة وما يحتاجه المركوب، من علف، وتبن، وشعير، وماء، ومع شرط أساسي في جميعها، الأمن والأمان.

اشتهرت الفنادق بأسماء من أقاموها سابقاً أو مالكيها أو أسر أو شخصيات لمعوا في لحظة من لحظات التاريخ، وارتبط اسمهم باسمها. فندق الحصائري موضوع هذه الذكريات، لا أعرف عن تاريخه الكثير، أعرف أنه يحمل اسم الحصائري لأنه كان مملوكاً كله أو قسماً منه لوالد السيد أحمد الحصائري، الصديق

والأديب والشخصية المعاصرة لنا، وقد كان والد السيد أحمد ثرياً، وخلف لابنه ثروة بددها السيد أحمد في شطحاته، وكان يتسلى كثيراً ويردد البيت التالي :

**لا تنكري عطل الكريم من الغنى فالسيل حرب للمكان العالي**

بالفندق مقهى وعدة حجرات تفتح على البهو، يسكنه بصفة مستديمة أو مؤقتة أخلاط من البشر، لا أعرف عنهم شيئاً وكل ما أعرفه أن المشرف على الفندق أو المسؤول عنه شخص اسمه صبرا،نحيف الجسم، شاحب الوجه، يلف على رأسه عمة اقرب إلى عمة الباعة أو الغدامسية، والسيد أحمد له حجرة في الدور الأول، كنا نصل إليها متسلقين سلماً به حوالي 15 درجة وسخة امتحت من كثرة الاستعمال وعدم الصيانة، هذه الحجرة هي الصالون الأدبي والاجتماعي وملتقى أصدقاء أحمد الحصائري ومعارفه.

251 **منتدى السيد أحمد:** السيد أحمد الحصائري كما سبق أن قلت في جزء من هذه الذكريات، شاب وسيم المظهر، يحب الحياة، لمع في محيطه في المدينة وفي الدواخل في أواخر العشرينيات وما بعدها، وأنا ممن عرفوه كوجيه وأديب، محدث لبق، فصيح، ووطني وسياسي، عاش وهو شاب في بحبوحة، ومبذر، ويلبس اللباس الأنيق والمركوب الشائع في المدينة من طرف الشباب في ذلك العهد من أشهر ماركات الدراجات بيانكي وفولسك، وكان يضايقه صيفاً أنه غزير العرق. هذا هو السيد أحمد الحصائري الذي عرفته في خلوة الشيخ عبد الرحمن القلهود، ثم كزميل موظف في الإذاعة، ثم من رواد صالونه أو كما كان يعرف ببيت السيد بفندق الحصائري في أواخر الثلاثينيات وأول الأربعينات. رواد الفندق الدائمون باستثناء صاحب الفندق هم السيد أحمد قنابة، ومصطفى السراج، ومحمد خليل، ومحمد بن زيتون، وبشير الغويل، ومحمد السوكني، ونجم الدين فرحات، وأبو بكر الزليطني، وسعد الدين المرابط، ومحمد محفوظ، ومختار العالم، وأحمد الزقوزي،، ومن غير الملازمين الأديب والشاعر أحمد الفقيه حسن، والشيخ عبد الرحمن القلهود، وعبد الحفيظ بن ضوء، وراسم قدري، والشيخ محمد المصراتى، والشيخ محمد الهنقاري، وبعض الموظفين الزائرين من الدواخل. كما

أنه تدخل بيننا شخصيتان أجنبيتان أحدهما البروفيسور بيلوفو الإيطالي، وصف ضابط ألماني اسمه ماكس مليان كان يتكلم الإيطالية بطلاقة، كنت أحس كما يحس غيري أن أحدهم من المخابرات الإيطالية والثاني من المخابرات الألمانية زرعا في منتدانا باعتباره نبضاً يمثل الطبقة المتعلمة الشابة، وكنا نمثل الحاضر والمستقبل، وكانت تتفاعل فينا أجمل الأحاسيس وأنقاها رغم أننا رسميا كنا نصنف بأننا موظفون محليون في إدارات الوزارة الإيطالية، كنا نحلم بمستقبل زاهر في جميع المجالات كغيرنا من شباب الأمة العربية من الخليج إلى المحيط، ومن المحيط إلى الخليج، وكنا متحمسين نجاهر بآرائنا على الأقل فيما بيننا، وفي تلك الحجرة بفندق الحصائري، كان هذا المنتدى معروفا جدا عند السلطات الأمنية الإيطالية ولا شك أن تقارير الشخصيتين المحترمتين كانت تحمل الكثير إلى الجهات التي يهمها متابعة درجة حرارة أو غليان المجتمع الليبي والتدخل والسيطرة عليه في الوقت المناسب.

من بين ما ذكرت نسيت الفيتوري زميط الهبلاك، وهو رحمه الله شخصية من الفتوة الشعبية، ينتمي إلى عائلة عريقة، وكانت ظروف الحياة وتقلباتها طحنته وعجنته، وكونت منه شخصية ظريفة فريدة، يحمل نفس أحاسيسنا، ولكن يعبر عنها بأسلوبه الخاص المتميز، يثور فجأة ويغضب لكلمة يسمعها، ويفهم منها الإساءة إلى شخصه أو جنسه أو لدينه، ويهدأ فجأة وتجده وديعاً كالطفل، ولذا لقب بالهبلاك، يعيش في ضنك، ولكن دون تنازل عن أنفته وجرأته بالتعبير عن آرائه خطأ أو صواباً.

**252** **قد تعشق الأذن قبل العين أحياناً:** الآن أتحدث عن موضوع آخر، يتعلق بالسيد أحمد الحصائري و بالإذاعة، السيد أحمد الحصائري كان مذيعاً باللغة العربية، وكان تعبيره واضحا فصيحا، جرس كلماته محبب للنفس، كنا نعرف ذلك، ونحسده عليه، ولكن لم نكن نعرف أن صوته يسمع فيما وراء البحار، من شابة إيطالية في ضاحية من ضواحي بولونيا في وسط إيطاليا، وسحرها صوته، وكانت تسمعه بانتظام ليلاً، وتحلم و تحلم، وأتيحت لها فرصة السفر إلى طرابلس

من ضمن فرقة من فرق الشابات الإيطاليات اللاتي كان النظام الفاشي يتبناها ويرعاها، وحين وصلت إلى المدينة ونزلت بفندق الودان، أسرعت بالاتصال بالإذاعة تبحث عن المذيع العربي دون أن تعرف اسمه، ثم دعيت لزيارة الإذاعة، واجتمعنا بها ورحبنا، وكانت شابة، وكانت مقبولة المظهر، لم تكن فاتنة، كان اسمها " ايرمى "، وتعرفت إلى المذيعين الأحمدين الحصائري وقنابة، و أحدهما أبيض الوجه والثاني أسمر الوجه، واستمعت إلى الصوتين، فكان الساحر السيد أحمد الحصائري، وقد كانت معجبة بالصوت فقط أما الآن فهي معجبة بالسيد أحمد كله كما هو، صوتا ولحما، وشحما وعظما، وعرقا ولباسا، والسيد أحمد مزهو وفخور بهذا الإعجاب الطاغي الوافد من بعيد، وكانت الشائعات انتشرت في الأوساط التي تعرف الحصائري، وهي كثيرة ولكن سرعان ما طارت السكرة، زيارة الشابات الإيطاليات أوشكت على الانتهاء، و القوانين الفاشية العنصرية قاسية، تحرم تحريماً قاطعاً اختلاط الجنس الإيطالي الآري، القمة في النقاوة والطهارة، بأي جنس آخر،حفاظاً على نقاوته وطهارته، وصفرت الباخرة ثلاث مرات و أبحرت، السيد أحمد على الرصيف يودع، والشابة الإيطالية تلوح بيديها من على الباخرة، وبقي السيد أحمد نشوان مدة طويلة بهذه الحادثة ويدندن (فرق ليه بينا الزمان) ؟ وعلى بعد آلاف الأميال مخلوقة أخري تدندن هي أيضا بما يفيد نفس المعنى.

253 **فلبطرد الإنجليز :** كانت الحرب العالمية الثانية على أشدها، حرب على الأرض، وفي أعماق البحر، وفي الجو، وحرب دعائية شرسة على موجات الأثير، إذا كان أبطال الحرب الساخنة عالميا، هتلر، وموسيليني، وتشرشل، وستالين وإيزنهاور، وروميل، ومونتغمري، كان الأبطال على المسرح الإذاعي العربي يونس بحري، من إذاعة بغداد، ثم من إذاعة برلين، والعروي من إذاعة تونس، ومذيع ومعلق في إذاعة لندن هو خليل الصباغ ومحمد أفندي السوكني في إذاعة طرابلس.

السيد محمد السوكني كان شخصية معروفة جداً في الأوساط الليبية في العشرينيات وما بعدها، من مواليد سوكنه، في العشرة الأولى من القرن تقريباً، كان اجتماعياً جداً، أسمر اللون، نحيف الجسم، يلبس البذلة الأوربية والطربوش ونظارات ويحمل بيده عصا، كان عمله الرسمي مترجماً في الشرطة العسكرية الكاربينيري، وكان لا يخلو منه اجتماع أو سهرة، ولا (زردة) ولا احتفاء بقران، ولا مأتم، متحدث لبق، يقال عنه إنه يحب الاختلاط بالناس بطبعه وإذا حرم من ذلك مرض، ويقال أيضا إن هوايته جزء من عمله الرسمي، ولكنه نقي السريرة لم يضر أحدا، تضم تقاريره ما يسمع دون المبالغة أو الإساءة إلى أحد. كان يدعى من الجميع للاستمتاع بما ينقله من جديد الأخبار ونكاته. تارة يكون سليط اللسان، كان يتكلم دون تحفظ، والآخرون يتكلمون بحضوره دون تحفظ، محمد أفندي السوكني كلف زمن الحرب بإذاعة حديث سياسي، يعد له من طرف إدارة التعبئة السياسية، ضد الإنجليز وسياسته المعادية للعرب وكان يختمه دائماً بشعار: فليطرد الإنجليز من البحر الأبيض المتوسط.

254 **ليلة الغارة البحرية:** البلاد كالعادة في حرب، والحرب على الجبهة البرية سجال، تارة يتقدم الحلفاء الإنجليز ومن معهم اتجاه الغرب ويحتلون بنغازي، وبعدها يزحف المحور الطليان والألمان نحو الشرق ويستعيدون بنغازي والضحية دائماً بنغازي، هذا يدمر وهذا يدمر، والغارات الجوية على المتحاربين متواصلة، كذلك على المدن، و أهمها طرابلس وميناؤها، وفى ليلة 21/ 4 /1941 كانت غارة من نوع جديد، غارة بحرية. تشرشل رئيس وزراء الإنجليز قرر أن يعطي درسا لموسليني في يوم تاريخي بالنسبة للإيطاليين، وهو عيد ميلاد روما، وأغار بسفن الأسطول على مدينة جنوة في شمال إيطاليا، وتعتبر ميناءً هاماً يغذي شمال إيطاليا بما فيه من مصانع حربية وغير حربية، وفي نفس الوقت أغار على مدينة طرابلس أهم مدن ليبيا، غارات لها مغزى سياسي، وهو التنكيد على إيطاليا في يوم تعتبره تاريخياً، واستعراض لعضلات الإنجليز القوية في البحر الأبيض المتوسط الذي يريد محمد أفندي السوكني طردهم منه. كنت في تلك الليلة مع الأصدقاء

محمد خليل، محمد بن زيتون، وعبد الله سكتة، عند مختار العالم بسوق الجمعة، تعشينا، وسهرنا، والدردشة كالعادة حول ما استجد من أحداث في الداخل والخارج، بعضها مهم، ومعظمها تافه، وفجأة دوت صفارات الإنذار المزعجة، ورغم أنها مزعجة وتحمل شراً، كنا قد تعودنا عليها وواصلنا حديثنا، ولكن سرعان ما لاحظنا أن السماء أضيئت بشكل عجيب كأننا في حفلة الصواريخ النارية، مدافع ورشاشات من المقاومة الجوية الإيطالية من الأرض وما ترسمه من خطوط متقاطعة في السماء، وفوانيس بمظلات خاصة أسقطتها الطائرات الإنجليزية فأضأت بها سماء المدينة وما حولها تمهيدا لما بعدها، وصمتت المدافع الإيطالية البعيدة، وبدأت مدافع أخرى مرعبة، لم نعرفها من قبل، وخرجنا إلى العراء وكنا نتابع المهرجان، وكأننا في احتفال، غير مقدرين للخطر، وبعد حوالي ساعة هدأت الحالة فجأة ونمنا. و لم نكن نعرف حقيقة ما حدث، وعندما استيقظنا صباحاً علمنا من الشيخ المفتي الشيخ أبوالأسعاد العالم الذي استيقظ باكراً واستمع لإذاعة لندن، علمنا الأخبار بالتفصيل، وأن ما كنا نستمتع به ليلة البارحة، هو غارة بحرية معتبرة من الأسطول الإنجليزي، وكانت الغارة البحرية الوحيدة التي شنت على طرابلس طوال سنوات الحرب، توجهنا إلى أعمالنا في المدينة نستطلع، فكانت المناظر المرعبة، أعمدة الكهرباء والهاتف والنخيل محطمة ومبعثرة، طرقات دمرت، بعض القنابل كانت مدفونة في التراب دون أن تنفجر مبانٍ هدمت، وحتى مبنى الإذاعة أصابته أضرار، وهكذا أضيف إلى قاموسنا الحربي عبارة جديدة وهي "غارة بحرية".

255 **آخر أيام الحكم الإيطالي:** مرت الأيام، والأسابيع،والشهور، وحياة الأفراد تتفاعل على هذا الجزء من الكرة الأرضية الذي سميناه ليبيا، هناك من يجري وراء النقود وهي تجرى أمامه، السيولة النقدية زادت كثيراً، الجيش الألماني يصرف بسخاء، الجيش يحتاج إلى تموين محلي، خضروات وفواكه ولحم وسمك، ويحتاج إلى خدمات كالنقل بالسيارات، والخزانة الإيطالية تطبع العملة الورقية، والجيش الألماني يوزع. هناك من يبحث عن تموين رسمي محدود الكمية والجودة يوزع بالبطاقات، و بأسعار مدعومة محددة، وتموين في السوق السوداء المحرمة

بأسعار عالية طائرة كل يوم، وخصوصاً بالنسبة للسكر والشاهي، وقد ظهرت في السوق بدائل محلية كثيرة للشاهي، تتكون من بعض الأعشاب البرية. هناك من يبحث عن مأوى يبعده عن الغارات الجوية، وهنالك من يبحث عن وسيلة للتنقل، دراجة أو شريول، أو كرطون، أو سيارة ملفقة، أو أي حاجة. هناك من يتزوج وهناك من يموت بالتيفود، وهناك من يتابع الإذاعات ويتفنن في تأويل الأخبار على هواه وللناس فيما يعشقون أو يبحثون أو يعملون مذاهب، ولكل منهم شأن يغنيه، واقتربنا من نهاية سنة 1942 وحلت سنة 1943 وقوات الحلفاء احتلت بنغازي، ونصبت كمينا في اجدابيا للقوات الألمانية والإيطالية المنسحبة من برقة من منطقة الجبل الأخضر العامر بالسكان والمزارع الإيطالية الحديثة، انطلقت قوات الحلفاء بسرعة من طبرق إلى اجدابيا عبر الصحراء، وباغتت القوات الإيطالية وهي منسحبة من بنغازي نحو سرت، وانقضّت عليها وحطمت الكثير منها وأسر منها جنرال مشهور ومات فيها آخرون.

كلما اقتربت الحرب من طرابلس زاد التوتر فيها، استسلام طرابلس صار متوقعا، هو حديث الناس، ولكن المبهم والمجهول هو الطريقة، سلما أم حربا. هل السلطات الإيطالية تدمر جزءا من المدينة ؟ وهل الأمن سوف يضطرب؟ وما مصير العائلات الإيطالية المقيمة في طرابلس وما حولها ؟ فزاد الطلب على التموين رغم قلته وارتفاع أسعاره، ولكن من حسن الحظ ومن لطف الله أن الأمور سارت حتى الأيام الأخيرة بصورة اعتيادية.

256 **<u>مفكرة مصطفى والأحداث:</u>** نحن الآن في الأسبوع الثالث من شهر يناير سنة 1943 وقد وجدت مُدوناً في مفكرة لي في تلك السنة المعلومات الآتية، أرويها كما وردت في صيغتها، الاثنين 1/18 /1943الحالة اعتيادية في طرابلس، الثلاثاء 1943/1/19 اضطربت الحالة بشدة وقد نسفت السلطات الإيطالية والألمانية مستودعات الوقود والذخيرة، و أغرقت سفنا بمدخل الميناء، وفتحت مخازن المواد الغذائية والملابس وغيرها أمام الجمهور فنهبها، أقفلت الإذاعة ووضعت آلاتها في صناديق استعداداً لنقلها، تحصلت على مسدس هدية من

المارشال الكابينيري بمدرسة الضابطية مرتوتشى. الأربعاء20 /1 /43اخبر راديو الشرق الأدنى أن قوات الجيش الثامن البريطاني وصلت إلى مسافة 30 ميلا من طرابلس، الخميس1/21 /43 ازدادت الحالة خطورة، النقد المتوفر لدي مع إخوتي كالآتي مصطفى 425 ليرة،علي 4500، كمال 11400، سعيد 140، نجاتي 710، المجموع 21190 ليرة، الجمعة 1/22 /43الحالة في اضطراب مستمر ولم يرفع العلم الإيطالي على قصر الحكومة، السبت 1/23 /43عند الساعة الخامسة من صباح اليوم دخلت القوات الإنجليزية طرابلس وقد علمنا بذلك ونحن عند أخوالي في أولاد الحاج بسوق الجمعة، أرسلت أخي نجاتي أولا ثم أخي علي للاستعلام فأكدا لنا ذلك بعدها توجهنا إلى المدينة فقد احتشدت بميادينها الدبابات والجنود ورفع العلم البريطاني عند الساعة التاسعة، وقد نشرت السلطات البريطانية بعض الإعلانات المتعلقة بالأمن العام، إعلان آخر ينص على استعمال عملة جديدة سميت الليرة العسكرية البريطانية، وكل ليرة منها تساوى 480 ليرة إيطالية، الأحد 43/1/24 دُعي مختار والمحلات والأعيان بالمحكمة الشرعية عند الساعة 12 ظهراً وقد قدم كولونيل إنجليزي اسمه اكلاند ومعه ضابط سياسي إنجليزي مدني وكلاهما يتكلم العربية بلهجة فلسطينية ومعهم محمود المنتصر وقد كان رئيسا لمجلس إدارة الأوقاف و ألقى الضابط الإنجليزي كلمة شديدة اللهجة حث فيها على الربط والضبط و الأمن العام وأخبر أن السلطات العسكرية لا تستطيع تموين المدينة لأن كل مجهودها مكرس للحرب ولبعد قواعد التموين الرئيسية، وقد عارض بعض الحاضرين ذلك ولكن بدون فائدة، وقد خلف الاجتماع أثرا سيئاً في نفوس الحاضرين.

الاثنين 43/1/25 ظهرت فكرة تأسيس جمعية الإصلاح،عدت إلى العمل في مكاتب الشؤون المدنية والسياسية وقد تجمع بها جميع الموظفين العرب والإيطاليين، ولكن لم يجتمع بهم أي مسؤول، ولم يقوموا بأي عمل،عقد اجتماع تمهيدي لجمعية الإصلاح الاجتماعي في بيت الحاج محمد الكريكشى بمحلة أبو مشماشة، وقد حضره الحاج محمد، مصطفى السراج، السيد أحمد الحصائري، فيضي العالم، محمد خليل، غالب سيالة، الثلاثاء 43/1/26عقد الاجتماع التمهيدي

الثاني لجمعية الإصلاح الاجتماعي، وقد حضرها مصطفى السراج، محمد خليل، غالب سيالة، عبد الله الأمين الشريف، والحاج الطاهر الشريف. الجمعة 43/1/29 راجعت إدارة الاستعلامات السياسية البريطانية في موضوع نشر صحيفة عربية، الاثنين 43/2/1 اجتماع تمهيدي آخر في الأوقاف بحضور الشيخ المفتي ومحمود المنتصر حول تأسيس جمعية الإصلاح ومن بين الحاضرين مصطفى السراج. اعتبارا من اليوم كلف الموظفون العرب بالعمل في المكاتب التي كانوا بها سابقا من 9 إلى 13 صباحا ومن 14:30إلى 17 مساءً. ذهبت مع الحصائري إلى إدارة الدعاية وصحيفة الكوريري دي تريبولي، غارة جوية ألمانية على طرابلس ألقيت أثناءها بعض القنابل.

257 **السلاح يباع في الشوارع:** وردت أخبار موجزة نقلا عن مفكرة لي بتاريخ سنة 1943 وكانت الأخبار في شكل موجز أو مشوش، الآن أفضل ما ورد فيها حسب ما أذكره.

الثلاثاء 43/1/19 توجهت كالعادة إلى مبنى الإذاعة بمعرض طرابلس، ولكن وجدت أن الوضع ليس اعتياديا، قابلت بشير الغويل فوجدته مضطرباً، وعلمت منه بالكلام وبالحركات أن ما كان مؤجلاً قد حدث، القوات المسلحة الإيطالية و الألمانية قررت الآنسحاب إلى تونس، وأنه ستبقى شخصية ايطالية مدنية كبيرة تسلم المدينة رمزياً للإنجليز، والفنيين يضعون آلات الإذاعات في صناديق استعداداً لنقلها، وأن المدير الإيطالي مشغول في ترحيل عائلته مع بقية العائلات الإيطالية التي رغبت في الرحيل، وقدم السيد أحمد الحصائري والسيد أحمد قنابة ومحمد بن زيتون، و أحيطوا علما بالواقع، ولم يبق لنا إلا أن يودع بعضنا بعضاً وننصرف كل إلى اتجاه. توجهت بدراجتي إلى باب الحرية، جامع السنوسية حيث كان دكان أخي كمال، فوجدته مقفلاً، وكذلك بقية المتاجر، توجهت بعدها إلى شارع الزاوية وفى نفسي تتلاطم أحاسيس متضاربة ومتصارعة. انتهت حياة عشناها وألفناها، كنا نترقب نهايتها ولكنها طالت وكأنها سوف لن تنتهي، انهار نظام كانت له سطوته وغطرسته وجبروته، فصار الآن هشيماً. كنت أدفع

الدراجة إلى الأمام بحركة ساقي وفكري شارد، ولكن صوت انفجار قوي بعيد هزني فأعادني إلى الواقع وتوالت الانفجارات. وصلت بيت العائلة، ولم يكن به أحد، فتحت، ودخلت أتفقد، ودخل بعدى أخي علي، و أفاد أنه هو أيضا سُرح، فلا دولة،ولا والٍ، و لا حرس شرف، فغير ملابسه وصار مدنياً حرا، وتوالت الانفجارات، فأعلمني أخي علي أن الانفجارات هي في مخازن الذخيرة والوقود، وأن السلطات أغرقت سفنا في مدخل الميناء بعد أن فجرتها و أنها فتحت مخازن التموين بأنواعها أمام الجمهور ودعته إلى النهب. قررنا العودة إلى سوق الجمعة ولكن كل في اتجاه، أنا سلكت شارع الزاوية، فشارع مدرسة الضابطية، وهناك وجدت المارشال مارتوتشي وقد كان منذ أوائل الثلاثينيات، منذ الفترة التي كنت فيها مع أخي علي في المدرسة، كان المدير العملي للمدرسة، ولم أجتمع به منذ مدة، ولكن العلاقة بيننا في المناسبات النادرة التي التقينا فيها كانت ودية، كنت أحترمه باعتباره رئيسا سابقا لي، وكان هو أيضا يحترمني وقد علم بتدرجي في سلم الوظيفة، ويفخر بأن أحد طلبة المدرسة استطاع أن يشق طريقه بنجاح. نزلت من على الدراجة وحييته ورد التحية ورحب، ولكن الظرف لا يحتمل الكلام الكثير، وقد كان بطبعه وقوراً لا يتكلم، فقال سنواصل الحرب حتى النهاية، وقدم إلي مسدسه مع خرطوش هدية، قائلاً ربما تحتاج إليه، شكرته، و تواعدنا.عند منعطف الطرق في شارع السيدي في اتجاه باب بن غشير كان زحام شديد، الأهالي ينهبون مخازن السلاح، زرافات من الرجال وحتى من النساء خارجين من المخازن محملين بالبنادق، وقفت أتأمل لحظة تاريخية، سلاح وجه نحو صدورنا منذ سنة 1911 وقُهرنا به طوال هذه السنوات، الآن هذا مصيره، سبحان الواحد القهار.

258 **هواية إطلاق الرصاص:** عرض علي أحد المحملين بالبنادق شراء ما أختاره، فاشتريت بندقيتين، وعرض علي قنابل يدوية فاشتريتها هي أيضا بليرات معدودة. تعذر السير في شارع السيدي وعدت من حيث جئت إلى شارع الزاوية متجهاً نحو الجنوب، وفي آخره وجدت مخزنا مفتوحا، ولكن الناهبون فيه أقل عددا، مخزن أدوية ومعدات طبية، دخلت فوجدته مخزنا كبيرا جدا، و الأدوية،

والقطن، والشاش، مبعثرة، بشكل يدعو إلى الحسرة. وجدت بعضا من الممرضين الذين في المنطقة، علي الخمسي، محمد اليمني، وغيرهم، يجمعون الأدوية عن خبرة، أما أنا فاكتفيت ببعض الشاش، والقطن، وصارت حمولة الدراجة مكتملة، بنادق، وقنابل يدوية، ومواد طبية، وتوجهت سالكا طريق السور الخالي من المارة نحو الهاني، وفي الطريق استوقفني شخص، وعرض عليّ شراء قنابل يدوية، وكدليل على جودتها وفعاليتها، ألقى بواحدة على السور فانفجرت، محدثة دوياً، فشكرته، وأعلمته أنه عندي نفس الصنف، وصلت المنزل في قبيلة أولاد الحاج ووجدت بعض أخوالي ووالدتي وزوجتي وكلهم يريدون معرفة مصدر الانفجارات وآخر الأخبار فأعلمتهم بما عندي. وصار إخوتي يعودون تباعا، الكل محمل ببنادق أو مسدسات أو ذخيرة، وعلمت أن بعض أفراد القبيلة و الأقارب ذهبوا إلى سوق الجمعة لنهب ما تيسر، وعادوا بمحركات وآلات مختلفة الأشكال لا يعرفونها ولا يعرفون لها استعمالا. تلك الليلة والليالي التي بعدها كنت لا تسمع إلا إطلاق الرصاص في الهواء بغزارة، شعب حرم عليه حمل السلاح بالطريقة التي يراها هو لمدة أكثر من ربع قرن، وقد أتيحت له الفرصة فأراد التعويض عما فات، كان شغل الناس إطلاق الرصاص والاستماع للإذاعات، ناسية مشكلة التموين التي انفرجت بعض الشيء مؤقتاً، حيث إن محتويات المخازن التي نهبت انتقلت إلى الشارع والسوق وصارت تباع دون تحفظ خصوصاً أن الشعور السائد هو أن الخير آتٍ بقدوم الإنجليز الفاتحين المحررين.

259 **رصيدنا النقدي ورصيدنا الأخلاقي:** جاء في مفكرتي لسنة 1943 موجزاً أنه في اليوم 43/1/20 الحالة في طرابلس ازدادت خطورة، و تفصيلاً لما ورد أقول: إن الجمهور في هذه الأيام مشغول نهاراً بنهب المخازن الحكومية، وبإطلاق الرصاص والاستماع للإذاعة ليلاً. إلى متى تستمر هذه الحالة ؟ كيف تتطور ؟ كان لابد لنا أن نحصر ما عندنا من نقود هي سلاحنا في مواجهة كل الاحتياجات اليومية. لقد سُرح مصطفى، وسُرح علي أيضا من الوظيفة. دكان كمال مغلق، والنقد الموجود كما ذكر تفصيلاً وإجمالا حوالي 21000 ليرة، ولا

أدرى الآن إذا كان يعتبر في ذلك الوقت كثيراً أم قليلاً ولكن الذي أعرفه أننا كنا مستريحين، ولدينا كمية من التموين لا بأس بها، نشعر بالتفاؤل، كانت إقامتنا بين أخوالي و أقاربي المحيطين بنا مصدر اطمئنان، وجو التضامن والوئام بين الإخوة مع وجود الوالدة عوّض فقدان الوالد الذي توفي كما ذكر في آخر الشهر الثامن من سنة 1941 م.حولَ جو التضامن والوئام والمودة بين الإخوة مصطفى، علي، كمال، سعيد، سعدات، نجاتي، راشد، أريد أن أتوقف قليلاً.

هذا الجو الذي وجد معنا، ونما، وتتطور، هو نعمة من نعم الله التي لا تقدر بثمن "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها" وكما ورد في سورة الأنفال " لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم ".

كنا نشعر نحو بعضنا البعض بكثير من الحب والاحترام. وعلى سبيل المثال فقد كان أخي علي رحمه الله وهو أصغر منى بسنتين فقط، ولا يدخن بحضوري وهو ونحن لا ندخن عادة، ولكن إذا صادف وكان مع الأصدقاء، وعرض عليه أحدهم سيجارة فأشعلها وصار يدخن، ودخلت عليه، فإنه يسرع بإطفائها تلقائياً، ويعرف من حوله ذلك. كان رحمه الله سنداً قوياً لي بعد وفاة الوالد في لمّ شمل العائلة، كنا نتشاور باستمرار، وكنا نختلف تارة، فيوافق أو أوافق طواعية واقتناعاً على رأيي أو على رأيه. ونفس الشعور كان سائداً بين بقية الإخوة. كانوا قد نضجوا بسرعة، وكانوا على مستوى المسؤولية ومستوى الظروف الصعبة التي كنا نعيشها كغيرنا من سائر السكان كانت جلسة الصباح حول الوالدة نشرب القهوة، ونتناقش في جدول الأعمال اليومية، وتوزيع الأدوار بيننا،مضرب الأمثال. كنا نطبق المبدأ الاشتراكي بطريقة عفوية، كل فرد ينتج قدر طاقته ويستهلك قدر حاجته، دون أن نعرف كثيراً عن النظريات الاجتماعية التي شاعت فيما بعد، وصارت تتصارع وتتطاحن، أذكر أنه لم يكن أحد منا يقول هذا لي وهذا لك، وإنما كل واحد يقول هذا لنا وكل واحد يأخذ قدر ما يحتاج بدون رقيب، ويعمل دون أي تحريض، وربما كان ذلك نتيجة للتربية التي نشأنا عليها منذ الطفولة، كانت البذرة التي زرعها عمي نوري ووالدي وأعمامي رحمهم الله أساسها التعاون، نبتت وترعرعت، ربما كانت الظروف القاسية والشدائد التي كثيراً ما تجمع الأفراد.

المهم أن رعاية الله حفتنا وجعلت العلاقة بيننا مودة ورحمة، واستمرت معنا، وزاد الخير وزدنا حباً لبعضنا والحمد لله.

260

**دخول الإنجليز طرابلس:** ورد بمفكرتي لسنة 1943م أن القوات الإنجليزية دخلت طرابلس السبت 23/ 1 _ الساعة الخامسة صباحاً، تفصيلاً أقول : لقد حلت اللحظة الحاسمة، ودخل الإنجليز مدينة طرابلس، عاصمة ليبيا، كان جميع السكان العرب يتمنونها، كانت الرغبة في الخروج من دائرة الاستعمار الإيطالي شديدة، الإمكانيات الذاتية معدومة، والبلدان العربية حولنا تئن هي أيضا وبقيت الفرصة الوحيدة هي التي أتاحتها الحرب، وهي أن ينتصر الإنجليز على الطليان وتحرر جميع المستعمرات الإيطالية وفي مقدمتها ليبيا. لذا كان يوم دخول الإنجليز إلى طرابلس شبه عيد أو عيداً. الجيش الثامن البريطاني، بقيادة المارشال مونتغمرى، الذي اكتسح الجيوش الإيطالية والألمانية من العلمين قي مصر نحو الغرب، هاهو قد وصل طرابلس. الجيش خليط من كل أجناس الإمبراطورية البريطانية، إنجليز و اسكتلنديون، وهنود، وأستراليون، وسودانيون، هنود من جنوب أفريقيا، آخرون من جزر على كثرتها تكاد تكون مجهولة.

العلم الإيطالي أنزل أو أنزله الإيطاليون أنفسهم منذ يومين، وسمعنا صباح اليوم باكراً من إذاعة لندن بخبر دخول الجيش الثامن إلى طرابلس، فأرسلنا كما قلت سابقاً أخي نجاتي ثم أخي علي للاستطلاع ورجعا وأكدا لنا ذلك فتوجه كل منا إلى المدينة ليشهد هذا اليوم التاريخي. جميع الشوارع مكتظة بالدبابات والسيارات المحملة بالجنود. ووصلت بصعوبة إلى ما كان يعرف بميدان إيطاليا، ويعرف الآن بميدان الشهداء، وشهدنا رفع العلم البريطاني على السرايا الحمراء رمز الحكم في ليبيا، والميدان حولها ملئ بالفرق الاسكتلندية بملابسها المزركشة الخاصة، وهي تعزف ألحانها الجميلة، لاحظت وأنا في شارع ميزران الصديق محمد الزقعار على دراجته هو أيضا، وبطربوشه بجانب سيارات محملة بجنود وكان من أشد المتحمسين للحلفاء، فما كان من أحد الجنود إلا أن أخذ طربوشه، وسارت السيارة التي تحمله. والزقعار يحاول أن يلحق بها دون جدوى، ويصيح بالإيطالية اترك

الطربوش ولكن السيارة أسرعت، الجندي يضحك لا سامع ولا فاهم ولا مبالٍ بما يقوله الزقعار وضاع طربوش الزقعار وسلمت ليبيا، فالأمر هين.

في باب الحرية، فتحت بعض الدكاكين، منها دكان الجزار محمد بن يزيد في عمارة ماريوتي فاقتحم الدكان عليه بعض الجنود الأستراليين وأخذوا على ظهورهم أنصاف بقر مذبوح معروض للبيع وحملوه على سياراتهم وحيّوا محمد بن يزيد دون دفع الثمن فلم يبق لابن يزيد سوى أن أقفل دكانه وأخذ يزمجر.

261 **الدعوة إلى تسليم الطبنجات:** عدنا إلي الساحل،إلي قبيلة أولاد الحاج للغداء والراحة، والبعض عاد إلى المدينة، وأنا بقيت مع من بقي أشرب الشاي، ونسمع الإذاعات، وقد صارت إذاعة طرابلس تذيع بيانات عسكرية باللغة العربية والإنجليزية والإيطالية،تحث على الضبط والربط والأمن العام، وتدعو الأفراد إلى تسليم ما عندهم من سلاح (طبنجات) "جمع طبنجة" كلمة تركية ومعناها بندقية، وكنا لأول مرة نسمع هذه الكلمة ويظهر أنها شائعة في المشرق، وكانت الدعوة إلى تسليم السلاح بالتهديد والترغيب، وكان مقابل مبلغ من المال لا أذكره. ووزعت شرطة عسكرية سودانية على مراكز للشرطة الإيطالية، وصارت تباشر عملها بكفاءة ولباقة، وكان الجنود السودانيون موضع تقدير واحترام من السكان العرب، لما تميزوا به من أدب وتفاهم. استمر إطلاق النار طول الليل، ولكن في الليالي التالية صار يخف تدريجياً لأن الناس تعبوا من إطلاق النار ولأن كثيراً منهم سلم إلى الشرطة ما لديه من سلاح امتثالاً للأوامر.

قلت إن الشرطة العسكرية السودانية قامت بأعمال الشرطة المدنية من اليوم الأول وأسست السلطة البريطانية حالاً مدرسة للشرطة المدنية لليبيين في ترهونة، ودرس ودرّس بها الشبان محمد الزنتوتي وعبد الحميد بي درنة ونجم الدين فرحات ونجمي كعبار، وكان من ضمن الضباط العرب الوافدين مع الإنجليز يوسف العسلي الفلسطيني الذي تعرّف على الشخصيات العربية واندمج بها في ذلك العهد.

**اجتماع المحكمة الشرعية:** تفصيلاً لما ورد موجز في مفكرتي لسنة 1943م يوم الأحد 1/24 حول اجتماع المحكمة الشرعية أقول انتشر خبر بأن هناك اجتماعاً مهما يحضره الحاكم الإنجليزي في المحكمة الشرعية لقد كنت في باب الحرية حيث فتحت الدكاكين، ومنها دكان أخي كمال، فتوجهت إلى المحكمة قبل منتصف النهار حيث الموعد، ووجدت في قاعة كبيرة قاضي القضاة الشيخ محمود بو رخيص، والمفتي الشيخ أبوالأسعاد العالم، ومجموعة من العلماء وبعض الأعيان ومشايخ المحلات. العدد لا يزيد على مائة شخص. وحييت الجميع، ولم يكن في الصالة كراس إلا التي جلس عليها القاضي والمفتي حول مكتبه. وبعد قليل دخل ضابط إنجليزي طويل القامة برتبة كولونيل ومعه شخص آخر علمت فيما بعد أنه ضابط مدني وأن الاثنين يتكلمان العربية بلهجة فلسطينية، ومعهم محمود المنتصر، وكان في ذلك العهد رئيساً لمجلس إدارة الأوقاف.نهض القاضي والمفتي للتحية فما كان للضابطين الإنجليز إلا أن جلسا مكان القاضي والمفتي وبقينا جميعاً وقوفاً وبدأ الضابط حديثه حيث قال :جئت لأعبر لكم عن استياء قائد قوات الحلفاء من تصرف سكان المدينة وضواحيها، حيث نهبوا المخازن الحكومية الإيطالية للأغراض المدنية والعسكرية. النهب عمل من أعمال اللصوصية أو أشد، القوات المسلحة مشغولة بمطاردة قوات العدو الهارب نحو الغرب. ويهمها جداً أن يستمر النظام في البلاد، المطلوب منكم أنتم مختار والمحلات والأعيان العمل على الضبط والربط والأمن العام، المطلوب تسليم السلاح الذي في حوزة الأفراد فوراً، ولا تسامح في ذلك، والعقاب للذي يتأخر في تسليم الطبنجات يكون شديداً. ظروف المعركة لا تسمح بتوزيع التموين، والتموين موجود في السوق بعد أن سرق الأهالي المخازن. فتصدى للكلام الشيخ محمود بورخيص قاضي القضاة فرد قائلاً: حضرة الضابط أرجوك أن تسحب العبارة إن الأهالي لصوص، فليس هناك ما ينص في القوانين المدنية أو السماوية على وصف من يلبي دعوة صاحب مخزن بفتحه ويدعو الناس لأخذ ما فيه باللصوصية. السلطات الإيطالية صاحبة المخازن

فتحت مخازنها ودعت الناس لأخذ ما فيها، والناس محتاجون لتلك المواد فأخذوها، وهذا ليس بنهب ولا سرقة ولذا أكرر طلبي بسحب هذه العبارة.

الضابط الإنجليزي لم يبالِ بما سمع، استرسل في حديثه قائلاً ومكرراً إن قواعد التموين الرئيسية بعيدة، وإن التموين متوفر في المدينة ولذا فإن السلطات لن توزع تموينا جديداً، وكرر عبارة الضبط والربط والأمن العام مراراً، و نهض وهم بالانصراف. وحاول آخرون الكلام فلم تتح لهم الفرصة وانصرف. وساد وجوم على الحاضرين واستغرب البعض لموقف الشيخ القاضي الذي عرف عنه أنه متحفظ وحذر و أشادوا به وأخذ كل واحد يراجع نفسه.

هذا كان أول لقاء مع الإنجليز، خلّف مرارة في النفس، كان اجتماعاً جافاً جداً، خيب آمالا في المجال المادي حيث الحرمان من التموين والشعور بأن الخير القادم من الإنجليز تلاشى. وكذلك وعلى المستوى المعنوي حيث وصف الشعب الليبي باللصوصية في أول لقاء، وإذا تأملنا الموقف الليبي من جهة والموقف الإنجليزي من جهة أخرى، نجد أن منطلقهما واحد هو الرغبة في الحرية، الليبيون يبحثون عن الحرية التي ضاعت منهم منذ زمن بعيد وبالغوا في التفاؤل، كأن الإنجليز دخلوا الحرب ليحرروا هذا الشعب، بينما الإنجليز دخلوا الحرب دفاعاً عن حريتهم وخوفاً عليها من الضياع، وإن معركة ليبيا واحدة من عدة معارك خاضوها وسيخوضونها لإنقاذ حريتهم وحرية الأجيال المقبلة من أبنائهم من استعباد هتلر والألمان لهم و أمثالهم. خرج القوم من المحكمة وانتشر خبر الاجتماع بسرعة واختفى التموين من السوق وارتفعت أسعاره من جديد.

263 **جمعية الإصلاح:** ظهرت في نفس مصطفى فكرة إيجاد كيان يجمع الليبيين، شعور مبهم أخذ شكل جمعية الإصلاح الاجتماعي.

يبدو هذا الآن مطلباً عادياً جداً وبسيطاً، ولكن عندما نتأمل الأمر جيداً في ظروف سنة 1943 نجده منطقياً. بقينا ربع قرن غير مسموح لنا بإنشاء حتى جمعية خيرية. تفكيرنا تحجر، وطموحنا مضغوط عليه بإحكام. هل يتوقع منا

التفكير في إنشاء دولة، ونحن لم نصدق بعد بأن القفص الذي كنا فيه كل هذه المدة قد تحطم، حكيت بما كان في نفسي لمن كان حولي، فوجدت تجاوباً وسيطرت علينا هذه الفكرة وصارت شغلنا، بالإضافة إلى شواغل أخرى قديمة هي، التموين، ومورد الرزق، والمركوب، والعودة إلى المدينة، والبحث عن السكن غير الموجود.

برزت فكرة تأسيس جمعية الإصلاح الاجتماعي يوم الأحد 1943/1/24م، عقب اجتماع المحكمة الشرعية. يوم الاثنين اجتمعت في مربوعة الحاج محمد الكريكشي في محلة أبو مشماشة مع السيد أحمد الحصائري، محمد خليل، فيضي العالم، غالب سيالة، جار الحاج محمد. كان الحديث تعليقاً عن اجتماع المحكمة الشرعية وحول تأسيس جمعية الإصلاح. الحاج محمد الكريكشي من عائلة مشهورة في البلد أصلها من سوق الجمعة اشتغل في التجارة أولا وبالسياسة في فترة لاحقة وأما الميدان المفضل عنده فهو المجال الاجتماعي، لقبّه المعجبون به بالشهم، يتحمس للأمور الوطنية والخيرية، ولا يكتفي بالكلام لكنه يتحرك وله تأثير على أوساط المدينة وضواحيها، فإذا استدعت الحالة تعبئة الشعور حول فكرة وجمع التأييد والمال لها، تجد الحاج محمد في الطليعة، يعمل في نشوة عن طيب خاطر فقد عرف بذلك ويشهد له الكثيرون به.

من حسن حظي أو حظ فكرة جمعية الإصلاح أن الحاج محمد الكريكشي اقتنع بها وتحمس لها والفكرة تطورت بسرعة كانت الدعوة لجمعية الإصلاح الاجتماعي أما الآن فهي جمعية للإصلاح فقط، مجال أعم وأشمل وتوالت الاجتماعات حتى دبرنا اجتماعاً موسعاً في إدارة الأوقاف بحضور رئيس مجلس إداراتها محمود المنتصر والشيخ المفتي محمد أبوالأسعاد العالم، وبعد أيام قليلة شغلت بفكرة تأسيس جريدة عربية، وبعدها تشعب الحديث حول جمعية الإصلاح واتجه الاهتمام إلى بعث النادي الأدبي الذي كان موجوداً في أول عهد الاحتلال الإيطالي قبل النظام الديكتاتورى والفاشي.



**اجتماع بالنادي الأدبي 1944**

**الجالسون عن يمين الناظر: الطاهر الشريف، مصطفى الأسطى، أحمد قنابة**

**سليمان دهان، مراد بك درنة، محمود فرحات**

**الواقفون: ؟ ، عبد الرحمن دقدق، شمسي عراب، فاضل الأمير، مصطفى السراج**

**مصطفى الأمير، محمد خليل، محمود الزليطني، أحمد نبيه**



**زيارة الوفد الزراعي إلى تونس 1945**



النادى والهدف الذى يرمى اليه

اهداف النادى واغراضه هى النواحى الاربع التى بها قوام الامة وحياتها ناحية التعليم والثقافه، ناحية التهذيب والتخلق بمكارم الاخلاق، ناحية الرياضة والالعاب، ناحية البر والصدقات، ولا يفي بما يومل منه الا اذا اسس على دعائم متينة واركان لاتزعزع وذلك بان تكون مباديه التى يقوم عليها هى: الانتخاب المنظم، نبذ الاغراض الوضيعة، التضحية فى سبيل المصالح العامة، عدم الاستئثار بالمناصب وعدم التحكم في الشعور.



الي رجال اليوم!
الي شباب اليوم رجال الغد!

لانشك في أن:

١) الشباب قوام الامة.
٢) الشباب يجل الشيوخ ويقدرهم.
٣) البلاد في حاجة لي نشاط الشباب والي خبرة الشيوخ.
٤) البلاد في حاجة الى نهضة اخلاقية وثقافية.
٥) الشباب كفيل بهذه النهضة.

شعار الشباب

١) التضامن سر النجاح!
٢) لااستئثار بمنصب ما!
٣) لاتحكم في شعور الناس!
٤) الانتخاب المنظم يزيل كل خلاف!
٥) مصلحة البلاد فوق الاغراض الشخصية!

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمومنون

قران كريم

**منشورات فترة تأسيس النادي الأدبي طرابلس 1943**

حسن يوسف المويشي

وكان صراعاً بين رموز النادي السابق وهم الأستاذ أحمد الفقيه حسن والشيخ بشير بن حمزة و بين أفراد من الشباب سمّوا أنفسهم فريق الشباب وكانوا يحاولون منع احتكار رجالات العهد السابق للحركات الاجتماعية والسياسية الجديدة ،وقد أصدر ووزع فريق الشباب الدعوتين الآتيتين :

## النادي والهدف الذي يرمى إليه

أهداف النادي وأغراضه هي النواحي الأربع التي بها قوام الأمة وحياتها:

ناحية التعليم والثقافة، ناحية التهذيب والتخلق بمكارم الأخلاق، ناحية الرياضة و الألعاب، ناحية البر والصدقات، ولا يفي بما يؤمل منه إلا إذا أسس على دعائم متينة وأركان لا تزعزع وذلك بأن تكون مبادئه التي يقوم عليها هي :

الانتخاب المنظم، نبذ الأغراض الوضيعة، التضحية في سبيل المصالح العامة، عدم الاستئثار بالمناصب وعدم التحكم في الشعور.

وفي خلف البطاقة كان الآتي :

اطلعت أنا ................. على مبادئ فريق الشباب وأهدافه التي يرمي إليها فيما يتعلق بالنادي وإني أؤيده في مبادئه وغاياته.

التوقيع ...............

## دعوة للقيام بمشروع النادي العربي

إلى رجال اليوم ! إلى شباب اليوم رجال الغد !

لا نشك في أن :

1. الشباب قوام الأمة.
2. الشباب يجل الشيوخ ويقدرهم.
3. البلاد في حاجة إلى نشاط الشباب وإلى خبرة الشيوخ.
4. البلاد في حاجة إلى نهضة أخلاقية وثقافية.
5. الشباب كفيل بهذه النهضة.

**شعار الشباب**

1. التضامن سر النجاح .
2. لا استئثار بمنصب ما .
3. لا تحكم في شعور الناس .
4. الانتخاب المنظم يزيل كل خلاف .
5. مصلحة البلاد فوق الأغراض الشخصية .

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون

قرآن كريم

وفي خلف البطاقة كان الآتي :

المحترم ..........................................

شباب طرابلس الغرب يدعوكم إلى تشريفه في يوم ......... الساعة .........

بالمحل الكائن :............................للقيام بمشروع النادي العربي ودمتم خير عون لنهضة البلاد.

فريق الشباب

ويلاحظ أن السابقين يدعون إلى بعث النادي الأدبي القديم بينما يدعو اللاحقون إلى تأسيس نادٍ جديد يحمل اسم النادي العربي، كما يلاحظ عدم خبرة الشباب وتفكك أسلوبهم، فإنها الخطوات الأولى المتعثرة على مسيرة الألف ميل.

264 **ديوك الصفوة تتشاجر:** شُبه أفراد الصفوة في تلك الفترة بالديوك كانت في قفص الاستعمار الإيطالي الضيق وكانت مقيدة الحركة لضيق المكان، وكانت تتشاجر حتى وهي في القفص بسبب ازدحام المكان أو لأن التشاجر من طبعها. وتحطم القفص ولم تصدق الديوك ذلك

رغم أنها طيور وتحمل أجنحة، لكنها لا تستطيع الطيران منذ سنوات وسنوات.

وبقيت الأجنحة شكلاً مظهرياً، وكادت تنسى المشي، ولكن مدة القيد لم تكن طويلة جداً، وصارت الديوك تتحرك قريباً من القفص المحطم وتبحث عن أكلها. عندما كانت في القفص كان يرمى لها قليل من العلف الرديء، وكانت تبحث عنه منحنية بمنقارها في التراب وربما في المزابل، والآن صارت ترفع رأسها عالياً وتحرك أعرافها، مزهوة تصيح، يجب تأسيس جمعية الإصلاح الاجتماعي، ويصيح الثاني يجب إعادة فتح النادي الأدبي القديم، ويصيح الثالث مالنا ومال النادي القديم؟ لماذا لا نؤسس نادياً جديداً؟ ويصيح آخر: ليس هذا الوقت مناسباً ويجب التريث، وتتشاجر فيما بينها والبعض يخبئ رأسه في المزابل والتراب باحثاً عن أكله والبعض يستمر في الصياح. ويرى البعض أنه تطور طبيعي سليم وظاهرة صحية في مجتمع صار يحس فيتحرك، فيتشاجر، فيتطور ويتقدم، وقد كان ذلك فعلاً بدأنا بفكرة تجمع مبهم ثم أسميناها جمعية الإصلاح الاجتماعي، ثم جمعية الإصلاح مجرداً، ثم النادي الأدبي ثم صار الحزب الوطني، ثم تعددت الأحزاب، ثم صارت الدولة اتحادية أولا ثم موحدة ودائماً ملكية ثم صارت جمهورية ثم جماهيرية وكل ذلك في سبيل الوصول إلى الهدف المنشود وهو الحرية وما أدراك ما الحرية !!

يبحث عنها الإنسان منذ عهد أفلاطون وقبله واستمر يبحث ويبحث و يبحث. حصيلة الصراع بين الليبيين والسلطات الإيطالية بأشكالها المختلفة أدت إلى تقسيم الليبيين في نظري إلى ثلاثة أقسام :

**الأول** : مات إما بالرصاص أو في المعتقلات أو ما شابهها.

**الثاني** : فر أو هاجر من جحيم الطليان إلى الخارج إلى تركيا، أو الشام، أو مصر، أو تشاد، أو تونس.

**الثالث** : خضع للأمر الواقع وعاش مع الطليان وخدمهم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. ليس هناك ملائكة وليس هناك شياطين وليس هناك إما وإما. هذه الطريقة التي ذكرتها لا تروق للآخرين فإنهم يرون أنها مبالغة في تبسيط

الأمور وهي محاولة لتبرير الخيانة وإساءة لمن جاهدوا أو ماتوا أو أرغموا على مغادرة الأوطان العزيزة فراراً بعقيدتهم وحبهم للوطن الغالي وهي تكريم لمن تعاون مع الطليان على قتل من قتلوا وتشريد من شردوا.

265 **الإنجليز والليبيون:** مرت فترة الحكم الإيطالي بشرها وخيرها "إن كان لها خير"، ونحن الآن تحت الحكم العسكري البريطاني، المخابرات البريطانية رأت أنه من صميم عملها وواجبها أن تحمى الجيوش المحاربة من دسائس المخابرات الإيطالية والألمانية ومن الخلايا التي أبقوها مختفية تحت شكل أو آخر، المخابرات البريطانية لها خبرتها الطويلة في هذا المجال. وهنا يسمح لي القارئ بأن أستطراد وأعود تاريخياً إلى الوراء قليلاً شرحاً للموضوع.

عندما تحطمت المقاومة الليبية للإيطاليين على مراحل بعد الحرب العالمية الأولى واستطاع أن يهاجر من رغب أو اضطر للهجرة، قوبل المهاجرون إلى مصر بشيء من التبجيل والاحترام من طرف الشعب المصري الذي ساند المقاومة الليبية بمختلف الوسائل سنوات عديدة وكلما أمكنه ذلك. أما مقابلة السلطات المصرية الرسمية، فإنها كانت فاترة حيث إن العلاقة بينها وبين الحكومة الإيطالية كانت ودية ولم ترغب في تشويشها، وتبرر ذلك بأنها تريد الضغط بإيطاليا على الإنجليز المتحكمين بمصر، أما السلطات الإنجليزية في مصر، فنظرتها للمهاجرين الليبيين نظرة مصلحة، إذا توترت العلاقات بين إيطاليا وإنجلترا في أوربا تقربت السلطات البريطانية في مصر من المهاجرين، وإذا كانت العلاقات بين الطليان والسلطات البريطانية عادية في أوربا، أهملت المهاجرين وتناستهم.

كانت لإيطاليا سفارة كبيرة في القاهرة ولها علاقاتها المتشعبة، وكانت تراقب المهاجرين وتعاملهم بسياسة الترغيب تارة والترهيب تارة أخرى ودائماً بسياسة التفريق بينهم حتى لا يتكتلوا على ضعفهم. وحلت الحرب العالمية الثانية والوضع في مصر بإيجاز كما ذكرت، الوضع بين الطليان والإنجليز في أوربا ليس متوتراً فقط، بل هي حرب سافرة بكل بشاعتها، فما كان من السلطات الإنجليزية إلا أن تقترب كثيراً من رموز الزعامات الليبية في مصر وعلى رأسهم السيد محمد

إدريس السنوسي الذي كان يقيم في ضواحي الإسكندرية ـ منطقة الحمام ـ في ضنك وإهمال مادي ومعنوي فلم يصدق أن اتصل به الإنجليز خلال سنة 1940، وطلبوا منه التعاون معهم على القضاء على الطليان العدو المشترك فاعتبرها فرصة تاريخية يجب التمسك بها والحرص عليها، بينما رأى فريق آخر من الزعامات الطرابلسية منهم الطاهر المرّيض، وعون سوف، وأحمد السويحلي، وربما كانت أقل شاناً، أنه صحيح أننا نحتاج للإنجليز للقضاء على الطليان وأنها فرصة ثمينة، وصحيح أيضاً أن الإنجليز يحتاجون لتعاون الليبيين ومساندتهم. وحيث إن الإنجليز مشهورون بالغدر، وتاريخهم حافل بذلك وغدرهم عقب الحرب العالمية الأولى بالشريف حسين في مكة وابنه فيصل بدمشق مازال ماثلاً يذكر، فإن التعاون مع الإنجليز يجب أن يكون بشروط واضحة، وبحضور الشهود والموثق القدير. حصل شجار بين الديوك حول هذا الموضوع وانحاز الإنجليز للسيد إدريس وانحاز السيد إدريس إليهم.

266

**نواة الجيش الليبي:** المارشال غرسياني الذي تولى قيادة الجيوش الإيطالية في فترة من الحرب، كان بين قواته الكثيرُ من الجنود الليبيين. وانهزم غرسياني شر هزيمة أمام الجنرال الإنجليزي ويفل في سيدي البراني، والله أعلم بالدور الذي لعبته المخابرات الإنجليزية في التأثير على الجنود الليبيين التابعين لغرسياني وكان معظمهم من الوطنيين في صميمهم، أجبرتهم الظروف القاسية على الانخراط في القوات المقاتلة ضد الحبشة في سنة 1935م، والحبشة مسيحية، كافرة، ولليبيين ثأر سابق مع من كانوا من الصومال وإرتريا ويعرفون محلياً بالأحباش الذين حاربوا مع الطليان عند احتلال ليبيا.

أما الآن فالوضع مختلف، مصر مسلمة، المصريون ساعدوا الليبيين في محنتهم ضد الطليان، السيد إدريس السنوسي و ما يمثله من قيم سياسية ودينية يناديهم للجهاد في سبيل الله والوطن، وقسم كثير من جنود غرسياني من العرب، ومن برقة، ومن الطريقة السنوسية بالذات، فصار معظم جنود غرسياني العرب الذين في أسر الإنجليز، وغيرهم من الطلبة والأفراد العاديين صاروا بسرعة نواة

الجيش السنوسي أو الليبي المحرر ليبيا وبمساعدة الإنجليز، وقام جنود السنوسي بالنزول بالمظلات خلف الجبهة الإيطالية مع ضباط المخابرات الإنجليزية الذين يتقنون العربية وقاموا بأعمال تخريب مهمة، وتحريض الليبيين بالداخل على إقلاق راحة الطليان وإشغالهم بمختلف الطرق.

**267** **اعتقالات:** دخل الجيش الإنجليزي طرابلس، ومعه أفراد من الجيش السنوسي وكان من مهامهم البحث عن كبار المتعاونين العرب مع إيطاليا والزج بهم في معتقل التل الكبير قرب الإسماعيلية في مصر، واعتقل إبراهيم بن شعبان واعتقل صديق الجميع محمد أفندي السوكني الذي حرض على طرد الإنجليز، وانتشرت إشاعة أن الدور المقبل على الذين كانوا يعملون في الإذاعة. من هم هؤلاء ؟هم بشير الغويل، السيد أحمد الحصائري، السيد أحمد قنابة، مصطفى السراج، محمد بن زيتون، وآخرون كانوا يعملون في مكتب الدراسات الإسلامية وهو مكتب إيطالي تابع لإحدى إدارات الشؤون السياسية يرأسه أستاذ مستشرق إيطالي شيزارو و به أرمني عربي اسمه ناظميان وبعض الشباب العرب منهم محمد خليل، وعبد الله الأمين الشريف، وإسماعيل سويح، ومن مهام هذا المكتب إعداد موضوع لمحمد أفندي السوكني بشعار يطرد الإنجليز من البحر الأبيض المتوسط، انزعجنا وخفنا واتجهنا إلى علي باشا العبيدي وربما كان ذلك بتدبير بشير الغويل.

علي باشا العبيدي زعيم لقبيلة العبيدات المشهورة في برقة و حصل على رتبة البشاوية، لا أدري إذا كان من الحكومة التركية رأسا أو من ممثلها في برقة السيد أحمد الشريف السنوسي. وجدناه شخصية يفرض احترامه مع تواضع، رحب بنا، سمع باهتمام لمشاغلنا ووعد خيراً بغير التزام أو تفصيل، خرجنا من عنده نشعر بشيء من الاطمئنان.

**268** **السوق تنتعش وكذلك النفوس:** أعود إلى السرد لأقول إن أخي كمالاً رأى السوق تنتعش كثيراً، وطرابلس بمينائها المهم دائماً، قاعدة رئيسية لإمداد

الجبهة في تونس بالجنود والمعدات، و أراد بحسه الصناعي التجاري الاستفادة من ذلك، فاشترى كمية من (براسيل) التمر العجين، وصار يفرمهـا بفرامـة كفرامـة اللحم، ويضغطها في قوالب طولها 15سم وعرضها 10سم وارتفاعها 5 سم ويلفها في ورق مزيت مثل الورق الذي يغلف به الكتب والكراسات المدرسـية ويبيعهـا بدكانه في باب الحرية ووجد إقبالاً عليها من خليط جنود الحلفاء. كان يبيعها ببونـد أي بجنيه و كانت النقود المصرية و الإنجليزية رغـم وجـود الليـرة العـسكرية البريطانية الرسمية تتداول وشاعت عبارة ون باوند أي جنيه واحد كسعر لأرخص الأشياء أو الخدمات.

أذكر حادثة أخرى وهي أن الزحام كان شديداً بمتاجر باب الحريـة ومنهـا دكان أخي كمال الذي لاحظ أن مجموعة من الجنود دخلت الدكان بشكل طابور وأن الأول في الطابور طلب بضاعة ثمينة نوعاً، ثم أحالها للذي بعده وهكذا إلى آخـر جندي في الطابور الذي انصرف بالبضاعة دون أن يدفع الثمن فما كان من كمال، وكان في عز شبابه، إلا أن دفع بالجنود خارج الدكان و أقفلـه بـسرعة، ولحـق بالجندي الذي معه البضاعة واشتبك معه، كمال يريد استرجاع بضاعته و الجنـدي متمسك بها،وتجمع الناس حول المتخاصمين.

وكوّن الجنود الذين كانوا داخل الدكان حلقة حول المتشابكين يتفرجون كأنهم يتفرجون على مباراة رياضية، كانت الغلبة لكمال، واسترجع بـضاعته والجنـود وآخرون يهتفون له. ظاهرة غريبة في ذلك الوقت لو حصل ذلك قبل شـهر أثنـاء الحكم الإيطالي لكان أخي كمال في غياهب السجون أو القبور لأنه أهان وضـرب عمداً جندياً إيطاليا في زمن الحرب وما يتبع ذلك من اعتبارات قانونية وسياسـية. سبحان مغير الأحوال.

الناس في الأسواق يموجون، الكل يبحث عن ضالته، وطلب من المـوظفين العرب العودة إلى مكاتبهم في مواعيد محددة صباحاً ومساءً. بالنسبة لمحيط العائلة يجب البحث عن عمل لأخي علي، الوظيفة مستبعدة وغير مرغوب فيهـا، فكـان

الاتجاه في التوسع في النشاط الزراعي الذي كان متمثلا في سانية كاشوخ خلف جامع بوسيف.

صرنا نبحث عن مزرعة حول المدينة، وجميع المزارع الحديثة ملك للإيطاليين الذين انهارت دولتهم، أجرنا مزرعة مساحتها حوالي 10هكتارات خارج باب بن غشير كان يعرف ب"باب بنيتو" وهو الاسم الأول لزعيم الفاشيين، تبعد المزرعة حوالي 3 كم عن سور المدينة الجديد، أرضها خصبة لأنها كانت مصباً لوادي المجينين، كانت قفزة كبيرة في حينها وكانت وسيلة التنقل للأفراد إليها الدراجة وسيارات النقل العامة. أما وسائل نقل البضاعة فهي العربات التي تجرها الخيول أو البغال الخاصة أو بالأجرة، وكانت تعرف ولا تزال بالشريول وبالكارو أو الكاراتون العمال الزراعيون من الأقارب من قبيلة أولاد الحاج وكانوا فلاحين مهرة خصوصاً في الخضروات.

269

**عودة العائلة للمدينة:** كان أخي علي يدير هذا النشاط بالتعاون مع خالي أحمد بحماس وكفاءة، فرحاً بتخلصه من البدلة العسكرية وتوابعها، صادف في هذه الظروف أن أُوعز إلينا الاستفادة من المزارعين الإيطاليين النازحين من برقة، والمتجمعين تحت حماية السلطات البريطانية بقرية برفليرى بترهونة، وصارت تعرف فيما بعد بالخضرة. فذهبت إلى البلدة بصحبة أحد المسؤولين عن هؤلاء المزارعين، فوجدتهم مكدسين عائلات بعضهم على بعض في مباني البلدة ومدارسها وغيرها. اجتمعوا حولي والكل يريد الخروج مما هو فيه بأي أجرة، اخترت عائلتين من منطقة نابولي في إيطاليا، أخذناهم معنا إلى مزرعتنا في باب بن غشير واستمروا في العمل معنا إلى أن تقرر سفرهم مع غيرهم إلى إيطاليا، أخي سعيد كان يعمل في دكان للشيخ عمار الفقهي بشارع الزاوية، نجاتي كان يساعد كمالاً في متجر باب الحرية، أما راشد وهو أصغرنا فكان حراً في اختيار المجال الذي يراه، وقد كان يتابع عن قرب سانية كشوخ. بدخول الإنجليز لطرابلس وطرد الطليان عن ليبيا، انتهت الحرب عملياً ولم تبق إلا بعض الغارات الإيطالية والألمانية التي صارت تتناقص، لأن سير الحرب في أوروبا لم يكن في صالح

الألمان والطليان، خصوصاً بعد دخول الأمريكان الحرب بجانب الإنجليز وانكسار هتلر في روسيا، والزحف الروسي على أوروبا من الشرق.

في هذه الحالة كان بقاء العائلة في سوق الجمعة لا مبرر له، فكان البحث عن سكن، بيت العائلة القديم في شارع الزاوية به عمي نوري وعمي خيري فانتقلنا إلى منزل لصهرنا الصادق بن محمود في زنقة الخروبة مؤقتاً ثم إلى منزل بالإيجار لمحمد فارس التاجوري، في زنقة بورخيص في شارع أبي الخير، قرب منزل الشيخ محمود أبو رخيص القاضي، وقرب منزل صهري وصهر أخي علي الحاج محمد بن محمود، و قريب من نشاطنا التجاري في باب الحرية وعدنا إلى المدينة والعود أحمد إن شاء الله.

270 **فكرة إصدار صحفية عربية:** قلت إنه دعي الموظفون العرب لمباشرة أعمالهم في مكاتبهم صباحاً ومساءً، مصطفى كان موظفاً في الإذاعة، والإذاعة انتهت، فما عليه إلا العودة إلى الأصل، مكاتب إدارة الشؤون المدنية والسياسية السابقة، كنا نجتمع لا شغل لنا، ولا أحد يسأل عنا.

أصدرت السلطات البريطانية صحيفة صغيرة إيطالية إنجليزية، اسمها الكوريري دي تريبلي، أي بريد طرابلس، كنا نتصفحها،وكنا نمر صعودا للدور الثاني على مكتب جديد استحدث مكتوب عليه الاستعلامات، كنت متضايقاً من عدم إصدار صحيفة عربية، وكنت أعتبر ذلك إهمالاً للعنصر العربي، حز ذلك في نفسي كثيراً، فدخلت صباح يوم الجمعة 1943/1/29م مكتب الاستعلامات الجديد، أبحث عن شخص أتحدث معه، فوجدت ضابطاً برتبة ميجر علمت فيما بعد أن اسمه دوغلاس وكان يتكلم العربية بلهجة سودانية.

تقدمت وبحت بما في نفسي من أفكار، فتأمل في، وزاد استفساراً عن عملي، ثم فاجأني بقوله إن حكومة صاحب الجلالة ليست مستعدة للتعاون مع أمثالك. لطمة معنوية شديدة على الصباح عكرت المزاج المرتبك أساسا، فأجبته بشيء من الحدة ما جئت لأطلب التعاون معك أو مع صاحب الجلالة، جئت لكي أطالب بإصدار

صحيفة عربية، وألفت النظر للعنصر العربي وهو غالبية السكان ولأهميته، وحكومة صاحب الجلالة حرة أن تلبي الطلب أو ترفضه، أو تتعاون مع من تشاء. أما فيما يتعلق بشخصي، فإن مصيري هو مصير بقية زملائي، وأقفلت الباب وخرجت دون تحية، خرجت وأنا ناقم على نفسي وعلى الإنجليز وعلى الدنيا، تراكمات من الإحباط.

الشئون الخاصة الملحة تضغط، وشعور المرارة من اجتماع المحكمة الشرعية في النفس، الوضع الوظيفي غير واضح، إصدار صحيفة إنجليزية إيطالية، وعدم إصدار صحيفة عربية، وكأن كل ذلك لا يكفي فإن صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى لا يرغب في التعاون مع أمثالي، وا خيبتاه، وأنا لا أعرف صاحب الجلالة ولم أفكر في التعامل معه أصلاً، دخلت على زملائي في الدور الثاني واجماً أكاد انفجر، ظنوا أن موضوع الاعتقال تحرك. استمرت حالة الضيق وتفاعلت، وفي اليوم الثاني عدت إلى المكتب متأخرا ووجدت سيرجنت إنجليزي يبحث عني، ووجدت الزملاء في اضطراب، وكان موضوع الاعتقال مسيطراً عليهم وظنوا أن السيرجنت جاء ليأخذني إلى المعتقل والبقية تأتى.

**271 تحول فجائي:** سرت مع السيرجنت المحترم، لا أدرى إلى أين، هو صامت وأنا لا أعرف الإنجليزية، وبعد نزول السلم وجدت نفسي في مكتب أمس، أمام الميجر دوغلاس حييته وحياني، أجلسني على مقعد، وسلم لي رسالة قائلاً: خذ هذه إلى قسم الصحافة القريب من مدرسة الفنون والصنائع واستعد لإصدار الصحيفة العربية.....ما هذا!!!!تحول ب180 درجة خلال 24ساعة، هذه دولة أم هنبكة؟، إنه تصرف عجيب، فتوجهت إلى إدارة الصحافة بالعنوان المذكور ولا أعرف ما تحمله الرسالة بالضبط.

قابلت ضابطاً إنجليزياً شاباً برتبة ملازم، نحيفاً، ووجهه مبرقع بالنمش، ملابسه مبهدلة، واستقبلني واطلع على الرسالة، علم أنى لا أتكلم الإنجليزية، فبحث عن زميل له يعرف الإيطالية، وبعد أن تباحثا معاً قال لي: "اورايت " فلنستعد لإصدار الجريدة العربية، رافقني الضابط الذي يتكلم الإيطالية إلى مكتب غير

مشغول وقال لي هذا مكتبك، وجدت به منضدة وبعض الكراس ودولاب به كتب إيطالية معظمها حول الزراعة واستصلاح الأراضي "وقد علمت فيما بعد أن العمارة كانت مقراً لمكاتب إحدى المؤسسات الإيطالية للاستصلاح الزراعي المكلفة بإعداد المزارع وتوطين العائلات الإيطالية الوافدة من إيطاليا، ثم طلب مني الضابط الانتقال معه إلى المطبعة القريبة من المبنى، والتي كانت تعرف مطبعة ماجى الإيطالي كانت ملكاً لمدرسة الفنون والصنائع في زمن الحكم التركي، وهي ملاصقة لها ثم آلت إلى الحكومة الإيطالية ثم إلى الإيطالي ماجي الذي امتلكها وشغلها مدة الحكم الإيطالي، الآن وقد زال الحكم الإيطالي في مطبعة الإدارة العسكرية البريطانية وجدنا بها الصديق محمد بالخير من عائلة بالخير الشهيرة في طرابلس، وهو فني قديم في مجال الطباعة، وفي مطبعة ماجى بالذات، فأعلمناه بقرار إصدار جريدة عربية، فكان جوابه مستغرباً بشيء من السخرية أتظنون أن إصدار جريدة أمر سهل، ما أصعبه! ألا ترون المطبعة في فوضى، ألسنا في حرب؟ الحروف تحتاج إلى إعادة فرزها، وتحتاج إلى تصنيف وتوزيع في الصناديق، وحاجات كثيرة أخرى يصعب عليكم فهمها، كان التفاهم بالإيطالية، علق الضابط الإنجليزي بقول أورايت هيئوا القسم العربي، واستعدوا لإصدار جريدة عربية، ريثما تصل شحنة الورق التي ننتظرها وجدت نفسي فجأة في جو جديد.

وأدركت أني سأبدأ من الصفر، قلت للضابط الإنجليزي واسمه سميت، يجب أن أختار هيئة التحرير،فوافق وقال تدريجياً،عدت إلى حيث زملائي في قلق وفي الطريق قررت اختيار أحمد الحصائري محرراً بالجريدة.

**272** **الصحفية ولدت إذاعة:** استقبلني الأصدقاء يريدون معرفة ما حدث في مجال الاعتقال، فأعلمتهم بأني كلفت بإصدار جريدة عربية وأنها انفرجت بالنسبة لي وللسيد أحمد الحصائري على الأقل الآن، فاطمئنوا، واستبشروا خيراً، وقالوا سيعم الفرج إن شاء الله. في المساء عدت إلى مكتب الصحافة، ومعي الحصائري و أخبرت المسؤولين بتعيينه محرراً بالجريدة، وعرفتهم عليه، وحدد له مكتب أيضا.

في اليوم التالي عقدنا اجتماعاً مع الزملاء الإنجليز في قسم الصحافة وعلمت أن رئيسهم الكابتن شالتون، فطلبوا مني إعداد الأخبار اليومية، وكأن الجريدة تصدر فعلاً. اتفقنا على مصدر الأخبار وهي آلة التلكس باللغة الإيطاليـة، وعلـى حجـم الجريدة وهي مثل جريدة الكوريري دي تريبلي ربما كانـت 40 طـولاً 30سـم عرضاً وطلب مني متابعة المطبعة، وحثها على الاستعداد، وتعهدوا بمتابعة تـوفير الورق، وفي هذه الأثناء يمكن الاستفادة من السيد أحمد الحصائري، وكان مـذيعاً، يمكن الاستفادة منه في إذاعة لما نعده من أخبار الجريدة. جهاز الإذاعة هو سـيارة عسكرية مقفلة بداخلها مكبر صوت، وخارجها بوق، تنتقل من مكان إلى آخر فـي المدينة حيث يتجمع الناس، في أوقات مناسبة، و السيد أحمد داخل الـسيارة يـذيع الأخبار. الموضوع كبر بسرعة، تطور قبل أن يولد، الفكـرة صـارت صـحيفة، الصحيفة ولدت إذاعة، مشروع إعلامي متكامل في خلال 48 ساعة.

انتهزت الفرصة وعينت السيد أحمد قنابة، و محمد خليل، وحـصلت علـى الموافقة. شبح الاعتقال ابتعد عنا وعن غيرنا من الموظفين السابقين.حـددت لنـا مرتبات مناسبة.

بعد أيام وصلت شحنة الورق، والمطبعة جاهزة، وحـان موعـد إصـدار الجريدة والذي مازال غائباً هو اسم الصحيفة، كنت أسمع أنه كانت صحف عربيـة تصدر في آخر العهد التركي، وفي أول العهد الإيطالي الديمقراطي، منها الترقي ــ المرصاد ــ اللواء ــ طرابلس الغرب، كنت أحلم بصحيفة عربيـة، صـحيفة رأي تخدم قضية إخراج ليبيا من التخلف التي هي فيه، أفكار كثيرة وكبيرة، طموحـات نبيلة، واسم الجريدة يجب أن يكون مناسباً مع أهميتها، بقيت متـردداً عـدة أيـام، والإنجليز يلحون في إصدار الجريدة وأذكر مرة أن المدير قال عندما علم أن سبب التأخير هو اختيار الاسم، قال في حزم سمها نيوز "NEWS" أي الأخبـار حـسماً للحيرة لكنني لم أقتنع.

273

**<u>اسم الصحيفة (طرابلس الغرب):</u>** وفي اليوم التالي، كنت فـي باب الحرية، أمام دكان حصلنا عليه في عمارة الضرائب، وكان الإخـوة يعدونـه

للاستفادة منه، رآني عبد الله بي الشريف وهو من الهنشير، وكان يشغل وظيفة كبيرة في إدارة الأوقاف التي كانت في المبنى المحيط بجامع السنوسية في باب الحرية فأقبل علي هاشاً باشاً. كان كل واحد في تلك الفترة يريد أن يعرف الجديد من الأخبار المحلية، أما الأخبار الخارجية فهي تذاع بالراديو، أخبرته بما كلفت به من إصدار جريدة عربية، و أني أبحث عن اسم لها، فعلق لا داعي للتردد، كانت هناك صحيفة اسمها " طرابلس الغرب " تصدرها الحكومة التركية، ثم تعطلت بعد الاحتلال الإيطالي، ابعث هذا الاسم من جديد، لعل فيه خيراً، كان التردد قد طال، والضغط علي ملح، فحسمت الأمر، وقررت تسميتها "طرابلس الغرب "، و لو أني لم أكن متحمساً كثيراً للاسم، ففي نظري ليس هو الاسم الأمثل، وعدت إلى إدارة الجريدة، فأخبرت زملائي بذلك، فاستحسنوه، و أخبرت الرئيس الكابتن شالتون بذلك أيضا و وافق، وصدرت " طرابلس الغرب" بحمد الله.

## 274 ثلاث عملات في ليبيا المقسمة:

إدارة الاستعلامات مقرها في أول شارع ميزران، بداية من ميدان الشهداء على اليمين، الدور الأول، يرأسها الميجور سيبمان، يتكلم الإيطالية بطلاقة، شخصية مهذبة جداً، وصار رئيسي المباشر، أما إدارة الجريدة عملياً فهي العمارة التي في شارع ريكاردو سابقاً قرب مدرسة الفنون والصنائع و مطبعة ماجي.

الإدارة البريطانية صارت تأخذ طابعاً مدنياً يسيّره ضابط كبير على رأس الإدارة، هو البريجدير جنرال لاش، عمل في السودان، ويتكلم العربية بلهجة سودانية. إدارة الشؤون السياسية يرأسها الميجور كيندى شو، عمل في فلسطين ويتكلم العربية بطلاقة. التعليم كلف به الميجور ستيلجريق يتكلم الإيطالية، البلدية كلف بها ضابط نسيت اسمه ولكنه يتكلم العربية ويقال عنه أنه ربما كان يهودياً، إدارة التجارة والتموين كلف بها الميجر داف.

وكان لي مكتبان، مكتب في إدارة الاستعلامات، ومكتب في إدارة الجريدة، وكنت على صلة بإدارة الشؤون السياسية ورئيسها الميجور كندي شو، شبح الحرب ابتعد عن ليبيا إلى تونس، ومنها إلى صقلية فإيطاليا. ليبيا قسمت إلى ثلاث إدارات

منفصلة،إدارة عسكرية في برقة و عملتها الجنيه المصري و إدارة عسكرية في طرابلس و عملتها الليرة العسكرية البريطانية.إدارة عسكرية فرنسية بفزان والعملة الفرنك الفرنسي، وعلمنا أن هذه الإدارات العسكرية مؤقتة، تبقى حتى يتقرر مصير المستعمرات الإيطالية بعد انتهاء الحرب.والانتقال من منطقة إلى أخرى يحتاج إلى تصريح خاص، واختصاص هذه الإدارات العسكرية تصريف شؤون السكان المدنية دون تعديل كبير يذكر. أما الأمور السياسية المصيرية فهي مؤجلة، ونظراً لأن الدولتين المحتلتين لليبيا، هما إنجلترا وفرنسا في حرب ضد ألمانيا واليابان، والحرب لم تنته بعد في أوروبا وآسيا، فإن ميزانية الإدارات المكلفة بتصريف شؤون ليبيا مضغوطة، لا تسمح بتوسع في المصروفات.

275 **الانتصار أولاً:** الشعار السائد هو الانتصار في الحرب أولا، ثم النظر في بقية الأمور، جميع السكان صدموا من هذا الوضع، في المجال السياسي وفي المجال المعيشي، لكن بدرجات متفاوتة. هناك قلة من السكان سمحت لهم ظروفهم الاقتصادية في فترة الحكم الإيطالي، باعتبارهم ملاك عقارات العيش بريعها بدون الاحتياج لمزاولة أي عمل آخر، ولا تحتاج لشغل أي وظيفة حكومية، و لم تكلفها السلطات الإيطالية من حسن حظها بأي شيء بغيض وبقيت في برجها العاجي معتزة بعفتها وطهارتها. نموذج من هذه القلة القليلة، عائلة الفقيه حسن، الأب محمد بي، والابن علي بي، وأخوه أحمد بي، وقد شغل الأخوان وقتهما طيلة الاحتلال الإيطالي، بالاهتمام بالتاريخ والأدب، هذه القلة ونسميها الأرستقراطية، صدمتها كانت أشد، لأنها كانت تعلق آمالاً كثيرة وكبيرة جداً على زوال الحكم الإيطالي، ووجدت أنه لم يتغير شيء الإدارات الحكومية هي هي. تغير الرؤساء فقط، كانوا إيطاليين فصاروا انجليزاً، الكابوس الاستعماري خف نسبياً، ولكنه مازال كابوساً. عناصر السكان بقوا كل في مجاله، الإيطاليون في الزراعة والخدمات، اليهود في التجارة، والعرب في جميع الميادين ومع كثرتهم متخلفون عن غيرهم دون امتيازات، في هذا الجو، صدرت جريدة طرابلس الغرب وفي عددها الأول صورة وتصريح للمفتي الشيخ أبوالأسعاد العالم، فثارت ثائرة القلة التي سميناها

الأرستقراطية وفي نظرها أنه لا يكفى، أن الإدارة البريطانية لم تلتفت لهذه الفئة، ولم تسند إليها أي مسؤوليات مهمة تتناسب مع مركزها، وهاهي الإدارة تتعامل مع نفس الأشخاص، ونفس الوجوه الممقوتة التي تعاونت واحتكرت التعاون مع المستعمر الفاشي البغيض. لم يتغير أي شيء، حتى المفتي هو هو وأنصاره، السراج، الحصائري، القنابة، محمد خليل، يشيدون به، ويطبلون ويزمرون للإنجليز، كما كانوا يفعلون مع الطليان. أما السلطات البريطانية فهي ترى كما قلت، أن مهمتها الآن هي المحافظة على الموجود و إدارته بأقل نفقات، وبدرجة أولى توفير لقمة العيش لجميع السكان، ولا ترغب ولا في نيتها الاهتمام بتحقيق رغبات سكان الأبراج العاجية، لقد بقوا مدة طويلة خارج اللعبة فليبقوا فترة إضافية أخرى، وربما تتغير قواعد اللعبة وتتاح لهم الفرصة في اللعب.

276 **الجوّاب زعلان والفكيني زعلان:** أذكر في الأيام الأولى من صدور الجريدة استلمت قصيدة من الشاعر بشير الجّواب يشيد فيها بالجيش الثامن المحرر لليبيا، لقد كانت طويلة، وهي تطبل وتزمر، مادة صرنا ننفر منها على كثرة ما غصنا في وحلها طيلة الحكم الإيطالي، ومضطرين للعيش في جوها الخانق. اخترت أو اختار أحد الزملاء المحررين بعض الأبيات منها، ونشرت، فقامت قائمة الشاعر، واحتج لدى إدارة الشئون السياسية وفتح علينا مدافعه.نحن صنائع الاستعمار الفاشي الذين لم ترق لهم قصيدة الإشادة بالجيش الثامن الفاتح، فاستدعاني كندي شو، واستفسر ثم طلب مني نشر القصيدة بكاملها، وقد نشرت في أكثر من عدد.

حدث أن زارني علي فكيني ابن الزعيم الرجباني محمد فكيني الشهير بعد عودته من تونس مباشرة في إدارة الجريدة، ولم يجدني فترك " كارت " بطاقة تحمل اسمه لدى أحد الموجودين، حيث لم يكن لي سكرتير أو سكرتيره.

اطلعت على البطاقة صدفة بعد عدة أيام وكانت تحمل فضلاً عن اسم الزائر الكريم، ألقاباً أضفاها على نفسه وعلى والده المجاهد الجليل. ولم أدرك في وقتها أن الغرض من الزيارة لم يكن مجاملة لشخصي، حيث لم يكن لي سابق معرفة بالزائر

وإنما المطلوب ضمناً كان الإعلان عن عودته إلى أرض الوطن كزعيم كبير بعد هجرة إلى تونس دامت طويلاً.

خبر العودة لم ينشر دون قصد أو إقلال من أهمية عائلة فكيني وقبائل الرجبان في مقاومة الاحتلال الإيطالي، واعتبر علي بي عدم النشر موقفاً عدائياً ضده وضد والده وعائلته المجاهدة من طرفي وأخذ يلوم الإدارة البريطانية الغبية التي تعاونت معي وأسندت لي مناصب مهمة حساسة، سامحه الله.

مرت الأيام والشهور والسنون وتلاقيت به وبآخرين من أفراد عائلة فكيني الجليلة منهم الدكتور محيي الدين في مناسبات وطنية عديدة وكانت العلاقات بيننا يسودها التقدير و الاحترام المتبادل.

277 **زيارة تشرشل لطرابلس:** تشرشل هو رئيس مجلس الوزراء البريطاني، ورئيس حزب المحافظين الذي قاد بريطانيا سنوات الحرب وتم النصر في عهده، وتقرر زيارة تشرشل لطرابلس لتهنئة الجنود بالنصر على الألمان والطليان، وكانت استعراضات ضخمة في ميدان السرايا الحمراء، و أعلن منع التجول على المدنيين من باب الاحتياطات الأمنية. وسمح لنا نحن الصحفيين الحضور لتغطية المناسبة التاريخية صحفيا، صدرت طرابلس الغرب بعنوان كبير"تشرشل يزور طرابلس" ولهذا العنوان قصة أرويها. العمل كان موزعاً بيننا كالآتي : محمد المرابط يترجم الأخبار، و مصطفى يراجعها، و الحصائري يعدها، ويضعها في القالب الصحفي، ويختار لها العناوين المناسبة، أحمد قنابة مهتم بالتصحيح، ومحمد خليل مهتم بتبويب الصحيفة واختيار بنط العناوين. هذا التوزيع العام، لكن كنا نعمل كفريق واحد نتعاون، ويعوض الواحد الآخر عند غيابه أو تأخره عن الموعد، كنا في ذلك المساء جميعاً حريصين على صدور خبر زيارة تشرشل بالشكل اللائق للمناسبة الكبيرة، ونتابع مراحل الإعداد للطبع أولاً بأول، وجاءنا محمد خليل بتوزيع الأخبار قبل التصحيح الأخير، والعنوان الرئيسي على كل الأعمدة ببنط "اصطلاح مطبعي" 36 على ما أذكر، وهو أكبر ما في المطبعة: "تشرشل يزور طرابلس ". تهجئة كلمة تشرشل هي تاء، شين، راء، شين، لام،

وبعدها جاءت التجربة الأخيرة يحملها السيد أحمد قنابة، وبها حرف ألف قبل تشرشل كما عهدناها، فاستغربنا الرسم في كلمة اتشرشل وتساءلنا لماذا ومن عدلها ؟، فتصدى قنابة للموضوع ودارت بينه وبين المجموعة مناقشة وكانت حادة. المجموعة ترى أن الرسم الصحيح لكلمة تشرشل هو أن تبدأ الكلمة بتاء، و قنابة يصّر أن تبدأ بحرف الألف و همزة بحجة أن العرب لا يبتدئون بالساكن ولا يقفون على متحرك، ويرد عليه، بأن كلمة تشرشل أعجمية، وليست عربية، فتصلب في رأيه وهدد بالاستقالة إن لم نأخذ برأيه، وكل ذلك وعمال المطبعة يستعجلون الطبع. وعند هذا الحد توقف النقاش احتراما للسيد أحمد قنابة، وخوفاً من تصدع هيئة التحرير، وحفاظاً على الانسجام الذي كان سائداً بيننا، أبقينا الألف وارتاح قنابة، وصدرت الجريدة في موعدها.

فاتني أن أقول حول الجريدة وأول أعدادها، أنه عندما أخبرنا محمد أبوالخير، بأن الجريدة ستحمل اسم طرابلس الغرب، تذكر هو أيضاً الجريدة التركية التي كانت تحمل نفس الاسم، تذكر أيضاً أنه من بين الأشياء القديمة الموجودة في المخزن بالمطبعة منذ زمن الأتراك صندوق به كيليشيه، عنوان الجريدة في العهد التركي، زودنا به واستعملناه في طبع الأعداد الأولى من الجريدة ثم غيرناه بخط حديث مناسب.

محمد المرابط الصحفي والصديق كان من أصدقائنا الذين عملوا في الصحافة في أول عهدها بعد الاحتلال الإنجليزي، محمد المرابط وهو شاب كله حيوية، ثقافته إيطالية تعلم الإنجليزية بسرعة، وصار من أسرة الزميلة الكوريري دي ترابيلي.

278 **الوالي يزور المعبد اليهودي:** أُخبرنا أن الوالي البرجيدير لاش سيزور المعبد اليهودي، ومندوبو الصحف مطلوب منهم تغطية الحدث. فقررت الذهاب بنفسي، هي فرصة لي، لأول مرة أدخل معبداً يهودياً، أحضر صلاتهم، كانت التراتيل بلغة لا أعرفها، والكل يقفز قفزة خفيفة، من تحت إلى أعلى، في شبه رقصة، انتهى الحفل وانصرفنا.

رغم أني كنت الذي عملت على إصدار الجريدة و متحمساً لهـا و مـسؤولاً عنها فإنها ليست هي الصحيفة التي كنت أحلم بها وبعيدة جدا عن خيـالاتي، هـذه جريدة للإنجليز يصدرها مكتب الاستعلامات البريطاني، ويـصرف عليهـا، وأنـا وإخواني الأفاضل موظفون عند الإنجليز براتب مرضٍ وكنا محسودين ومعرضين لحملات تشنيع. لهذا السبب تعمدت بأن لا تحمل الجريدة ما يفيد بأني مسؤول عنها أو مديرها أو رئيسها. كان لدي الكثير من الفراغ، كنت أجد وقتا لمطالعـة الكتـب الإيطالية التي وجدتها في المكتب الذي خصص لـي، معظمهـا زراعيـة حـول الاستصلاح الزراعي في برقة.

279 **محاولة تحريك المستنقع:** سبق أن قلت، إن الفتـرة التـي سبقت هزيمة الطليان، وانتهاء حكمهم، كانت مليئة بالأماني، الكل يحلـم بمـستقبل زاهر سعيد في ظل حكم عربي إسلامي ديمقراطـي عـادل، لا مغبـون فيـه ولا محروم، وإن ذلك سيتحقق بعد الاحتلال الإنجليزي مباشرة.

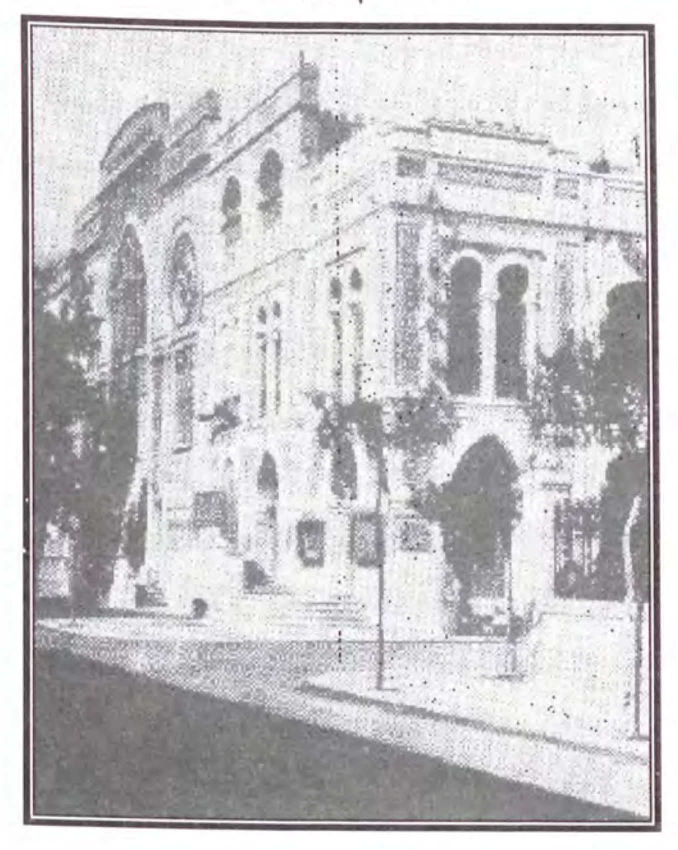
ولكن الواقع المؤلم أن شيئاً من ذلك لم يحدث، ولم يسمح حتى بالعمـل مـن أجله، فسادت خيبة أمل ثقيلة على النفوس، الكثرة التي كانت تعيش مـع الطليـان وتتعاون معهم بشكل من الأشكال، كانت خائفة، لا تجرؤ على الكلام أو الظهـور، تخشى أن يتصدى لها إن أخرجت رؤوسها، تخشى أن ينشر غسيلها الوسخ أو شبه الوسخ، وهي تريد نسيانه وتناسيه. والذين كانوا في أبراج عاجية، ألفوا الأبـراج، ووجدوا أن الجو غير مشجع، وبقوا في أبراجهم يرقبون تطور الأمور مـن وراء الشبابيك، مصطفى لم يكن له برج عاجي، ولم يكن خائفـاً، كـان مـسؤولا عـن "طرابلس الغرب" كان بجنب المحررين.

فكر مصطفى في تحريك هذا المستنقع الراكد بالوسائل المتاحة لـه، فـألف مسرحية، وعرضها على مدير شؤون السياسة الإنجليـزي كنـدي شـو، فحـوى المسرحية أن يوجه سعادة الوالي الدعوة إلى عدد كبير من الأعيان داخل المدينـة وخارجها لحضور حفل يقام بمناسبة تسليم الوالي للبرنص التقليدي لـشيخ ركـب الحجاج بمناسبة المولد النبوي الشريف.

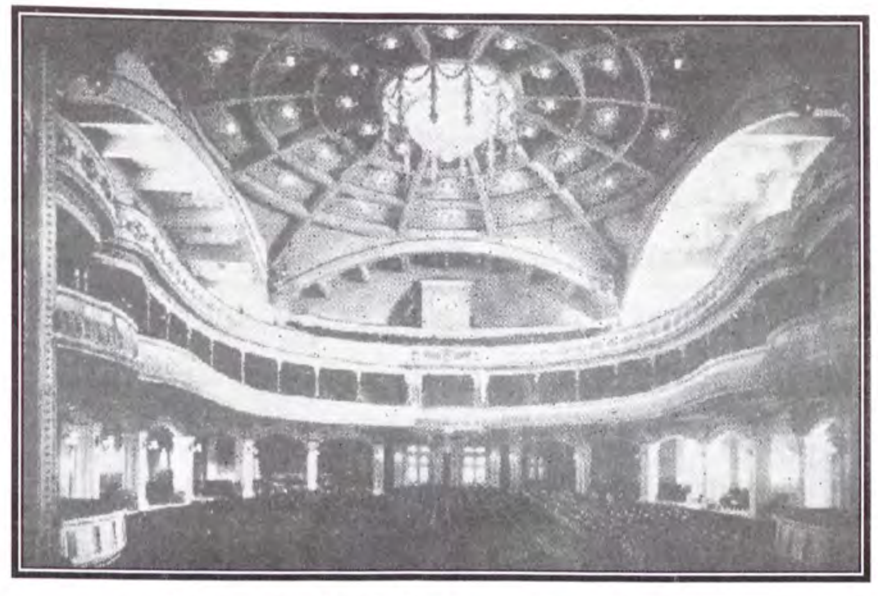
الاحتفال يكون في مسرح الميراماري الذي كانت تقام فيه الاجتماعات الفاشية السياسية والاجتماعية، وكان محرما على العرب. ويكون مع الوالي عند تسليم البرنص قاضي القضاة، والمفتي، ومجموعة من كبار العلماء. وسيكون لهذا الاحتفال أطيب الأثر في نفوس السكان، خصوصا بعد الأثر السيئ الذي خلفه اجتماع المحكمة الشرعية. طلب مني الميجر كندي شو أن أقدم الاقتراح كتابة، وبعد يومين استدعاني وأخبرني بأنه أطلع الوالي على اقتراحي، وان الوالي يريد مقابلتي للتحدث في الموضوع، وانتقلنا إلى مكتب الوالي. عرفت الوالي في مناسبات عامة منها زيارة المعبد اليهودي، وهذه أول مرة أتحدث فيها معه وجها لوجهٍ، قدمني كندي شو وأطرى ثم طلب مني الوالي شرح الفكرة ففعلت واستفسر، وعلق، وناقش، وتكلم مع كندي شو بالإنجليزية التي لا أعرفها، وعلمت من كندي أن الوالي كلف كندي تنفيذ الفكرة بالتعاون مع مدير مكتب الاستعلامات الميجر سيمان، والسراج ويريد أن يكون احتفالا فخما يليق بالمناسبة.

280 **اجتماع مسرح الميراماري:** بدأنا العمل، كلفنا من يعد البرنص، أخذنا نعد قائمة الوجهاء، ووجهت لهم دعوة باسم الوالي بالعربية كتلك الدعوات التي توجه في مناسبات عقد القران. تفقدنا مسرح الميراماري، وكلفت الجهات الأمنية بالقيام بواجبها.

إعداد قائمة المدعوين احتاج إلى مجهود، لأول مرة فكر الإنجليز في إعداد هذه القائمة، فطلب من كبار المتصرفين اقتراح قوائم بأعيان مناطقهم، وبسرعة وإرسالها إلى دائرة الشؤون السياسية والمدنية. وصلت القوائم تحتوي على أسماء نفس الأعيان في زمن الحكم الإيطالي، اقترحت أن يكون الوفد المرافق للوالي مكونا من قاضي القضاة الشيخ محمود أبو رخيص، والمفتي الشيخ أبوالأسعاد العالم، والشيخ عبد الحميد عاشور، والشيخ أبو الربيع الباروني، والشيخ محمود المسلاتي. القاضي والمفتي يجلسان مع الوالي باللوجة الخاصة، أما العلماء الثلاثة الآخرون بلوجة ملاصقة، وأن فرقة الموسيقى العسكرية تعزف عند دخول الوالي للميراماري وأثناء الحفل، وسيفتتح الحفل بتلاوة من القرآن الكريم.



مسرح الميراماري من الخارج طرابلس 1940



مسرح الميراماري من الداخل طرابلس 1940

كان لتوزيع البطاقات أثرها السحري في نفوس من استلمها، كانت بمثابة صك الغفران بالنسبة للكثيرين، وانتشر خبرها، والكل يستعد لتلبية دعوة الوالي فكان لها الدوي المتوقع والمطلوب. ورأى البعض أن المجتمع صار يتحرك وأن الإحباط صار يتجه إلى نوع من الأمل. ورأى آخرون أنه تكريس للوضع البغيض السابق.

281 **شيخ الركب:** لقب شيخ الركب تراث قديم، كان سائداً عندما كانت قوافل الحجاج تتكون قبل مدة كافية للتوجه من كل فج عميق نحو الأراضي المقدسة، لكل قافلة رئيسها، شيخها، وجرت العادة في زمن الأتراك أن يلبس الوالي شيخ الركب لكل حجاج الولاية برنوصا أخضر اللون، مطرزا بالفضة. وكان ذلك بمثابة قرار التعيين، وأن يكون ذلك في يوم الاحتفال بالمولد النبوي الذي يسبق موسم الحج. وكان يتناوب على منصب شيخ الركب عائلتان، إحدهما من غريان والثانية من مسلاتة / القصبات. عادة، أهملت زمن الطليان، فأردت إحياءها، ووافق من بيده الأمر، كان الدور على غريان، فبحثنا عن العائلة، وطلبنا منها اختيار الرجل، فكان ذلك بمثابة الوسام الذي أعيد لها بعد طول غياب. حضر المدعوون في اليوم المقرر في الموعد المحدد، وكان الميراماري الذي هدم فيما بعد، ومكانه الآن جزء من الساحة الخضراء أو ميدان الشهداء، يموج بلباس الجرود البيضاء، بعد أن كان يموج بلباس القمصان السوداء، زمن موسليني.

منظر جميل رائع، حرك الهمم، وبعث الأمل، مصطفى وسييمان ينتقلان من مكان إلى آخر اطمئناناً على سير الحفل، يحيون المدعوين الذين امتلأت بهم القاعة وجنباتها، والكل يتبادل التحية والتهاني بمناسبة المولد النبوي الشريف، والاحتفال بشيخ الركب.

عند قرب موعد دخول الوالي، انتقل وفد العلماء ومعهم مصطفى وسييمان إلى مدخل المسرح. وصل ركب الوالي، عزفت الموسيقى ألحانا، واستقبل الوالي بالترحاب، ودخل في جو من الهتاف إلى خشبة المسرح، وجلس الجميع على الكراسي، وتليت آيات من القرآن الكريم، وألبس الوالي شيخ الركب البرنص،

وأخذت الصور، وعزفت الموسيقى مرات ومرات وتوالت صيحات الله اكبر، الله أكبر، وعلا الهتاف، لحظة من اللحظات، شعر فيها الحاضرون بأن شيئا بدأ يتحرك وأن شمعة أضيئت وسط الظلام الدامس، وأنها الخطوة الأولى على الطريق الطويل.

انتقل الوالي والعلماء إلى (اللوجات) الخاصة بهم، وإلى هنا وكل شيء على ما يرام، نجاح لمصطفى، وفكرة مصطفى على طول الخط وبكل المقاييس، محا ذلك كثيراً من مرارة اجتماع المحكمة الشرعية.

ثم بدأ عرض فيلم دعائي بلهجة لبنانية، يشنع على موسيليني وهتلر، بعده عرض فيلم من أسوأ الأفلام التي أنتجتها مصر زمن الحرب لجنود الحلفاء. وهو فيلم من الدرجة العاشرة، به رقص شرقي مبتذل والكثير من الخلاعة، والحقيقة أنه لم يكن لي دور في برنامج عرض الفيلمين أو في اختيارهما وصدمت وكنت في (لوجة) الوالي مع سييمان. ولاحظت أن أعين الجميع من كانوا في المسرح اتجهت نحو (لوجة) الوالي نحو القاضي والمفتي، واضطربت الشخصيتان المحترمتان فما كان منهما إلا أن نهضا وخرجا من (اللوجة) وتوجها إلي باللوم الشديد قائلين (شني هال عملة اللي عملتها فينا؟) أدركت شعورهما ولا أدري بماذا أجبت.

282 **انفجار الوالي:** ثم كان الزلزال، بعد انتهاء العرض مباشرة، حيث انفجر الوالي معلنا استياءه الشديد من تصرف القاضي والمفتي، واعتبر خروجهما إهانة لممثل صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى، من حسن الحظ أن انفجار الوالي كان محصوراً بحضوري وبحضور سييمان وانصرف القوم فرحين ومستبشرين إلا مصطفى فانقلب سروره نكداً.

وعلمت مساءً من كندى شو وسييمان أن الوالي مستاء جداً وهاج، وشنع كثيراً بماضي القاضي والمفتي، زمن الطليان. عند هذا الحد قلت للضابطين الإنجليزيين إنني مستعد لشرح الموقف عندما يؤذن لي بذلك، وحيث إني مثل القاضي والمفتي، وما قاله الوالي عنهم، ينطبق علي، فإنني أعتبر نفسي منذ الآن

مستقيلا، وحييتهم، وانصرفت. بقيت ثلاثة أيام بين المنزل ومزرعة أخي علي، ولم أذهب إلى العمل، فاستدعاني سيبمان محتجا هو أيضا لأني ورطته، وورطت مكتب الاستعلامات في مشكل هو بعيد عن اختصاصه، فلا أقل من أن أساعده في الخروج من هذه الورطة. اتصل بكندي شو، وانتقلنا جميعا إلى مكتب الوالي لأعتذر وأشرح ملابسات ما حدث، وفي هذا الصدد قلت باختصار، أن سعادة الوالي عمل بالسودان، و يعرف جيدا التقاليد العربية والآداب الإسلامية وإن ما حدث سببه عرض الفيلم المشؤوم، ورغم أنني لم اشترك في اختيار الفيلم فأني أعتبر نفسي مسؤولاً عن ذلك، لأن الفكرة فكرتي، وكنت حريصا على نجاح الاحتفال. والحقيقة أن موقف القاضي والمفتي كان سليما جدا، فكل الحاضرين من المدعوين التفتوا ينظرون إليهما ليرصدوا رد فعلهما، وما فعله القاضي والمفتي عين الصواب، صونا لكرامتهما وكرامة المركز الديني الذي يشغلانه، ولم يقصدا أو يفكرا من قريب أو بعيد، في إهانة سعادة الوالي ولا صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى جورج الخامس. وإني أشكر سعادة الوالي الذي أتاح لي فرصة شرح مُلابسات ما حدث، وإني على يقين من أنه سيتفهم ويقدر موقف الشخصيتين المحترمتين. ظهرت علامات الارتياح على الوالي وعلق قائلا الذنب ذنبك يا سراج أنت الذي بإهمالك اختيار فيلم مناسب ورطت العلماء الإجلاء في ما حدث، وورطني فيما صدر عني من استياء،لنعتبر الموضوع مقفلا، وعد إلى عملك.

283

**ضغط المصروفات:** علمت أنه سيفد من مصر بعد أيام الأستاذ إبراهيم شكر الله، الصحفي المصري، وأنه سيعمل في مكتب الاستعلامات كمستشار، أو ما شابه ذلك، وصل و رحبنا به، هو شاب مهذب، قصير القامة يميل إلى السمنة، أسمر اللون، مسيحي قبطي، يحمل نظارات ولا يرتدي الطربوش، كان زميلا ودودا، وانسجم بسرعة مع المجموعة. بعد مدة استدعاني الميجر، وأعلمني أن ميزانية الإدارة البريطانية خفضت، وبالتبعية ميزانية مكتب الاستعلامات، والمطلوب الآن التقشف؛ ولذا يجب البحث عن وسيلة للضغط على المصروفات وإدارة الجريدة على أسس تجارية. سمعت ووعدت بالعمل بذلك، وبعد التفكير

والتشاور مع الزملاء ومع إبراهيم شكر الله وجدنا أنه من المستحيل إدارة الجريدة على أسس تجارية، لأسباب عديدة، منها أن الصحف عادة، إما تكون صحف رأي، أي تخدم قضية أو هدفا معينا، والجهة التي يهمها ذلك تصرف على الجريدة، وتحقيق الهدف يعتبر ربحا غير مادي وغير منظور، وإما أن تكون مشروعا تجاريا، وعندئذ يجب البحث في زيادة عدد القراء أو بالأحرى المشترين للجريدة، ويجب البحث عن الإعلان الذي هو مصدر مهم في ميزانيات كل الصحف، ويجب الاقتصاد في النفقات الإدارية وفي أجور المحررين، وأجرة المطبعة. زيادة القراء أو المشترين متعذر، لأن الليبيين بطبعهم لا يقرأون، ولا يشترون جريدة، الإعلانات معدومة، فلا تجارة، ولا شركات حرة في زمن الحرب. أجرة الطبع والمطبعة لا دخل لنا فيها، فالمطبعة تابعة للإدارة العسكرية، وهي التي تحدد الأجرة، المصروفات الإدارية مضغوطة أصلا، فلا يبقى إلا أجور المحررين قيمة وعددا، فمبلغها لا يبرر تخفيضها، فهي حق مكتسب، والأسعار مرتفعة باستمرار، ومن حيث العدد ربما كان أكثر مما تحتاجه جريدة قزمية، ولكن أنا صراحة لا أستطيع اقتراح فصل أحد. ودارت في رأسي فكرة أن أستقيل ! طلبت إجازة لمدة شهر وأرجأنا تطوير الجريدة إلى ما بعد عودتي إلى العمل.

284 **احتراف الزراعة في المرج:** سبق أن قلت أني في وقت الفراغ كنت أشغله بمطالعة الكتب الزراعية الإيطالية التي وجدتها في مكتبي والتي أشادت بالجبل الأخضر، وحببته لي، وجعلتني مشتاقاً لزيارته، وفكرة احتراف الزراعة في برقة والجبل الأخضر ومنطقة المرج بالذات، تفاعلت في نفسي، فصارت أمنية.

أنا شاب كلي حماس وطموح، عائلتي الخاصة محدودة الأفراد ابنتي البكر حسنى ستولد في أول شهر 1/ 1944 ونحن مازلنا في 1943، عائلتي الكبرى مجموعة إخوتي توزعت دائرة أعمالهم، صار لنا دكان آخر في باب الحرية، الأعمال سائرة على ما يرام، ولذا أستطيع البحث عن آفاق جديدة، وان أقوم بمغامرة، المغامرات من صفات الشباب، وحتى تبقى المغامرة مغامرة، ولا تنقلب إلى تهور، يجب أن تكون مدروسة، والدراسة تتطلب الحضور في المكان، وبحث

الأمور على الطبيعة. حصولي على إجازة فرصة، والفصل مناسب، ونحن في آخر الصيف. إذا يجب السفر إلى المرج، سبق أن زرت المرج عندما كنت موظفا في محافظة بنغازي في العهد الإيطالي، وكانت زيارات خاطفة.

ولا أعرف أحدا في المرج، فسألت، وعلمت أن رئيس بلدية المرج ليبي اسمه محمد أبو دجاجة، وهو شخصيا يتعاطى الزراعة، علمت أن بشير الغويل يعرف محمد أبو دجاجة، فاتصلت ببشير الغويل وعرضت عليه رغبتي في زيارة المرج لدراسة بعض الأمور التي تهمني دون الدخول في التفاصيل وأني محتاج منه إلى رسالة تقديم وتوصية إلى أبو دجاجة. رحب بذلك وأعطاني رسالة تفي بالغرض وزيادة، وضم إليها عبارات فيها الكثير من الإشادة بشخصي حتى أخجلني، شكرته وتوكلت على الله.

السفر كان على سيارة عامة، عبارة عن سيارة نقل بضاعة، رصت بها مقاعد طويلة خشبية وبالعديد من الركاب، ومع كل راكب شحنة من البضاعة، الطريق طويلة جداً وتالفة بسبب مرور السيارات والمعدات الحربية عليها وفقدان الصيانة، استغرقت الرحلة يومين مع توقف وتفتيش في الحدود بين برقة وطرابلس في العقيلة. واصلت الرحلة من بنغازي إلى المرج ونزلت في الفندق الوحيد الموجود في المرج فندق الزنجان، شاب من إحدى عائلات هون. وقد تعرفت إلى بعض أفرادها عندما كنت معلما بها. فندق صغير جداً، متواضع ولكنه يفي بالغرض، فقصدت مزرعة الإيطالي جيرا سولا، بمدخل المرج التي يوجد بها السيد محمد أبو دجاجة في المساء، وقدمت نفسي، هو شاب أسمر اللون يرتدي البدلة الأوربية مع طربوش، ودود، وجدته مع بعض الأصدقاء يأكلون اللوز الأخضر ويشربون الشاي، فاشتركت معهم وسأل عن صديقه بشير الغويل وعن الحالة بصفة عامة في طرابلس، ثم صاحبني إلى مكان بعيد عن أصدقائه، وسألني عن المطلوب، قلت في إيجاز إنني أرغب في مزاولة الزراعة في المرج، وإني أحتاج إلى أرض لا تقل مساحتها عن 200هكتار، ومحتاج إلى من يساعدني في البداية، حيث لا أعرف أحدا في المرج.

**أبو دجاجة يستغرب تصرف مصطفى:** استغرب من هذا الطرابلسي المرفه الذي قطع مسافة تزيد على الألف كيلومتر في مثل هذه الظروف يبحث عن عمل ينفر منه الكثيرون، ومع هذا تجاوب معي، وشرح لي الوضع في المرج. الأراضي كلها حكومية ولا من يؤجر أو يبيع، السلطات العسكرية البريطانية واضعة اليد، تؤجر الأرض لمن يريد أن يزرعها قمحاً رغبة في توفير إنتاج القمح بالقدر المستطاع الذي يحتاجه السكان، وتستورده الحكومة للأهالي، والقبائل ملاك الأرض السابقين قبل أن يستحوذ عليها الطليان، يريدون استرجاعها، ولكن السلطات العسكرية لا تريد ولا تستطيع البث في الموضوع، وإن بحثه سيكون من اختصاص من سيحل محلها من حكومات مدنية.

أبو دجاجة مؤجر لألف هكتار، من السلطات العسكرية، ولا مانع لديه أن يؤجر لي 200 هكتار بنفس الإيجار، فهو لا يريد المتاجرة معي، وأنا موصى علي من بشير الغويل. ثم سألني هذه الأرض خلصنا منها،المعدات، هل لديك معدات ؟ قلت إننا في طرابلس نستأجرها، فقال إن هذا متعذر، هنا ليس هناك من يملك مثل هذه المعدات ويؤجرها. ولكن هو لديه المعدات المطلوبة ويستعملها لنفسه،وليس لديه مانع من تأجيرها لي بنفس الطريقة المتبعة في طرابلس، ويمكنه أن يزودني بالزريعة بسعر السوق، فرجت في خلال نصف ساعة، وسهل الصعب، وعدنا إلى اللوز والشاي مع الأصدقاء.

وفي الغد زرنا الأرض المستأجرة، ما شاء الله "تبارك الله"، سهول المرج شاسعة، لا حد لها إلى الأفق، أرضها طيبة، طينية حمراء، خصبة، غنية، الجو منعش، طري، هناك رواب بعيدة، وما أجملها من طبيعة، ازددت حبا لها، فما رأى كمن سمع. كانت الأرض محروثة الحرثه الأولى قبل موسم الأمطار استعدادا للزرع، يجب على مصطفى أن يسرع في اتخاذ القرار قبل بداية الخريف موسم الزرع. شكرت السيد أبو دجاجة على لطفه واستعداده للمساعدة، وعدت مسرعا إلى طرابلس عازما على الاستقالة من مكتب الاستعلامات والانتقال إلى برقة، ومما زاد من تعلقي بالزراعة في برقة والمرج اعتبارات سياسية واقتصادية.

**تصريح ايدن:** إيدن هو وزير خارجية الحكومة البريطانية في عهد تشرشل فترة الحرب، ثم خلفه في رآسة حزب المحافظين ورآسة الوزراء وعندما كان النقاش محتدا بين الزعماء الليبيين في مصر حول الاشتراك في الحرب مع الإنجليز، وبأي شروط، كان السيد إدريس قد قرر التعاون مع الإنجليز كما سبق وأن قلت، وضغط على الإنجليز حتى يعزز مركزه وطلب منهم التأكيد العلني للوعود التي تقال في الكواليس، فصرح إيدن في مجلس العموم البريطاني في 1942/1/8، بان برقة، أو السنوسية لن تعود تحت الحكم الإيطالي، رأى البعض أن ذلك تأكيد كافٍ لحسن نوايا الإنجليز، ورأى آخرون أنه يخص برقة، ولا يشمل ليبيا كلها، وأنه كعادة الإنجليز، تصريحاتهم فيها الكثير من الغموض المقصود للخداع والتنصل منها في الوقت المناسب.

ولكن ليس هناك غير تصريحات إيدن، هي الوحيدة أمام الغريق، فليتمسك بها حتى يأتي الله بالفرج. هذا التصريح على غموضه جعل مصطفى يفكر في أن وضع برقة أحسن من طرابلس في أسوأ الظروف، إذا شمل ليبيا يكون أحسن، و إذا اقتصر على برقة فإن مصطفى بوجوده في برقة يكون مع الناجين، هذا من الناحية السياسية الوطنية. أما من الناحية الاقتصادية فإن برقة ومصر ستكونان شبه وحدة، وأنهما يتممان بعضهما اقتصاديا، مصر يمكن أن تكون سوقا للإنتاج البرقاوي إذا زاد على حاجة استهلاك البرقاويين، مصر بعدد سكانها الكبير والمتزايد سوق استهلاكية ضخمة، وحيث إن جميع المعطيات لصالح الانتقال، خصوصا وأن السيد أبو دجاجة يسّر الكثير من الأمور الصعبة، فلا يبقى إلا الانتقال إلى برقة فعلاً.

أخبرت إخوتي بما في نفسي، لم يكونوا متحمسين، كل واحد منهم مشغول بعمله ضمن المجموعة وراضٍ عنه، ويسعى إلى التوسع فيه. لسان حالهم يقول مالنا والمرج ؟ الله يعمر المرج بأهله، مصطفى الله يهديه، وظيفته محترمة مرتبه ممتاز، كون علاقات كثيرة على مستوى عال، له أصدقاء كثيرون، لو بقي معنا لكان أفضل، يسندنا فنكبر، وتكبر مشاريعنا، ويعم الخير على الجميع، لكن من الصعب أن يغير رأيه، إذا قرر صمم، و إذا صمم اندفع، وهذا ما يعيبه. كنت أقول:

معذورون، لم يقرأوا الكتب التي قرأتها، ولم يزوروا المرج واندفعت في طريقي فبحت بما في نفسي إلى الميجر سييمان و أخبرته أني أرغب في الاستقالة، وقلت ساخرا: تستطيع الآن أن تضغط على المصروفات وتوفر راتبي، كان رأي سييمان مخالفا لرأيي، منطلقا من اعتبارات أخرى، كان يقول إن الحرب على وشك الانتهاء، وإن جيوشاً كثيرة ستسرح، وإن المجندين السابقين سيندفعون إلى مجال الزراعة،حيث إن المصانع متهدمة، وتحتاج إلى وقت حتى تشيد من جديد، والحكومات منهكة لا تستطيع إعداد العمل لهذه الأعداد الكبيرة من البشر، والنتيجة أن الإنتاج الزراعي سيزيد وسيتوفر، وأن أسعاره ستنخفض، ويكون مصطفى قد اختار الانتقال إلى الزراعة في الوقت غير المناسب.

تفكير إخوتي فيه الكثير من الصواب، وتفكير سييمان كذلك ولو أنه تناول الموضوع على مستوى عالمي، ولكني قررت الاستقالة، وسأسافر إلى المرج.

287 **قصة بركة:** سبق أن قلت إنه بعد دخول الإنجليز إلى مدينة طرابلس، أصبح بقاء العائلة في أولاد الحاج بسوق الجمعة لا مبرر له، وصرنا نبحث عن منزل في المدينة فانتقلنا إلى منزل لزوج أختي الصادق بن محمود في زنقة الخروبة بشارع الزاوية، ثم بعد ذلك ولا أذكر الظروف، إلى منزل محمد فارس في شارع بالخير، كما سبق أن ذكرت. في تلك الفترة كنت مساء في ميدان إيطاليا الشهداء لاحقا، أستعد إلى الانتقال إلى منزلي عبر شارع ميزران قبل ابتداء الغارات الجوية الليلية، وكانت حركة الحافلات أمام بنك روما مصرف الأمة لاحقا، والكل يسعى للعودة إلى مأواه مثلى، لاحظت قبل أن امتطى الدراجة ولدا أسود اللون في وسط الزحام، مستندا على الجدار وعلامات الحيرة بادية عليه بشكل صارخ، لفت نظري، فتطفلت وسألته ما به، فعلمت منه أنه من غات في أقصى الجنوب، وصل أمس إلى مدينة طرابلس مع شاحنة أحد الإيطاليين، وكان يود العمل معه، ولكن الإيطالي غيّر رأيه، وترك الولد الذي أمامي وشأنه، فما كان منه إلا أن طاف في المدينة، ثم نام في أحد المساجد والليلة هو حائر، لا يعرف أين ينام، ولا يعرف أحداً في المدينة، ولا يعرفه أحد، لديه القليل من النقود، أعطاها له الإيطالي

أجرة على عمله معه أثناء الرحلة، اسم الولد الذي أمامي أحمد ووالده بركة، وعمره حوالي 15 سنة، قصة أحمد بركة صدمتني وتأثرت له، والغارات كالعادة ستبدأ بعد قليل، وهذه الساحة والشوارع التي تتفرع منها ستبقى خالية، وهذا الولد ما مصيره ؟ كنت أريد إيواءه في شارع الزاوية، ولكن نقله معي على الدراجة متعذر، وحرت في أمري، والوقت يضغط، فما كان منى إلا أن زودته بعنواني مكتوبا على ورقة وقلت له اسلك هذا الطريق،شارع ميزران، ثم بعده شارع الزاوية، تجد فرنا عاما، وبه جماعة من فزان، اسألهم عن منزل مصطفى السراج يدلوك عليه. ففرح وركبت دراجتي وانصرفت، وبدأ أحمد بركة المشوار، وطول الطريق كنت مشغولا ببركة وقصته، ولكن بعد وصولي إلى المنزل، انشغلت بأمور أخرى ونسيت أحمد بركة.

288 **بركة يصل منزلنا:** وبعد صلاة العشاء دق طارق على باب المنزل، فإذا بالرايس علي بقر الفزانى الفران العمومي، ومعه أحمد بركة ويقول هذا الولد يبحث عنكم، فأتيت به إليكم، شكرناه كثيراً، واستلمنا بركة. تجمع أفراد عائلتي حول أحمد بركة وعلموا مني ومنه القصة بتفاصيلها، فتأثروا مثلي، كم في الدنيا من مآسٍ، والشخص منا مشغول بأموره الخاصة لا يدري بها. كانت الوالدة رحمها الله أكثرنا اهتماما بأحمد بركة، قررت أن يستحم في الحال، ووفرت له بقايا من لباس أخي راشد، وقدمت العشاء، ونمنا وكنا نشعر بالراحة لأننا ساعدنا ملهوفا وقدمنا له خدمة.

في الصباح أخذناه إلى دكان حلاق، فحلق شعره بالموسى، فصار يبدو أصغر من قبل، وسألناه إن كان يرغب في البقاء معنا، فرحب كثيراً، وتأثر هو أيضا. تقرر إلحاقه بعمل الزراعة بأجره مع أخي علي وخالي أحمد. وحيث صار في المجموعة الكبيرة شخصان يحملان نفس الاسم، أحمد سويدان، وأحمد بركة، صار يعرف الأول بالشيخ أحمد و الثاني تخفيفا ببركة، وصار يعرف بهذا الاسم بيننا وبين معارفنا، وطالت إقامته معنا وصار كأنه فرد من أفراد العائلة، انتقل معنا من مزرعة إلى أخرى، وزوجه أخي علي بإحدى بنات عائلة شكر في قبيلة أبو صرة

بمنطقة جدائم بالزاوية. ورزق منها بنين وبنات، وعاد إلى جذوره في غات، وزاره إخوته في المدينة، وانتقل إلى أعمال أخرى في شركة السراج غير زراعية، وملك بيتا في قرية السراج، بالغيران قرب جنزور، و أخيرا صار سائقا خاصا لسيارة سفير فنزويلا في طرابلس. لو أن بركة يرضى، ويملي ذكرياته، لكان عنده الكثير مما يقول!.

289 **الأمور تتلخبط في المرج:** انتهت قصة أحمد بركة، والآن أتحدث عن السفر مرة أخرى إلى المرج، حزمت أمتعتي وسافرت و معي بركة إلى المرج بنفس السيارات العمومية كالمرة السابقة. حين وصولي إلى مدينة المرج قصدت فندق الجنزان، ثم توجهت إلى السيد محمد أبو دجاجة، وجدته مضطربا على عكس المرة الأولى، وعند الاستفسار أفضى إلي بما استجد. عقب سفري من مدينة المرج مباشرة، استدعاه المتصرف الإنجليزي، وبادره بشيء من اللوم، بأنه علم من غيره، أن شخصاً من طرابلس، اسمه مصطفى السراج، زار المرج، واجتمع بمحمد أبو دجاجة، الذي تنازل له عن مائتي هكتار من الأرض المستأجرة من الإدارة البريطانية، وحيث إن عقد الإيجار يمنع التنازل، فإن تصرف أبو دجاجة غير سليم، وعليه إرجاع الأرض الزائدة إلى الإدارة البريطانية.

ارتبكت الأمور من أساسها، على أبو دجاجة، وعلى مصطفى. و أبو دجاجة مستاء لما حصل له، ومستاء لما أنا فيه من ارتباك، حيث إنني اعتماداً على وعده، استقلت من عملي في الجريدة، ويشعر بعقدة الذنب، إذ أنه بتلبيته لرغباتي الزراعية، دفعني لاتخاذ قرار متسرع. استفسرت و الآن ما العمل ؟ فأجابني لا أدري ؟ ثم اقترح زيارتي للمتصرف الإنجليزي في اليوم التالي باكراً كنت في مكتب المتصرف فاستقبلني بالكثير من البشاشة والترحيب بلهجة عربية فلسطينية، عاتبني على أنني زرت المرج ولم أزره، وقال إنه عندما علم بزيارتي و أسبابها اندهش واستغرب أن شابا عربيا يترك طواعية وظيفة حكومية ويتوجه إلى العمل الحر الخاص في ظروف صعبة، كالتي كنا فيها وجدته يعرف عني الكثير من

الأخبار، وعلمت أنه استقاها من معلومات طلبوها رسميا من الإدارة البريطانية في طرابلس بخصوصي.

290 **المتصرف الإنجليزي يشرح سياسة بلاده:** وشرح لي بإسهاب موقف الإدارة حول الأراضي الزراعية، وملخصها أن الأراضي الزراعية في المرج وفي ليبيا عموما، كانت ملكا لقبائل أو الأفراد ذوي النفوذ، ثم استولى عليها الطليان، ووزع بعضها مزارع على الإيطاليين، وبعد هزيمة إيطاليا في الحرب، فإن مصير المستعمرات الإيطالية معلق، ولم يبث فيه بعد. و الأراضي المذكورة في عهدة الإدارة البريطانية العسكرية، تستفيد منها في صالح البلاد، وحيث إن إرجاعها إلى أصحابها السابقين، أو عدمه، ليس من اختصاصها، فهي تكتفي بزرعها مباشرة، أو بتأجيرها لمن يزرعها من سكان برقة أو مالكيها السابقين فقط دون غيرهم. وطلبات الإيجار كثيرة، والموضوع معقد، والبث فيه مؤجل، ولهذا السبب كان الاعتراض على تنازل السيد أبو دجاجة لي على مائتي هكتار.

الموضوع وخصوصا الآن يبدو منطقيا وإداريا، ولو من وجهة نظر المتصرف والإدارة العسكرية في برقة، أما من وجهة نظري في تلك اللحظة فلم أكن راضيا، وكنت محتجا على استبعادي، وعلى ما ورد في شرح المتصرف عن التأجير وإن تم وحصل يكون للبرقاويين فقط. اعتبرت هذا موقفا سياسيا مسبقا ينطوي على الرغبة في تقسيم ليبيا مستقبلا كما هي مقسمة الآن، وتدار عسكرياً من طرف إدارات ثلاث إدارة عسكرية بريطانية في طرابلس، و إدارة عسكرية بريطانية في برقة، و إدارة عسكرية فرنسية في فزان، واستمر النقاش طويلا دون طائل، وأراد المتصرف أن ينفي تهمة التمهيد لتقسيم ليبيا، فأسر لي بكثير من الخبث، أن ما اعترض عليه أنا من تمييز البرقاويين عن الطرابلسيين و الفزانيين، هي تعليمات صادرة من سمو الأمير، يعنى السيد محمد إدريس السنوسي. خرجت من مكتب المتصرف حانقا دون أن أفقد الأمل نهائيا، وعزمت على أن أقابل الوالي العسكري، وقد كان مقره في المرج نفسها و مما شجعني على ذلك أن الوالي هو

الكولونيل أوكلاند، وقد سبق لي أن عرفته في طرابلس أثناء فترة عملي في الجريدة ومكتب الاستعلامات، كما أن مساعده هو السيد حسين مازق، زميلي في وظيفة كاتب أشغال عربية، زمن الحكم الإيطالي.

291 **الوالي في زيارة للكفرة:** توجهت تواً إلى مقر القيادة، وهناك علمت أن الحاكم العسكري ومساعده في رحلة إلى الكفرة، ولا يعرف موعد عودتهما. أمام مقر القيادة مقهى صغير صرت أتردد عليه يوميا، حتى أكون قريبا من القيادة، لأستعلم عن عودة الحاكم، أثناء ترددي على المقهى، تعرفت إلى شابين ليبيين، هما المبروك الجباني وكان مديرا في جردس العبيد، وعبد العزيز جبريل وكان هو أيضا موظفا إداريا، فعلما بالغرض من وجودي في المرج، وكانا من الشباب الحالم ببعث مجد العرب المندثر وتحمّسا لقضية وحدة ليبيا، وأن لا حق للمتصرف الاعتراض على تصرف محمد أبو دجاجة، بل كان عليه أن يشجعني لما كنت أسعى إليه. تعرفت إلى شخص ثالث هو أسير إيطالي يعمل في القيادة كفني صيانة للمرافق ولبعض المعدات، ورغم أنه إيطالي لم يكن يعرف إلا القليل عن إقليم طرابلس، وأخذ يستفسر مني عن خصائص الإقليم الزراعية، وعندما ذكرت له أن به كثيراً من أشجار الزيتون، وأشدت بأهميتها باعتبارها ركيزة مهمة في الاقتصاد، قال لي رأياً مخالفاً لما كنت أعرفه، واستنتجت من حديثه أنه مثقف، وفي رأيه أن طرابلس حتى وإن كانت تعتبر الزيتون مهما في اقتصادها، فهي بلد فقير حتما، لأن جمع ثمار الزيتون يحتاج إلى أيد عاملة كثيرة وبأجرة رخيصة حتى تكون زراعة الزيتون مجدية اقتصاديا، ولا تتوافر الأيدي الرخيصة الأجرة إلا في بلد فقير.

لم يرق لي منطقه، خصوصا أننا كنا نعتبر نحن العرب حتى قبل الاحتلال الإيطالي أن من يملك أشجار الزيتون يعتبر غنياً، وهذا ما كان معروفا في تونس بلد الزيتون، و أكده الإيطاليون بغرسهم آلاف أشجار الزيتون أثناء حكمهم ولكن عند التأمل في منطق الأسير الإيطالي تتضح صحته، فبعد اكتشاف النفط في ليبيا، تحسن مستوى دخل الأفراد، وصار البحث عن من يجمع ثمار الزيتون مشكلة.




**ليلة في حجرة يهودية:** طال غياب الحاكم العسكري ومساعده حسين مازق، فلاحظ معارفي في القهوة أو المقهى، المبروك وعبد العزيز جبريل، أن الإقامة بالفندق مكلفة، و انتظاري البث في أمر حصولي على أرض زراعية ربما قد يطول، فلماذا لا أبحث عن منزل بالإيجار أقيم فيه. فكرة معقولة، وتطوعا للبحث عن منزل لي، ولكن دون جدوى. و أخيرا عثرا على حجرة في منزل عائلة يهودية مكونة من امرأة عجوز وحفيدة لها، زرناها و أجرنا الحجرة بخمسين جنيها شهرياً، واشترينا أثاثاً بسيطاً، عبارة عن سرير لي، وفراش لبركة، وأذكر أني استلمت الحجرة يوم الجمعة، وكنت مع بركة نهيئها للنوم فيها، وكانت العجوز تحمص القهوة بطريقة تقليدية، استعداداً ليوم السبت. نمت تلك الليلة في الحجرة المؤجرة ولكنني شعرت بانقباض شديد، صار شريط الأحداث يمر في ذهني، وكأني في صالة عرض سينمائي. ماذا حدث لك يا مصطفى ؟ كنت بين عائلتك الصغيرة، والكبيرة معززا، مكرماً، كنت في طرابلس العاصمة، بين اهلك، و أصدقائك الكثيرين، كنت في وظيفة محترمة، مرموقة، يحسدك عليها الكثيرون، كان لك نشاطك الاجتماعي، و أنت الآن مرمي في حجرة كئيبة مع عائلة يهودية، في مدينة المرج النائية، لا يعرفك أحد ولا تعرف فيها أحدا. و الأبواب صدت أمامك، و أنت تحاول فتحها، ولكن هيهات. أنت تنتظر عودة الحاكم العسكري الإنجليزي وكأنه صديق لك، وتنتظر حسين مازق وكأنه الآمر الناهي، و هو في الحقيقة موظف، تابع، وما شرحه لك المتصرف هو لب السياسة الإنجليزية، التي لا دخل للمتصرف وللحاكم العسكري فيها. وهما منفذان لسياسة دولتهما، ولذا أفق يا مصطفى من أوهامك، وانظر إلى الواقع كما هو أمامك مهما كان قبيحاً، وتصرف بحكمة. كانت هذه الأفكار والكوابيس تتفاعل في ذهني، ولست أدري إن كنت نائما أو يقظاً وسمعت آذان الفجر. فقمت والقرار في نفسي قد تبلور، لا طائل من الانتظار، عيد الأضحى على الأبواب، يجب الإسراع في العودة.

فاتحت المبروك وعبد العزيز في الموضوع فاستغربا قراري، حاولت استرجاع الإيجار الذي دفعته من اليهودية العجوز، دون جدوى، طلبت من المبروك

وجبريل مساعدة بركة في بيع ما اشتريته من أثاث بسيط وتسفيره إلى طرابلس، وظهر الأحد، ركبت أول سيارة متجهة إلى بنغازي، ومنها إلى طرابلس، وفاجأت العائلة، بالعودة إلى القاعدة، وإقفال ملف الزراعة في المرج.

293 **احتراف الزراعة في طرابلس:** أخبار زيارتي للمرج، انتشرت في الأوساط التي لها علاقة بي، وصرت في نظرهم نجماً زراعياً، كان أخي علي قد اجر مزرعة في الهضبة الخضراء من أحد الإيطاليين، وبعد عودتي من المرج أجرنا مزرعة صغيرة أخرى قريبة منها، صاحبها اسمه جاكوموني، له مصنع للآجر، كنت المسؤول عن المزرعة الصغيرة التي تتميز بأنها مصب لأحد تفرعات وادي المجينين حيث يسيل في بعض السنوات ويعربد في منطقة الهضبة الخضراء وفي المدينة أيضا، وكان الطمي الذي تحمله مياهه يجعل تربة المزرعة غنية بالمواد العضوية، ولا تحتاج إلى سماد. رأينا أن نزرعها تبغاً برخصة من إدارة الاحتكارات التي كانت ترخص وتشرف على زراعة التبغ لحسابها، ويمنع على غير المتحصلين على رخصة زراعته.

وأذكر أني كنت أجلس في ظل شجرة على حد المزرعة وأتخذ منه شبه مكتب نهارا، وكان يزورني بشبه انتظام إيطالي من المزرعة الملاصقة التي بها ثكنة إيطالية كانت تستعمل معتقلاً لبعض الأسرى الإيطاليين. كنت أحمل معي بعض المنشورات الزراعية القديمة التي كانت تصدر عن إدارة الزراعة الإيطالية وكنت تحصلت عليها أثناء عملي في إدارة جريدة طرابلس الغرب.وكنت أتناقش مع الإيطالي حول بعض الأمور حول الزراعة عموما وزراعة التبغ على الأخص.

294 **الأسير مهندس زراعي:** ولم أكن أعرف عن الإيطالي شيئا، إلا أنه يرد من المعتقل الملاصق، وربما كان أسيرا. بعد سنوات عندما التحقت بمصلحة الزراعة بسيدي المصري عرفت أن الأسير الذي كان يزورني كل يوم تقريباً، هو مهندس زراعي اسمه باريني، كان يعمل في إدارة الزراعة الإيطالية وله أبحاث تنشر في مجلة الإرشاد الزراعي، وأسر في ظروف لا أعرفها، ثم أعيد

للعمل في عهد الإدارة البريطانية، وكنا زملاء في نفس المصلحة، وكان يشيد بـي، وبحرصي على تطبيق الإرشادات الزراعية الواردة في إعداد المجلة التـي كانـت عندي رغم الإمكانيات المحدودة والظروف الصعبة التي كنا نعيشها.

كنا في سنة 1944، الإنتاج التبغي كان جيداً، ووفيراً، ومربحاً، مما شـجعنا على إيجار جزء من مزرعة لإيطالي آخر اسمه بيتيرا، المزرعة كانت مـساحتها حوالي 20 هكتاراً، منها قسم يروى بمضخة لا تزيد قوتها على 4 خيول بها أشجار من البرتقال، وقسم آخر يروى بمياه الأمطار، الإيطـالي أجـر لنـا مـن الأرض المروية مساحة لا تزيد على هكتار وأجر لنا القسم البعلى، المضخة كانت مشتركة، وكانت مصدر الكثير من الإزعاج لنا وله، وللكثير من المشاجرات، تارة المضخة تتعطل، وتارة ينقطع التيار الكهربائي، والقسم المروي يحتاج للري، وكل منا يريد التسابق في الري ليحافظ على سلامة زراعته. نشاطي الزراعي الجديد كان بالنسبة لي ممتعا ومربحاً أنساني الجريدة وما كان من أمرها، كنت أحـاول التوسـع فيـه وتطويره.

295

**مزرعة الأصابعة:** وفي أحد الأيام اتصل بي الشيخ محمد الهنقاري الصديق القديم منذ فترة العمل و الإقامة بهون، وهو الآن قاضٍ شرعي في غريـان وعديل للشتيوي الطليعية مدير الأصابعة، واقترح علي شراء أرض زراعيـة فـي الأصابعة، مشاركة معه ومع عديله الشتيوي ومع الشيخ عبد الله السحيري، قاضي الأصابعة، ومع منصور بي" قدارة وهو من عائلة بن قدارة الشهيرة فـي زلـيطن، كان مهاجرا في سوريا مع عائلته، وله نشاطات وطنية وسياسية، وكـان مـن أول المهاجرين الذين عادوا إلى وطنهم بعد الاحتلال الإنجليزي، وكان زوجا لبنت عبد الحميد شومان الفلسطيني صاحب البنك العربي". وأخذ الشيخ محمد الهنقاري يـشيد بالأصابعة، ومناخها ووفرة أمطارها، وقربها من طرابلس 120 كيلومتراً بالمقارنة بالمرج، وبإمكانية شراء ما نشاء من أراض، بأثمان معقولة نظرا لفقـر الـسكان واحتياجهم، وطلب مني القيام بزيارة للأصابعة والاطلاع مباشرة على ما أريد.

لبيت الطلب مرحبا وكانت فرصة لي تعرفت فيها إلى شركائي وأصدقائي مستقبلا الشيخ عبد الله السحيري و الشتيوي الطليعية، وعلى مجموعة من أفاضل الأصابعة،، كما شاهدت تجارب زراعية مشجعة قام بأحدها الشيخ الزروق أبو رخيص وهو قاض شرعي " وأحد أفراد عائلة أبو رخيص من غريان اشتهرت بأنها زودت مجال القضاء الشرعي بالعديد من القضاة" الشيخ أبو رخيص شجر مساحة حوالي 20 هكتاراً بالزيتون واللوز المعتمدة على مياه الأمطار، و قد كان الزيتون جميلا مزدهرا، وكذلك اللوز. التجربة الثانية كانت زراعة القمح على مساحات شاسعة بمنطقة جندوبة، بين غريان والأصابعة، قام بها الإيطاليون قبل الحرب، وتابعتها الإدارة العسكرية البريطانية بواسطة مقاول إيطالي اسمه كازيلا له مجموعة من الآلات الزراعية الثقيلة المناسبة على غرار ما يعمل في المرج. راقت لي الفكرة وتحمست لها وكونا شركة خماسية، وكلفت بالأشراف عليها.

اشترينا حوالي 200 هكتار، كان نباتها الطبيعي الحلفاء، وبنينا بها مقراً وتعاقدنا مع الإيطالي كازيلا لحرث الأرض وزرعها قمحا. التجربة دامت سنوات معدودة، وأهملت لأن المردود الاقتصادي لم يكن مجزيا، ولأن المساحة صغيرة، والزراعة على الأمطار لم تكن منتظمة، كنا نزرع نصف المساحة ونريح نصفها. كان متوسط إنتاج الهكتار لا يزيد على 400 كيلو قمحا، جميع هذه الأمور واهتمام الشركاء بمجالات أخرى أهم، صرفهم عن زراعة القمح، وبقيت الشركة والعلاقة الودية بين الأفراد.

296 **العمل في مصلحة الزراعة:** طلبت مني إدارة الشؤون المدنية والسياسية أن أقابل المسؤول في مصلحة الزراعة بمنطقة سيدي المصري. توجهت، واستقبلني ضابط من جنوب أفريقيا اسمه قليسبي، وعرض علي العمل في مصلحة الزراعة في وظيفة كبيرة، فوجئت بالعرض ولم يمض سوى أشهر على ترك وظيفة كبيرة في إدارة الاستعلامات، واستفسرت عن نوع الوظيفة، فقال لي مستشار شؤون الزراعة العربية أو المزارعين العرب، شكرته وطلبت مهلة للتفكير، تشاورت مع الإخوة فتركوا القرار الأخير لي. الأعمال الزراعية المتنوعة

الخاصة مرضية، تعودت على عدم التقيد بمواعيد عمل محددة، وعلى عدم الجلوس على كرسي خلف مكتب. مرارة رفض طلبي لتأجير مساحة من الأرض للعمل الزراعي الحر في المرج لم تختف بعد، فقررت الانتقام لكبريائي، لا أرفض ولا أقبل، أفاوض حول الراتب حتى يملوا ويعدلوا عن الفكرة، تكررت الزيارات وفي كل مرة يزيد الراتب المعروض، وفي المرة الأخيرة أخبرني نائب مدير المصلحة أنهم لا يستطيعون الزيادة أكثر. كان جوابي هل تقدمت أنا إليكم بطلب أبحث عن وظيفة ؟ فأجاب بالنفي، فأجبت، المناسبة كانت فرصة طيبة للتعارف، وانصرفت. بعد يومين اتصل بي الشيخ المفتي محمد أبوالاسعاد العالم وكما قلت في مناسبة سابقة، تربطني به علاقة قرابة عائلية قديمة، و دعاني لزيارته على غير عادته، قمت بالزيارة، وفوجئت مرة أخرى بأن الغرض من الدعوة هو عرض العمل في مصلحة الزراعة.

297 **المفتي يتدخل:** والقصة من أولها أن الإدارة البريطانية لاحظت بعد مراجعة مختلف المصالح والإدارات أن جميع الموظفين في مصلحة الزراعة إيطاليون ومعهم يهودي واحد من عائلة لابي، في الوقت الذي كان معظم الليبيين يشتغلون في زراعة البساتين والزراعة على الأمطار في المناطق التي لا تتوفر فيها المياه الجوفية بالإضافة إلى تربية ورعي الماشية في البادية. كان وضعا مقلوبا حصيلة للظروف السياسية منذ فترة الحكم الإيطالي، واستمر دون تغيير، وأرادت الإدارة البريطانية تصحيح الوضع ولو شكليا، وبحثت عن حامل شهادة عالية في الزراعة فلم تجده لعدم وجوده، لأنه لم يسمح لليبيين بالدراسات العليا. فاكتفت بمن له خبرة وإلمام بالزراعة، فرُشح لها مصطفى ولا ادري من أي جهة، وكانت الدعوة لزيارة مصلحة الزراعة وما تبعها من موقف متشدد حول الراتب. رأت الإدارة البريطانية أن تستنجد بالشيخ المفتي لمعرفتها بصلته بي وما له من احترام، وكانت الزيارة إلى الشيخ المفتي، فبادرني بالسؤال، هل صحيح أن الإدارة البريطانية عرضت عليك وظيفة هامة في مصلحة الزراعة ؟ فكان الجواب نعم، هل صحيح أنك ماطلت ثم رفضت؟ الجواب نعم و تساءل لماذا؟ أجبت لأني لم

أطلب وظيفة ولأن عملي الزراعي الخاص يسير على ما يــرام، وأريــد متابعتــه والاستمرار فيه، فعلق كنت أتوقع منك إدراكا أحسن للأمور. المراجعون والباحثون عن وظيفة لدى الإدارة البريطانية مئات، و أحذيتهم حفت من كثرة المراجعة بدون طائل، و أنت ياسي مصطفى يعرضون عليك أكبر وظيفة ويتوددون لك ويعرضون عليك راتباً كبيراً و أنت ترفض.ما هذا التصرف الأحمق ؟ لماذا كــل هــذا ؟ لأن أعمالك الزراعية الخاصة سائرة على ما يرام، وهــل بتقلــدك الوظيفــة الكبيــرة المعروضة عليك، أعمالك الزراعية تسير على غير ما يرام ؟ من طلب منك ذلك ؟ وجودك في مثل هذه الوظيفة لا يستوجب منك الكف عن عملك الخاص، بل سيسهل لك الأمور كثيراً، وسوف تستفيد أكثر. كلنا نطالــب الإدارة البريطانيــة بتعريــب الوظائف العامة، وعندما تبدي استعدادا لذلك، يواجهها مصطفى بالرفض. فكر جيدا ولا تتردد، واقبل العرض، وتوكل على الله، لعله يكون فيه خير لك وللبلاد. وافقت وباشرت العمل في الوظيفة الجديدة في مصلحة الزراعة.

298

**مصلحة الزراعة:** كان مقر مصلحة الزراعة في مبنى قديم منذ زمن الأتراك بمزرعة التجارب الزراعية في منطقة سيدي المصري على أبواب مدينــة طرابلس شرقاً. وكانت في زمن الطليان يرأسها دكتور زراعي اســمه ماريــاني، ومعه مجموعة من المهندسين الزراعيين الإيطاليين، وكانت تشرف على التجــارب والأبحاث الزراعية، و إنشاء قرى ومزارع في مختلف أنحاء ليبيا على الأراضــي الجيدة المنزوعة من السكان الليبيين. ثم كان الاحتلال الإنجليزي وبقي الوضع كما هو.

الموظفون الإيطاليون في مكاتبهم، والمزارعون الإيطاليون في مــزارعهم، واكتفي بتعيين بعض الضباط في مناصب إدارية عليا بالمصلحة، والحجة معروفة، أن الحرب مازالت مستمرة، والوضع الحالي مؤقت، ومصير المستعمرات ســيقرر لاحقاً.

كان لكل منطقة بها مزارع للإيطاليين مندوب ينوب عــن المــزارعين فــي اجتماعات دورية تعقد شهرياً وتبحث فيها الشؤون الزراعية، ومشاكل المــزارعين

الإيطاليين. فصرت بعد تعييني أحضر الاجتماعات بانتظام، وكان الحديث في المصلحة باللغة الإيطالية، خصوصا إن الضباط البريطانيين، ومعظمهم من جنوب أفريقيا، يعرفون الإيطالية أو تعلموها.

ومعرفتي للإيطالية سهل لي الاندماج في المحيط، وصارت علاقاتي مع الجميع بعد الصدمة الأولى ودية، لم يطلب أحد مني عملا محدداً، وجدت المجال واسعاً أمامي كاتساع ليبيا أو إقليم طرابلس على الأقل، ليست هناك سياسة زراعية مدروسة،الصلاحيات غير واضحة، والإمكانيات معدومة، والأهداف غير معروفة.فما عساه أن يفعل مصطفى بمفرده؟.

299

**واحة جوددائم:** كانت لدي مبادرات أذكر منها : كنت في زيارة لمدينة الزاوية، وقبلها على اليمين، واحة صغيرة، علمت أنها واحة جودائم، وهي محاصرة بمزارع المزارعين الإيطاليين الوافدين من إيطاليا أثناء وقبل الحرب، وتابعين لقرية حديثة اسمها أوليفتي، وكان اسم أحد أبطال الثورة الفاشية، فخطرت لي فكرة و أنا في الطريق لماذا لا أجري بحثاً عن الوضع في هذه الواحة، وهي كالجزيرة في محيط من المزارع الحديثة، وأتخذ من هذا البحث مدخلاً لتخصيص مزارع وأراضٍ زراعية لسكان الواحة، و إذا نجحت المحاولة عممت على عدة واحات أخرى. كان مساعد متصرف الزاوية، هو سالم الصادق الصديق القديم من فترة وجودنا بهون، فبُحت له بما في نفسي، وطلبت منه مساعدتي، بأن يسمح لشيخ قبيلة جودائم الحاج إبراهيم المرابط بالتعاون معي. تجاوب مع الفكرة، وتحمس لها، وترددت عدة مرات على منزل الشيخ إبراهيم في جودائم، وصرت أجمع أكبر ما يمكن من المعلومات وإحصائيات. أعددت تقريراً خلاصته أن مساحة الواحة حوالي 70 هكتاراً، وسكانها يزيدون عن 500 نسمة، وجميع سكانها فلاحون يعملون أجراء في المزارع الإيطالية. قدمت التقرير إلى رئيس المصلحة المستر ليتنديل فأعجب بمحتواه، ولم ترقه الفكرة، ولامني لأنني لم أستشره في إعداد التقرير، ولا عجب في ذلك من طرفه، فهو من جنوب أفريقيا، وهم كانوا أشد تعصباً لعنصريتهم ضد السكان الأصليين من الإيطاليين نحو الليبيين، وقد تسرب

التقرير إلى بعض كبار المسؤولين الإيطاليين في المصلحة فتغيرت نظرتهم الودية نحوي. ودفن التقرير.

300 **ترحيل الأغنام إلى سرت:** محاولة أخرى، طبعت استمارة بها عدد من الأسئلة أطلب فيها من مشايخ القبائل الإجابة عنها وتقديم اقتراحات بما يخص الزراعة في قبائلهم، ووزعتها على الإداريين العرب أثناء زياراتي الميدانية، وطلبت منهم توزيعها على المشايخ. انتقلت الاستمارة من مكتب إلى آخر في المتصرفيات، إلى إدارة الشؤون المدنية، ووصلت إلى مدير المصلحة الزراعية، وطلب منه التعليق عليها مع الاحتجاج. ثارت ثائرة رئيس المصلحة ولا مني لأني لم أطلعه على ما قمت به و أحرجته أمام عدة إدارات، وسحبت الاستمارة، ولم يكن لها أي أثر.

في إحدى السنوات كان الجفاف شديداً في المنطقة الغربية وسهل الجفارة والجبل الغربي، مما كان يهدد حياة آلاف الأغنام بالموت، ويقضي على مورد رئيسي لعدد كبير من السكان. فاقترحت القيام بحملة لترحيل قطعان الأغنام إلى منطقة سرت، حيث كمية الأمطار مناسبة، والمراعي جيدة، تزيد بكثير على حاجة أغنام المنطقة. وقد علمت أنها كانت سابقة في عهد الطليان في الثلاثينيات، وقد لاقى الاقتراح قبولا حسنا لحسن الحظ، فجندت إمكانيات مصلحة الزراعة ومتصرفية سرت، وكان مساعد المتصرف فيها الصديق المنتصر، وكونت فرقاً للعمل تحت إشراف مهندس إيطالي في شؤون المياه اسمه فيالي. قمنا بإصلاح آبار وصهاريج كثيرة في منطقة سرت، استعداداً لنقل الأغنام، وكانت فرصة عرفت فيها المنطقة بئراً بئراً. وكان قد عين بمصلحة الزراعة ضابط إنجليزي عجوز اسمه هيد، يتكلم العربية بطلاقة، وكان من الجماعة التي اشتغلت في فلسطين، وعاصروا أحداث خرابها على العرب. وكنت أتجول معه ومع فيالي في سيارة جيب مكشوفة في سهول سرت وأوديتها حتى النوفلية، وقد نجحت الحملة و أنقذت أعداداً كبيرة من ثروة البلاد الحيوانية.

**المبجر هيد ومشائخ العزيزية:** الميجر هيد لم يكن زراعياً ولـــم يهتم بالزراعة، ولكن الموضوع الذي كان يستهويه هو تحـــريض العـــرب علـــى الطليان المستعمرين، وكأنه أكبر زعيم وطني، كان ذلك في ســـنة 1946 و1947 قبل أن تبدأ الحركات السياسية والوطنية في البلاد نشاطها. وقد كنا في سيارة جيب في زيارة لبلدية العزيزية في يوم السوق، وبعد اجتماعنا بالمشايخ الموجودين بهـــا، كان الكلام قليلاً في الزراعة، وكثيراً فيما كان يجيده الميجر هيد. وجرى الحـــديث عن سد وادي الهيرة في المنطقة.

"سد وادي الهيرة أقامه الطليان لري جزء كبير من سهل العزيزية، كان شبه خال مهملاً، ردمت الرمال أجزاء منه"، وقمنا بزيارته، كان هيد يقود سيارة الجيب، وكنت بجانبه وركب على الكرسي الخلفي المحدد المساحة خمسة أشخاص أو أكثر، وكان يزاحمهم آخرون من سكان منطقة وادي الهيرة، والكل يريد الاســـتفادة مـــن سيارة الزراعة للعودة إلى منطقته.

سرنا بالحمولة المبالغ فيها، وعند اقترابنا من السد، صارت الأرض كثيـــرة التضاريس، ملتوية المسار، وكان ركاب الكرسي الخلفي يكادون يـــسقطون أثنـــاء تعرجها، وكانوا من شدة الخوف يصيحون ويقولون يا ساتر....يا ساتر.... والميجر يقود السيارة ولا يبالي بهم، ثم أوقف السيارة فجأة، والتفت إليهم في حـــزم قـــائلاً: سمعتكم تصيحون، وكلكم خائفون، وتصيحون بعبارة يا ساتر..يا ســـاتر ...هـــذه الابتهالات لا تصدر إلا من الخائف الجبان، نحن في الأردن لـــيس هـــذا ابتهالنـــا، ابتهالنا في مثل هذه المواقف الحرجة التقدم و الإقدام ونحن نـــردد توكلنـــا علـــى الله...توكلنا على الله... ! كان درساً من عجوز اسكتلندي، إنجليزي داهية في أنسب صيغ الابتهالات!.

إعادة الحياة إلى سد الهيرة حتى إن كان ذلك ممكنـــاً فنيـــاً فإنـــه اجتماعيـــا وزراعياً، كان بعيداً عن تفكير الموجودين حولي تلك اللحظة، كان بعيـــداً بعيـــداً، المواطنون الذين كانوا معنا، كانت مشاغلهم اليومية الملحـــة كافيـــة لوضـــع حـــد

لتفكيرهم. مصطفى كان شاباً عمره حوالي ثلاثين سنة، يسعى لتحسين وضعه العائلي، ولا يعرف ما يخفي له المستقبل.

الميجر هيد، كان يفكر كيف يواصل هوايته المفضلة؛ إثارة الأهالي على الطليان أو على بعضهم البعض، ثم بعد ذلك ماذا سيكون؟، بعد التقاعد والشيخوخة، وبرد جبال اسكتلندا و أوديتها.؟

## 302 جولة في الدواخل وفي البساتين:

طلب منى مدير المصلحة أن أستعد للقيام بجولة طويلة متواصلة في الدواخل. كان الفصل شتاءً، وسيارتنا الجيب مكشوفة، وبدأت الرحلة من طرابلس، العزيزية، يفرن، جادو، نالوت، وفي كل بلدة نتوقف، تارة للحديث مع السلطات الإدارية، وتارة مع السكان العاديين. بِتنا في نالوت، و أقمنا بها اليوم الثاني، ثم عدنا أدراجنا إلى غريان، ومنها إلى مزدة، ووادي سوف الجين، فبني وليد، ومنها إلى سرت، والنوفلية والعودة إلى سرت، مصراته، زليطن، الخمس، القصبات، ترهونة، طرابلس. كانت رحلة طويلة حقا، شاقة، في فصل غير مناسب، ولكنني استمتعت بها، وكانت فرصة لي تعرفت فيها إلى أماكن وأشخاص لم أكن أعرفها.

في يوم من الأيام قلت لنفسي: إن معظم الاهتمام بالدواخل، فمن يا تري يهتم بشؤون البساتين ؟ قررت القيام بجولة ازور فيها البساتين، واحدا واحدا، مبتدئاً بأول بستان ملاصق لمصلحة الزراعة، وطلبت إحضار عربة يجرها بغل كليس وسائسها، وبدأت الرحلة، زرت خلالها أربعة بساتين فقط، ووجدت نفسي في بحر من المشاكل الكبيرة والصغيرة والعامة والخاصة، لا يقدر على حلها إلا الله، اكتفيت بهذه التجربة النموذجية التي كشفت عجزي.

## 303 لجنة تقصي مخزون الشعير:

كانت سنة من سنوات الجفاف، وإذا كان المجهود الذي بذل في المرة السابقة لإنقاذ الأغنام، فإنه هذه المرة، موضوع الرهان، هو حياة أصحاب الأغنام، سكان البادية أنفسهم، الغذاء الرئيسي لسكان البادية إنتاجهم من الشعير، وبسبب الجفاف كان الإنتاج شبه معدوم، وعلى

السلطات العسكرية المسؤولة عن إقليم طرابلس تدبير ما يحتاجونه للموسم المقبل من شعير للأكل وللزرع، والميزانية شحيحة، فنحن عقب الحرب مباشرة، ولندن مهدمة، والأسبقية لسكان لندن الذين لهم حق الانتخابات، والتحكم في مصير الأحزاب والحكومات. ومع هذا لا يمكن ترك الناس يموتون جوعا في بادية طرابلس. ومصير المستعمرات الإيطالية السابقة، سيثار في القريب، وبريطانيا لها مآرب فيها، ولذا كان من واجبها توريد الشعير اللازم بغير إسراف، وفي أضيق نطاق. ولذا كونت لجنة يرأسها ضابط برتبة عقيد وهو كبير متصرفي غريان وعضوية مدير التموين، الميجر داف، ومصطفى السراج عن مصلحة الزراعة وجوستي الإيطالي عن شركة الكونسوزيو الزراعية، وهي شركة إيطالية شبه حكومية، تخدم مصالح المزارعين، توفر لهم ما يحتاجونه من لوازم العمل، وتشتري محصولهم وتسوقه أو تصدره، حسب الحالات، كانت من مخلفات العهد الإيطالي، وأبقيت لحاجة البلاد لها، وخصوصاً المزارعين الإيطاليين. كانت مهمتنا تخمين كمية الشعير المخزون عند الأهالي رغم قلته بالاجتماع بالموظفين المحليين وبمشائخ القبائل، حتى يمكن للسلطات تحديد الكمية التي يجب استيرادها وتوزيعها توزيعاً عادلاً على المناطق حسب درجة احتياجها دامت المهمة حوالي خمسة عشر يوماً، وقدمنا بعدها تقريرا إلى الوالي الذي كان ممتناً منه،و أثنى على اللجنة وعلى ما قامت به من جهود.

304

**سد وادي غودو:** أثناء إحدى زياراتي لجادو، طلب مني بعض الأعيان إقامة سد على وادي غودو، وهو أحد الأودية التي تنحدر من سفوح الجبال المحيطة بجادو في سهل الوطية، وينتهي بدون أن يصل إلى البحر لبعده عنه. للوادي أهميته لدى سكان جادو. لم أنس الطلب، وأعلمت رئيس المصلحة برغبتهم، وطلبنا من المهندس فيالي المتخصص في شؤون المياه دراسة الموضوع. كان تعليق فيالي أن الأودية المنحدرة من الجبل كثيرة، ولكن غير ذات فائدة كبيرة، حيث إنه تمر سنوات دون أن يسيل الوادي، ويكاد ينسى، ثم يسيل فجأة بعد زوابع رعدية في الربيع، فتندفع مياهه بقوة، وتكتسح ما أمامها من زرع وضرع، مغيرة

مجراها في أسفل المصب تارة. لو أقمنا سداً يتناسب مع فترات الثوران والاندفاع، يكون السد مكلفا وغير اقتصادي، وإذا أقمنا سداً بسيطاً يبقى سنوات دون فائدة وتردمه الرمال، ثم عندما يسيل الوادي بقوة يكتسحه ضمن ما يكتسح، ورغم هذا التعليق الفني الواضح، كان اهتمامنا بالوادي، وكلف فيالي بإقامة سد بسيط غير مكلف، وتعاون سكان المنطقة معه وانشغلت بأمور أخرى، ولا أدري ما كان مصير السد.

305 **زراعة الأراضي قليلة الأمطار:** أثناء إحدى الاجتماعات الشهرية، أثار المدير الجديد للمصلحة الميجر تيلور موضوعاً فنياً وعلمياً عاماً، هو الزراعة المثلى في الأراضي القليلة الأمطار، وهو موضوع يهم ليبيا كثيراً، وكان يمكن أن يكون بحثاً زراعياً شائقاً، لكن سرعان ما تحول إلى معركة ذات طابع سياسي بين الضابط الإنجليزي والمزارعين الإيطاليين. الإنجليزي يرى أن الأراضي القلية الأمطار وخصوصاً الرملية منها تكون في سنة الجفاف، ونظراً لضعف التربة المنبتة وغير العميقة بها، تكون غير متماسكة وإذا حرثناها بحجة حفظ الرطوبة، لما يمكن أن يغرس فيها من أشجار مثمرة، نكون قد هيأناها لأن تغزوها و تذروها الرياح، وتنتقل من مكان إلى آخر بسهولة، مكونة كثباناً من الرمال لا فائدة منها حتى للرعي البسيط، وقد تطمر عند تحركها ما يحيط بها من واحات أو مراعٍ. لذا فالأفيد عدم تحريك ذرات الرمال بالمحراث، والعمل على بقاء تماسكها بمختلف الوسائل، والاكتفاء بالاستفادة منها بالرعي المنظم، والحفاظ على توالد وتكاثر ما فيها من أعشاب قليلة، وبعبارة أخرى، كما كان ولا يزال يفعل البدو، بطريقة تقليدية، تحتاج إلى تنظيم وتهذيب.

حساسية المزارعين الإيطاليين كانت مفرطة، الظروف السياسية التي كانوا يعيشونها كانت قاسية، حكومتهم انهزمت في الحرب، إمبراطوريتهم تلاشت، مصير ليبيا ومصيرهم مبهم، يرصدون كل كلمة تقال أو رأي يختلف عن مصالحهم، ويرون فيه تسفيهاً لآرائهم وتصرفهم وإنجازاتهم أثناء سنوات حكمهم وخطراً دائماً يهددهم.

البحث الذي قام به مصطفى حول واحة جودددائم بادرة سوء، كلمات يقولها الميجر هيد في مجمع من مشائخ البدو عرضا، يكون لها صداها المبالغ فيه. النظرية التي أثارها الميجر تايلور، والأعصاب مشدودة على آخرها كان لها دويها. وتكتل المزارعون والمهندسون الزراعيون الإيطاليون لحماية إنجازاتهم وعدم تسفيهها من طرف متطفلين لأغراض سياسية غير شريفة. وتمسّك الميجر تايلور برأيه، مصراً على حصره في الأمور الفنية البحتة دون حساسيات ولا مبالغة. وكانت مناقشات ومشادات حادة ثائرة، وزيارات ميدانية لبعض المزارع لتأكيد رأي هذا أو ذاك الفريق. ويظهر أن صداها وصل مقامات عليا، رأت أنه لا داعي لإثارة الزوابع في جو مضطرب أصلا، ويحتاج إلى التهدئة بدلاً من الإثارة، وأقفل النقاش ونسي الموضوع.

306

## زيارات أخرى لنالوت:

الميجر جليسبي نائب مدير المصلحة من جنوب أفريقيا، ومن مُلاك ومُربي الأغنام، رأى أن صوف الأغنام في ليبيا رديء، وسمع أن الأغنام في الجبل الغربي، وبالذات نالوت، فيها أغنام ذات صوف جيد، فأراد أن يجري بحثاً حول ذلك، محاولة لتحسين سلالة الغنم، بنية إنتاج صوف أحسن. وذلك بتعميم ما هو موجود في نالوت إن صح ما سُمع. وأراد أن يتأكد مما سمع، فطلب مني مرافقته في رحلة إلى نالوت لهذا الغرض، وتقرر موعد الرحلة، وبدأناها بزيارة الأصابعة وطلبت من الصديق الشتيوي طليعية مدير الأصابعة المشهورة بتربية الأغنام بإحضار قطيع كبير منها، قريب من المركز الإداري، حتى يفحصه الميجر جليسبي أثناء مرورنا. وقد استعد الشتيوي استعداداً خاصاً لاستقبال صديقه مصطفى والضيف الأجنبي، وأحضر الأغنام، وأعد غداءً فاخراً. وصلنا متأخرين عن الموعد المحدد، وقام جليبسي بفحص سريع، تأكد مما كان يعرفه، من أن صوف الأصابعة كغيره من النوع الرديء. وكان جليبسي حريصاً على الوصول إلى نالوت في وقت مناسب فاعتذرنا عن تناول الغداء، وحُرمنا من وليمة فاخرة.

رغم هذا وصلنا نالوت متأخرين، ونمنا في فندقها، وفي الصباح التالي كان اجتماع مع المتصرف الإنجليزي نسيت اسمه، ولكن أعرف أنه كان يلقب بابو حنيك، لأن حنكه كان ملتوياً بطريقة لافتة للنظر، والمتصرف يتكلم العربية بطلاقة وكان من فرق الكومندوز التي ألقيت بالمظلات على عدة أماكن في ليبيا أثناء الحرب بغرض التخريب والتحريض والتجسس. وكان من رفاقه عبد الله شيته من عائلة شيته المعروفة بالنوفليين بطرابلس، وقد كان يدرس بالأزهر زمن الحرب، فتطوع في الجيش الليبي الوليد، وقام بأعمال بطولية توصف بالجرأة والمخاطرة الشديدة. وقد نزل الضابط أبو حنيك بمظلته في منطقة العربان شرقي غريان، وقد خبأه مديرها أبو غالية في صهريج لمياه الأمطار فارغ أثناء حملة التفتيش التي قامت بها المخابرات الإيطالية بحثاً عن جواسيس الإنجليز الذين يلقون بالمظلات. وقد بقي في مخبئه عدة أيام يذكرها أبو حنيك إشادة بموقف الليبيين في مجال التعاون مع قوات الحلفاء لتحرير بلدهم من الاستعمار الإيطالي.

307 **البحث عن الصوف القمي:** أثناء الاجتماع في مكتب المتصرف تقرر أن الغنم ذات الصوف الجيد، واسمها القمي، وقد انتقلت من تونس إلى نالوت، موجودة بين غنم القائم مقام مسعود بن عيسى الذي لم يكن موجوداً في مدينة نالوت، وإنما كان مع أغنامه وعائلته في منطقة وادي الثلث، على مسافة حوالي 30كيلو متراً جنوب نالوت، في هذا الفصل، فصل الربيع. وتقرر أيضا أن يتوجه مصطفى ومعه مدير نالوت سليمان قرصع إلى زيارة نجع القائم مقام في وادي الثلث لترتيب زيارة تمّكن جليسبي من إجراء الفحص المطلوب.

وقيل لنا إن نجع القائم مقام يتميز عن غيره بخيمة بيضاء بين الخيم السوداء. توجهنا بسيارة عسكرية من نوع بيدفورد من النوع الذي لا يغوص في الرمال على طريق نالوت غدامس، وبعد حوالي 30 كم أو أقل، تركنا الطريق المعبد، واتجهنا يميناً في أراضٍ ليست بها طرق، معتمدين على خبرة المدير قرصع، وعلى قوة وصلابة السيارة التي خاضت معارك كثيرة قبل أن تصل إلى هنا وعلى براعة سائقها مسعود، وهو شاب من الجبل الأخضر يمتاز بخفة الظل وعناده وبراعته في

قيادة السيارات. صعد بالسيارة على ربوة ليرى من بعد ويستطلع السهول التي من حوله، ويهتدي إلى الخيمة البيضاء، ظناً منه أن الربوة حجرية متماسكة، ولكن الربوة في قمتها كانت رخوة، وغاصت بنا السيارة، وكلما حاول تحريكها غاصت أكثر وأخيرا انكسر عمود مهم في جهاز نقل السرعة. كنا نحن الثلاثة مصطفى وقرصع ومسعود ومعنا السيارة غائصة وهامدة على قمة ربوة، وحولنا مسافات شاسعة حتى الأفق البعيد، ولا أثر لخيمة بيضاء أو غيرها.

كنا في حيرة من أمرنا، لكن النجدة أتت من حيث لا ندري، سمعنا أصواتاً تسمع وتختفي بعيدة ثم صارت أقرب، واتضح أنه بين تضاريس المنطقة حوالي أربعة أولاد شبان، ومعهم عدد من الحمير، كانوا من جماعة القائم مقام قادمين من نالوت ومتجهين إلى نجع القائم مقام حاملين بعض التموين.

علمنا منهم أن نجع القائم مقام ليس بالبعيد، وأنهم متجهون إليه، أبقينا مسعود السائق مع السيارة يحاول إصلاحها وانضممت أنا مع قرصع إلى القافلة الصغيرة وسرنا على الأقدام نحو النجع المنشود والخيمة البيضاء. المسافة كانت طويلة، والأرض غير ممهدة، والمشي على الأقدام لغير المتعود عليه مثلي، وحتى على قرصع كان منهكاً، وحاولنا الاستفادة من الحمير، ولكنها كانت حميراً صغيرة وبدون بردعة، وركوبها أكثر تعباً، وأخيراً وصلنا النجع، ورحبوا بنا كثيراً، وقام بعض أعوان القائم مقام بنصب الخيمة البيضاء التي كانت بمثابة صالون للضيوف، وقُدم لنا اللبن الحامض والتين المجفف، واستعد آخرون لإعداد الشاي وتناول غداء شهي، واسترحنا قليلاً من شدة الإعياء.

308 **نجع الشيخ نوح:** تبادلت النظرات مع قرصع، ولسان حالنا يقول أين نحن من المهمة التي جئنا من أجلها ؟علمنا أن القائم مقام غائب، لأنه كان يتفقد أغناما له قريبة من الحدود التونسية، ولكن أخاه كان معنا ومعه أعوانه وكلهم استعداداً لخدمتنا وبعد التشاور، استقر الرأي أن ننهض، ونتجه شرقاً نحو الطريق العام التي يقال إنها ليست بعيدة، والله أعلم، وهناك نستفيد من سيارة فرنسية لحامية غدامس كانت تفد يومياً عند المساء من غدامس إلى نالوت.

بدأت رحلة جديدة شاقة على الأقدام، ووصلنا الطريق، وجلسنا منهكين على الآفل أنا وقرصع، ومعنا أخو القائم مقام واثنان من أعوانه. طال انتظار السيارة الفرنسية، وقيل ربما مرت قبل وصولنا، كنا بين عصر ومغرب والأفضل مواصلة السير على الطريق نحو نالوت حتى يأتي الله بالفرج، كانت الشمس أقرب إلى الغروب، والجو يبرد، ومصطفى يحرك أقدامه في رتابة وصعوبة، آخر حجر على الطريق كان به 35 كم من نالوت، فاقترح أخو القائم مقام أنه من الأحسن أن نتجه نحو نجع الشيخ نوح، وهو أحد وجهاء نالوت، وصديق القائم مقام، ونبيت عنده، وفي الصباح رباح.

استمر السير، والجميع صامت، وقبل أن نترك الطريق غرباً نحو الشيخ نوح، سمعنا أزيز سيارة خافت ثم اشتد، علّق من معنا أن السيارة الفرنسية قادمة من غدامس.وصلت السيارة ولكنها لم تكن فرنسية، وإنما كانت لشرطة نالوت، وعلمنا ممن كان بها أن مسعود السائق استطاع إصلاح سيارتنا والخروج بها من على الربوة والعودة إلى نالوت، وأخبر السلطات بما حدث، فما كان منها إلا أن أرسلت سيارة الشرطة تبحث عنا، وقد سارت على طريق غدامس نحو 50 كم، ثم قفلت راجعة، ركبناها فرحين بحسن الختام، وصلنا نالوت منهكين واتجه كل منا إلى مأواه. وفي الصباح التالي بعد الاجتماع بجلسبي والمتصرف، تصرف أخو القائم مقام بكفاءة وبسرعة، ومكن جلسبي من التعرف إلى الصوف المنشود، واشترت مصلحة الزراعة أعدادا من الأغنام من نوع القمي أرسلت لنا في سيدي المصري لمتابعة التجارب عليها.

309

## أخي علي والزاوية والعزيزية والأصابعة:

تربطنا بسهول العزيزية رابطة قديمة، نعرف ونحن صغار وكبار، أن لجدي الصويعي سويدان وأخوالي صلة قوية مع قبيلة الرقيعات، وكانت الزيارات متواصلة، وكذلك المنافع، وعلي أخي بحكم إشرافه على نشاط مجموعتنا الزراعي الآخذ في النمو، اتخذ من خالي أحمد مستشاراً ومساعداً له، وواصل في الأثناء التقاليد القديمة في الحرث

بأراضي الرقيعات حول العزيزية كلما سمحت الظروف الجوية، وكمية الأمطار بذلك.

في مكان آخر كان هناك شاب ليبي من غريان اسمه بلقاسم السنوسي، كله حيوية ونشاط وطموح، كان له اهتمام بالزراعة والتجارة، وكان وكيلاً لشركة بيروت الألمانية المنتجة لمواسير الري بالرشاشات، كنا على معرفة به، وأثناء سفره من غريان إلى طرابلس والعكس، لاحظ وعرف أن السهول جنوب العزيزية الفسيحة وجزء منها مزروع زيتوناً لعائلة دي ميكيلي الإيطالية الثرية وجزء تحت تصرف القبائل ومنها الرقيعات، وجزء كبير آخر ضمن مشروع سد وادي الهيرة، الذي سبق الحديث عنه إن هذا الجزء من مشمولات مصلحة الزراعة، فاتصل بها وأجره منها لحرثه على حسابه. وكلف الإيطالي كازيلا بحرثه للمرة الأولى تمهيداً لما بعد نزول المطر، ولكن المطر لم ينزل وضاع الموسم وما تكلفه بلقاسم السنوسي من نفقات.

امتدت نشاطات أخي علي نحو الأصابعة، التي كنت أملك فيها مزرعة شراكه مع آخرين كما قلت في المناسبة السابقة، نشاط أخي علي كان مُنصبا على تربية الأغنام بالتعاون مع الشيخ محمد بن سلامة، وهو من قبائل ورشفانة ومستفيد من مراعي العزيزية تارة، ومن مراعي الأصابعة تارة أخرى، حسب الظروف، وكان على صلة بما يجري في المنطقة، وعلى علم بتجربة بلقاسم في سد وادي الهيرة، وعلمه أيضا أن بلقاسم لا يريد تكرار التجربة.

310 **علي ووادي الهيرة:** تقدم علي لتأجير سهل وادي الهيرة، من السلطات المختصة، وتم التعاقد، وحصل على كمية كبيرة من الشعير الزريعة بأسعار مدعومة مشجعة، ومن حسن الحظ، كانت السنة خصبة، أمطارها كافية وسال وادي الهيرة، وروي جزء من السهل، والأرض كانت محروثة السنة السابقة دون أن تبذر، كانت بوراً، فتوفرت كل الظروف لمحصول ممتاز غير اعتيادي من الشعير.

حل موسم الحصاد، وكان أمام أخي علي طريقتان، الاستفادة من حصادات ودراسات شركة كازيلا الإيطالية مع ضياع التبن، أو الحصاد بالطريقة القديمة التقليدية وبتكويم الشعير سنابل، ثم درسه بالَدرّاسات، و حزم التبن في (بالات)، وفضل علي الطريقة الثانية رغم مشقتها. حر الصيف في العزيزية شديد، والمساحة المزروعة كبيرة تحتاج إلى أعداد كبيرة من الحصادين ومساعديهم، وإن كانت العمالة الموسمية متوفرة في تلك السنوات.وتكونت من أخي علي وخالي أحمد والشيخ محمد بن سلامة قيادة وغرفة عمليات جنّدت الأفراد وكونت منهم فرقاً، وهيأت سبل إمدادهم بمياه الشرب والإيواء والتموين المناسب، كانت حملة منظمة ناجحة مازال صداها يتردد بين من عاصرها، وتضرب بها الأمثال.

عقب جمع المحصول بنجاح، وبيعه إلى السلطات على طريق الكونسور اغراريو( الجمعية التعاونية الزراعية ) بأسعار مشجعة، كان الصراع مع السلطات البريطانية حول ضريبة العشر، أخي علي لم يبذر كل كمية الشعير التي حصل عليها بأسعار مدعومة، وباع جزءاً منها في السوق الحرة بأسعار مجزية واستفاد من الفرق في تمويل الحملة، وكان يرغب من مصلحة الضرائب أن تقوم بتقدير ضريبة العشر على المساحة المزروعة بالطريقة التقليدية عن طريق لجان خاصة لذلك يمكن التفاهم معها.الإنجليز لم ينخدعوا، ولم يناقشوا علياً في الكمية المشتراة والكمية المزروعة فعلاً، واكتفوا بأن اعتبروا أن جميع الكمية المشتراة بُذرت، وأن إنتاجها في سنة غير اعتيادية في سهل العزيزية كان كذا كذا مثل الزريعة المبذرة، وضريبة العشر هي حاصل هذه العملية الحسابية البسيطة ولا تحتاج إلى لجان تقدير،ولا لمن يتفاهم معها. حاول أخي علي عبثاً تعديل منطق المسؤول الإنجليزي عن تقدير الضريبة، ولكن دون فائدة، وخضع أخي علي، وسدد الضريبة كاملة كما أرادت مصلحة الضرائب، ومع هذا كان الخير وفيراً.

311 **زيارة وفد زراعي إلى تونس:** عُين ضابط سابق فرنسي مندوباً لمؤسسة فاو للأغذية والزراعة التي تكونت حديثاً و المنبثقة عن هيئه الأمم، فرأى أنه من واجبه أن يقترح قيام وفد من مزارعي طرابلس بزيارة إلى تونس لمشاهدة

ما تم فيها من عمار في المجال الزراعي البعلي بفضل المجهود الفرنسي، مع الاستفادة من التكنولوجيا العالمية. تكوّن وفد من الدكتور قويدوتي رئيس قسم البحوث في مصلحة الزراعة، ومصطفى السراج المستشار بالمصلحة والحاج باكير طريش عن المزارعين الخواص، وهو من أعيان تاجوراء، ومن كبار رجال الأعمال في مجال الزراعة وغيرها، وكان كبير السن، وكنا في صحبة مندوب الفاو الفرنسي، كانت رحلة ممتعة، استمتعنا فيها بزيارة الكثير من المزارع في جنوب والوسط التونسي، وكنا ننتقل ونستقبل بكثير من الحفاوة من طرف الفرنسيين، وكانت موائد الأكل التي لا تخلو من العديد من أنواع الجبن المحلي والمستورد من فرنسا. وختمت باجتماعات استقبال من طرف الباي في العاصمة تونس، ومن وزير الزراعة وغيرهم من الشخصيات التونسية والفرنسية، وقد طلب مني الإدلاء بتصريحات لإحدى الصحف، وعلمت فيما بعد عند اجتماعي ببعض الخواص من التونسيين الوطنيين، أن تصريحاتي لم تكن محل استحسان منهم، لأن الرحلة برمتها كانت مبرمجة من المندوب الفرنسي بالتعاون مع كبار المزارعين المستعمرين الفرنسيين في تونس، وفيها طمس متعمد و إخفاء لكل ما هو تونسي صميم ونبيل.

312

**وشتاتة ونبات الهندي:** عند زياراتنا لتونس، شاهدنا أشجارا من الهندي الأملس مزروعة على مساحات من الأرض يستفيدون منها، مقطعة كعلف أخضر للماشية في فصل الصيف، عندما تكون المراعي الطبيعية قد جفت من شدة الحر وانقطاع المطر.وكنت أعرف أن أوراق الهندي ذات الشوك المزروعة على حدود البساتين، كانت تستعمل من فلاحي الواحات لعلف وتسمين الإبل التي لا تتأثر أفواهها بشوك الهندي. الفكرة راقت لي، وقلت لماذا لا تستعمل في ليبيا ونحن أشد حاجة إليها؟ و أثناء زيارتي لحقل التجارب الزراعية في ترهونة، شاهدت مساحة محددة من الأرض حوالي هكتار مزروعة بنجاح بالهندي الأملس كما كان في تونس، فتأكد لي أن التجربة ناجحة عندنا أيضا.

وفي إحدى زياراتي إلى بني وليد عن طريق ترهونة، مررت بسهل فسيح جداً اسمه وشتاته، وعلمت أنه تابع لمتصرفية ترهونة، وأنه ضمن مراعيها،

والمساحة بين ترهونة وبني وليد كانت في ذلك الوقت فارغة، ولا معالم مدنية بها.

فكرت في أن مصلحة الزراعة تقوم بالتعاون مع متصرفية ترهونة بحفر بئر وتزويدها بجهاز لرفع الماء بالمراوح الهوائية التي تدار بحركة الرياح، وتبنى بقربها مبنى بسيطُ للغفير والمسؤول عن تشغيل البئر،وبجانب البئر أحواض لسقي الماشية من أغنام وغيرها، وقريباً منه تزرع مساحة من الهندي الأملس التي لا تحتاج إلى عناية كثيرة، ويحرسها غفير البئر من العبث بها، وإذا نجحت الفكرة تعمم وتكون حافزاً للخواص من مربي الأغنام بغرس مثلها على أراضيهم.

كنت أعتقد أن الفكرة بمجملها بسيطة ومفيدة وغير مكلفة، تفسح المجال لتطورات أخرى، وسوف تعمم، وتقابل بالترحاب من الجميع، كنت أعتقد أيضا أن مصلحة الزراعة سوف ترحب بالفكرة وتتبناها، ولكن تجاربي علمتني أن أحسب ألف حساب لموقف السلطات المحلية التي كانت لها اهتماماتها المحلية الخاصة بها والمُلحة، وتجد في اقتراحاتي أو اقتراحات مصلحة الزراعة خروجاً عن المألوف، فتعارضها أو على الأقل تصرف النظر عنها وتهملها.

313 **مشاغل ترهونة:** ولذا رأيت في إحدى المرات، وكنت في ترهونة أن أتحدث مع المتصرف الإنجليزي في الموضوع، وأكسبه إلى جانب فكرتي، فكرة زراعة الهندي الأملس. استمع لي وابتسم بطريقة مؤدبة، وقال فكرة طيبة، سنهتم بها في الوقت المناسب.

وكان في ترهونة شاب مصري اسمه كامل جورج، يعمل مترجماً لدى المتصرفية، وكان نشيطا، وبحكم عمله، وعدم معرفة السكان للغة الإنجليزية، وللروتين الإداري، كان مهيمناً على المتصرفية وعلى المتصرف، وكان على اتصال بالأفراد وحتى الزعامات المحلية، وكان حلقة الوصل بينها وبين المتصرف الإنجليزي، فأعطى لنفسه وزناً إضافيا على وزن مجرد مترجم. اجتمعت به وكانت تربطني به علاقة طيبة، ويحترمني، وحدثته هو أيضا في موضوع الهندي الأملس،

فانفجر ضاحكاً وقال، ما هذا يا مصطفى بيه ؟ إيه الهندي الأملس ؟ وإيه وشتاته ؟ وإيه الرعاة ؟ إحنا فين وأنت فين ؟ ألم تسمع أن موضوع المستعمرات الإيطالية سيبحث بين الحلفاء قريباً، وأن المياه السياسية الراكدة حتى الآن صارت تتحرك على عدة مستويات ؟ ونحن في ترهونة في حالة استنفار، نرقب الحالة عن قرب. هناك زعامات محلية استفادت من الفراغ السياسي ونبتت، مثل أبو بكر أبو نعامة وغيرهم، نبتت مثل الهندي، ولا ندري هل هي من النوع الأملس، أو ذات الأشواك، وأخذت تنمو ولا ندرى أكان هناك من يرعاها، لا ندري شيئاً، ونريد أن نعرف. هناك طلائع عائلات ترهونة ذات النفوذ السابق والمهاجرة في مصر، مثل عائلة المرّيض، والنعاس، صارت تعود إلى أصلها، وتبحث عن أنصار تمهيداً لعودة الرؤوس الكبيرة مثل الطاهر المرّيض وعبد السلام المرّيض وغيرهم، ولا نعرف كيف يكون اندماج المهاجرين العائدين من مصر في المحيط سلمياً، أو عنيفاً، والسلطات العليا البريطانية لم تتخذ موقفاً واضحاً يسهل علينا نحن الموظفين المحليين معرفة الاتجاه الذي نتحرك فيه، وأنت بابيه،تحدثني عن أهمية الهندي الأملس، وإمكانية تعميمه على كل ليبيا والعالم العربي. وعاد إلى الضحك وضحكت أنا أيضا بطريقة عفوية، ويقال إن الضحك يثير الضحك، واستعدت توازني، وقلت إذا نؤجل الموضوع، فقال أجل.....أجل....أنت فين و إحنا فين.....

كنت أعرف كما يعرف كامل جورج أن المياه السياسية الراكدة صارت تتحرك، و لكنني لم أهتم بها كثيراً، ولم أتفاعل معها، و سأعود لهذا الموضوع قريباً.

314 **النفط في أحد الآبار:** في أحد الأيام، كنت في مكتبي بسيدي المصري، أفادني البواب أن أحد المواطنين يريد مقابلتي، فأذنت له بذلك، واستمعت لما يريد. قصته أنه من خلة الفرجان، وهي على بعد نحو 10 كم من طرابلس، بين المدينة وبن غشير، وله سانية بها بئر غير عميقة، واليوم شم رائحة نفط حول البئر، ورأى طبقة من النفط على سطح الماء. فاستغرب، وجاء يجري مستنجداً بالزراعة. حكاية غريبة حقاً. استدعيت المهندس فيالي أخصائي المياه، ومكتبه غير

بعيد عني، وأخبرته بالموضوع، فاندهش واستغرب هو أيضا، فقمنا في الحال في سيارة ومعنا الفلاح، واتجهنا إلى الموقع. سانية متواضعة وسط الكتبان المعشوشبة، بئرها شبه مهملة، ورائحة وطبقة النفط موجودة فعلاً على الماء، زادت حيرة فيالي، وصار يفكر بصوت عال، النفط في ليبيا لم يعثر عليه حتى الآن، وكانت هناك محاولات من طرف أستاذ إيطالي كبير أخصائي في مجال النفط، اسمه ديسو للبحث عن النفط، لشدة احتياج إيطاليا إليه. ولكن المحاولة فشلت، لأن النفط إن وجد يكون في أعماق بعيدة، وإيطاليا ليس لديها في ذلك الوقت التكنولوجيا والمعدات اللازمة، وكانت مكلفة. إذا فوجود نفط بهذه الطريقة محير حقاً،ثم لاحظ أن النفط الخام لونه أسود ثقيل، بينما النفط الموجود في البئر الذي أمامنا هو نفط مكرر، وعندما أخذ عينة منه تبين أنه بنزين. فرجع فيالي إلى مصلحة الزراعة، وعاد بمضخة، وسحب الماء الذي كان في البئر حتى جففه، وطلب من العمال الحفر في قاع البئر، وكانت المفاجأة، وجدوا صفيحة معدنية من الصفائح التي كان يستعملها الجيش الألماني زمن الحرب، كانت مليئة بالبنزين، ومطمورة في البئر، ألقى بها أحد ما والله أعلم في أي ظروف، وبقيت كل هذه المدة، ثم حدث بها ثقب بسبب الصدأ والتآكل، وتسرب البنزين منها، وطفا على السطح. إذا عرف السبب، زال العجب.واطمأن الفلاح على سلامة بئره، وعدت مع فيالي إلى مصلحة الزراعة، وأخبرنا مديرها بما حدث، و.فيالي يحدثنا عن محاولات البحث والكشف عن النفط التي عاصرها أثناء الحكم الإيطالي، و التي لم تؤد إلى شيء عملي، ولو أنه خرج الغاز المصاحب للنفط السائل من بعض الآبار التي حفرت فعلاً، و إحداها كان قريباً من سيدي المصري. ولا أحد منا كان يعرف أو يتنبأ بما ستكشف عنه الأيام من نفط غزير في ليبيا.

## 315 الشيخ علي الغرياني والخيول العربية:

زارني في أحد الأيام الشيخ علي الغرياني في مكتبي بمصلحة الزراعة بخصوص نشاط زراعي له لا أذكر كثيراً عنه الآن. والشيخ علي الغرياني من كبار العلماء في ذلك العهد، وكان مشهوراً في كل الأوساط، معروفاً بالتقى وحسن السيرة، والعلم الغزير وخصوصاً

في الأوساط الشعبية، وفي مناسبات إلقاء الدروس الدينية خلال شهر رمضان في مساجد مدينة طرابلس. لقبه الغرياني لكنه كان يقيم في تاجوراء مع عائلته الكبيرة. وكان عندي أثناء زيارته مصور إيطالي بآلاته الفوتوغرافية، استدعيناه لأخذ بعض الصور للخيول العربية، ومناظر أخرى تنشر في إحدى المجلات المتخصصة.اصطحبت الشيخ علي معنا إلى حيث الإسطبلات، ولاحظت أنه كان مسروراً بذلك، وعند اختيار أجمل الخيول العربية وأنشطها، اشترك معنا الشيخ علي الغرياني في الاختيار، وعندها برزت أوجه الشبه بين مخلوقين، الحصان العربي الأصيل، بكل مميزاته، والشيخ علي الغرياني بتقاطيع وجهه العربي الأصيل، وعِمته وجرده الأبيض الجميل، ولاحظت أنه تفاعل مع المناسبة، وتخلى عن بعض وقاره المتميز، فتجرأت، وطلبت منه الإمساك بلجام أحد الخيول التي أعجب بها، وأخذت له صوراً من زوايا مختلفة، واحتفظت بتلك الصور بِنية أن أعطي نسخاً منها إلى الشيخ الغرياني، ولكن المناسبة لم تتح لي، وبَقِيت الصور، وإن كنت لا أدري الآن أين هي، وربما تظهر في يوم ما.

316

**دبابات الإنجليز وزرع الأهالي:** في فصل الربيع كانت تتكرر شكاوي المواطنين القريبين من مدينة طرابلس وضواحيها، السوانى، بن غشير، وادي الربيع، تاجوراء، من أن دبابات الجيش الإنجليزي أثناء القيام ببعض التدريبات تتلف زرعهم، وكان في نظر الإنجليز ونظر دباباتهم أنه لا فرق بين الزرع وبين الأعشاب الطبيعية التي تزدهر بها الطبيعة في مثل هذا الفصل. ولكن الأمر يختلف بالنسبة للأهالي، فالزرع هو شعير بالنسبة لهم، في الغالب قاموا ببذره على الأمطار في الخريف، وانتظروا طويلاً كل هذه المدة، وهم يبتهلون أن تمطر السماء، والآن وقد نما وترعرع، وبدأت سنابله تظهر وتطول، يأتي الإنجليز بسياراتهم ويتلفونه، إنها مأساة حقاً، كنا نكوّن لجاناً بها خبراء في الزراعة ومن المتضررين، ونحدد حجم الضرر، وكان الجيش الإنجليزي يدفع التعويض.

**317** **غزو الجراد وغزو الفئران:** غزو الجراد الصحراوي من الأخطار التي تواجه الزراعة في شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وتكررت مرتين خلال الفترة التي عملت بها بمصلحة الزراعة، وأتلفت مزارع بكاملها وخصوصاً في منطقة العزيزية، ونظمت مصلحة الزراعة حملة ساهم فيها سكان المنطقة المهددة بحفر خنادق وطمر صغار الجراد بها، ونثر النخالة المسممة في طريق أسراب الجراد فتأكلها أثناء سيرها وتموت، وكان بعض السكان يجمعون الجراد بكميات كبيرة ويشوونه أو يطبخونه على النار مملحاً ويحفظونه ويأكلونه بشهية، وقد أكلت منه، ورغم ما يحدث عند البعض من تقزز واشمئزاز فهو لذيذ.

كما غزت المزروعات أعداد كبيرة من الفئران تختلف عن فأر البادية الصغير، ويقال إنها دخلت البلاد مع شحنات الشعير المستورد في سنوات الجفاف وقد اعتاد البدو طمر محصولهم الزائد على حاجتهم من الشعير في حُفر تغلف بالتبن وتغطى وتردم، والحفرة تسمى عادة عقلة ومطموراً. وتفشت الفئران، وتوالدت بكثرة في بعض السنوات، وفي المناطق التي بها مطامير الشعير، وأتلفت الكثير منه مما جعل مصلحة الزراعة تهتم بالمشكلة، وتجند فرقاً من العمال كانوا يوزعون النخالة المسمومة في حفر الفئران للقضاء عليها عند أكلها السم.

**318** **الجمعية الزراعية وتصدير البرتقال:** كان للمزارعين الإيطاليين والعرب جمعية زراعية تعتني بشؤونهم، وكانت تعقد اجتماعات دورية، أحضرها نائباً عن مصلحة الزراعة وقد ترأسها في تلك الفترة السيد الهادي المشيرقي، وكانوا يتوقعون إنتاجا وافراً من الحمضيات. فاستوردت الجمعية بالتعاون مع منظمة الأغذية والزراعة وشركة الكونسورسو آلة لفرز البرتقال وغسله وتلميعه ولفه في ورق خاص بقصد التصدير، ولكن كانت محاولات غير ناجحة، مواد التغليف كانت مستوردة، ومرتفعة الثمن، والأسواق الخارجية تطلب كميات كبيرة من نوع واحد، ومقاس واحد، وكثيراً ما يتعذر على الجمعية تلبية الطلب في الوقت المناسب، الأسعار في الأسواق العالمية، فرانكفورت، زيورخ بروكسل، كانت

متذبذبة، والسداد من المصدر إليه في الخارج للجمعية مؤجل، بينما السداد في الأسواق المحلية وقتي، وتارة يكون السعر أعلى من أسعار الخارج بعد طرح كل التكاليف. ولذا فشلت التجربة، ولا أدري مصير الآلات، وكان للمزارعين إنتاج كبير من الفول السوداني"الكاكاوية" يزيد على الاستهلاك المحلي، ويقوم الكونسورسو بشرائه وتقشيره وفرزه، وتصديره، كما أن تجارته كانت مزدهرة محلياً.

كان بالمصلحة حوالي 10 مهندسين زراعيين إيطاليين، ومصطفى، وكانوا مطالبين بالقيام بمهام خارج المقر وبزيارات ميدانية، والسيارات لدى المصلحة محدودة، والمكلف بالإشراف على توزيعها هو المكتب الإداري، وبه عجوز إنجليزي كان يعمل قبل الحرب في عدن، ومساعده مالطي، اسمه فيرانتي، وكنا نتردد عليه، يطلب كل منا سيارة للقيام بأعمال حقيقية ذات فائدة عامة، وفي أخرى كانت أمور خاصة، أو للهروب من المقر بعيداً عن الرؤساء، وكانت العلاقة بيننا وبينهما دائماً متوترة.

319 **عائلتي:** أثناء عملي في مصلحة الزراعة من سنة 1945 إلى 1952، وقبلها نمت عائلتي الصغيرة، رزقت حسنى في سنة 1944، وبنوري في سنة 1945، وجميلة في سنة 1947، ونجيب في سنة 1950، ورزق أخي علي أبناءه سراج، وفوزي، وفاطمة، وأمينة، وتزوج أخي كمال من ابنة خاله الشيخ احميدة سويدان، وتزوج أخي سعيد من ابنة عمه خيري، وتزوج أخي نجاتي بابنة الشيخ خليل القماطي، أما أخي راشد فاستمر في طلب العلم، عمي نوري عاد إلى منزل العائلة القديم في شارع الزاوية، ورزق من زواجه الثاني أبناءه محمود، وميرة، وليلى، وانتقل عمي خيري إلى منزل في شارع الزاوية أيضا في تقسيم القلالى، ورزق أبناءه رامي، ومنيرة، وطارق.

نشاط الإخوة كبر وتوسع، مجال الزراعة تحت إشراف وإدارة أخي علي مزدهر، والتجارة تحت إشراف إخوتي كمال وسعيد ونجاتي نشطة، تولّد عن دكان جامع السنوسية دكان في باب الحرية بمبنى الضرائب. وتولّد من الاثنين متجر

كبير للقرطاسية بشارع عمر المختار، وعُرف المتجر الجديد "بمكتبة السراج"، وقد اخترنا مجال القرطاسية، لأنه مجال جديد بالنسبة للعرب، حيث كان محتكراً من الإيطاليين واليهود. والمكتبة جمعت كل أصناف القرطاسية المدرسية، وقرطاسية المكاتب، وكَبُرت بسرعة، وصارت أهم وأكبر مكتبة في البلاد، معروفة عند القاصي والداني، تردد عليها آلاف الأفراد من الصغار والكبار وكانت تُذكر بشيء من التقدير حتى بعد إقفالها بسنوات عديدة.

اشترينا مزرعة بمنطقة القرابولي، مساحتها 180 هكتاراً من أحد الإيطاليين، وحفرنا بها بئراً عميقة ارتوازية، تتدفع منها مياه غزيرة ساخنة ذاتية بدون آلة، بها نسبة بسيطة من معدن الكبريت والحديد، ورغم ذلك فإنها صالحة للزراعة. وكانت أول مزرعة نملكها، ورغم بعدها 47 كم، كانت موضع اهتمامنا عائلياً، ثم اشترينا مزرعة أخرى صغيرة 20 هكتاراً في منطقة الميامين، بين السوانى و العزيزية، مشاركة مع الصديق مختار العالم، و أخيرا اشترينا مزرعة كبيرة مساحتها 350 هكتاراً في منطقة جودائم، وتم التصرف بالبيع بمزرعة القرابولي والميامين وبقيت مزرعة جودائم.

320 **الوضع العام عالمياً:** الوضع العام في هذه الفترة، وأثناء عمل مصطفي في مصلحة الزراعة، من سنة 45 إلى 52، حصلت أمور سياسية عالمية هامة، انهزمت إيطاليا قبل سنتين تقريباً، وفقَدت ليبيا واحتلها الحلفاء. من هم الحلفاء ؟ هم الإنجليز والفرنسيون والروس والأمريكان. فرنسا انهارت منذ بداية الحرب، واحتلها الألمان، روسيا صارعت القوات الألمانية التي كانت تكتسحها بضراوة، والإنجليز بعد احتلال ليبيا، وبعد أن سيطر الأمريكان على بقية شمال أفريقيا، نقلوا ميادين الحرب إلى إيطاليا نفسها، وهزموها في سنة 1945. وانقلب الطليان على زعيمهم موسيليني وقتلوه، وانضموا إلى صف الحلفاء يحاربون الألمان حليفهم السابق في إيطاليا نفسها، وأبرموا الصلح مع الحلفاء سنة 1947، وغيروا نظامهم من ملكي إلى جمهوري، وصاروا يأملون في معاملة لينة من طرف الحلفاء بعد انتهاء الحرب ولو باسترجاع جزء من مستعمراتهم السابقة ليبيا،

أو حتى إقليم طرابلس مثلا، وانتصرت روسيا على ألمانيا، وضيق الروس والإنجليز والأمريكان الخناق على ألمانيا وهزموها ومات زعيمها هتلر، وبقيت الحرب مشتعلة ضد اليابان، وتغلب عليها الأمريكان بعد أن استعملوا أحدث سلاح، القنبلة الذرية.

المشاكل في العالم متواصلة وتارة تواجه سلما، وتارة حربا. باستسلام العدو انفتحت أمام الحلفاء ملفات عديدة، منها ملف مصير المستعمرات الإيطالية السابقة، وملف معاملة إيطاليا نفسها كعدو سابق، أو كصديق جديد، ومنها ملف إعمار انجلترا المخربة، ومنها ملف بعث الروح في فرنسا، ومنها طريقة التعامل مع الألمان المنهزمين وتحويلهم إلى تابعين وأصدقاء، والأهم في نظر تشر شل زعيم انجلترا زمن الحرب هو نوع التعامل مع روسيا الشيوعية الحليف السابق.

تشرشل استقر رأيه على أنه من مصلحة الإنجليز وبقية الحلفاء، وكان نظامهم السياسي ديمقراطياً يعتمد على الاقتصاد الحر، من مصلحتهم عدم الاطمئنان لروسيا التي بعد أن انتصرت على الألمان، سوف تعمل على نشر نظامها الشيوعي، وتسيطر به على العالم؛ ولذا أعلن أن المعركة الساخنة مع دكتاتورية هتلر انتهت، ولكن بدأت حرب من نوع آخر، أسماها الحرب الباردة ضد روسيا الشيوعية. وقُسم العالم إلى كتلتين، روسيا ومن معها، والعالم الحر، انجلترا والأمريكان ومن معهم، وفلسفته تعتمد على نظرية أن السلام التام يتبعه اطمئنان تام، وبعد الاطمئنان استرخاء، وبعده ترهل في الجسم والفكر، وبعده الانحطاط، وبعده الانحلال، وبعده فناء؛ ولذا كان من مصلحة انجلترا ومن معها إيجاد عدو جديد من نوع آخر بدل هتلر، وليكن ستالين ومعه روسيا والعالم الشيوعي، وصار يدعو الشعوب الحرة المنهكة من الحرب، وكانت ترغب في السلام التام، دون اكتراث لما ينتج عنه من كوارث وأزمات، كان يدعوها إلى التكتل، و التحدي، وخوض حروب من نوع جديد، حروب إعمار في الداخل يحتاج إلى الكثير من التقشف والصبر والتضحية، وحروب باردة ضد روسيا في الخارج، وتجاوبت معه أمريكا وشجعته، واستطاعت الشعوب بفضل سياسة تشرشل، أو بفضل طبيعتها، أو بفضل المساعدة الأمريكية، أن تنهض وتبني ما خربته الحرب، نهض الإنجليز

وعمروا، ونهض الألمان وعمروا في ظروف قاسية جداً، وبسرعة فائقة، ونهض الروس واليابان أيضا.

321 **الخلاف على مصير ليبيا:** أعود إلى ليبيا المرتبط مصيرها بمصير المستعمرات الإيطالية السابقة، اجتمع كما هو مقرر الحلفاء سابقاً، وهم الآن غير حلفاء، هم كتلتان، حر وغير حر، شيوعية وغير شيوعية، لا خلاف بينهم على الحبشة وقد عادت دولة مستقلة، على رأسها ملكها المطرود سابقاً، ولا خلاف على مصير الصومال وإريتريا، فقد تقرر وضعهما تحت وصاية الأمم المتحدة. وبقيت ليبيا المهمة بموقعها على مسافة غير بعيدة من أوروبا، جنوب البحر الأبيض المتوسط، وفي هذه الأثناء تكونت حركة شيوعية نشطة في إيطاليا، تناصر روسيا وتناصرها.

أمريكا، وإنجلترا، يدعمان أحزاباً أخرى في إيطاليا، و يسعيان لكسب إيطاليا إلى صفهما مع العالم الحر بمختلف الوسائل، منها الدعم المادي، والقروض، وحتى التلويح بإمكانية إرجاع ليبيا، أو إقليم طرابلس إلى إيطاليا بوضعها تحت وصاية هيئة الأمم التي بدورها توكل إلى إيطاليا القيام بمهمة إعداد ليبيا للاستقلال خلال سنوات محدودة، وحكاية الوصاية هذه كانت طبقاً شهياً، الكل يسعى إليها حتى روسيا، واجتمع الحلفاء السابقون العديد من المرات واختلفوا العديد من المرات، ولم يكن منهم إلا إحالة الموضوع على هيئة الأمم المتحدة، كل ذلك وبرقة تحت الإدارة البريطانية، وطرابلس تحت إدارة بريطانية أخرى، و فزان تحت إدارة فرنسية، وكان لأمريكا قواعد جوية في إقليم طرابلس. وصارت ليبيا مادة للحرب الباردة بين الكتلتين، روسيا ومن معها، وأمريكا ومن معها.حكومات العالم العربي كانت مع العالم الحر وإن لم تكن حرة، كانوا تحت نفوذ انجلترا و فرنسا.

322 **توارت بريطانيا العظمى وبرزت أمريكا:** حكومات العالم العربي كانت مع العالم الحر، وإن لم تكن حرة، كانوا تحت نفوذ انجلترا وفرنسا وكانت أمريكا زعيمة للعالم الحر، وكانت قوية اقتصادياً وعسكرياً وسياسياً،

اشتغلت مصانعها بكل طاقاتها لإمداد حلفائها في كل مكان بكل ما يحتاجونـــه فـــي معارك إعمار ما خربته الحرب، ولم تكن لأمريكا مستعمرات، وكانت تبدو في نظر الشعوب طاهرة نقية بالمقارنة بالمستعمرين الإنجليز والفرنسيين والطليان. وحيــث إن أمريكا لم تتورط بعد بشكل فاضح في مناصرة الـــصهيونية و أطماعهـــا فـــي فلسطين، كان الرأي العام في العالم العربي يرى فيها حامياً أو شبه حامٍ لنفسه مـــن المستعمرين الإنجليز والفرنـــسيين، ومـــن خطـــر الـــشيوعية الفكـــري والـــديني والاقتصادي. وكانت مصر أكبر الدول العربية، ومقر الجامعة العربية في القاهرة، وكانت قواعد الإنجليز على قناة السويس، وكانت مصر بمن فيها جـــارة ملاصـــقة لليبيا، يهمهما بشكل مباشر مصير ليبيا.

323

## إحباط وانفجار:

الليبيون كانوا كلهم زمن الحرب يحلمون بالتخلص من استعمار إيطاليا المباشر بفضل انتصار الحلفاء، وغذّت إذاعة لندن ببراعة هذا الشعور، ولكن بعد الاحتلال الإنجليـــزي مباشـــرة، عـــرف الليبيـــون أن الجـــيش الإنجليزي كان جيش احتلال، لا جيش تحرير وأن مـــصير ليبيـــا ســـيتقرر فيمـــا بعد،وكانت صدمة جديدة لهم سببت لهم إحباطا دام سنوات، ولكنهم كانوا أو علـــى الأقل الصفوة منهم يقظين جداً يرصدون ما يقال عنهم، وما يدبر لهم فـــي الـــداخل والخارج، وكانوا في قلق شديد غير مطمئنين، والاحتمـــالات كلهـــا جـــائزة مـــن إرجاعهم تحت وصاية إيطاليا أو غيرها، وهو في النهاية استعمار ملطف، أو تحت وصاية إنجلترا مع برقة، أو بدون برقة التي ربما تستقل بزعامة الـــسيد إدريـــس السنوسي، أو تحت وصاية مشتركة بين أمريكا وإنجلترا وفرنسا، وربمـــا يـــضاف إليها مصر، وكان يسمع صوت المنادي بالاستقلال التام بكثير من الاستحياء. يشتد الاهتمام كلما اجتمع الحلفاء لبحث مصير المستعمرات ثم يهدأ، ولكن مع هذا كـــان الرأي العام يتململ ويتحرك، يتابع ما يحصل في العالم العربي، وخـــصوصاً فـــي فلسطين.

وبمناسبة فلسطين أذكر أنَّ أخي نجاتي تحمس وأنضم إلـــى معـــسكر فـــي منطقة القره بولي تحت إشراف أحد أفراد عائلة العاشق صرمان ولا أعرف بتكليف

من منْ، وذلك بغرض التطوع والجهاد في فلسطين وتخليصها من الصهاينة ولكن لم تتمكن مجموعات المتطوعين من تحقيق أحلامها. حيث أتضح أن فلسطين لا تحتاج إلى الرجال وإنما هي بحاجة إلى المال والسلاح، فصارت تجمع التبرعات.

تجرأ الشعب وصار يقوم بمظاهرات احتجاجاً على تصرفات الإدارة البريطانية التي لا تروقه، أو تضامناً مع الشعب الفلسطيني وصراعه ضد اليهود، وفي يوم من الأيام، انفجر السكان ضد اليهود، وكان عددهم في مدينة طرابلس وحدها حوالي 10 آلاف، وقد سُمع صوت التاجر الحاج الهادي بيزان وهو يصيح في باب الحرية، يا مسلمين ! اليهود قتلوا قاضيكم الشيخ محمود أبو رخيص! وهاجت الجماهير وماجت، واندفعت تخرب وتحرق وتضرب كل ما هو يهودي. وتحركت قوات الأمن البريطانية بسرعة، ولكن الانفجار شمل حتى الدواخل، واستمر طول النهار، وأعلن منع التجول، وألقيت قنابل مسيلة للدموع، واعتقل أفراد عديدون منهم زعامات الحزب الوطني، كمصطفى ميزران، ومحمد خليل، وأحمد نبيه، وعبد الرحمن دقدق، وآخرون من الكتلة مثل الأستاذ علي الفقيه حسن، وأخيه أحمد، والقاضي الشيخ محمود كان حياً سليماً ولم يقتل. وقد أصدرت الإدارة العسكرية البريطانية بطرابلس ونشرت في صحيفة طرابلس الغرب البلاغين الآتي بيانهما:

## 324 بلاغ الإدارة العسكرية البريطانية بطرابلس:

بلاغ رسمي صادر عن الإدارة العسكرية البريطانية بطرابلس

وقعت في مدينة طرابلس حوادث جديرة بكل أسف بين عرب و يهود في ليلة الأحد و يوم الاثنين. وقد أدت هذه الحوادث إلى خسائر في الأرواح وتخريب بالغ في الممتلكات. ويبدو بوضوح أن أعمال العنف هذه كانت عمل عناصر غير مسؤولة وهي كانت في معظم هذه الحوادث من الجانب العربي.

## اعلان رقم ٩٧

انا هوارد مرسر كولونيل - نائب سعادة الوالى - اعلن هنا ما ياتى:

المادة الاولى ممنوع التجول فى منطقة بلدية طرابلس ابتداء من تاريخ هذا الاعلان فى الساعات المذكورة بعد ،

المادة الثانية - ممنوع لاى شخص ان يوجد فى المحلات العامة اوالطرق فى المنطقة المذكورة فيمابين الساعه التاسعة مساء والساعة الخامسة صباحا بدون تصريح كتابى موقع من كبير متصرفى مقاطعة طرابلس او من القائم باعمال السكرتير العام او من رئيس قوة شرطة طرابلس او من الميجر م.ا. مان بالقيادة العامة لمنطقة قطر طرابلس .

المادة الثالثة - اى شخص يخالف احكام هذا الاعلان يرتكب جرما وعند ثبوت ادانته امام محكمة عسكرية يحاكم بالسجن لمدة لا تتعدى خمس سنوات او بغرامة لا تزيد على ٩٦،٠٠٠ ليرة عسكرية او بالسجن والغرامة معا .

صدر في طرابلس في ٥ نوفمبر ١٩٤٥

هـ. مرمعر

كولونيل

نائب والي طرابلس

## بلاغ رسمي صادر من الادارة العسكرية البريطانية بطرابلس

وقعت فى مدينة طرابلس حوادث جديدة بكل اسف بين عرب ويهود فى ليلة الاحد ويوم الاثنين . وقد ادت هذه الحوادث الى خسائر فى الارواح وتخريب بالغ فى الممتلكات .

ويبدو بوضوح ان اعمال العنف هذه كانت عمل عناصر غير مسئوولة وهى كانت فى معظم هذه الحوادث من الجانب العربى .

وقد تجنبت الشخصيات من كل الجانبين العربى واليهودى بقوة عزم الاشتراك مع هؤلاء المخالفين للقانون . وقد عبرت هذه الشخصيات الى القائم باعمال رئيس الادارة العسكرية البريطانية عن اسفها الشديد لهذه الحوادث التى لم يسبق لها مثيل فى تاريخ طرابلس حيث كان طابع الصداقة وحسن النية المشتركة متجليا بين العنصرين فى كل وقت .

ان الادارة البريطانية العسكرية تستنكر بشدة هذه الثغرة الاعتدائية على السلام ، وستقضى الادارة عليها بكل ما لديها من الوسائل .

طرابلس - ٥ نوفمبر ١٩٤٥

نائب السكرتير العام

نادل .

بلاغان للإدارة العسكرية البريطانية

وقد تجنبت الشخصيات من كل من الجانبين العربي واليهودي بقوة عزم الاشتراك مع هؤلاء المخالفين للقانون. وقد عبرت هذه الشخصيات إلى القائم بأعمال رئيس الإدارة العسكرية البريطانية عن أسفها الشديد لهذه الحوادث التي لم يسبق لها مثيل في تاريخ طرابلس حيث كان طابع الصداقة و حسن النية المشتركة متجليا بين العنصرين في كل وقت.

إن الإدارة البريطانية العسكرية تستنكر بشدة هذه الثغرة الاعتدائية على السلام، وستقضي الإدارة عليها بكل ما لديها من الوسائل.

طرابلس – 5 /1945/11

نائب السكرتير العام

نادل

## إعلان رقم 97

أنا هوارد مرسر كولونيل – نائب سعادة الوالي – أعلن هنا ما يأتي :

* المادة الأولى – ممنوع التجول في منطقة طرابلس ابتداء من تاريخ هذا الإعلان في الساعات المذكورة بعد.

* المادة الثانية – ممنوع لأي شخص أن يوجد في المحلات العامة أو الطرق المذكورة فيما بين الساعة التاسعة مساء و الساعة الخامسة صباحا بدون تصريح كتابي موقع من كبير متصرفى مقاطعة طرابلس أو القائم بأعمال السكرتير العام أو من رئيس قوة شرطة طرابلس أو من الميجر م.ا. مان بالقيادة العامة لمنطقة طرابلس.

* المادة الثالثة – أي شخص يخالف أحكام هذا الإعلان يرتكب جرما وعند ثبوت إدانته أمام محكمة عسكرية يحاكم بالسحن لمدة لا تتعدى خمس سنوات أو بغرامة لا تزيد على **96000** ليرة عسكرية أو بالسجن و الغرامة معا.

صدر في طرابلس في 5 نوفمبر 1945

هـ. مرسر

كولونيل نائب والي طرابلس

**منع التجول ومشاكله:** أجهزة الراديو انتشرت عند العائلات، والإنسان العربي فضولي بطبعه، والليبي عربي أصيل، يحب متابعة الأخبار الداخلية منها والخارجية، خصوصاً المتعلقة بعيشه اليومي في الداخل.

أمل كثير من الليبيين في أن الأوضاع السياسية داخل بلاده تتحسن بعد زوال الحكم الإيطالي، ويتبعها تحسن ملحوظ في الأوضاع المعيشية الاقتصادية وما يتفرع منها في مجال الصحة والتعليم، ولكن المدة طالت وطالت والتحسن المؤمل لم يحدث، فالإنجليزي هو الحاكم، والإيطالي هو صاحب المزارع الحديثة، واليهودي هو المسيطر على المجال التجاري، والعربي يزاول زراعة بدائية، أو موظف في الإدارة البريطانية، أو أجير عند الطليان وعند اليهود، وفي المجال الخارجي الأخبار سيئة، الدول الرئيسية الاستعمارية انجلترا وفرنسا، انتصرتا في الحرب، وزادت قبضتهما على الشعوب العربية التي تحت نفوذها شرقاً وغرباً، وزادت قسوة كلما حاولت هذه الشعوب التخلص منها، وحكامها الضعفاء والمفروضون فرضاً يحاولون استرضاء الشعوب تارة، والدول الأجنبية المسيطرة تارة أخرى، ولا هذه راضية ولا تلك. وزاد الأمور توتراً ظهور اليهود الصهاينة على المسرح في فلسطين، ومحاولاتهم المستمرة والمكشوفة لابتلاعها.

كل هذه الأمور تراكمت، وضغطت على شعور الناس وإحساسهم، الذي انفجر مع أول شرارة كما قلت، وكان الهياج والانتقام من اليهود.

قلت في الفقرة السابقة: إن الأمن اختل، والسلطات الإنجليزية أعلنت منع التجول في المدينة وضواحيها.

كنت موظفاً في مصلحة الزراعة، وكنا مؤجرين لمزرعة في الهضبة الخضراء، وأخي علي كان يشرف عليها، ويصرف أمورها.

في مساء ذلك اليوم، وكنا في فصل الخريف، توجهت إليها وحدي مستعملاً السيارة العامة، وركبت الحافلة من أمام المستشفى الرئيسي لشارع السيدي، ونزلت أمام المزرعة التي تبعد حوالي كيلومترين خارج باب بن غشير.

بعد تصريف بعض الأمور أخذت بعض اللبن إنتاج المزرعة في أربع قوارير لاستهلاك العائلة، واتجهت إلى مدخل المزرعة أنتظر الحافلة لكي أعود بها إلى منزلي. انتظرت فترة والحافلة لم تقدم، ربما كان بها خلل، فتوجهت ماشياً نحو باب بن غشير متوقعاً أن الحافلة ستقدم وأستفيد منها في بقية الطريق.

حين وصلت إلى باب بن غشير، كانت الطريق خالية من المارة والسيارات، فاستقبلتني مجموعة من الشرطة أعرف معظمهم، محيين ومستغربين وجودي في مثل هذه الساعة، استفسرت عن تأخير الحافلة، فكان جوابهم، أي حافلة ؟ صح النوم! ألم تسمع بمنع التجول !قلت حسب علمي منع التجول لم يحل بعد والآن الساعة الثامنة والنصف، فعلمت منهم ما كنت أجهله وهو أن الأمور ساءت أكثر، فقدمت السلطات موعد المنع إلى الساعة السابعة، وحاولت استئناف السير إلى بيتي الذي يبعد حوالي كيلومتر، فمُنعت بلطف من الشرطة، بحجة أني كنت أتجول في وقت محظور فيه التجول، ورافقوني إلى المخفر القريب، وهناك استقبلني رئيس المخفر، وكنت أعرفه أيضاً مستغرباً ومتأسفاً لأنه مضطر لمعاملتي كبقية المخالفين لمنع التجول الذين صاروا يفدون إلي المخفر، وقدم لي كرسياً، فجلست حتى منتصف الليل، وقد تجمع مثلي حوالي خمسين شخصاً.

لم يكن لي خيار، فاستسلمت للواقع، وكان ما لم يكن في الحسبان، كان رئيس المخفر بجنب جهاز الهاتف يسمع ويرد على فترات، وبعدها أصدر أوامره.

326 **ليلة في السجن:** أخذونا مشياً على الأقدام محروسين، إلى السجن المركزي القريب جداً من المخفر، وهنالك بدأت إجراءات دخول السجن بالكامل، ولم أكن أعرفها، فسلمت كل ما كان معي حتى خيوط الحذاء، وسجلت في محضر، وتوجهوا بنا إلى عنبر كبير، وأذكر أن مدير السجن، وهو ضابط كبير من الشرطة، وأخ للضابط عبد السلام الكتاف، المعروف في الأوساط المدنية والسياسية، اعتذر لنا بقوله : اعذرونا يا جماعة مجيئكم في موعد غير معتاد يجعلنا غير قادرين على توفير الحصر والبطاطين لكم الليلة، وسيكون ذلك غداً إن شاء الله.

وحذرنا شرطي من الاستناد على الحوائط لأنها دهنت بمحلول الجير منذ مدة وجيزة، وتبين أنه كان يخشى على الجير لا على ملابسنا.

معظم المجموعة كانوا من العمال المرهقين، والساعة كانت حوالي الثانية ليلاً، فافترشوا أرضية العنبر الأسمنتية وناموا، إلا أنا فبقيت حائراً، رغم أني كنت مرهقاً مثلهم، كيف أنام وأنا ببدلتي الأوربية، وكيف أنام على الأرضية عارية، فقررت عدم الجلوس وعدم النوم، وأخذت أتجول في العنبر الكبير، فعثرت على ربطة من الحلفاء مرمية على الأرض، فضربتها بقدمي مثل الكرة، فانتشرت على الأرض، وكأنها تدعوني للجلوس عليها، وقد فعلت، ثم وجدت نفسي مستلقياً أرضاً مثل غيري، واستغرقت في نوم لذيذ، حتى أيقظنا الحارس، وهو يفتح الباب الحديدي في جلبة، ويقدم إلينا سائلاً يغرف من سطل كبير، وكان يسمى ذلك السائل الأسود قهوة، وبدأنا يوماً جديداً، وتعرف علي أحد الحراس، وكان جاراً لنا، هو زوج إحدى بنات محمد الصُخرة، فطلبت منه أن يخبر العائلة بوضعي في أقرب فرصة، وبقيت مع الرفاق ننتظر تزويدنا بالحصر والبطاطين، ولكن الأمور سائرة في اتجاه آخر.

علمت السلطات المسؤولة عن الأمن أن السبب في ربكة اليوم السابق كانت تعديل موعد التجول الفجائي الذي أوقع كثيرين من الأفراد في عدم التقيد بمنع التجول عن غير قصد، فتغلبت الحكمة، وتقرر الإفراج عنا.

وسلمت إلينا أشياؤنا كاملة بما فيها خيوط الحذاء، وخرجنا من السجن حوالي منتصف النهار، وكان الغداء مع العائلة والتحدث عن تفاصيل عما حدث مع المهنئين من أقارب وجيران، ورسخت تلك الليلة مع بشاعتها أو لبشاعتها في الذاكرة.

327 **الحركات السياسية:** قلت: إن الرأي العام العربي في ليبيا لم يكن مستريحاً، فهو غير مطمئن لما يسمع ويرى، الإيطاليون مستقرون في وضعهم مازالوا في المزارع والورش، والوظائف كما هي الحال زمن الحرب أو تقريباً،

ويسمعون من الإذاعات، أن إيطاليا تسعى إلى العودة إلى ليبيا، ويقلقـون ويتحـول القلق إلى مظاهرات احتجاجاً على إمكانية عودة إيطاليا، وعلى تعاطف السلطات مع الإيطاليين، وكانت أولاها في شهر 8/ 1943، وتأخذ المظاهرات تارة شكلاً عملياً عنيفاً، تجلى مرة في تحطيم اللافتات الرخامية المثبتة على الجدران، والتي تحمل أسماء شوارع المدينة بأسماء إيطالية من زمن الفاشيين، ومن بين الـشباب النـشط الذي قام بهذا العمل عبد المجيد المشيرقي الذي أُوقف من طرف السلطات وعُوقب وكان ذلك في 7 /1943/10.

كان النادي الأدبي الذي رخص له بالعمل في 30 /1943/7 المكان الوحيـد الذي يجتمع فيه المثقفون، وانبثق عن النادي الحـزب الـوطني، يرأسـه الحـاج مصطفى ميزران، ثم ظهرت الكتلة الوطنية، ويتزعمها الأستاذ علي الفقيه حـسن، ثم حزب العمال، وحزب الأحرار، ثم حزب الاتحاد الليبي المصري، وبعـد ذلـك ظهرت الجبهة الوطنية بنية جمع كل هذه الحركات السياسية فـي جبهـة واحـدة، ولكنها لم تتجح إلا في ضم الحزب الوطني في 4/8/ 1946.كان رئـيس الجبهـة سالم المنتصر،ونائب الرئيس الشيخ أبوالأسعاد العالم المفتي. وكان أمـين سـرها الصديق الشيخ عبد الرحمن القلهود. الجبهة الوطنية كانت تضم ممثلاً عن اليهـود من عائلة حبيب، باعتبار أن اليهود من الليبيين الأصليين، وحرصاً منها علـى أن تجمع كل عناصر البلاد. وحصل انشقاق داخل الجبهة، لا أعرف تفاصيله، أدى إلى استقالة سالم المنتصر، وحل أبوالأسعاد محله، كل هذه الحركات السياسية كانت سنة 1946، إلا حزب العمال الذي ظهر في سنة 1947 والأحرار فـي سـنة 1948. مصطفى السراج لم ينضم إلى إحدى هذه الحركات، رغم أن أصدقاءه بها، الـشيخ عبد الرحمن، الشيخ أبوالأسعاد في الجبهة، محمد خليل، أحمد الحـصائري، أحمـد قنابة، أحمد نبيه، كانوا من الحزب الوطني. لم يكن مصطفى جماداً، كان مـشحوناً بالإحساس الوطني كغيره ولكنه لم يتجاوب مع هذه الحركات التـي كانـت علـى الساحة،ولا أعرف سبباً واضحاً لذلك. المبادئ لجميع الحركات كانت سـليمة هـي الاستقلال والوحدة، أو الوحدة والاستقلال، والخلاف بينها كان على نظام الحكم أو الزعامات وأسلوب العمل.

328 **الوحدة أو الديمقراطية:** إقليم برقة حدد موقفه بالمجاهرة بإمـــارة السيد إدريس السنوسي على ليبيا كلها، إذا قبلت بذلك طرابلس وفزان فأهلاً وسهلاً، وإلا فإن برقة ستقرر مصيرها منفردة بزعامة السيد إدريس، وتترك البقية وشأنهم.

هذا الموقف المعلن من رجالات برقة، زاد من انشقاق رجـــالات طـــرابلس، انقسموا إلى فريقين رئيسين، فريق يقول إن تحقيق الوحدة أهم من نظام الحكم، وإذا كان رفض السيد إدريس يضيع الوحدة، فلا مانع من القبول بـــه حرصـــاً علـــى الوحدة، ولو أن زعامة السيد إدريس تبدو كأنها مفروضة فرضاً. من هذا الفريـــق كان الحزب الوطني بشيء من التردد، الفريق الثاني يقول إن نظام الحكم يجب أن يكون ديمقراطياً كأحسن الديمقراطيات، وإن نظام الحكـــم لا يفـــرض فرضـــاً، ولا يحتكر من أحد، يقرره جميع السكان بمحض إرادتهم في استفتاء عام أو عن طريق نواب ينتخبون أحرارا بدون ضغوط، ويتزعم هذا الفريق الكتلة الوطنية غير مبالية بما يكون له من رد فعل برقاوي معاكس متصلب مما يزيد الأمور خطورة وتعقيدا.

الأحزاب الأخرى وكانت صغيرة، كانت تنادي بمبادئ سليمة رنانة ولا تدري كيف تحل مشكلة نظام الحكم، وشك كثيرون فيمن يدفع بهذه الأحزاب الصغيرة إلى الساحة واعتبروها عنصر تشويش مدسوساً. الجبهة الوطنية كانت ترى أن الوحـــدة أهم من نظام الحكم، وتقبل بزعامة السيد إدريس، وتخشى أن النزاع حـــول هـــذا الموضوع يضيع الاستقلال والوحدة والديمقراطية.

329 **الجامعة العربية وليبيا:** عاد إلى الوطن أفراد من المهاجرين فـــي مصر وسوريا وتونس، ولكنهم أفراد ليسوا من الوزن الثقيل، ولم يكن لهـــم تـــأثير كبير في توجيه الرأي العام، أو ترجيح كفة على أخرى، في هذا الجـــو المـــشوش والمائع والمربك، أعلن أنه بعد أشهر ستزور لجنة رباعية مـــن الحلفـــاء ســـابقاً، ستزور ليبيا لتتقصى الحقائق مباشرة، وتتعرف على رغبات السكان. وكـــان ذلـــك بالنسبة للجامعة العربية بمثابة ناقوس الخطر.شعر عبد الرحمن عزام باشا أمين عام الجامعة العربية بخطورة الموقف. الحركات الـــسياسية الناشـــئة تأثيرهـــا محـــدود

وجذورها سطحية، والخوف من الدول المشاركة في اللجنة الرباعيـــة، أن تنتهـــز تشتت الآراء في ليبيا، وأن ينشط عملاء هذه الدول في توجيه الأمور فـــي صـــالح الدول نفسها، والخاصة بها، غير مبالية بمصلحة ليبيا وشعبها.

وصار عزام باشا يبحث عن زعيم ليبي في المهجر مـــن الـــوزن الثقيـــل، يستطيع أن يكتل الرأي العام في إقليم طرابلس أولا، ثم في إقليمي برقة وفزان حول مبادئ محددة واضحة دون الانزلاق في مزايدات أو خلافات حول نظـــام الحكـــم، على الأقل في هذه المرحلة.

330 **السعداوي وهيئة تحرير ليبيا:** واهتدت الجامعة إلى الشخـــصية المنشودة، بشير بي السعداوي، وكان مستشاراً للملك عبد العزيز آل ســـعود، ملـــك المملكة العربية السعودية. من أصل مصراتي، ولد بمدينة الخمس 1884، ونشأ بها عاصر فترة الكفاح ضد الطليان في مختلف مراحله، ثم واصل كفاحه في الخـــارج بالإمكانيات المتاحة، وطني من الطراز الأول، لا غبار عليـــه، قـــوي الشخـــصية، مهاب، سيكون له التأثير السحري على الجماهير. يلاحظ أن عزام باشا، عاش فـــي ليبيا فترة طويلة أثناء الحرب ضد الطليان، تعرف إلى العديـــد مـــن الشخـــصيات، ويعرف الكثيرعن القضية الليبية، وملابستها الداخلية وتعقيداتها الدولية، ولم يكـــن مطمئناً لإدريس السنوسي، ويعتبره متساهلاً مع الإنجليز، وكان في ذهنه أن الزعيم الليبي المطلوب في هذه المرحلة يجب أن يكون من وزن معين، يـــستطيع تعبئـــة الرأي العام وتكتله وتعويض النقص في موقف السيد إدريس السنوسي وتعزيزه أو تقويمه إن لزم.

دعي بشير بي السعداوي بعد الاستئذان من الملك عبد العزيز إلى القـــاهرة، حيث مقر الجامعة العربية، وأسست هيئة تحرير ليبيا 3/ 1947، ووضعت الخطة لمواجهة زيارة اللجنة وما بعدها. خصصت له الجامعة مبلغاً محدداً مـــن المـــال، وعينت له مستشاراً سياسياً هو الأستاذ فؤاد شكري من جامعة القـــاهرة، ووضـــع الشعار المناسب للمرحلة. مطالب الليبيين هي الوحدة والاستقلال والانـــضمام إلـــى الجامعة العربية. قدم قبل بشير بي السعداوى إلى طرابلس طلائـــع مـــن حاشـــيته،

الشاب علي المسلاتي والشاب علي المصراتي، وكانا أزهريين، تحمسا للانضمام إلى ركب السعداوي والعمل تحت قيادته. وقد سمعنا لأول مرة صوت الشيخ علي المصراتي من سيارة بها مكبر صوت، ومعه علي المسلاتى، يتناوبان إخبار الجماهير في شوارع طرابلس وأزقتها، بصوت قوي جهور، لم يسمع له الناس له مثيلا من قبل، يبشر بقرب قدوم بشير السعداوي لينقذ الموقف ويجمع الشمل.

331

**عودة السعداوي إلى الوطن:** وجاء بشير بي السعداوي، ونزل في فندق طرابلس بجادة عمر المختار. الفندق الكبير كان متهدماً مهملاً، فندق المهاري مهمل أيضا ويحتاج إلى ترميم. وميزة فندق طرابلس هو أنه موجود وقريب من وسط المدينة الشعبي باب الحرية وما حوله، ثم انتقل بشير بي ليقيم في شقة بمحلة أبى الخير، شارع درنة، للحاج محمد الكريكشى،ثم انتقل بعد فترة إلى فيلا غربي المدينة، أجّرت من الإيطالي ديمايو، وبعدها انتقل إلى فيلا بمنطقة قرقارش لعائلة بن لامين.استقبل السعداوي بترحاب كبير من الأوساط الشعبية التي اعتبرته الموفد من الجامعة ليوحد الكلمة وينقذ البلاد من الفوضى التي وقعت فيها بسبب تعدد الحركات السياسية وما بينها من خلاف. وكان يستقبل في الريف والبادية بالزكار والأهازيج الحماسية المعروفة محلياً "بالمهاجات" وبتسابق الفرسان على خيولهم الذي يعرف "بالميز"، وتنحر الغنم و الإبل ابتهاجا به وتكريماً له، وفي أحياء مدينة طرابلس تفننت الجماهير، وتبارت في ابتكار مظاهر الترحيب، وكان بشير بي يرتدي عندما يكون الطقس بارداً عباءة سعودية فوق البدلة الأوربية، وكانت أغنية شائعة في تلك الفترة مطلعها يا أم العباءة ما أحلى عباتك، فعدلتها الجماهير إلى يا أبو العبايا ما أحلى عباءتك، وكانت ترددها هاتفه راقصة مستقبلة الزعيم المحبوب المبجل. أما الصفوة فقد كان ترحابها بدرجات متفاوتة، من المتحمس جداً إلى الحذر، وكانت مقابلات السعداوي تتم في الفندق أو الشقة حيث يقيم، ثم ظهرت الحاجة إلى مقر. وأجرت شقة في شارع بنغازي وتطل بشرفاتها على جادة عمر المختار، ثم أضيفت إليها شقة أخرى في نفس الدور من المبنى. ورغم تواضعها إلا أنها في مكان مناسب وصارت مقراً لهيئة المؤتمر الوطني العام

الذي ضم الحزب الوطني والجبهة الوطنية وهيئة تحرير ليبيا وجميع الشعب، وأعلن رسمياً في 1949/5/14.

وبدأ الاتصال المباشر بين السعداوي والجمهور بعقد اجتماعات في المحلات والقبائل في مختلف الجهات، وإلقاء الخطب الوطنية الحماسية، كان بشير بي السعداوي طويل القامة، قوي البنية، قريباً من السبعينيات من عمره، يرتدي البدلة الأوربية، والطربوش والنظارات، أنيق مع وقار، أسمر اللون، مهاب الطلعة، بشوش، متحدث لبق، حليم، نادراً ما يغضب، وإذا غضب كان كالبركان المتفجر، بكل صفاته هذه وبما عُرف عنه من ماض وطني مشرف، و بشهادة كل من عرفه وعاصر معه معارك الجهاد ومقاومة الطليان، سيطر على مشاعر الناس على مختلف مستوياتها باستثناء قلة بقيت حذرة خائفة، تعتبره منافساً قوياً لها في كسب تأييد الشعب.

332 **كازرما:** في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين الماضي، عندما كانت هيئة الأمم المتحدة تبحث استقلال ليبيا ووحدتها كان الليبيون مشغولين جداً بهذا الموضوع، وكانوا يتخاصمون جداً حوله.

أذكر الآن أربع شخصيات من ذلك العهد كان لهم حضور بارز بدرجات متفاوتة على مسارح الوطنية والسياسة والخطابة وهم : السيد محمد إدريس السنوسي وعلي مصطفى المصراتي وسالم المنتصر وبشير السعداوي.

والذي يهمنا الآن هو مجال الخطابة، وأسلوب كل واحد منهم، فإذا طلبت من كل واحد منهم النطق بصوت عال بعبارة : " لا أريد أن أرى غير العلم الوطني يرفرف على ربوع هذا الوطن ليبيا "، عند دعوة السيد محمد إدريس يبتسم ويعتذر لظروفه الصحية ويلح في الاعتذار. وتسمع من علي مصطفى المصراتي كلمات منطلقة كالرصاص لها دوي شديد تتحمس لها ولكن سرعان ما تفكر إلى أين يريد أن يجرني أو يدفعني هذا الشاب المصراتي ؟



**الشيخ المفتي، مصطفى السراج، بشير السعداوي، ومصطفى بن عامر 1950**



**بشير السعداوي، أحمد السويحلي، والشيخ عبد الرحمن القلهود 1949**

ثم يجئ دور سالم المنتصر " المصراتي " ومنذ البداية يتعكر مزاجك إن كنت من غير أنصاره وتجدك تصرخ ! أسكتوه يرحمكم الله.

ثم ينهض بشير السعداوي وهو مصراتي أيضاً وقبل أن ينتهي من نطق آخر كلمة من الجملة المقررة، يغمرك شعور لا تعرف ولاتفكر ولا تحاول أن تفسره أو تصفه وتجد نفسك مندفعاً تبحث جدياً عن وسيلة أو حتى سلاح تمكنك أو يمكنك من بلوغ الهدف.

ما هو هذا الشعور العجيب ؟ ما سره ؟ ولماذا ؟

علماء علم النفس والاجتماع يقولون إنه موهبة يودعها الخالق عز وجل في بعض عباده، أعرف أن أجداد الفرنجة القدماء مثل هوميروس وأفلاطون وشكسبير ولا مرتين أسموا هذه الموهبة بكلمة " كارزما " " **CHARISMA** ".

ولا أعرف بماذا أسماها أجدادنا العرب مثل قس بن ساعدة الأيادي وامرئ القيس والنابغة الذبياني أو أخينا الكبير طه حسين، دلوني على ذلك إن كنتم تعلمون.

333 **خطب السعداوي:** كانت محاور خطب السعداوي، أن البلاد مقبلة على معركة سياسية حاسمة، وأن الدول الاستعمارية وعلى رأسها انجلترا بماضيها المخادع، لها مصالح ومآرب كثيرة في ليبيا، ولذا يجب على الشعب أن يكون يقظاً جداً على ألاعيب الدول الكبرى التي ستعمد حتماً إلى أسلوب فرق تسد. ويجب على ليبيا أن تتكتل، وتحافظ على وحدتها بأجزائها الثلاثة، برقة طرابلس وفزان، وأن تنتزع استقلالها انتزاعاً، فالاستقلال هو الحرية، والحرية تؤخذ ولا تعطى، ولا بديل عن الاستقلال، ففي سبيله تهون كل التضحيات، وفي سبيله استشهد رجالات أجلاء، والشعوب الجديرة بالحياة لا تتردد في تقديم المزيد من التضحيات.

الوضع يحتاج إلى جهد كل فرد من الأفراد مهما كان متواضعاً، علينا أن ننسى الضغائن، وأن نعفو ونتسامح، وأن نثق في أنفسنا، وفي بعضنا البعض، وأن ننظر إلى المستقبل، فلا وقت للحفر في الماضي والبحث فيما يفرق. الشعب الليبي ليس له ضغائن مع الشعوب التي كانت مثله ضحية لسياسات خاطئة، ولكنه

لا يتنازل عن ذرة من تراب الوطن، ولا عن جزء من ذرة من كرامته، يجب أن لا يرفع غير العلم الليبي على كل أجزاء ليبيا. يا أبناء ليبيا الأبرار الشرفاء، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، كونوا على يقظة لما يُدبر لليبيا العزيزة من مكائد في دهاليز السياسة الدولية، واتحدوا وتكتلوا، تنتظرون أياما عصيبة ولا وقت للمهاترات.

بمثل هذا الأسلوب، استطاع السعداوي أن يلهب كل المشاعر، وغمر النفوس شعور فياض حتى البطيئة الاشتعال مثل مصطفى التهبت، وصارت تفكر جدياً في مصير الوطن، وبماذا تستطيع أن تساهم في إنقاذه. كنا نعتبر أنفسنا مجندين، مهيئين لما يطلب منا من جلائل الأعمال أو أصغرها. البلاد كانت في أمس الحاجة إلى من يوقظ فيها هذا الشعور، ويفجر طاقاتها لتندفع نحو تحقيق أهداف كبيرة نبيلة جداً، هي الوحدة والاستقلال. شخصية بشير بي السعداوي أعادت إلى الأذهان شخصية سعد زغلول الوطني المصري الشهير في العشرينيات، وخطب بشير بي أعادت إلى الأذهان الزعيم الوطني مصطفى كامل الملهب للشعب.

334

**السعداوي يلقب بالزعيم:** شعر الناس أن الوضع تغير بسرعة، وأنهم قطعوا شوطاً مهماً في مدة قصيرة، وأن الجامعة العربية نجحت في اختيار موفدها القائد والزعيم، وأن بشير السعداوي نجح في توحيد كلمة الأمة، وأنه جدير بلقب الزعيم، وصار يلقب بزعيم الأمة. وما كان للزعيم إهمال موضوع نظام الحكم في أحاديثه وخطبه، ولكنه ركز على الوحدة والاستقلال. أما نظام الحكم فإنه أمر داخلي يجب أن لا يحول أو يصرف الهمم عن تحقيق الوحدة والاستقلال، المثل العليا خالدة والأوطان باقية، ولكن الأفراد زائلون. فإذا رأى إخواننا البرقاويون أن النظام الملكي، وشخص السيد إدريس السنوسي ضروري في هذه المرحلة، فيجب ألا يكون ذلك عقبة في تحقيق الهدف الأسمى والأكبر، الوحدة والاستقلال. كان واضحاً أنه لا يمانع في قبول شرط البرقاويين، النظام الملكي والسيد إدريس ملكاً. ما هي مواقف الآخرين ؟.

الساحة لم تكن حكراً على بشير بي السعداوي وأنصاره مهما كثروا، كان على المستوى المحلي السيد إدريس وسياسته التي كانت ترتكز على أن المهيمِنين

على ليبيا هم الإنجليز، وهم المتعاونون مع أصدقائهم الأمريكان في بناء العالم الحر الجديد. الإنجليز هم المناوئون لروسيا، وهم الحماة لليبيا من إيطاليا . ليبيا تحتـاج في هذه المرحلة إلى سند قوي تعتمد عليه، والعناية الإلهية هيـأت لهـا إنجلتـرا العظمى، ولذا لا مانع من مناقشة الإنجليز كأصدقاء، لا مخاصمتهم كأعداء.

إيطاليا كانت تريد استرجاع ليبيا أو على الأقل طرابلس بأي وسـيلة، ولهـا أساليبها وأنصارها بالداخل والخارج، ومنطقها يقول: إن ليبيا كانت مستعمرة لهـا، وإنها فقيرة في كل شيء بسبب مناخها الطبيعي، وبسبب سياسة العهد الفاشي الغاشم الذي سيطر على إيطاليا نفسها التي تخلصت منه إيطاليا بفضل رجالها الأحـرار، وأنه لا يعقل منح الاستقلال إلى ليبيا طفرة، ولابد من مرحلـة التهيئـة، وإيطاليـا مؤهلة لأن تقوم بهذا الدور، حيث إن انجلترا ستكون مشغولة في السنوات المقبلـة مع أمريكا في بناء عالم ما بعد الحرب.

روسيا ترى أن ماضيها نقي، نظيف ناصع، لم تستعمر أحدا، فهـي الأولـى بالوصاية على ليبيا من أي دولة استعمارية أخرى، ولا يعقل إسناد الوصاية بهدف ترقية الشعوب لجلاد الشعوب.

فرنسا كانت تريد الاحتفاظ بفزان وضمها إلى ممتلكاتها في أفريقيا، أمريكـا لها قواعد في إقليم طرابلس، تريد بقاءها والتوسع فيها لرصد روسـيا ومحاصـرة الدعوة الشيوعية في المنطقة، ويهمها أن تكون قواعدها في بلد مستقر.

335 **الإنجليز والمحافظة على الإمبراطورية:** أما الإنجليـز فالهند لا تزال إمبراطوريتهم، وأقرب طريق للوصول إليها هو البحر الأبيض المتوسـط بمحطاته الشهيرة، جبل طارق، مالطا، قناة السويس، وليبيا مهمة جـداً فـي هـذه الشبكة من الطرق والقواعد؛ ولذا فهي حريصة أن تكون لها قواعد عسكرية بهـا، وأن تكون مصر كلها تحت نفوذها، وأن تكون ليبيا الملاصقة لها، والتي تعتبر عمقا استراتيجياً لها تحت نفوذها أيضا، واستعدت منذ بداية الحـرب لـذلك، واختـارت القاطرة وهو السيد إدريس منذ سنة 1940، ومدت القـضبان ووضـعت القـاطرة

عليها، والعربة الأولى للقطار برقة، والعربة الثانية طرابلس إذا رغبت والثالثة فزان إذا رغبت أيضا. و إذا لم يرغبا فلا مانع من إبقاء فزان تحت فرنسا، ومنح الوصاية على طرابلس لإيطاليا، وقد تم الاتفاق على ذلك فعلاً بين وزيري انجلترا وإيطاليا بيفن وسفورزا، فيما يعرف باتفاق بيفن سفورزا في مرحلة من مراحل الصراع حول مستقبل المستعمرات الإيطالية، وكان من الضروري موافقة هيئة الأمم على هذا الاتفاق وإقراره، ولكن ذلك لم يتم، ولهذا الموضوع قصة ستروى.

وجاءت اللجنة الرباعية في 6/ 3 / 1948 وبقيت حتى 20/ 5/1948 وتجولت في جميع أنحاء ليبيا، ونجح بشير السعداوي في هذه الجولة حيث لم تسمع اللجنة الرباعية إلا الشعار المحفوظ عن ظهر قلب هو الوحدة والاستقلال والانضمام إلى الجامعة العربية، وفي برقة أضيفت عبارة تحت إمارة السيد إدريس السنوسي بعد كلمة الاستقلال، ووضعت اللجنة تقريرها، وتعرضت فيه للحالة التعيسة التي عليها البلاد، وتقدمت بتوصيات تتفق مع أماني الدول المشاركة في اللجنة وما بينها من خلاف، ولا يلبي التقرير في مجمله مطالب الليبيين التي تبلورت بفضل الحملة القوية الناجحة التي قادها السعداوي ومن معه، وانحصرت في كلمتين الوحدة والاستقلال، كلمتان خفيفتان على اللسان، ولكن تحقيقهما على أرض الواقع يحتاج إلى كثير من الإصرار والكفاح.

336 **الإنجليز والسعداوي:** الإنجليز كانوا يقولون: إنهم مسئولون عن الأمن العام، وأنهم أساتذة الديمقراطية، ولا مانع عندهم أن يقوم السعداوي أو غيره بالتعبير عن آرائه بالوسائل السلمية، وإذا وردت بعض العبارات القاسية نحو بريطانيا في خطب السعداوي، فهي من نوع البهارات التي لا تخلو منها الخطب السياسية حتى في بريطانيا، وهي مُعَدة للاستهلاك الداخلي بالدرجة الأولى، وغير المقصود بها الإساءة إلى بريطانيا، يضاف إلى ذلك أن السعداوي يقبل بإمارة أو ملكية السيد إدريس السنوسي على ليبيا، وهذا هو ما يسعون إليه هم أيضا، ولذا فإن نشاط السعداوي لا يضرهم، وتغاضوا عن التفاف الموظفين العرب الليبيين التابعين للإدارة البريطانية حول السعداوي كغيرهم من المواطنين. كان هناك نوع

من التعايش السلمي بين السعداوي والإنجليز، السعداوي هدفه تكتيل الليبيين حول شعار الوحدة والاستقلال، والانضمام إلى الجامعة العربية، الإنجليز لا اعتراض لهم على ذالك فليتجول السعداوي متى شاء، وكيف ما يشاء، وكأنه ليس مبعوث الجامعة العربية، ولكنه مبعوث بريطانيا العظمى. وموقف الإدارة هذا شجع الموظفين حتى الحذرين على التردد بدون تحفظ على مقر المؤتمر، والمصارحة بتأييد السعداوي، وللموظفين وضعهم و وزنهم الاجتماعي و الإداري في البلد، فكان التأييد للسعداوي بالإجماع التام أو قريباً جداً منه.

337 **مؤتمر مسلاته:** رأى الزعيم أن هذا الشعور الوطني العارم الذي غمر البلاد، يجب أن يأخذ شكلاً سياسياً، وأن الشعارات المشهورة التي صارت على لسان كل أحد، يجب أن توثق في اجتماع كبير يعقد يوم 21/ 8/ 1948، يحضره ممثلون عن مختلف المناطق. واختار الزعيم مسلاتة وجامع المجابرة بالذات مقراً للمؤتمر تيمناً بها، حيث سبق أن عقد بها في فترة الكفاح ضد الطليان في 11/ 1918 مؤتمر لتوحيد الكلمة وكان ناجحاً.

تحمس أهالي مسلاتة لذلك، ورأوه شرفاً كبيراً لهم وأنهم سعداء باستضافة وجهاء البلاد في اجتماع سياسي تاريخي.

دام المؤتمر ثلاثة أيام وحضره عدد كبير من وجهاء القوم، واختتم بإعلان قرارات، ملخصها تأكيد ما كان معروفاً، تحقيق الوحدة الشاملة الكاملة لكل ليبيا والاستقلال التام والقبول بملكية السيد إدريس السنوسي.

بعد انتهاء المؤتمر والإقامة في مسلاتة، عدنا إلى طرابلس وكنت أقضي أكثر وقتي خصوصاً مساءً في مقر المؤتمر، رغم أني كنت مُوظفاً في مصلحة الزراعة.

كنت أحضر اجتماعات بشير بي مع وفود وشخصيات المدن والأرياف والبادية التي كانت تفد تباعاً معلنة تأييدها للمؤتمر ومبادئه، ولم أكن وحدي يعرض خدماته تطوعاً، كان آخرون كثيرون مثلي، أذكر منهم الشيخ عبد الرحمن القلهود، والسيد أحمد الحصايري، والشيخ عبد الرحمن دقدق، والسيد أحمد قنابه،




المفتي أبو الأسعاد العالم خارجاً من اللجنة الرباعية 1948




أحمد السويحلي والطاهر المريض خارجان من اللجنة الرباعية 1948

ومحمد خليل، وعلي المصراتي، وعلي المسلاتي، وسليمان دهان وصالح عمار، وكان مقر المؤتمر كخلية النحل، هذا جاء ليسلم على الزعيم ويتعرف إليه ويعلن ولاءه، وهذا جاء ليعرف الجديد، وهذا لينسق لزيارة يقوم بها الزعيم في منطقته، وكان أحمد زارم الذي عينه الزعيم أمين سر المؤتمر" وهو من مواليد الرحيبات، هاجر إلى تونس مع عائلته بعد أن سيطر الطليان على ليبيا، وبقي في تونس يكافح في سبيل لقمة العيش، وفي سبيل القضية الوطنية، كل هذه السنوات، ثم عاد وحده مع من عاد من المهجر وكرس وقته بالكامل للمؤتمر"، تجده نهاراً يتحرك بلا كلل من مكان إلى آخر، يصرف الأمور بطريقته الخاصة التي لم تكن تروق للبعض الآخرين، وليلاً كان ينام بجنب الهاتف.ولقد كان في قمة الإخلاص والتفاني مجنداً نفسه بالكامل لخدمة القضية الوطنية غير مهتم بشؤون عائلته الخاصة.

338 **تأييد مؤتمر مسلاته:** بعد يومين من العودة إلى طرابلس، أذكر أنه دعاني بشير بي بحضور الدكتور فؤاد شكري، وطلب مني أخذ الوثيقة التي تحمل قرارات المؤتمر وتوقيعات الذين حضروا في مسلاتة إلى الشيخ محمود أبو رخيص قاضي قضاة طرابلس، وإلى علي بي القرامالي الذين لم يحضرا إلى مسلاتة لظروفهما، وأدعوهما باسم بشير بي للتوقيع على الوثيقة في أسطر كانت مخصصة لهما. توجهت إلى منزل الشيخ محمود أبو رخيص في محلة بالخير، وكنت أعرفه جيداً وهو يعرفني، فرحب بي وأحضر الشاي، فشرحت ما كلفت به، فتناول الوثيقة وقرأها بإمعان، واطلع على التوقيعات ووقّع في المكان المخصص له، وأثنى كثيراً على بشير بي، وقد علمت منه أن له معرفة سابقة ببشير بي، تعود إلى سنوات عديدة ماضية، عند العشرينيات عندما كان شاباً، وكان قاضياً في الخمس، وكان على صلة بعائلة السعداوي وبشخص بشير بي، ثم فرقت بينهم ظروف الحرب والسياسة التي دفعت بالشيخ محمود في معسكر الطليان، وببشير بي في معسكر المهاجرين. والحمد لله زالت الغمة، والتأم الشمل، و ربنا يسعد البلاد برجالها المخلصين.

**الوهم اللذيذ:** ثم توجهت إلى منزل علي بي القرامنلى في شارع ميزران غير بعيد من الجامع، استقبلني هو أيضا في مربوعته بالترحاب المبالغ فيه، وأثنى على والدي الذي كان صديقاً له منذ فترة الشباب، واستغرب من زيارتي له واستفسر، فأخبرته هو أيضا بما سبق أن أخبرت به الشيخ أبو رخيص، واطلع على الوثيقة، وقال بعد أن أخذ نفساً عميقاً، يا ابني مصطفى بي أرجوك أن تبلغ تحياتي و احتراماتى لبشير بي الذي كان له الفضل في سابق الزمان، والآن في جمع شمل الأمة وتوحيد كلمتها، قل له عن لساني إن ما ورد في الوثيقة هو عين الصواب، وهو الذي سوف يتحقق في السنوات المقبلة إن شاء الله، وإني شخصياً على استعداد تام للتوقيع عليها، ولكن مشكلتي أني لست حراً. لقبي القرامنلي، وأنا الآن بعد وفاة سليمان بي القرامنلي ابن حسن باشا، أعتبر عميداً لأسرة القرامنلي، ولا أدري إذا كان هذا من حسن حظي أو سوئه. الذي أعرفه أنه حملني أعباء ومسؤوليات نحو الأجيال السابقة واللاحقة من العائلة، ولست حراً في اتخاذ قرارات مهمة في خصوص حقوق العائلة بمفردي، وليس لدي تفويض من أحد، و يتعذر جمع أفراد الأسرة وأخذ تفويض منهم. الوثيقة التي أمامي تنص على أن الحكم سيكون ملكياً، وأن الملك سيكون السيد محمد إدريس السنوسي، وأنا شخصياً لا أعتراض لي على ذلك، ولكن الكل يعرف بأن الحكم في فترة سابقة، كان للعائلة القرامنلية، وعلى ليبيا كلها وهذا حق متوارث، وبأي حق أتنازل أنا الآن عن هذا الحق ؟ وأنا كما قلت بحكم سني عميد للأسرة، يؤسفني أني لا أستطيع التوقيع، وأرجو أن لا يعتبر ذلك خروجاً عن الإجماع، وأرجوك أن تبلغ سلامي واحترامي إلى بشير بي ورفاقه متمنياً لهم النجاح في مساعيهم النبيلة. صراحة لم أجد ما أعقب به على كلامه ووجدته منطقياً، وعدت إلى بشير بي منجزاً نصف المهمة، وأخبرته بما حدث فسر لموقف الشيخ محمود وتصرفه، وعقب على موقف علي بي القرامنلى بقوله" مسكين مازال يعيش في وهم لذيذ "، وردد بيت شعر :

**إذا أنت لم تحم القديم بحادث ... من المجد لا ينفعك ما كان من قبل**

# قيادة حكيمة وشعب عنيد

الجماهير تلتف حول السعداوي الذي يعمل على توعيتها وطنياً وسياسياً



بشير بي يخطب محيياً الجماهير 1950

340

**مصطفى والمؤتمر الوطني:** سبق أن قلت عند حديثي بالتفصيل عن عملي بمصلحة الزراعة، أن الحصول على سيارة لإنجاز الأعمال المتعلقة بالوظيفة كان مشكلة، وزادت تعقيداً عندما اندمجت في نشاط المؤتمر، وكنت أعتبره واجباً له الأولوية على ما سواه، وكانت السلطات البريطانية غير غافلة وتراقب مقر المؤتمر والمترددين عليه، ولاحظت أن مصطفى طول الوقت في المؤتمر، فهل هو موظف في مصلحة الزراعة، أو موظف في المؤتمر؟ ولامت المسؤولين عني بمصلحة الزراعة الذين استعملوا معي أسلوب الترغيب طلبوا مني أن أنتسب إلى دورات في اللغة الإنجليزية التي لا أعرفها، وأستعد للسفر إلى بريطانيا مع مجموعة من كبار الموظفين الليبيين للدراسة كلٌ في مجاله استعداداً لتسلم مهام إدارية كبيرة بعد تقرير مصير المستعمرات، عرض مغرٍ بدون شك. لكن انجذابي للمؤتمر كان أقوى، ولم أكف عن التردد على المؤتمر، ولم أتعلم اللغة الإنجليزية، وكلف المالطي فرانتي ألا يعطيني سيارة أنتقل بها إلى حيث أشاء، حيث إني سأذهب حتماً إلى المؤتمر، ومع هذا صرت أستفيد من المهندسين الزراعيين الإيطاليين، وأصحبهم في رحلاتهم إلى المدينة ثم أتركهم، وأذهب إلى المؤتمر. الأساليب الإدارية لم تكن كافية فحركوا الشرطة، إدارة المباحث في سيدي عيسى بجنب فندق الودان. استدعاني مدير المباحث شوقي سعد الفلسطيني الأصل، وحدثني بكثير من الاحترام حديثا طويلاً عن واجب الشباب نحو أوطانهم وعما عاناه الفلسطينيون على أيدي اليهود، وأن مجال العمل الوطني واسع، ليس بالضرورة في المجال السياسي المباشر. ليبيا محتاجة إلى كوادر من الموظفين الأكفاء في كل المجالات ومنها الزراعة، ومادام رؤسائي في مصلحة الزراعة اختاروني لأن أتقلد منصباً إداريا هاماً مستقبلاً، فواجبي الإداري و الوطني أيضا يحتم علي الاستعداد للقيام بهذا الدور. كلام جميل ومعقول، ولكن ترددي على المؤتمر استمر دون انقطاع، ودام حتى إقفال المؤتمر بعد إعلان الاستقلال.

**الرجل المناسب في المكان المناسب:** من ميزات بشير بي أنه يقيم في صمت مواهب وقدرات من حوله من رجال، ويوجه كل فرد فيما يفيد.

علي مصطفى المصراتي: (مصراته) – مصراتي الأصل مصري الولادة ليبي الوطنية، أزهري الثقافة يعربي القومية، عبارته الشهيرة ((لبيك وطني لبيك)) كانت منذ أن عاد إلى الوطن تتردد في المدن والقرى وترددها الجبال والأودية والسهول وصحراء ليبيا المجاهدة. كان خطيباً لامعاً، قوة صوته لا تتناسب مع قوة جسده، والعبارات كانت تتدفق من فمه كالسيل، توقظ النيام، وتشحن الهمم، وتدفع إلى العمل الفعال، ونجح نجاحاً باهراً فيما قام به في هذا المجال.

صالح عمار: (النوائل) يستطيع تحويل أمن الخصم إلى قلق ونكد إذا حتمت الأحداث استعمال العنف أسندت له مهام قد تصنف بأنها إرهابية، ونجح في ذلك.

الحاج محمد الكريشي: (طرابلس) التاجر الذي أهمل تجارته واستهواه المجال الاجتماعي والوطني والسياسي وكان يعرف بأسلوبه الخاص، كيف يجمع التبرعات من القادرين وغير القادرين، فكلف بذلك وأفاد.

منصور بن قدارة: (زليطن) لثقافته الفرنسية ولباقته الدبلوماسية، أرسل إلى هيئة الأمم لمتابعة سير القضية.

الهادي المشيرقي: (طرابلس) هوايته الاتصال بعظماء العالم والشخصيات التي لها علاقة وتأثير على مجريات أمور ليبيا الوطن في كل العهود، مغرم بإعداد المذكرات وتوزيعها بسخاء يشرح فيها مشاكل ليبيا في جميع الميادين وطرق علاجها، حريص على جمع المستندات الهامة وغيرها تحسباً ليوم حساب، ورغم أن أسلوبه مشوش عند البعض واستفزازي عند آخرين ووطني صادق عند غيرهم فإن القضية الوطنية استفادت من تعدد مواهبه ونشاطه.

الشيخ صالح خماج: (العجيلات) الذي بأسلوبه الخطابي المتميز المزيج بين الدين والسياسة والوطنية ولهجة الجنوب التونسي وانفعالاته المؤثرة يستطيع بكل ذلك مع

مظهره ولباسه الشعبي البسيط وعمته أن يحرك أحسن ما في المجتمع البدوي من حماس ونخوه.

سليمان دهان: (زوارة) استطاع بموقفه الصلب العنيد أن يصد تيار زعامة ونفوذ عائلة بن شعبان القوي المعاكس في المنطقة.

محمد ميلاد مبارك والسيد أحمد قنابه: (طرابلس) تمكنا بقصائدهما المرتجلة تارة والمؤثرة دائماً من جعل مثقفي وأدباء تلك الفترة يتبارون في المجال الوطني والسياسي.

الشيخ عارف مانة: (يفرن) بمركزه الاجتماعي وثقافته الدينية والسياسية الراسخة وأسلوبه الهادي المتزن، استطاع القضاء على نعرات عرقية ومذهبية ضارة في منطقة حساسة جداً.

عمر مالك : (غدامس) درس في تونس وطني قومي جريء مقدام كان مثل غيره من مواطني الجنوب خارج فزان منهم محمد فياض ومحمد شليد وظافر بركان وغيرهم كانوا حلقات وصل بين طرابلس بين السعداوي ورجالات وشباب فزان العاملين في صمت وصبر وسرية وتكتيك خاص بهم متحدين غطرسة وجبروت حاكم عسكري فرنسي لا يريد أن يفهم ولا يرحم.

جميل المبروك: (طرابلس) تمكن بتواضعه ومثابرته وتغلغله في الأواسط الشعبية في مدينة طرابلس تمكن بتصرفه الذكي الحكيم والقدوة العملية أن يحول تردد فئة كبيرة من الأفراد إلى حماس واندفاع.

مصطفى السراج: (طرابلس) هادئ الطبع، متأنٍ، يقلب الأمور كثيراً قبل أن يندفع، طويل النفس، يتقن الإيطالية، وله علاقات ومعارف في الأوساط الإيطالية وغيرها، يمكن الاستفادة من مواهبه على قلتها في الوقت المناسب.

وهناك الغير ممن اسعفتني الذاكرة بأسمائهم وهم كثيرون يعملون في صمت دون أن تسلط عليهم الأضواء ودون أي تحريض من احد لا ينتظرون جزاء ولا شكورا من أي إنسان ولا إشادة من مصطفى السراج أو غيره، كرسوا اهتمامهم

لقضية وطنهم بدافع الإيمان العميق بعدالتها وهي في مرحلة حرجة من تاريخها، التمس عذر هؤلاء الأفاضل وأعترف بان السبب في عدم ذكر كل الأسماء هو محدودية معلوماتي وضعف ذاكرتي وطول المدة التي تفصلنا عن زمن الأحداث.

342 **شعلة الحرية:** قرر المؤتمر أن تكون له صحيفة يخاطب عن طريقها الجماهير وتزيد الحماس تأججاً و كلف أحمد زارم بإصدارها. وكلف مصطفى السراج بأن يساعده في تذليل بعض الصعاب خصوصاً فيما يتعلق بالمطبعة. ولكل منهما هواية الصحافة. مارسها أحمد زارم عندما كان مهاجراً في تونس ومارسها مصطفى عندما عهد إليه بإصدار جريدة طرابلس الغرب أثناء الحكم العسكري الإنجليزي، زارم لم يكن معروفاً عند الإيطالي ماجي صاحب المطبعة الوحيدة التي في مقدورها طبع الصحف، ولكن ماجي كان يعرف السراج ومصطفى بالذات عندما كان يتردد على المطبعة فيما يتعلق بصحيفة " طرابلس الغرب "، وطالب ماجي زارم بضامن يكفل سداد تكاليف طبع الشعلة من ورق وغيره إذا تعذر لزارم ذلك، وكان الضامن مصطفى.

كانت الشعلة تنشر أخبار المؤتمر وخطب بشير بي ومقابلاته بالإضافة إلى مقالات تعرف الشباب بجهاد الآباء والأجداد، وما بذل من تضحيات كبيرة في سبيل أن يعيش هذا الشعب حراً هانئاً سعيداً. أنارت الشعلة السبل الوعرة للكثيرين وأحرقت الشعلة كثيراً من الأوهام المضللة الداعية للاستكانة وللاستسلام، و ضايق وهيجها عيون من لم يتعود العيش في ضوء النور الوهاج. وأسدل الستار عنها عندما أسدل الستار على المؤتمر ومجموعة من أبرز رجاله .

343 **ما بعد مؤتمر مسلاته:** قُبلت قرارات المؤتمر بارتياح في برقة و فزان، ورأى السعداوي في ذلك نجاحاً إضافيا آخر؛ حيث إن الإجماع الذي كان في طرابلس عم كل ليبيا، وصارت تنادي بنفس المبادئ والأهداف. السيد إدريس السنوسي راض أيضا، ولكنه والمقربون منه كانوا حذرين. عدم الارتياح بينه وبين عبد الرحمن عزام باشا، كان متبادلاً منذ القدم، وقد لاحظ أن النفوذ الأدبي

والسياسي لعزام باشا تحت غطاء الجامعة العربية قوي شعبياً في المدة الأخيرة وشخصية بشير السعداوي زادت قوة وتأثيراً، وصارت هي الموجهة للرأي العام، إن وافق وقبل بالسيد إدريس قبلت الجماهير، وان عارض عارضت.

الإنجليز راضون، وكعادتهم يرصدون الحوادث في صمت، الفرنسيون غير راضين خوفاً على ضياع فزان منهم، وإيطاليا غير راضية، فالتطور الأخير بزعامة السعداوي قلل أمامها فرصة العودة إلى ليبيا. السعداوي ينادي بالاستقلال، وهي تطالب بالوصاية، ونشط المصطادون في المياه العكرة، لحساب هذا أو ذاك، نشطوا لتعكير المياه والاصطياد فيها، ولكن الجماهير في مجملها كانت في نشوة لم يسبق لها مثيل. إيطاليا لم تيأس، فالمهرجان الذي كان في مسلاتة ليس هو الكلمة الأخيرة، فالقرار في يد هيئة الأمم، لا في يد السعداوي وجماعته، وهيئة الأمم لم تتخذ قرارها بعد، ولذا هناك فرصة أخرى للمناورة. الأحزاب الإيطالية المنادية بعودة إيطاليا إلى ليبيا كانت نشطة بالتعاون مع إدارة شؤون المستعمرات السابقة في وزارة الخارجية، و أوجدت لها فروعا بين الإيطاليين في ليبيا تعمل بإرشاداتها لتحقيق نفس الهدف، والسلطات البريطانية غضت النظر عن ذلك عملاً بمبدإ "حرية التعبير السلمي عن الرأي"، وكانت تريد اختبار فعالية هذه الحركات.

344 **<u>مساعي إيطاليا:</u>** الحركات الإيطالية الساعية لعودة ليبيا لإيطاليا، صارت تعمل لكسب أنصار لها بين الليبيين مستعملة سلاح المال، فاتصلت بالمجندين السابقين من الليبيين في القوات الإيطالية، وقالت لهم: إن لهم حقوقاً على الحكومة الإيطالية لماذا لا يطالبون بها ؟ وهي سوف تساعدهم على الحصول على حقوقهم. كان المجندون السابقون فقراء محتاجين لأي مبلغ يحصلون عليه، فانخدعوا وانجروا في هذا التيار.

واختارت إيطاليا أفراداً من الوجهاء والزعماء المحليين، "مثل سالم المنتصر" الذين كان لهم ثقل في المجتمع وشأن، وبعد قدوم السعداوي اكتسحتهم موجة الحماس الشعبي المتوالية، وطغت عليهم، وصاروا نسياً منسيا، فَحز ذلك في نفوسهم، وأضر بمراكزهم ومصالحهم، فرحبوا باهتمام إيطاليا بهم من جديد.

منطقهم ومنطق إيطاليا هو أن منح الاستقلال لليبيا طفرة غير وارد، وستستمر ليبيا فترة الوصاية موحدة أو مجزأة تحت إحدى أو بعض الدول، وعلى الأرجح انجلترا أو إيطاليا، ففي نظرهم أن الدولة المؤهلة أكثر هي إيطاليا الديمقراطية، لغتها معروفة ومنتشرة بين السكان، علاقاتها التجارية مع ليبيا لا تزال قوية جداً، وما قام به الإيطاليون من أعمال في مجال الزراعة والصحة وغيرها، شاهد بقدرتها على الرفع بمستوى البلد، وإذا كان هناك خطأ في الماضي، فإنه ينسب للحزب الفاشي الذي ذهب لغير رجعة، هذا الأسلوب في التفكير مع مبالغ سخية دفعت لبعض الشخصيات، كون حركة جديدة خافتة، ثم قويت، مما شجع سالم المنتصر على إعلان حزبه الجديد، حزب الاستقلال، الذي يدعو إلى الاستقلال هو أيضا، ولكن يقول إذا تعذر ذلك، وتقررت الوصاية، ستكون لإيطاليا على إقليم طرابلس على الأقل. تزامن ذلك مع إعلان الاتفاق بين الوزير البريطاني بيفن والوزير الإيطالي سفورزا الذي سوف يعرض على هيئة الأمم لإقراره ويؤدي إلى وضع طرابلس تحت الوصاية الإيطالية.

شاع الخبر، وهاجت الجماهير ضد إيطاليا وبريطانيا و حزب الاستقلال وعلى موقف المؤتمر البرقاوي الذي كان مهتماً بمصير برقة وحدها تحت إدريس السنوسي، بالتعاون مع الإنجليز، ولا يهمه مصير بقية ليبيا، بحجة أن طرابلس بتوجيه عزام وبزعامة السعداوي غير صادقة في موقفها من السيد محمد إدريس السنوسي، بدليل وجود حزب الاستقلال، وحزب الكتلة، وتصريحات للسعداوي تبدو في بعض المناسبات غامضة ومتضاربة.

345

**والله خير الماكرين:** النشوة التي عمت ليبيا عقب انعقاد مؤتمر مسلاتة، تلاشت وحل محلها كوابيس واجهتها الجماهير في طرابلس بمظاهرات احتجاج متواصلة أثناء انعقاد هيئة الأمم المتحدة لبحث مصير ليبيا وبحث اتفاق بيفن سفورزا، بشير السعداوي كان في القاهرة، منصور بن قدارة كان في هيئة الأمم، الدكتور علي العنيزي كان ضمن الوفد الممثل للجامعة العربية في هيئة الأمم. قاد المظاهرات في طرابلس يومياً جميع رجالات الحركات السياسية،

رفض جماهيري لألاعيب الاستعمار




الشعب يحتفل بفشل مشروع بيفن – اسفورزا – طرابلس 1949

الشيخ أبوالأسعاد العالم، مصطفى ميزران، أحمد زارم، الأستاذ على الفقيه حسن، وأخوه الأستاذ أحمد، الشيخ عبد الرحمن القلهود، الحاج محمد الكريكشي، أحمد الحصائري، أحمد قنابة، و آخرون إلا حزب الاستقلال فإنه بقي متفرجاً. الاحتجاج كان على أشده يوم التصويت، واتخذت السلطات البريطانية إجراءات أمنية خاصة، وهددت رجالات المؤتمر ومنهم الشيخ المفتي محمد أبوالأسعاد العالم بالاعتقال إذ انقلبت المظاهرات إلى العنف. وأذكر أن الشيخ المفتي غير في ليلة التصويت على اتفاق بيفن سفورزا، غير مكان إقامته المعتاد في سوق الجمعة، ونام عندنا متخفياً في محلة بالخير، بشارع بنغازي قريباً من مقر المؤتمر.

في هيئة الأمم جندت بريطانيا أنصارها، وجندت إيطاليا أنصارها كذلك من الدول اللاتينية في أمريكا الجنوبية، وكان التصويت لصالح قراريهما شبه مؤكد، لولا عناية الله التي سخرت شخصاً أسود اللون اسمه سان لو، مندوب لدولة صغيرة في بحر الكاريبي جزيرة هايتي، الذي جاء الجلسة متأخرا، وصوّت عكس تعليمات حكومته، وفي غير صالح القرار، وارتبكت فجأة الأمور على الإنجليز والطليان وعلى أنصارهما وفشل القرار، ونجت ليبيا مما كادوا لها. يقال إنه كان للدكتور العنيزي دور في توجيه مندوب دولة هايتي مما أدى إلى رفض المشروع في 1949/5/17.

وأذكر أن الفرحة كانت شاملة عارمة لدى الجماهير، تجلت في مظاهرات الارتياح، واجتماع حاشد في شارع عمر المختار تحت شرفات المؤتمر، وتوالى الخطباء، ومنهم الأستاذ علي المصراتي، وأحمد زارم، والشيخ عبد الرحمن القلهود، الذي ألقى كلمة وطنية بليغة، ختمها بقوله "ومكرت بريطانيا ومكر مؤيدوها ومكر الله والله خير الماكرين "

346 **منصور بن قدارة والمندوب التركي:** يذكر منصور بي بن قدارة أنه عندما كان في نيويورك يتابع مناقشة قضية ليبيا واتفاق بيفن سفورزا، صادف أن نزل في نفس الفندق الذي ينزل به الوفد التركي، وكانت فرصة سانحة استغلها منصور بن قدارة ببراعة. تعرف إلى رئيس الوفد التركي وكان شاباً

يعرف الكثير عن تاريخ تركيا بعد أتاتورك، و يكاد لا يعرف شيئاً عما قبله، وكان بن قدارة يتقن التركية فصار كل ليلة أثناء السهرة يشحن المندوب التركي بما يفيد القضية الليبية، مشيداً بالتعاون بين الليبيين والأتراك في مناسبات عديدة وكانت مجالاً لبروز بطولات من الطرفين في ليبيا وعلى الأرض التركية نفسها أثناء الحرب العالمية الأولى. فكان المندوب التركي يتحمس متأثراً يكاد يبكي بما سمع من أخينا منصور الذي ينام مستريحاً، متوقعاً أن المندوب سيصوت في الغد في الجانب الليبي. ولكن المندوب التركي يصوت باستمرار في جانب الإنجليز حسب تعليمات حكومته. وتكرر ذلك عدة مرات وتضايق منصور رغم دبلوماسيته، وانفجر على المندوب التركي قائلاً "حبيبي ! في كل الأيام الماضية، كنت تبكي معي ليلاً في الفندق، متحسراً على ما آلت إليه القضية الليبية، وفي اليوم التالي، كنت تضحك مع المندوب الإنجليزي عند التصويت. أرجوك أن تحاول مستقبلاً أن تضحك معي ليلاً، وتبكي مع المندوب الإنجليزي نهاراً.

347

**من بشق الثاني:** هدأت الأمور بعد عاصفة التصويت على مشروع بيفن سفورزا، وعادت الأمور إلى مجاريها، وصار كل معسكر يراجع حساباته الأرباح والخسائر، ويعدل في خططه. حزب الاستقلال مازال نشطاً. كنت وآخرون من المؤتمر نقول إذا كانت إيطاليا تحاول أن تشق الإجماع الليبي الملتف حول السعداوي ودعوته، وتحاول استمالة جزء من الرأي العام الليبي، لماذا لا يقوم المؤتمر بنفس المحاولة لاستمالة جزء من الإيطاليين لقضية ليبيا؟ سبق أن قلت إن الحركة الشيوعية في إيطاليا كانت نشطة، وإن حزباً شيوعياً قوياً كان على الساحة، وكانت هناك أحزاب اشتراكية أخرى على الساحة الإيطالية أيضا، و كانت تعمل بالتنسيق مع روسيا التي كانت متخاصمة مع الإنجليز و الأمريكان ورأت الجامعة العربية أيضا و أمينها عبد الرحمن عزام باشا "وكانت له علاقات في الماضي أثناء وجوده في ليبيا، مع الأحزاب الإيطالية الاشتراكية التي تعارض السياسة الرسمية الإيطالية في ليبيا "، رأت الجامعة أن تستفيد من تلون الأحزاب في إيطاليا، وتضغط بها على الحكومة الإيطالية وعلى الإنجليز. مناورة من المناورات التي يتقنها عزام

باشا، فأوعزت إلى بشير بي وممن حوله القيام بدور مماثل بين الإيطاليين في طرابلس. كان على رأس الحركة الشيوعية تحت اسم الحركة الاجتماعية الإيطالية محام إيطالي اسمه تشيبيلي، ويعمل محرر عقود في عمارة الأوقاف في شارع الاستقلال بطرابلس، وكان جميع محرري العقود الموثقين إيطاليين، وكان مصطفى وإخوته من زبائن هذا الموثق تشيبيلي، كانت حركة تشيبيلي تضم مجموعة من كبار الملاك للمزارع والعقارات، لا يؤمنون بالشيوعية، ولكنهم كانوا يوافقون تشيبيلي الدعوة إلى استقلال ليبيا حالاً دون وصاية أحد، وكانوا يرون أن الاستعمار في العالم مآله الانحسار. وأن ليبيا سوف تستقل عاجلاً أو آجلاً، ولذا من مصلحتهم الوقوف مع الفائزين لعل هذا الموقف يفيدهم مستقبلاً في الحفاظ على أملاكهم، وما لهم من مزايا.

مصطفى كان بحكم عمله في مصلحة الزراعة على صلة بهؤلاء وغيرهم، وكانت صلته ودية، صادف أن كان مصطفى في مكتب تشيبيلي لتوقيع بعض المستندات الخاصة بالمعاملات التجارية لشركة السراج، وكان تشيبيلي يعرف انتماء مصطفى للمؤتمر وعلاقته ببشير السعداوي، فوجه الحديث إلى أمور سياسية، وأثنى علي السعداوي، وطلب من مصطفى تحديد موعد لزيارته والتعرف إليه، نقل مصطفى هذه الرغبة إلى بشير بي الذي رحب بذلك وحدد الموعد، وحان الوقت المناسب للاستفادة من قدرات مصطفى المتواضعة. توالت الاجتماعات بين الطرفين، وكان مصطفى هو المنسق والمترجم للاجتماعات التي كانت تتم في منزل بشير بي.

348

**السعداوي وتشيبيلي:** الصورة التي كانت عند تشيبيلي عن بشير بي كانت مشوهة جداً، يسمع أن السعداوي الزعيم الليبي بدوي ريفي الأصل، متخلف متعصب دينياً، وزاد تخلفه ورجعيته بعد أن التحق بحاشية الملك ابن السعود، وأن الإنجليز كونوا منه شخصية أسطورية كما فعلوا مع السنوسي، ويريدون الاستيلاء على برقة بمساعدة السنوسي، وعلى طرابلس بمساعدة السعداوي، وغفر الله لإيطاليا وروسيا وغيرهما من الذين على غير وفاق مع

الإنجليز. الدهاء الإنجليزي مشهور، و أساليبهم الملتوية كثيرة، وعلى تـشيبيلي أن يتعاون الآن مع هذا الشخص و الشخصية السعداوي دون أن يعرف عنها إلا القليل المشوش، فكان هدفه الأول التعرف على الـسعداوي شخـصاً وتفكيـراً. وانتبـه السعداوي لما يسعى إليه تشيبيلي، وكان محور الأحاديث في هذا الاتجاه. وأذكر أن تشيبيلي وجّه أسئلة مباشرة إلى السعداوي في إحدى المقابلات وكأنه تحقيـق مـع متهم.

تشيبيلي سؤال – " يا بشير بي إني حائر كيف أصنفك... أعرف أنك كنـت خصماً عنيداً لإيطاليا الديمقراطية ولإيطاليا الفاشية، وحاربتنا وحاربناك، وحاولنـا استمالتك بطرق شتى فلم ننجح، ثم هاجرت، وواصلت الكفاح ضدنا بوسائل الإعلام وتأليب الرأي العام العربي والإسلامي والعالمي ضدنا. ونراك الآن من جديد فـي ليبيا، تتنقل بين القبائل والمدن، ومن نجع إلى آخر تتعاون مـع الإنجليـز، تؤلـب الرأي العام ضد إيطاليا الجارة، وكأن إيطاليا وحدها العدوة للشعوب وكأنها الـسبب الوحيد لشقائها وتعاستها، وتتجاهل بريطانيا وأمريكا السبب الحقيقي في شقاء العالم بسياستهما الملعونة الرامية إلى استعباد جميع البشر لا العرب وحدهم....

السعداوي جواب – " أشكرك على إطرائك، و أشكرك على صراحتك، واعلم أني أتمنى أن لا يكون لي خصوم، لا بين الأفراد ولا بين الدول. ولست أنا الـذي اخترت الخصم في كل مرة، وكان الخصم يفرض نفسه علي، أنا الموظف والفلاح البسيط في مصراته أو الخمس لم أذهب إلى روما لكي أحارب صاحب الجلالة ملك إيطاليا، فصاحب الجلالة هو الذي أرسل أساطيله وجنوده ليحـاربني سـنة 1911، الخير بالخير، والشر بالشر، وكان ما كان...الوصاية ولو افتراضا هي كلمة ليست موجودة في قاموسي، أنا أطالب بالاستقلال التام لكل ليبيا و أطالب بوحدتها. فـي الماضي حاربت في سبيل هذين الهدفين، ومازلت على استعداد رغـم سـني لأن أحارب و أحارب و أحارب...وتحمس بشير بي. ثم انتقل تشيبيلي إلـى موضـوع آخر حساس قائلاً : تشيبيلي سؤال _ : تحارب من أجل الاستقلال، وتدعو لإمـارة السنوسي...وكلنا يعرف من هو السنوسي، رجل بسيط ثقافته متحجرة من العصور المظلمة، يصلح شيخاً أو زعيماً لعشيـرة بدوية في الجغبوب أو الكفرة وما حولها،

لا أن يكون ملكاً لدولة عصرية في القرن العشرين على البحر الأبيض المتوسط مقابل أوروبا. زد على ذلك أنه صنيعة الإنجليز يأتمر بأمرهم ولا يخالفهم في الرأي.

السعداوي جواب -" اسمح لي أن أقول لك إنك بالغت في وصفك للسيد إدريس السنوسي الذي أنادي به ملكاً على ليبيا الموحدة المستقلة...إدريس أنتم الذين حاربتموه وحاربتم شعبه والى آخر رمق رغم أنه أبدى استعداده للتعاون معكم...إدريس كان كالغريق في بحر من الرمال في صحراء ليبيا وصحراء مصر لا أحد يهتم به أو يسأل عنه...لا يلام إن تمسك بأي خشبه يرميها إليه الإنجليز لانتشاله من الغرق، وواجبي أنا السعداوي وقدري، أن أقنع السنوسي بأنه سيكون ملكاً على ليبيا، لا بفضل الإنجليز، لكن بإرادة الشعب الليبي الحر المستقل الملتف حوله. وهي محاولة، لا أدري مدى نجاحها إنه صراع بيني وبين الإنجليز....والإنجليز يريدون إفهام السيد إدريس أنه سيكون أميراً على برقه أو ملكاً علي ليبيا بفضلهم هم وحدهم و من معهم من البرقاويين، لأن جميع الآخرين يكرهونه، السعداوي ضده، عزام ضده، حزب الكتلة ضده، حزب الاستقلال ضده، الشباب يكرهونه، ولم يبق له إلا الإنجليز يقبلون به ويسندونه بالكامل، لأن مصالحهم ومصالحه متقاربة..هل كنت واضحاً يا حضرة المحامي؟

349

**تشيبيلي ينبهر:** لاحظت على تشيبيلي أنه انبهر بأسلوب السعداوي في الحديث وصراحته ووضوحه، ثم زاد بشير بي "أنا أتعامل مع القضية الليبية لا على أساس الأفراد، السنوسي عمره في الستينات، و أنا قريب منه، جيلنا آخذ في الأفول، المهم أن تعترف لنا الدنيا بالوحدة والاستقلال وأن نمارس هذا الحق.تنظيم البيت في الداخل، سيكون من مهمة الجيل أو الأجيال المقبلة ... صراع الشعوب بحثاً عن السعادة لا ينتهي، فهو متواصل، إدريس ملك، إدريس أمير، السعداوي زعيم، السعداوي صعلوك، ليس هذا هو لب المشكلة بالنسبة للشعوب، الشعوب لا يهمها أن يكون العلم أخضر أو العلم أصفر اللون، أو تكون فيه نجمة أو أكثر، يهمها أن تعيش في أمن، حرة في صحة جيدة، تستطيع أن تحصل على رغيف

تأكله، تستطيع أن تتعلم وتتقدم، هذه هي المطالب الحقيقية للشعب الليبي كغيره من الشعوب. اليوم أنا أبحث عن حَجر أدعم به هذا الركن أو ذاك الركن من البناء، غداً سيكون العمل أمام الجميع من نوع آخر، سيكون المجال فسيحاً جداً، لقد بدأتم بزراعة جزء يسير من الصحراء، وعلى الشعب الليبي الحر المستقل بمساعدتكم ومساعدة الإنجليز و الأمريكان وروسيا، وكل شعوب العالم المحبة للحرية والتقدم والسلام، مساعدته في زراعة الصحراء الشاسعة التي حوله.

لاحظت أن تشيبيلي الذي كان متشككاً في السعداوي، انبهر في أول الحديث ثم صار معجباً به مثلي بهذا العجوز الذي ليس هو فقط جزء نفيس من ماضٍ مجيد، ولكنه لو أطال الله في عمره يمكن أن يكون جسراً نحو مستقبل مشرق. و أدركت أن السعداوي انتصر في جولة أخرى من جولاته. وبعد أسابيع تقدمت حركة تشيبيلي التي زاد أنصارها من الطليان بوثيقة مبايعة إلى السعداوي يعلنون فيها مناصرتهم له في ليبيا و أمام إيطاليا وهيئة الأمم والعالم، في الدعوة لليبيا الحرة الموحدة المستقلة. وهذا ما كانت تريده الجامعة العربية، وما كنا نريده، و أضيفت هذه الوثيقة إلى وثائق أخرى لصالح القضية. سلاح جديد سوف نستفيد منه في المعركة المتواصلة.

350 **حفل تعارف للسعداوي:** أعرب تشيبيلي عن رغبة رجالات حركته الذين وقعوا على وثيقة البيعة في التعرف شخصياً إلى بشير بي، ولذا يدعونه لحفل تعارف بمنزل المحامي تشيبيلي في مدينة الحدائق بطرابلس. قبل بشير بي الدعوة وحدد الموعد، وكان في أحد الأيام في فصل الصيف توجهت مساءً في صحبة بشير بي ومعنا السائق الهادي السكلاني إلى فيلا تشيبيلي في شارع بن عاشور، كان الاستقبال في الحديقة الفسيحة الجميلة، وكان الحضور حوالي 50 شخصاً رجالاً ونساء، وكان بشير بي موضوع حفاوة كبيرة من الجميع، الكل يريد التعرف إليه، والكل يريد التقرب منه، ووزعت الحلوى والمشروبات، وكان تشيبيلي في منتهى السعادة، كنا وقوفاً ثم جلسنا على الأرائك والتف حول بشير بي السيدات الحاضرات وهن أيضا كن يردن التعرف إلى هذا المخلوق، وتشجعت إحدهن ووجهت الحديث

إلى بشير بي قائلة " إن القضية الليبية شغلك الشاغل ستعرض على هيئة الأمم في الأيام القريبة المقبلة، وإنك ستكون هناك لتدافع عن قضية شعبك "فهز بشير بي رأسه بالإيجاب ثم واصلت " هيئة الأمم في أمريكا في مكان اسمه ليك سكسيس، ومعناه بحيرة النجاح أنت قادم على بحيرة، هل تحسن السباحة والاصطياد في البحيرات ؟ ابتسم بشير بي وقال " صراحة أنا رجل بدوي لا علاقة لي بالبحيرات، و إنما أحسن اصطياد الغزال في الصحراء ضحكت السيدات الفاتنات وغير الفاتنات لكلام السعداوي ضحكات مدوية لفتت انتباه أزواجهن الذين انضموا إليهن يستفسرون عن سبب الضحك والنكتة وصاحبها وضحكوا هم أيضا. والتفت بشير بي إلى قائلاً : حاربت هؤلاء الأوغاد طول عمري، و أنا ألوم من يتعاون معهم، و إني الآن وسطهم آكل الحلوى ....أضحك وهم يضحكون ... ما أعجب الدنيا ...كل ذلك في سبيل ليبيا التي لم أفتتن بسواها غفرانك يا رب....

351 **حقيقة الجبهة الملتفة حول السعداوي:** يلاحظ المراقب أن الجماهير تلتف حول السعداوي، كلما قام قاموا، وكلما قعد قعدوا، هل هي متراصة فعلاً، هل هي على قلب واحد فعلاً ... أم هي مظاهر، فلكلور، مهرجان يبهر ثم لا شيء. الحقيقة أنه كانت هناك ثغرات، الجماهير تتكون من أفراد ومجموعات محلية، والأفراد بشر والحزازات والحساسيات لا يخلو منها مجتمع الجموع المحيطة بالسعداوي بعضهم من الحضر، وبعضهم من الريف، وآخرون بدو. ومنهم الذين ولدوا وعاشوا زمن الطليان، ومنهم شيوخ يذكرون ماضياً بعيداً، ومنهم مهاجرون عائدون من مصر وتونس وسوريا وتركيا لكل منهم رؤية، ولكل منهم اجتهاد، يعملون في قبائلهم على تنظيمها طبقاً لهواهم ومصالحهم، يتفقون تارة ويصطدمون مع من كان قبلهم من زعامات في القبائل زمن الطليان، لو نظرنا إلى جزئيات المجتمع الوطني بمنظار، نجدها منفصلة متخلخلة، وهذا طبيعي موجود في المادة أو الجماد نفسه مهما كان صلباً، المهم قوة انجذاب ذراتها إلى بعضها، وأن تكون هذه القوة حية وفعالة، وعلى الزعيم أن يرفع درجة حرارة الجماهير بسلوكه وطلعته وخطبه إلى الدرجة اللازمة لصهر الجماهير حتى تذوب وتتلاشى

ما بين مكوناته من حساسيات وأحقاد، ويتحول إلى كتلة قوية يصعب خرقها، وتكون مؤثرة عند الدفع بها.

السعداوي له القدرة على ذلك، حتى في وقت الراحة والفراغ كانت له اجتماعات بالأفراد متواصلة، يرقع ما يسميه تارة بالجرد البايد، أي المجتمع المهلهل، وكان يقول أنه من مهامه في الماضي التوفيق بين المتنافرين، كلما حدث خلاف بين زعيمين محليين في جبهة واسعة مترامية الأطراف يدعى السعداوي إلي امتطاء جواده و الإسراع للإصلاح، ومن المؤسف أن لا ينتهي من مشكلة حتى تحدث مشكلة في مكان آخر. أساليب الخصم كثيرة ودسائسه لا تنتهي، وليس كل النفوس بنفس القوة والنقاء، ومادام هناك بشر هناك مشاكل، وهناك من يوقد النار، ولذا يجب على رجال الإطفاء أن يكونوا جاهزين يقظين.

352 **حياته اليومية:** كان حول بشير بي أفراد يعيشون معه يومياً، الدكتور فؤاد شكري، أحمد زارم، علي مصطفى المصراتي، على المسلاتي، سليمان دهان، عبد الرحمن دقدق، وتارة مصطفى السراج، كانوا يأكلون على مائدته.

وكان من عادة بشير بي أن يقوم بجولة بعد عصر كل يوم في سيارته الأمريكية الفارهة حول المدينة، سائقه الهادي السكلاني، ويصحب أحد الموجودين من حوله. صحبته في أكثر من مرة أذكر منها ثلاث مناسبات، كنت معه ومع زارم وعند مرورنا على الطريق المؤدي إلى الهضبة الخضراء أمام المزرعة المؤجرة من طرف أخي علي، طلبت من السائق الدخول إلى المزرعة ولكن لم أجد أحدا، كان العمال يشتغلون بعيداً، والمضخة تدفع بالماء في حوض كبير وأوراق شجرة توت ظليلة تداعب أو يداعبها النسيم، أخي علي لم يكن موجوداً بحثت عن كرسي أقدمه لبشير ليستريح عليه فلم أجده وأخيرا وجدت بردعة حمار مرمية، أخذتها ونفضت عنها التراب وأسندتها على جدار مبنى منزل قديم، وقلت لبشير بي، هذا الموجود، وكانت (بِرادة) ماء قُلة من طين وضعتها جنبه، جلس بشير بي على البردعة واستند على الجدار وشرب من القُلة مباشرة وبدأت عليه علامات الارتياح

التام، وقال يا سلام ما أسعدها من جلسة، ولا فندق خمسة نجوم، ذكرتني بجلسة في سانية عمي فلان ....في الخمس عندما كنت صغيراً، كنت مع زارم وقوفاً سعداء لسعادة هذا الرجل الذي كنا نجله.

المرة الثانية كنت مع بشير بي في السيارة ومعي خليفة شعبان، أحد الليبيين المهاجرين في السعودية، فقد عاد أخيرا لزيارة أهله في منطقة سوق الجمعة، وكان مقرباً من بشير بي، وقفنا في قرية شعبية فقيرة لا أذكرها ولا أدري لماذا، التف حولنا أطفال صغار وصاروا يهتفون ويصفقون سعداوينا... سعداوينا... سعداوينا... تأثرنا وتأثر بشير بي أكثر لهذا المشهد، وقال ربنا يقدرنا على إسعادهم.

## 353 ما أحوجني لمثل هذا الدعاء:

وفي مرة ثالثة في رحلة من طرابلس إلى ترهونة ومسلاتة والخمس و طرابلس، وكنت مع بشير بي وعبد السلام المرّيض، من رجالات ترهونة المعدودين، وعند وجودنا في منطقة الداوون بين ترهونة و مسلاتة، وقد كانت الطبيعة جميلة، الفصل ربيع، والجو مشمس، والبادية خضراء مزهرة، وقفنا قرب راعي غنم لا نعرفه ولا يعرفنا، وحييناه وحيانا، وصرت أستدرجه للحديث في السياسة. سألته هل تعرف بشير بي السعداوي؟ قال لا، ألم تجتمع به ؟ قال لا، هل تسمع عنه ؟ قال نعم، و ما رأيك فيه ؟فأثنى عليه ثناء عطراً بطريقة عفوية، و أسلوب بدوي لا تكلف فيه، ثم اخذ يدعو له بالنصر على الأعداء، والحفظ والسلامة، وبالنجاح في مسعاه لصالح البلاد والعباد والدين، استمعنا إليه باستغراب وعلق بشير بي بقوله ما أحوجني إلى مثل هذا الدعاء!

حيينا الراعي من جديد، واستأنفنا الرحلة.

سبحان الله ! السعداوي في ذلك الوقت لم يكن حاكماً، ولا سلطة له ولا شرطة ولا جيش وليس له مال، لا نفط ولا أرصدة في مصرف ليبيا المركزي، لم تكن له وزارة إعلام، ولا صحف ولا إذاعات مسموعة أو مرئية. كان يدعو لقضية

سياسية وطنية بالكلمة الصادقة، والحكمة والموعظة الحسنة. وكان الناس الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه يحبونه.

الذي أعرفه عن عائلة بشير بي أنها من مصراته، نشأ بشير و تعلم في الخمس، و له ثلاثة إخوة، أحدهم اسمه أحمد على ما أذكر، توفي منذ مده، و عرفنا الآخرين نوري و مختار و عرفنا ابنه الوحيد عبد الحميد الذي عمل في السلك الدبلوماسي السعودي.

إخوة بشير بي يختلفون عنه، نوري عمل في الشؤون المالية، يحب الحساب عنيد غير مندفع أو مغامر، مختار خفيف الظل يحب النكتة و الحياة الاجتماعية المرحة توفي بشير بي رحمه الله في بيروت أثناء زيارته لها في شهر 1/ 1957، ودفن بها، ونقل جثمانه بعد الثورة إلى طرابلس، ودفن في مقبرة سيدي منِيذر.

354 **الزيارة الأولى للسيد إدريس إلى طرابلس:** أذكر صباح أحد أيام شهر رمضان في شهر 7/ 1949، خرجت من منزلي بشارع بنغازي إلى حيث تقف سيارة مصلحة الزراعة لتنقل الموظفين إلى سيدي المصري. الطرق كانت خالية، المدينة تستيقظ متأخرة وخصوصاً في رمضان. كنت في بداية شارع بنغازي سمعت من ينادي مصطفى مصطفى، التفتُ إلى حيث الصوت، فوجئت ببشير بي جالساً في شرفة الشقة التابعة لمنزل الحاج محمد الكريكشي التي كان يقيم بها، دعاني إليه فجلست أستمع إليه في الشرفة.فبدأ حديثه قائلاً السيد إدريس سيقوم الأسبوع المقبل بزيارة إلى طرابلس في رحلة في طريقه إلى لندن عبر تونس، أريد أن يستقبل استقبالاً شعبياً لا مثيل له يبقى في ذاكرته بقية حياته. هذه الزيارة امتحان لنا، لو كان الاستقبال فاتراً، أو مشوشا، سيستغله الخصوم سلاحاً ضدنا.الإنجليز وأعوانهم في برقة يتمنون ويسعون إلي أن لا يكون استقبال، بحجة حفظ الأمن وخوفاً على سلامة الزائر. والخصوم في طرابلس يتمنون ويسعون لذلك أيضا ليقولوا بعد ذلك إن السيد إدريس مكروه من الشعب الليبي في طرابلس. أعرف أن الجماهير فاترة في هذا المجال، والشهر شهر صيام، والوقت ضيق، ومع هذا أريد أن تكون الاحتفالات بالسيد إدريس طوال إقامته في طرابلس تبهر الجميع.

سأعين اليوم لجنة تشرف على هذه الاحتفالات، وستكون أنت رئيسها.وفي هذه الأثناء انضم إلينا الحاج محمد الكريكشي، واشترك في الحديث معلقاً، إن الوقت ضيق والهمم فاترة كثيراً وربنا يستر. أضاف بشير بي: وإذا احتجت إلى مال اطلبه من الحاج محمد.

## 355 حمل الجماعة ريش:

شرف كبير خصني به الزعيم، وورطة كبيرة وقعت فيها، ماذا تستطيع أن تفعل يا مصطفى ؟ في هذا الجو الذي أشار إليه بشير بي، و أكده الحاج محمد، وأعرفه أنا أيضا ؟ لا مناص من مواجهة المشكلة، وقلت لنفسي: إن الزعيم قال إنه سيعين لجنة في هذا المساء، وستتوزع الأدوار على أعضاء اللجنة، وكل واحد سيهتم بقطاع وحمل الجماعة ريش. عيّن بشير بي لجنة جميع أعضائها من الشخصيات المحترمة، متعلمة بيروقراطية مثلي أو أكثر، تعودت أن تجلس على كراسٍ مريحة، وتناقش، تعلق، تتشاجر، وتقرر، لكن من يستطيع إخراج الرجل الهادي العادي العامل في حقله، أو دكانه أو ورشته، من مكان عمله المعتاد ليستقبل طواعية السيد إدريس. هاتفاً صائحاً بأعلى صوت "يعيش الأمير....إدريس، تعيش ليبيا الموحدة المستقلة...". اجتمعت اللجنة مرة أو مرتين بأعداد متناقصة من أعضائها، وشعر الجميع بحجم المشكلة واختفى معظمهم، وواصل عدد قليل العمل وساهم آخرون من غير اللجنة في المجهود، أذكر منهم على الخصوص الحاج جميل المبروك. وانتشر خبر الزيارة في الأوساط الشعبية بسرعة، وعلم الجميع أن الزعيم يرغب في استقبال لم تشهده طرابلس من قبل، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون....هذه الرغبة رغبة الزعيم، كان لها فعل السحر، فهي كالتيار الكهربائي الذي لا يرى بالعين، ولكنه ذو تأثير خارق يحرك كل شيء. كنت خائفاً من المسؤولية، وكنت مشدود الأعصاب أحاول إخفاء خوفي وتوتري ولكن عبثاً. المهم أنه كان استقبالاً كما يريد الزعيم، شيء مدهش، محير، زينت المدينة بشوارعها وأزقتها بالمتاح في ذلك العهد، وكان محدوداً بسيطاً، جريد النخيل، ولافتات وأعلام، وخرجت الجماهير من كل فج عميق، تهتف وتهتف.

ووصل بها الحماس أن التفت حول السيارة التي كان بها السيد إدريس، وبشير بي أمام مقر المؤتمر، وحاولت رفعها في الهواء على السواعد، وأطل السيد إدريس سمو الأمير من شرفة المؤتمر على الجماهير المحتشدة الهادرة يوم 1949/7/19، وبجنبه بشير بي، والشيخ المفتي أبوالأسعاد العالم، والحاج مصطفى ميزران، وآخرون يحاولون الظهور في الشرفة أمام الجماهير ليقولوا نحن هنا. وكان الشاب محمود اندير بآلة الفيديو الخاصة يسجل مراحل الاحتفال وهو من شباب المؤتمر النشطين وكنا فخورين به.

356

**السيد إدريس والسعداوي والإنجليز:** السعداوي كان يقول للسيد إدريس عندما يجتمع به على فترات متباعدة: أنا بجنبك، والشعب حولك، والجامعة العربية معنا، فلا تخش الإنجليز أو غيرهم. الإنجليز بدورهم يقولون للسيد إدريس صباحاً مساءً مباشرةً و عن طريق أعوانهم: إن السعداوي استغل سذاجة الشعب، واستفاد من الجامعة العربية، وهو الآن يضغط عليك بجماهير الشعب ليجعلك أسيرا في قبضته، يوجهك حيث يشاء. احذره ! إنه الخطر المحدق بك!.

وكان السيد إدريس المسكين وهو في بداية شيخوخته وقد وهن منه العظم وغير العظم، وسط عواصف، ومطالب بأن يتخذ قرارات مصيرية خطيرة، و مستشاره الملاصق له طول حياته السيد إبراهيم الشلحي.

السيد إدريس من طبعه حب الهدوء، والحديث مع أخلص المقربين له بالأسلوب الذي تعود عليه طول حياته، ويستريح له. كان يحب الطبخ على نار هادئة، كان يؤمن بالتدرج، يؤمن بأن الأمور تعالج بالحكمة لا بالصياح.

الطبيعة لم تكن سخية مع السيد إدريس، لم تزوده بحنجرة قوية وأحبال صوتية متينة، صوته كان خافتاً، صوت طفل على جسم شيخ وقور، وربما كان من الأسباب بالإضافة إلى أخرى تجعله ينفر من الاجتماعات الصاخبة، وأكاد أقول يخشى الجماهير، في هذا الجو المشحون كان الحوار والتفاهم، والخصام والتصادم بين العناصر الرئيسية المسيطرة على مسرح الأحداث في تلك الفترة من تاريخ ليبيا آخر الأربعينيات و أول الخمسينيات....إدريس - الإنجليز - السعداوي.

357 **خطاب سمو الأمير:** وصل الركب السامي مقر المؤتمر في شـــارع عمر المختار وسط حماس وترحاب شعبي هائل. و ألقى بشير بي كلمة حماســية عبّر فيها و أكد أهدافه المعلنة والمعروفة بقوة، وجاء دور سمو الأمير، لم أكن في الشرفة أزاحم مع من يزاحم، كنت في الشارع وسط الناس، فرداً من آلاف الأفراد، وكان يحلو لي أن أستمع إلى الخطب وأنا وسط الجموع لا على الشرفة أو المنصة أو المسرح، أشعر بمتعة وأنا أتفاعل مع الجمهور الذي حولي، لا أعرف كيف أعلل ذلك، وأترك ذلك لخبراء علم النفس.

السيد إدريس ألقى كلمته والله أعلم بنفسيته في تلك اللحظة، وختم كلمته بقوله أنا مسافر إلى لندن، وسأبلغ رغباتكم إلى بريطانيا العظمى...

كلماتـــه الأخيـــرة كانـــت دشـــاً بـــارداً جـــداً علـــى مـــشاعر الـــشعب الملتهبة....السعداوي كان يقول لهم ليثير حماسهم، بصوت قوي جهور، لقد حاربنا في سبيل الحرية والوحدة والاستقلال، وسنحارب الإنجليز والأمريكـــان والطليـــان والفرنسيين، والعالم أجمع إذا لزم الأمر لذلك...ثم يأتي السيد إدريس الملك المرتقب فيقول لهم بصوت يكاد لا يسمع حتى مع وجود مكبر الصوت: سأبلغ رغباتكم إلى بريطانيا العظمى !....

الجماهير أصيبت بإحباط شديد عند سماعها لخطاب السيد إدريس، وواصلت هتافها مجاملة للسعداوي وضيفه، وأدبا منها وبحكم العادة، وببقيـــة الطاقـــة التـــي شحنت بها. وفي قرار نفسها كانت معاتبة للسعداوي تقول له: هذا هو الرجل الذي تريد تنصيبه ملكاً علينا ؟ ما شاء الله عليك وعليه، إنه سيبلغ رغباتنا...!

358 **الاحتفالات مستمرة:** انتهى احتفال اليوم الأول بـــسلام وبالـــشكل المطلوب، ومن حسن الحظ أن دور الجمـــاهير فـــي الاحتفـــالات انتهـــى، ولكـــن الاحتفالات ستستمر حسب البرامج المقررة.

قررت السلطات أن يقيم السيد إدريس و عائلته في فيلا محمود المنتصر بمنطقة رأس حسن شرقي طرابلس، واتخذت الإجراءات الأمنية لذلك. ابتهج محمود المنتصر ومن حوله بهذا القرار، وكنا نصفهم تلطفاً بغير الشعبيين، ورأوا فيه شرفاً كبيراً لهم، واستاء الشعبيون من ذلك قبل سماعهم خطاب الأمير ولكن منذ سماعهم الخطاب تغيرت مشاعرهم، ولا يهمهم أين يقيم ضيف الإنجليز والمناصرة.

برنامج احتفال اليوم الثاني سيكون مساء في حديقة قصر بالبو سابقا (هذا القصر تعددت صفاته عبر السنوات، كان مقرا للمحاكم في عهد الحكم العسكري البريطاني، ومقرا لإقامة الملك في عهد الاستقلال، و قصر الشعب في بداية عهد الثورة والآن هو مقر للمكتبة القومية )

359

## صيغة الدعوة تسبب أزمة:

وجهت لجنة الاحتفالات التي كنت أرأسها الدعوة إلى مئات المدعوين من الشعب والأجانب، وشخصيات الإدارة البريطانية، والسلك الدبلوماسي، وكانت صيغة الدعوة تبدأ بعبارة " احتفالاً بسمو الأمير محمد إدريس السنوسي ". قبل موعد الاحتفال اتصل بي مدير الشؤون السياسية الإنجليزي، وكان يتكلم العربية جيداً، وقال لي: يبدو أن المؤتمر غير جاد في دعوتنا، ولا يريد حضورنا الاحتفالات، إضافة لقب سمو الأمير إلى السيد إدريس السنوسي يحول دون حضورنا...حكومتنا لم تعترف به أميراً...وحضورنا الحفل يتناقض مع موقفها، لقد اتصل بي ممثل فرنسا وأمريكا، وأبلغوني نفس الشعور، إذا عُدلت صيغة الدعوة نحضر، وإذا لم تُغيروها فلن نحضر... فوجئت بهذا الموقف، كنت مشغولاً بأمور تنظيمية للحفل، الكراسي وعددها، ومنصة الأمير، وبرتوكول الاستقبال، والمشروبات، الشاي، الإضاءة، النظام العام، ووجدت نفسي أمام مشكلة غير متوقعة على الأقل بالنسبة لي. وتوجهت إلى بشير بي لأخبره بالجديد، فابتسم وقال كنت أتوقع منهم ذلك، يريدون إحراجنا وتحقيق أهدافهم، وطلب مني أن أرد عليهم باسمه أن محمد إدريس السنوسي سيكون أميراً وملكاً، وستعترف به الحكومات، وأن بطاقات الدعوة لا تعدل، وأننا نرحب بقبولهم

الدعوة وقدومهم. ولم يحضر الإنجليز والأمريكان والفرنسيون، وحضر وفد من وجهاء اليهود، ووفد من وجهاء الطليان يتقدمهم المحامي تشيبيلي.

ثالث يوم وُدِّعَ الزائر الكبير شعبياً ومن السلطة، واستراح مصطفى، حزب الكتلة مسرور بنتيجة الزيارة كان يقول إن إدريس ظهر على حقيقته رغم المجهود الذي يقوم به السعداوي لتلميعه وتسويقه للشعب، لا يهم الكتلة كيف يكون المصير، المهم التمسك بالمبدإ، كانت تراهن على أن الإنجليز سيذعنون لمطالب الجماهير ويعدلون سياستهم.

## 360 مؤتمر تاجوراء:

قرر المؤتمر أو بشير بي عقد مؤتمر جديد، هذه المرة في تاجوراء شرقي طرابلس يدوم يوماً واحداً، عقد في جامع مراد آغا الكبير، ويظهر أنه وقع خلاف بين بشير بي وعزام باشا حول طريقة التعامل مع إدريس. عزام يريد أن يضغط أكثر على إدريس حتى يبعده عن الإنجليز، ملوحاً بمبادئ حزب الكتلة الوطنية التي تقول: إن نظام الحكم يقرره الشعب، لا الإنجليز الذين يوحون بإرادتهم إلى شيوخ برقة الذين بدورهم يريدون فرض آرائهم على إقليم طرابلس ذي الكثافة السكانية المستنيرة.

السعداوي يرى أن المبالغة في الضغط على إدريس ستؤدي إلى نتيجة عكسية، نحن نضغط وهو يزداد التصاقاً بالإنجليز، هذا الخلاف على طريقة التعامل مع الأحداث، وتّر العلاقة بين بشير بي وحليفه عزام الذي بدأ يشكك همساً في شعبية السعداوي. و أراد السعداوي إثبات غير ذلك ونفي التهم التي كانت تلصق به على أنه يأتمر بأوامر عزام ويتآمر معه إرضاء للحكومة المصرية التي تتعامل مع القضية الليبية على أنها ورقة من الأوراق الكثيرة، لدى وزارة خارجيتها. فكان مؤتمر تاجوراء تأكيداً للتمسك بإدريس، ووثيقة أخرى أضيفت إلى أرشيف الوثائق التاريخية التي سبقتها.

361

**الوضع الدولي والوضع داخل ليبيا:** الحلفاء السابقون مازالوا مختلفين على أمور كثيرة، وخصوصاً على ليبيا، استمرت الاجتماعات في هيئة الأمم وغيرها على شكل لجان وفي الكواليس، ولكن دون فائدة.

الوضع في الداخل صورة من الوضع الدولي، الإنجليز نشطون في برقة، يوعدون ويتوعدون ويحذرون، الفرنسيون متمسكون بفزان بكل ما يستطيعون، متخذين من أحمد سيف النصر العجوز وأفراد عائلته وممن والاهم، ركيزة تنطق باسمهم وبمصالحهم، وإن كانت عائلة سيف النصر من حسن الحظ مؤيدة للعائلة السنوسية، وتقبل بزعامة السيد إدريس السنوسي.

وهذا الولاء للسنوسيين ترك الباب مفتوحاً لإحياء وحدة ليبيا إذا سمحت الظروف الدولية بذلك، وكونت تحالفاً ضمنياً بين إقليم فزان وإقليم برقة اللتين تخشيان الأخت الكبرى طرابلس المتفاخرة بعدد سكانها وتقدمها اجتماعيا وحضارياً.

362

**الوسواس الخناس:** الوسواس الخناس كان نشطاً، كلما حاول السعداوي إطفاء فتنة في جهة ما، والتقريب بين الأخوات الثلاث، اجتهد آخرون في التفريق، والوسائل كثيرة، والفعل ورد الفعل على أشده، تصريح أو تصرف بقصد أو بغير قصد، يحمل ما لم يتحمل، والحبة تصبح قبة، والسعداوي يحاول رفيه للنسيج الوطني بكثير من الصبر في طرابلس التي كان إيمانها بكفاءة السيد إدريس للملك غير راسخ.

ويحاول وصل أدوات التفاهم مع برقة مباشرة، ومع فزان بطريقة غير مباشرة. كان السعداوي موضع شك وتشكك من طرف بدو برقة المتمثل في المؤتمر البرقاوي، وكان محل تقدير من طرف جمعية عمر المختار التي يصرف أمورها شباب نشطون منهم مصطفى بن عامر، وبشير المغيربي، ومحمود مخلوف، وعلي الفلاق، كلهم وطنية وحماس لوحدة ليبيا واستقلالها تحت تاج الملك إدريس، وكلهم انتماء للقومية العربية الكبرى، ولذا رأى السيد إدريس بأسلوبه الخاص الهادئ الخفي، والسعداوي بشعبيته المتعاظمة، تقريب وجهات النظر بتوالي

الزيارات لوفود من هنا و هناك لعلها تساعد على إيجاد جو من التعارف والتفاهم والتوادد والثقة والانسجام والتكتل حول مبادئ، وحول خطط تحقق الأهداف العامة و المنشودة المتفق عليها. اشتركت في أكثر من وفد زار برقة ضمن شخصيات كانت لامعة في ذلك الوقت على المسرح الوطني والسياسي، الشيخ محمد أبوالأسعاد العالم، الحاج مصطفى ميزران، والحاج محمد الميت، والأستاذ علي مصطفى المصراتي، الشيخ عبد الرحمن القلهود، طاهر بي المريّض، أحمد بي عون سوف، الأستاذ أحمد زارم، الحاج محمد الكريكشي، الأستاذ الطاهر باكير، الأستاذ محمد الزقعار، الأستاذ الصادق بن زراع، عبد العزيز الزقلعي، السيد أحمد الحصايري، السيد أحمد قنابة، الحاج محمد سيف النصر، سايح فلفل، الحاج منير العروسي، الشيخ صالح خماج، سليمان دهان، صالح عمار، الأستاذ أحمد نبيه، كمال فرحات، الشيخ صالح بن رابحة، علي تامر، الشيخ عبد الرحمن دقدق، وغيرهم.

363 **محمد عبد الحي:** كنا أثناء الزيارات محل ترحاب وولائم، وكانت مناسبة للتعرف إلى شخصيات كثيرة من برقة، وأدت هذه الزيارات دورها رغم نشاط الوسواس الخناس، وأذكر أنه عند نهاية إحدى الزيارات التي كانت ناجحة، وأدت إلى الاتفاق على الكثير من التفاصيل، أقيم حفل في قصر المنار في بنغازي نفسها، وضم مجموعة كبيرة من شخصيات برقة بدواً وحضراً، وجميع أعضاء الوفد الطرابلسي، وكان توزيع الشاي والحلوى، وكان يجلس وسط القاعة السيد إدريس، وفي جنبه بشير بي السعداوي، كان جواً سياسياً وطنياً منعشاً، وأراد بشير بي أن يضفي عليه لوناً زاهياً فقام، وتوجه إلى السيد إدريس قائلاً "سمو الأمير يسعدني في هذه المناسبة السارة والثقة والتفاهم والانسجام سائد بين الإخوة شرقاً وغرباً، أن التمس منكم التفضل بتعديل لقب أحد أعضاء المؤتمر الوطني الطرابلسي، الحاج محمد الميت، فهو من الشخصيات الوطنية الصادقة العاملة بكل جهدها في المجال العام، لقبه غير مناسب مع حيويته، لقبه، الميت وإني أقترح على

سيادتكم تعديله إلى محمد عبد الحي " ابتسم السيد إدريس وهز رأسه وساد القاعة هتاف وتصفيق شديد.

364 **أحاديث السعداوي:** كانت حياة بشير بي مليئه بالأحداث السارة وغير السارة والمتنوعة في الطعم والمذاق، وكان صاحبها متحدثاً لبقاً يتحدث باستمرار عن تجاربه وما واجهه من مواقف لعل في ذكرها فائدة للمستمع .

أذكر من بعضها أنه كان في سرت مع مجموعة قليلة من صحبه منهم بن عامر (من عائلة بن عامر الشهيرة في بنغازي التي عرفت من أفرادها الأفاضل الأستاذ محمد بن عامر المحامي، والأستاذ المربي والصحفي مصطفى بن عامر الذي كان يرأس جمعية عمر المختار، وربما كانت الشخصية المقصودة هي والده).

حالة الوطنيين الحربية في غاية السوء، الطليان يكتسح المواقع الواحدة تلو الأخرى، واليأس يتسلل إلى النفوس، وهم في هذه الحالة في سرت، مر عليهم بدوي في أسوأ حال، يمشي على عكازين يدفع بحماره الهزيل أمامه وعليه بعض الحطام من المتاع متجهاً شرقاً، أغاثوه بشيء من الماء والأكل وصار السعداوي يحاول ديدنه رفع معنويات المسكين ويشحنه حماساً، وكان يردد عليه بعض الآيات الكريمة التي تحث على الصبر والثبات، وقوة العزيمة والجهاد، فانضم إليهم بن عامر، ويظهر أنه كان في حالة شديدة من القنوط، فصاح قائلاً كفاية يا بشير..سيب الناس تهرب...تنجوا بجلدها...ألا يكفيك ما هو عليه هذا المسكين؟ وضحك بشير بي والبدوي وبن عامر وضحكنا نحن الحاضرين أيضا عند استماعنا للحكاية.

365 **مغادرة الوطن:** حكاية أخرى.بلغت الحالة الوطنية أشدها يأساً، ولا قدرة على المقاومة ولا فائدة من البقاء، حان وقت مغادرة الأوطان، حان موعد الهجرة وإن شئت قل الفرار، تكونت قافلة قليلة العدد والإمكانيات، واتجهت جنوباً وشرقاً نحو الحدود المصرية، جهة سيوة، واخترقت صحراء قاحلة، قاحلة حقاً لا ماء فيها ولا مرعى، مهلكة حتى للبدو، وقليل من يعرف مسالكها ويتحمل مشاقها. وعندما بلغوا أحد المنافذ على الحدود استقبلتهم الشرطة وكانوا شعثاً غبرا في غاية

الفوضى، وطلبوا الدخول إلى مصر، لم يكن معهم أي وثائق أو تعريف هوية، ويقول بشير بي إنه استجوبه الضابط رئيس المخفر، ومن ضمن الأسئلة التي وجهت إليه ما هي حرفتك ؟ يقول بشير بي احترت في أمري، صدمني وهزني هذا السؤال كثيراً. منعنا من الدخول أولا، ثم اتصل الضابط برؤسائه تسلسلاً حتى القاهرة، و أخيرا صدرت الأوامر باستقبالهم باعتبارهم وطنيين مجاهدين مهاجرين يطلبون اللجوء السياسي. وصلوا القاهرة وسط حفاوة شعبية خصوصاً من عائلات الباسل ولملوم و طوسن، الموقف الرسمي كان فاتراً، لأن بعض كبار المسؤولين كانوا ميالين لمجاملة إيطاليا، وطويت صفحة وفتحت أخرى.

366 **السعداوي والخوري:** حكاية ثالثة. بعد الإقامة في مصر، انتقل بشير بي إلى سوريا، حيث اجتمع لفيف من القادة الوطنيين المهاجرين ومنهم عمر شنيب من برقة، وكونوا لجنة الدفاع الطرابلسية البرقاوية، و استأنفوا الكفاح ضد الطليان إعلاميا، و أثناء فترة إقامته في سوريا، وكان مسافراً بالقطار من دمشق إلى اسطنبول، جلس بجانبه أحد المسافرين، الرحلة طويلة ورتيبة، وكالعادة تنطلق الألسنة في مثل هذه الظروف لتخفف شيئاً من الملل، واحتدم النقاش بين المسافرين، مجاله المفاضلة بين المسيحية والإسلام، وكان من المواضيع التي يحلو الكلام فيها في آخر العشرينيات، وتحمس السعداوي للدفاع عن الإسلام بكثير من العفوية والحماس والتعصب.ووصل القطار المحطة الأخيرة إسطنبول، واستعد الجميع لمغادرته وتقدم مُحاور السعداوي مودعاً قائلاً محسوبك فارس الخوري، فوجئ بشير السعداوي بذلك، فارس الخوري الأديب والوطني السوري المسيحي، كان مشهوراً جداً، ولكن السعداوي لم يسبق له التعرف إليه شخصياً، فرد بشير بي قائلاً بشير السعداوي من ليبيا، ثم سكت برهة استعاد فيها توازنه، وواصل قائلاً، فارس بي إني مازلت متمسكاً برأيي في الحديث الذي كنا بصدده، لا أتراجع، و ضحك الخوري، وقال تشرفنا و أنا كذلك، وافترقا. ومرت سنوات كثيرة حافلة بالأحداث وشاءت الأقدار أن يتلاقى فارس الخوري مندوب سوريا في هيئة الأمم، وبشير السعداوي ممثل ليبيا، أثناء مناقشة قضية ليبيا في الجمعية العامة، وكان سلام،

وعناق حار، وسأل فارس بي بشير بي ضاحكاً هل مازلت متمسكاً برأيك ؟ألم تتراجع ؟ فضحك بشير بي هو أيضا قائلاً أبداً، وإن لم يتفقا على رأي موحد أثناء رحلة دمشق اسطنبول، اتفقا هذه المرة حول وحدة ليبيا، واستقلالها وعملا سويا في سبيل ذلك.

367 **الحجة الأولى:** في أواخر الأربعينيات، رغبت الوالدة في الحج وصارت أمنية تلح عليها وعلى مصطفى، وفي سنة 1951 أثناء وجود بشير بي السعداوي في طرابلس، وهو يستعد للسفر إلى مصر، تطرق الحديث في إحدى المناسبات للحج وما تقوم به السعودية من مجهودات لتأمين سلامة وراحة الحجاج، حيث كان هو مستشار الملك عبد العزيز آل سعود مؤسس الدولة السعودية، ومن تولى من بعده من أولاده، وكنا في شهر ذي القعدة، وكان من تقاليد المملكة السعودية، أن كبار رجال الدولة ومنهم مستشارو الملك، ومن ضمنهم بشير السعداوي، مخول لهم استضافة عدد من الأفراد يحجون ضيوفاً علي الملك ويطلق عليهم اصطلاحاً ضيوف الرحمن.

في ذلك الظرف، وفي تلك المناسبة عرض علي بشير بي الانضمام إلى وفد كان يعده، رحبت وسعدت كثيراً بالعرض، واقترحت لو في الإمكان مرافقة والدتي لي في هذه المناسبة السعيدة لشدة إلحاحها على الحج كما قلت.

لم يكن من التقاليد انضمام السيدات لضيوف الرحمن، ولكن استثناءً، وافق بشير بي علي رغبتي، وتحققت رغبة الوالدة.

الوفد كان يتكون من نحو عشرة أفراد معظمهم كانوا من مصر، ومن ليبيا كان عبد السلام المريض.

الحجة كانت مرفهة جداً على كل المستويات، رغم أن بعض رفاهيات الوقت الحاضر التي صارت الآن في متناول الكثيرين، كانت في بداية الخمسينيات غير موجودة في السعودية، منها تكييف الهواء صيفاً.

كنا في شهر 8، في أشدّ الصيف، ونزل الوفد في أرقى فنادق مكة، فندق بنك مصر، وكانت الغرفة التي أقمنا بها مزودة بالمراوح الكهربية فقط.

أذكر أنه عند مغادرتنا عرفات، بعد المغرب إلى المشعر الحرام، كنا مع وفود كثيرة عربية وإسلامية، وعند وصولنا المزدلفة انتشر خبر بين الجميع، أن السيارة التي كانت تقل سماحة مفتي مصر الشيخ حسنين مخلوف تاهت وكان البحث جارياً عنها في قلق.

وحيث لم تكن جميع الطرق معبدة، وفي زحمة النفرة، أراد سائق سيارة المفتي اختصار الوقت، فحاد عن الطريق المألوف، وغاصت السيارة في الرمال حتى أمكن إخراجها بمشقة، وانضم المفتي من جديد لضيوف الرحمن واستمتع مثلنا بعشاء فاخر في تلك الظروف، على طريقة الوجبات التي تقدم علي الطائرات، ومن ضمن ما قدم الفاكهة و المثلجات.

جو الرحلة و ما كان فيها من رفاهية جعل الوالدة تعتقد بأنها حجة غير مقبولة، أو في الغالب قليلة الثواب، وتتمنى تأكيد الحجة الأولى بحجة ثانية في ظروف اعتيادية، وقد كان لها ذلك برفقة أخي علي بالباخرة.

حجتي الثانية كانت على نفقتي سنة 1971 برفقة زوجتي و آخرين من العائلة.

368 **المستشرق الحاج عبد الله فلبي:** من التقاليد المرعية في السعودية أن ضيوف الرحمن يستقبلون من الملك، وكان حينذاك الملك سعود وكانت مناسبة لتحية الملك وشكره واستلام هدية تذكارية منه عبارة عن ساعة عليها صورته وشعار المملكة.

في تلك المناسبة كنا في إحدى قاعات القصر ننتظر دورنا، أقبل على بشير بي رجل في الخمسينيات من عمره بملابس عربية وعقال، ذو لحية حمراء، ممتلئ قليلاً، أبيض البشرة مع سمرة مستحدثة، و حياه بحرارة.

كنت مع عبد السلام المريض بجنب بشير بي، فعرفنا به وعلمنا أنه الحاج عبد الله فلبي، إنجليزي، عالم بالآثار،مستشرق، أسلم، وانضم في ظروف تتقنها المخابرات الإنجليزية إلى الحاشية الملكية، وصار مقرباً من الملك، وكان يتكلم العربية بطلاقة.

عبد السلام المريض كان من شخصيات عائلة المريض الشهيرة الترهونية في فترة العشرينيات وما قبلها أثناء مقاومة الاحتلال الإيطالي، وعاد ضمن من عاد من المهاجرين إلى ليبيا.

الفترة كانت إبان الحكم العسكري البريطاني، ومستقبل ليبيا السياسي غير واضح، ولم تكن للإنجليز خطة صريحة بالخصوص. وولاء ترهونة صار موزعاً علي زعامات أخرى ظهرت في غياب عائلة المريض.

عبد السلام المريض كان من المؤتمر الوطني، من أنصار السعداوي، لم تكن له حظوة عند الإنجليز، كان من الصنف الذي يقول للأعور أعمي رغم أنه يبصر بعين واحدة، يقولها دون مبالاة، وكان في خصومات مع بعض عائلة المنتصر، وباختصار كان في ضيق نسبياً، وربما لهذا السبب رغب بشير بي الترفيه عليه بضمه إلى ضيوف الرحمن هذا هو عبد السلام المريض الذي وجد نفسه أمام شخصية إنجليزية مرموقة تتكلم اللغة العربية و في ظرف غير متوقع فأراد أن يغتنم الفرصة، و يفضي بما في نفسه من تذمر من الإنجليز حكام ليبيا و معاملتهم له و كبتهم لحرية الأهالي و...إلخ.

الحاج عبد الله فلبي استمع باهتمام لأول حديث الحاج عبد السلام ثم أخذ هو المبادرة وشن حملة شعواء على الإنجليز وطريقتهم الخاطئة الغبية في التعامل مع الشعوب.

واضطر عبد السلام المريض إلى الكف عن الكلام، وكانت له غصة، نفسه محتاجة إلى أن تبوح بما كان يضغط عليها من مشاعر تحتاج إلى أن تفضفض، أن تشنع بالإنجليز بصوت عالٍ، ولكن الحاج عبد الله فلبي فوت عليه الفرصة، فتضايق أخونا الحاج عبد السلام أكثر من الإنجليز ممن كفر منهم أو أسلم.

فارقنا الحاج فلبي إلى آخرين، وقابلنا الملك، ومزاج الحاج عبد السلام جد متعكر، ولم تعد له طمأنينته وصفاؤه إلا بعد أن استقبل الكعبة، وصلى العشاء في الحرم ودعا بما تيسر على الإنجليز ومن والاهم، وفوض أمره إلى الله الواحد القهار.

369 **الحج والزميتة:** كان السفر إلى الحج في غابر الأزمان رحلة شاقة تتم على ظهور الإبل ضمن قوافل كبيرة، وكان لابد للحاج من أخذ الزاد معه، وكانت "الزميته" "السويق" (دقيق شعير محمص يعجن بالماء ويؤكل) عنصراً أساسيا في الزاد. وتأصلت هذه العادة في الليبيين بدواً وحضراً، وصارت كأنها ركن من أركان الحج لا يصح بدونها، وتطورت وسائل السفر إلى سيارات ومراكب وبواخر وطائرات، وبقيت الزميته ملازمة للحاج الليبي رغم أن مدة الرحلة قصرت كثيراً، وصارت ساعات بدلاً من الأشهر والأيام، ورغم أن أسواق السعودية زاخرة بما لذّ وطاب من أشهى المأكولات.

والدتي أثناء حجتها الأولى وحجتها الثانية كانت تحمل معها " الزميتة "، أذكر أنه بعد قضاء فرائض الحج وأركانه كان وفد بشير بي السعداوي الذي كنت ضمنه مع والدتي في مدينة جدة، ننتظر موعد مقابلة الملك سعود وشكره، وكانت الإقامة في فندق " البساتين " الفاخر، وكانت الوالدة رحمها الله تضيف إلى إفطارها صباحاً المقدم لها من مطعم الفندق كمية من الزميتة التي معها.

في أحد أيام الانتظار التي طالت، وكنت رائق المزاج، أخذت كمية من الزميتة، وعجنتها جيداً وكبستها في فنجان مقلوب، فأخذت شكل قبة، ورششت عليها السكر الناعم، وطلبت من النادل السوداني النوبي محمود أن يقدمها في إفطار ذلك اليوم إلى المجموعة قائلاً: إنها من الحلوى الفرنسية.

قام محمود بما طلبته منه، وكنت أراقب رد فعل الحاضرين، وخصوصاً الليبيين منهم، قطعت الزميتة المموهة بالسكين، وقُدمت في صحون صغيرة معها ملاعق أنيقة، وصاروا يستطعمونها، وتطوع أحدهم رحمه الله وألقى محاضرة حول

هذه الحلوى الفرنسية، أصلها وتاريخها، وأرجعها إلى عهد الثورة الفرنسية، عهد ماري أنطوانيت ولويس ( ولا أذكر أي رقم كان يحمل )، وأن الملكة ماري المذكورة كانت تحبها كثيراً.

اندهشت لاتّساع خياله وقدرته على التأليف السريع، وسرحت بأفكاري بعيداً حتى ردني صوت بشير بي إلى حول المائدة وهو يقول : يا جماعة هذه الحلوى ذكرتني بالزميتة، فهي تشبهها كثيراً، وعزز ذلك الحاج عبد السلام المرّيض، ولم أتمالك في تلك اللحظة إلا أن ضحكت وانكشف الأمر، واختفى أخونا المؤلف صاحب الخيال الخصب، وكانت الزميتة العريقة حديث الصباح.

قلت: إن الانتظار في جدة قد طال، وكان المبرر العلني تأجيل موعد مقابلة الملك سعود، ولكن علمت فيما بعد أن السبب الحقيقي كان سياسياً، كان صراعاً من تيارين الأول صادر من ليبيا الرسمية مدعومة من الإنجليز يطالب الملك سعود بإبقاء بشير السعداوي في السعودية بعيدا عن ليبيا حرصاً على مصالحها وتخليصها من نشاطه المدمر، والتيار الثاني كان يتمثل في مساعي بشير السعداوي للعودة إلى ليبيا ومواصلة العمل الحثيث، أو قيادة الشعب نحو الوحدة والاستقلال.

وكان يريد أن يستفيد من وفد الحجيج الذي كان معه كأداة ضغط شعبي يطالب عكس ما كانت تطالب به الجهات الرسمية الليبية، كان الصراع حول مستقبل ليبيا متشعباً متواصلاً في المدن والأودية والقرى والصحراء الليبية، في دهاليز هيئة الأمم والعواصم الأوربية، وفي قاعات القصور الملكية الفخمة بالسعودية، وفي الأراضي المقدسة بين طواف وآخر، حول الكعبة المشرفة، أو بين شوط وآخر من السعي بين الصفا والمروة، أو حول مائدة في مطعم البساتين بمدينة جدة أمام صحن من الزميتة المموهة أو الأصلية.

370 **استقلال ليبيا:** تقرر في شهر 4 سنة 1949 أن تبحث اللجنة السياسية في هيئة الأمم القضية الليبية، وتهيأ لممثلي ليبيا حضور الجلسات، حاول المؤتمر الوطني الطرابلسي جاهداً تكوين وفد موحد يجمع كل الحركات السياسية فيطرابلس

ليحضر اجتماعات هيئة الأمم في شهر 9 سنة 1949، ولكن رغم المجهود الذي بذل تعذر ذلك، ولذا توجه وفدان من طرابلس، وفد المؤتمر الوطني مكوناً من السعداوي ومصطفى ميزران، وفؤاد شكري، ووفد حزب الاستقلال مكوناً من راسم كعبار وعبد الله الشريف، ومختار بن منتصر، وعبد الله بن شعبان، وهناك وفد من برقة، ومن حسن الحظ أنه رغم الخلاف الشديد في طرابلس كان اتفاق في هيئة الأمم المتحدة بفضل شخصية بشير بي ومساع حميدة بذلت من الجامعة العربية.

بعد أن يئست الدول الأربع الكبرى من تقاسم الأقاليم الثلاثة فيما بينها، وبعد اقتراحات واقتراحات مضادة، قررت الجمعية العامة في 21 /1949/11، منح الاستقلال لليبيا الموحدة. كان نصراً كبيراً للسعداوي وللمؤتمر ولطرابلس، والشعب الليبي أجمع، واستمر الشعب يمرح عدة أيام احتفالاً بذلك.

371 **<u>قرار الجمعية العمومية:</u>** قرار الجمعية العامة ينص على أن:

أولا : ليبيا مؤلفة من برقة وطرابلس و فزان، تصبح دولة مستقلة ذات سيادة.

ثانياً : يتحقق هذا الاستقلال بأسرع ما يمكن، وعلى كل لا يجوز أن يتأخر عن أول شهر 1 سنة 1952.

ثالثاً: يجتمع مندوبون عن برقة وطرابلس و فزان في جمعية وطنية ليقرروا دستور ليبيا بما في ذلك تعيين شكل الحكومة.

رابعاً: تعين الجمعية العامة مندوباً عن الأمم المتحدة في ليبيا، وتختار مجلساً يساعده ويقدم له النصح. والغرض من ذلك مساعدة الليبيين في سن الدستور، وإنشاء دولة مستقلة، وعينت الجمعية العامة الدبلوماسي الهولندي ادريان بيلت، ممثلاً لها طبق القرار السابق.

واتخذ بيلت ومجلسه من الفندق الكبير في طرابلس مقراً له بعد أن رمم ترميماً مناسباً وبسرعة، ويتألف مجلس بيلت من 10 أعضاء، ممثل عن كل من مصر، وفرنسا، وإيطاليا، وباكستان، وبريطانيا، والولايات المتحدة، وممثل عن طرابلس وممثل عن برقة، وممثل عن فزان، وممثل عن الأقليات المقيمة في ليبيا.



فرجت وكنت أظنها لا تفرج

مصطفى السراج

الصراع الذي كان ميدانه هيئة الأمم وأقاليم ليبيا الثلاثة انتقل داخل مجلس بيلت خلافاً حول الإجراءات وتفاصيلها، وخلافاً على كل شيء، على من يمثل ليبيا، وعلى طريقة اختيار المندوبين و صلاحيتهم، وعلى نوعية الدولة؛ ولذا كان من الضروري اتخاذ قرارات في كل موضوع خصوصاً وأن مهمة بيلت حددت مدتها بسنتين.

تبين بوضوح أن برقة و فزان تخشيان هيمنة طرابلس التي كانت تتفوق عليهما سكاناً وحضارة، وكانت مناورات ومناورات، ودفعت طرابلس الثمن، وكان مندوبوها الذين تم اختيارهم اضطراراً بطرق غير ديمقراطية، وبلا سند شعبي لهم، كانوا طيعين.

وكانت العقبة الكبرى نوع وحدة البلاد، طرابلس كانت تصر على أن تكون وحدة شاملة كاملة اندماجية، ومعنى ذلك أن يكون لطرابلس الأغلبية في الجمعية الوطنية التي ستضع الدستور، ويكون لها القول الفصل في اتخاذ القرار، وبرقة وفزان ترفضان ذلك بإصرار، وتمسكتا بصيغة الوحدة الاتحادية الموحاة من الدول الكبرى، حيث يحافظ كل إقليم على ذاتيته، والتمثيل في الجمعية الوطنية يكون بالتساوي.

الشعب في طرابلس كان ساخطاً لا يكفي أنه في سبيل الوحدة تساهل كثيراً في موضوع طريقة نظام الحكم ورئيس الدولة، هاهي الوحدة المرتجاة تتخذ شكلاً مشوهاً، وتفرض من قبل برقة و فزان اللّتين لا يزيد عدد سكان الأخيرة منهما على أربعين ألفاً بطريقة استفزازية، وتحت ضغط الدول الاستعمارية الحاكمة في ليبيا.

372 **التمسك بالوحدة الشاملة:** وشن المؤتمر حملة قوية ضد نظام الحكم الاتحادي، واعتبر الموافقة عليه ضرراً كبيراً للقضية، ووصفه المغالون بأنه كفر، لعل ذلك يغير مجرى الأمور، ويتقرر التخلي عن النظام الاتحادي، والعودة إلى الوحدة الكاملة، ولكن برقة و فزان تصلبتا في موقفهما، وتأزم الموقف كثيراً، وكان بيلت يخشى أن تنتهي المدة المحددة وهي سنتان دون الوصول إلى قرار

يرضي جميع الأطراف، وتعود القضية من جديد أمام الجمعية العامة بهيئة الأمم مع ما في ذلك من أخطار على القضية برمتها.

وكانت الضغوط على السعداوي ليتدخل ويهدّئ الشعور الشعبي المتفاقم في طرابلس، والسعداوي أمام مهمة صعبة حتى عليه هو أيضاً، فالشعب الذي خرج من القمقم لا يريد العودة ثانية إليه، والتجأ السعداوي إلى الحلول التوفيقية والتلفيقية التي كثيراً ما تؤدي إلى سوء النتائج، لا أحد راضٍ والكل ناقم في طرابلس، و أخيرا تقرر النظام الاتحادي، رضيت الجماهير الطرابلسية أم أبت، حيث إن الأغلبية بما فيها مندوبوهم في الجمعية الوطنية، وافقت على ذلك.

ممثل طرابلس في مجلس بيلت كان الحاج مصطفى ميزران الذي كان في البداية رئيس الحزب الوطني، وعند الآندماج في المؤتمر صار نائباً للرئيس، وكان نائب الرئيس الآخر في المؤتمر الشيخ محمد أبوالأسعاد العالم الذي كان رئيساً للجبهة الوطنية التي اندمجت في المؤتمر الوطني أيضا. ورئيس المؤتمر الوطني هو بشير السعداوي الذي كان رئيس هيئة تحرير ليبيا التي أنشئت سنة 1947، وانتقلت إلى ليبيا سنة 1948 قبيل مجيء اللجنة الرباعية التي سبق الحديث عنها.

كون مجلس بيلت في البداية لجنة تحضيرية من 21 عضواً بالتساوي بين الأقاليم، 7 عن كل إقليم، وكان الشيخ المفتي ضمن أعضاء طرابلس ورئيساً لهم وقررت اللجنة التحضيرية تكوين الجمعية الوطنية من 60 عضواً بالتساوي بين الأقاليم لوضع الدستور، وطلب من السيد إدريس اختيار أعضاء برقة، ومن أحمد سيف النصر اختيار أعضاء فزان، ومن الشيخ المفتي اختيار أعضاء طرابلس.

373

**العاصفة شديدة:** وجد الشيخ المفتي صعوبة في اختيار أعضاء طرابلس من بين الأحزاب والشخصيات المستقلة البارزة، وطعن البعض في حسن اختياره، وتوترت العلاقة بين السعداوي الرئيس والمفتي نائب الرئيس للمؤتمر. مهمة المفتي كانت صعبة جداً، وكان السعداوي حائراً في إرضاء من، وإغضاب من مِن الأفراد. ولم يتقيد المفتي بتوجيهات المؤتمر خصوصاً أن المؤتمر لميرشحه

لمجلس بيلت، ولكن بيلت اختاره باعتباره شخصية بارزة ومستقلة ولأن المؤتمر لم يرس على قرار نهائي، و لأول مرة لاحظ البعض أن العاصفة كانت شديدة، وأن مقود السفينة الطرابلسية في يد السعداوي كان يهتز، وتوترت العلاقة بين السعداوي والإدارة البريطانية التي كانت ترى أن السعداوي أدى دوره بنجاح في الماضي، و حقق هدفه الرئيسي من الوحدة والاستقلال، والأمور أخذت شكلاً سياسياً جديداً معيناً طبقاً لقرارات هيئة الأمم ومجلس بيلت المنبثق عنها، وأن إثارة الجماهير في هذه المرحلة، بقصد التأثير على مجريات الأمور، ومعارضة النظام الاتحادي تعتبر مغامرة غير مأمونة العواقب. وظهر السعداوي وكأنه يعقد الأمور المعقدة أصلا، ويشوش الأمن العام، وشعر الكثير من الموظفين العرب التابعين للإدارة البريطانية بذلك، فأخذوا ينسحبون تِباعا من المؤتمر، وقل ترددهم عن المقر. وانقطع رغم أن صورة السعداوي اهتزت لدى بعض النخبة، فإن الشعب عموماً مازال ملتفاً حوله ولا يرى زعيماً بديلاً عنه. وأتم بيلت مهمته في الموعد المقرر،وأقرت الجمعية الوطنية الدستور في1951/10/7 وأعلن استقلال ليبيا يوم 1951/12/24،وصار السيد محمد إدريس السنوسي ملكاً على ليبيا وعمره61 سنة.

374 **أزمة الطباعة العربية:** بمناسبة الحديث عن بيلت ومجلسه، أذكر أنه عند إعداد الجهاز الإداري لمجلس بيلت، ظهرت مشكلة الطباعة على الآلة الكاتبة العربية، كنا عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة، في سنة 1949، والآلات الكاتبة العربية لم تنتشر كثيراً في البلاد العربية، حتى المتطورة منها، ناهيك بليبيا التي كان الطليان يسعى للقضاء على اللغة العربية نهائياً بها لولا تجذرها ومقاومتها الفناء.

وصار مدير مكتبه يبحث عن طباعين على الآلة الكاتبة العربية محلياً اعتقاداً منه بتوفرهم، فكانت صدمة كبيرة، وكانت النخبة المحتكة بمجلس بيلت، ومنهم ممثلو الأقاليم الليبية الثلاثة، ومصر، والباكستان، المناصرتان لاستقلال ليبيا في غاية الحرج، بلد في قلب البحر الأبيض المتوسط يطالب أهله وأحباؤهم بالاستقلال وليس فيه من يطبع على الآلة الكاتبة العربية.

وقبل أن يكتشف عبد الرحمن العجيلي الذي كان محاسباً في بنك صقلية الإيطالي، وتعلم الطباعة على الآلة العربية ولا أدري في أي ظروف، كان هذا الموضوع الشغل الشاغل للكثيرين، وعند العثور على أخينا العجيلي الذي ظهر كأنه بطل، حُمد الله كثيراً، غمة وانزاحت، وربك ستر.

وصار الحديث عن قدرة العجيلي الطباعية ومهارته حديث الكثير من السمّار، وعدد الكلمات التي يمكنه طباعتها في الدقيقة يتزايد من مجمع إلى آخر 100، 200، 300 بغير حدود.

375 **يكون خيراً إن شاء الله:** السيد صوفو كان من ضمن الوفد الذي اختاره أحمد سيف النصر ليمثل فزان في مجلس بيلت، مواطن لقبه صوفو يقال عنه إنه من عائلة كريمة وأنه عنصر نقي، يحب وطنه ويتمنى تخليصه من الاستعمار الفرنسي المتحكم في فزان في تلك الفترة، رضي به الفرنسيون لعله يكون طيعا، يسير بتوجهاتهم في المجلس، وكان المسكين في غاية الحرج والضيق، يشحنه الفرنسيون بآرائهم ويفرضونها عليه وعلى غيره، ويدعو بها في المجلس، وعندما يخرج من القاعة في بهو الفندق، يجد الصحفيين مترصدين له ولغيره من المندوبين يمطرونه بالأسئلة المحرجة، ويخرج إلى الشارع يجد الجمهور المتوتر الهائج يسأله، إن شاء الله يا صوفو، أنقذتم الوحدة و صوفو تحت ضغط الفرنسيين وغيرهم يصر على النظام الاتحادي فلا يستطيع البوح بحقيقة شعوره، ولا يستطيع أن يقول الحقيقة ويعلن المستور، ويكتفي بترداد عبارة "يكون خيراً إن شاء الله"، فشاعت هذه العبارة للتعبير عن التهرب من أي موقف حرج. ولم يحتمل أخونا صوفو هذا الوضع المتأزم نفسياً طويلاً، فقدم استقالته من المنصب، وعُوض بغيره واستراح.

376 **أولى الحكومات الاتحادية:** محمود المنتصر من أحسن أفراد عائلة المنتصر الشهيرة، ثقافة وسلوكاً، يحسن العربية والإيطالية، و ربما كان من مواليد سنة 1900، مهذب جداً ودبلوماسي بالسليقة، كان مبرزاً في العهد الإيطالي، وكذلك

في العهد الإنجليزي، ترأس مجلس إدارة الأوقاف، لم يندمج في حركات سياسية علناً، وكان الإنجليز يعدونه للقيام بدوره السياسي المعتدل العملي في المرحلة الانتقالية من الحكم العسكري إلى الاستقلال أو ما شابهه. ولو أن لقبه المشترك مع آخرين من أفراد العائلة اشتهروا بتعاونهم الصارخ مع دول وجهات مكروهة شعبياً، جعل إشارة استفهام تظهر وتختفي كلما ذكر اسمه في الأوساط الشعبية.

الأزمة حول شكل الوحدة التي انفجرت في السنتين اللتين سبقتا إعلان الاستقلال، صَنفت الليبيين في طرابلس إلى فريقين، الأول شعبي مؤتمري يؤمن بالمبادئ الوطنية مع كثرة تردادها، رسخت وصارت كأنها عقيدة، وهذا الفريق يكوّن الأغلبية الساحقة، والفريق الثاني يوصف بالواقعية والاعتدال، وأنه عملي وغير متهور، مستعد للتساهل في تفسير المبادئ لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. هذا تصنيف يستعمل ويذكر عندما تكون درجة حرارة المجتمع عادية طبيعية، أما في حالة الغليان التي كنا فيها في بداية الخمسينيات، فإن الوصف المستعمل والسائد هو الخيانة، هذا الفريق يصف الآخر بالخيانة لتساهله، والثاني يصف الخصم بالخيانة لتشدده، والأعصاب في غاية التوتر. وجاء محمود المنتصر وفي الساعات الأولى من إعلان الاستقلال واجهته المشكلة الكبيرة الأولى، صارحه الإنجليز والأمريكان أنهم لن يعترفوا بالدولة الوليدة ما لم يوقع معهم اتفاقية حول قواعدهم العسكرية في ليبيا أعدوها سلفاً، ووقعها ولم يعرف ذلك إلا متأخراً.

377 **حل الأحزاب:** ثم واجه مشكلة الأحزاب التي كانت جميعها تقريباً تخاصمه بدرجات متفاوتة، وسلاحها هو إثارة الشعب، فكان القرار بحل الأحزاب بغرض التخلص من خصم عنيد، وبحجة أن الوطن في هذه المرحلة يحتاج إلى من يجمع لا إلى من يفرق، والأحزاب أداة تفريق، وأن الهدف الرئيسي المعلن للأحزاب وهو الاستقلال تحقق، وحلت الأحزاب، ورحب من رحب، واحتج من احتج. واجهته أمور كثيرة إدارية ومالية معقدة، واجهها بالتعاون مع السلطات العسكرية السابقة بما يستطيع، ثم جاء دور تكوين الهيئة التشريعية مجلس النواب ومجلس الشيوخ طبقاً لما ينص عليه الدستور، وكان لزاماً إعداد قانون للانتخابات.

الوضع السياسي في برقة موزع بين بدو وحضر، البدو يمثلهم المؤتمر البرقاوي عموماً، وهم في منتهى الرضى، تحقق الاستقلال تحققت ملكية السيد إدريس البرقاوي، وتخلصوا من هيمنة طرابلس بإقرار النظام الفدرالي الاتحادي الحضر في برقة أو بالأحرى في بنغازي ودرنة، وتمثلهم جمعية عمر المختار هم أيضا راضون، وقد سبق لهم أن وافقوا على النظام الاتحادي باعتباره خطوة نحو الوحدة.

فزان راضية كل الرضى، الساخط الوحيد على الساحة هي الجماهير في طرابلس المعبأة غضباً من طرف المؤتمر و السعداوي، وعين السخط تبدي المساوئ، ولذا كان على الحكومة الجديدة، حكومة محمود المنتصر، التفكير جيدا في هذا الموضوع الضاغط، والحل في نظرهم هو مواجهة سخط الشعب في طرابلس بالتحدي.

المؤتمر هو المسبب للمشاكل، ولذا سيحل من ضمن الأحزاب، ويجب محاصرة السعداوي والتضييق عليه ليترك البلاد طواعية، وإن أبى يُسفّر عنوة، ويجب وضع قانون للانتخابات بشكل يمكن من اختيار أعضاء المجالس فرداً فرداً، وإن تعذر ذلك على الكل، فلا مانع من القبول بقلة معارضة، والعصي الغليظة لمن عصى. منطق الحكوميين يقول إن الوضع في غاية الدقة، موضوع الرهان هو مصير الوطن.إما أن تتخذ الحكومة الموقف الحاسم الذي يفرضه عليها الواجب الوطني، أو ترتبك الأمور وينهار كل شيء. ولا يجوز إطلاقا ترك هذا الوليد الذي يحتاج إلى الكثير من الرعاية في يد عزام، أو في يد السعداوي وفؤاد شكري، وزارم، وصالح عمار، وعلي مصطفى المصراتي (وهؤلاء الثلاثة من اشد أعضاء المؤتمر إثارة للجماهير)، أومن كان على شاكلتهم يعبثون ويقامرون بكل شيء لأغراضهم الشخصية.

الشعب في طرابلس يرى أن المستعمر مكن صنائعه من الحكم، وعلى طريقهم سيستمر في التحكم في مصير الوطن الذي ضحى الشعب في سبيل مصيره بكل غالٍ سنوات طويلة، الاستقلال سيكون ضعيف القواعد، مهتز الأركان،

يستفيد منه الأجنبي المستعمر و أعوانه، ويحرم منه غالبية الشعب المكافح الشريف المالك الحقيقي لهذا الوطن الغالي.

378 **طرد الدكتور فؤاد شكري:** الدكتور فؤاد شكري كما سبق وأن قلت مصري الجنسية، أستاذ في جامعة القاهرة، اختارته الجامعة العربية ليكون مستشاراً لهيئة تحرير ليبيا التي أُنشئت في القاهرة سنة 1948 تحت رئاسة بشير بي السعداوي، ثم انتقلت إلى ليبيا سنة 1949 لمواجهة اللجنة الرباعية، والمساهمة في تطورات الأحداث السياسية التي سبقت إعلان الاستقلال تحت اسم المؤتمر الوطني، كان بديناً، وقصير القامة، يرتدي الطربوش، ويستعمل النظارات للقراءة، أبيض البشرة مع حمرة، مهذب جداً، وربما كان يشكو من ضغط الدم. كان المستشار لبشير بي وبالأحرى كان المحرر للمذكرات السياسية التي تقدم لمختلف الجهات، وللقرارات الهامة التي يتخذها المؤتمر. وقد رافق بشير إلى هيئة الأمم ضمن وفد المؤتمر سنة 1949، وكان يحسن الإنجليزية، هذا ما أعرفه عنه، ولكن في نظر حكومة محمود المنتصر، كان الذي اختاره هو عبد الرحمن عزام الأمين العام لجامعة الدول العربية في تلك السنوات، وعزام خصم قديم للسيد إدريس، وكان فؤاد شكري عَين عزام في ليبيا، يراقب السعداوي وغيره، ويبلغ ذلك لسيده عزام، ويوجه السعداوي كالصنم حيثما شاء وشاء عزام، واختصاراً فإن فؤاد شكري هو سبب البلاء؛ ولذا صدر قرار بتسفيره في خلال 24 ساعة باعتباره شخصاً غير مرغوب فيه، وذلك لحرمان السعداوي من سند قوي وإراحة البلاد منه، كان ذلك عند إعلان الاستقلال، وتأليف الوزارة الأولى مباشرة.

أذكر أننا كنا في مقر المؤتمر والجو متوتر، والدكتور فؤاد يجمع بعصبية بعض الأوراق التي تهمه، وكان ضمن الموجودين في الغرفة بشير بي و زارم الذي كان يساعد الدكتور فؤاد في عمله، وكان غيرهم، وكنت أشاهد الدكتور فؤاد بجسمه الممتلئ، يتحرك بعصبية ويمسح العرق بمنديله عن وجهه رغم أننا كنا في فصل الشتاء، وكنت أعرف أن الدكتور أصدر سابقاً كتاباً تحت عنوان "السنوسية دين ودولة " فسألته في عفوية ودون كثير من التفكير، ما رأيك يا دكتور في أن

السنوسية دين ودولة ؟ التفت إلى مبتسماً وأجاب، الحقيقة أنه سقط أثناء طبع عنوان الكتاب حرف لا النافية، والصواب لا دين ولا دولة ...لا أدري إذا كان توجيه ذلك السؤال من طرفي في تلك اللحظة والمناسبة كان لائقاً والذي أذكره أن جميع الحاضرين ضحكوا من السؤال والجواب، وشر البلية ما يضحك ...أسفنا نحن شباب المؤتمر لفراق الدكتور فؤاد شكري، وأدركنا أن الحرب على المؤتمر قد بدأت.

379 **الانتخابات:** رأت الوزارة الاستعداد لانتخابات البرلمان بمجلسيه النواب والشيوخ، وكان قانون الانتخابات جاهزاً ولا أدري من أعده وبأي شرعية أجريت الانتخابات الأولى يوم 20 /2/ 1952. نص القانون على أن يُكوّن مجلس النواب من 55 عضواً عن طرابلس 35 وعن برقة 15 وعن فزان 5، ومجلس الشيوخ يتألف من 24 عضواً، 8 عن كل واحدة من الولايات الثلاث، طرابلس، برقة، وفزان، وقد قسم السكان إلى دوائر انتخابية بحيث يكون عدد الدائرة حوالي 20 ألفاً، وقسمت الدوائر إلى حضر في طرابلس وبنغازي، وبقية البلاد إلى ريف، والاقتراع في المدن يكون عن طريق وضع الناخب البطاقة في صندوق أحد المرشحين، ومُيزت الصناديق بألوان مختلفة، لكل مرشح لون. أما الاقتراع في الريف والبادية، فيكون في مقر الاقتراع لجنة وموظف، أمامه سجل يسجل به اسم المرشح الذي يختاره الناخب. والحجة في اختيار طريقتين للاقتراع هو أن مستوى سكان الريف والبدو ومعظمهم أميون غير مهيئين للتعامل مع طريقة البطاقة والصندوق التي اعتبرت معقدة مهما كانت مبسطة.

380 **المؤتمر يشترك في الانتخابات:** ورأى المؤتمر أن موقفه أثناء مناقشة موضوع الوحدة أو الاتحاد، كان سلبياً للغاية. ولم يساهم في اتخاذ القرار وكان شديد التصلب في موقفه. الآن وقد استقلت البلاد ولو بشكل أعرج، فلا يصح الاستمرار في الموقف السلبي، ولذا يجب الاشتراك في الانتخابات، والعمل على أن تكون نزيهة، والقيام بتوعية الجماهير المتراصة حول المؤتمر حضراً وريفاً وبدواً،

والفوز مضمون بعون الله وربما أمكن إصلاح ما أفسدته الجمعية الوطنية بخصوص الوحدة من خلال مجلس النواب الذي ستكون الأكثرية فيه لطرابلس 35من 55 عضواً، و أغلبية ال35 إن لم يكونوا كلهم سيكونون من المؤتمر، وحان وقت العمل الإيجابي، ويجب أن لا يترك المجال للمتسلطين، وبدأت الحملة الانتخابية على أشدها، ورشح المؤتمر في مدينة طرابلس الحاج مصطفى ميزران، الشيخ عبد الرحمن القلهود، مصطفى السراج، عبد العزيز الزقلعي، محمد الزقعار، واختار مرشحين أكفاء للريف والبدو. واختارت الحكومة مرشحيها من بين أنصارها موظفين و ما شابههم. طبع المرشحون في المدينة منشورات انتخابية، تحمل صورة المرشح وصورة الزعيم بشير السعداوي، وتعلن مبادئ المؤتمر من ترسيخ للاستقلال وتحقيق للوحدة الكاملة، والولاء للملك والدفاع عن تراب الوطن، والعمل على رفع مستوى السكان تعليمياً وصحياً واقتصادياً. وعقدت اجتماعات علنية وفي الكواليس، وألقيت خطب شارك في بعضها الزعيم نفسه الذي رغم تقدم سنه كان في غاية النشاط، وكان ينتقل في موكب من السيارات من بلد إلى آخر، وكل مرشح يدعو الزعيم إلى أن يعلن ترشيحه شخصياً ويباركه ويدعمه. ولكن الوقت ضيق والبلاد واسعة، والاستعدادات على أشدها، الحكومة و أنصارها والسعداوي والشعب الملتف حوله.

381 **المؤتمر يرشح مصطفى السراج:** رشحني المؤتمر في مدينة طرابلس عن دائرة كانت تضم شارع الزاوية، شارع بن عاشور، وباب بن غشير. وكان إخوتي يجمعون الأنصار بكل الوسائل، وقد عقدنا اجتماعاً شعبياً كبيراً في باب بن غشير، حضره بشير بي نفسه، ومجموعة من أركان المؤتمر، ووزعت المنشورات وألقيت خطاباً في الجموع، وزكاني السيد علي مصطفى المصراتي، باسم المؤتمر، في إحدى خطبه الحماسية الرنانة.

وزع المرشحون خصوصاً في المدن منشورات انتخابية بشرح كل واحد ما يرغب في تحقيقه من إصلاحات و يعد بالممكن و بغير الممكن، وكان منشور مصطفى الآتي :

**بسم الله الرحمن الرحيم**

**ربنا عليك توكلنا و منك نستمد القوة و بك نستعين**

**الواجب يدعوكم إلى انتخاب مرشح**

**المؤتمر الوحيد**

**الأستاذ**

**مصطفى السراج**

المؤتمر الوطني العام

طرابلس الغرب

إلى الناخبين من محلة شارع الزاوية، والسيدي، وباب بنيتو، ومحلة شارع بن عاشور.

أيها الوطنيون :

لقد اختارني زعيم الأمة سعادة " بشير بك السعداوى " باسم المؤتمر الوطني العام مرشحا لدائرتكم الانتخابية،وذلك بناء على رغبة الكثيرين منكم و لما يعرفه في شخصي من حب لهذا الوطن العزيز و إخلاص لقضية البلاد، و ثبات على المبدأ، و استعداد و كفاءة لتمثيلكم في مجلس الأمة وإني لفخور بثقتكم جميعا و ثقة سعادة الزعيم، وهذه الثقة التي أودعتموها أنتم في المؤتمر وسعادة رئيسه و أودعها هو في شخصي مما تزيدني قوة و ثباتا و إخلاصا و حرصا على خدمتكم وخدمة الأمة الليبية على مبادئ المؤتمر التي هي :

1. – الولاء لصاحب الجلالة الملك المعظم حفظه الله

2. – العمل لتحقيق وحدة الأمة الليبية

3. – العمل لجعل استقلال الوطن استقلالا سليما

4. – العمل للمحافظة على حرية وسيادة الأمة الليبية

5. – القيام بكل ما من شأنه رفع قيمة الوطن العزيز في الخارج بين الأمم

6. – العمل لإقامة العدل و المساواة بين جميع السكان

7. – العمل لانتشار التعليم و تيسيره لجميع أفراد الشعب

8. – العمل لسلامة صحة جميع أفراد الأمة

9. – تقوية البلاد في الميادين الاقتصادية من زراعية وصناعية وتجارية

10. – إيجاد عمل لكل الليبيين مع المحافظة على راحة وكرامة وحقوق العامل الليبي، وإني أعاهد الله و أعاهدكم على أن أكرس نفسي لخدمتكم وتمثيلكم أحسن تمثيل – كل ما أرجوه منكم جميعا أن يتقدم كل منكم ببطاقته الانتخابية يوم الانتخابات ويصوت بإصرار وحزم دون تردد إلى مرشح المؤتمر خادم الوطن و خادمكم.

**مصطفى السراج**

والله ولي المخلصين، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا

عاشت ليبيا حرة موحدة مستقلة – عاش جلالة الملك المعظم – الله أكبر!..

لون صندوق مرشحكم أزرق

382 **توقع تزوير الانتخابات:** لم نكن نثق في نزاهة الحكومة، ونخشى ونتوقع التزوير رغم التأييد الشعبي العارم للمؤتمر. علمنا يوم الاقتراع نفسه أن الصناديق بعد انتهاء الاقتراع وإغلاقها سوف تحفظ في مراكز الشرطة حتى اليوم التالي يوم الفرز. من هي الشرطة ؟ هي الحكومة، وما يُدرينا ما سيحدث للصناديق ومحتواها ليلاً، ورغم أننا مرشّحي المدينة، كنا مشغولين بين التنقل من مركز وآخر في مراكز الاقتراع في نفس الدائرة للتأكد والاطمئنان على حسن سير عملية الاقتراع، اضطررنا إلى أن نبحث عن وزير العدل الدكتور فتحي الكيخيا، المشرف الأعلى على الانتخابات، وعثرنا عليه بصعوبة وناقشناه في موضوع حفظ الصناديق ليلاً. وأخيرا وافق على أن يحرس مندوب عن المرشح الصناديق بمراكز

الشرطة حتى نطمئن على عدم التلاعب فيها. منافسي كان الشيخ أحمد فتح الله من أعيان شارع بن عاشور.

أما في الدواخل فكان الأمر يختلف كثيراً، الخطة موضوعة بدقة وإصرار على التزوير، ومحور العملية مرتكز على نزاهة الموظف المكلف بتسجيل رغبة الناخب. والحكومة هي التي اختارت الموظف المناسب، واختارت المرشح وقررت نجاحه سلفاً، وعلى الموظف أن يستمع إلى الناخب، وما يذكر من اسم، ويسجل في السجل الذي أمامه اسم المرشح المختار من الحكومة. والرقيب على الموظف لجنة معينة هي أيضا من الحكومة. والتبرير أن مصلحة البلاد تقتضي أن يكون أول مجلس للنواب من العقلاء لا من الطائشين المجانين وأنصار السعداوي. والغاية تبرر الوسيلة.

وتم الفرز في اليوم التالي، وفاز جميع مرشحي المؤتمر في مدينة طرابلس وأعلنت نتيجة الاقتراع في الدواخل، وفاز طبقاً للخطة الحكومية جميع مرشحيها عدا واحد عن المؤتمر في الزاوية هو كمال فرحات، وآخر في سوق الجمعة هو العربي أبو سن، وعلي تآمر في بني وليد، ولا أدري كيف سمحت الحكومة بنجاحهم، وربما كان ذلك من باب التمويه. كان الاعتقاد السائد والمتوقع لدى الجميع أن المؤتمر مسيطر على مشاعر الناس، وأن النجاح مضمون إن لم يكن إجماعاً مثلما حدث في مدينة طرابلس.

383 **زعامتان في ترهونة:** ترهونة منطقة تقع جنوب شرقي طرابلس كما هو معروف وتبعد عن طرابلس حوالي 70 كيلومتراً، ترهونة هامة زراعياً قديماً وحديثاً، هامة بمجموع سكانها الذين كان لهم دور بارز في مقاومة الاحتلال الإيطالي في الجيل الماضي ومنهم الآن شباب ناهض مثقف واعٍ يساهم في تطوير البلاد في مختلف المجالات

في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات من القرن العشرين الماضي، قبيل إعلان الاستقلال وبعده بسنوات، كان سكان ترهونة أو التراهنة أو الترهونيون

أو التراهين كما يحلو لك، منقسمين إلى كتلتين هامتين، كتلة أبو بكر أبو نعامة وهي زعامة نمت بعد زوال الحكم الإيطالي عندما سمحت السلطات البريطانيـــة لليبيـــين الذين كانوا يتململون ويحاولون الخروج من القمقم الـــذي أحكـــم إغلاقـــه علـــيهم الإيطاليون، وسمحت لهم في استحياء بممارسة بعض الحقوق المدنية والسياسية من حرية الكلام و حرية التجمع و حرية التظاهر دون الإخلال بالأمن.

السيد أبو بكر أبو نعامة بدأ حياته العامة مدرساً مثلي، وكان يُعـــرف بحـــب الظهور والجدال، يتطلع إلى نوع من الزعامة مبهمة الهوية.

أخذ شكلاً واضح المعالم بعد الاستقلال وفي فترة الانتخابات البرلمانية الأولى كان من أنصار حزب الاستقلال بزعامة سالم المنتصر ومن المنادين بملكية الـــسيد إدريس أن تحقق الاستقلال وبوصاية إيطاليا على إقليم طرابلس إذا تعذر الاستقلال، وهذا الاحتمال زال بإعلان هيئة الأمم استقلال ليبيا الاتحادية. لكل هذا وغيره كان ضد بشير السعداوي ومن يمثله. وكان من أنصار نظام الحكم الاتحادي كما يريـــده الإنجليز والأمريكان ومن والاهم من برقاويين وفزانيين وطرابلسيين وبالتالي كـــان من الموالين لأول حكومة ليبية برئاسة محمود المنتصر التي أجـــرت الانتخابـــات الأولى.

الفريق الثاني كان يتمثل في زعامة عائلة المريض و أنصارها الذين كان لهم شأن كبير في الأحداث التي كانت ليبيا مسرحاً لها من ســـنة 1911 إلـــى 1930. حاربت الإيطاليين علي الأرض ومن أجل الأرض وفاوضتهم عند ما كان يبدو أن التفاوض وسيلة لاسترجاع بعض الحقوق السياسية وكان أحمد المريض أول رئيس وآخر رئيس لأول جمهورية ليبية أعلنت في العشرينيات ولم تعمر، ثم عندما سدت السبل و ضاقت الأرض بما رحبت هاجرت عائلة المريض من ضمن من هاجروا إلي مصر واستقرت في منطقة الفيوم وأشهر رجالها في ذلك العهد كما قلت أحمـــد بي المريض وكتب التاريخ في تلك الفترة لا تخلو من ذكر اسمه فـــي كثيـــر مـــن المناسبات.

مرت حوالي 15 سنة من 1930 إلى 1945 كانت حافلة بالأحداث المثيرة داخل ليبيا وخارجها، وأيضاً في الفيوم في نطاق عائلة المريض مات الشيوخ وبعض الكهول وبرز بعض الكهول والشباب علي المسرح، أهمهم عبد السلام المريض والطاهر المريض وهذا الأخير ابن للمرحوم أحمد المريض.

384 **ترهونة والانتخابات:** انتهت الحرب العالمية الثانية وزال الحكم الإيطالي عن ليبيا وهو الذي دفع بالمهاجرين إلى ترك الأوطان وسمحت السلطات البريطانية للمهاجرين بالعودة وسمحت للحركات السياسية بالنشاط التدريجي. فعادت عائلة المريض مع من عاد فوجدت أن الفراغ الذي أحدثته بهجرتها امتلأ بزعامة أخرى خلال سنوات ماضية. وبدأ الصراع بين الفريقين وبين الزعامتين. زعامة عائلة المريض التي رغم الاسم الذي تحمله لم تكن مريضة بل كانت تتمتع بكامل العافية، كلها حيوية ونشاط لبناء ليبيا الحديثة حرة موحدة في نطاق القومية العربية دون تبعية صريحة أو مموهة لدولة أجنبية، وبذلك كانوا ناصريين حتى قبل أن يسطع نجم جمال عبد الناصر في سماء الأمة العربية، كانت مع الجامعة العربية ورئيسها عبد الرحمن عزام ومن أنصار ومؤسسي هيئة تحرير ليبيا ثم المؤتمر الوطني العام ورئيسه بشير السعداوي.

لم تكن عائلة المريض متحمسة ولا مطمئنة لما كانت تسميه ارتماء السيد إدريس في أحضان الإنجليز وتعاونه معهم دون أي ضمانات لما يفيد ليبيا وأنه صدق ما قيل له من وعود وكلام مبهم لا يغني شيئاً.

السلطات المحلية البريطانية في ترهونة من ضمنها المترجم كامل جورج الذي سبق ذكره في فقرات سابقة كانت حريصة علي حفظ النظام والأمن ولا يهمها تأجج الصراع بين الفريقين. أما حكومة محمود المنتصر الأولى فهي مع أبو بكر أبو نعامة صراحةً، ورشحته في الانتخابات ودعمته رسمياً.

لكن أغلبية التراهنة كانت مع المؤتمر الوطني العام، ومع بشير السعداوي ومرشحه عبد السلام المريض.

كلما قرب موعد الانتخابات زادت حرارة الطقس السياسي ارتفاعاً وخصوصاً في ترهونة، الخصمان عنيدان جداً.

تقرر أن يزور بشير بي السعداوي ترهونة وأن يلقي خطاباً سياسياً هاماً يؤيد ويدعم به مرشح المؤتمر الوطني العام عبد السلام المريض. معركة ترهونة الانتخابية هامة جداً، فهي تمثل في جو تلك الفترة صراعاً بين شعب يريد أن يتحرر ويحكم نفسه مستقلا بالطريقة الأفيد له، وبين دولة أجنبية تريد أن تبسط نفوذها عليه، وتكبله من جديد بطرق ملتوية مستعينة بأشخاص كونت منهم زعامات وحكومة فرضتها عليه ودعمتها بكل ما لديها من إمكانيات عظيمة عسكرياً ومالياً وسياسياً.

**385** **المؤتمر يستعد لانتخابات ترهونة:** استعداد المؤتمر بهذه المناسبة كان حثيثاً، بشير بي يجب أن يدخل ترهونة دخول الفاتحين معه جمهور كبير موزع على رتل لا نهاية له من السيارات وسيستقبل بجمهور ترهونة رجالاً وركباناً وفرساناً علي مشارف البلدة، ويجب أن يكون لهذه الزيارة أثرها القوي في ترهونة فيعم صداها في جميع ليبيا وتكون دعماً لجميع مرشحي المؤتمر في كل مكان.

وستزيد الشعب العربي الليبي حماساً و التفافاً حول الزعيم بشير السعداوي وما يمثله من قيم اجتماعية وسياسية ووطنية وقومية وإسلامية نبيلة استشهد في سبيلها في الماضي رجال أجلاء وتستحق الآن العمل على رسوخها بالطرق السياسية المتاحة وهي الانتخابات.

قبل تحرك الركب وصلت إلى حيث يقيم بشير بك في قرقارش سيارة أخيه نوري التي سحبت من الحظيرة الجمركية صباحاً وكانت تحمل لوحة سعودية عليها السيفان المتقاطعان وعبارة لا إله إلا الله ومحمد رسول الله. استبشر من كان حاضراً بقدومها في تلك اللحظة، وصاح أحد الملتهبين، نصر من الله وفتح قريب، وتقرر أن يركبها بشير بك تيمناً عند زيارته ترهونة.

علم أبو بكر أبو نعامة بقرار المؤتمر والاستعداد الكبير لزيارة السعداوي لترهونة من طرف خصمه عبد السلام المريض، واستفز أنصاره وأعلم صديقه محمود المنتصر رئيس الوزراء بأنه إذا لم يمنع السعداوي من زيارة ترهونة فستكون معركة دامية في ترهونة يصعب التكهن بتطورها. رئيس الوزراء اتصل بالكولونيل الإنجليزي (كوريات) كبير متصرفي مصراته، وترهونة تابعة له الذي أتصل بدوره بقوة الأمن في ترهونة وطلب منها الاستعداد لمهمة صعبة، وأن تعمل لحفظ الأمن دون إفراط وكبت أنفاس الناس بمناسبة الانتخابات وما يسبقها من دعاية، وكان الإنجليز حريصين على أن تجري الانتخابات في جو حر ولو ظاهرياً حتى يُعرف الوزن الحقيقي الشعبي السياسي لمختلف الحركات السياسية التي كانت على المسرح وكل منها يدعي أنه كل شيء قوات الأمن في ترهونة طلبت إمدادها بمائة شرطي إضافي و قد كان.

386 **السعداوي يدخل ترهونة متحدياً:** مدينة ترهونة لا سور لها، محاطة بالمزارع الحديثة بما فيها من أشجار الزيتون واللوز، الطريق المؤدي إلى ترهونة معبد، عرضه حوالي 12 متراً، على جانبيه أرض فضاء، ورأت قوات الأمن واكتفت بأن ترص عدداً من أفراد الشرطة تسد به الطريق المعبدة عند مدخل ترهونة لتمنع دخول سيارة السعداوي وما كان معه من سيارات.

أبو بكر أبو نعامة متوتر الأعصاب يتوعد، والسلطات الأمنية تحاول بما لديها من إمكانيات حفظ النظام طبقاً للتعليمات التي صدرت إليها، الكولونيل كوريات من مصراتة يتابع الأحداث بالهاتف ساعة بساعة.

رئيس الوزارة محمود المنتصر ووالي طرابلس فاضل بن زكري يراجعان تفاصيل خطة تزوير الانتخابات واختيار اللجان التي ستزور إرادة الناخبين طبقاً للخطة التي كانا يضعان اللمسات الأخيرة لها.

وتحرك ركب السعداوي باسم الله و في رعاية الله نحو ترهونة. واستُقبل قبل المدينة بحوالي كيلومترين من جمهور كبير وكثير من الفرسان في جو صاخب

يتخلله دق الطبول و تحريض المهاجين وعبارات الله أكبر، الله أكبر. التف الفرسان حول سيارة الزعيم وحولهم المشاة و بعدهم السيارات الكثيرة القادمة من طرابلس، وازداد الحماس وارتفعت درجة الغليان.

السلطات الأمنية في ترهونة المتحفزة كانت تتوقع من السعداوي أحد الأمرين إما أن يتراجع منعاً للاصطدام بالشرطة المسلحة التي كانت تسد الطريق أمامه، وإما أن يقتحمها وعندها سترد بإطلاق الرصاص دفاعاً عن نفسها وفي كلتا الحالتين لا يقام الاحتفال الذي كان يخشاه أبو بكر أبو نعامة، والذي يريده عبد السلام المريض، وفي ذلك فشل مدوٍ للمريض والسعداوي ومن يناصرهم.

توقف الركب برهة أمام الشرطة التي تسد الطريق، وحماس الجمهور على أشده وخرج السعداوي من سيارته الفارهة وطلب من أحد الفرسان التخلي له عن حصانه، وامتطاه برشاقة غير متوقعة، واندفع في الأرض الفضاء يمين الطريق تاركاً الطريق المعبد والشرطة تحرسه في مكانها.

اندفع وحوله الفرسان والجموع والسيارات التي كانت تزمر بأبواقها بأعلى صوت ودخل المدينة واتجه نحو الميدان المعد لإلقاء الخطاب، و ألقى الخطاب كما كان مقرراً، وزاد من حماس الرجال زغاريد النسوة. كان يوماً مشهوداً لم تعرفه ترهونة من قبل، نجاح شعبي للسعداوي وللمؤتمر على طول الخط، ولم ترق قطرة واحدة من الدماء في ترهونة في ذلك اليوم.

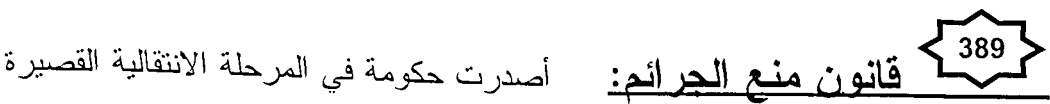
387 **تزوير الانتخابات في الدواخل:** أعلنت النتيجة العكسية وكان الانفجار، الاقتراع كان يوم 19 /2، والفرز يوم 20، وهاجت الجماهير وماجت وحطمت ما استطاعت تحطيمه من مكاتب حكومية ومرافق عامة وسيارات. المؤتمر يقول "إذا الشعب يوماً أراد الحياة... فلابد للقيد أن ينكسر...ولابد للحق أن ينتصر..." وقد انكسرت قيود الشعب التي كان مكبلاً بها طويلاً، وهو الآن بانفجاره على السلطة المتسلطة بحراب الإنجليز، والمزورة علناً للانتخابات، يمارس حقه في الحرية والحياة. والحكومة تقول إن السعداوي، المؤتمر بأوامر عبد الرحمن عزام،

بعد أن فشل في تحقيق أغراضه بالطرق الملتوية، يحاول هدم ما تـم بنـاؤه فـي السنتين الأخيرتين بصعوبة من طرف هيئة الأمم، ولذا يجب تخليص البلاد منـه. الحكومة كانت تتوقع انفجار الشعب، وربما تتمناه، ليكون مبرراً ملموسـاً لاتخـاذ إجراءاتها القمعية.

وقد سُفر بشير بي باعتباره شخصاً غير مرغوب فيه، يحمل جـواز سـفر سعودياً ليلة 21/2/ 1952، وقد داهم منزله في تلك الليلة مجموعة مـن الـشرطة ونقلوه إلى المطار، وأُركب طائرة إلى مصر، كما سُفر أحمـد زارم إلـى تـونس واعتقل كثير من رجال المؤتمر في الدواخل ومنهم الأستاذ مصطفى بعيو.

388 **افتتاح البرلمان:** افتتحت الدورة البرلمانية، واجتمع مجلس الأمة في 25/3/ 1952 وكان ذلك حدثاً تاريخياً في حياة ليبيا والليبيين، وصـاحب الحـدث احتفالات ومراسم وطقوس متعارف عليها في البلاد التي بها برلمانات. وبعد إلقـاء رئيس الوزراء خطاب العرش، وهو عبارة عن خطاب يعده مجلس الوزراء ويلقيه رئيس المجلس باسم الملك يشرح فيه سياسة الحكومة في مختلف المجالات، وبعـد نهاية الاحتفال ومغادرة الملك البرلمان وزع النواب على عدة لجان، كنت ضـمن لجنة الرد على خطاب العرش، وكان معي المرحوم صالح بويـصير وآخـرون، وكانت خبرتنا في هذا المجال معدومة، وكان لجملة خطاب العرش معنى غـامض يلقي بالرهبة في نفوس البعض، ولكن عرفنا بعدها أن مهمة اللجنة بـسيطة هـي إضافة بعض الكلمات أو الجمل مثل يرحب المجلس أو يسجل المجلـس، أو يؤكـد المجلس، أو يتفق المجلس قبل كل فقرة من فقـرات الخطـاب، فـإذا وردت فـي الخطاب مثلاً جملة تقول على لسان الملك، تعتزم حكومتي الاهتمام بالتعليم وإنشاء مدارس في جميع البلاد....... نضيف جملة، يرحب المجلـس باهتمـام الحكومـة بالتعليم.

تكونت في المجلس تلقائياً كتلتان نواب الحكومة ونواب المعارضـة، كـان جميع نواب المؤتمر من المعارضة، وينضم إليهم آخرون في بعض المناسبات. وبدأ مصطفى نشاطه كنائب معارض.



389 **قانون منع الجرائم:** أصدرت حكومة في المرحلة الانتقالية القصيرة بإيعاز من المستشار القانوني الإنجليزي قانوناً غريباً، أسمته قانون منع الجرائم، الغرض من القانون تكبيل الناس المتذمرين من الإجراءات التعسفية وكان القانون يجيز للسلطة السياسية والإدارية التدخل بمجرد أن تُبلغ الشرطة بأن هناك خوفاً من أن شخصاً ما يقوم بأعمال إجرامية، أي محاكمة النوايا، المتعارف عليه أن التحقيق مع الشخص المتهم يتم بعد ارتكاب الفعل وتوفر الأدلة وغير ذلك، وكان هذا القانون سيفاً مسلطاً على رقاب الناس جميعاً، لا أعرف على وجه الدقة أين طُبق وكيف طُبق، وكنت أعرف بوجوده، وأعتبره إجحافا فاضحاً بحقوق المواطنين. وتَقدمت بمشروع قانون الإلغاء وأقر إلغاء القانون المجحف، حدث بسيط ولكنه نموذج للأمثلة الكثيرة التي قام بها أعضاء المعارضة، محاولة لتصحيح مسار الحكم.

390 **قانون الميزانية:** موارد الدولة كانت محدودة، مصدرها الضرائب والرسوم والجمارك، وجباية بعضها من اختصاصات الولايات، والبعض من اختصاص الحكومة الاتحادية، وتكفلت بريطانيا بسداد عجز الميزانية بمبلغ حوالي ثلاثة ملايين إسترليني، وكان المسؤولون عن الأجهزة المالية انجليزاً، وكانوا حريصين على الضغط على المصروفات حتى لا يزداد العجز، وتطالب الحكومة الليبية بريطانيا بمساعدات أكبر، وطموحات الناس كثيرة وملحّة، وكنا نعبر عنها ونضغط على الحكومة بحق وبغير حق. كان الشعور الإقليمي بين النواب كبيراً وقوياً، وتكون تكتل بين نواب برقة ونواب فزان للاستحواذ على أكبر قدر من الميزانية لولايتيهما على حساب ولاية طرابلس. وحجة فزان أنها أهملت كثيراً في السابق؛ ولذا تطالب بالتعويض، وكذلك برقة ترى أن الحرب دمرتها؛ ولذا تطالب بإعادة الإعمار. وطرابلس حجتها أن عدد سكانها الكبير يحتاج إلى خدمات تتناسب مع عددها، والصراع يحتدم سنوياً عند مناقشة الميزانية، وكانت فرصة لاستعراض

المعارضة لعضلاتها، ولكن نتيجة المعركة كانت محسومة، القرار للأغلبية، والأغلبية لبرقة وفزان، ولنواب الحكومة، ومع هذا لم نيأس.

391 **المعاهدة البريطانية:** للمعاهدة الليبية البريطانية قصة، بذرتها الأولى كانت في نفس السيد إدريس السنوسي بعد المصاعب التي عاشها وعاصرها منذ سنة 1911 بداية الاحتلال الإيطالي لليبيا، والتي انتهت به إلى أن هاجر هو وغيره إلى مصر. وفي مصر أهمل من السلطات المصرية وعُومل كرئيس طريقة صوفية هي السنوسية، لا كرئيس دولة أو رئيس حركة تحرير في بلده ليبيا. بقي السيد إدريس مهملاً رسمياً، مقيماً في مشارف الإسكندرية في منطقة الحمام لمدة تزيد على عشر سنوات، ثم حانت اللحظة المناسبة، لحظة إعلان إيطاليا الحرب على انجلترا واتصال انجلترا به سنة 1940 و مطالبته باشتراكه في الحرب معها ضد الطليان و تحرير وطنه برقة و ليبيا، فاعتبرها فرصة ذهبية يجب الاستفادة منها إلى أقصى حد.

الاستفادة إلى أقصى حد بالنسبة للسيد إدريس، كانت تعني التعاون بلا حدود مع الإنجليز لتحقيق هدف استقلال برقة أولا، وبقية ليبيا إن أمكن، وتوقيع معاهدة مع بريطانيا تضمن الحماية والاستقرار وفرصة التطور والخروج من التخلف المتغلغل في مختلف مجالات الحياة.

السيد إدريس يرى أن ليبيا بدون حماية دولة عظمى، وبريطانيا بالذات، عرضة للعبث بها من أي طامع، وهو يتذكر جيداً مرحلة الفوضى وعدم الاستقرار التي عاشتها ليبيا بكل ويلاتها وخطورتها، فترة مقاومتها الطليان. صحيح أن الاحتماء بالإنجليز هو مطلب غير مثالي، ولكنه هو المطلب العملي بدون مغالطات أو أوهام. الإنجليز أيضاً كانوا يريدون السيطرة على ليبيا بشكل من الأشكال حتى إنهم عندما يضطرون إلى الجلاء عن مصر يجدون بها قواعد لهم، والاستفادة من قاعدة طبرق البحرية كنقطة ارتكاز مهمة لأسطولهم سيد البحار على طريق الهند.

اتفقت الغايات دون الدخول في التفاصيل، لأن البحث في التفاصيل أو في الشكل القانوني، كان سابقاً لأوانه. يجب الانتصار على الطليان والألمان أولا، ثم الاتفاق مع الحلفاء على مصير المستعمرات. لم يكن هناك شيء مكتوب بين الطرفين، ولكن كان هناك تفاهم عام على التمسك بالتعاون. وأغضب السيد إدريس بأسلوبه الخاص الزعماء الطرابلسين الذين منذ بداية اتصال الإنجليز بالسيد إدريس في سنة 1940، لم يكونوا مطمئنين لطريقة الحديث مع الإنجليز. كانوا يقبلون بالتعاون مع الإنجليز، ولكن مقابل مواثيق وعهود صريحة واضحة.

392 **الغاضبون:** أغضب السيد إدريس عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العربية، وأغضب بشير بي السعداوي، وأغضب الحكومة المصرية في عهد ملك فاروق، وفي عهد الرئيس جمال عبد الناصر. شعوب ودول المشرق المغرب العربي كانت تسعى للتخلص من اتفاقات وتحالفات فُرضت عليها، وكانت تطالب وتقاتل في سبيل إجلاء القوات الأجنبية عن أراضيها، كيف يعقل بأن يقبل زعيم ليبي هو السيد إدريس السنوسي ويرحب، وربما يطالب بأن يكبل باتفاقات غير متكافئة على الإطلاق ؟ ولكن السيد إدريس اتخذ قراره باطنياً، وكان يعتقد أنه عين الصواب، وأنه في صالح ليبيا على المدى القريب والبعيد.

كان موضوع الاتفاق مع الإنجليز على إقامة قواعد عسكرية هو محور الخلاف بين السيد إدريس وبين خصومه، ولو أنه ظل مغلفاً في كل مرحلة، بأغلفة محلية تارة، وسياسية تكتيكية تارة أخرى. كل طرف يؤجل المعركة حول لب موضوع القواعد، و يكتفي بالكلام حول غلافه شكلاً ولوناً ومادة ومقاساً وصنعاً. واستمر هذا الموضوع معلقاً منذ بداية الحرب إلى أن استقلت ليبيا، وصار السيد إدريس ملكاً عليها، واعترفت به إنجلترا، وحان وقت وضع الاتفاق غير المكتوب بينه وبينهم في شكل قانوني، في شكل معاهدة لها مقدمة ومواد وأهداف. في المراحل السابقة لذلك، كان كل طرف يختبر بأساليبه الخاصة نوايا الطرف الثاني ليطمئن على استمراره على العهد.

**الجماهير ضد الاتفاقات:** نحن في سنة 1953 والاتفاقية جاهزة وناقشتها حكومة محمود المنتصر مع الإنجليز، وعرضت على الملك إدريس، ووافق عليها، واطمأن لها، ولم يبق إلا عرضها على مجلس الأمة الليبي بمجلسيه النواب والشيوخ لمناقشتها والموافقة عليها وإقرارها، ولا أقول وضعها موضع التنفيذ لأن محتوى الاتفاقية قائم فعلاً منذ أن احتلت بريطانيا ليبيا. قواعد الإنجليز موجودة حيث ما شاءوا على أرض ليبيا.

هذا ما كان داخل ليبيا، أما في الخارج فالوضع يختلف كثيراً، الشعب العربي في مصر وسوريا والعراق والسودان وتونس والجزائر والمغرب في صراع متواصل ضد قوات أجنبية سلبته حريته، واستباحت أرضه، وتتصرف فيها كما تشاء. وفي أحسن الحالات، قيدت شعوبه باتفاقيات شتى فرضت عليه فرضاً، وناضلت الشعوب العربية وضحت بالكثير، بأعز رجالها وشبابها في سبيل الحرية والاستقلال والتخلص من النفوذ الأجنبي، وظهرت في كل بلاد عربية زعامات اشتهرت ورفعت راية الكفاح وألهبت الشعور لدى الجماهير بكل الوسائل المتاحة نثراً وشعراً.

الشعوب العربية أصيبت بالإحباط في مراحل كفاحها بسبب تصرف الحكومات الاستعمارية الكبرى التي في سبيل مصالحها تتنكر علناً بكل المبادئ الأخلاقية، وبكل القوانين الدولية والوعود التي قطعتها على نفسها أو بالاتفاقيات التي وقعتها مع هيئات عربية. الشعور العربي القومي كان على أقصى درجات التعبئة مشحوناً حماساً واستعداداً للتضحية في سبيل مُثل لا يجوز التنازل عنها، وظهر الرئيس جمال عبد الناصر العملاق في مصر فزاد الجو التهاباً وغلياناً واستعداداً للتحدي والفداء.

مصطفى صاحب هذه الذكريات كان جزءاً، كان خلية، كان ذرة من هذا المجتمع المترامي الأطراف، من الخليج الثائر إلى المحيط الهادر، وكان عضواً في مجلس النواب الليبي، وكان من المعارضة، وكان من المؤتمر الوطني العام في ليبيا، وكان من أنصار الزعيم بشير بي السعداوي الذي نفي خارج ليبيا، واستمر

في مواصلته الكفاح السياسي من أجلها. شرحت وجهة نظر السيد إدريس وحكومته،وصفت ما كان عليه الفريق المقابل، كان مصطفى في الفريق المقابل في غير فريق الإنجليز، كان في فريق عبد الناصر والجامعة العربية وبشير السعداوي. كان يرى أن الواجب الوطني القومي والرسمي، باعتباره نائباً عن الشعب الليبي، يفرض عليه القيام بدوره في المعركة المقبلة. والهدف هو الحيلولة دون موافقة البرلمان على الاتفاقية الليبية البريطانية.

394 **مصطفى النائب ويحيى حقي السفير:** المعركة خاسرة مسبقاً، الأغلبية جاهزة في مجلس النواب والشيوخ منذ أن زورت الانتخابات، ولكن لابد من خوض غمار المعركة، لابد من شرح وإعلان وجهة رأي الشعب الليبي المغلوب على أمره حتى يعرفها القاص والداني، ويسجلها التاريخ. وأخذ مصطفى يعد خطاباً يلقيه في مجلس النواب عند مناقشته الاتفاقية، كان خطاباً طويلاً عنيفاً قاسياً.

يلاحظ أن خبرة مصطفى في هذه الأمور محدودة، وليس له مرجع يستند إليه كحركة أو هيئة أو حزب. زعيمه المعترف به هو بشير السعداوي، وهو الآن في مصر، لا أقول: إني كنت الوحيد الذي كان يفكر في معارضة الاتفاقية كان هناك نواب أجلاء منهم مجموعة المؤتمر، وآخرون من برقة و فزان، ولكن لم تكن تجمعهم رابطة حتى مجموعة المؤتمر. كان لكل واحد منهم اجتهاده وأسلوبه في التعبير عنه، من النواب الذين كانوا يتهيأون لمعارضة الاتفاقية، بالإضافة لنواب المؤتمر النواب: صالح بويصير، وعبد السلام بسيكري، ومحمود أبو شريدة، ومحمد شليد، وغيرهم، وأعد مصطفى خطاباً، ورأى أنه يحتاج إلى مراجعة مع جهة أو شخصية على مستوى المعركة المقبلة.

المعركة معركة قومية، والقائد الأعلى للقومية العربية هو الرئيس جمال عبد الناصر، كنت أتمنى أن أنسق دوري معه، وحيث يتعذر ذلك فإنه لم يبق لي إلا مُمثله، وهو السفير المصري، الأستاذ يحيى حقي. استفسرت وعلمت أن السفير المصري يقيم بفندق الودان، ولا أدري إذا كانت مكاتب السفارة في نفس الفندق

مؤقتاً، توجهت إلى فندق الودان ومعي خطابي، وطلبت مقابلة السفير باعتباري نائباً.لم أكن أعرفه من قبل فاستقبلني، وبدون مقدمات دخلت في الموضوع مباشرة قلت " قريباً سيبحث مجلس النواب الاتفاقية الليبية البريطانية، ومن واجبي كنائب أن أعبر عن رأيي ووضعت آرائي في شكل خطاب عرضته على السفير، وطلبت منه إبداء رأيه من باب التنسيق بيني وبين ما كنت أعتبره قيادة قومية عليا ممثلة في شخص الرئيس جمال عبد الناصر، وأنا الجندي في ساحة المعركة.

395 **السفير يفاجأ:** فوجئ الأستاذ يحيى حقي بالموقف، ما هذا ؟ إيه ده ؟ أسلوب مخالف تماماً لما هو متعارف عليه سياسياً ودبلوماسياً، إنسان لم يبلغ الأربعين من عمره، يجلس أمامه، ويطلب منه بصفته ممثلاً للزعيم عبد الناصر مناقشة حملة ضد إنجلترا العظمى وليبيا حكومة وملكاً ! وجدت الرجل أمامي حائراً، فأخذني إلى بلكونة الحجرة التي كنا بها والمطلة على شارع سيدي عيسى الذي به المديرية العامة للشرطة في ولاية طرابلس الغرب، وكأنه يقول لنفسه أو لمن يريد أن يرى ويسمع من مباحث الشرطة إنه كدبلوماسي معتمد لا يتآمر ولا يعمل في الظلام وإنما يستقبل زواره في الهواء الطلق في ضوء النهار، كان متضايقاً من المأزق الذي حشرته فيه عن غير قصد، بل بحسن نية وصدق. لم أكن أعرف شيئاً عن الأستاذ يحيى حقي الذي كان أديبا، زود المكتبة العربية براويات شيقة كثيرة، ولا أدري كيف انتقل من صف الأدباء إلى صف السفراء، ولا إذا كان قومياً أو ثورياً أو خلاف ذلك، أو كان في خصوص الاتفاقية شخصياً مع الملك إدريس والحكومة الليبية أو معنا نحن المعارضة، ولم أفكر في ذلك، والذي كان مسيطراً علي هو أننا في معركة، وأنا كنائب معارض وهو كسفير لمصر الناصرية في خندق واحد، ويجب أن ننسق المواقف حتى نضمن النصر.

أخذت الأوراق وصرت أتلو عليه، وكان يستمع صامتاً ويعلق على فترات بقوله عظيم...عظيم....، فأدركت أنه لم يكن معي، كان يفكر في أمور أخرى لا أدري ماهي على وجه الدقة، ولكني أستنتج أنه يفكر بالطريقة التي سوف يواجه بها الأزمة المقبلة بين السفارة والحكومة الليبية بسبب استقباله لي، وبسبب مشاركته

في التحريض ضد الدولة الليبية والتدخل في شؤون السيادة الداخلية. مع الأسف خبرتي في الشؤون السياسية والدبلوماسية محدودة، ولم أكن أرغب في إرباك شخص السفير، ولا إيجاد أزمة بين الحكومة الليبية والحكومة المصرية.

انتهت المقابلة دون مناقشة، ولا تنسيق، والذي عرفته من بعد أن إقامة الأستاذ يحيى حقي لم تدم طويلاً، ولا أدري لعدم رضاء الحكومة الليبية عليه، أو لعدم رضاء الحكومة المصرية.

396 **السعداوي والمعاهدة:** المعاهدة بعد أن عرضت على لجنة الشؤون الخارجية، عرضت على مجلس النواب في جلسة صباحية، تقريباً في شهر يوليو، وكانت شرفة الجمهور مكتظة، كنت قد استلمت في اليوم السابق برقية من بشير بي السعداوي يحث فيها على معارضة المعاهدة، وعلمت أن نفس البرقية أرسلت إلى العديد من النواب والى رئيس مجلس النواب عبد المجيد كعبار، وكنت أتوقع أن تطلب الحكومة مناقشة المعاهدة في جلسة سرية، وتطالب الجمهور بالخروج. كنت حريصاً على أن يعلم الجمهور صيغة برقية بشير بي، وأن تسجل في محاضر الجلسة العلنية، فما كان مني إلا أن قمت بعد أن افتتح الرئيس الجلسة بالصورة التقليدية المعروفة، وتليت الرسائل الواردة للرئاسة، ولم تكن من بينها برقية بشير بي، وطلبت الكلمة، وقلت: أنا متأكد من أن الرئاسة استلمت البرقية التالية، وتلوت صيغة برقية بشير بي، واستغربت لماذا لم تدرج في الرسائل الواردة، صفق الجمهور بشدة، وهتف للسعداوي وللمؤتمر، وارتبكت الرئاسة وهيئة السكرتيرية، وبدأ الضيق على وجوه الوزراء وطلبت الحكومة بسرعة أن تكون الجلسة سرية، وأخليت الشرفة من الجمهور. وتحقق ما كنت أرغب فيه من الإعلان في مجلس النواب أن الزعيم السعداوي لا يزال يعمل في المنفى، وأن الجمهور مازال ملتفاً حوله، وأن برقيته التي كان يقصد التعتيم عليها، أثبتت في محاضر الجلسة العلنية. وبدأت الجلسة السرية والمناقشة بتلاوة تقرير لجنة الشؤون الخارجية التي أوصت بالموافقة مع بعض الملاحظات. وجاء دوري فألقيت خطابي بحماس وقد قُطع عدة مرات بالهتاف من نواب المعارضة الذين زاد عددهم في هذه المناسبة، وعلّق

البعض بأن مصطفى استعمل مدافعه الثقيلة. وتكلم معظم النواب بين مؤيد ومعارض، وكانت الحكومة متضايقة جداً من فحوى الخطاب وعنفه وأسلوبه الساخر تارة، وعاتبني رئيس الوزراء عتاباً شخصياً في مناسبة لاحقة على شدة الحملة، واعتبرها موجهة ضده شخصياً في الوقت الذي كان محتاجاً للكثير من العطف والمساندة. وكان أشد المتضايقين الوزير إبراهيم بن شعبان الذي كان يتحفز للرد علي والتشهير بشخصي، ولكن محمود بي رئيس الوزراء منعه، مطمئناً لنتيجة التصويت التي كانت متوقعة في صالح المعاهدة. علمت بذلك بعد انتهاء الجلسة، كما علمت من عدة مصادر فيما بعد، أن الملك علم بتفاصيل المناقشة وكان مستاء من تصلب النائب السراج معتبراً أن الانتقاد كان موجهاً له شخصياً باعتباره هو مصمم المعاهدة.

397 **سقوط وزارة محمود المنتصر:** عمل النائب كما سبق وأن قلت، وخصوصاً في النظام الاتحادي، فيه كثير من الرتابة، مهمة مجلس النواب التشريع، وذلك بمناقشة ما تقدمه الحكومة من مشاريع قوانين، مهمة مجلس النواب متابعة سلامة تنفيذ القوانين. وحيث إن السلطة التنفيذية في النظام الاتحادي موزعة بين الحكومة الاتحادية والولايات، فإن هذا يتيح الفرصة للوزراء للتهرب مما ينسب إليهم من إهمال بعدم الاختصاص. في هذه الأثناء سقطت حكومة محمود المنتصر بتاريخ 1954/2/15، نتيجة الصراع مع الولايات وتدخلات رجال الحاشية الملكية، صراع لا يستهدف مصلحة ليبيا العليا، ولكنه صراع على الاستحواذ على أكبر نصيب من السلطة من أجل السلطة، أو من اجل ما يتبعها من كسب مشروع أو غير مشروع.

حلت محل الوزارة السابقة وزارة برئاسة محمد الساقزلي، ودخلها عبد الرحمن القلهود الصديق والزميل وزيراً للعدل، وهذه الوزارة لم تعمر طويلاً بسبب أزمة وقعت بين والي طرابلس الصديق المنتصر والمجلس التشريعي الممثل في رئيسه علي الديب، تفاقمت الأزمة ووصلت إلى المحكمة العليا التي حكمت في صالح المجلس التشريعي ورئيسه علي الديب، فثارت ثائرة الوالي والحاشية الملكية،

وصور الحادث كأنه انقلاب وجرت الوزارة في المشكلة التي تسبب عنها إقالتها من الملك، لأنها لم تحسن التصرف في التعامل مع الأزمة المذكورة.

398 **تكليف مصطفى بن حليم بتأليف الوزارة:** بعد إقالة وزارة محمد الساقزلي، تكونت وزارة ثالثة برئاسة مصطفى بن حليم الذي كان وزيراً للمواصلات في الوزارة السابقة بتاريخ 11/4/ 1954، مصطفى بن حليم رأي الاستفادة من بعض النواب الذين اشتهروا بالكفاءة والوطنية والاستقامة فطلب من الشيخ عبد الرحمن القلهود مفاتحة مصطفى السراج، صاحب هذه الذكريات بقبول الدخول في الوزارة الجديدة كوزير للاقتصاد وهي وزارة ستستحدث. الدورة البرلمانية كانت منعقدة في بنغازي ونحن النواب الطرابلسين كنا نقيم في شقق خاصة مؤجرة. كنت في شقة واحدة مع الشيخ عبد الرحمن والنائب محمد الزقعار والحاج محمد الكريكشي عضو مجلس الشيوخ والنائب عبد العزيز الزقلعى، وكانت شقتنا ملتقى للكثير من الأصدقاء.

مصطفى بن حليم طلب من الشيخ عبد الرحمن أن يكون الحديث مع مصطفى السراج بسرية، فإن تم القبول فبها، وإلا فلا داعي لانتشار الخبر من عرض ورفض وما يتبعه من إشاعات وتشويش لا فائدة منه.

كان مجلس النواب يستعد لمناقشة الميزانية المعروضة من حكومة الساقزلي وهي من المعارك المهمة التي كنا نواب المعارضة نترقبها ونستعد لها. وطلب مني الشيخ عبد الرحمن بعد صلاة العشاء أن نخرج في جولة.خرجنا وشرح لي أثناء تجوالنا في شوارع بنغازي مطلب بن حليم، فوجئت بالطلب، لم أفكر فيه من قريب أو من بعيد، وكنا كنواب معارضة بالمرصاد لكل حكومة، ونعتبر التعاون مع الحكومات عملاً غير سليم على الأقل، وكان حواراً طويلاً وجدالاً متشعباً بيني وبين عبد الرحمن.

وأخيرا تضايق من استمرار رفضي، فاحتج غاضباً ما هذا يا مصطفى ؟ معرفتنا لبعضنا ليست جديدة وترجع إلى عشرات السنين !هل تريد أن تثبت لي أنك

أكثر وطنية مني؟ وأنك أنت أكثر إخلاصا وحرصاً على المصلحة العامة ؟ هل هي مزايدات ؟ عملنا قبل إعلان الدولة معاً في المؤتمر مع الزعيم بشير السعداوي على إقامة دولة حرة قوية، وتحقق ما أمكن من أهداف، عملنا معا في مجلس النواب وفي المعارضة لمراقبة الحكومة وتصحيح مسار الأمور، نجحنا في مجالات وفشلنا في أخرى. والآن مطلوب منا مساهمة في العمل الإيجابي من الداخل، بدلاً من البقاء في الخارج، ومطالبة الآخرين بكذا، وكذا. فلنستلم دفة الأمور وننفذ ما كنا نطالب به الآخرين. مجال جديد بالنسبة لنا ربما ننجح. لماذا ترفض؟ هل هي عدم ثقة بأنفسنا أم ماذا ؟ لاحظت أن الشيخ عبد الرحمن كان طول النهار في عمل متواصل، أزمة دستورية أطاحت بالحكومة وهو وزير عدل بها، ووزارة جديدة على وشك التكوين غداً، سيكون هو من ضمنها والرئيس المكلف يريد زميله القديم مصطفى معهما في الوزارة الجديدة، ومصطفى يرفض، ولاحظت أنه كان مرهقاً وانفعل وعلا صوته ونحن في الشارع فنبهته لذلك،و أخذنا نعود إلى شقتنا وكل واحد منا صامت لم نكن نتكلم ولكن أدمغتنا كانت في عمل متواصل و بسرعة.

399 **المفاضلة بين المعارضة والوزارة:** حللت ما قاله الشيخ عبد الرحمن، و خلاصته أنه انتقال من عمل سلبي متمثل في المعارضة، إلى عمل إيجابي مُمثل في صنع القرار منفرداً أو مع مجلس الوزراء. ماذا يمنع من ذلك ؟ هل الاشتراك في الوزارة عيب ؟ هل هو جريمة ؟ إذا كنا كأفراد وطنيين قد قبلنا بالدولة الليبية كما هي بمختلف فروعها، نظام ملكي، نظام اتحادي، بمختلف أجهزته، بوزارة اتحادية وولايات، ومجلس نواب ومجلس شيوخ، ونواب مع الحكومة ونواب المعارضة، وقبِلنا بكل ذلك، وقد قَبِلنا الدستور بكل عيوبه، فما معنى أن نعتبر العمل في مجال المعارضة عملاً مشرفاً، والعمل في الوزارة غير ذلك ؟ قبل أن نصل الشقة وصلت إلى قرار أراح الزميل الشيخ عبد الرحمن وأخبرته بأنه يستطيع أن يعتبر بأني قابل للمساهمة في الوزارة معه من حيث المبدأ، ولكن عندي بعض الشروط سأذكرها عند مقابلتي الرئيس المكلف.

عدنا إلى الزملاء الأصدقاء الذين لاحظوا طول غيابنا، ولم يفهموا له سبباً، ودار الحديث حول أزمة وزارة محمد الساقزلي التي أقيلت.

في اليوم التالي توجهنا ضحى إلى مجلس النواب، وكان الحديث أيضا عن أزمة الوزارة ومن سيكون الرئيس الجديد محور حديث الجميع. أقبل الأستاذ محمود فرحات مدير مكتب وزير المواصلات في الوزارة السابقة و أخبرني أن مصطفى بن حليم يرغب في مقابلتي، فتوجهت معه إلى مبنى الوزارة القريب ودخلت إلى أحد المكاتب وكان حاضراً الشيخ عبد الرحمن القلهود، وإبراهيم بن شعبان، ومحمد عثمان الصيد، رحب بي المهندس مصطفى بن حليم، وهش وبش، وشكرني على قبول عرضه كما أبلغه الشيخ عبد الرحمن. كانت معرفتي بمصطفى بن حليم محدودة، وكنت معتزاً بموقفي كنائب معارض. كانت لي مواقف مشرفة شهد بها الصديق، وغير الصديق. كنت أستطيع أن أسأل، وأناقش، وأن أحمل على أي وزير وعلى رئيس الوزراء أيضا. ولذا بدأت الحديث مع مصطفى بن حليم من مركز قوي، لست أنا الذي أرغب في دخولي الوزارة، ولكن الوزارة عُرضت علي، وأنا لمدة 12 ساعة سبقت، كنت رافضاً القبول. قلت يا مصطفى بي أقبل بشروط فابتسم وقال ما هي ؟ ذكرت حوالي عشرة مجالات، فعلّق بن حليم ببراعته المعروفة، معظم هذه الأمور لا أستطيع تلبيتها، لا لأني غير مقتنع بها، بل بالعكس أنا مثلك أتمناها، ولكن لأنها من اختصاص الملك أو يحكمها الدستور بكل عيوبه. ولذا لا فائدة من أن تشترط علي أمورا لا أستطيع الوفاء بها، أتمنى أن تكون الأمور بيننا واضحة، أستريح إليك وتستريح لي تثق بي، وأثق بك، نتعاون معا للتغلب على الصعاب التي ستعترضنا وما أكثرها. تأكد أني أريد أن أبدأ حياتي كرئيس وزراء قوي، وحولي نخبة من الوزراء الأكفاء النزهاء، أستطيع بهم ومعهم تحقيق الكثير من الرغبات التي نحلم بها.

400 **مصطفى وزير الاقتصاد:** أعجبت بأسلوبه في تناول الموضوع بوضوح، ودون تكلف، فأحسست أنه صادق. وقبلت العرض فصافحني مهنئنا، وهنأني الشيخ عبد الرحمن، وقد تعزز موقفه في الوزارة بوجود صديقه مصطفى

معه، وهنأني محمد بن عثمان، كما هنأني إبراهيم بن شعبان مضيفاً وموجها الحديث إلى مصطفى بن حليم قائلاً " مصطفى بي، أعرف أن في عروق الأستاذ مصطفى السراج نسبة من الدم البربري، إشارة إلى جدتي سعيدة النالوتية، وأن البربري صادق في صداقته وصادق في خصامه لقد خاصمنا مصطفى السراج وهو معارض، و الآن وقد قبل تولي الوزارة، سيكون عنصراً صادقاً يعتمد عليه " ضحك البعض وعلق بن حليم على قول بن شعبان " يا إبراهيم بي نحن نسعى للتخلي عن صفات نعاني منها كثيراً، وهي :هذا برقاوي وهذا طرابلسي، وهذا فزاني، وأنت تريد أن تزيد صفة جديدة أخرى، وهي هذا بربري، وهذا غير بربري، سامحك الله" وأضاف قائلاً " سأتقدم بتشكيل الوزارة إلى مولانا الملك وآمل موافقته عليها " وكان من ضمنها الشيخ عبد الرحمن القلهود وزيراً للعدل، والدكتور علي العنيزي وزيراً للمالية، وخليل قلال وزيراً للدفاع، وعبد السلام البوصيري وزيراً للخارجية، ومحمد بن عثمان الصيد وزيراً للصحة، وإبراهيم بن شعبان وزيراً للمعارف، ومصطفى السراج وزيراً للاقتصاد، وبدأت صفحة جديدة في حياة مصطفى السراج.

401

**وزارة الاقتصاد:** الاقتصاد يشمل الزراعة والتجارة والصناعة والسياحة والنفط، وكانت جميعها من اختصاصات المالية التي كان وزيرها في وزارة الساقزلي الدكتور علي نور الدين العنيزي. رأى مصطفى بن حليم فصل المالية عن النشاطات الأخرى، وإبقاء الدكتور العنيزي وزيراً لها، والاقتصاد بفروعه من اختصاص وزارة الاقتصاد الجديدة، ووزيرها مصطفى السراج.

مجالات الاقتصاد نظرياً متعددة كثيرة فسيحة، ولكن في الواقع بدأت وزارة الاقتصاد متواضعة، بعض المكاتب فصلت عن وزارة المالية، بعض الموظفين نقلوا من وزارة المالية أيضا منهم أحمد الفلفال، سكرتير مكتب الوزير وعمله استلام المكالمات الهاتفية وتحديد مواعيد مقابلات الوزير، وعبد الرزاق المسلاتى أخو الشيخ محمود المسلاتى كمدير للوزارة، وعبد الرازق درس في القاهرة، وثقافته عربية ويتقن الإنجليزية. الطباعون والطباعات هم العاملون في وزارة المالية حتى

المستشار الإنجليزي الذي فرضته الاتفاقية الليبية الإنجليزية كان نفس مستشار وزارة المالية المستر بيت هارت ديكر في الخمسينيات من عمره مؤدب جداً. والعقبات أمام الرغبة في التحرك كانت هي نفس المشكلات المزمنة الشهيرة " الاختصاصات الموزعة بين الحكومة الاتحادية والولايات، ثم المخصصات المالية المحدودة جداً. ولذا انحصر النشاط في مجال ضيق، الاشتراك في اجتماعات مجلس الوزراء، وحضور جلسات مجلس النواب والشيوخ، والمساهمة في مناقشة قوانين وقرارات مشتركة بين الوزارات، حيث إن الوزراء مسؤولون بالتضامن، أي أن الوزير ليس مسؤولاً عما يصدر عن وزارته من قوانين وقرارات فقط، ولكنه مسؤول مسؤولية جماعية مع بقية الوزراء عما يقرر في مجلس الوزراء.

كان مجلس الوزراء ينعقد أسبوعيا، وكان سكرتير المجلس السيد مصطفى بن سعود يعد جداول الأعمال، ويوزعها قبل الجلسة، ويحضر الجلسات، ويسجل أقوال الوزراء. زارني بعد التعيين مباشرة كثير من النواب والشيوخ والأصدقاء للتهنئة، أذكر منهم على وجه الخصوص الدكتور فتحي الكيخيا الذي صارحني قائلاً " كنت أتوقع كل شيء، إلا أن يوافق الملك على تعيينك وزيراً" فابتسمت وذكرته بالمثل الشعبي الذي ينسب إلى إخواننا الفزانيين وصيغته "شريف ما نولي شريف...أما باشا ماننّدري..."ويعني بكلمة الشريف الآنتساب إلى نسب النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق ابنته فاطمة الزهراء، أي أن الآنتساب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم غير مكتسب، أما الحصول على رتبة الباشوية فأمر ممكن وجائز. وقد كان جفاء بين عائلة الكيخيا ومصطفى بن حليم.

402

**مفاجأة:** أذكر أنه أبلغني السكرتير أحمد الفلفال، أن مستر تايلور مندوب منظمة الأغذية والزراعة في ليبيا، يرغب في تحديد موعد لمقابلتي، حدد الموعد وجاء مستر تايلور، فإذا هو مستر تايلور رئيسي في مصلحة الزراعة قبل الاستقلال، استقبلته ورحبت به، واستمعت إلى ما كان يريد عرضه، وناقشته فيه عن طريق مترجم كان مرافقاً له، ثم أردت مجاملته قائلاً بأني أشعر بأن الخبرة التي اكتسبتها أثناء عملي في مصلحة الزراعة، أفادتني بأن أتقلد وزارة الاقتصاد.

فبدأ عليه الحرج وعلّق قائلاً " أرجوك لا تحرجني أكثر، أصارحك بأنه لا فضل لي عليك إطلاقا، كنا نرغب في تهيئتك لتتقلد منصباً إدارياً كبيراً في إحدى الوزارات المقبلة، ولكنك اخترت طريقاً آخر، وكنت عنيداً، احترمنا اختيارك، وصرت وزيراً، ويسرني ذلك.

زيارة مفاجأة أخرى، أخبرني أحمد الفلفال أن مستشار شركة شل مستر لاش يرغب في المقابلة، حدد الموعد أيضا، واستقبل السيد المستشار، وكانت مفاجأة كبرى أخرى، مستر لاش هو البريقيدير جنرال لاش أول حاكم عسكري لطرابلس سنة 1943، والذي كانت لي معه مواقف وأنا موظف في مكتب الاستعلامات البريطاني، ومسؤول عن إصدار صحيفة طرابلس الغرب، وقد تم سرد أحداث تلك الفترة في هذه الذكريات سابقاً، مرت أكثر من 10 سنوات وهاهو لاش أكثر شيباً بقامته الطويلة، وبلهجته العربية السودانية، جاء بصفته مستشاراً لشركة شل، يطلب من صاحب السعادة وزير الاقتصاد إقناع مجلس الوزراء بقبول وجهة رأي شركة شل، بأن تعطى لها فرصة اختيار الحقول البترولية التي ترغب فيها قبل غيرها من الشركات الراغبة في ذلك، بحجة أنها عملت سنوات طويلة في ليبيا فترة الحكم العسكري، وأن خبرتها وأبحاثها السابقة، سوف تفيد في اكتشاف النفط من الحقول التي تختارها لصالح ليبيا ولصالحها. طلب غريب فيه الكثير من التعسف، جاملت السيد المستشار ووعدته بعرض طلبه على مجلس الوزراء. لم أتأكد أنه تذكرني، وإن كنت أميل إلى أنه جمع حول شخصي كثيراً من المعلومات قبل طلب المقابلة، ولكن لا أحد منا أشار إلى ما سبق. تعليق وزارة الاقتصاد كان في غير اتجاه شركة شل وعرض الطلب على مجلس الوزراء ورفض لأنه في غير صالح ليبيا.

403 **البحث عن من يبحث عن النفط:** كنا نشعر أن ليبيا بصحاريها المترامية الأطراف، الخالية من الأنهار، فقيرة جداً، وأن ذلك يكوّن مشكلة المشاكل أمام أي خطة للتنمية. فأي خطة للتنمية تحتاج إلى مال كثير، أين هذا المال ؟ ميزانية الدولة حوالي 6 ملايين جنيه، حوالي نصفها مساعدات أجنبية، بالضيّق تكفي للمرتبات وللضروريات، وفي هذه الأثناء عثر على النفط في جنوب الجزائر

وقريباً من الحدود الليبية. صحراء جزيرة العرب والعراق والكويت، شرقي ليبيا غنية بالنفط، صحراء الجزائر غربي ليبيا تفوح منها رائحة النفط، ولكن البحث مكلف جداً، ولا يمكن أن تُقدم عليه إلا شركات متخصصة لها خبرة كبيرة وإمكانيات مالية أكبر؛ ولذا كانت هذه النقطة الشغل الشاغل لي ولرئيس الوزراء مصطفى بن حليم، كيف يمكن إغراء الشركات الكبرى بالمجازفة بالاستثمار في البحث عن النفط في بلد مجهول ؟ فكانت خطة تحمس لها رئيس الوزراء، وتبناها وهي دعوة الشركات المتخصصة إلى ليبيا، ومفاتحتها في الموضوع ودعوتها إلى أن تساهم مع ليبيا في وضع قانون النفط بما يتناسب مع مصلحة ليبيا ومصلحة الشركات المنقبة نفسها. كانت العادة أن تضع الدولة المهتمة بالبحث عن النفط قانوناً يحدد كل شيء، وعلى الشركات أن تتكيف مع هذا القانون. خطتنا كانت عكس ذلك، وتجاوبت الشركات معنا، فكوّن رئيس الوزراء فريقاً صغيراً برئاسة محامٍ فلسطيني اسمه أنيس القاسم وكان أول اجتماع بالشركات في1954/11/1 برئاسة وزير الاقتصاد صاحب الذكريات، وصارت تعقد اجتماعات في صمت، ودون جلبة ودعاية لوضع قانون النفط الليبي، كان هدفنا إغراء الشركات بالإقدام على التنقيب عن النفط، دون تفريط من طرفنا. و قد صدر قانون النفط في1955/4/21 بعد انتقال مصطفى إلى وزارة المعارف.

404 **مصطفى من معارض إلى موافق:** كان لدخول مصطفى الوزارة صدى في الأوساط التي لها علاقة به، البعض يراه ردة،انسحاب من المعركة المتمثلة في معارضة الحكومة في مجلس النواب، وقد عرف مصطفى بنجاحه في هذا المجال، فانسحابه يعد خسارة كبيرة للمعارضة المترنحة، فريق آخر يرى أن مصطفى لم ينسحب من المعركة، وإنما نقل ميدانها من مجلس النواب إلى مجلس الوزراء، كان يحاسب الوزير لقراراته، فصار يساهم في اتخاذ القرار مع محاسبة زملائه من الوزراء قبل اتخاذ القرار. وحان التصويت على الميزانية التي سبق أن عرضت من حكومة محمد الساقزلي على مجلس النواب، فما كان من حكومة بن حليم الجديدة إلا أن تبنت الميزانية كما هي، في مجملها خصوصاً وأن

إعداد ميزانية جديدة من مجلس الوزراء يتطلب وقتاً كبيراً، وأن عدداً كبيراً من الوزراء الحاليين هم من نفس الوزارة السابقة. شُرفات مجلس النواب في بنغازي كانت مزدحمة بالزوار، ومعظمهم من جمعية عمر المختار التي اشتهرت بسياستها القومية والوطنية والمعارضة للوزارات السابقة. كان التصويت برفع الأيدي، الأنظار كانت متجهة إلى مصطفى، وقد رفع مصطفى يده بالموافقة، وضجت شرفة الزوار استنكاراً، ولكن مصطفى كان قد حدد مساره عندما كان يتجول مع الشيخ عبد الرحمن ليلاً في شوارع بنغازي.

405

**معرض دمشق:** تلقت الحكومة الليبية دعوة من الحكومة السورية بالاشتراك في معرض دمشق، كما تلقت دعوة مماثلة من الحكومة التركية للاشتراك في معرض أزمير، الموعد الأول سابق عن الثاني بقليل. ليبيا كانت حريصة على أن يكون لها وجود في مثل هذه المناسبات، وهي حديثة العهد بالاستقلال، توطيداً لعلاقات الإخوة مع الدول العربية والإسلامية. فقرر مجلس الوزراء تلبية الدعوة، وكون وفداً من أعضاء مجلسي الشيوخ والنواب برئاسة النائب، ووزير الاقتصاد مصطفى السراج. أعضاء الوفد هم النواب صالح بوصير، وعبد العزيز الزقلعي، وإسماعيل بن لامين عضو مجلس النواب ورئيس غرفة التجارة الطرابلسية، وعوض لنقي عضو مجلس الشيوخ ورئيس غرفة التجارة البرقاوية، محمد شليد عضو مجلس الشيوخ، وهو من مدينة غدامس كانت فرصة لي على مستوى عالٍ لزيارة سوريا وتركيا، كانت زيارة معرض دمشق أولا، وهو أول معرض لسوريا بعد الحرب العالمية الثانية، وكان خط الرحلة إلى بيروت جواً، ثم بيروت دمشق بالسيارات. واجه الوفد مشكلة الإقامة، دمشق على عظمتها التاريخية تفتقر لفنادق عالية الدرجة، يضاف إليها الازدحام في مناسبة المعرض، وبمقارنة دمشق مع بيروت في هذا المجال يكون الفرق كبيراً. كانت إدارة المراسم محرجة، فتقرر إقامة الوزير في فندق سيمراميس أحسن فنادق العاصمة، وبقية الوفد فيما تيسر من الفنادق المتواضعة أو المستحدثة بمناسبة المعرض. لكن أعضاء الوفد لم يرضهم هذا الحل التلفيقي، وقرروا الإقامة في بيروت والقدوم صباحاً إلى

دمشق والعودة منها مساء. الحكومة السورية كانت برئاسة سعيد الغزي، وكانت مشغولة البال بحركة بقداش الشيوعية التي كانت تتفاقم، ورغم هذا كان الترحيب كبيراً بوفد الشقيقة ليبيا، و أقيمت المآدب على شرفه كما أن رئيس الجمهورية هاشم الاتاسي العجوز خصني بالمقابلة وأذكر أن معظم الوقت كان في ذكر مناقب بشير بي السعداوي الذي عرفه الاتاسي جيداً عندما كان مهاجراً في سوريا وعملا معاً في فترات الكفاح من أجل استقلال سوريا.

406 **معرض أزمير:** من سوريا توجهنا إلى اسطنبول، كنت أرتدي البدلة الأوربية وغطاء الرأس الطربوش، وقبل نزولي من الطائرة صعد إليها سفير ليبيا في تركيا علي الجربي، وأخبرني على عجل بأمرين، الأول أنه ينتظرني عند نزولي من الطائرة استقبال رسمي بكل أركانه من موسيقى تعزف النشيد القومي للبلدين، واستعراض للحرس إلى آخره، وأخبرني أنه أثناء استعراض الحرس يجب أن أحييه بقولي "مرحبا عسكر " على فترات، وكان أول درس لي في المراسم، ثم موضوع الطربوش، الطربوش من رموز العهد البائد الذي ثار عليه الزعيم أتاتورك. ارتداؤه من ضيف رسمي على الدولة فيه إحراج للدولة المضيفة، وهذا لا يليق، ولذا علي أن أتخلى عنه وهو يدبر طريقة لإيصاله إلى الفندق حيث ستكون إقامتي. وهناك موضوع ثالث سيحدثني فيه فيما بعد. مثلت دوري بإتقان كما أفادني فيما بعد السفير، الموضوع الثالث الذي أجّل الحديث فيه هو موضوع تقديم المسكرات في الحفلات الرسمية.

تفشى تناول المسكرات و شاع جداً في الأوساط التركية، ويقدم نوع منها في المناسبات الرسمية، ويشرب على صحة الزائر، وحيث إن السفير يعرف أني لا أتناول المسكرات، وأن الرفض فيه إرباك للدولة المضيفة، فما علي إلا أن أتظاهر بذلك، أي أن أرفع الكأس وأتظاهر بالشرب دون أن أشرب. لم ترقني هذه الطريقة الملتوية فهي مبنية على الكذب والغش، ولكن هذه هي السياسة في العالم وقبلت على مضض.

407 **ترحيب كبير:** نزلنا في فندق بارك هوتيل الفخم، وانتقلنا إلى أزمير، واشتركنا في حفل افتتاح المعرض، وأضفت تركيا على الزيارة مظاهر الفخفخة، فكانت زيارات للبنك الزراعي التركي، وللكثير من المصانع، ولمدينة أنقرة، وخصصت للوفد إحدى طائرات رئاسة الجمهورية للتنقل من مدينة إلى أخرى، اسطنبول أزمير، أنقرة، لم يتم استقبالنا من رئيس الجمهورية عدنان مندريس لأنه كان في الخارج. كان الجو السياسي في تلك الفترة يتسم بالتنافس بين مصر الناصرية، وبين تركيا المنحازة للسياسة الأمريكية على زعامة الشرق الأوسط، فالأمريكان كانوا متضايقين من سياسية الرئيس جمال عبد الناصر القومية، ومن تجميعه للعرب في جامعة عربية قوية، وكانوا يدفعون بالحكومة التركية لتقوم بدور المنافس والمقاوم له، وكانت تركيا تصنف كدولة إسلامية تارة وتارة كدولة علمانية متطرفة وتحاول كسب أنصار لها بين الدول العربية؛ ولذا كان الإعلام نشطا وغطت الصحف تنقلات الوفد الليبي وزياراته، ونشرت الصور.

الوزير الليبي لا يتكلم التركية ولا الإنجليزية، واجهت المراسم التركية المشكلة، وكان من ضمن اللجنة التركية المرافقة للوفد سيدة عربية تعمل في وزارة الخارجية التركية، وطبعاً تُحْسن العربية والتركية، وكلفت بأعمال الترجمة، وكان من ضمن اللجنة أيضا الملحق الاقتصادي في السفارة التركية في روما، كان يتقن الإيطالية، وحيث إن الوزير الليبي يتقن الإيطالية فاستراحت السيدة العربية، وحل محلها فاضل بي، وكانت مفارقة غريبة ليبي وتركي يتفاهمان معاً باللغة الإيطالية في قلب اسطنبول في مناسبات رسمية عليا،باللغة التي كانت لغة العدو المشترك لهما سنة 1911.

408 **محافظ اسطنبول ومنع المسكرات:** أذكر أن محافظ اسطنبول أقام لنا مأدبة في حديقة أحد قصور السلاطين المطلة على البسفور، الجو معتدل والمنظر خلاب والمدعوّون كثيرون، وكان على يميني وأنا ضيف الشرف المحافظ، وكان على يساري السفير الليبي، وكان المحافظ قصير القامة ممتلئ الجسم يتكلم

العربية. والكل يأخذ مكانه والمكلفون بالخدمة يستعدون لملء الكؤوس، بادرني المحافظ بالحديث بشيء من الاعتذار قائلاً: أنا لا أتناول المسكرات التي تفشت بشكل رهيب في المجتمع وكأنها وباء، وتشكلت جمعية لمقاومة ذلك ويرأسها المحافظ نفسه الذي لم يتناول المسكرات مطلقاً، والجمعية تدعو بمختلف الوسائل لذلك، ولكن بدون فائدة، والظاهرة تتفاقم ولذا فهو يعتذر من عدم تناول المسكرات معي، ويكتفي بعصير البرتقال، ويترك للجميع حرية التصرف....

اندهشت لما سمعت منه و أخبرته بأنني لا أتناول المسكرات أيضا، وهنأني بذلك وقصصت عليه ما نصحني به سفيرنا من عدم إحراج الدولة المضيفة فقال هذا دليل على استفحال الرذيلة ولا حول ولا قوة إلا بالله. كأسي وكأس المحافظ وكؤوس القريبين منا كانت برتقالاً أصفر اللون، أما الأخرى فقد امتلأت بالعرق ولونه أبيض. المحافظ أضاف بأن الاستهتار بحركة منع المسكرات وبه شخصياً بلغ إلى حد التعريض به شخصياً. اسم المحافظ عفت وسميت قارورة العرق التي كانت قصيرة وممتلئة مثل ذات المحافظ سميت باسم عفت وشاعت في المطاعم والخمارات وكان الراغب في احتساء العرق يقول أعطني عفت بدلاً من أن يقول أعطني قارورة عرق.

409 **زيارة بيوك اضه:** كان رئيس اللجنة المرافقة لنا مدحت بي وكيل وزارة الاقتصاد، وكان شاعراً إضافة إلى المنصب السياسي الذي يشغله أخبرني بأن برنامج ذلك اليوم ترفيهي، وقد لاحظ إرهاقنا ويشمل البرنامج زيارة جزيرة بيوك اضه، أي الجزيرة الكبيرة في البوسفور، وحضور حفلة غناء على أكبر مسرح في اسطنبول لأكبر مغنٍ تركي هو محمود...، ونسيت لقبه وذلك مساء. توجهنا إلى الجزيرة بالباخرة، وهي جزيرة كبيرة تعتبر منتزهاً قومياً، السيارات لا تتجول فيها، ووسيلة التنقل بها هي العربات التي تجرها الخيول، وقد اختفت الآن من معظم الدول الحديثة. الجزيرة جميلة جداً، هادئة غنية بالأشجار الباسقة والزهور، سحرت أعضاء الوفد الذين تنازلوا عن الحفلة الغنائية وفضلوا قضاء السهرة بالجزيرة. وعلم وكيل الوزارة بذلك، فما كان منه إلا أن ألغى الحجز

بالمسرح وحجز لنا في أكبر مطعم في الجزيرة لعشاء الوفد ومرافقيه، وكانت سهرة ممتعة جداً سادها جوّ من المرح، وكان محوره وكيل الوزارة الشاعر الذي صار يترنم بأشعاره بعد تناولنا عشاءً شهياً، وشرب هو بعض الكؤوس، وأذكر أنه يصف في قصيدة له حبيباً وحبيبة في زورق صغير في البوسفور في ليلة مقمرة صيفاً، وكانا يتناجيان، وكانت الحبيبة تحثه على خفض صوته المنخفض أساساً حتى لا يسمع القمر في علياء سمائه مناجاتهما.

410 **الشعر التركي والشعر العربي:** كانت اللجنة المرافقة للوفد موجودة بالكامل ووكيل الوزارة مدحت بي، فاضل بي الملحق الاقتصادي والمترجم، والسيدة العربية فاطمة مولودة في مكة في الخمسينيات من عمرها، وموظف كبير في الوزارة وحرمه واسمها بلقيس، وعزيز بي موظف كبير في الوزارة شخصية مرحة، وآخرون من مساعدي وكيل الوزارة، ونحن على مائدة العشاء نهض السيد الوكيل، وطلب بإلحاح من صاحب السعادة الوزير الليبي إتحاف الحاضرين بشعر عربي. لم أكن شاعراً ولا راوياً، فاعتذرت، وتململت، ولكن الإصرار زاد، وأخذ شكل تصفيق من الجميع وخصوصاً من أعضاء الوفد الليبي. كنت في منتهى الحرج ولا أعرف كيف تذكرت بعض الأبيات المبعثرة من قصيدة للشاعر المصري علي الجارم وغناها المطرب الكبير عبد الوهاب أبيات القصيدة هي :

**مالي فتنت بلحظك الفتاك — وسلوت كل مليحة إلاك**
**إني أغار من الكؤوس فجنبي — كأس المدامة أن تُقبل فاك**
**وإذا وصلت فكل شيء باسم — وإذا هجرت فكل شي باك**

كان السفير علي الجربي يترجم ويظهر أنه أجاد الترجمة مما جعل وكيل الوزارة ينسجم مع معاني الأبيات كثيراً وطلب مني الإعادة أكثر من مرة، كما أن الحاضرين عرباً وتركاً أبدوا إعجابهم بالشعر والإلقاء، وتمت السهرة على خير، وعدنا إلى اسطنبول بالباخرة حوالي منتصف الليل، وكان البوسفور ساكناً، والبدر ساطعاً، فطلب مني كابتن الباخرة قيادتها لفترة، ومحور تعليق جميع الذين حضروا

العشاء أشعار الوكيل، وما فيها من رقة، وأشعار الوزير الليبي وما كانت تحمل من معانٍ عذبة بكلمات بسيطة ساحرة.

411 **زيارة البنك الزراعي:** اليوم الذي يليه كان مخصصاً لزيارة البنك الزراعي صباحاً، تجول الوفد في مختلف أقسام البنك وخزائنه المحكمة النظام، ونحن جالسون في مكتب رئيس مجلس الإدارة نتناول القهوة التركية الشهيرة، وبعض الحلوى، قلت لرئيس البنك إن علاقتي العاطفية بالبنك الزراعي التركي قديمة، ترجع إلى أن عمي نوري أفندي كان موظفاً بفرع البنك في ولاية طرابلس الغرب، وكان يحدثنا كثيراً ونحن صغار مع أفراد العائلة عن ذكرياته في البنك. فاستغرب مضيفنا والحاضرون كذلك واعتبروا ذلك من الأواصر العديدة الموغلة في القدم والمتشعبة الجوانب التي تربط بين الشعبين التركي والليبي على المستوى الشخصي والشعبي والرسمي، ولم تمض دقائق حتى أقبل موظف وسلم ملفاً لرئيس مجلس البنك فتصفحه وقال نعم، يسرني أن أؤكد ما أخبرنا به سعادة الوزير حول عمه لقد كان فعلاً موظفاً بالبنك منذ أكثر من خمسين سنة، وهذا ملفه الشخصي، وصار يقرأ فيه والسفير علي الجربي يترجم، سبق أن اندهش الحاضرون قبل دقائق من أن عمي كان موظفاً بالبنك، واندهشت أنا الآن لدقة الإدارة بالبنك، وسرعة العثور على ملف موظف كان في ولاية نائية بالإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف، سألت رئيس البنك مازحاً هل لعمي بعض المستحقات المالية؟ فضحك هو والحاضرون، ونفى ذلك وأكد أن سيرة عمي كما هي مدونة في الملف جيدة جداً. أهداني صورة من الملف، وقد أهديت صورة منه لابنه محمود نوري السراج.

412 **ملك إيطاليا السابق:** في المساء كانت حفلة عشاء أقامها وزير الاقتصاد التركي في نفس الفندق الذي كنا نقيم فيه بارك هوتيل، وكانت مأدبة فخمة عزفت فيها فرقة موسيقية ألحاناً شجية، وبعد انتهاء الحفل ومغادرة المدعّوون الفندق وبقينا نحن أعضاء الوفد وحدنا، لاحظ أحدنا أن أحد الجالسين بعيداً حول إحدى الموائد، وجه ليس غريباً لديه، ووجّه انتباهنا إليه، فما كان من أحدنا إلا أن

استفسر من أحد موظفي الفندق عن هوية الشخص موضوع الاهتمام، وكان جوابه المفاجأة الكبرى؛ إذ أن الشخص المذكور هو ملك إيطاليا السابق امبرتو الذي أبعد عن إيطاليا بعد إعلان الجمهورية سنة 1945 " وأقام في البرتغال، وهو الآن يقيم بنفس الفندق مع سكرتيره الخاص، بعد أن لبّى دعوة لاوناسيس الثري اليوناني الشهير الذي كان كل سنة يدعو مجموعة من مشاهير العالم للقيام برحلة بحرية على يخته الخاص الفاخر في شرقي البحر الأبيض المتوسط، بعد أن انتهت الضيافة رغب الملك السابق قضاء أيام كسائح عادي في اسطنبول. اندهشنا وسبحان الله المعز المذل.امبرتو هذا عندما كان ولياً للعهد، وكنا صغاراً كانت ليبيا تحت الحكم الإيطالي سميت باسمه المدرسة الابتدائية الإيطالية العربية التي كنت أدرس فيها، وزار طرابلس، وكنت تلميذاً في الابتدائي، وقد خرجنا نحن جميع تلاميذ المدارس نحمل الأعلام ونهتف باسمه على شارع الكورنيش أمام الفندق الكبير، ودارت الأيام وصاحب السعادة مصطفى السراج وزير يمثل ليبيا وملكها محمد إدريس السنوسي يحتفل به رسمياً على أعلى مستوى في قلب اسطنبول، وصاحب السمو السابق وصاحب الجلالة السابق، هناك وحده قد نُسي وربما هو يريد أن ينسى أكثر ! ما أعجب الدنيا !

413 **أين هي مغنيزة:** عند زيارتنا لأزمير، وبعد افتتاح المعرض، كنا ضيوفاً على رئيس بلدية أزمير الذي علم أن أجدادي أتراك، فسألني عن صحة ذلك، وأخبرته بما أعرف، وهو أن جدي كان من مغنيزة، وما كنت أعرف موقعها على الخريطة، وهل هي مدينة أو قرية. و قد علمت منه أن مغنيزة مدينة شمالي أزمير، وأنه إذا سمح برنامج الزيارة، سيرتب لي موعداً لزيارتها لكي أتعرف إلى حاكمها، وربما أمكن العثور على الجذور، ولكن ذلك سيحتاج إلى الكثير من الوقت والجهد، برنامج الزيارة لا يسمح بذلك، والبحث تأجل إلى فرصة أخرى، زرنا مصنعاً للخزف الفاخر، ومصنعاً للسجاد، ومصنعاً لتجفيف الفاكهة المشهورة بها تركية.

اسكودار ضاحية من ضواحي اسطنبول بآسيا، ولي بها أقارب ينحدرون من عم والدي، قدري أفندي. ابتهج الأقارب وأقاربهم بوجودي في تركيا، وأن واحداً منهم صار وزيراً، وتابعوا الزيارة والاحتفالات بما نشرته الصحف من أخبار وصور، وألحوا على أن أخصص بعض الوقت رغم ضيقه لأجتمع بهم، وقد كان اجتماعاً عائلياً مؤثراً، أعاد بعض السيدات المسنات منهن إلى فترة طفولتهن، وإلى مدينة طرابلس ومحلة شارع الزاوية.

414 **علاوة السفر:** كنا وزراء، ولكن كنا نعامل بالكثير من التقشف وكما هو معروف كانت هناك علاوة سفر تتناسب مع درجة موظف الدولة، وكانت لائحة تنظم صرف هذه العلاوة تنص على أن العلاوة لا تصرف إذا كانت إقامة المسافر على نفقة الجهة الداعية. وطبقت علي هذه اللائحة حيث كنت ضيفاً على الحكومة التركية، وقد أخذت معي قبل الرحلة مبلغاً من المال الخاص احتياطاً، وربما لأشتري به الهدايا من أسواق تركية. ولكن الزيارات كانت مكثفة ولم يكن هناك وقت للتجول أو الشراء.

كانت عودة الوفد على طريق روما _ طرابلس، وقد بقيت في روما بضعة أيام لأمور خاصة، واستفدت من المبلغ الذي كان معي. وصادف أن التقيت مع السيد الهادي المشيرقي، وهو تاجر كبير، ووطني غيور، وصديق، فاستضافني لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في فندق ريفي جميل شمال روما اسمه تيرمينيلو، ونفدت النقود التي كانت معي، فاقترضت منه مبلغاً من المال وعدت إلى ليبيا، ونسيت تسديد الدين في زحمة العمل الوزاري والتنقل بين طرابلس وبنغازي والبيضاء، وبعد خروجي من الوزارة واستقراري في طرابلس، ذكرت ما علي وتم السداد مع الاعتذار.

415 **العلاقات الأمريكية الليبية:** علاقة أمريكا بليبيا علاقة قديمة، ترجع إلى حوالي 200 سنة منذ أن استقلت أمريكا عن انجلترا، وأخذت سفنها تبحر عبر البحار ومنها البحر الأبيض المتوسط، نقلاً للبضائع من أمريكا وإليها، في تلك

الفترة لم تكن البحار آمنة، وكانت القرصنة شائعة، وكان الاعتداء على السفن في أعالي البحار متوقعاً في كل وقت، وكان البحارة الليبيون في ذلك العهد نشيطين جداً، يهاجمون سفن الدول التي لا اتفاقيات لها مع الحكومة الليبية، وغالباً تتضمن الاتفاقيات دفع الدولة التي ترغب في توفير الآمان لسفنها إتاوة متفقاً عليها إلى ليبيا، وكانت هذه الإتاوات المتعددة المصدر، تكون مورداً هاماً لمالية الدولة الليبية، بالإضافة إلى الغنائم التي تحصل عليها عند الاستيلاء على سفن الدول التي ترفض الدفع، ولهذا السبب كانت العلاقات بين ليبيا والحكومة الأمريكية متوترة لأن أمريكا كانت تخضع على مضض لدفع الإتاوة إلى ليبيا وتتملص منها بكل المبررات. وتاريخ تلك الفترة زاخر بالتصادم غالباً والتفاهم أحيانا بين الدولتين.

انتهى عهد القرصنة وحل محله عهد الاستعمار، وأمريكا كانت مشغولة بشئونها الداخلية من توسع واستثمار داخلي فلم تشترك في حملات الاستعمار مثل الدول الأوربية. وقد سجل هذا لصالحها في علاقاتها مع البلاد التي استعمرت من غيرها ثم استقلت، يضاف إلى ذلك أن أحد رؤسائها واسمه ويلسون، صرح عقب الحرب العالمية الأولى سنة 1914 _ 1918 بأنه لكل شعب الحق في تقرير مصيره، وكان لهذا التصريح دويه بين الشعوب المستضعفة، وتمسكت به الشعوب المكافحة ضد الاستعمار وسجل أيضاً لصالح أمريكا باعتبارها دولة كبيرة لا مستعمرات لها، تناصر الشعوب التي تعمل للتحرر.

أمريكا دخلت الحرب العالمية الثانية متأخرة بجانب إنجلترا وروسيا، ضد ألمانيا الهتلرية وشريكتيها إيطاليا واليابان، وكان لها الدور الحاسم في إحراز النصر، وكان لها وجود عسكري في ليبيا وخصوصاً في طرابلس إبان الحكم العسكري البريطاني ممثلاً في قواعد جوية. وانضمت أمريكا إلى تشرشل زعيم بريطانيا في نظريته بأن الانتصار على هتلر وألمانيا لم ينه الخطر الذي يهدد العالم الحر في نظره، والخطر الجديد ممثل في روسيا زعيمة الشيوعية العالمية. وتزعمت أمريكا هذه الحملة وأخذت تبحث لها عن قواعد عسكرية وجوية وحلفاء لتحاصر بها الخطر الشيوعي المحدق بكثير من الشعوب والأمم.

ليبيا بسواحلها الممتدة على مئات الكيلومترات في شمال أفريقيا، لها موقع ممتاز لإقامة القواعد الجوية التي تفيد في أمور كثيرة، منها تدريب الطيارين الجدد التابعين لقواعد موجودة في شمال أوروبا، نظراً للجو الصحو باستمرار في ليبيا، ولهذا توسعت في قاعدة أسمتها ويلس بجنب مدينة طرابلس. واستقلت ليبيا و قواعد أمريكا موجودة بها.

ومنطق أمريكا يقول أنا موجودة في ليبيا، وسأبقى لأنه علي واجب مقدس هو الدفاع عن العالم الحر، ويسرني أن تنظم العلاقات بيني وبين ليبيا المستقلة، وأنا على استعداد للمساهمة في دعم الاقتصاد الليبي وتطويره ...

416 **ليبيا والتخلص من التخلف:** الحكومة الليبية الأولى، حكومة محمود المنتصر، واجهت مشكلة المعاهدة الليبية البريطانية، الحكومة الثانية، حكومة محمد الساقزلي، كان عمرها قصيراً وانصرفت، والحكومة الثالثة، حكومة مصطفى بن حليم، وصاحب هذه الذكريات كان وزيراً للاقتصاد بها، كما هو معروف، تصدت لحل مشاكل الفقر في ليبيا حلاً جذرياً على البحث عن النفط وإعداد قانون يغري الشركات الكبرى بالإقدام بالبحث عن الذهب الأسود في بلد لم يستكشف بعد فيه. ومعظم الشركات الكبرى في هذا المجال أمريكية، الحكومة الثالثة تريد تصفية الوجود الفرنسي في فزان، وحيث إن فرنسا استعادت مركزها بفضل الجنرال ديجول بين حلفائها المنتصرين في الحرب، كانت تعمل على البقاء في فزان إلى ما لا نهاية، بالإضافة إلى سياستها في ممتلكاتها في شمال أفريقيا تونس والجزائر والمغرب، كانت سياسة عدائية وقمعية جداً. ورأت الحكومة الليبية أنه يجب تنظيم العلاقة مع أمريكا،ثم التفرغ لفرنسا وفزان ويضاف إلى ذلك أن أمريكا غنية، ويمكن الاستفادة منها في تحريك الاقتصاد الليبي، ريثما يكتشف النفط. وأعلنت أمريكا مبدأ الجنرال إيزنهاور الذي يدعو دول الشرق الأوسط إلى التكتل لمقاومة الخطر الشيوعي الذي يسعى حثيثاً إلى النفاذ إليها، وطبيعة هذه الدول المتخلفة يجعل شعوب هذه المنطقة فريسة سهلة للشيوعية، وليبيا كانت من دول هذه المنطقة.

أمريكا رغم أنها مناصرة للدولة الصهيونية الجديدة إسرائيل التي تأسست سنة 1948 لكنها، ونحن في سنة 1954 لم تظهر بالبشاعة التي اشتهرت بها فيما بعد.

هذا هو المشهد، بمعالمه الرئيسية حين واجهت الحكومة الثالثة موضوع العلاقات مع أمريكا. المفاوضات لم تكن سهلة بل بالعكس كانت مضنية، ومنطق الأمريكان كما هو معروف، نحن الأمريكان موجودون في ليبيا وسنبقى إلى أن تقبل الحكومة الليبية تنظيم العلاقات. كانت الحكومة الأمريكية ترى أن قيامها بالتصدي للشيوعية العالمية عمل جليل، وما يكلفها من مجهود ونفقات ليس في صالح أمريكا بمفردها، بل لصالح الدول التي تريد أن تعيش حرة في أمان من الخطر الشيوعي ومنها ليبيا؛ ولذا تركيز ليبيا على المساومة على وجود القواعد أمر غير مستساغ لدى الرأي العام الأمريكي والكونغرس. ليبيا يجب أن تساهم هي أيضاً في مقاومة الشيوعية، ولا أقل من تخصيص مساحة مناسبة من الصحراء تقدمها إلى أمريكا مجاناً لإقامة قواعد تدافع منها على ليبيا أولاً وعلى المصالح الأمريكية الكبرى ثانياً. أما ما تحتاجه ليبيا الصديقة من مساعدات مالية لتطوير اقتصادها فإن أمريكا ترحب ببحثه، وتعمل على تلبية الطلبات الليبية المعقولة والمنطقية، لكن لا على أساس المقايضة وإقحام القواعد العسكرية الموجودة في الموضوع.

417 **الاتفاق بين القوي والضعيف:** منطق ليبيا مختلف تماماً، ليبيا دولة مستقلة معترف بها، شعبها فقير ومتخلف بسبب الاستعمار، تريد أن تعيش في سلام مع جميع دول العالم، كبيرها وصغيرها، ولا علاقة لها بالأيديولوجيات الحديثة من شيوعية وغير شيوعية، ولا علاقة لها بالحرب الباردة، وتريد أن تكون لها علاقات متوازنة بين أمريكا وروسيا، ولا تخشى الشيوعية لأن شعبها شديد التدين، محصن ضد الخطر؛ ولذا تطالب بتصفية القواعد الأمريكية، ولا علاقة لها بمبدأ إيزنهاور، ويكفيها توطيد علاقاتها مع الدول العربية في نطاق الجامعة العربية والعمل معها في تطوير اقتصادها، ومقاومة الخطر الصهيوني الذي يهدد فعلاً المنطقة بوجوده داخلها، أما الخطر الشيوعي المحتمل، فهو خطر افتراضي،

لا دعوة لليبيا به، وكلما زادت أمريكيا تأييداً لإسرائيل زاد العرب وليبيا من ضمنهم بعداً عنها وكرهاً لها.

رغم كل ذلك، فلابد لليبيا من مواجهة المشكلة، لا يمكن تجاهلها إلى الأبد. وتجاهلها في غير صالح ليبيا، لأن الأمريكان موجودون، وقواعدهم تعمل.

ولذا دخلت ليبيا في مفاوضات، تهدف إلى التخلص من القواعد إن أمكن وهذا غير ممكن فعلاً، فلا أقل من الاستفادة من وجود الأمريكان اقتصادياً، وتحديد موعد لرحيلهم في أي اتفاقية جديدة تعقد معهم ... التفاوض مع الأمريكان صعب لأنهم أقوياء، وفي نظامهم لابد لأي اتفاق يتم بين الجانبين المتفاوضين أن يعرض على الكونغرس، ولا يعتبر ملزماً للجانب الأمريكي إلا بعد موافقة الكونغرس عليه، وكثيراً ما كان الكونغرس الأمريكي ينسف ما يتم الاتفاق عليه بمشقة، ويرى فيه الجانب الليبي بعض الكسب، وتستأنف المفاوضات من جديد، من درجة الصفر أو قريب منه، وأخيراً تم الاتفاق بين قوي وضعيف ورأى فيه البعض نجاحاً لليبيا، ورأى البعض الآخر أنه اتفاق بين قوي وضعيف، والضعيف دائماً مغبون، وأنا كنت مع هؤلاء، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه .

418 **البيضاء عاصمة:** الصراع بين الطرابلسيين والبرقاويين الذي ميز فترة وضع الدستور حسم في غير صالح الطرابلسيين لأسباب كثيرة شرحت في فصول أخرى من هذه الذكريات، وإحدى المعارك الخاسرة بالنسبة للطرابلسيين، كانت معركة العاصمة. مدينة طرابلس كانت على الدوام عاصمة لإقليم طرابلس ولكل ليبيا بما فيها برقة وفزان. ولذا فأنه ما نص عليه الدستور من أن لليبيا عاصمتين طرابلس وبنغازي بالتناوب اعتبر ظلماً وتعسفاً واستغلالاً لطيبة الطرابلسيين أو تغفلهم أو ضعفهم . ونحن النواب الطرابلسيين كنا نشعر بهذا الشعور داخلنا عندما تكون الوزارة في بنغازي. وكنا نحاول التغلب عليه من باب الترفع، والنظر إلى قضايا أهم ومخاطر أكبر، و ننتظر بفارغ الصبر موعد عودة الوزارة إلى طرابلس. وفي صيف سنة 1954 ظهرت عاصمة ثالثة هي مدينة البيضاء، وقصتها أن رجال برقة نوابا ووزراء وملكاً صاروا يتحايلون وبصورة

ملتوية لإنشاء عاصمة جديدة في برقة، هي مدينة البيضاء في الجبل الأخضر، نتعلل بقلة الموارد في الأمور الأساسية من تعليم وصحة، ومن جهة أخرى نبني مدينة جديدة عصرية من الصفر على حساب المدن الموجودة فعلاً وطرابلس بالذات، والحجة أن البيضاء عاصمة تاريخية للحركة السنوسية، والإقامة بها محببة للملك.

تكريساً لهذا الاتجاه صارت الحكومة تعقد جلسات مجلس الوزراء في البيضاء صيفاً، وأنشأت مجموعة من الفيلات وسط غابة طبيعية وبلا مرافق مدنية، بها سكن للوزراء وعائلاتهم، ولقد سكنت بإحداها، وكان جاري الوزير محمد عثمان الصيد. الجو الطبيعي صحي جداً صيفاً والهواء خال من الرطوبة ومنعش، ولكن الجو السياسي الداخلي لم يكن كذلك. كنا نشعر بأن هناك مناورات تحاك بين الوزراء البرقاويين، والحاشية الملكية، تهدف إلى تمدد بقاء الحكومة الاتحادية في برقة إلى ما لا نهاية، في بنغازي أو البيضاء بغير حق ومخالفة للدستور الجائر، والحجة دائماً أن الملك يرغب في ذلك، ومن يجرؤ على مخالفة رغبة الملك ؟

419 **مشكلة عاصمة الدولة:** كنت في البيضاء، وكان يوم الخميس يوم انعقاد مجلس الوزراء، وكانت مكاتب مجلس الوزراء في مبانٍ إيطالية قديمة كانت جزءاً من معصرة للنبيذ، وكان مقررا أن تراجع الاتفاقية الليبية الأمريكية،المراجعة الأخيرة أمام مجلس الوزراء،ثم تحال على البرلمان لإقرارها أعصابي كانت مشدودة منذ الصباح، ولا أدري لماذا بالضبط، ولكن كنت متوتر المزاج، قابلاً للانفجار في أي لحظة، كان الوزراء يستعدون لعقد الجلسة الهامة، اجتمعت بانفراد مع الوزراء الطرابلسيين، عبد الرحمن القلهود، إبراهيم بن شعبان، وعبد السلام البوصيري، وأخبرتهم بأن موعد عودة الوزارة إلى طرابلس قريب، كما هو مقرر، ولكن ذلك لن يتم، وهو مهدد بالإلغاء لأسباب غامضة غير منطقية، ولذا أدعوهم إلى مصارحة رئيس مجلس الوزراء، بأنه إذا لم يؤكد رئيس مجلس الوزراء موعداً محدداً رسمياً، لعودة الوزارة إلى طرابلس، فإننا لا نوافق على الاتفاقية الليبية الأمريكية. منطق فيه خلط بين قضيتين إحداهما محلية داخلية، والثانية دولية لها

خطورتها ولها أبعادها عربياً ودولياً و لكن يبدو أن الظرف النفسي الذي كنت فيه في تلك اللحظة كانت تسيطر عليه رغبتان الأولى هي عرقلة و تأجيل الموافقة النهائية على الاتفاقية الليبية الأمريكية لعل وعسى، والثانية هي الضغط على رئيس الوزراء بأي وسيلة متاحة حتى يكف عن ألاعيبه ويلتزم بموعد عودة الحكومة إلى طرابلس، وفي تلك اللحظة دخل مصطفى بن حليم يدعونا إلى قاعة مجلس الوزراء، فطلبت منه البقاء معنا قليلاً، وبادرته بدون أن أتأكد من موافقة الوزراء الطرابلسيين الحاضرين لخطتي، وبادرته باسمي بما في نفسي، بعبارات مقتصرة محددة مفادها قرار العودة إلى طرابلس مقابل الموافقة على الاتفاقية الليبية الأمريكية.

دهش بن حليم بما سمع، وتكهرب الجو، وحاول إبراهيم بن شعبان أن يلطفه، وبدأ في حديث يقول " وفي الحقيقة أن الأستاذ مصطفى يريد أن يقول... " فقاطعته بحزم قائلاً أنا أتكلم عربي والرئيس يفهم ذلك ولا داعي للترجمة. وصمت عبد السلام البوصيري، ولا أدري بما علق عبد الرحمن القلهود، ولكن كنت متأكداً أنه كان معي في الرأي، يظهر أن بن حليم كان متوتر المزاج أيضاً، فلم يناقشنا في الموقف الجديد، واكتفى بالقول، موضوع مكان العاصمة يحدده الملك. ونهض واتجهنا جميعاً إلى حيث بقية الوزراء، وأعلن لا اجتماع لمجلس الوزراء لأن الوزراء الطرابلسيين لهم موقف معين حول الانتقال إلى طرابلس، وخرجنا وعلق عبد السلام البوصيري أمام الشيخ عبد الرحمن القلهود إن أسلوبك يا مصطفى كان عنيفاً، التخاطب مع رئيس الوزراء لا يكون بهذه الطريقة، وأنت تتصرف دون اعتبار لظروف زملائك، سمعنا ولم نعلق. والحقيقة أن بن حليم تسرع في اتخاذ قراره واعتبرنا كتلة واحدة، لو تمهل قليلا لتبين له خلاف ذلك، وربما بقي مصطفى وحده أو على أحسن افتراض معه عبد الرحمن القلهود .

420 **<u>رئيس الديوان ورئيس الوزراء:</u>** كان منصور بن قدارة رئيساً للديوان الملكي، وكان يقيم في فيلا مشتركة مع عبد السلام البوصيري في البيضاء نفسها، كان الوقت ظهراً وتفرقنا، رئيس الوزراء كان يفكر في الطريقة التي يبلغ

بها الملك بما حدث بدون إثارة، وخصوصاً أن الملك كان حريصاً على الاتفاق مع الأمريكان مثلما تم الاتفاق مع الإنجليز، وكان يخشى أن هذه الأزمة المفاجئة تربك أموراً كثيرة. عبد السلام البوصيري توجه إلى المطعم حيث يتناول الغداء مع منصور قدارة رئيس الديوان، وهناك قص عليه ما استجد في ذلك الصباح من أحداث مثيرة. العلاقة بين أي رئيس للديوان الملكي وبين أي رئيس للوزراء، كانت تتسم بعدم الوفاق، وربما كان الملك نفسه ينميه حفاظاً على التوازن والسيطرة، فما كان من أخينا منصور بن قدارة وهو طرابلسي أيضاً إلا أن يتصل بالملك هاتفياً ويخبره بما حدث في مجلس الوزراء وسبق في ذلك مصطفى بن حليم رئيس مجلس الوزراء. انزعج الملك واتصل برئيس مجلس الوزراء يستفسر عن الانقلاب الذي حدث في مجلس الوزراء، وعاتب بن حليم على تأخره في أخباره بما حدث، وعندما علم بن حليم أن الخبر وصل إلى الملك عن طريق رئيس الديوان، استكملت الصورة الوهمية في ذهنه، وهي أن هناك مؤامرة مدبرة بين الوزراء الطرابلسيين ورئيس الديوان لإرباكه !!!. لماذا ؟ الأمر محير، وأخذت الهواجس تتفاعل في نفسه، وعدنا إلى بنغازي نصرف الأمور العادية، ونترقب الانفراج أو الانفجار.

421 **<u>الانفجار ومقتل الشلحي:</u>** وكان الانفجار بعد أيام قليلة، حيث أطلق شاب من العائلة السنوسية النار على ناظر الخاصة الملكية السيد إبراهيم الشلحي، ظهر يوم 5 / 10 / 1954 وأرداه قتيلاً.

كان ناظر الخاصة الملكية عند رئيس الوزراء ومكث عنده طويلاً، وربما كان الحديث عن أزمة مجلس الوزراء في البيضاء، وبعد خروجه دخلت مع الدكتور العنيزي إلى رئيس مجلس الوزراء، وعند خروجنا سمعنا صوت إطلاق النار، فأسرعنا نحو مصدر الصوت أمام مقر الحكومة فشاهدنا الدم ينزف من إبراهيم الشلحي وهو في السيارة الفخمة، فأسرع الدكتور العنيزي إلى المستشفى القريب جداً من المكان، وعاد مع الطبيب الإيطالي الدكتور بروزديتشيمو ليسعف المصاب، ولكن دون فائدة. نزل رئيس الوزراء وغيره مسرعاً وعدت إلى مكتبي، وقد ارتبك الموقف العام بشكل درامي غير متوقع. اعترف الشاب القاتل وحوكم

وأعدم، وغضب الملك على أفراد عائلته وقرر عقابهم، وعقاب بنغازي التي وقع بها الحادث الفظيع، وأمر الحكومة بأن تنتقل إلى طرابلس حالاً، وتحصن هو في طبرق قريباً من قاعدة العدم البريطانية، بحجة أن مناخ طبرق مناسب لصحته.

تحقق الانتقال إلى طرابلس كما كان يجب، ولكن في ظروف متوترة غير عادية وتمت الموافقة على الاتفاقية الليبية الأمريكية في مكاتب الوزارة بالسرايا الحمراء، حيث أعدت على عجل مكاتب مؤقتة للحكومة الاتحادية، حيث إن المقر السابق بشارع الشط أهمل ويحتاج إلى صيانة كاملة.

422 **لماذا تصلب مصطفى:** هل كان تصرف مصطفى في مجلس الوزراء في البيضاء تصرفاً سليماً، وهل كان تصرف مسؤول يقدر المسؤولية، هل كان موضوع انتقال الحكومة إلى طرابلس من الأهمية بحيث تستوجب تفجير أزمة في مجلس الوزراء، هل كان ما يوجب تعكير صفو الجو الودي السائد بين الوزراء وبين الوزراء ورئيس المجلس.

أسئلة كثيرة تفرض نفسها في هذه المرحلة وسأحاول بحثها، كانت العلاقة بين مصطفى السراج ومصطفى بن حليم ودية، يسودها الاحترام المتبادل، كان هناك اتفاق عام حول أمهات المواضيع التي تشغلنا في تلك الفترة منها :

أولا : البحث عن وسيلة للخروج من الضائقة المالية ومن التخلف.

ثانياً: حيث إننا لا نستطيع إجلاء الأمريكان عن قواعدهم فلا أقل من الاستفادة منهم إلى أقصى حد لتحريك الاقتصاد الليبي وإلزامهم بموعد الجلاء.

ثالثاً: العمل على إقناع الشركات بالبحث عن النفط، والاستفادة مما يصرف عادة في مرحلة البحث من مبالغ مالية لتنشيط الحياة التجارية وما يتبعها من مجالات في المدى القريب، وقهر التخلف عندما يكتشف النفط بكميات تجارية في المدى البعيد.

رابعاً: الاتفاق على إيجاد كوادر كفؤة وذلك بالاهتمام بالتعليم والإنفاق بسخاء على البعثات التعليمية في الخارج.

خامساً: إصلاح ما أفسدته الحكومات السابقة من علاقات ودية مع الجامعة العربية ومصر.

سادساً: التعايش مع الولايات ( طرابلس وبرقة و فزان )حول الاختصاصات المشتركة، وتخفيف أو إزالة جو التشاحن.

سابعاً: الاستعداد لخوض معركة مع فرنسا لإجلائها من فزان.

423 **هموم رئيس مجلس الوزراء:** كانت هذه المجالات وأخرى متفقاً عليها ونعمل معاً كفريق واحد لمواجهتها بالإمكانيات المتاحة من بشر ومال. وكان لرئيس الوزراء مشاريعه الخاصة، كان عليه أن يحافظ على ثقة الملك في شخصه وفي الحكومة وينميها، وكان عليه أن يخفف ضغط أفراد نهمين من العائلة السنوسية، ضغطهم على الولاة وعلى الوزراء، وهذه الأمور رغم أنها ليست مهمة دستورية، إلا أنه كان لها وزنها، إذا أرضيت السيد أبو القاسم السنوسي، وطابور المنتفعين منه، أغضبت السيد عبد الله عابد السنوسي وحلفاءه من عائلة الشلحي ذات النفوذ القوي في القصر. لكل صاحب نفوذ خصوم وعلى رأس خصوم بن حليم عائلة الكيخيا العريقة في بنغازي التي كان يرى عميدها عمر منصور باشا الكيخيا رئيس مجلس الشيوخ في شباب الجيل الحاضر متطفلين على المجال السياسي لا قيمة ولا خبرة لهم.

كان يجب على مصطفى بن حليم أن يكون حذراً، ومنتبهاً لألاعيب السياسة الفرنسية، وعائلة سيف النصر في فزان. كان عليه أن يزيل آثار أزمة والي طرابلس والمجلس التشريعي من النفوس، وترميم ما أفسدته من انسجام بين أجهزة الدولة. وكان لابن حليم حساباته الخاصة الأخرى، ولا أعني حساباته المصرفية ولكن أسلوبه في التعامل مع النواب والشيوخ، أصحاب الحاجات من محليين وأجانب، كان عليه تقوية علاقته الشخصية بالرئيس جمال عبد الناصر دون إزعاج الإنجليز والأمريكان، كان وكان وكان....إذا لماذا يفجر مصطفى أزمة الانتقال إلى طرابلس وفي هذا الظرف بالذات والجو صاف بينه وبين رئيس مجلس الوزراء

بن حليم، وهل كان الانتقال إلى طرابلس من الأهمية التي تستحق إحداث أزمة كادت تنسف بالوزارة ؟ أسئلة كثيرة وكثيرة وجهت وربما تدين مصطفى !

424 **هموم مصطفى:** إن التفسير لتصرف مصطفى هو أنه كان حصيلة التراكمات والإحباطات المتوالية التي بدأت منذ مجيء مندوب هيئة الأمم بيلت والإعداد للدستور وما تبعه من تصدع في المؤتمر ونفي وإبعاد لزعامته، وفرض البرقاويين والفزانيين ما يشاءون على الطرابلسيين من مواد الدستور بمساعدة الإنجليز والأمريكان والفرنسيين وتزوير الانتخابات، وحَشر وحَصر نواب المؤتمر في مجال المعارضة السلبي الضيق، وانشغال الملك وأفراد عائلته وحاشيته بالصراع على الغنائم المتاحة والمتوقعة، وعدم الاهتمام بمصير الوطن ومزاحمة طرابلس لأن تكون عاصمة وحيدة، وإيجاد بنغازي غريمة لها،، إنشاء مدينة البيضاء تعسفاً، وكأن كل ذلك لا يكفي، ها نحن أمام حرمان مدينة طرابلس من حقها المتفق عليه من أن تعود إليها الحكومة الاتحادية، وهذه النقطة الأخيرة هي القطرة التي أفاضت الكأس، وهي الشرارة التي فجرت مخزن البارود. من حسن الحظ أن آثارها المباشرة لم تكن مدمرة، وسارت الأمور فيما يتعلق بانتقال الحكومة إلى طرابلس بما يشتهيه مصطفى. ولكن لأمور أخرى لا علاقة لها بإحباطاته .

زادت الأمور العامة تعقيداً، وازدادت فساداً، وزاد خصوم مصطفى بن حليم ومصطفى السراج شراسة مما أدى إلى نقل مصطفى السراج إلى وزارة المعارف في أول تعديل وزاري، ثم إخراجه من الوزارة بعد فترة وجيزة نهائياً.

425 **زيارة فزان:** تقررت مواجهة العلاقات مع فرنسا حول وجودها في فزان. وكما هو معروف انهارت فرنسا بسرعة أمام ألمانيا في بداية الحرب العالمية الثانية سنة 1939. واحتلت ألمانيا جميع فرنسا بما فيها باريس، وتكونت في خارج فرنسا حركة لتحرير فرنسا بزعامة الجنرال ديجول، وجمعت القوات الفرنسية خارج فرنسا التي لم تستسلم إلى ألمانيا تحت قيادته، ودخلت القوات الفرنسية من وسط أفريقيا جنوب ليبيا فزان في سنة 1943 م بقيادة الجنرال ديكلارك في الوقت

الذي طَردت فيه القوات البريطانية القوات الإيطالية من برقة وطرابلس. استمر احتلال فرنسا لفزان إلى ما بعد الاستقلال، وكانت محاولات لإقناع فرنسا بالتفاهم على تنظيم العلاقات معها على أساس احترام فرنسا لحق ليبيا في فرض سيادتها كاملة على كل أراضيها، ولكن دون فائدة تذكر.

وبعد الفراغ من تنظيم العلاقات مع أمريكا، قررت الحكومة الثالثة مواجهة الموقف بجدية أكثر، وبدأت اتصالات مع فرنسا إلى أن أدت إلى تحديد موعد في آخر سنة 1954 لعقد مفاوضات على أعلى مستوى بين البلدين في باريس. وقرر مجلس الوزراء تكوين وفد برآسة رئيس مجلس الوزراء مصطفى بن حليم، وعضوية وزير المالية الدكتور العنيزي، ووزير الاقتصاد مصطفى السراج، وسليمان الجربي وكيل وزارة الخارجية، وأذكر أنه دارت مناقشة في مجلس الوزراء حول المفاضلة بين عضوية الوزير إبراهيم بن شعبان، والوزير مصطفى السراج، ومن الغريب أن كلينا كان يرشح الثاني ويزكيه، كنت أرى أن الموقف يحتاج إلى شيء من المرونة مع فرنسا، وربما كان إبراهيم بن شعبان أكثر فائدة، بينما كان يرى هو أن الموقف يحتاج إلى حزم أكثر، والسراج أكثر فائدة، ومجلس الوزراء وافقه على رأيه.

تقرر أيضا أن يقوم رئيس مجلس الوزراء مع مجموعة من الوزراء بزيارة ولاية فزان، وكان واليها عمر سيف النصر أخو المرحوم أحمد الذي توفي أخيرا وكان بن حليم أول رئيس وزراء يقوم بزيارة فزان، وكان الغرض واضحاً من الزيارة هو تأكيد اهتمام الحكومة الليبية بالولاية الجنوبية، وبسط سيادتها بالكامل على كل أراضيها، وبحث مشاكل فزان في مجال التنمية مع الجهات المعنية بها، والتعاون على انتشال فزان من التخلف المخيف المسيطر عليها . ضم الوفد الدكتور العنيزي، والشيخ عبد الرحمن القلهود، ومحمد بن عثمان الصيد، والدكتور البوصيري، ومصطفى السراج، وقوبلنا بترحاب كبير شعبياً ورسمياً. وعقدنا عدة اجتماعات، وكان مقرراً زيارة مدينة براك، ومدينة غات ولكن تعذر ذلك بسبب الأحوال الجوية، واكتفينا بزيارة غدامس ونحن في طريق العودة إلى طرابلس، وقام رئيس الوزراء برفقة قائد حامية غدامس بزيارة مجاملة لقائد الحامية الفرنسية في

جنوب تونس والقريبة جداً من الحدود، بتنا ليلة في غدامس، وعدنا اليوم التالي جواً إلى طرابلس.

426 **جمعية أصدقاء غدامس:** أذكر أنه كنت جالساً في بهو فندق عين الفرس، وأمامنا حديقة الفندق بنخيلها الباسق الجميل مع الدكتور عبد السلام البوصيري و هو من أصل غدامسي، وكان الدكتور يدخن الشيشة أو الإرقيلة المحببة له، وخطرت لي فكرة الدعوة لإنشاء جمعية تعرف بجمعية أصدقاء غدامس، الغرض منها توجيه الاهتمام إلى هذه الواحة الجميلة وسط الصحراء، وما بها من إمكانيات سياحية، إذا استغلت كما يجب، يمكن أن تجعل من غدامس مَعلماً سياحياً عالمياً. وبُحت إلى الصديق والزميل عبد السلام بما في نفسي ودعوته إلى أن يتبنى الفكرة بصفته وزيراً للخارجية، وبصفته غدامسياً، وكنت تخيلت سيناريو لتنفيذ الفكرة.

لكن الدكتور البوصيري كانت له همومه وهو وزير الخارجية، سيواجه معركة دبلوماسية ضارية مع فرنسا، لا يعرف كيف تتطور فابتسم قائلاً "أهنئك يا مصطفى بمزاجك الرائق الذي يسمح لك بالتفكير في غدامس ومستقبلها...أترك غدامس لك، أوصيك بها خيراً، فأنت وزير الاقتصاد والسياحة من اختصاصك" .

عدنا إلى طرابلس وفكرة جمعية أصدقاء غدامس لم تفارقني، وفاتحت مصطفى بن حليم في الموضوع فابتسم هو أيضا، ورحب بالفكرة وشجعني على مواصلة السعي و اعتبر اهتمام وزير الاقتصاد المسؤول عن السياحة في الحكومة الليبية بغدامس نوعاً من ممارسة حق السيادة عملياً على جزء من ليبيا رغم وجود القوات الفرنسية.فدعوت رجالات من السلك الدبلوماسي والهيئات الدولية المقيمين بطرابلس، وبعض الشخصيات الليبية منهم عميد بلدية طرابلس الطاهر بي القرامنلى للاجتماع في الفندق الكبير، وغطى المناسبة إعلاميا الأستاذ محمد بن زيتون عن جريدة طرابلس الغرب، وأطلعت الحاضرين علي الفكرة، ووزعت بعض صور غدامس على الحاضرين، فأعجب الحاضرون وخصوصاً الأجانب منهم بالفكرة، وتحمسوا لها وتأسست جمعية أصدقاء غدامس. وكونت لجنة لوضع

نظام الجمعية والدفع بها للوجود، واقترحت أن يرأس اللجنة عميد بلدية طرابلس الطاهر بي القرامنلى، وكنت أقصد ربط مدينة طرابلس بمدينة غدامس، وتوجيه رسالة إلى غدامس تشعرها بأنها ليست وحدها في مواجهة مشاكلها، وعند خروجنا من الفندق بادرني مستر قريتو ريكس، وكان من كبار موظفي السفارة البريطانية، يحسن العربية وعاصر فترة ما قبل الاستقلال، ويعرف معظم الشخصيات الليبية قائلاً مازحاً، وكان بجنبنا طاهر بي القرامنلي " يبدو لي يا سعادة الوزير أنك غير جاد في الدفع بجمعية أصدقاء غدامس " فاستغربت منه ذلك وقلت لماذا، بالعكس الفكرة فكرتي وأنا شديد الحماس لها فعقب " ترشيحك للطاهر بي لرآسة اللجنة يفهم منه غير ذلك مشيراً إلى أن الطاهر القرامنلي اشتهر بأنه لا يهتم ولا يتابع ما يسند له من مهام " سمع الطاهر بي وعلق قائلاً " مازلت على خِبتك يا قريتو ريكس "

427

**مقابلة الملك:** بقيت ما بقيت عضواً في مجلس النواب ووزيراً، ولم أقابل الملك في مقابلة خاصة، وذلك لأن الملك لم يتفضل بدعوتي لذلك، ولأن مهام عملي لم تستدع أن أطلب مقابلته، وكان العرف في وزارة بن حليم أن حلقة الوصل بين الوزارة والملك عادة هو رئيس مجلس الوزراء إلا إذا استدعت الظروف خلاف ذلك. وكذلك كانت المقابلات العامة محدودة جداً، أذكر منها أننا كنا في شهر رمضان المعظم وكان الملك مقيماً فيما كان يعرف بقصر الغدير، فدعينا نحن الوزراء لتناول الإفطار علي مائدة الملك. وصلنا القصر قبيل المغرب وسمعنا الأذان، وقدم لنا التمر للإفطار، وتهيأنا للصلاة، وكان ضمن المدعوين رئيس مجلس النواب مفتاح عريقيب ورئيس مجلس الشيوخ عمر منصور الكيخيا، وطلب الملك من الشيخ عبد الرحمن القلهود وزير العدل أن يؤم الحاضرين، فما أن سمع عمر منصور باشا ذلك حتى استغرب، وحاول بكل الوسائل أن يحرم الشيخ عبد الرحمن القلهود هذا الشرف ومن هذا الوسام المعنوي، وأخذ يتوسل عند الملك بكل العبارات وبإلحاح حتى يؤمنا الملك نفسه، حتى لا يحرمنا من هذا الشرف الكبير وبقينا وقوفاً والباشا يلح، حتى حسم الملك الأمر، وأمنا الشيخ عبد الرحمن القلهود. وبمناسبة شخصية عمر منصور باشا سبق أن قلت إن بينه وبين بن حليم

تنافساً لا أعرف سببه الحقيقي، وربما كان نوعاً من صراع الأجيال، جيل عمر منصور ينحدر نحو الغروب، وجيل بن حليم طالع من وراء الأفق. وأذكر أنه أجريت ترميمات كبيرة لمبنى مجلس الشيوخ في بنغازي، وأراد عمر منصور رئيسه أن يقيم حفلاً كبيراً بالمناسبة يحضره الشيوخ و النواب والسلك الدبلوماسي والملك في حفل شبيه بافتتاح دورة البرلمان. رأى مصطفى بن حليم أن المناسبة لا تستدعي ذلك، واعترض، وعمر منصور يلح على الملك، ووافق الملك واستمر عمر منصور في الاستعداد لليوم المشهود، و يظهر أن بن حليم كان يستعد أيضاً. وفوجئنا يوم الاحتفال بأن اعتذر الملك عن الحضور، وأناب ابن عمه السيد صفي الدين، وكانت كراهية شديدة بين السيد صفي الدين وعمر منصور، وأوقع بن حليم الباشا عمر في مطب كبير، حيث وقف الباشا يلقي الخطاب الذي أعده ليلقيه أمام الملك، وألقاه أمام خصمه صفي الدين بكل ما احتواه من عبارات التبجيل بحضور كبار الشخصيات السياسية. هل هذه صورة من المكائد بين الشخصيات السياسية التي لا تخلو منها المجتمعات ؟ أو هو لعب أطفال من طرف كبار؟.

428

**نحو باريس:** وحان موعد السفر إلى باريس، وكان الوفد كما تقرر يتكون من رئيس مجلس الوزراء مصطفي بن حليم، ومن الدكتور العنيزي وزير المالية، ومن مصطفى السراج وزير الاقتصاد، ومن سليمان الجربي وكيل وزارة الخارجية، وعبد السلام الكتاف ضابط من الشرطة مخصص لرئيس مجلس الوزراء. توجهنا جواً إلى لندن حيث كان قد رتب رئيس مجلس الوزراء عن طريق سفير ليبيا في لندن محمود بي المنتصر رئيس مجلس الوزراء الأسبق مقابلة مع وزارة الخارجية الإنجليزية. والغرض من ذلك الاستعانة ببريطانيا العظمى حليفة ليبيا للضغط على حليفتها فرنسا وإقناعها بالجلاء عن فزان. أقمنا ليلة في فندق دورتشيستر الفخم، وحصيلة زيارة لندن كانت سلبية، اعتذر الإنجليز عن إقحامهم في مفاوضات ليبيا مع فرنسا بحجة أن العلاقات بينهما كانت متوترة في تلك الفترة، ولا يرغبون في زيادتها توتراً. وانتقلنا إلى باريس عن طريق القطار، وعندما وصلنا إلى المحطة الكبيرة في باريس، فوجئنا وفوجئ سليمان الجربي المكلف

الرسمي بمراسم الرحلة أن الاستقبال كان هزيلاً. بعض السفراء العرب من مصر والعراق، وسفير فرنسا في ليبيا، ولا توجد سيارات رسمية، فغضب بن حليم الذي كانت أعصابه متوترة بسبب موقف وزارة الخارجية الإنجليزية، وصب كل غضبه على سليمان الجربي الذي كان في أشد الارتباك، وأذكر أننا توزعنا على سيارات السفراء العرب، وتوجهنا إلى فندق شارل الرابع حيث أقمنا. سبقتنا إلى الجناح المخصص لابن حليم حرمه السيدة يسرى الفلسطينية الأصل، لا أذكر سبب الربكة في محطة القطار هل هو سوء تنظيم، أو سوء نية مقصودة من وزارة الخارجية الفرنسية.

**429** **التخلص من الرقابة الفرنسية:** سبق أن طلبت ليبيا من الحكومة المصرية مدها بمستشارين سياسي وقانوني في باريس يساعدان الوفد الليبي في مهمته، واتصل سليمان الجربي بالسفارة المصرية يستعلم عن المستشارين، وعلم أنهما جاهزان. كان يحرس جناح رئيس مجلس الوزراء في الفندق ضابط فرنسي عالي الرتبة مع الضابط الليبي عبد السلام الكتاف، وكانت مهمة الضابط الفرنسي رقابية أكثر منها حراسة.

كانت اجتماعات الوفد تتم في جناح رئيس مجلس الوزراء، وتقرر عقد الوفد جلسة بالكامل بحضور المستشارين المصرين. وحيث إن العلاقات بين فرنسا ومصر كانت شديدة التوتر بسبب تزعم مصر الناصرية الدول العربية في مناصرة الجزائر في كفاحها ضد فرنسا، رأينا أن يكون مجيء المستشارين المصريين إلى جناح رئيس الوزراء سراً. فرتب مصطفى بن حليم خطة لإقصاء الضابط الفرنسي،و أعلنت السيدة يسرى أنها ترغب في زيارة الأسواق الباريسية الشهيرة لشراء بعض الهدايا، وطلبت من الضابط الليبي والضابط الفرنسي مرافقتها في ذلك، فرحب الضابط الفرنسي، واعتبره تقديراً له وثقة به. وطلب مصطفى بن حليم منها ألا تعود إلى الفندق قبل الساعة الثالثة حيث يتوقع انتهاء جلسة الوفد ومغادرة المستشارين المصريين للفندق. وقد نفذت الخطة بدقة ونجاح، ولكن لم نتأكد أن انطلت على السلطات الفرنسية.

وكان السيد بن حليم قد أعد صيغة الخطاب الذي سيلقيه في الغد بحضور الرئيس الفرنسي، ونوقش نص الخطاب، وكان يركز على مواد في القانون الدولي تؤكد سيادة ليبيا على أراضيها. وقد تبين أن المستشارين المصريين كانا مستشارين لمستر بيلث مندوب هيئة الأمم الذي كلف بمساعدة ليبيا في وضع الدستور قبيل إعلان الاستقلال.

430 **المفاوضات مع فرنسا:** كان يترأس الوفد الفرنسي رئيس الوزراء ميندس فرانس الشهير واليهودي الأصل، وطلب من الرئيس الليبي بعد افتتاح الجلسة بالتفضل بالحديث، فألقى بن حليم خطابه بالفرنسية التي يجيدها، وكان ميندس فرانس يتابع الخطاب، ويؤشر بقلم رصاص في ورقة أمامه، وكان مغمض العينين لفترات وكأنه ناعس، وهو شاحب الوجه. وقد علمنا أنه قضى الفترة الأولى من الليل في جلسة مرهقة في البرلمان. انتهى رئيس مجلس الوزراء الليبي من خطابه وصفق الجميع.وعقب الرئيس الفرنسي بحديث مسهب خلاصته، كنت أعرف أن رئيس مجلس الوزراء الليبي مهندس ماهر، واكتشفت الآن أنه محامٍ ماهر أيضا، ونحن الفرنسيين نعرف أن اهتمام المحامين بالقضايا في بعض المرات يعقدها بدلاً من أن يبسطها. ركز الرئيس الليبي على حق ليبيا في سيادتها على أراضيها داخل حدودها المعترف بها، وإني متفق معه على ذلك 100%، ولكننا ربما نختلف على أسباب تمسكنا بإبقاء بعض قواتنا في فزان، لأسباب في نظرنا بسيطة وواضحة، وهي :

أولا :أن فرنسا من الدول الكبرى في العالم الحر، ومن حقها ومن واجبها المساهمة في الدفاع عنه مثل أمريكا وانجلترا.

ثانياً : إذا رأت ليبيا أنه من المناسب عقد اتفاقيات مع انجلترا وأمريكا تمكنهما من الدفاع عن العالم الحر، لماذا تحرم فرنسا من ذلك ؟

ثالثاً : تحد ليبيا غرباً وجنوباً بلاد بها وجود فرنسي متنوع، ويهمنا الحفاظ على أمن هذه البلاد وحمايتها. والمحرضون على عكس ذلك كثيرون، والصحراء

واسعة وفسيحة، والتسلل الضار متيسر، ولذا نرى أن وجودنا النشط في فزان يحمينا من شر ذلك بدون المساس بسيادة ليبيا، ولذا أقترح وضع الأمور القانونية جانباً، وهي غير موضع خلاف، ونركز على النواحي العملية. كيف نستطيع أن نوفق بين وجهة نظرنا التي ذكرتها، ووجهة النظر الليبية؟

وقوبل خطاب الرئيس الفرنسي بتصفيق حار أيضا.

431

## الصراع بين رئيسين:

وعقب بن حليم على خطاب مندس فرانس شاكراً الرئيس الفرنسي على إطرائه، وقال ما يفيد أن ليبيا دولة حديثة يهمها أن تعيش في أمن وسلام مع جيرانها، وأن تستفيد من علاقاتها مع الدول الكبرى ومنها فرنسا في برامج التنمية الملحة، ليبيا دولة ديمقراطية، وهي حريصة على ممارسة الديمقراطية وترسيخ قواعدها، ولذا لدينا في مجلس النواب وفي مجلس الشيوخ معارضة نشطة تضايق الحكومات، ولكن نعتز بها ونقيم لها وزناً. الوزارة السابقة الأولى وزارة محمود بي المنتصر، كانت مهددة بالسقوط أثناء مناقشة مجلس النواب للمعاهدة مع بريطانيا، ووزارتي عانت الأمرين أثناء بحث الاتفاقية مع أمريكا، وإني لا أجرؤ على أن أتقدم إلى البرلمان الليبي باتفاقية مع فرنسا تسمح بوجود قوات فرنسية في فزان مهما كانت قليلة، لأني متأكد من النتيجة، وهي الرفض والفشل، وسقوط وزارتي. ولا أعتقد أن الرئيس مندس فرانس يريد لي ذلك. وربما من يقول لماذا هذا الموقف من فرنسا، البرلمان الذي أبرم المعاهدة مع إنجلترا، وأبرم الاتفاقية مع أمريكا، لماذا يمتنع عن الموافقة على اتفاقية مع فرنسا ؟ السبب يا سيادة الرئيس، واسمحوا لي أن أكون صريحاً وصريحاً جداً، والصراحة ربما تكون قاسية أحيانا، ولكنها مفيدة وضرورية، عندما يتعلق الأمر بمصير الشعوب، ووضع الأسس التي ستقام عليها العلاقات المتينة الراسخة، السبب هو تصرف فرنسا في شمال أفريقيا، وخصوصاً في الجزائر، وإننا كليبيين وكعرب نستغرب كيف أن فرنسا التي اشتهرت في الماضي بأنها منارة الحرية في العالم، ونصيرة المستضعفين، تتنازل عن هذا الدور لآخرين، وتبطش بقوة بمن يطالبها بتخفيف الضغط عليه، ومعاملته معاملة فيها شيء من الحضارة والإنسانية. أحسنوا

معاملة إخواننا في شمال أفريقيا، افتحوا لهم أبواب الأمل، تنفتح لكم قلوب العرب في كل مكان.

عقب الرئيس الفرنسي باقتضاب قائلاً "أشكرك على صراحتك، وأدرك ما تعني، وأني أحاول تصحيح مسار السياسة الفرنسية، وأحتاج إلى مساعدة ". انتهت الجلسة الافتتاحية، وتكونت لجان لبحث جوانب المشكلة، وبعد مناقشات مضنية قبل الفرنسيون بمنطق الليبيين القائل، إذا سلمنا أن لفرنسا دوراً في الدفاع عن العالم الحر، وإذا سلمنا بأن لها الحق والواجب في الدفاع عن مصالحها في شمال أفريقيا، وإذا سلمنا أن الدفاع يتجسم في إقامة قواعد عسكرية فما الفرق عسكرياً في أن تكون القاعدة شرقي أو غربي خط الحدود الليبية بعشرة كيلومترات أو أقل أو أكثر مثلاً ؟ فلتكن قواعدكم في الأراضي التابعة لكم في شمال أفريقيا الممتدة من شواطئ البحر الأبيض المتوسط حتى أواسط أفريقيا. كان القبول على مضض، وكانت تبرز في كل مرة أثناء المفاوضات المتشعبة نغمة لماذا التحالف مع الإنجليز والأمريكان، ورفض ذلك على الفرنسيين ؟

432 **الخرائط والحدود:** تركز الاهتمام في مرحلة من المفاوضات على خط الحدود، وفرنسا تقول: إن الحدود غير محددة المعالم في بعض الجهات ويستحسن تحديدها على الطبيعة قبل جلاء القوات الفرنسية عن فزان حتى لا تقع فرنسا في المحظور، وتنقل قواعدها من مكان إلى آخر، ويتبين فيما بعد أنها أراضٍ ليبية، منطق سليم في ظاهره، ولكن الجانب الليبي رأى فيه فخاً. الجلاء يتوقف على رسم الحدود لا على الخارطة، وإنما على رمال الصحراء الشاسعة، والموضوع سوف يتشعب عن عمد، ويستغرق سنوات والقوات الفرنسية جاثمة في فزان. ولم يكن الجانب الليبي مهيأً لبحث موضوع الحدود، وزودنا الفرنسيون بمجموعة من الخرائط، وعند تصفحها، زادت مخاوفنا، كانت مرسومة نصف دوائر على نالوت وغدامس وغات، ومكتوب عليها أعرب سكان هذه المناطق عن رغبتهم في الانضمام إلى البلاد المجاورة. فاستفسرنا من الجانب الفرنسي عن المقصود بذلك فاعتذر الفرنسيون عن ذلك، وقالوا إنها خرائط قديمة أعدت فترة زيارة اللجنة

الرباعية المنبثقة عن هيئة الأمم قبل الاستقلال. وسحبوها ومزقوها، وأخيراً وبعد توتر شديد في المفاوضات، والتهديد من الجانب الليبي بقطعها، وبرفع الموضوع إلى مجلس الأمن، توصلنا إلى اتفاق على الأسس التي ستكون عليها العلاقات بين ليبيا وفرنسا، وتضمنت مبدأ الجلاء الكامل في فترة محدودة، وأن صيغة الاتفاقية النهائية سوف يضعها المختصون. لا أذكر الآن تفاصيل الاتفاق. ولكن أذكر أن السفراء العرب في باريس هنّأونا على ما توصلنا إليه، واعتبر بادرة خير حتى لإخواننا في تونس والجزائر والمغرب الذين كانوا يرجون الحوار مع فرنسا، للتخلص بطريقة ما من قبضتها الشديدة.

وعاد مصطفى بن حليم مع حرمه إلى ليبيا، وتوجهت مع الدكتور العنيزي إلى روما لجمع أقصى ما يمكن جمعه من الخرائط عن الحدود الليبية من وزارة الخارجية الإيطالية.

لم تخلُ فترة إقامتنا في باريس رغم قصرها وتركيزها على الجانب الرسمي السياسي، من برامج ترفيهية حيث أقيمت لنا عدة مآدب، ودعينا من الجانب الفرنسي إلى حضور حفلات في مسرح مولان روج، وكازينو دي باري الشهيرين.

433 **مؤتمر مصراتة الزراعي:** دعيت وأنا وزير للاقتصاد لحضور مؤتمر زراعي عقد في مصراته تحت رعاية والي طرابلس الصديق عبد المجيد المنتصر، وقد قدمت بحثاً زراعياً للمؤتمر ضمنته تصوري لخطة النهوض بالزراعة، وقد حاز تقدير من اطلع عليه، واعتبر منهجاً ثورياً شاملاً لا إصلاحياً فقط. وقد طبع في كتيب صغير ولكن لم ينفذ منه شئ، وكان ناظر الزراعة في ولاية طرابلس، الصديق المهندس الزراعي، محمد بي درنة. وحاولت إقناعه بإجراء تجربة لتنفيذ الخطة، حتى ولو في مراحلها الأساسية، فرفض بأسلوب مهذب وصارحني بأن الخطة جيدة، و شاملة وعميقة، وتحتاج إلى سياسة ثابتة وراسخة وإمكانيات كبيرة، وجهد متواصل، ونظارة الزراعة في طرابلس ليس لها الإمكانيات، ولا الكفاءات اللازمة، ولديه من المشاغل اليومية ما فيه الكفاية. ولذا فإن الخطة الزراعية لا تنفذ في رأيه إلا بالاهتمام من الملك، أو بقرار وضغط من

المجلس التشريعي الطرابلسي بالنسبة له. وحيث إن الملك مشغول بمهاترات الحاشية والعائلة، والمجلس التشريعي الطرابلسي لا يفهم ولا يهتم بمثل هذه الأمور، فإن الخطة مقدر لها أن تبقى خطة، وخطة فقط، دون ان ترى النور، وهذا ما كان.

أثناء المؤتمر الزراعي اشتكى الكثير من الحاضرين من ارتفاع ثمن التيار الكهربائي للاستهلاك الزراعي، فأصدرت قراراً بتخفيض الثمن بنسبة الربع، وبقدر ما كان القرار برداً وسلاماً على المزارعين، كان غصة لدى المسؤولين عن محطة الكهرباء في طرابلس. وقد كانت المحطة ذات الآلات المتهالكة التي أنشئت في العهد الإيطالي الفاشي قبل الحرب، وعانت من الإجهاد وعدم الصيانة، كانت ملكاً لشركة إيطالية تعرف بشركة كهرباء المستعمرات الإيطالية، واحتج المهندس الإيطالي مديرها على قرار الوزارة بالتخفيض بحجة أن الشركة كانت تواجه خسارة كبيرة قبل التخفيض، ولا يمكنها تحمل خسارة اكبر.

وطالب الحكومة الاتحادية وحكومة ولاية طرابلس بتعويض الشركة عن الخسارة الجديدة، ورغم أنها كانت المحطة الوحيدة لطرابلس وضواحيها، فإنها كانت تعاني مثل غيرها من توزيع الاختصاصات بين الحكومة الاتحادية والولاية ولم تهتد إلى مرجع كفء قادر على حل مشاكلها.

434 **نحو زراعة أفضل:** قلت في الفقرة السابقة إني ألقيت محاضرة في مؤتمر مصراتة الزراعي، خلال السنوات التي تلت تلك الفترة، ضاع مني نص المحاضرة المذكورة، وكذلك الكتيب الذي تضمنها، ونشر بعد سنوات من انعقاد المؤتمر.

أثناء إعداد هذه الذكريات فاجأني أحد الأقارب بالكتيب المتضمن للمحاضرة، فرحت لذلك ورأيت أن أضيفها لهذه الذكريات كنموذج لهموم فترة من فترات التاريخ المتواصل لهذه البلد، والطريقة التي كانت تفكر بها شريحة من شرائح مجتمع تلك الفترة مع تنوع الشرائح وتنوع اهتمامها.

المحاضرة لم تكن طويلة، وبالتالي الكتيب الذي احتواها كان محدود الصفحات، لا تزيد على سبعة صفحات من الحجم المتوسط.

غلاف الكتيب كان يحمل العنوان "نحو زراعة أفضل" مع اسم المحاضر "مصطفى السراج" في الأسفل، وعلى الصفحة الثانية منه كانت صورة ماسورة يتدفق منها ماء غزير، وما يفيد بأن الكتيب طبع في مطبعة ولاية "طرابلس الغرب".

الكتيب حمل صورة للملك رمز السيادة، وصورة طفل بدوي مع عبارة (من أجل هذا وعشرات آلاف مثل هذا يجب الإسراع بتنفيذ خطة الإصلاح الزراعي)، وصورة بئر لسانية تقليدية، ولشجرة زيتون، ونخلة مثمرة، وشجرة ليمون، وشاب على رأسه "دلاعة" بطيخة كبيرة.

وكان الإهداء كالآتي : **إلي كل ليبي وغير ليبي، مسؤول وغير مسؤول، يتألم فيتأمل فيعمل بإخلاص وحزم في سبيل النهوض بالمجتمع الزراعي الليبي نهوضاً جدياً سريعاً .**

كما كان يحمل المقدمة التالية : عقد في 7/ 1954 مؤتمر زراعي في مدينة مصراته لبحث أهم المشاكل الزراعية بولاية طرابلس الغرب، وقد دعيت كمزارع ونائب ووزير للاقتصاد الليبي إلي المساهمة في أعمال المؤتمر، فألقيت هذه الكلمة المجملة مستعرضاً وضع الزراعة العربية التقليدية وما تتطلبه من إصلاح.

وقد حازت الكلمة تقدير الحاضرين من مسؤولين وفنيين ومزارعين، وأوصى المؤتمر في حرارة بالاهتمام بالزراعة التقليدية والدفع بها نحو التطور.

وانقضت بضع سنوات، ومع اهتمام الجهات المختصة بنواحٍ عديدة للزراعة إلا أن موضوع إصلاح الزراعة التقليدية على النحو الذي تعرضت له لم يخرج إلى الوجود بعد، ولذا رأيت في هذه الظروف التي تبحث فيها الاتفاقية الليبية الإيطالية وما يتبعها من أمور تتعلق بمزارع وأراضٍ زراعية عادت أو ستعود إلى الدولة الليبية، وأموال ستدفع إلى الحكومة الليبية من باب المساعدة الاقتصادية، أو التعويض عن أراضٍ صودرت ملكيتها في عهد الإدارة الإيطالية،

وبمناسبة افتتاح البنك الزراعي الوطني، وما يعد من خطط زراعية في مختلف اللجان والوكالات، رأيت أن أطبع وأنشر هذه الكلمة لتوجيه الاهتمام إلى موضوعها حتى يفوز بعناية أكثر .

وإذا ما وفقت أكون قد ساهمت في نطاقي الضيق وإمكانياتي في بناء الصرح الاقتصادي الليبي الذي نسعى جميعاً لتشيده وننتظر في شوق رؤيته شامخاً عزيزاً.

مصطفى السراج

طرابلس الغرب 1957/3/12

عنوان المحاضرة التي قلت إني ألقيتها في مؤتمر مصراته الزراعي "الزراعة العربية التقليدية وما تتطلبه من إصلاحات"، والمحاضرة رغم قصرها فإنها أطول من فقرات هذه الذكريات ولذا فإنها ستكون موزعة على الفقرات السّت التالية ولذا وجب التنبيه.

435 **كانت الزراعة العربية تحفة فنية:** إن الزراعة التقليدية في هذه البلاد ونسميها عادة بالزراعة العربية، هي كما يعرف الجميع المورد الرئيسي لأغلبية السكان، وهي تبدو لمن يلقي عليها ولو نظرة سطحية ذات ثلاثة ميادين :

أولا : زراعة الحبوب "الشعير والقمح" بعلياً مقرونة بتربية الماشية متى وأين ينزل المطر.

ثانياً: زراعة الزيتون وغيره من أشجار الفاكهة بعلياً على المرتفعات وما تخللها من أودية.

ثالثاً: زراعة البساتين المروية بما فيها من نخيل وأشجار فواكه متنوعة وخضراوات.

وزراعة البساتين تعتبر بالنسبة للزراعة التقليدية آخر مراحل التطور فيها، وهي تعتمد على مساحة كل بستان مع الماء الذي يمكن رفعه من البئر في مدة معينة. وهكذا فان الزراعة التقليدية العربية قد استغلت كل ما يمكن أن تقدمه البلاد

من مناخ وتربة ومطر وماء في نواحٍ زراعية متعددة تتفق مع ما كان معروفاً من معلومات زراعية وما في متناول القائمين بها من وسائل، وقد استطاعت أن تسد ولو إلى درجة محدودة حاجة السكان المحدودة أيضا.

وعلى هذا الأساس تعتبر الزراعة العربية في الماضي البعيد وما تلاه كأحسن ما يمكن أن يكون، وتحفة من الناحية الفنية والاقتصادية والاجتماعية.

ولكن السنون والأجيال تتابعت منذ ظهور أول بستان في هذه البلاد، وتطورت الأمور، وازداد عدد أفراد العائلة التي تعيش على نفس البستان، وبقيت رقعة البستان هي هي، و كانت الزيادة في عدد البساتين لا تتناسب مع ازدياد عدد العائلات وأفرادها، ويرجع عدم التناسب هذا إلى أسباب عديدة يمكن أن نذكر منها: عمق الماء، ملكية الأرض، المال اللازم لإنشاء البستان، تعلق الأشخاص بالمناطق التي ولدوا وعاشوا فيها ولهم فيها أجمل الذكريات، يضاف إلى كل هذا التعود التدريجي على الحرمان.

436 **ركود الزراعة:** وتعاني الآن الزراعة العربية حالة ركود هي أقرب إلى الشلل، وقد تحققت ذلك بنفسي أثناء بحثي الموضوعي في قبيلة (جوددائم) التابعة للزاوية الغربية التي يمكن اعتبارها نموذجاً لما عليه زراعة البساتين في جميع إقليم طرابلس. وقد تحققت عند بحثي الموضوعي أنه يعيش على مجموعة من البساتين مساحتها 70 هكتاراً، 530 شخصاً وهم يواجهون في كثير من الصبر مشاكل مزمنة معقدة، منها تفتت الملكية، وقلة رأس المال، وقدم المعدات الزراعية، فهم يعانون في عبارة ملخصة مستوى معيشة منخفضاً اقتصادياً وصحياً واجتماعيا.

إن هذا الوضع يا حضرات السادة يجب ألا يستمر، ولا يمكن أن يستمر، لأن ضحاياه وهم معظم سكان البلاد، لن يصبروا طويلاً أكثر مما صبروا ولأن المسؤولين وهم من صميم الشعب صاروا يدركون أو سيدركون بأن واجبهم بل أهم واجباتهم ليست هي المحافظة على الأمن وجباية الضرائب وكفى، بل العمل بكل قواهم على رفع مستوى معيشة الشعب.

ويجب ألا يستمر هذا الوضع لأننا في عصر نملك فيه معظم الوسائل لمواصلة التطور، فالأرض موجودة وهي تتكون مما يملكه الأفراد والقبائل والدولة، والماء متوفر على عمق معقول للوسائل الحديثة التي لدينا لرفعه، والأيدي العاملة متوفرة وهي شبه عاطلة تبحث عن العمل، ولدينا تجارب المزارعين الإيطاليين لمدة أربعين سنة بكل ما أحرزوه من نجاح وصدر عنهم من أخطاء، لدينا المعدات الزراعية الحديثة، لدينا عطف المؤسسات الدولية المهتمة بزيادة الإنتاج الزراعي، لدينا علم الخبراء الدوليين، وأخيراً لدينا أهم شيء وهو السيادة السياسية وما يتبعها من حرية في تنفيذ مختلف المشاريع الإصلاحية.

وينقصنا في الوقت الحاضر العزيمة من طرف الحكومة والشعب، والخطة الشاملة المفصلة، والمال اللازم الكافي، وعدم تسجيل الأراضي الزراعية جميعها في إدارة الأملاك وضعف الخبرة الفنية لإدارة شؤون المزارع الحديثة.

437 **العناصر التي تنقصنا:** لدينا عناصر عديدة وتنقصنا عناصر مهمة أخرى يجب السعي لاستكمالها بمختلف الوسائل.

وفي الوقت الذي أرى أن كل مسألة من المسائل المتعلقة بهذا الموضوع يجب دراستها بدقة وإمعان من طرف الأخصائيين بكثير من الحزم والسرعة، أستسمح حضرات السادة أن أتعرض للأمور التي تنقصنا بالبحث المجمل :

**أولاً _ العزيمة:** إني أرى أن تبادر الحكومة ببحث موضوع الإصلاح الزراعي مادام لديها متسع من الوقت، والعمل على تنفيذه في صالح الجميع، قبل أن يأخذ الشعب في المطالبة بهذا الإصلاح والإصرار عليه، ويضغط على الحكومة في اعتدال أو عنف، ولاشك أن الحكومة التي تجعل هذا الإصلاح من برامجها الرئيسية ستسجل صفحة مشرفة ومشرقة لها في تاريخ هذا البلد الناشئ.

**ثانياً _ الخطة الشاملة المفصلة:** بعد الاقتناع بضرورة الإصلاح يجب إعداد الخطة لذلك وهذه ستكون ذات جانبين : الخطة الشاملة البعيدة المدى ولو في خططها الرئيسية، وخطة المرحلة الأولى التي يجب أن يسرع في وضعها وتنفيذها لاختبار

أحسن الوسائل لتنفيذ الخطة الشاملة، وسأتعرض إلى خطة المرحلة الأولى في شئ من التفصيل.

**ثالثاً ـ المال اللازم**: إننا نحتاج إلى مال محدود لتنفيذ خطة المرحلة الأولى التي تتلخص في إنشاء مزرعتين نموذجيتين، وهذا المقدار من المال يمكن في نظري، البحث عنه من موارد الدولة الاعتيادية، ونحتاج إلى مبالغ كبيرة من المال لتنفيذ خطة الإصلاح الشاملة، وهذا المال يجب الحصول عليه لآجال بعيدة باستثماره واسترجاعه للتوسع به في الإصلاح من جديد.

وأعتقد أنه لن يتعسر الحصول عليه من الدول الصديقة والمؤسسات الدولية على صورة منح أو قروض للدولة، وأن مشكلة المال ليست بالهينة، ولكنها ليست بالمستعصية، وستكون بلا شك محك قدرة المسؤولين على تدبير الأمور، ومحك صداقة تلك الدول التي تقرر أنها صديقة لليبيا وعطوفة على شعبها.

**رابعاً ـ ملكية الأراضي**: إن الأراضي الزراعية مملوكة للأفراد والقبائل كما قلت ولكن معظم الأراضي البور ليست مسجلة ومعروفة الحدود والمالكين بصفة رسمية، ولذا فهي مصدر لمنازعات مستمرة ومصادمات، ويحتاج الإصلاح الزراعي ويتوقف على رسم سياسة صريحة بالنسبة لملكية الأراضي وإمكانية التصرف فيها في شيء من السهولة لصالح الجميع.

**خامساً ـ الخبرة الفنية الفردية وإدارة شؤون المزارع**: إن تنفيذ الإصلاح يتوقف كثيراً على من يسند إليهم تنفيذ هذا الإصلاح من فنيين، وإن أمكن الاستفادة من الفنيين الأجانب في الإشراف على تنفيذ المرحلة الأولى منه، إلا أن التوسع فيه يحتم وجود فنيين محليين فيهم الكفاءة العلمية والتحمس مع الاندفاع للقيام برسالة الإصلاح، وهذا يستوجب تنفيذ برنامج تربوي علمي تقوم به وزارات ونظارات المعارف، بحيث تزود النهضة الزراعية بعدد مناسب من الفنيين على مختلف درجاتهم، وعلى الخطتين الزراعية والعلمية السير جنباً إلى جنب في تعاون، للتوسع في إعداد الفنيين استعداداً للتوسع في إصلاح الأراضي وتعميرها.

438 **المرحلة الأولى من الاصلاح:** والآن أعود لأتعرض إلى المرحلة الأولى من الإصلاح. إن دراسة الخطة الشاملة المفصلة للإصلاح تحتاج إلى وقت من طرف الخبراء؛ ولذا فإني أرى أنه بعد رسم الخطوط الرئيسة للخطة الكاملة يشرع في تنفيذ المرحلة الأولى منها لاختيار طريقة التنفيذ عملياً.

ولذا أقترح إنشاء مزرعتين نموذجيتين مساحة كل منها 100 هكتار، إحداهما على نظام الري والثانية بعلية على المرتفعات، ويوضع لكل منهما برنامج زراعي عملي اقتصادي يمكن من تقسيمها في المستقبل بعد سنوات تقرر على عدد من المزارع الصغيرة، توزع على العمال الذين اشتغلوا بانتظام في إنشاء المزرعة وأظهروا تفوقاً في التعليم والتطبيق.

هذا ويقرر الخبراء عدد العمال اللازمين للعمل في إنشاء المزرعة، وتدفع لهم أُجورهم المناسبة من الرصيد المخصص لهذا المشروع، ويشتغل العمال تحت إشراف و إدارة مدير المزرعة وعدد من معاونيه.

439 **المزرعة النموذجية مدرسة:** ويجب أن يكون معلوماً لدى الجميع أن المزرعة النموذجية المقرحة ستكون بمثابة المدرسة لإعداد مزارعي المستقبل أخلاقيا، وفنياً، واجتماعيا بحيث إنه بعد انتهاء السنوات المقررة تدخل المزرعة في دور الإنتاج يكون كل عامل اشتغل فيها وتدرب، قد تطور وصار مزارعاً عصرياً نموذجياً يمكن الاعتماد عليه في العمل بالمزرعة الصغيرة التي ستخصص له ولعائلته، تلك المزرعة التي سوف يدفع ثمن إنشائها على أقساط في مدة سنوات تحدد.

إن المزرعة الصغيرة تراعى في مساحتها وتكوينها ناحيتان هامتان هما أن تنتج مواد غذائية تكفي العائلة التي تشتغل بها، وتكفي عائلة أخرى على الأقل كما أنه يراعى في وضع البرنامج الخاص بالمزرعة النموذجية، وما يتفرع عنها من مزارع صغيرة، إنتاج محاصيل قابلة للتصدير المنظم أو للتجميع، وتشغيل صناعات تعتمد على المحاصيل الزراعية.

440

**تعبئة مواهب الأمة:** حضرات السادة - هذه هي الطريقة التي أرى أنها تمكن من النهوض بالزراعة العربية التي هي العمود الفقري للاقتصاد الليبي، ولا شك في أن تنفيذها سيكون صعباً وسيلاقي كثيراً من العقبات ككل عمل إصلاحي؛ ولذا فإنه يجب على الدولة أن تجعل هذا الإصلاح الهدف الرئيسي لها في ميدان الاقتصاد، وتعبّئ له جميع المواهب والإمكانيات لتنفيذه، كما يجب على الشعب الذي من أجله توضع وتنفذ هذه الخطة، أن يقوم بمجهود صادق في سبيل تحقيقها.

وعندي أن مدى تقدم هذا الشعب ونجاح حكومته في الخمسين سنة المقبلة سيقاسان بعدد ما ينشأ من مزارع نموذجية وبعدد ما يتدرب فيها من مزارعين ممتازين.

إن ما أدعو إليه هو إصلاح زراعي، ولكنه إصلاح سيحدث نهضة اقتصادية تتبعها نهضة أخلاقية واجتماعية وفنية، تدفع هذا الشعب الذي بقي مدة طويلة مهملاً إلى شق طريق الحياة والتقدم والتطور، حتى يكون عاملاً من عوامل الاستقرار في هذه الرقعة من العالم، وحتى يستأنف مساهمته في تقدم الحضارة البشرية. ولذا أرجو من حضرات أعضاء المؤتمر أن يوصوا بالاهتمام بهذا الموضوع والإسراع لدراسته وتنفيذ المرحلة الأولى منه، وهي إنشاء المزرعتين النموذجيتين لاختيار أحسن وأيسر الطرق العملية لتنفيذ برنامج الإصلاح العام.

أشكركم على تفضلكم بالاستماع إلى هذه الكلمة، وأرجو لكم ولليبيا العزيزة دوام التقدم والنجاح.

طرابلس الغرب 7 / 1954 **مصطفى السراج**

441

**مصطفى وزير المعارف:** أجري تعديل على وزارة بن حليم، ونُقل مصطفى السراج إلى وزارة المعارف في 19 /1955/2 التي كان بها إبراهيم بن شعبان، وجدت بالوزارة مديراً عاماً لها هو الأستاذ مصطفى بعيو، وهو مؤتمري،

وصديق، من عائلة بعيو المشهورة في مصراتة، وكانت مهاجرة في مصر، وعينت الأستاذ المربي الأديب المصري فريد أبو حديد مستشاراً فنياً بالوزارة. وكان للوزارة مجلس أعلى للتعليم يضم مندوبين عن الولايات، وكان الأستاذ منير برشان مندوباً عن ولاية طرابلس، والأستاذ عبد الجواد فريطيس مندوباً عن ولاية برقة، والأستاذ محمد شليد مندوباً عن ولاية فزان، والمدير العام بالوزارة الأستاذ مصطفى بعيو مندوباً عن الحكومة الاتحادية، والأستاذ ميرزا الهندي مندوباً عن اليونيسكو، ويرأس المجلس وزير المعارف .

442 **التعليم العالي اختصاص وزارة المعارف:** التعليم الابتدائي والإعدادي والثانوي من اختصاص الولايات، والتعليم العالي من اختصاص الحكومة الاتحادية، ولم تنشأ بعد أية جامعة ليبية، ولذا كان مجال عمل الوزارة ضيقاً يكاد ينحصر في توحيد المناهج وتطويرها، وإرسال البعثات الدراسية إلى الخارج، وقد أرسلت بعثات إلى مصر حتى المستوى الثانوي ثم الجامعي للحاجة الماسة لموظفين ومدرسين أكفاء في مختلف المجالات. وأذكر من بين المبعوثين إلى جامعتي القاهرة والإسكندرية الشبان إبراهيم الفقيه حسن، ومحمد رمضان بن محمود، والمبروك العجيلي، وراشد السراج أخي، وعمر محمود المنتصر، وعبد الرحمن الجنزوري وسالم عطية وشمس الدين أبوشويرب، وإبراهيم الميت، وسالم كوكان، وعبد الحفيظ سليمان، وبشير السني المنتصر، وعلي الميلودي، ومحمد إسماعيل سيالة، وعزالدين المبروك، وعبدالله بن الأمين، وأحمد بن الأمين، وخيري الصغير، وشعبان عريبي، وغيرهم.

بقائي في وزارة المعارف كان لمدة قصيرة جداً، حوالي 4 أشهر، وقد ورطت في إجراء غير سليم في حق الطلبة المبعوثين للدراسة في مصر، ومنهم أخي راشد حيث أصدرت قراراً بتخفيض المنحة المحدودة أصلاً، وذلك لما عُرض الموضوع على مجلس الوزراء من طرف الدكتور العنيزي وزير المالية، ولا أدري بأي مبرر، وأيده جميع الوزراء فانضممت للأغلبية، وأنا حديث العهد بوزارة المعارف، وقرر المجلس التخفيض. وأصدرت أنا الوزير المختص القرار، وأثار

علي عاصفة من الاحتجاجات من الطلبة و ذويهم و أنصارهم، وقد علمت فيما بعد أن السبب في التخفيض كان خلافاً بين رئيس مجلس الوزراء والسفير الليبي في القاهرة الصديق المنتصر المدعوم من بعض الحاشية الملكية، وكان الطلبة ومنحتهم من ضمن الأسلحة التي استعملت من الطرفين المتخاصمين.

وأُثيرت فكرة إنشاء جامعة ليبية في مجلس التعليم الأعلى، وقد عارضها مندوب اليونسكو الدكتور ميزا، بحجة أن الوقت مازال مبكراً بالنسبة لليبيا الحديثة العهد بالاستقلال، وأن الجامعة إما أن تكون جامعة بمعنى الكلمة :بكل شروطها، وإلا فإن عدمها أحسن، حتى لا يغش المرء نفسه.

أذكر أني كنت في طرابلس، فعلمت أنه يعرض فيلم وثائقي عن الأسماك بالألوان، وكان لأول مرة يعرض في طرابلس و قد حاز الإعجاب، كان يعرض في السينما الحمراء بميدان الشهداء، وأصحابها الإخوة سالينوس، فكلفت أحد موظفي الوزارة بالاتصال بإدارة السينما، حتى تخصص يومين لعرض خاص لتلاميذ المدارس مجاناً، ولبت إدارة السينما الطلب ورحبت به، وقد حضرت مع التلاميذ أحد العرضين.

443

**خروج مصطفى من الوزارة:** هبت عاصفة شديدة على مصطفى بن حليم ووزارته، فقد اختلّ التوازن بين أنصاره وخصومه عند الملك بعد مقتل ناظر الخاصة الملكية إبراهيم الشلحي، وكان أحد ضحايا العاصفة مصطفى السراج، المؤتمري المؤيد للسعداوي القومي الناصري، المعارض الشديد للمعاهدة البريطانية، رغم أنه يعرف أن الملك هو الطباخ الأول لها، وأضيفت إلى القائمة أوصاف كثيرة أخرى حقاً وباطلاً، وأجري التعديل الثاني لوزارة مصطفى بن حليم بتاريخ 26 / 4 / 1955، وأخرج مصطفى من الوزارة نهائياً، ولم تدم مدة بقائه في وزارة المعارف أكثر من أربعة أشهر.

وفي خريف سنة 1956 انتهت الدورة البرلمانية الأولى، وأجريت انتخابات جديدة، دخلها مصطفى ولم ينجح وقد وزع مصطفى منشوراً انتخابياً ولكن لم يكن له الأثر المرجو فقد نجح منافسه محمود فتح الله.

وكان هذا نص المنشور :

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا عليك توكلنا ومنك نستمد القوة وبك نستعين

أخواني !...

سكان شارع الزاوية

و شارع بن عاشور

و باب بن غشير

و باب عكارة

السلام عليكم و رحمة الله

يسرني أن أخبركم بأنه نزولا عند رغبة الكثيرين منكم، وقياما بالواجب، توكلت على الله ورشحت نفسي لانتخابي عضوا في مجلس النواب عن دائرتكم، لقد سبق أن عرفتموني وعرفتكم في الماضي، سبق أن وضعتم ثقتكم في وانتخبتموني بالإجماع نائبا عنكم في البرلمان، ثم عرفتموني نائبا يؤيد طلباتكم ويدافع عنكم بمختلف الوسائل ويقرع الحجة بالحجة، عرفتموني وزيرا للاقتصاد ووزيرا للمعارف يؤسس الوزارات ويضع المشاريع الاقتصادية والتربوية التي أعطت وستعطى ثمارها مدى السنوات المقبلة، وستعرفونني نائبا من جديد عنكم يواصل كفاحه وجهاده من أجل رفعة شأن الوطن وأبناء الشعب. وقد عرفتكم في مناسبات عديدة وعرفت فيكم الوطنية الصادقة، وحب الوطن، وتقدير جهاد العاملين، وحسن الإدراك، والغيرة والحمية والرغبة في التقدم والتعلم والنهوض.

ولقد تعهدت لكم في المرة الماضية بأن أقوم بأقصى مجهود لتحقيق رغباتكم، وقد حققت منها الكثير، ولكن المرحلة طويلة و الجهاد مرير يحتاج إلى إيمان بالله و الوطن،

**وصدق في المبدأ. وإلى مثابرة ومعرفة أيسر السبل، وخبرة في معالجة المشاكل المتنوعة العديدة.**

**إخواني ! إن المجاملات الوقتية لا طائل من ورائها، وإن التدجيل لا يحقق شيئا، وإن إسناد الأمور إلى غير أهلها نكبة تعود بالضرر عليكم وعلى أبنائكم من بعدكم**

**فاليوم أنتم مطالبون بأداء الشهادة، أنتم يا سكان سكان شارع الزاوية وشارع بن عاشور وباب بن غشير وباب عكارة ستمارسون حقكم الدستوري للمرة الثانية منذ أن استقلت البلاد لانتخاب أعضاء مجلس النواب، فانتخبوا في شجاعة وصراحة من تعتقدون فيه الكفاءة والإخلاص والقدرة على أن يعبر عن رغباتكم المشروعة بقوة وحزم.**

**لقد رشحت نفسي لأنوب عنكم ولقد وضعت نفسي في خدمتكم فما عليكم إلا أن تسحبوا بطاقاتكم وتضعوها يوم السبت 7 يناير في الصندوق الأخضر وهو صندوق مرشحكم في الماضي والمستقبل.**

**والله ولي المخلصين**

**الحاج مصطفى السراج**

وكان المنشور يحمل صورة كبيرة للمرشح أعلاه

444 **<u>لماذا لم أنجح:</u>** أسباب فشلي عديدة، أهمها أنه لم يكن في جانبي أي سند شعبي في هذه الانتخابات، لا بشير بي السعداوي، و لا هيئة المؤتمر الوطني العام. دخولي الوزارة أضعفني شعبياً، لأن غالبية الشعب و خصوصاً في مدينة طرابلس، غير راضية عن الوزارات المتوالية منذ الاستقلال، و غير راضية أصلاً عمّا سبق الاستقلال من ألاعيب و تعسف عند وضع الدستور، و بطرق غير ديمقراطية وغير شعبية، وبقي هذا الشعور دفيناً يطفو على السطح كلما سنحت الفرصة لذلك.

النخبة الحاكمة أو المتحكمة بداية من الملك وحاشيته وعائلته والمنتفعين منهم ومن والاهم، ضدي لأنهم يرون في ناصرياً سعداوياً متهوراً لا يقدر المصالح

الحقيقية للوطن، في نظرهم أن مصطفى بن حليم أخطأ في إفساح المجال الوزاري أمامي، وأمام الشيخ عبد الرحمن القلهود صديقي، وزميلي في الكفاح الوطني والسياسي، والذي أخرج هو أيضاً بعدي من الوزارة. دخلت الانتخابات، وشريحة كبيرة من الشعب ليست معي، والنظام المسيطر ضدي، والنتيجة معروفة.

خرجت من الوزارة نهائياً في 26 / 4 / 1955، و أجريت انتخابات في خريف سنة 1956، و كانت المدة بين التاريخين حوالي 18 شهراً، عدت فيها إلى سيرتي الأولى قبل دخولي الوزارة، وعدت مصطفى السراج، فرداً من أفراد عائلة السراج، ونائباً في البرلمان، وأضيفت لي صفة جديدة هي وزير سابق، وقد كان لها رنين وطعم خاص عند البعض. كانت علاقاتي مع مصطفى بن حليم ودية رغم إخراجي من الوزارة، وكنت أعرف ما يتخبط فيه من مشاكل.

حماسي كمعارض فتر نسبياً، ولم تبد لي أمور ذات أهمية على المسرح السياسي تستحق التصادم والنطاح، وكنت في شبه إجازة أوزع وقتي بين شؤون العائلة والعلاقات العامة، والتردد على المقاهي.

445 **سارت مشرقة:** كنت صباح أحد الأيام، بمقهى سوردي في جادة الاستقلال، فاتصل بي سمسار عقارات إيطالي يتكلم العربية بلهجة تونسية، وعرض علي شراء مزرعة لأحد الإيطاليين في منطقة جوددائم، قبل الزاوية بعشرة كيلومترات فلم أهتم بالموضوع وعلقت على عرضه: لدينا مزرعة شرقاً قبل القره بولي، وهو يعرض مزرعة غرباً جنب الزاوية، اتجاهان متعارضان، وتذكرت بيت الشعر، سارت مشرقة، وسرت مغرباً ... شتان بين مشرق ومغرب ... و لكنه أعاد الكرة أكثر من مرة، وصاحبني لزيارة المزرعة ذات يوم ولم أتحمس لها حيث كان الجو حاراً مع ريح جنوبية محملة بالرمال. وكان السمسار كثير التردد على مقهى سوردي، وانتهز في إحدى المرات فرصة وجود مهندس زراعي إيطالي زميل قديم لي بالمقهى واسمه كازاديو وكان يعتزم السفر في إجازة إلى إيطاليا، وطلبنا منه الاتصال بمالك المزرعة عائلة بونتزوليني في مدينة فيرنزي الإيطالية وجمع معلومات مفصلة حول المزرعة والثمن الذي يرغبونه، وسافر المهندس كازاديو

وعاد بعد أكثر من شهر دون فائدة، لأنه نسي الموضوع. ولما علم السمسار أني مسافر إلى إيطاليا بمناسبة معرض ميلانو السنوي، أقنعني بالاتصال مباشرة بعائلة بوتزوليني، وجمع المعلومات اللازمة، وحملني رسالة منه وقد كان. وتعرفت على رئيسة العائلة وهي سيدة مسنة أرملة الجنرال بوتزوليني الذي ساهم في حروب احتلال وإعادة احتلال ليبيا. وكان زوجها قد كون شركة مع ثلاثة من أصدقائه المرموقين، واستفادوا من تشجيع إيطاليا الفاشية الشخصيات الإيطالية على الاستثمار في مجال الاستصلاح الزراعي، وتحصلوا على أرض مساحتها 350 هكتاراً، في منطقة جوددائم التي سميت زمن الفاشي باسم أوليفيتي، وأنشأوا فيها مزرعة كبيرة بها عدة آبار ومنازل ومصدات للرياح،و زيتون.

كان للسيدة المسنة ولبقية الشركاء المتوفين أولاد وبنات لا يهمهم امتلاك مزرعة مشتركة في ليبيا التي استقلت وخرجت من نفوذ إيطاليا، ولذا كلفوا السمسار الإيطالي بالبحث عن مشترٍ للمزرعة، بقيت ضيفاً ليومين على العائلة، وزرت مزرعة كبيرة شائقة لهم في ضواحي مدينة فيرنزي، وعرفتني السيدة المسنة على العديد من أفراد عائلتها وورثة شركاء زوجها، وتناقشنا طويلاً في السعر ولم نتفق، وسافرت والموضوع معلق.

446 **مزرعة جوددائم:** عدت إلى طرابلس وأخبرت إخوتي، بما كان وانقسم الإخوة إلى فريقين، علي رحمه الله المهتم بالزراعة، يراها فرصة ضاعت، والبقية المهتمون بالتجارة يحمدون الله على أني لم أقرر شراء المزرعة وإلزامهم بتوفير ثمنها على حساب النشاط التجاري المزدهر. ويرون أنه يكفي الاستثمار في مجال الزراعة بامتلاك مزرعة القره بولي. ومرت شهور و لم يثر أحد موضوع مزرعة جوددائم حتى السمسار الملحاح. وفي الأسبوع السابق للاقتراع في الانتخابات الثانية، زارني فجأة الدكتور بوتزوليني أحد أبناء السيدة المسنة، ويحمل توكيلاً من المالكين للمزرعة، وفوضوه في الاتفاق معي على بيع المزرعة وما يتبع ذلك من تفاصيل. كان اهتمامنا مركزاً على خوض معركة الانتخابات، وما يتبعها من مفاجآت في تحول التحالفات، ومواقف الأفراد والمجموعات حسب تقلب أمزجة

ومصالح أصحابها، وما يترتب على ذلك من توتر عصبي وإرهاق، فطلبت منه تأجيل موضوع بحث المزرعة إلى ما بعد الانتخابات الوشيكة.

وكان الاقتراع وكان فشلي في الانتخابات، وجاء الدكتور بوتزوليني في الموعد، وقَبِلَ الشروط التعجيزية التي اقترحناها، فكانت ربكة على المستوى السياسي والاجتماعي والمالي.

السيولة النقدية عند الإخوة شبه معدومة لأن ما كان يتوفر منها يصرف في حينه على الانتخابات، والإخوة باستثناء أخي علي لم يكونوا متحمسين لشراء مزرعة جديدة. استشرنا بعض الخبراء في مجال المزارع، فاعتبروا العرض مغرياً على جميع المستويات، فما كان من أخي علي إلا أن أمسك مقود السفينة، وحسم الموضوع وقرر، سنشتري المزرعة، واستلف المبلغ المطلوب من البائع لنقل الملكية، وتم البيع ورهن علي المزرعة التي صارت ملكاً لنا في أحد البنوك، وتوفرت لدينا السيولة بغزارة، ونفذنا التزامنا نحو البائع دون إزعاج الإخوة وتجارتهم، وتمت العملية في سلام، وصرنا نملك رغم أنف بعضنا مزرعتين، الفرص من هذا النوع كانت متاحة للعرب الليبيين في ذلك العهد، لأن الإيطاليين المهزومين كانوا يرغبون في تصفية أملاكهم، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه، متخوفين مما عسى أن تتخذ ضدهم من إجراءات تحرمهم مما امتلكوا ظلماً وعدواناً.

اليهود شعروا بعد إعلان الاستقلال، أنهم فقدوا رسمياً الحظوة التي كانت لهم عند قوات الاحتلال الإنجليزية و الأمريكية، وعواطفهم صارت موزعة بين إسرائيل دولتهم الجديدة، و بين مصالحهم في البلاد العربية، والفرصة كانت سانحة أمام العرب الذين لم يكونوا مهيئين، ولا مؤهلين للظروف الطارئة الجديدة. العامة منهم في شغل شاغل بحثاً عن لقمة العيش المستعصية عليهم في كل الأزمان، والصفوة في شغل شاغل بحثاً عن أوهام ابتكروها، أو الكيد لبعضهم البعض، وتنغيص العيش عليه والشر بالشر، واستمر الحال وتفاقم أمره إلا من رحم ربك.

في نفس تلك الفترة اشترى الحاج محمد الميت الصديق والتاجر مزرعة صغيرة مساحتها 4 هكتارات على أبواب طرابلس خلف باب العزيزية، بنفس الثمن

الذي اشترينا به مزرعة جوددائم، ومساحتها 350 هكتاراً وكلانا مبتهج بما حقق، مزرعة الحاج محمد الميت بعد إقامته بها عدة أعوام، توزعت بين سوق الثلاثاء وثكنات باب العزيزية التي صارت مقراً لمجلس قيادة الثورة.

447 **كأس شاهي في منزل رئيس مجلس الوزراء:** في بداية صيف سنة 1957 دعاني عبد المجيد بي كعبار رئيس مجلس الوزراء إلى منزله بشارع بن عاشور لتناول كأس شاهي معه، صلتي بعبد المجيد كعبار محدودة جداً، واقتصرت على بعض الزيارات في بعض المناسبات الاجتماعية، اتجاهي السياسي واتجاهه مختلفان هو ينتمي لحزب الاستقلال، ويمجد رئيسه سالم المنتصر، وأنا أنتمي لحركة المؤتمر الوطني العام، وأمجد زعيمه بشير السعداوي، هو يحمل لقب كعبار الذي كان يذكر في تلك الفترة و قبلها، ويقرن بمواقف مشرفة مدة المقاومة للإيطاليين، بينما كنت أنا في بداية السلم، وفوق ذلك هو أكبر مني سناً بحوالي 8 سنوات، وهو رئيس مجلس الوزراء وأنا وزير سابق. كان الشاي والحلويات والحديث العام وفاتحني في الموضوع الذي دعاني من أجله، وهو رغبته في أن أوافق على تعييني مديراً عاماً لمؤسسة التأمين الاجتماعي المزمع إنشاؤها، وشرح بإسهاب خلفية الموضوع وهي أنه كانت توجد في ليبيا منذ زمن الحكم الإيطالي ثلاث مؤسسات إيطالية للتأمين الاجتماعي، في ثلاثة مجالات (آينام) للتأمين ضد المرض، (ابنائل) للتأمين ضد حوادث العمل، (إينبس) للتأمين ضد الشيخوخة. وكان موضوع التأمين الاجتماعي من ضمن المواضيع التي تعرضت لها، وشملتها اتفاقيات تمت بين الوزارات الليبية السابقة والحكومة الإيطالية، بغرض تنظيم العلاقات بين البلدين وتنص الاتفاقيات المذكورة على أن تؤول المؤسسات المذكورة في مجالات التأمين الاجتماعي إلى ليبيا. الموضوع رغم أنه فني أو شبه فني إلا أن له جوانب متشعبة منها القانوني والمالي والإداري والاجتماعي وجانب سياسي هام، لأنه أول مجال عملي لتطبيع العلاقات بين إيطاليا وليبيا، ويهم الحكومة الليبية أن يتم ذلك في أحسن الظروف، وبنجاح تام، و لذا اختارني، وصار يعدد صفاتي الحسنة في رأيه، ومنها أني أجيد التكلم باللغة الإيطالية و دبلوماسيتي، بالإضافة إلي

المركز السياسي المرموق، أي الوزارة التي تقلدتها سابقاً . ويتمنى أن أقبل المنصب الإداري بعد الوزارة، ضارباً لي المثل بتعيين محمود بي المنتصر، رئيس الوزراء الأول في منصب سفير، وكما حدث مع غيره، ويريد أن يفهمني أن تولي منصب إداري لا يتنافى ولا يقلل من قيمة الرجل السياسي. واستفسرت عن بعض التفاصيل وقبلت، وشكرني على ذلك، وصدر قرار مجلس الوزراء بعد ذلك بالتعيين.

448 **مصطفى والمؤسسة الوطنية للتأمين الاجتماعي:** للمؤسسة الوطنية للتأمين الاجتماعي مجلس إدارة، يتكون من الممثلين عن أرباب العمل، والعمال وعن الولايات، ويمثل الحكومة الاتحادية موظف كبير بوزارة المالية ويترأس المجلس، ويضاف إلى ما ذكر مدير عام المؤسسة. تملك المؤسسات الإيطالية السابقة عدة مبانٍ فخمة في مدينة طرابلس، وبنغازي، بالإضافة إلى مستشفى كان يحمل اسم الجنرال كانيفا، كان مشغولاً من طرف القوات البريطانية منذ دخولها طرابلس. اتخذنا من العمارة المطلة علي ميدان الجزائر شارع الاستقلال مقراً رئيسياً للمؤسسة، وكان بها مكتبي. ترأس المجلس لفترة طويلة السيد محمد المريمي، ثم السيد محمد موسى، وأذكر أنه من ممثلي أرباب العمل السيد عمران حقيق، ومن ممثلي العمال السيد سالم شيته ثم السيد سالم عكاشة.

عقد اتفاق بين الوزارة وبين منظمة العمل الدولية بجنيف تساعد المنظمة بمقتضاه ليبيا بالخبراء الأكفاء، وأذكر منهم مستر باليولوقوس اليوناني الجنسية خبير في حسابات التأمين، والمستر؟. اسكتلندي في التدريب وأماتو غاوتشي المالطي في الإدارة، وكانوا جميعاً على مستوى عالٍ من الخبرة والكياسة، استفدنا منهم كثيراً في وضع اللوائح والتعليمات الإدارية المفصلة قبل بداية العمل بالمؤسسة، كان بإحدى المؤسسات الإيطالية شاب ليبي اسمه عبد الله المنتصر، ليس من عائلة المنتصر المصراتية، كان رغم دراسته المحدودة حجة في قوانين التأمين الإيطالية بشهادة الخبراء أنفسهم.

عينا نخبة من الشباب الليبيين، منهم إبراهيم الفقيه حسن في الإدارة القانونية، وعبد الله الغويل في الشؤون العامة والإدارة، ونوري الشكشوكي في الإدارة المالية، ومحمد القايد سكرتيراً خاصاً للمدير العام، وكان من بين الموظفين النشيطين محمد المنصوري، محمد بانوقة وعبد الله حواص، وعلي التريكي، ونصر الدين الدهماني، وفوزي الجداع، وسالم سويدان، وآخرون كثيرون، ولا أستطيع تذكر أسمائهم الآن، واستعنا بموظفين ذوي خبرة من مصر منهم الأستاذ عبد المجيد الدالي مستشاراً قانونياً، والأستاذ شيحه قانوني أيضاً، وممدوح غتوري محاسباً، والأستاذ سوكة في الشؤون الفنية، وكانت الروح السائدة بين جميع الموظفين كبيرهم وصغيرهم، ليبياً كان أم مصرياً، هي روح التعاون التام والكامل، كانت تظهر بعض النعرات لكن كنت أقضي عليها في المهد، لأني أومن بروح الفريق.

كنا حريصين أن نُثبت للجميع أن العرب الحديثي العهد بالتأمين الاجتماعي حيث إنه لم يطبق في ذلك العهد لا في مصر و لا في تونس، قادرون على استيعاب آلياته، وتسيير المؤسسة الجديدة كأحسن ما يكون. وقد اعترف بذلك فيما بعد الإيطاليون أنفسهم الذين يترصدون الهفوات، لإثبات خلاف ذلك.

449 **الاهتمام بالعلاج الطبي:** كان مجال العلاج الطبي المحك العملي للنجاح، كنا جميعاً نعمل على ألا ينقص مستوى الخدمات الطبية بل يزيد، فأبقينا جميع الأطباء الإيطاليين، وبحثنا عن أطباء أكفاء من مصر، فوجدنا طبيباً اسمه محمد سعيد عمل في إيطاليا، مسنّ ذو خبرة، يتكلم الإيطالية بطلاقة فرحبنا به وعيناه في إدارة الجهاز الطبي، ولم نفلح في إقناع غيره من الأطباء المصريين ذوي الخبرة والكفاءة بالعمل معنا رغم المغريات المالية، لأنهم جميعاً يريدون العمل في المستشفيات لا في العيادات، وحيث إنه لم يكن للمؤسسة في البداية مستشفى " لأن المستشفى الوحيد الذي كان ملكاً للمؤسسات الإيطالية والذي آل إلى المؤسسة الليبية، كان مشغولاً كما قلت من طرف القوات البريطانية، ورفضت أن تتخلى عنه بسهولة قبل إيجاد بديل مناسب " ومن باب الاحتياط طلبنا من وزارة الشؤون الاجتماعية الإيطالية ترشيح طبيب ذي خبرة في العلاج الاجتماعي يرأس الجهاز

الطبي، واقترحت لنا الدكتور تروئيسي، ولكنه كان دون المستوى المطلوب أساء إلى سمعة المؤسسة والأطباء الإيطاليين المتعاقدين معها، فأبدلناه الدكتور كوكودورو، وهو إيطالي أيضاً، وكنا حريصين على أن الدواء المطلوب يكون متوفراً بالكميات اللازمة في صيدليات المؤسسة ومخازنها، فقرر مجلس الإدارة، وبموافقة الوزير المختص وكان السيد إسماعيل بن لامين، بأن تسافر لجنة مكونة من المدير المالي، والمدير القانوني، ورئيس الأطباء، والمدير العام للمؤسسة إلى ميلانو، وأعطيت صلاحيات كاملة للاتصال بمصانع الأدوية في إيطاليا لشراء أحسن الأدوية المعتمدة من طرف المؤسسات الإيطالية نفسها، وشحنها بسرعة إلى طرابلس قبل نفاد المخزون المحدد.

450 **تمويل التأمين الاجتماعي:** الإنفاق على خدمات مؤسسة التأمين يتم عن طريق جمع الاشتراكات من ثلاث فئات، العامل ورب العمل و الدولة بنسب متفاوتة محددة ومدروسة من طرف خبراء مختصين، والاشتراكات تدفع على شكل طوابع مثل طوابع البريد خاصة بالمؤسسة مرسوم عليها شعار خاص، وقيمة الاشتراك. وقد صمم ورسم شعار الطوابع الأولى الأستاذ فؤاد الكعبازي بتكليف من إدارة المؤسسة.

رب العمل التابع له العامل مسؤول عن شراء الطابع وإلصاقه أسبوعياً على كتيب أعد لذلك، وعن حصة العامل خصماً من أجرته، ويقوم مفتشون موظفون في المؤسسة بزيارات مفاجئة لأرباب العمل والتأكد من قيامهم بالمطلوب منهم.

في البداية كان مجال التأمين محدوداً مكاناً وكماً، حيث كان يتم في مدينة طرابلس وحدها، وفي وحدات العمل التي يزيد عدد العمال فيها على عشرة، ثم صار التوسع جغرافيا، وعمم على كل وحدات العمل عندما أثبتت المؤسسة كفاءتها، وأدرك العمال وأرباب العمل الفائدة من التامين.

أذكر أن توثيق نقل عقارات المؤسسات السابقة إلى المؤسسة الليبية تم في مكاتب المؤسسة بدلا من المحكمة، وكان الموثق القاضي الشيخ شعبان التليب

الغرياني ووقع الوثيقة عن الجانب الإيطالي مديرو المؤسسات الثلاث، وعن الجانب الليبي مدير المؤسسة صاحب الذكريات،وكان التوقيع بقلم فاخر قدم هدية تذكارية للقاضي الموثق.

أذكر أنه كان صراع بين خبراء التأمين و الحسابات من جهة، وإدارة الجهاز الطبي من جهة أخرى، حول تحديد تكلفة الخدمات الطبية، وعدد الأطباء اللازمين، والمدة اللازمة للفحص الطبي، وكان الخبراء يقسمون مدة الفحص الطبي إلى مقاطع، ويحددون بالدقائق مدة كل مقطع، وبالتالي يتحدد أن الطبيب يستطيع أن يفحص كذا مريض في الساعة، وبالتالي في اليوم والشهر بعملية حسابية بحتة، وكان الأطباء يتضايقون ويحتجون على أسلوب الخبراء مذكرين بأن الطبيب ليس إنساناً آلياً، والعامل المريض ليس آلة معطوبة، والعبرة بشفاء المريض، وليس بمدة الفحص دقيقة وثانية، وأخيراً وبعد جدال ومشادات يتم الاتفاق على الأصلح.

451 **سفير تونس والتأمين الاجتماعي:** بتوسع نطاق التأمين زادت الحاجة إلى الأطباء، وعينا بعض الأطباء الإيطاليين، وأذكر أن السياسة دخلت في أمور المؤسسة في إحدى المناسبات، وهي أنه كما هو معروف، كانت حساسيات مفرطة بين الرئيسين العربيين المصري جمال عبد الناصر، والتونسي الحبيب برقيبة، وتراءى للسفير التونسي في ليبيا الأستاذ محمود شرشور أن مدير المؤسسة مصطفى السراج، منحازٌ كثيراً إلى مصر، ويعمل على أن يملأ المؤسسة الليبية بالمصريين، وخصوصاً الأطباء في حين أنه لم يفكر مطلقاً في الاستفادة من تونس التي تزخر بالكفاءات، ويسعدها مساعدة ليبيا خصوصاً في مجال الأطباء، فقابل رئيس مجلس الوزراء، وأفضى إليه بذلك، فما كان من رئيس الوزراء السيد عبد المجيد كعبار إلا أن استدعاني ليستفسر. فأخبرته بعدم صحة ذلك وقصة رفض الأطباء المصريين العمل في العيادات، وأنهم يحبذون العمل في المستشفيات، وطلبت منه بالمناسبة الضغط على الإنجليز حتى يتخلوا عن مستشفى كانيفا. فأراد اختبار صحة دعوى السفير و طلب مني التنسيق مع السفير التونسي وزيارة تونس، ومحاولة الاستفادة من الخبرات الطبية التونسية، رحبت بالفكرة ونفذتها، وزرت

تونس وقابلت وزير الصحة الذي رحب بي، واستفسر عن أعمال المؤسسة الجديدة، ومواجهتها للمشاكل المتعددة،و أبدى تضايقاً من تصرف السفير الأستاذ شرشور، وصرح لي بأنه ليس لدى تونس عدد زائد من الأطباء وأنه إذا تمكن من تلبية طلبي والاستغناء عن عشرين طبيباً تونسياً، فسيضطر إلى تعيين عشرين طبيباً يوغسلافياً بدلاً عنهم، إضافة إلى أن جميع الأطباء التونسيين لا يرغبون في مغادرة تونس العاصمة، ولا سلطة للوزير عليهم لإلزامهم بتنفيذ أوامره، وهو يعاني كثيراً حتى على المستوى التونسي في توجيه الأطباء إلى الدواخل بدل العاصمة، ومع هذا طلب مني التربص والبقاء في تونس لفترة من الوقت، وأكون على اتصال به لعل وعسى، وبقيت حوالي عشرة أيام بدون فائدة، وعدت إلى طرابلس دون أطباء تونسيين.

## 452 المحافظة على حسن الإبقاع:

عدم الاستفادة من الشقيقتين مصر وتونس في مجال الأطباء على نطاق واسع مع التوسع في الخدمات الطبية، جعلنا نتوجه إلى أسبانيا حتى لا نجعل المجال الطبي حكراً على الإيطاليين، وتكونت لجنة من رئيس مجلس إدارة المؤسسة محمد موسى، ومني كمدير للمؤسسة، وتوجهنا إلى مدريد، أعلنا في الجرائد رغبة المؤسسة الليبية في تعيين أطباء أسبان. كان عدد المتقدمين كبيراً، وواجهت اللجنة مشكلة اللغة وطريقة اختبار الأطباء، وتشاورنا مع سفير ليبيا في أسبانيا الأستاذ الطاهر باكير، واستفدنا من الشاب إبراهيم محمد الكريكشي الذي كان يدرس الطب في أسبانيا، وكان عوناً لنا في التحدث مع الأطباء وترجيح فريق على الآخر. بعد عمليات التصفية بقينا حيارى أمام المفاضلة بين الطبيب المسن الفاشل في بلده، حيث يريد العمل في ليبيا، وبين الشاب المتفتح بالمعلومات التي تمثل آخر صيحة في مجال الطب، ورأى محمد موسى الاستنارة برأي الوزير عبد المولى لنقي، فوجه إليه برقية تلخص الوضع ويسترشد، ولكن لا رد. وأخيراً عينا حوالي 30 طبيباً حسب اجتهادنا، وقد اشتهر منهم الدكتور ديلقادو.

تطورت المؤسسة، ونجحت نجاحاً كاملاً باعتراف الجميع، وفي رأيي أن الفضل في ذلك يعود أولا وأخيراً إلى الهداية والعناية الإلهية، ثم بالدرجة الأولى

إلى الخبراء الأكفاء الذين فسحنا لهم حرية العمل، ونفذنا تعليماتهم، ثم إلى المجهود الذي بذله الشباب الليبي المتوثب صادقاً في استيعاب المعلومات، والتغلب على الحساسيات، مشحوناً بروح التحدي، والتصميم على بلوغ الهدف مع نكران الذات، ومهما قيل عن حكمة المدير، فالواقع أن دوري كان بسيطاً محدوداً، حيث أنه كانت هناك معزوفة جيدة، كان العازفون على دراية تامة بأدوارهم والنوتة، ويتقنون التصرف في آلاتهم، وكانت تكفي مجرد النظرة المعبرة والابتسامة المشجعة والتكشيرة الخفيفة أحيانا للمحافظة على حسن الإيقاع.

453 **نظرة خارج المؤسسة:** البلاد تتقدم وتتطور، والعنصر العربي الليبي يقتحم مختلف المجالات الاقتصادية، ومرحلة البحث عن النفط، واكتشافه زادت الحياة نشاطاً، وتوسع الأمريكان في بناء مرافق قاعدتهم الكبيرة ويلس بجنب طرابلس زاد من إنفاقهم، وزيادة السيولة المالية في السوق والرواج. ونشاط إخوتي الذي اخذ الشكل القانوني في سنة 1959 تحت اسم "السراج" شركة علي فوزي السراج وإخوته، شركة ذات مسؤولية محدودة، استفاد من الجو العام ودخلنا مجال مقاولات البناء، وكان يشرف عليه أخي علي، وتوسع قسم النفط وكان يتبع أخي كمال بالتعاون مع عدة شركات أمريكية في مجال إمداد الشركات الباحثة والمنقبة عن النفط بالمعدات والخدمات اللازمة.في تلك الفترة رأى إخوتي ضرورة تفرغي لإعمال شركة السراج، وألحوا في ذلك، ولكني تمهلت، وأذكر أنه زارني في مكتبي في مؤسسة التأمين في أحد الأيام على غير موعد الإخوة كمال وسعيد ونجاتي، وصارحوني بأنهم لاحظوا ترددي في التخلي عن المنصب والمكتب الفخم، فقاموا بزيارة ميدانية لمعرفة نوع المكتب ومحتوياته لتعويضي بأحسن منه، ضحكنا جميعنا، وقدمت استقالتي من المؤسسة ورشحت وعُين بدلي الشاب القانوني إبراهيم الفقيه حسن، وبقيت علاقاتي مع الذين عملوا بها على أحسن ما يرام، لم تؤثر فيها الحوادث ولا الأيام. و اتخذت من شقة أجرناها من مؤسسة التأمين في العمارة المطلة على ميدان الجزائر مقراً للمكتب الرئيسي لشركة السراج، وكانت مكاتب الإدارات الأخرى الزراعة، والأغذية، والطباعة، والقرطاسية، والمقاولات، والنفط،

موزعة على عدة أبنية حسب الظروف إلى أن أمكن تجميعها في دور واحد من عمارة باردا في جادة الاستقلال.

454 **ما بعد مؤسسة التأمين الاجتماعي:** قدمت استقالتي من المؤسسة، وقبلت مع رسالة تقدير وشكر من مجلس الوزراء، وتفرغت لشركة السراج، وعلى وجه الدقة، لشركة علي فوزي السراج وإخوته، وتضم مصطفى، علي، كمال، سعيد، نجاتي، وراشد، وكانوا موزعين على مختلف نشاطات الشركة، كلّ حسب قدراته ورغباته، علي للزراعة، وكان من مساعديه خالي أحمد سويدان، والحاج محمد بن سلامة، وأخوه موسى، بدأنا في المجال الزراعي بمزرعة صغيرة مؤجرة في منطقة الهضبة الخضراء بطرابلس، ثم صارت لنا مزرعة في منطقة القره بولي مساحتها حوالي 160 هكتاراً، وحفرنا بها بئراً ارتوازية يندفع منها ماء ساخن فوار، وبه نسبة من الكبريت ومن الحديد، وزودنا المزرعة بشبكة ري بالرش، وصرنا شركاء بمزرعة بعلية بالأصابعة مساحتها 150 هكتاراً، وشركاء بالنصف في مزرعة مع مختار العالم بمنطقة الميامين جنوب السواني مساحتها 20 هكتاراً، ثم مزرعة جوددائم التي سبق الحديث عن مرحلة شرائها ومساحتها 350 هكتاراً، وكانت هذه الأخيرة مركز اهتمامنا فحوّلناها من مزرعة بعلية إلى سقوية، وعوضنا المراوح الهوائية بمولدات كهربائية على ثلاث آبار، ثم استفدنا من التيار الكهربائي للشركة العامة للكهرباء عندما وسعت شبكات توزيعها حتى شملتنا، وربطنا الآبار الثلاث بشبكة ري بالرش، وصرنا نزرع البطاطا، والفاصوليا والكاكاوية والقمح على مساحات كبيرة، وكان إنتاج السراج من هذه المحاصيل مضرب الأمثال في الوفرة والجودة، وكان معظم العمال محليين، ثم استفدنا من العمالة المصرية، وكان بمزرعة جوددائم أقسام من أشجار الغابات الكافور، وكانت خلال السنة وخصوصاً قبل الامتحانات المكان المفضل لتلاميذ منطقة قرقوزة، تأتي من البساتين ذات الزراعة القديمة وما حولها للمذاكرة. كنت تجد في ظل كل شجرة طفلاً أوشابا بيده كراسة يقرأ منها، كنا نمر بجنبهم فيحيوننا وكأنهم يعتذرون من دخولهم المزرعة دون استئذان، وكنا نقابل التحية بأحسن منها، ونشجعهم متمنين

لهم النجاح، ومرت السنون وكبر الجميع، ونجح من نجح في الدراسة، ونجح في الحياة العملية والاجتماعية أيضا.

بجانب الزراعات المذكورة، كانت هناك تربية الأبقار بقصد الحليب والتسمين، وقطعان من الغنم كانت تنتقل من طرابلس إلى العزيزية إلى الأصابعة حسب المواسم وتوفر العشب. كما كانت بمزرعة جوددائم مناحل حديثة كبيرة استفادت من وفرة أشجار الكليبتوس" الكافور" في مزرعتنا وفي المنطقة حولها، كما كانت المزرعة منتزهاً لأفراد العائلة و الأقارب في مناسبات سعيدة ممتعة.

455

**أخي علي والزراعة والمقاولات:** أخي علي كان يشرف على مجال المقاولات أيضا الذي أنشئ حديثاً، ويديره المهندس المصري مراد علوان، وكان مهندساً من عائلة محترمة في مصر كُفئاً فنياً وإدارياً، واستمر يعمل معنا لمدة طويلة، ودامت العلاقة الودية بيننا وبينه وبين عائلته في مصر حتى هذه الأيام، ومن الأعمال التي نفذناها مبنى دار الإفتاء بطرابلس وهو تحفة فنية على الطراز الاندلسي الإسلامي، ومبنى كلية العلوم في طرابلس، وغيرها من المباني المهمة الأخرى، وقد واجه أخي علي مشاكل عديدة في هذا المجال، معظمها سببه النقص الطارئ والمفاجئ في سوق مواد البناء المتطورة بسرعة، أذكر منها أزمة نقص الشرشور الزلط في السوق، ورغم وجود العديد من المحاجر، والكسارات الحديثة، فإنه تعذر الحصول عليه. وتوقفت أعمال صب الخرسانة، وكان من بين المهندسين المكلفين بالإشراف على جودة حسن التنفيذ المهندس بشير الحنش، وكان شديداً حاد الطبع، يصر على أن الشرشور يجب أن يكون خالياً ونظيفاً من الطفلة، وهي نوع من الطين، وهذا يتعذر عملياً لأن أحجار جبال غريان وترهونة وأبو عرقوب وغيرها تتخللها عروق من الطفلة يصعب فصلها عنها إلا بالغسيل، وهذا مستحيل لعدم وجود الماء في المحاجر. وباختصار كانت أزمة تسبب عنها توتر شديد في أعصاب المسؤولين على البناء، وفي العلاقات مع المكتب الاستشاري المشرف، وترتب عليها تأخير في مواعيد التسليم، وبالتالي في الموافقة على المستخلصات، والحصول على السيولة اللازمة لسداد أجور العمالة وسداد قيمة المواد المشتراة،

ونفدت الأرصدة التي في البنوك، والتسهيلات الائتمانية المخصصة لشركة السراج، وكانت ربكة "حقيقية " على جميع المستويات، وربما كانت سبباً في ما عانى منه أخي علي فيما بعد من ارتفاع في ضغط الدم ومرض السكري.

العمالة الفنية كانت شبه معدومة محلياً، وكان مصدرها من البلدان المجاورة، ومصر على وجه الخصوص، وكانت بعقود وبترخيص من مكتب العمل الذي كان يحاول عدم إغراق السوق بالعمالة الوافدة حتى يسمح للعمالة المحلية بالمنافسة، وكان موضوع العمالة مجالاً أيضا للتوتر العصبي، الحصول على موافقة مكتب العمل ليس سهلاً، يحتاج إلى مراجعات ومراجعات. والعمالة المحلية صارت تعرف عن طريق مكتب العمل والنقابات حقوقها، وتبالغ في ممارستها، وتستغل شدة الطلب عليها، وحماية الجهات الرسمية لها.

وبمناسبة الحديث عن مجال الزراعة والمقاولات، فإن العمل فيهما على علاقات قوية بالبشر، وإن أخي علي رحمه الله بذل مجهوداً كبيراً في كسب مودة من عمل معه ومن عرفه، فاستفادت شركة السراج من علاقاته الواسعة، حضراً وريفاً وبادية، وانعكست بالخير على الشركة. وحتى الآن وبعد مرور سنوات عديدة على تلك الفترة، وعلى وفاته، يعترضنا نحن الذين عاصرنا تلك المدة، والشباب الحديث العهد، يعترضنا أفراد صار لهم شأن الآن، يذكرون بفخر أنهم عملوا بمعية الحاج علي السراج في المزرعة، أو المقاولات في عمل بسيط متواضع، ومع ذلك يحنون إلى تلك الفترة من أعمارهم ويثنون بكل خير على من كان لهم رب عمل، وأخا وصديقاً، ورفيقاً في البحبحة والضيق، وكان يعرف بالفطرة كيف يتعامل مع الطبائع البشرية، وكان يعرف متى يعطي ومتى يأخذ بلا إفراط أو تفريط.

456 **المجالات الأخرى لشركة السراج:** قسم التغذية لم يتوسع، وحصر في دكان واحد ملاصق لجامع السنوسية، ومكلف به خالي أحمد سويدان، أما مكتبة السراج الشهيرة في جادة عمر المختار، فإنها توسعت كثيراً، وصارت لها مخازن وألحق بها دكان باب الحرية، وصارت تعمل بالقطاعي وبالجملة لتزويد المكتبات الصغيرة في السوق، والإدارات العامة والشركات، بالمعدات المكتبية

بأنواعها، وانضم إلى أخي نجاتي الذي كان يديرها بكثير من الحزم والكفاءة الشاب سراج علي السراج ابن أخي علي بعد أن أتم دراسته، وكان سنداً قوياً لأخي نجاتي، تعلم منه فن التجارة، وصار يشرف على مجموعة كبيرة من الموظفين الليبيين والإيطاليين في أماكن التوزيع والتخزين، منهم ماريو بليني، واينسو، وايفيرا، والهادي عريبي، وعبد الصمد أبو شيحة، وخليفة الطوير. مجال القرطاسية فسيح ومعقد لكثرة الأصناف وتعددها، ولحرصنا على أن لا ينقص صنف منها في السوق لتلبية رغبة الزبائن، ويشتد الضغط في بداية السنة الدراسية، وكان لفرع القرطاسية نظام مخازن متطور ومتقن حتى قبل استعمال الكمبيوتر. وكان ينضم إلى المشرفين على المكتب ويساعدهم في فترات تحديد الكميات المطلوبة، لاستيرادها وحتى تتناسب مع حجم الحاويات، المرحوم أخي راشد الذي بعد أن تخرج من جامعة الإسكندرية، وعمل في الدولة وفي مصرف ليبيا الذي أوفده لإتمام الدراسة العليا في أمريكا، التحق هو أيضا بشركة السراج، وصار مشرفاً على الإدارة المجمعة لكل النشاطات من محاسبة وإدارة أفراد والمشتريات المحلية والتوريدات والمصارف والعلاقات العامة، وكان من خيرة مساعديه المصريين المحاسب زكريا داود، والمحاسب محمد الصرفي، ومن الليبيين الشاب محمد الثابت.

457 **بلجيكا تفقد الكونغو:** كان المرحوم أخي كمال مسؤولاً عن النشاط الذي له علاقة بمجال النفط، وبالتالي بالأمريكيين، حيث كانت معظم الشركات التي تبحث عن النفط أمريكية، وكان هناك قانون ليبي يحتم على الأجانب الراغبين العمل في ليبيا المشاركة مع الليبيين، وقد استفادت شركتنا كغيرها من هذا القانون.

تكونت شركة بين أخي كمال وبين الأمريكان، وسميت "صحاري"، الغرض منها تزويد الشركات المنقبة عن النفط بالمعدات والمواد اللازمة لعملها، مقر هذه الشركة كان في محلة الظهرة في عمارة قريبة من فندق ليبيا بلاس " قصر ليبيا "، ومن مصنع البيرة، ومن الكنيسة المسيحية في نفس الدور الذي به السفارة البلجيكية، وكان شاب تونسي اسمه منجي زقلام، مثقف ومهذب جداً يعمل في القسم

التجاري بالسفارة البلجيكية، وبحكم الجوار كان التعارف بين أخي كمال والسيد المنجي، تكونت بينهما علاقة ودية دامت طويلاً.

في هذه الأثناء ترك مصطفى مؤسسة التأمين الإجماعي، وتفرغ للعمل في شركة إخوته "علي السراج وإخوته"، ومن ضمن مهامه البحث عن مجالات جديدة لاستثمار ما يفيض من أموال محصلة نشاط الشركة المزدهر.

كنا في الستينيات وكان الكونغو مستعمرة كبيرة غنية لبلجيكا في أفريقيا، وكانت عدوى التحرر أصابت الكونغو كبلاد أخرى في أفريقيا والعالم، وكان المرحوم الرئيس جمال عبد الناصر المصري من المحرضين والمساندين الكبار للزعيم الكونغولي لومومبا، وتحررت الكونغو.

كانت كارثة على البلجيكيين عموماً، وخصوصاً على رجال الأعمال الذين انزعجوا كثيراً من ضياع مستعمرتهم الغنية وثرواتهم، وصاروا يبحثون عن بلاد واعدة أخرى يستثمرون فيها ولو جزءاً من أموالهم الكثيرة.

اكتشف النفط في ليبيا، وصارت ليبيا تتصدر قائمة البلدان التي تغري بالاستثمار فيها، وتحركت السفارة البلجيكية، وتحرك الموظف بها " المنجي" يبحث عن مرشحين ليبيين شركاء للشركات البلجيكية الراغبة في الاستثمار.

شركة السراج كانت تشق طريقها بقوة، تضامن أفرادها واستقامتهم، وعلاقاتهم الاجتماعية، وسمعتهم الطيبة مضافة إلى ماضي أحدهم " مصطفى" السياسي، النائب ووزير سابق، كل هذه الأمور سهلت على " المنجي " مهمته، ورشح وزكى شركة السراج.

وكان اجتماع مصطفى بالسفير البلجيكي، والاتفاق على أن يسافر مصطفى إلى بلجيكا، والتعارف إلى المعنيين بالأمر مباشرة.

458 **السفر إلى بروكسيل:** سافرت إلى بروكسيل برفقة مجموعة من رجال الأعمال البلجيكيين، وكانوا في زيارة لطرابلس فترة المعرض، وكنت ضيفاً على الشركة التي لا أذكر اسمها في أحد فنادق بروكسيل الفخمة، وكان من نزلاء

الفندق في تلك الفترة السياسي الفرنسي المعروف ورئيس الوزراء الأسبق منـدس فرانس، والممثلة الفرنسية الفاتنة والشهيرة بريدجت باردو، ونظمت لي زيارات إلي معالم بلجيكا السياحية منها مدينة أنتريب بقنواتها المائية المتفرعة وأبنيتها التي تبدو كأنها مغروسة في بحر من المياه، ثم حدد موعد للاجتماع بالمسؤولين عن الشركة التي كنت ضيفها.

كان الاجتماع في قصر في مزرعة غير بعيدة عن المدينة العاصمة، وصلتها مع أحد المرافقين في سيارة فخمة، كان الاستقبال في صالون كبير أنيق كلاسـيكي طراز فرنسي قديم، المستقبلون خمسة، حيوا ورحبوا وبادلتهم ذلك وشربنا القهوة ثم انتقلنا حول مائدة مستديرة وبدأ الاجتماع .

فاتني القول بأن الشعب البلجيكي مكون من عنصرين " الفالون " و"الفلامنك" ولكل منهما لغته الخاصة، والصراع متواصل بينهما حول نظام التعليم، وأي اللغتين الرئيسة وأيهما الثانوية، وكنت لاحظت ذلك واضحاً من تصفح الصحف اليومية.

الحديث حول المائدة المستديرة أخذ شكل استجواب، وجهوا لي أسئلة غريبـة وغير متوقعة، أذكر منها أربعة هي : متى يموت الملـك إدريـس ؟ متـى تـؤمم حكومتكم النفط ؟ متى تندلع الحرب الأهلية بينكم أيها الليبيين، أي بـين طـرابلس وبرقة ؟ متى يغزوكم ناصر ؟ ويعنون جمال عبد الناصر.

أول القصيدة كان كفراً، ضايقني أسلوبهم كثيراً، وأدركت بإحساسي الخفي أنه لا فائدة ترجى منهم، فتعمدت أن أكون على غير عادتي فظاً، وكانـت الإجابـات جافة، تخلو من قواعد اللباقة واللياقة، وكانت الإجابات كالآتي :

أولاً : لا أعرف متى يموت الملك إدريس، وأقترح عليهم عرضه على شركة تأمين للتأمين على الحياة، وهي ستقرر متى يموت قبل تحديد فئة الاشتراك.

ثانياً : لا أتوقع أن تؤمم الحكومة الليبية النفط، وهي تسعى جاهدة إلـى اسـتقطاب المستثمرين، وهناك شركات عالمية كبيرة أمريكية مقبلة على الاستثمار فـي ليبيا ولو كان هناك خطر التأميم لأحجمت، وكان تعليقهم أن الشركات التـي

ذكرتها قوية جداً، ومسنودة من الحكومة الأمريكية، وأن شركتهم ليست في حجم الشركات الأمريكية، وحكومة بلجيكا ليست في قوة أمريكا.

ثالثاً: لا أتوقع حرباً أهلية بين الليبيين، وإنني أتساءل متى تنتهي الحرب القائمة فعلاً بينكم، أنتم الفالون والفلامنك، لاحظت أنهم نظروا إلى بعضهم وأن اللطمة كانت مؤلمة.

رابعاً : حسب علمي لم يسبق على مدى التاريخ أن هاجمت مصر ليبيا، ويقال إن ليبيا هاجمت مصر زمن الهكسوس، واسمحوا لي إن أقول أن ما حصل لكم في الكونغو كان قاسياً، ومازلتم مفزوعين بشدة، وإنه لا استثمار بدون مجازفة في ليبيا أوغيرها، وفي الظروف التي أنتم فيها أنصحكم باستثمار أموالكم في بنوك سويسرا، فهي أضمن ولو أن المردود ضئيل أو معدوم، وإذا قررتم مستقبلاً الاستثمار في ليبيا فإني أرحب بكم، وأضع نفسي تحت تصرفكم، أشكركم على الضيافة وعلى إتاحتكم لي الفرصة للتعرف إلى حضراتكم وإلى بلدكم الجميل، وأستأذن منكم العودة غداً إلى طرابلس.

لا أدري إذا كان تصرفي سليماً حكيماً، ولكن كنت أرى عندئذ أن الدبلوماسية ليست دائماً الأسلوب الأمثل، وأن الجراحة بالمخدر أو دون مخدر ربما تكون مؤلمة، لكنها كثيراً ما تودي إلى الشفاء.

عدت إلى طرابلس، واجتمعت بالسفير البلجيكي الذي كان متلهفاً لمعرفة ما كان، وشرحت له ما حدث، فعلق أنه كما هو معروف أن الرأسمال جبان، وأن الخوف مسيطر على من قابلتهم، وأن الصهيونية العالمية تسعى بكل الوسائل لتشويه العرب، وأن من زرتهم هم ضحيتها دون أن يدروا، وأنه شخصياً يعاني كثيراً من هذه التصرفات التي تضيع فرصاً ثمينة على رجال الأعمال من بني جنسه. كان لطيفاً وكنت ألطف.

459 **الكراسات المدرسية وأعلام الإسلام:** كنا في حوالي 1946، إيطاليا استسلمت للحلفاء، ليبيا تخلصت من الحكم الإيطالي منذ حوالي ثلاث

سنوات، الحياة أخذت تدريجياً مظهراً مدنياً، المدارس الابتدائية مفتوحة، البرامج عُدلت، اللغة العربية صارت تأخذ مكانها الطبيعي باعتبارها لغة الشعب، اللغة الإيطالية اختفت من المدارس، وحلت محلها اللغة الإنجليزية، كنت موظفاً في مصلحة الزراعة، ولا أعرف كثيراً عن التطورات في مجال التعليم، وإن كنت أعرف أن الإنجليز الحاكمين في برقة، والحاكمين في طرابلس وافقوا على التحوير في مجال التعليم دون انتظار انتهاء الحرب العالمية الثانية، وفُسح المجال للخبرات والكفاءات المصرية.

تجار المستلزمات المدرسية في طرابلس إيطاليون أشهرهم " دي مايو" و"باريليرو" واليهودي "ماجار"، وكانت متاجرهم في شارع ميزران، عائلة السراج أنشأت مكتبة "السراج" التي أخذت تنمو بسرعة، الإنسان العربي صار يستعيد بعض حقوقه الطبيعية في مختلف المجالات بمبادرات فردية، الكراسات المدرسية المتداولة في تلك الفترة كانت هزيلة، محدودة الورقات، والورق أقرب إلى الرديء، والغلاف غير سميك، وتحمل جميعها على غلافها مواضيع إيطالية وصور لشخصيات سياسية أو علمية أو فنية، ومعالم لمدن إيطالية أو ما شابه ذلك.

مكتبة " السراج " رأت بدافع وطني وثقافي وتجاري أن تنافس المكتبات الأخرى وتغزو سوق الكراسات بكراسات تحمل على غلافها صوراً ونبذةً مختصرة مبسطة لشخصيات إسلامية مشهورة، ما كان لأحد أن يجرو على الإشادة بها في العهد الإيطالي الفاشي.

سافر مصطفى إلى إيطاليا، ومدينة تورينو بالذات، ولا أذكر من رشحها ومعه المعلومات حول الشخصيات الستة التي تم اختيارها والتي ستطبع على الغلاف وهي: ابن سيناء، الإدريسي، أسامة بن زيد، الفرابي، الكندي، وجابر بن حيان.

رُشحت لي مطبعة كبيرة مخصصة في صناعة الكراسات، في ضاحية مونكاليري( Moncalieri ) بمدينة تورينو التي اشتهرت بوجود مصانع فيات للسيارات.

كان مدير المطبعة رجلاً ضخماً مسناً، اشترك في الحرب العالميـــة الأولـــى وفقد إحدى ذراعيه فيها، ومن الصدف الغريبة أن المدير الإداري كان ضابطاً سابقاً في سلاح الهجانة، عمل في الجنوب الليبي في الفترة التي كنت فيها معلماً بهـــون، وقد كانت فرصة لاجترار الذكريات المشتركة بيننا، لم نتعارف في هـــون ولكـــن تعارفنا في تورينو، وقد سهل ذلك التعامل مع المطبعة وأصحابها.

لم تكن معي صور للشخصيات الإسلامية التي تم اختيارها فـــي طـــرابلس، واقترحت المطبعة رساما لقبه توفاليري ( Tovalieri ) وتعاقدت معه على رســـم صور للشخصيات بناءً على الأوصاف التي كانت معي أو تخيلتها، وتقرر أن تكون بستة ألوان رغم ارتفاع التكلفة، كانت أولى زيارات عمل لـــي لإيطاليـــا، وكانـــت ممتعة وناجحة، كان للكراسات دويها في أوساط الطلاب مما زاد في شهرة مكتبـــة السراج وأرباحها.

وصادف أن عقدت في تلك الفترة ندوة حول ابن سيناء فـــي بغـــداد، وكـــان الأستاذ حامد الشويهدي على رأس وفد يمثل برقة، فزودته شركة السراج بمناســـبة ذلك المهرجان العربي العلمي بمجموعة من تلك الكراسات مساهمة متواضعة مـــن ليبيا التي أخذت تخرج من الظلام، وتبحث لنفسها عن مكان تحت الشمس أو حتـــى في الظل مرحلياً، ومن مكتبة السراج بتلك المناسبة العربية العلمية.

460 **سعيد والمطبعة والفن:** المرحوم أخي سعيد اقتصر نشاطه علـــى مطبعة صغيرة في إحدى تفرعات جادة عمر المختار، وكان يشغلها بأقصى طاقتها، لبى حاجة مكتبة السراج والشركات الخاصة من ملفات ومطبوعات شـــتى حاولنـــا دفعه إلى تكبير المطبعة، ولكنه فضل البقاء كما هو، يساهم بكل طاقته مـــع كفـــاءة وحماس في تنظيم الإدارة، ومد يد العون للمسؤولين عن المكتبة في مواسم ضـــغط العمل. كان المسرح هوايته الأدبية والفنية يستريح لها كثيراً فخصص لهـــا وقـــت فراغه، كما كان لأخي نجاتي هواية الرياضة، وخصوصاً كرة السلة التي اشـــتهر بها، وصار حكماً من حكامها.

كمال رحمه الله عمل في تجارة الأغذية، دكان جامع السنوسية، ثم التزم تموين الجيش الليبي بالأغذية، ثم اختص بمجال النفط حيث تشاركنا مع الأمريكيهلم في مجال تزويد الشركات المنقبة بفؤوس حفارات ذات كفاءة عالية، مع توريد نوع من الطين يعرف باسم البنتونيت، يستعمل في تغليف آبار النفط من الداخل لمنع تسرب الزيت في تجاويف الأرض، وكونا شركة أخرى مع أمريكيين آخرين للقيام بهذه الخدمة للعديد من الشركات المنقبة عن النفط، وكانت حصيلة جميع الفروع تصب في خزانة واحدة، وأهم مواردها من النفط من كمال، ومن المكتبة من نجاتي، وما يفيض منه سنوياً عن حاجيات العائلات بمختلف فروعها يستثمر في مجالات جديدة، منها تجارة الأراضي وتقسيمها للبناء، وكان مصطفى في المكتب الرئيسي يشرف على التنسيق بين مختلف الفروع ومع راشد على الإدارة العامة، وكان يهتم بالبحث عن مجالات جديدة للاستثمار، ولهذا الغرض كان يقوم بزيارات عديدة لشركات ومصانع إيطالية، وخصوصاً معرض ميلانو لقربها جغرافياً من ليبيا، ولتمكنه من اللغة الإيطالية أداة التخاطب والتفاهم.

461 **إنشاء بنك النهضة:** رافق التطور الاقتصادي نشاط من البنوك التي كانت تعمل في البلد، بعضها منذ العهد الإيطالي، وهي بنك إيطاليا، فرع لبنك إيطاليا المركزي، وبنك صقلية، وبنك نابولي وبنك روما، وجمعيها فروع لبنوك تجارية كبيرة في إيطاليا، كما كان هناك بنك إيطالي تحت اسم صندوق التوفير الليبي، ومقره في المبنى الضخم الذي به مصرف ليبيا المركزي الآن، وظهر إبان الحكم العسكري البريطاني بنك بركليز، و البنك البريطاني للشرق الأوسط، وبعد الاستقلال فَتح بنك مصر فرعاً له في بنغازي، وآخر له في طرابلس، وكذلك فعل البنك العربي المؤسس من عائلة شومان الأردنية في منتصف سنة 1955 أنشئ بنك ليبيا المركزي، وكان أول محافظ له الدكتور علي نور الدين العنيزي، وخول المصرف صلاحية إصدار العملة الليبية. وكان من سياسية مصرف ليبيا حث المصارف الأجنبية على أن تتليب، بمعنى أن تنشأ مصارف طبقاً للقانون الليبي للمصارف، مشاركة مع رأس المال الليبي الذي يجب أن لا يقل عن 51%. وكان

مصرف ليبيا يحث رجال الأعمال الليبيين على اقتحام مجال المصارف، وكان رجال الأعمال في تلك الفترة يتهيبون دخول هذا المجال، ويرونه أكبر من قدراتهم المالية وكفاءتهم الإدارية. وكان الليبيون في تلك الفترة في الستينيات بصفة عامة يميلون إلى العمل الفردي، أو العائلي، ولا يقبلون على شركات المساهمة.

وتجاوب بنك مصر مع رغبة مصرف ليبيا في جو من الشعور القومي المتنامي، وصارت تعقد اجتماعات مع المسؤولين في مصرف ليبيا وعلى رأسهم المحافظ خليل اللبناني، ونائبه السيد علي جمعة، مع مجموعة من رجال الأعمال، وتمخضت عن إنشاء أول مصرف ليبي خاص يحمل اسم مصرف النهضة، ساهم فيه الليبيون ب51%، وساهم بنك مصر ب49%، وكان من ضمن المؤسسين في مصرف النهضة صاحب هذه الذكريات، وانتخب عضواً في مجلس الإدارة ورئيساً له. المجلس كان يتكون من مصطفى السراج عضواً ورئيساً، والحاج عبد الله عبد الصمد المصراتي، ومحمود الشريف، والحاج عبد الله سيميو، ومحمد رشدي بي رئيس مجلس إدارة بنك مصر عضواً ونائباً للرئيس، ومحمد محمود محمد مديراً عاماً للبنك، وأحمد فؤاد، ومحمد عرابي، أعضاء عن مصر، وإبراهيم نبيل عن هيئة المراجعة، وكان مقر المصرف الرئيسي في بنغازي، وله فرع مهم في طرابلس، وكانت جلسات مجلس الإدارة تعقد في بنغازي و طرابلس والقاهرة، وكان وجودي في المصرف فرصة عرفتني إلى الكثير من الرجالات الأفاضل في مجالات المال والاقتصاد، استفدت منهم كثيراً ثقافياً ومعنوياً واجتماعياً، ولم أستفد مالياً كما يتبادر للبعض، واستمر ذلك إلى أن ليبت جميع المصارف بالكامل في بداية عهد الثورة وأممت، وأدمج مصرف النهضة في مصرف الوحدة الجديد.

462 **عائلتي مرة أخرى:** في المجال الاجتماعي البحث، تزوج جميع إخوتي وصار لهم أبناء وبنات، وعائلتي الخاصة تكونت من أربعة أبناء وأربع بنات، وهم مع تاريخ ميلادهم :حُسنىَ 1944/1/1، ونوري 1945/10/10، جميلة 1947/10/29، نجيب 1950/2/17، عفيفة 1952/8/6، بهيجة 1954/5/16، عبد الحكيم 1957/8/1، فائز 1960/2/20، و أتم الأبناء دراستهم الجامعية، نوري

ونجيب في إدارة الأعمال في أمريكا، وعبد الحكيم الطب في سويسرا، وفائز الهندسة المعمارية في ليبيا، وتزوج الأبناء بعد التخرج وتزوجت البنات قبل إتمام دراستهن في ليبيا من ليبيين، ورزق الجميع البنين والبنات، والحمد لله.

بنمو العائلات وتوزعها زادت الحاجة إلى المساكن وتنوعت، وواجهت عائلة السراج الإخوة كغيرها نفس المشكلة، وصرنا نبحث عن أرض في مكان مناسب، عرض علينا مكتب الخدمات العقارية المهدي الفقيه حسن أرضاً في شارع الشط قرب مستشفى اندير، وأرضاً في قبيلة عرادة، وأرضاً في قرقارش، ولم تحز جميعها قبول الأخوة، إلى أن عرض علينا الفاضل أحمد بي الفقيه حسن، وكان مديراً لإدارة الأوقاف، عرض علينا أراضي في تقسيم جديد للوقف في شارع الزاوية بسعر 6 دينارات للمتر، ولم يكن الإقبال شديداً على هذا التقسيم في الوقت الذي ابتهج به أفراد العائلة، ولا ننسى أننا من مواليد شارع الزاوية، فعدنا إلى الأصل، وبيت العائلة القديم كان مشغولاً من أعمامي، وأخي سعيد بنى له منزلاً في سانية الغندرية قريباً من جامع المجيدية، واشترينا قطعاً من تقسيم الأوقاف خلف جامع مولاي محمد، وأقمنا عليها عمارة بها مساكن لأخي علي وابنه سراج ولأخي راشد، وأخرى مقابلة لها لنجاتي ولي على ناصية شارع محمد حسن المشاي وأحمد الشتيوي السويحلي حيث أقيم حتى الآن، وأسجل هذه الذكريات، وأخي كمال فضل الإقامة في منزل على أرض اشتراها في شارع بن عاشور.

فترة عضويتي في مجلس النواب، وفترة دخولي الوزارة، أقمت في منزل حكومي في بنغازي، وأقمت في فيلا صغيرة ضمن سبع فيلات في البيضاء بنيت لتكون نواة للبيضاء الجديدة. وأقمت لمدة أطول عندما كانت الوزارة في طرابلس في فيلا بشارع بن عاشور، أجّرتها من إيطالي مالك لها وبجواري الشيخ محمود المسلاتي، والمحامي ومحرر العقود الإيطالي شيبيلي.

463 **تقسيم السراج في منطقة الغيران:** كان الطلب شديداً على أراضي البناء، وكان العمل في تجارة تحويل الأراضي الزراعية إلى أراضي بناء حول المدينة نشطاً، استفاد منه اليهود بنوع خاص، ومعهم من شاركهم من التجار

الليبيين، ودخلت شركة السراج هذا الميدان في الستينيات، حيث اشترت مزرعة في منطقة الغيران، غربي طرابلس على بعد حوالي 15 كيلومتراً مساحتها 60 هكتاراً، من صاحبها الإيطالي تريجلا، وحصلت من بلدية جنزور على الموافقة بالتقسيم على 1500 قطعة تقريباً متوسط مساحة القطعة 150 متراً مربعاً، والتزمنا بإنشاء المرافق من طرق وماء شرب ومجاري صرف صحي على حسابنا، وخصصنا بها منطقة صناعية، وبدأنا نبيع المتر بدينار واحد والإقبال كان ضعيفاً، فصرنا نرغب بعض النازحين من قبائل الصيعان والمقيمين في زرائب حولها بشراء قطع منها بالتقسيط، وبالأجل. وبنينا بها خزاناً كبيراً لمياه الشرب أولى خطوات المرافق ورصفنا بعض الطرق.

464 **مصنع المباني الجاهزة:** خرجت الدول الأوربية المنتصرة والمهزومة في الحرب العالمية الثانية مدمرة، والطقس بها لا يرحم، والطلب على مساكن مهما كان نوعها شديداً، فابتكرت طرق جديدة وسريعة للبناء، وأوجدت مواد بناء مناسبة لها، وطرق البناء الجديدة هي ما صار يعرف بالمباني الجاهزة، وخلاصتها أنه بدلاً من أن يقف البناء الساعات الطوال يضع الحجر الواحد فوق الآخر، والطوبة فوق الطوبة، كانت تصب الحوائط في قوالب بمقاسات محددة في مصانع معدة لذلك، ويقسم البيت إلى عدة قطع تحمل كل قطعة ما ينوبها من أبواب وشبابيك، وجزء من شبكة الكهرباء والماء، وتخرج من القالب ناعمة الأسطح وتحمل على سيارات معدة ومخصصة لذلك إلى موقع إقامة المنازل لتركب مع بعضها، وتجرى عليها التشطيبات الأخيرة، وتُسكن.

واجه المصممون لهذا النوع من المباني مشاكل عديدة منها طُرق عَزل الحوائط، والأسقف وجعلها تحافظ على الحرارة والبرودة، ومنها الفواصل ووسيلة الربط بين مختلف القطع ببعضها لمنع تسرب الماء والمحافظة على تمدد الحوائط بفعل الحرارة، ومنها خفة الوزن مع الصلابة، ومنها رتابة التصميم النمطي، حيث إن القوالب واحدة ومتشابهة جداً.

استفدنا من مكتب استشاري في ميلانو صاحبه المهندس بوروني الذي رافقني في زيارة إلى مصر للاستطلاع على إمكانية الاستفادة من فنيين مصريين يمكن تدريبهم بسهولة على الطريقة الجديدة وقد وقع الاختيار على المهندس سهيل والمهندس عادل ومعه مجموعة من الفنيين الذين كانوا يعملون معه في مصنع سيكورات في صب الفلنكات الخرسانية للسكك الحديدية ومن الفنيين الإيطاليين الذين عملوا بالمصنع المساح تريجيلا، والميكانيكي بنزون من جِنُوَه مكلف بورشة الصيانة وقد رافقني مع المهندس سهيل في رحلة إلى لندن لشراء الرافعات والسيارات اللازمة لنقل الحوائط.

265 **تمويل مصنع المباني الجاهزة:** في الوقت الذي اشترينا فيه مزرعة تريجيلا بالغيران وبدأنا إجراءات التقسيم، أُنشئ المصرف العقاري الليبي ومديره المهندس سعيد الليشاني ومهمته الإقراض لحل مشكلة السكن التي صارت تضغط في ليبيا أيضاً ولذا اتصلت شركة السراج بالمصرف وتباحثت معه حول تمويل مصنع المباني الجاهزة ليساهم في حل مشكلة الإسكان بما ينشئه من مساكن رخيصة نسبياً ومتينة وبسرعة وذلك بالتعاقد بين المصرف، والمستفيد من القرض، ومصنع المباني الجاهزة، ويضمن المصنع للمصرف أن المبلغ الممنوح لإقامة مسكن يصرف فعلاً لهذا الغرض، تفهم بعض المسؤولين الفكرة واقتنعوا بها ولكن لم يقتنع مجلس الإدارة وبقي الطلب مركوناً مدة طويلة، وأخيراً فوجئنا بأن طلبنا قبل، وقد خصص لنا مبلغ مائة ألف دينار وهو ما طلبناه، والسبب في التحول، هو الشعور الإقليمي والتنافس بين برقة و طرابلس، فقد تقدم فرد من برقة يطلب قرضاً لنفس الغرض الذي قدمت شركة السراج طلبها من أجله، وتحمس أعضاء إدارة المصرف البرقاويون لمنح القرض، فتذكر الأعضاء الطرابلسيون طلب شركة السراج، وساوموا دون علمنا إما أن يمنح القرضان معاً أو أن يرفضا معاً، ورغم أن اهتمام شركة السراج انصرف في هذه الفترة إلى أمور أخرى، عادت من جديد إلى فكرة المباني الجاهزة ونفذتها، وكان مصطفى هو صاحب الفكرة، وتزامن إقامة

المصنع مع آخر العهد الملكي، وبدأ المصنع أولى أعماله بتوقيع عقد مع حكومة الثورة في سنة 1970 بإقامة 300 مسكن و لهذا الموضوع قصة ستروى.

466 **النشاط السياسي:** في المجال السياسي توالت الوزارات، وظهر على المسرح نواب جدد منهم أخي علي، وتكونت معارضة قوية تزعمها الشيخ محمود صبحي وعلي مصطفى المصراتي وأخي علي ويونس عبد النبي بالخير وغيرهم، وكان للمعارضة وقفة شرسة أمام محاولات شركة ساسكو للسيد عابد عبد الله السنوسي الذي حاول استغلال نفوذه لفرض وجهة نظره حول نزاع نشب حول تنفيذ شركته لطريق طرابلس سبها وأدى إلي سقوط وزارة عبد المجيد كعبار وحل الملك البرلمان. وفي الستينيات صار أخي علي نائباً لعميد بلدية طرابلس الطاهر القرمنلي كما كان أخي كمال في فترة لاحقة وأخي سعيد فيما بعد والذي كان أيضاً رئيس غرفة التجارة في طرابلس.

الجماهير تتابع باهتمام تفاعل الأمور في العالم العربي شرقاً وغرباً ومتحمسة جداً لمواقف الرئيس جمال عبد الناصر، وظهر حزب البعث في سوريا والعراق وصار له أتباع وأنصار بين الشباب الليبي وقام رئيس مجلس الوزراء محمد عثمان الصيد بحملة ضدهم واعتقل منهم مجموعة من بينهم أخي راشد الذي حوكم.

467 **الرخاء والاسترخاء:** الرخاء الاقتصادي الذي ساد ليبيا بدخولها فترة البحث والتنقيب واكتشاف النفط تبعه استرخاء في الضوابط الأخلاقية، وصار الكسب هدفاً رئيسياً في حياة الأفراد وفي سبيله كل شيء جائز الواسطة تؤدي دورها المتفاقم، والقوي لا يهتم بالضعيف، وكلها عيوب للنظام الاقتصادي الحر وهي معروفة ومعترف بها، وقد بذلت المحاولات للحد منها وحصرها في أضيق نطاق على مختلف الأصعدة حتى أعلاها، الملك الذي أصدر بياناً في 7/ 1960 استنكر فيه الفساد الإداري والسياسي وندد به وعرف البيان فيما بعد بعبارة " بلغ السيل الزبى " التي وردت فيه، ولكن المحاولات لم تتجاوز الاستنكار والتنديد.

فالبلد كانت تنمو وتتحرك في اتجاهات عدة سليمة وغير سليمة، فرأى البعض أنها من طبيعة البشر والشعوب ويراها آخرون أنها انحراف، وهو مؤشر سيئ يجب التصدي له، يرى البعض أن المشكلة تتمحور حول كلمة الحرية وحق ممارستها وعلى أنها حق مقدس لجميع الأفراد، وكما يحدث في المزارع تزاحم النباتات الضارة النباتات النافعة، و تطفو الضارة و تنمو، أما النافعة فتذبل وتموت، والعلاج في نظر البعض هو تقوية النافع بحيث يتغلب على الضار بينما يرى آخرون أن القضاء على الضار هو العلاج المناسب، ويتساءل آخر من هو الضار ؟ ولماذا ؟ ومتى ؟. ودخلنا في دهاليز الفلسفةِ الاجتماعية دون أن ندري. وقد كان في الستينيات مجموعة من صغار الضباط هم أيضاً يتناقشون في ذات الموضوع بجدية، وحددوا حسب اجتهادهم من هو النافع ومن هو الضار وطريقة القضاء عليه وعملت سراً وأعدت العدة وحققت أغراضها في ليلة 1/9 /1969 وأعلنت الثورة.

468 **البيان الأول:** وفي صباح يوم الفاتح من سبتمبر عندما استيقظنا وشغلنا الراديو لسماع الأخبار، علمنا أنه قد قامت ثورة وسمعنا البيان الآتي :

أيها الشعب الليبي العظيم : تنفيذاً لإرادتك الحرة وتحقيقاً لأمانيك الغالية واستجابة صادقة لندائك المتكرر قامت قواتك المسلحة بالإطاحة بالنظام الرجعي المتخلف المتعفن الذي أزكمت رائحته النتنة الأنوف واقشعرت من رؤية معالمه الأبدان، وبضربة واحدة من جيشك البطل تهاوت الأصنام وتحطمت الأوثان فانقشع في لحظة واحدة من لحظات القدر الرهيبة ظلام العصور، من حكم الأتراك إلى جور الطليان إلى عهد الرجعية والرشوة والوساطة والمحسوبية والخيانة والغدر، وهكذا منذ الآن تعتبر ليبيا جمهورية حرة ذات سيادة تحت اسم " الجمهورية العربية الليبية " صاعدة بعون الله، إلى العمل إلى العلا، سائرة في طريق الحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية، كافلة لأبنائها حق المساواة فاتحة أمامهم أبواب العمل الشريف، لا مهضوم ولا مغبون ولا مظلوم ولا سيد ولا مسود، بل إخوة أحرار في ظل مجتمع ترفرف عليه إن شاء الله راية الرخاء والمساواة، فهاتوا أيديكم و افتحوا قلوبكم وانسوا أحقادكم وقفوا صفاً واحداً ضد عدو الأمة العربية عدو الإسلام عدو

الإنسانية الذي أحرق مقدساتنا وحطم شرفنا، وهكذا سنبني مجداً ونحيي تراثاً و نثأر لكرامة جرحت وحق اغتصب، يا من شهدتم لعمر المختار جهاداً مقدساً من أجل ليبيا والعروبة والإسلام ويا من قاتلتم مع أحمد الشريف قتالا حقاً، يا أبناء البادية يا أبناء الصحراء، يا أبناء المدن العريقة، يا أبناء الأرياف الطاهرة، يا أبناء القرى، قرانا الجميلة الحبيبة ها قد دقت ساعة العمل فإلى الأمام وإنه يسرنا في هذه اللحظة أن نطمئن إخواننا الأجانب بأن ممتلكاتهم وأرواحهم سوف تكون في حماية القوات المسلحة وأنها بالعمل غير موجهة ضد دولة أجنبية أو معاهدات دولية أو قانون دولي معترف به وإنما هو عمل داخلي بحت يخص ليبيا ومشاكلها المزمنة وإلى الأمام و السلام عليكم ورحمة الله.

469 **اندهاش وحماس:** سمعنا البيان باندهاش وتحمسنا له دون أن نعرف أعضاء مجلس قيادة الثورة أسماء وأشخاصاً، وأدركنا كغيرنا من أبناء الشعب، أنهم مثلنا يحبون ليبيا العربية الوطن.

كنا نسير خطوة خطوة ببطء ونتعثر، وتارة على غير هدى، لقد ركز البيان الذي سمعناه على الحرية، وهي فعلا أساس كل خير، فهي الإرادة وهي حق القرار، وقد حرم جيلنا في بداية حياته منها،كنا متعطشين لها مات من مات من الآباء والأجداد في سبيلها، وحاولنا نحن بعدهم بالإمكانيات المعدومة أو المحدودة جدا المحافظة على ما أمكن منها والآن ونحن نستمع لصوت يجلجل صوت واحد منا صوت شاب من أبناء هذه الأمة التي تقاوم الفناء وتسعى للعلا غير دخيل، يعلن بأعلى صوت في تحد وإصرار يبشرنا بالحرية لجيلنا ولكل الأجيال المقبلة، غمرنا ونحن نستمع شعور فياض ونشوة عارمة، وأحسسنا بالغريزة أنه قد دقت ساعة التحرر من الخوف ومن العبودية ومن الاستعمار ومن التخلف ومن المرض والجهل ومن كل البلايا ما نعلم منها وما لا نعلم !

تصور كيف كانت فرحتنا في تلك اللحظة، أحسسنا أن صفحة جديدة هامة فتحت في سجل تاريخ هذا الوطن العزيز. كنا نحس أننا في بداية مشوار طويل ربما يكون شاقا في بعض مراحله ولكن كل ما يبذل من جهد في هذا السبيل سوف

يضمن التقدم والرقي والسعادة ويحقق كل ما كنا نحلم به ونسعى إليه من حياة مستقرة آمنة كريمة.

وعلمنا فيما بعد أن الشاب الذي تلا علينا البيان وكنا نستمع إليه هو قائد الثورة الملازم معمر القذافي.

تحركنا نحن الجماهير معه وبقيادته نحو المستقبل المشرق، أردناها مسيرة وأرادوها معركة فقبلنا التحدي، والثورة متواصلة والكفاح الثوري مستمر. والله أكبر !

أكتب هذه الأسطر الآن ونحن في يناير 2003 وأشعر أني قد عدت إلى جو سبتمبر 1969، كان عمري 53 سنة تتصارع داخلي شخصيتان شخصية الثائر وشخصية التاجر، وعند استماعي للبيان وعند كتابتي لهذه الأسطر سيطرت علي شخصية الثائر وتعطلت لغة الحساب وما يتبعها من تفكير في الربح المادي والخسارة، كنت أشعر في سنة 1969 بحيوية فائقة تجعلني أرى رغم انشغالي بأموري الخاصة بأنه علي واجب كبير نحو الشؤون العامة غير مكترث بعدد السنين وثقلها.

**ألا ليت الشباب (وحتى الكهولة) تعود يوما فاخبرها بما فعل المشيب**

470 **<u>مصطفى والثورة:</u>** لم يكن لي دور في فترة الإعداد للثورة ولا فيما بعد إعلانها، نشاطي السياسي توقف منذ إخراجي من الوزارة في النصف الأول من الخمسينيات، ونشاطي البرلماني انتهي بنهاية الدورة البرلمانية الأولى في أواخر الخمسينيات، و نشاطي الإداري العام انتهى بخروجي من إدارة مؤسسة التأمين الاجتماعي في الستينيات، ثم بدأ نشاط مالي عام وخاص لي برئاستي لمجلس إدارة بنك النهضة، واستمر خلال السنوات الأولى للثورة حتى أُممت المصارف.

كان لي نشاط اقتصادي خاص ضمن وخارج شركة " السراج " استمر بغزارة حتى بعد إعلان الثورة وخصوصاً في السنوات الأولى منها. بعدها طُبق

النظام الاشتراكي مما استوجب وتجمد النشاط الخاص في المجال الاقتصادي وظهور قطاع عام قوي.

ساهم أخي سعيد في المجال الإداري العام أميناً لبلدية طرابلس وساهم شباب متحمس متوثب من العائلة وهما موفق نجاتي السراج في القطاع الصناعي العام، وساهم سامي سعيد السراج في إنشاء وإدارة مشروع الهيرة الزراعي.

أنا صاحب هذه الذكريات كنت متقاعداً، اقتصر نشاطي الاقتصادي الخاص بعد حل " شركة السراج " على إدارة ومتابعة مشتل لأشجار الفاكهة ونباتات الزينة في مزرعة صغيرة لي في جوددائم، وببيع إنتاجها للمشروعات الزراعية العامة التي شملت جميع الجهات وخصوصاً مشروع الصلول الخضر في منطقة سرت، بالإضافة لمصنع صغير متواضع لإنتاج مواد التنظيف السائلة ونوع من نشاف تنظيف أواني الطبخ وغيرها.

وسائل التوثيق في الثلث الأول من القرن العشرين كانت تقنية بسيطة، وتعتمد بالدرجة الأولى على الذاكرة والكتابة اليدوية، أما في الثلث الأخير منه فقد تطورت الوسائل جداً، مما جعل توثيق واستعراض مختلف مراحل إنجازات الثورة الكبيرة في جميع المجالات على اتساعها متيسرة، فالصحف والأشرطة المسموعة، والأفلام المرئية بأنواعها سجلت تفاصيل الثورة، فإذا توفرت هذه الوسائل لشخص ما يسهل عليه القيام بعمل عظيم في هذا المجال وسيكون ذلك من نصيب غيري بدون شك، حيث لم يكن لي شخصيا دور محدد معين فعال في النشاط الثوري، كنت متفرجاً، لم أكن لاعباً.

لم أسأل أو أُناقش أو أُحاسب أو أُحاكم أو أُعاقب عن أي قول أو فعل صدر عني قبل قيام الثورة. سُئلت مرة واحدة في الأشهر الأولى من الثورة عن موقفي وأنا وزير حول الاتفاقية الليبية الأمريكية وظروف تلك الفترة.

كما طُلب من " شركة السراج " تقديم الإقرارات المطلوبة تنفيذاً لقانون "من أين لك هذا "، وقد قدمت الإقرارات ونُوقشت من لجان فنية مالية مختصة، ومُنحت " شركة السراج " ما يفيد بسلامة مصادر ثروتها ووضوحها.

عموماً كنت في سبات أو شبه سبات حين أيقظني منادٍ ينـــادي فـــي العيـــد العشرين للثورة و يدعوني إلى حضور الاحتفال بعيد الوفاء الذي أُقيم بمسرح فندق المهاري، حضرته مع كثيرين غيري، وقد سُلِمتُ في تلك المناسبة التاريخية وسام الفاتح العظيم من الدرجة الأولى مع البراءة مُوقعة من قائد الثورة العقيـــد معمـــر القذافي، وقام بتسليـــم الوسام والبـــراءة عضو مجلس قيـــادة الثـــورة أبـــو بكـــر يونس، بحضور عضو مجلس قيادة الثورة عبد السلام جلـــــود، وكانـــت البـــراءة بتاريخ 30/ 9/ 1989، وكان الدافع لمنح الوسام دوري في رفض القواعد الأجنبية إبان العهد الملكي المباد، كان وساماً عظيماً لدوافع عظيمة أيضاً والحمد لله.

## 471 براءة وسام الفاتح العظيم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى

نصر من الله وفتح قريب

وسام الفاتح العظيم

الأخ / مصطفى السراج

في العيد العشرين لثورة الفاتح العظيم، الثورة التي بشرت شعوب الأرض بعصر الجماهير وفتحت أمامه طريق الخلاص من أدوات العسف و الجور والاستغلال لتقيم سلطتها ( سلطة الشعب ) تتويجاً لكفاح البشرية على مر العصور وتعزيزاً لسعيها الدؤوب نحو الحرية والانعتاق.

ولأن ثورة الفاتح العظيمة، ثورة قومية عالمية طرحاً و حركة، فهي تلتقي مع المكافحين و المناضلين في الهدف التاريخي العظيم، ألا وهو انتصار الحرية، انتصاراً نهائياً بقيام سلطة الشعب.

وانطلاقاً من عالمية ثورة الفاتح العظيمة، فهي ترصد كفاح البشرية، والمناضلين من أجلها و تقيم إسهاماتهم في المعركة التاريخية من أجل انتصار الحرية ...

ووفاء من ثورة الفاتح القومية لدعاة الحرية و قربانها، و تحفيزاً لهم من أجل المزيد من العطاء بسخاء لقضية الحرية، تقرر منحكم وسام الفاتح العظيم من الدرجة الأولى لدوركم في رفض القواعد الأجنبية إبان العهد الملكي المباد.

وأمرنا بإصدار هذه البراءة إيذانا بذلك.

التاريخ 30 الفاتح 1989 التوقيع

معمر القذافي

472 **شهادة التكريم الاجتماعي:** في مناسبة سارة أخرى منحت شهادة تكريم أعتز بها أيضا تقديراً لنشاطي في المجال الاجتماعي، ويلاحـظ أن طبيعـة البشر جبلت على حب الثناء عليها وتقدير أعمالها وقد قال الشاعر :

**يهوى الثناء مبرح ومقصر        حب الثناء طبيعة الإنسان**

ونص الشهادة الآتي:

**الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى**

**صندوق الضمان الاجتماعي**

**بنغازي**

**شهادة تكريم**

**الأخ : مصطفى السراج**

**اهتداء بيوم الوفاء العظيم الذي كرم فيه قائـد ثـورة الفـاتح العظيمـة الـرواد المخلصين المبدعين.**

**يسر أسرة صندوق الضمان الاجتماعي أن تمـنحكم شـهادة التقـدير والعرفـان بجهودكم الخلاقة والمبدعة في العمل الاجتماعي.**

**وإلى الأمام، والفاتح ثورة الوفاء**

**صندوق الضمان الاجتماعي**

**التاريخ: 23/رمضان/ 1399و.ر.**

**الموافق: 1990/4/23 م**

**ما بعد التسجيل:** قلت في المقدمة إني توكلت على الله وبدأت أسجل، وكانت البداية في سويسرا سنة 1994 كما سبق أن قلت، وكان ذلك على فترات متقاربة أو متباعدة حسب الظروف والمزاج، وقد دام ذلك عدة سنوات.

الأشرطة الأولى كانت حول هويتي وصباي وعائلتي ومحيطها وكان باللغة العامية تقريباً.

واجهت مشكلة كبيرة عندما بدأت نقل ما هو مسجل إلي مكتوب على الورق، وما يعرف اصطلاحاً بتفريغ الأشرطة، والعملية تحتاج إلى من يشغل المسجل ويسمع ويقفل المسجل ويطبع على جهاز الكمبيوتر جملة جمله، ومن له الصبر اللازم ؟ وصفة المثابرة ؟

وتطوع عادل ابن أخي كمال، وقام بالمهمة دون كلل حتى أتمها، وتطوع الأستاذ رامي خيري السراج ابن عمي بتصحيح الأشرطة الأولى وكان ذلك مهمة صعبة أيضاً فالتسجيل كان بالعامية تقريباً والأخطاء النحوية والإملائية بغير حساب، وأضيفت إليها أخطاء أخرى عند التفريغ.

ثم اشتغل رامي في عمل أهم وأصعب وهو إعداد قاموس للهجة الليبية، وترك لي مهمة تصحيح ما يفرغه عادل السراج وعملية التفريغ كانت خاضعة لظروف عادل ومزاجه. التصحيح وخصوصاً للأشرطة الأولى كان مشكلة، تصحيح ماذا ؟ من الأسهل ترك الشريط جانباً وعجن محتواه وصياغته من جديد. ثم جاء نقل التصحيح من الورق إلى أقراص الكمبيوتر، وتطوع لذلك بنات وزهرات العائلة وهن ملاك فائز السراج ورجاء ياسين القلهود ونسرين ياسين القلهود وأماني سراج السراج وفائزة إبراهيم الويفاتي ومن شبابها كل من عماد إبراهيم الويفاتي وضياء ياسين القلهود، وربيع إبراهيم الويفاتي ولا أنسى المجهود الذي قام به ابني فائز لإتمام هذا العمل.

وظهرت فكرة ضم صور للذكريات، الصور الخاصة والعامة الفردية والجماعية كثيرة وبعضها قديم صُوّر بتقنية متواضعة ولكن رغم ذلك أمكن بجهاز الكمبيوتر ولو بصعوبة توضيح تفاصيل الصور الجماعية منها.

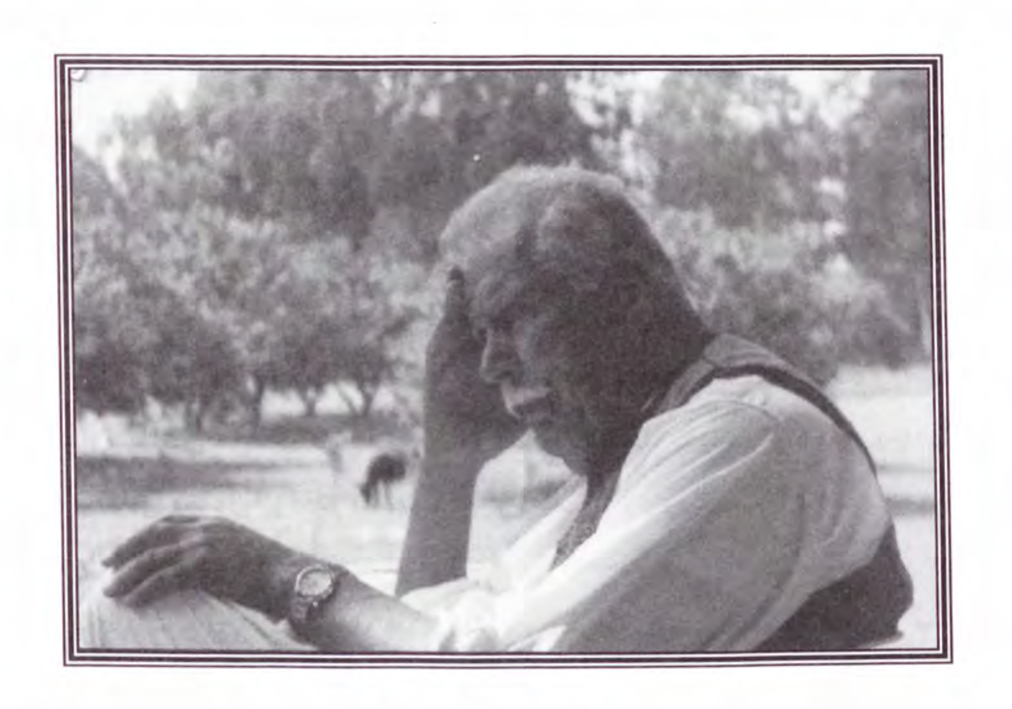
وعند الدخول في دهاليز خطة نشر الصور فالبعض يرى نشر كل الصور المتوفرة وأنا من هذا الفريق وفريق آخر يرى أن ذلك مكلّف ويجعل الكتاب إذا طبع وبيع غالي الثمن. كما يلاحظ أن شخصية ما، لها عشرات الصور خلال خمسين عاماً من مراحل عمرها وفي مواقف ومناسبات عديدة، هل تنشر جميعها ؟، وهل سيكتفى بصورة واحدة تمثلها ؟ وبأي مقاس ؟ وبأي لقب ؟ وهل الصور توضع مجمعة في آخر الكتاب أم موزعة بين الصفحات ؟، وأخيراً حسم الموضوع بطريقة ليست ُمثلى لأنه ليست هناك ُمثلى. والطريقة التي اتبعت لن ترضي الجميع، وقد ساهم في هذه المرحلة عادل السراج والمهندسة نادية عبد الهادي رفعت والمهندسة خديجة النائلي و المهندس خيري شعبان الكميشي.

ثم كانت مرحلة اختيار اسم لهذا العمل، هل هو مذكرات أو ذكريات أو سرد سيرة ذاتية أو هو شيء مختلف عن كل ما ذكر؛ لأن معايير كل اسم ذكر منها لا تنطبق عليه، وعرضت ملازم الأشرطة الأولى على أفراد العائلة، صباياها وفتيانها وكهولها لمعرفة تعليقهم، وقالت إحدى الصبايا وربما كانت "ملاك " حفيدتي في عفوية وبراءة تامة (هدرزة جدي باهيه).! وحينئذ برزت كلمة "هدرزه" وكانت اقترحات أخرى منها "ذكريات وخواطر" .

الأوراق التي كتبت وطبعت على جهاز الحاسب الآلي أخذت شكل كتاب وتطوع البعض لتصميم الغلاف. هل يطبع وينشر ؟ ربما.

(هدرزة) الحاج مصطفى السراج

2003/02/10



**مصطفى السراج 1992**

صورة التقطها خلسة حفيدي ضياء ياسين القلهود صيف سنة 1992 في مزرعتي بجودائم منطقة الزاوية وكنت أفكر ولا أدري فيما كنت أفكر، وكنت متضايقاً ولا أذكر ما كان يضايقني والذي أذكره الآن قول زجال محلي:

مرات نبدا زاهي  ومرات نبدا في همومي لاهي
ومرات حتى الشين عندي باهي  ومرات حتى الزين مانرعيله

وقول الشاعر العربي:

اشتد أزمة تنفرجي  قد آذن ليلك بالبلج

وأولاً وأخيراً وآخراً قول رب العزة قول اللطيف الخبير، قول الله تعالى في الآية الكريمة وهي مسك الختام

**فإن مع العسر يسرا* إن مع العسر يسرا**

والحمد لله

| الفقرة | الموضـــــوع | الصفحة |
|---|---|---|
| 54 | ماذا نأكل | 69 |
| 55 | الضواقة | 69 |
| 56 | أنواع الخبز | 70 |
| 57 | اللبن الحامض والعسلوز | 71 |
| 58 | الأوزان و المكاييل | 72 |
| 59 | عودة إلى مجتمع شارع الزاوية | 72 |
| 60 | الوسعاية وشجرة التوت | 73 |
| 61 | شارع الزاوية إدارياً | 74 |
| 62 | مدير الساحل ومدير المنشية | 75 |
| 63 | شيخ المحلة و أمامها | 76 |
| 64 | حفظ الأمن | 77 |
| 65 | خالي علي إدريس | 78 |
| 66 | خالي علي مؤذن وشيخ حضرة | 79 |
| 67 | خالي علي وجماعة القراء | 79 |
| 68 | خالي علي وسوق الحراره | 80 |
| 69 | خالي علي وسوق المشير | 81 |
| 70 | خالي علي وسوق الصياغة | 81 |
| 71 | خالي علي والكاكاوية | 82 |
| 72 | سوق القزداره | 83 |
| 73 | أواني الطبخ | 85 |
| 74 | أصوات المطارق | 85 |
| 75 | سوق الرباع | 86 |
| 76 | البيع بالدلالة | 87 |
| 77 | جامع الباشا | 89 |
| 78 | بيع الأثاث القديم | 91 |
| 79 | لقب السراج | 91 |
| 80 | لماذا أختار عمي نوري لقب السراج ؟ | 92 |

| الفقرة | الموضـــــــوع | الصفحة |
| --- | --- | --- |

| الفقرة | الموضــــــــوع | الصفحة |
| --- | --- | --- |

| الفقرة | الموضــــــــوع | الصفحة |
|---|---|---|

| الفقرة | الموضـــــــوع | الصفحة |
| --- | --- | --- |

# الكشاف العام

# فهرس الأعلام

## (أ)

## (ت)

## (ج)



## (ح)

## (خ)

## (ز)

## (س)

## (ش)

## (ص)

## (ض)



## (ط)



## (ظ)



## (ع)

## (غ)



## (ف)

## (ق)



## (ك)

## (ل)

## (م)

## (ن)

## (هـ)

## (و)



## (ي)

# فهرس الدول والبلدان والمواقع

## (أ)

(ت)

## (ج)

## (ح)

## (ز)



## (س)

# (ص)



# (ط)

## (ظ)



## (ع)

## (غ)



## (ف)



حسن أبو يوسف الحويتي

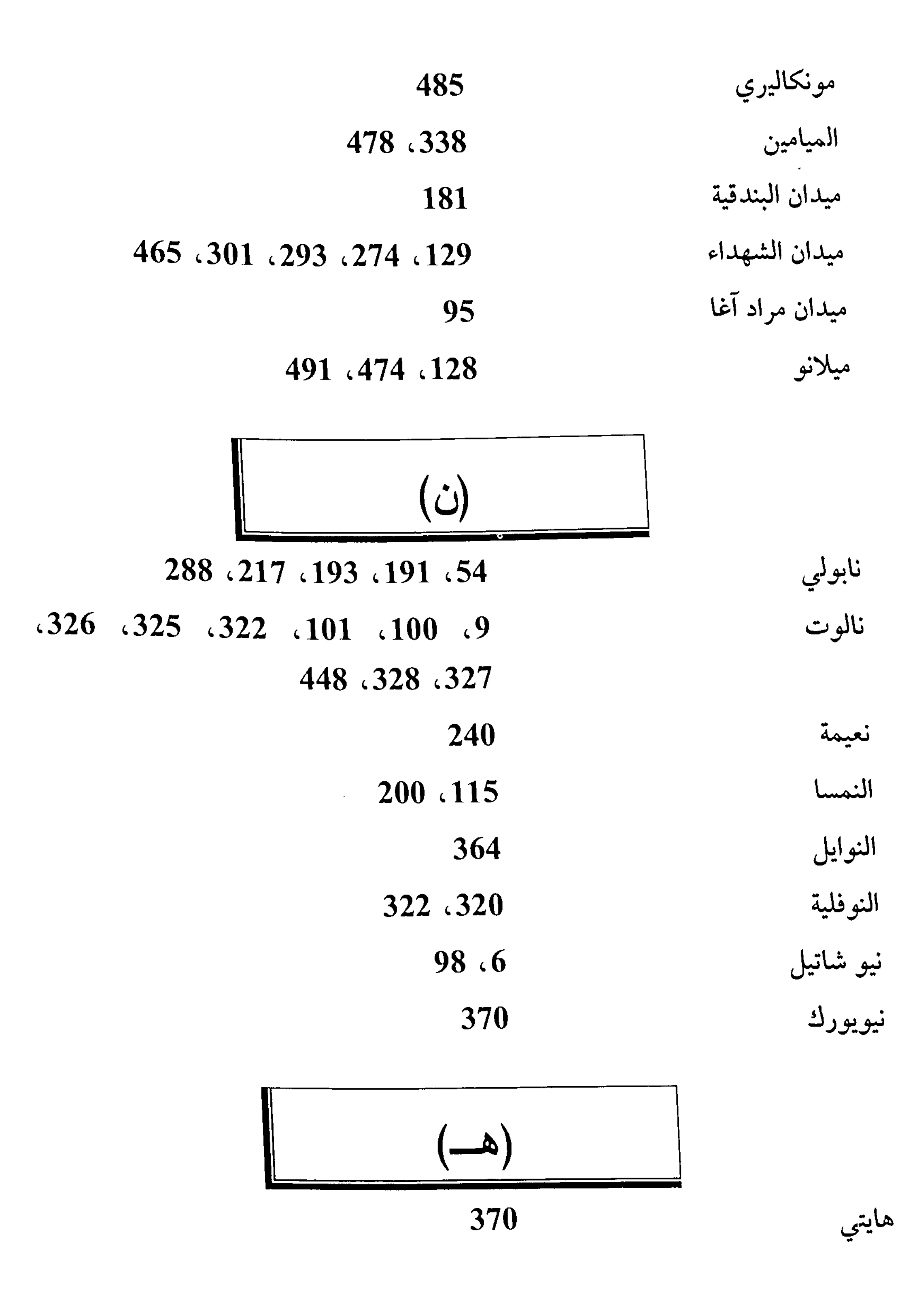
## (ق)

# (ك)



# (ل)

## (م)





## (ن)



## (هـ)

## (و)

## (ي)

# فهرس الشوارع والزنقات

## (أ)



## (ب)



## (ج)

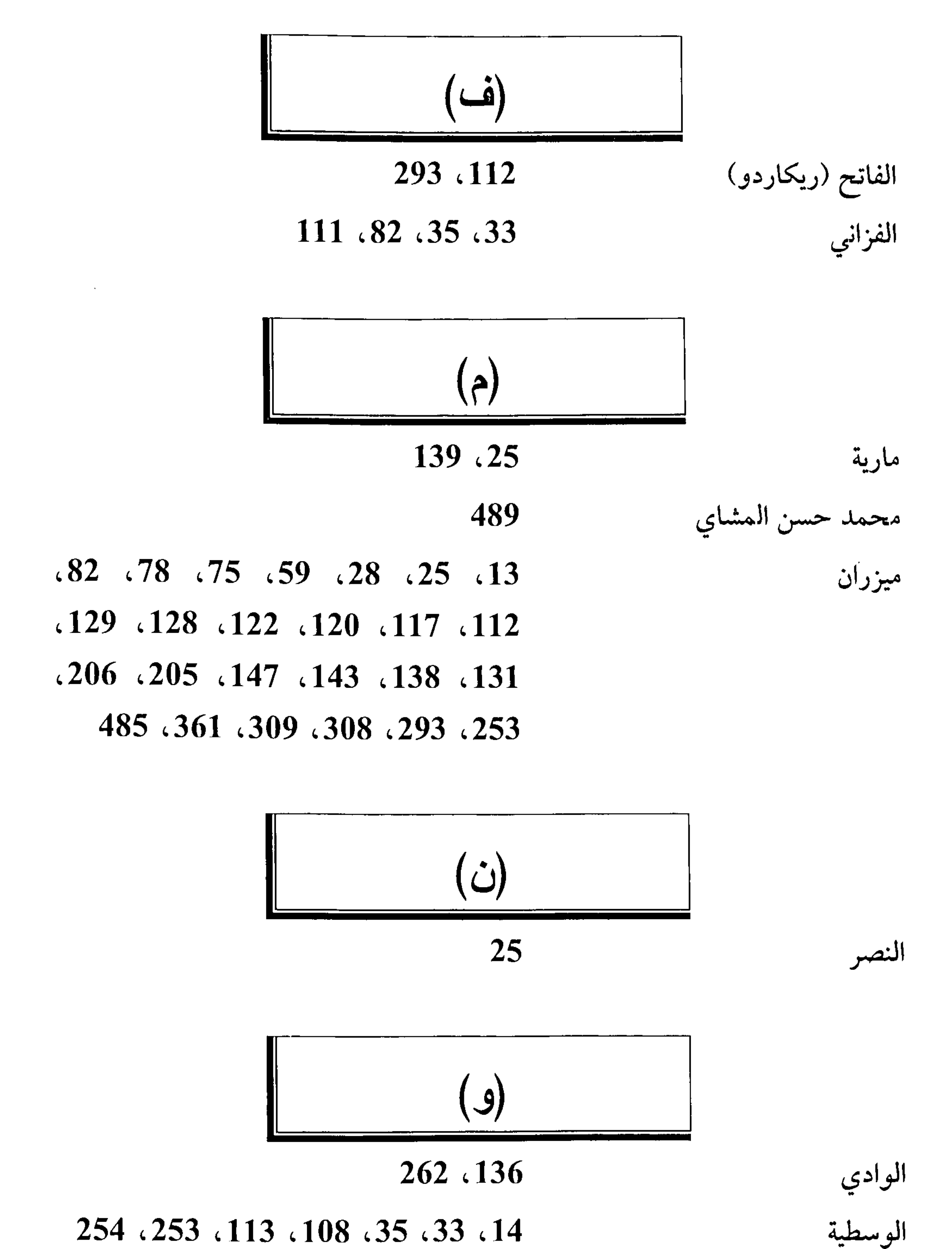
## (س)



## (ش)



## (ع)



## (ف)



## (م)



## (ن)



## (و)

# فهرس الأسواق والسواني

## (ب)



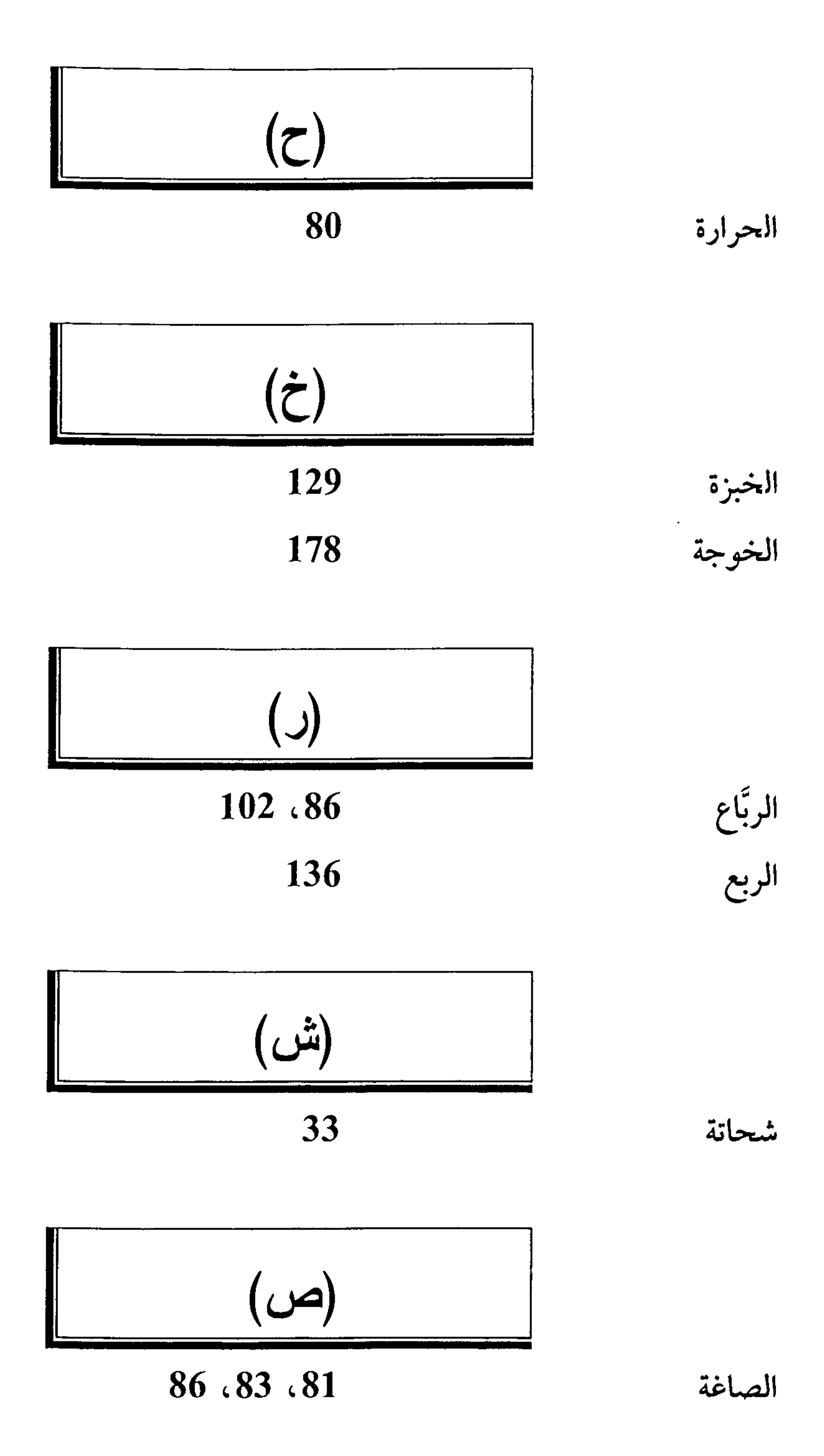
## (ت)



## (ث)



## (ج)



(ح)



(خ)



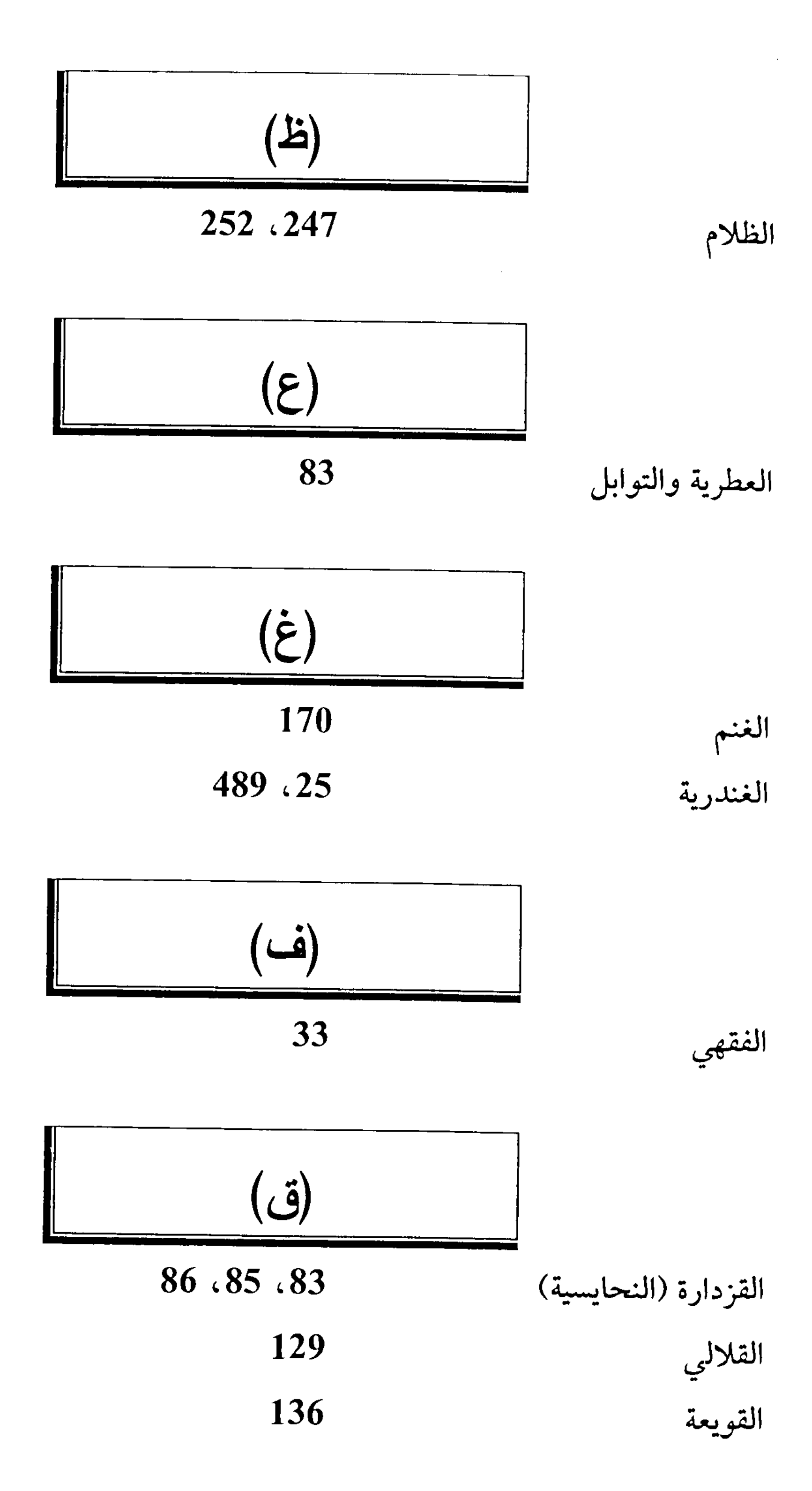
(ر)

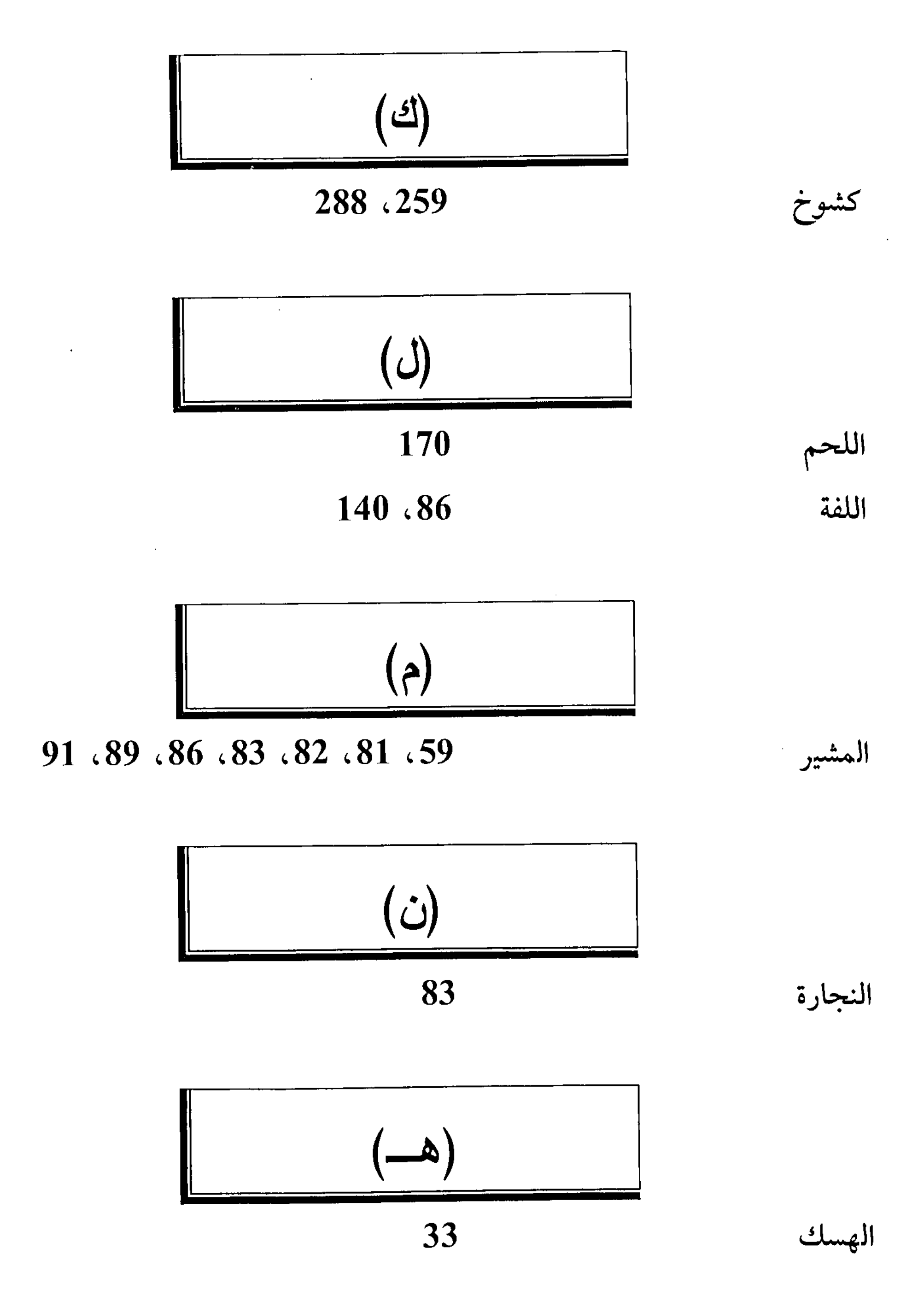


(ش)



(ص)





(ك)



(ل)



(م)



(ن)



(هـ)

# فهرس المساجد

# فهرس القبائل

## (أ)



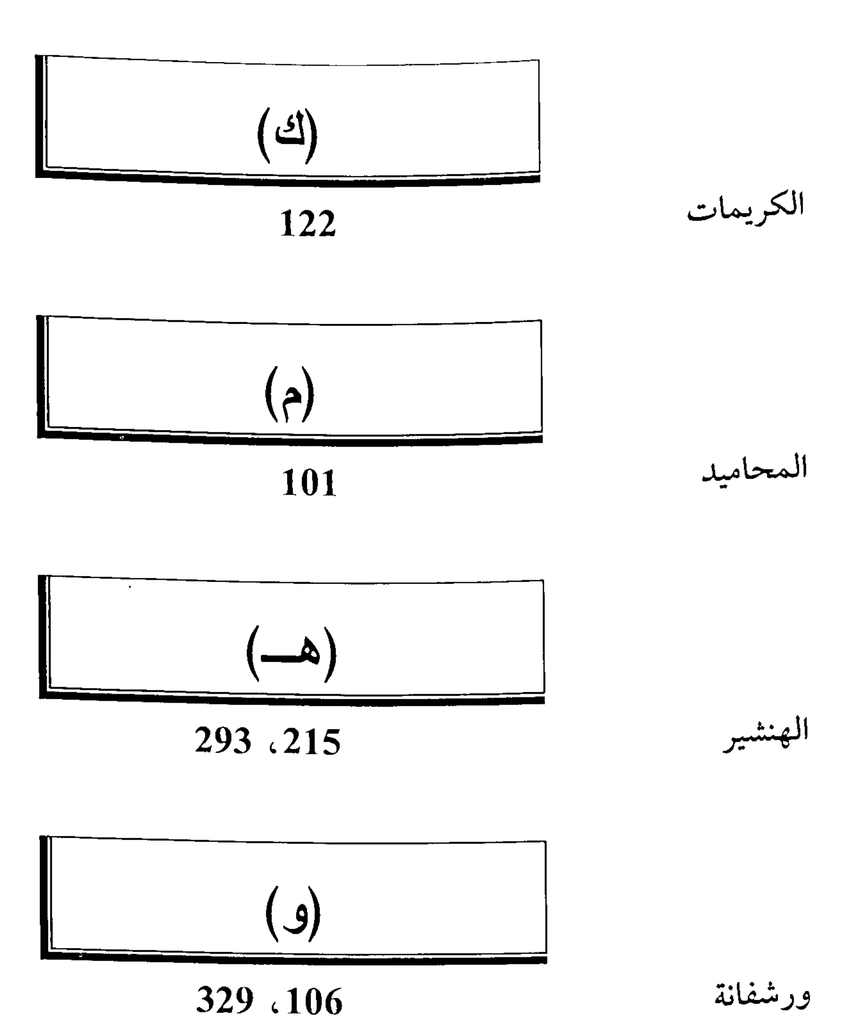
## (ب)



## (ت)



## (ج)



## (ك)



## (م)



## (هـ)



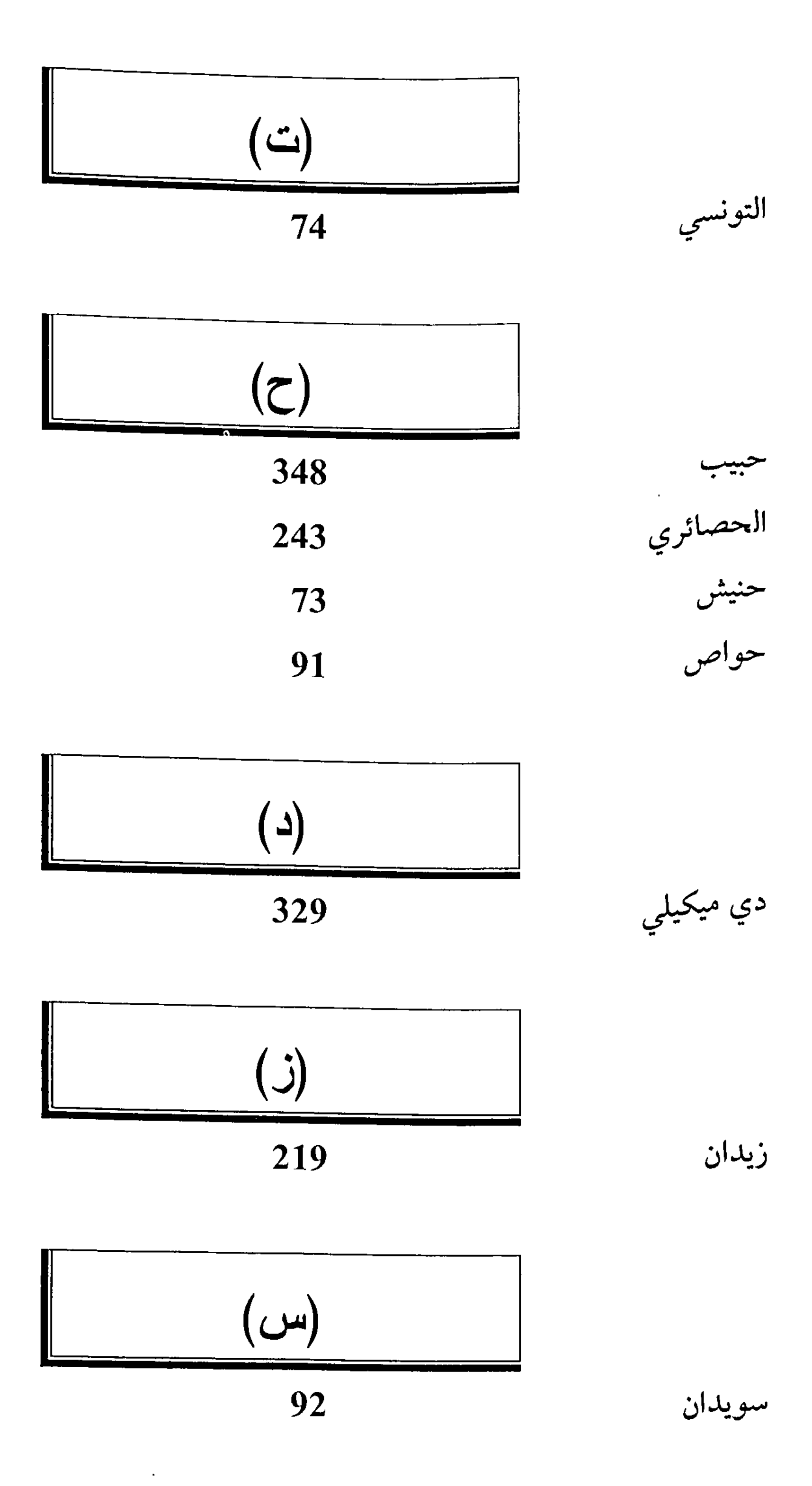
## (و)

# فهرس العائلات

## (أ)



## (ب)



(ت)



(ح)



(د)



(ز)



(س)

## (ش)



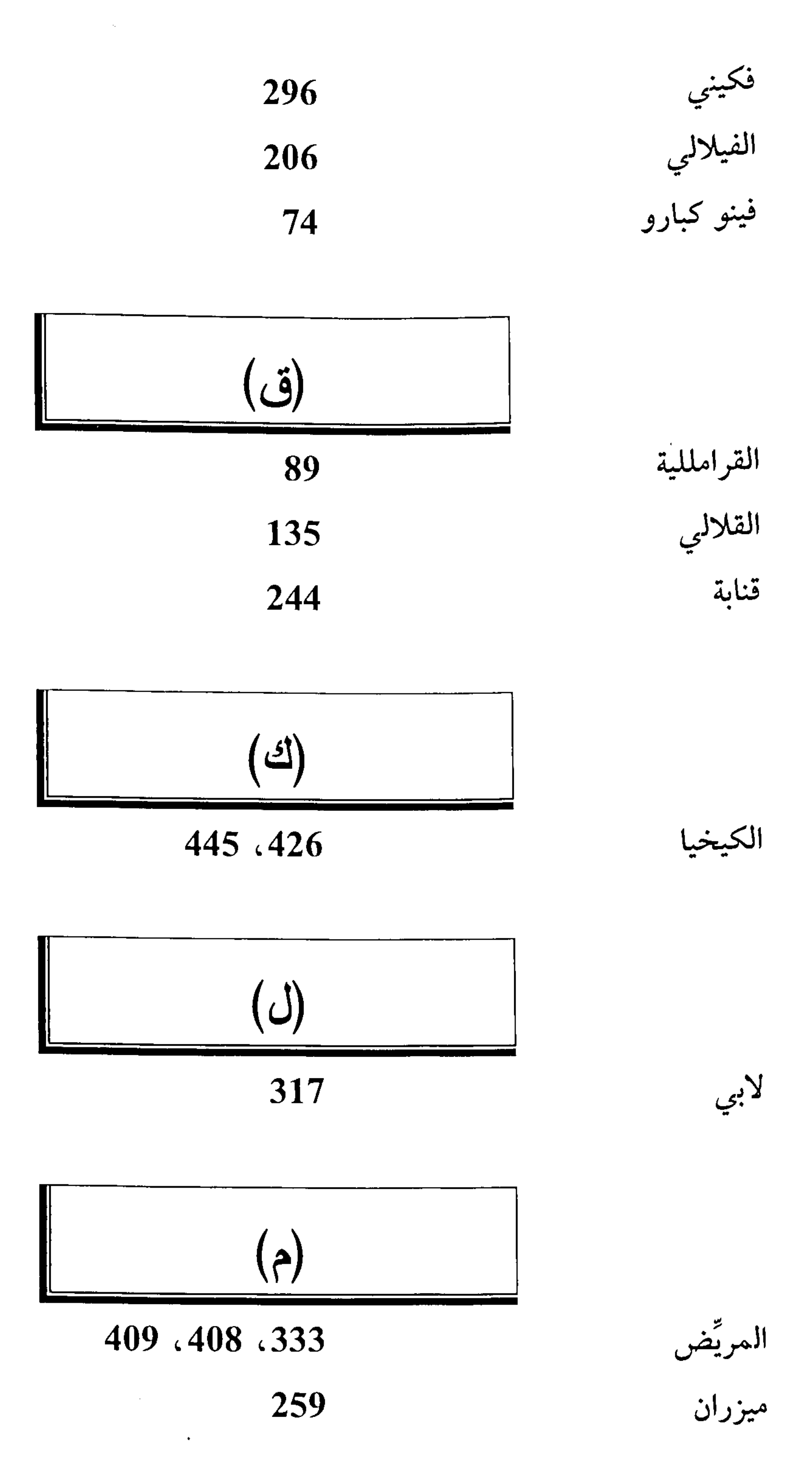
## (ض)



## (ع)



## (ف)



# فهرس المؤسسات المالية والاقتصادية

## (ب)



## (ش)

## (ص)



## (ع)



## (م)

# فهرس الأحزاب والهيئات السياسية والمؤتمرات

## (ج)



## (ح)

## (ك)



## (م)



## (هـ)

# فهرس المؤسسات الإعلامية
# والجماعات الثقافية والفكرية والعرقية

## (أ)



## (ت)

## (ك)



## (م)



## (ن)

# فهرس الحروب والمعارك

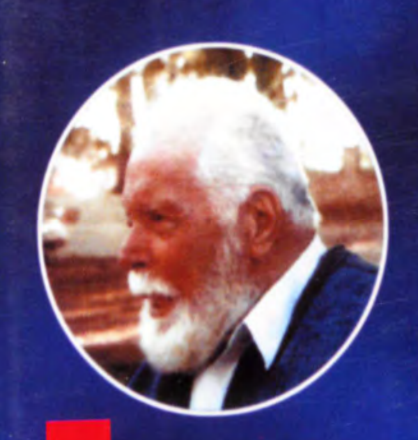
## (ح)



## (م)

# ذكريات وخواطر

## مصطفى فوزي السراج






...... على بعد أمتار من مبنى جامع
مولاي محمد الجديد يوجد بيتي الحديث
حيث أقيم وسجلت معظم هذه الذكريات..
وعلى مرمى حجر من جامع مولاي محمد القديم
ومن زاويته التي سميت محلة شارع
الزاوية باسمها كان يوجد منزل العائلة
القديم حيث ولدت، والذي زال حواليها
كما زال الجامع من الوجود.
من هنا، من دائرة مركزها الجامع
ومأذنته العريقة بدأت باسم الله مسيرة
الخمسين عاما خطوة خطوة على درب الزمن....





ISBN 9959-23-091-0



مطابع المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
سوريا - حلب - المسلمية - المنطقة الحرة